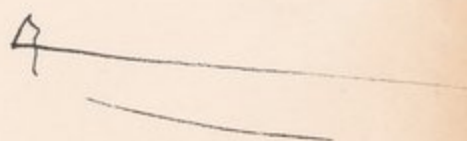


A.U.B. LIBRARY





892.7109
Hq5881ma

الدكتور
أحمد محمد راجي
المدرس بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

المِرْآةُ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

١٨ شارع كامل صدي (الفجالة)

مطبعة نهضة مصر

الفجالة . القاهرة

الالهة

إلى المرأة المصرية ممثلة في ثلاث :

• • أمى

وزوجتى

• وابنتى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه التوفيق

مقدمة

- ١ -

فكرة خايلت لي منذ درست الأدب ودرسته ، وما زالت تخايل لي ، وقد استجبت لها
بكتابين : أولهما (الحياة العربية من الشعر الجاهلي) ، وثانيهما (الغزل في العصر الجاهلي) ،
ويسعدني أن أستجيب لها بهذا الكتاب الثالث .

أما هذه الفكرة التي سيطرت على نفسي فهي أن درس الأدب لا يشوق ولا يشمر ، مالم
يندج دارسوه بقائله اندماجاً يتيح لهم أن يتعرفوا ينابيع هذا الفيض العاطفي ، وبواعثه ،
وبيئته التي استوحاها ، وأن يستمدوا من هذا الأدب ألواناً لتصوير الحياة في شتى مناحيها ،
ويبتدوا بالحياة في الكشف عما يخفي من معاني الأدب وبواعثها ومراميها ؛ لأن الأدب
والحياة يتبادلان التأثير والتأثر ، ويتقارضان الأخذ والعطاء . ففي الأدب مظاهر من عصره ،
وفي العصر ملاح من أدبه .

وقد شاء لي الحظ أن يكون الشعر الجاهلي مجال دراستي هذه ، فشعرت بأني موفق
بحدود ، لأنني أدرس هذا الشعر المتسم بالأصالة والصدق والحيوية والتجاوب مع بيئته ،
وعصره ولأنني شاركت في إبراز معالمه ، والتنويه بقيمته ، ثم لأنني تمثلت منه جوانب شتى
من حياة العرب في الجاهلية .

ولست أدعى أن هذه الأفكار قد تبلجت لى على حين فجأة ، أو تمثلت لى دفعة ، فلقد انبثق أمامى أول شعاع من الفكرة حين شرعت أستنبط من الشعر الجاهلى ما يتصل بحياة العرب فى الاجتماع والأخلاق والدين والعادات . حينئذ ازددت يقيناً بقيمة الشعر فى دراسة العصر الجاهلى ، وبوثاقة الروابط بينه وبين الحياة العربية . فلها درست الغزل فى العصر الجاهلى تفتحت لى ميادين أخرى للبحث والاستنباط ، والاعتداد بالشعر الجاهلى ، والاعتماد عليه فى تمثل الاجتماع العربى فى صورته المختلفة .

(٢)

حفزتنى هذه الدراسات إلى أن أستنير بالشعر الجاهلى فى تجلية هذه المشكلات :

١ — أردت أن أتعرف من الشعر مكانة المرأة فى الأسرة ، وفى القبيلة ، وفى المجتمع العربى ، والصور التى رسمها لها فى هذه البيئة فى السلم ، وفى الحرب ، وماذا كان لها فى الحياة العربية من أثر ؟ أكان أثرها عظيماً قوياً ، أم ضعيفاً خافئاً ، أم لم يكن لها أثر ؟ أكانت تعامل معاملة الرقيق ؟ أم كانت عليّة القدر ، ذات رأى ومكان مرموق ؟

٢ — وقصدت إلى أن أسبر غور هذا الشعر فى تصويره لحياة المرأة ، فأعرف قيمة الصور التى رسمها ، أهى صور صادقة تتفق ونظم الحياة البدوية ، والمعالم التاريخية ؟ أم هى صور تجافى نظم البادية وحقائق التاريخ الصحيح ؟

٣ — ثم أردت أن أسترفد هذا الشعر لجلاء منزلة العرب فى الحضارة القديمة — من حيث ما يتصل بمنزلة المرأة فى الأسرة أو القبيلة والمجتمع — فكثيراً ما تناقض الباحثون فى هذه المكانة ، بعضهم يسمو بها ، وبعضهم يهبط ، بعضهم يرى أن العرب كانوا قبل الإسلام فى يقظة ووعى وتطور ناهض ، فلما جاء الإسلام سار بهم إلى نهاية الشوط ، وبعضهم يذهب إلى أنهم كانوا شعباً همجياً فى الدرك الأسفل من نظمهم وعقائده وعاداته وأخلاقه ، فبزغ الإسلام عليهم بزوغ الشمس بعد ليل طويل غاسق ، فهداهم إلى الحق الذى جهلوه ، وإلى الخير الذى تنكبوه ، وفرى لهم نظماً أسرية واجتماعية لم يكن لهم بها عهد .

٤ — ومشكلة أخرى تخاليل لى أيضاً ، أريد أن أعرف مقدرة المرأة على قرص الشعر فى العصر الجاهلى ، ومنزلتها من شعراء عصرها ، وإلى أى مدى خلقت بجناحيها فى سماء هذا

الفن الرفيع؟ وهل كانت لشعرها خصائص تميزه من شعر الرجال؟ أو أن شعرها كان صورة من شعرهم؟

(٣)

١ — سلكت السبيل إلى غايى منقباً فى أشتات المراجع مخطوطة ومطبوعة ، من دواوين الشعراء ، وكتب الأدب ، والتاريخ ، والسير ، والاجتماع ، واللغة ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، والتراجم ، والمذاهب . ذلك بأنه لم يفرد للمرأة أو للأسرة أو للقبيلة دراسة خاصة أو شبيهة بالخاصة فى العصر الجاهلى . بل إن هذا العصر — من الوجهة التاريخية — ما زال يكتنفه غموض واضطراب ، ونقص فى المصادر والمراجع ، والذين كتبوا عن العرب من القدماء مثل آخيلس Aeschylus (٥٢٥ — ٤٥٦ ق . م) وهيرودوت (٤٨٠ — ٤٢٥ ق . م) وتيوفراست Theophrastus (حوالى ٣٧١ — ٢٨٧ ق . م) وديودور الصقلى Diodorsu Siculus (٤٠ ق . م) وسترابون Strabon (٦٤ ق . م — ١٩ م) ، ومن النصارى مثل أوسبيوس Ousebius (٢٦٥ — ٣٤٠ م) وزكريا (المتوفى ٥٦٨ م) وملا لا Malalas (المتوفى ٥٧٨ م) ومن المسلمين كابن هشام والطبرى والمسعودى وابن مسكويه وابن الأثير والبلاذرى واليعقوبى وابن خلدون ، هؤلاء وأولئك لم يعرضوا الحياة العامة ، ولم يدرسوا أحوال المجتمعات .

وليس هذا بعجيب ، إذ كان هذا منزع المؤرخين جميعاً ، يعنون بالملوك والقادة والوقائع والثورات والفتوح ، ولا يكادون يحفلون بالجماعات والعادات والأخلاق والنظم ، ومن البديهي أننا لا نظفر ببحث عن المرأة أفردة لها أى واحد من هؤلاء ، وبذلك حرمت المرأة الجاهلية ما نالته المرأة المسلمة من حفاوة ، إذ غنى بها كثير من المؤرخين والكتاب ، وأفرد بعضهم لها مجالا رحباً فيما كتب ، كابن حجر فى كتاب الإصابة ، وابن الأثير فى أسد الغابة ، وابن سعد فى الطبقات الكبير ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن قيم الجوزية فى أخبار النساء ، وابن طيفور فى بلاغات النساء .

نقبت فى آثار العرب ، واستخبرت ما خلفوا من شعر ، وما كتب عنهم وعن غيرهم ،

متجرداً من آراء سابقة في بعضها حيف ، وفي بعضها إنصاف ، لاتسمع القول من الألسنة الأولى وأتبصره ، وأتمثل منه الحقيقة التي يمكن أن تتمثل .

٢ — وكان الشعر ينبوع الأول الذي استقيت منه ، لأنه في الشعب العربي كالأثار المادية ، والآثار المدونة في مصر واليونان وغيرهما من الأمم التي خلفت أبنية ونقوشاً ، وخطوطاً وآثاراً وتاريخاً مدوناً ، وليس في الأرض أمة بها طرق — قوة — أولها مسكة ، ولا جيل لهم قبض ولا بسط إلا ولهم خط ، وكل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال ، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها وذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان (١) ،

٣ — ولقد يعترضنا هذا السؤال : أليس هذا ينبوع الذي نستقي منه عرضة للكدره واحتمال أخلاط من غيره ؟ بلى . وقد سبق إلى التنبيه على ذلك القدماء كابن سلام وابن هشام وأبي الفرج ، ثم كان لهذا دوى في مصر منذ ربع قرن ، ولكن التنبيه القديم والدوى الحديث يلتقيان عند هدف واحد ، هو أن قليلا من هذا الشعر منتحل أو منحول .

(١) وأرى أن هذا القليل قطرات في جدول يزخر بالماء الأصيل الصحيح المصنقى ، فهي لا تعكره ولا تغيره ، ولا تطفئ على طبعه وخصائصه ، فمن حقنا إذاً ألا نتشكك في الشعر الجاهلي كله ، لأن شأن الشعر في هذا شأن التاريخ ، كلاهما يتطرق إليه الكذب والمبالغة ، ولقد يكون التاريخ أيسر منالا للروايات المدخولة ، والآراء المنحولة ، لأنه تسجيل فرد أو أفراد ، فهو أدنى إلى أن يميل مع الهوى والعاطفة ، لذلك تختلف فيه الآراء ، وتتناقض . أما الشعر فهو تسجيل آلاف من الشعراء ، من قبائل شتى ، ومواطن عدة ، في زمن طويل ، لذلك أرى أنه أرحب مجالا لاستنباط الحقائق من سجلات متنوعة ، خلفها الشعراء الذين عبروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير قاصدين ولا كاذبين ، وتناولوا عفواً ما أهمل التاريخ من نظم الاجتماع

فلم أعتمد إلا على ما وثقت بصحته من شعر ، مهتديا بقيمة المصادر ، ومهتدياً بحاستي الفنية ، وبملاءمة الشعر للحياة البدوية الجاهلية

(ب) ثم إن الموضوع الذي أدرسه بمنجاة من النحل ومن الوضع ؛ لأنه مستمد من أبيات ذكرها الشعراء في قصائدهم عَرَضاً لا قصداً ، في مطالع القصائد أو في خلالها ، مفتخرين أو هاجين ، أو واصفين ، أو راثين ، أو مادحين ، ولم يدر بخلد واحد منهم أن يعمد إلى تصوير مقصود لحياة النساء ومنزلتهن ، وإنما جرى مع فطرته في إيراد المعاني وتصور ما يشعر به

أما الوضع فإنه يتطرق إلى ضروب آخر من الشعر ، يتطرق إلى الشعر الذي يؤازر السياسة والحزبية والعصبية ، ويتسلل إلى الشعر الذي تحلى به القصص والاسمار ، ويتعرض له الشعر الذي يناصر نزعة شعوبية ، أو يلجئ إليه التباهي بالحفظ والتكاثر بالرواية ، أو الحجاج على مسألة في اللغة أو النحو أو ما شا كل ذلك من فنون المقال .

(ح) وشيء آخر أستوثق به من هذا الشعر الذي أستقى منه ، أقصد إجماع جمهرة من الشعراء على حقيقة ما ، كحديثهم مثلاً عن عزازة الأم ، أو حماية المرأة من السبي ، أو محبة البنات وبغضة البنات ، أو سفور المرأة وحجابها ، أو ما شا كل ذلك مما يتفقون فيه جميعاً على رأى واحد ، أو ينقسمون فيه إلى فريقين . فليس من الطبيعي أن يكون هذا الشعر الذي يصور لونا من ألوان الحياة مكذوباً كله ، أو منحولاً كله ، إذ لو كان كذلك لبرز فيه التناقض والخلط والمجافاة لما تمليه البيئة بسلطانها العام .

(د) ولست أنسى أن الشعر مجال للخيال والمبالغة ، لأن طريقته في التصوير كثيراً ما تقتضى ذلك ، فهو إذاً ليس تصويراً دقيقاً للواقع .

لكننى لا أنسى أيضاً أن الخيال في هذا الشعر ضيق المجال ، لا يعدو التشبيه والاستعارة والكنائية ، ونحن في دراستنا نعرف ماذا يريد الشاعر إذا شبه أو استعار أو كنى . أما المبالغة فهي نادرة فيما خلف شعراء الجاهلية ، وهي لا تفهم على صورتها اللفظية في أى عصر من الأعصار .

(هـ) كذلك أعلم أن من خصائص الشعر الإيجاز والإدماج واللمح ، وألا يحفل بالتفصيل ، أو ينجح إلى الإطناب . لذلك استقيت أيضاً من التاريخ والحضارة والاجتماع وغيرها ، لأجل الصور ، وأكمل خطوطها ، وأوضح ألوانها ، وأفصل ما أدمج الشعر وأجمل .

٤ — على أنى فى دراسة الشعر الجاهلى — وزمانه لا يتجاوز قرنين قبل الإسلام ، ومكانه جزيرة العرب — لم أغفل حياة العرب فى مطلع الإسلام ، فاستمدت من شعر المخضرمين ما يجرى فى طلق واحد مع شعر الجاهليين ، مرجحاً أنه من نتاجهم قبل أن يسلموا ، أو من نتاجهم بعد أن أسلموا ، وقبل أن يصبغهم الدين بصبغته . وكذلك استقيت من حياة النساء المخضرمات ما يتفق وحياة الجاهليات .

وأرأى على حق فى هذا ؛ لأن حياة الشعراء وغيرهم فى مشرق الإسلام امتداد لحياتهم قبل إشرافه ، إذ لم يكن الإسلام قد رست قواعده ، ولم تكن قد كملت تعاليمه ، ولم تكن النفوس كلها قد أشربته إشراباً ينسخ حياتها الأولى .

وهل من المعقول أن ينقلب العرب بين عشية وضحاها من حياة إلى حياة ؟ وهل من الطبيعى أن ينسى الشاعر على إثر إسلامه ما استقر فى نفسه من عادات وأخلاق وأوضاع ؟

إنما الطبيعى أن يمضى زمن على العقيدة الجديدة لتظهر آثارها فى قصائد الشعراء ، وفى أخلاق الناس .

٥ — ورأيت أن تجلية مكانة المرأة فى الجاهلية لا تتضح إلا بموازات بينها وبين معاصراتها والسوابق لها من نساء العالم القديم ، فى الأمم والحضارات التى اتصل العرب بها ؛ لنعلم قيمة المرأة العربية بالقياس إلى هؤلاء .

كذلك قايست المرأة الجاهلية بالمسلمة ، لاتبين قيمة المرأة قبل الإسلام بالنسبة إلى قيمتها بعد الإسلام ، إذ أستبين ما أحدث الإسلام فى النظم الجاهلية المتصلة بالمرأة من تجديد أو تأييد ، ومن تغيير أو إبطال وتفنيد ، ولأخلص من هذه المقايسة إلى تمثل مكانتها فى الجاهلية تمثلاً صحيحاً مستمداً من عصرها ، ومستمداً من المشابهة بينها وبين أختها المسلمة فيما بعد .

وقد بدأت ببحث تمهيدى جلوت فيه صلوات العرب بغيرهم من المعاصرين لهم ،
ووضحت مكانة المرأة عندهم ، لأوازن بينها وبين المرأة العربية موازنة جزئية فى غضون
البحث ، ثم موازنة عامة فى مكان خاص .

فليس من شك اليوم فى أن عزلة العرب قبل الإسلام ، وجهلهم بالعالم الخارجى ،
وجهالة العالم الخارجى بهم أو أنهم لم يؤثروا فيه ، ولم يتأثروا به ، ليس من شك فى أن هذه
دعوى باطلة . وسرى وسائل اتصالهم بالأمم التى عاصرتهم ، ومظاهر هذا الاتصال ، وبعض
معالم التأثير والتأثر ، وخاصة ما يتصل بالمعتقدات والنظم الأسرية .

ثم قسمت الكتاب قسمين : القسم الأول (المرأة فى الحياة الاجتماعية والسياسية)
وجزأته إلى بابين : تحدثت فى الباب الأول عن المرأة فى الحياة الأسرية : أمأ ، وزوجة ،
وبنتاً ، وأختاً ، وقريبة ، وتحدثت عن حقوقها المالية .

وفى الباب الثانى درست أحوال المرأة فى الحياة العامة : درست أخلاقها ، وسفورها
وحجابها ، وصناعاتها وأعمالها ، وثقافتها ، وعملها فى الحرب ، وتحدثت عن السبايا والإماء .
أما القسم الثانى (المرأة فى الحياة الفنية) فقد عقدت له ثلاثة أبواب : تحدثت فى الباب
الأول عن المرأة المغنية ، وفى الباب الثانى عن المرأة راوية للشعر وناقدة ، وفى الباب الثالث
عن المرأة الشاعرة .

وبعد

فالموضوع — فيما أعلم — غير مطروق بهذا النهج ، والمراجع التى ترفد دارسه من
قريب أو من بعيد ليست معينة محددة ، والمعلوم منها غير مفهرس ، وغير مرتب ، وكثير
منها مخطوط ، بعضه بالى الورق ، مغلق الخط . لهذا كنت أستعرض كل ما يمكن أن تصل
إليه يدي من مراجع ومظان ، لأفتش بها عن فكرة أو عن شعر .

وكم من كتب سكبت نور عيني على صفحاتها لأجتنى منها ثمرة لا تكافئ بعض ما بذلت،
وكم من كتب عبرتها من المنبع إلى المصب ، أجوس خلالها ، وأجوب ما بين ضفافها في
يقظة وأيد ، لكن لم يعلق منها بشباك صيد .

لكن المشقات التي كانت تعترضني في الإعداد ، والصعوبات التي احتملتها في التنقيب
والتنقيب ، كل هذه لا مندوحة عنها لمن يتصدى للبحث ، فيصبر ويصابر ، ويدأب ويثابر ،
ليخط في سجل المعرفة سطرأ ، يلبي به رغبة ، أو يقضى به حقاً ، أو ينال به ذكراً

أحمد محمد الحوفي

١٣٧٣

رجب

القاهرة

١٩٥٤

مارس

تمهيد

صلوات القرب بالأمم والمحضرات ومكانة المرأة فيها

لم يكن العرب في العصر الجاهلي — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — يعيشون بحزيرتهم في عزلة عن العالم ، ونجوة عن الشعوب واضطراعتها ، ونبوة عن تيارات الحضارات ، وإنما اتصل العرب بالأمم المجاورة ، وغير المجاورة ، وشاركوا في الصراع السياسي الدائر بين الأمم المعاصرة بقدر اتصالهم به واتصالهم بالمضطربين ، وعرفوا العالم القديم ، وعرفهم ، بل إن بلادهم على جنبها ، ووعورة المسالك إليها ، كانت مهاجر كثير من الشعوب ، « فقد نزح إليها من الشام ومصر والعراق فارون من ظلم أو ضغط ، أو ممتنعون على الحكومات لسبب ما ، وأكثر النازحين عدداً اليهود ، لكثرة ما قاسوا الاضطهاد منذ خروجهم من مصر ، إلى أن اضطهدهم الروم في عهد طيطس وغيره . وهاجر إليها كثير من اليونان والرومان والفرس والهنود والحبش »^(١) . لذلك لم يكن سكان جزيرة العرب كلهم عرباً ، بل كان تختلط بالعرب هؤلاء النازحون ، وغيرهم من الفاتحين والأرقاء والموالي والحلفاء من أمم وأديان شتى ، فيهم الفارسي والهندي والروماني والكلداني ، وفيهم اليهودي والنصراني ، وكان هؤلاء يتوالدون ، وتختلط ذراتهم بالعرب ، ويضيع نسبهم ، كالكلدان والسريان ، وبعضهم كان يحالف العرب وينتمي إليهم كاليهود والنصارى ، وآخرون كانوا ينخرطون في عداد العبيد ويحملون ألقاب سادتهم كالحبش والفرس والهنود ، فهم جميعاً إما عرب وإما مستعربون ، إلا بعض اليهود وبعض النصارى من الروم ، وبعض الفرس الذين يعرفون بالآبناء^(٢) .

وكانت بلاد الشام والعراق أيضاً حافلة بأشتات من الأمم ، فقد ظهر الإسلام ، وبها بقايا من الآراميين الأصليين من سريان ويهود وسامريين ، وبها أنباط ، وعرب من المناذرة والغساسنة وإياد وربيعة ، وأشتات من أمم أخرى كالجرارمة والجرامقة ، وأخلاط من مولدى اليونان والرومان والفرس والآكراد ، وبها أديان شتى^(٣) . وطبيعى أن يكن لهذا الاتصال أثره في الحياة العربية ، فإن من الحقائق الثابتة اليوم أن علاقات الأمم من

(١) التمدن الاسلامى ١٧/٥

(٢) الأغاني ٤٣/١٦ .

أكبر العوامل في رقيها ، وليس بمستظاع أن نوضح تقدم الشعوب أو تأخرها اعتماداً على المميزات الجنسية ، والمعتقدات الدينية ، وتأثير البيئة في السكان فحسب ، بل بموقعها الجغرافي أيضاً الذي يَسِّر لها العلائق بشعوب أخرى في عصور مختلفة (١) .

وسأفصل في الفقرات التالية أسباب الاتصال بين العرب والأمم التي عاصرتهم ، والحضارات التي أظَلَّت العالم في عهدهم ، وأبين بعض السمات الدالة على تأثير العرب بغيرهم ، وأتعرّف مكانة المرأة في نظر هذه الأمم والحضارات ، ثم أجعل ذلك أساساً للموازنة بين المرأة العربية وغيرها .

لقد نيفت قبائلهم على العشرين ، وزادت آطامهم وآطام من نزل معهم من العرب على السبعين ^(١) .

وكانت معهم بطون من العرب ، منهم بنوا الحرمان — حى من الين — وبنو مرثد — حى من بلى — وبنو نيف — من بلى — وبنو معاوية — من بنى سليم — وبنو الشظية — من غسان ^(٢) ، وبنو مرید (مزيد) — من بلى — وبنو الجذمي (الجدماء) — من الين — ^(٣) .

ثم بعد سيل العرم وفد إليهم الأوس والخزرج ، واستوطنوا المدينة ، وأقام بعضهم بين القرى اليهودية ، وأقام آخرون مع اليهود فى قراهم ، ونزل بعضهم وحده لا مع اليهود ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى اليهود ^(٤) .

وقضى الأوس والخزرج رَدْحاً من الزمن فى ضيق ، لأن الخيرات كانت فى قبضة اليهود ، ثم تحالفوا وتعاملوا ، وظلوا على ذلك زمناً طويلاً ^(٥) ، حتى قدم أبو جُبَيْلَةَ الغساني إلى يثرب فآزر الأوس والخزرج ، وأقنى كثيراً من اليهود ، فقالت سارة القرظية فى رثائهم :

بنى حُرُضٍ تُعَفِّيهَا الرِّيحُ	بنفسى أمة لم تُغْنِ شيئاً
سيوف الخزرجية والرماح	كهول من قريظة أتلقتها
يمر لأهلها الماء الفراح	رزتنا والرزية ذات ثقل
هنالك دونهم جأوى رَدَّاح ^(٦)	ولو أربوا بأمرهم لجالت

وقد أشاد الشعراء بأبى جبيلة ، وافتخروا به ^(٧) ، وكان أبو جبيلة من الخزرج الذين نزحوا إلى سوريا ، واندمج فى الغساسنة ، فمن الطبيعى أن يستجيب لنصرة قومه ^(٨) .

(١) خلاصة الوفا ٧٦

(٢) الأغاني ٩٥/١٩

(٣) خلاصة الوفا ٨٢

(٤) الأغاني ٩٦/٧ وخلاصة الوفا ٧٩

(٥) الأغاني ٩٦/١٩ والأغاني ٩٦/٧

(٦) الأغاني ٩٦/١٩ والبده والتاريخ للمقدسى ج ٣ والروض الأنف ٢٤/٢ ومعجم البلدان

٤٢٨/٧ وخلاصة الوفا ٧٩ — ٨٤

(٧) الأغاني ٩٦/١٩ و ٩٧

ثم نكل مالك بن العجلان مرة أخرى باليهود ، فنقموا منه ، ولعنوه في بيعهم وكنائسهم ، فقال في ذلك :

نَحَانِي الْيَهُودَ بِتَلْعَانِهَا نَحَانِي الْحَمِيرَ بِأَبْوَالِهَا
فَمَاذَا عَلَى بَأْنٍ يَلْعَنُوا وَتَأْتِي الْمَنَايَا بِإِذْلَالِهَا

ولكنهم بعد ذلك ذلوا وتخوفوا بطش العرب ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون ، بل يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين يعيش بين أظهرهم ، لأن كل قوم من يهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم^(١) .

ويذهب المؤرخ جريرتز Greatz إلى أن بطون الأوس والخزرج لم تكشف اليهود بالعداء إلا بعد النسكبة التي حلت باليهود في اليمن ، لأنه لا يتصور أن يضطهد اليهود في الحجاز في العصر الذي كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ، ويتعصبون لدينهم ، ويناهضون كل من يعارضهم أو يعتدي عليهم^(٢) . وأضيف إلى هذا سببا آخر هو أن الأوس والخزرج قد تكاثروا ، ونبتت منهم فروع عدة ، فنتطلعوا إلى تملك الأرض التي يملكها اليهود ، ونفسوا عليهم أن يستأثروا بخيرات يثرب وغيرها ، وأن يكون لهم السلطان المالي على العرب ، فانتهزوا سقوط دولة اليهود في اليمن فرصة يتحللون فيها من نفوذ يهود الحجاز ، فكان لهم ما أرادوا .

وإذا فلم يكن بين العرب واليهود حائل يمنع الاختلاط ، « فإن قبائل عربية يمنية قد شرعت تنتشر في الحجاز بين الجاليات اليهودية »^(٣) . ولقد كان يدعو إلى الاتصال أيضاً أن اليهود أهل مهارة في الصناعة ، وبراعة في تسمير المال ، فلم يكن للعرب بدء من أن يعاملوهم ، فمثلا كان بنو قينقاع صاغة بالمدينة^(٤) ، وكانت لهم سوق عظيمة ذات ضجيج ، حتى لقد نفرت من ضجعتها ناقة النابغة الذبياني^(٥) ، وكان آل أبي الحقيق مهرة في صناعة الحلج بخير ، والعرب يقصدونهم ليشتروا لنسائهم من حلجهم^(٦) ، ثم إن تجار العرب كانوا يفدون إلى

(١) الأغاني ١٩/٩٧

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٦١ و Greatz V. 3 P. 91

(٤) المغازي للواقدي ١٨٠

(٣) De Perceval. P. 646

(٦) المغازي ٢٧٧

(٥) الأغاني ٢١/٦٢

الأسواق اليهودية في شمالي الحجاز ليبثعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم ، وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم في أسواق العرب . وكان العرب يملكون بمسبعمراتهم على طريق القوافل بين الحجاز واليمن ، وبين الحجاز والشام ، « فينتج من التعاون الاقتصادي ، والاختلاط الاجتماعي تبادل في الآراء ، وجدال في الديانات » (١) .

على أن الاختلاط كان يتخذ مظهراً أقوى في تحالف بعض العرب مع اليهود ضد إخوانهم العرب ، فالأوس تحالف قريظة ضد الخزرج ، والنبيت تذهب إلى خيبر تحتمى بيهودها ، فتغيرها الخزرج وتفتخر عليها (٢) ، وبنو النضير يحالفون بني عامر (٣) ، وبنو قينقاع حلفاء لعبادة بن الصامت ولعبد الله بن أبي (٤) ، وأهل خيبر حلفاء لغطفان (٥) ، ويهود وادي القرى وما والاها حلفاء لقبائل سعد هذيم من قضاة ، يمنعونهم من العرب ، وهم الذين حوهم من غزو النعمان بن الحارث الغساني ، وظلوا حماهم إلى أن أشرق الإسلام (٦) .

وكان العرب حراساً على الوفاء لليهود بحلفهم ، حتى في بأساء اليهود ومحنهم ، فقد وجد الرسول عليه الصلاة والسلام على بني قريظة بعد غزوة أحد ، فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه ، وسألوا حلفاءهم من الأوس أن يشفعوا في إطلاقهم ، فتواثبت الأوس ، وقالوا : يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت — كان الرسول قد حاصر بني قينقاع حلفاء الخزرج ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهمهم له (٧) — . ولم يقتصر الوفاء على الشفاعة والرجاء ، بل تعدى إلى التناصر ، ذلك بأن أهل خيبر لما بلغهم أن النبي يتجهز ليسير إليهم بعثوا إلى حلفائهم أسد وغطفان فأتوهم (٨) .

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٧٤

(٢) المغازي ٣٥٤

(٣) خلاصة الوفا ٨٩

(٤) المغازي ١٧٩ — ١٨٠ والتنبية والإشراف للمسعودي ٢٠٦

(٥) معجم ما استعجم للبكري ٥٢٣/٢

(٦) معجم البلدان ٧٤/٧ ومعجم ما استعجم ٤٣/١

(٧) سيرة ابن هشام ٣/٢٠٠ و ٤٢٨/٢

(٨) المغازي ٣٨٩

ويظهر أن بعض العرب كانوا يحبون اليهود ، ويشاركونهم في آلامهم ، فإنه لما أحرق النبي نخل بنى النضير وقطعه قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

لعزَّ على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

فأجابه حسان بن ثابت بقوله :

أدام الله ذلَّكم حريقاً وضُرمَ في طوائفها السعير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه فهم عمى عن التوراة بُور^(١)

اليهود باليمن وما جاورها

منذ عهد بعيد كانت لليهود صلة باليمن ، فقد كان لسبأ صيت تجارى ذائع عند اليهود ، وكانت قوافل سبأ تفد إلى أسواق اليهود والكنعانيين^(٢) ، وكان تجار اليهود يرحلون إلى جنوب جزيرة العرب^(٣) ، وقصة سليمان ومملكة سبأ ثابتة بنص القرآن الكريم والتوراة^(٤).

وقد أثبت العالم جلازر Glaser أن اليهود كانوا في اليمن وحضرموت منذ عهد بعيد قبل الاسلام ، وهم الذين مهدوا لدينهم هناك ، ثم ظهرت أسباب عند ملك أو ملوك حببت إليهم اليهودية^(٥).

على أن اليهودية لم تنتشر في اليمن إلا بعد الغزو الحبشى سنة ٣٤٠ م إذ فر ملوك حمير إلى الحجاز ، وقضوا به خمساً وثلاثين سنة ، ثم عاد مالك كرب يوهامين في جيش إلى اليمن ليطرده الحبش ، وكان قددان باليهودية ليقاوم بها المسيحية دين المستعمرين لبلاده^(٦) ، ولم يمض إلا زمن قصير حتى كان تبع الآخر — تبان أسعد أبو كرب وهو حسان تبع —

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٠

(٢) سفر اشعيا اصحاح ٤٣ آية ٣ واصحاح ٤٥ آية ١٤ وسفر حزقيال اصحاح ٢٣ آية ٤٢

(٣) سفر الملوك الأول اصحاح ١٠ آية ١١ و ٢٢

(٤) سورة النمل وسفر الملوك الأول ١٠ : ٢ - ١١

(٥) تاريخ اليهود في بلاد العرب . وافنسون ٣٥ و ٧ - و ٢٠

The Back ground of Islam . P. 132 Pheiby.

(٦)

قد تعلم اليهودية ، وعاد إلى اليمن فنشرها ^(١) .

وقد ذهب المستشرق بروكك Brocock إلى أن دولة حمير تهودت في القرن الأول قبل الميلاد ، والعالم سلفستردى ساسى Silvester . De Sacy إلى أن ظهور اليهودية في اليمن لم يسبق القرن الثاني بعد الميلاد ^(٢) .

ولكن ذلك مردود ، لأنه كما يقول المؤرخ اليهودى شيفر : ليس من المعقول أن تكون دولة حمير يهودية في القرن الثاني ولا يذكرها التلمود ، إذ أنه ألف بعد ذلك ، وتم في القرن الرابع الميلادى ^(٣) . ولا شك في أن اليمن عرفت اليهودية في القرن الثاني بعد الميلاد ^(٤) ، ولكن اليهودية لم تصر ديناً رسمياً إلا بعد ذلك . وقد أثبت العالم بيرون Peron أن دولة حمير لم تعتنق اليهودية رسمياً إلا في القرن الخامس الميلادى ، ونقض ما يرجع بتهود ملوك حمير إلى أقدم من هذا القرن ^(٥) .

ويتفق معه في هذا رأى المؤرخ الثقة Grayzel ، ويذكر أن ذا نواس تهود هو وشعبه في أوائل القرن السادس ، وأنه انتقم من المسيحيين ثأراً لليهود المضطهدين في الدولة الرومانية الشرقية ، فبعث امبراطور الروم ملك الحبشة ليغزو اليمن ^(٦) .

على أن نفوذ الدولة اليهودية الحميرية تجاوز اليمن إلى الشمال ^(٧) ، ودان بها كثير من الجنوب ، كبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكندة ^(٨) . وكان بنجران يهود دفعوا الجزية

(١) الكامل لابن الأثير ١٤٦/١ والعبر لابن خلدون ٥٣/٢ و—يرة ابن هشام ١٤/١ — ٢٤ والتنبية والاشراف ١٧٢ وتاريخ يعقوبى ٢٩٨/١

(٢) Memoires sur divers. evenement. de l'Histoire des Arabes avant Mahmet.

(٣) Journal Asiatique 1838 Novembre. p. 358

(٤) The Jews of Asia. P. 164 Mendelssohn

(٥) Journal Asiatipue 1838 Novembre P. 358

(٦) A History of the Jews. P. 244. Grayzel.

(٧) De Perseval. 1. P. 654

(٨) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأهم اصاعد ٤٣ والأعلاق النفيسة ٢١٧/٧ وبلوغ الأرب

للنبي عليه الصلاة والسلام (١) ، وكان بالبحرين يهود دفعوا الجزية أيضا (٢) ، وكان بها يهود صالحوا على الجزية العلاء بن عبد الله الحضرمي مبعوث النبي إليهم في السنة الثامنة من الهجرة (٣) ، وفي أماكن متفرقة من اليمن أقام يهود على دينهم ودفعوا الجزية لعمال رسول الله (٤) .

وليس أدل على صولة اليهودية في اليمن من أن الملك اليهودي ذا نواس كان متعصبا لها جادا في نشرها ، يعامل المسيحيين بما تعامل به الدولة الرومانية اليهود (٥) .

ثم إن اليهودية وصلت إلى الحيرة ، فقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة زوجات كثيرات من العرب والفرس واليهود ، وكانت المتجردة اليهودية آثر نساءه عنده ؛ لجمالها وحسن تبعلها ، وهي التي ذكرها النابغة في شعره (٦) .

أثر اليهود في العرب

١ — من المتعذر أن نضع حدوداً فاصلة بين اليهود والعرب يميز الأخلاق والنظم والعادات . ذلك بأن بني إسرائيل نتاج الصحراء ، ولم تنقطع صلتهم بالصحراء في عصور حضارتهم ، والمميزات الصحراوية بارزة في لغتهم وخيالهم ، لهذا كان السكتانيون والمصريون والفلسطينيون يسمونهم بالعبريين ، لعلاقتهم بالبادية ، ولتمييزهم من أهل الحضارة (٧) .

وأولئك اليهود الذين سكنوا بلاد العرب كانوا مطبوعين بالطابع البدوي من قبل ، ثم عاشوا في البادية ثانية ، وخالطوا العرب كما سبق ، فتأثروا بأخلاقهم ، وبيع بعض عاداتهم ، وجروا

(٢) فتوح البلدان ٨٦

(١) فتوح البلدان ٧٥

(٤) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٩

(٣) فتوح البلدان ٨٥

(٥) سيرة ابن هشام ٣٥/١ وتاريخ الطبري ١٠٥/٢ و ١٠٦ و تاريخ ابن خلدون ٥٩/٢ وتفسير

الطبري ٨٤/٣٠ — ٨٦ والنيسابوري ٦١/٣٠ — ٦٢ على هامش الطبري ومعجم البلدان ٢٦٢/٧ والكمال لابن الأثير ١٢٨/١ وبين الحبشة والعرب لعبد الحميد عابدين ٥٢ — ٥٤ و

A History of the Jews. P. 244 Grayzel.

(٦) كتاب حرب بني شيدان مع كسرى أنو شروان ٦٥

(٧) تاريخ اللغات السامية. ولفنسون ٧٨ — ٨٠ واليهود في تاريخ الحضارة ٤٣ لودفيج و

Israel From its Begining. pp. 190—191. A dolphe lods.

على كثير من نظمهم . « ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم إقليماً تأثر فيه اليهود بأخلاق أبنائه وعاداتهم ونظمهم إلى هذا الحد سوى إقليم الجزيرة العربية »^(١) . حتى لقد أنستهم البيئة ما ورثوا من روحانية ، وأخضعتهم للعقلية البدوية^(٢) ، ولم يختلفوا عن عرب الصحراء إلا في مظاهر سطحية^(٣) . لهذا أنكر يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي أن في الجزيرة العربية يهوداً ، لأنهم لم يتمسكوا بالدين ، ولم يخضعوا لقوانين التهود^(٤) .

وكذلك كان حالهم من الوجهة اللغوية ، فقد اصطنعوا اللغة العربية لغة أدبية لهم ، وكان فيهم شعراء نظموا الشعر في الموضوعات التي مارسها العرب ، ولا يختلف شعرهم عن الشعر العربي وزناً وقافية وتصويراً وخيلاً ومعنى ، كالسمؤل وأوس بن دقن ، وكعب بن الأشرف ، والربيع بن أبي الحقيق ، وشعبة بن غريز ، وشريح بن عمران ، وأبي قيس بن رفاع ، وأبي الذئال . ودرهم بن يزيد^(٥) ، وقد أجاز الربيع أبياتاً للنبغة فأعجب ببديته وقال له : أنت ياربيع أشعر الناس^(٦) .

٢ — وقد عجزت اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية . ولعل مرد ذلك إلى مشقة أحكامها ، حتى لقد قال أحد فلاسفتهم يهودا فيلون (٣٠ ق م — ٥٠ م) إن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، وذنهم عند الناس أنهم يأخذون أنفسهم بالفرائض الصارمة ، والصرامة ثقيلة على الطباع^(٧) ، ومن هذه الصرامة عند طائفة الآسين أو الآسينيين تحريم الرق ، واعتبار التجارة عملاً خبيثاً ، وأخبت منه حمل السلاح للقتال ، وازدراء المادة ، لأنها مصدر الشرور^(٨) . ولقد يكون السبب أيضاً أن اليهود لم يتحمسوا لنشر دينهم^(٩) ، وليس دينهم تبشيراً يحد أتباعه فرضاً عليهم أن ينشروه ويهدوا الكفار ، وإنما هو والبرهية والزرادشتية دين غير تبشيري ، أما التبشيري فالبوذية والمسيحية والإسلام^(١٠) .

- (١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٢٢ وافنسون
(٢) المرجع السابق ١٢
(٣) اليهود في تاريخ الحضارة لودنيج ٣٠ لودنيج (٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب ١٣ وافنسون
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام بتحقيق محمود شاكر ٢٣٥ - ٢٤٧ والوحشيات لأبي تمام ٩١ مخطوط والأغاني .
(٦) الأغاني ٦٢/٢١
(٧) عبقرية المسيح ٦٧ العقاد .
(٨) عبقرية المسيح ٢٧
(٩) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٧٢ وافنسون .
(١٠) الدعوة إلى الإسلام ١٧ توماس أرنولد ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنجراوى ، وقد أعجب أرنولد بهذا التقسيم الذي قلله عن Max Müller

على أن اليهودية تطورت فصارت تعتبر الناموس التلمودى وعقائده أساساً لا محيد عنه لمن يرغب فى اليهود ، والذين دانوا بالتوراة وحدها لم يقبل تهودهم ، وربما كان هذا سبباً فى انصراف اليونان والسرمان إلى النصرانية^(١) . ويزيد اليهود عسراً أن اليهود كانوا فى عصر ميلاد المسيح فريقين ، أحدهما يتبع الحكيم شامى وهم متخرجون يردون الراغبين فى اليهودية من غير اليهود ، والآخر لا يتخرج كما يتخرج هؤلاء^(٢) .

وبعد فقد كان الصراع عنيفاً بين النصرانية واليهودية فى الحجاز ، وفى اليمن ، ولم يقل من غربه إلا نزاع الفرس والرومان ، وكان من المنتظر أن تنتشر اليهودية والمسيحية فى بلاد العرب أكثر مما انتهت عنده ، ولكن الإسلام جاء فغلبهما جميعاً^(٣) .

٣ — لكن هذا لم يمنع من أن يتهود بعض عرب الحجاز^(٤) ، فكان حول مكة قبائل عربية متهودة ، هى بطون كنانة وبنى الحارث بن كعب وبنى كندة^(٥) ، وتهود قوم من غسان ومن جذام^(٦) ، وهاد بنو حشنة بن عكرمة من بلى بقياء^(٧) ، وهاد بعض الأوس والخزرج لما جاؤوا اليهود^(٨) .

والذين لم يتهودوا كانوا يتصلون باليهود ، ويتأثرون بهم ، فقيس بن الخثيم يتغزل فى يهودية^(٩) ، والحارث بن عباد يشبه بعيد اليهود وطبولهم^(١٠) ، وكانت نساء بعض الخزرج ينذرن إن ولدن ولدأ أن يهودنه إذا عاش ، لأن اليهود أهل علم وكتاب^(١١) .

وقد انتشرت بين العرب بعض تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير ، سمعها العرب فى الجاهلية ، وسمعها المسلمون فى الإسلام^(١٢) ، وما يدل على ذبوعها أن القرآن الكريم كثيراً ما يجادلهم ، ويدحض آراءهم .

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٧٢ (٢) عبقرية المسيح ٢٥

(٣) Skyzen & Vorarbeiten. V. 4. P. 8 Wellhausen.

(٤) تاريخ اليعقوبى ٤٩/٢ وتاريخ العرب ١٤٦/١ فيليب حتى ومعجم البلدان ٤٦١/٤

(٥) تاريخ اليعقوبى ٢٩٨/١ وعيون الأخبار ٢٠٨/٣

(٦) تاريخ اليعقوبى ٢٩٨/١ (٧) معجم ما استعجم ٢٩/١

(٨) الروض الأنف المسبب على هامش السيرة ٢٤/٢ وتاريخ اليعقوبى ٢٩٨/١

(٩) ديوان قيس بن الخطيم ٤٩ مخطوط (١٠) كتاب بكر وتعلب ٨٠

(١١) الروض الأنف ٢٤/٢ (١٢) فتح الباري ٤٣١/٩٣

ولا شك أن اليهود كانوا في نظر العرب أكثر منهم ثقافة ، واستنارة ، لأنهم أهل كتاب ، لذلك كان يقتدى بهم الأوس والخزرج في كثير من الأعمال^(١) ، وكان ابن إسحاق صاحب السيرة المتوفى سنة ٥٥ هـ يحمل عن اليهود والنصارى ، ويسميه في كتبه أهل العلم الأول^(٢) .

وقد علم اليهود بعض العرب الكتابة العربية ، وجاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون ، ثم أمر النبي زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود فتعلمها^(٣) ، وكان الكتاب بالمدينة كثيرين ، لأنهم يجاورون ويخالطون اليهود^(٤) .

على أن العرب خالفوا اليهود في بعض المعتقدات ، فاليهود — ربانيين وقرائين — يتفقون على تحريم لحم الجمل ، والعرب كلفون به . واليهود يحرمون أكل الشحم ما خلا شحم الظهر ، والعرب يأكلون الشحم كله . واليهود يحرمون أكل الحوايا ، والعرب يأكلونها^(٥) . وقد نص القرآن الكريم على ذلك : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم »^(٦) .

المرأة اليهودية

كانت النظم اليهودية مصطبغة بسمات صحراوية كما سبق ، وما برحت عاداتهم البدوية غالبة على أجيالهم المتعاقبة ، وفي التوراة إشارات إلى أصلهم الصحراوي^(٧) .

لذلك قامت شريعة إسرائيل على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل ، والرغبة في كثرة النسل .

(١) محاسن النساء لابن هشام ٤٨ مخطوط و Grayzel P.P. 141-245.

and Sources of Islam P. 13.

(٢) فتوح البلدان ٤٧٩ وتاريخ الخميس ٥٢٣/١

(٣) صبح الأعشى ٣٦٢/١٣

(٤) القهرست لابن النديم ٩٢

(٥) الموشح للرزباني ٣٨

(٦) سورة الأنعام ١٤٦

(٧) سفر التثنية ١٠ : ٣٢ وسفر أرميا ٢ : ٢ وسفر هوشع ٩ : ١٠

فالمرأة تُسبى ، وتباع ، وتورث ، وللآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات ببيع الرقيق وأن يقتلوهن^(١) .

ولم ترفع التوراة من قدر المرأة ، ففي سفر الجامعة أن المرأة أمرٌ من الموت ، وأن الصالح التقي هو الذى ينجو منها « رجلا واحداً بين ألف وجدت ، أما امرأة فلم أجد واحدة بين كل أولئك »^(٢) .

وكانت المرأة فى المجتمع اليهودى — كما فى المجتمعات البدائية — مملوكة لأبيها قبل زواجها ، تُشترى منه عند نكاحها ، لأن المهر كان يدفع لأبيها أو لأخيها على أنه ثمن شراء ، ثم تصير مملوكة لزوجها ، وهو سيدها المطلق ، لأن كلمة (بعل) معناها سيد ، وليس لنذرها أو قسمها قيمة ما لم يؤيده زوجها^(٣) ، فإذا مات زوجها ورثها وارثه ، لأنها جزء من التركة ، وله أن يبيعها أو يعضلها^(٤) .

وكان الزواج بالاخت ذائعاً عندهم قديماً ، فمثلاً تزوج إبراهيم بسارة أخته من أبيه^(٥) ، والربانون — الربائم إحدى طوائف اليهود الثلاثة — يبيعون زواج بنت الأخ وبنت الأخت وبنت امرأة الأب^(٦) ، وقد بعث عيسى عليه السلام يحيى بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ^(٧) .

ثم بعد ذلك حرموا الأم وامرأة الأب والاخت لأب أو لأم ، وابنة الابن والعمة والخالة ، وزوجة الابن وبنت امرأة الأب ، والأصول والفروع^(٨) .

وجروا على تعدد الزوجات ، ولم يعارضه القانون الشرعى أو المدنى^(٩) ، وعرفوا

(١) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون و Israel From its Begining. A dolphe Lods. P. 190.

(٢) سفر الجامعة ٧ : ٢٦ — ٢٩

(٣) اليهود فى تاريخ الحضارة ٤٢ و Israel From Begining. P. 191

(٤) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ٦٧

(٥) سفر التكوين الإصحاح ١٢ : ٢٠ (٦) العقائد ٨٠ (٧) تاريخ العبرى ١٢/٢

(٨) سفر اللاويين اصحاح ١٨ آية ٦ — ١٨ و شعاع الحضرة

(٩) اليهود فى تاريخ الحضارة ٥٠

زواج المتعة ، ومارسوه ، ثم نهى الكتاب عنه ، لأنه لا يليق أن يكون الاقتران لأجل تبعاً لهوى النفس ، ثم تحدث بعده فرقة بغير مسوغ شرعى ^(١) .

وبديهي أن المرأة التي تورث كالمحتاج لا حق لها في الميراث ، فالقاعدة أن الرجل إذا مات وليس له أبناء ورثه بنو عشيرته ، أما النساء فلا نصيب لهن مما ترك الرجل ، بل كن يورثن . فإذا مات الزوج ولم يكن قد أولد الزوجة ورثها أخوه أو بعض أقاربه . وكانت البنت إذا مات عنها والدها ورثها أقرب الرجال إليها ، ثم عدلت هذه القاعدة في عصر متأخر ، فسمح للبنت أن ترث أباه إذا لم يكن له ولد . أما الزوجة فلا نصيب لها من تركه زوجها ، بل ظلت جزءاً من متاعه يرثها ذوو قرباه . على أن التوراة اشترطت على البنت التي ورثت أباه أن تتزوج رجلاً من عشيرته ^(٢) . واختلفوا في توارث الزوجين ، فالربانيون يورثون الرجل زوجته ، والقراءون يمنعونها ، ولا يلزمونه مؤجل صداقها ، ويمنعونها أيضاً أن ترثه ، ولكن لها مؤجل صداقها ^(٣) ..

وقد خولت القوانين اليهودية القديمة الرجل أن يطلق زوجته إذا فعلت ما لا يرضى ، ولم يكن هناك ما يكفه عن استعمال هذا الحق المطلق إلا بعض روابط واهية لا تجدى فتىلاً . ولم يسمح للنساء أن يطلبن الطلاق من أزواجهن ، وليس قبولهن الطلاق شرطاً لصحة وقوعه ^(٤) ، ثم في عصور متأخرة أباح القراءون للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها ^(٥) .

وكان اليهود قديماً ينسبون أبناءهم إلى أمهاتهم ، ففي التعاويذ السحرية اليهودية يقرن اسم الرجل باسم أمه لا باسم أبيه ، وقد عكف يوليوس وهوزن على دراسة التوراة ، وخلص

(١) شعار الحضر ١٠١

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ وشعار الحضر ١٥٢ - ١٦٤ والأحكام الشرعية في الأحوال

الشخصية للاسرائيليين ١٦٩ - ١٧٢

(٣) شعار الحضر ١٦١ - ١٦٣

(٤) الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للاسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة في الاسلام للسيد أمير

على الهندي ٧٣ والاسلام والحضارة العربية ٨٠/١

(٥) شعار الحضر ١٢٦

الأم هو الشائع في جداول الأنساب في الجزء الذي حرره أتباع المدرسة اليهودية ، وهذه الجداول يرمز إليها بحرف (J) وأن النسب إلى الأب هو الشائع في القسم الذي حرره أتباع المدرسة الكهنوتية ، وهي التي يرمز إليها بالحرف (P) ، وإذا علمنا أن الساميين كانوا يضعون قيوداً شديدة وحدوداً مرعية للزواج بدوى الأرحام ، ولا يضعون مثل هذه القيود في الزواج بالعصبة ، فهم مثلاً يبيحون الزواج بالاخت لأب ، إذا علمنا ذلك تبين لنا أنهم كانوا في وقت ما يعدون صلة الأبوة أو هي من صلة الأمومة ، ويرون أنها لا تفرض نهياً ولا تحريماً في الزواج ^(١) ، ووجود هذه العادة يفسر قول إلههم يهوه عن اتحاد الرجل بالمرأة (سوف يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بزوجه) ، ولا تزال لهذه العادة آثار في اليهود إلى اليوم ، وفي الأمم العربية ومصر — عادة نسبة الولد إلى أمه في التعاويذ والرقى والتمايم — ويرى نولدكه أنها تدل على مرحلة قديمة من نظام الأمومة ^(٢) .

صلة العرب بالنصارى

النصرانية في الشمال والوسط

كانت النصرانية قد ذاعت واستقرت أركانها في البلاد المحيطة بجزيرة العرب ، في الدولة الرومانية ومصر والحبشة . وكان النصارى يتعبدون بنشر دينهم والتبشيرية ، فيجوبون البلاد ، ويجوسون القفار ، ويحتملون المشقات . وكان من أثر ذلك أن نفذت المسيحية إلى بلاد العرب ، وعرفت في أرجائها ، ودان بعض العرب بها .

فالغساسنة في الشام نصارى^(١) على المذهب المنوفستي الذي كان شائعاً في ديارهم ، وعرف فيما بعد بالمذهب اليعقوبي ، نسبة إلى يعقوب البرذعاني^(٢) ، وهم حماة الكنيسة في الشرق ، يدل على ذلك أن الحارث بن أبي شمر (حوالي ٥٢٩ - ٥٦٩ م) كان نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة^(٣) .

وفي الحيرة نصارى أكثرهم من النساطرة ، وقد انتقلت النصرانية إليهم من الشام ، لأن الإمبراطور جستنيان اضطهد النساطرة فرحب بهم كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) وأسس لهم مدرسة جنديسابور في فارس ، فنشروا مذهبهم هناك^(٤) ، وغلب هذا المذهب على فارس وخراسان والعراق والموصل^(٥) .

وقد دان بالمسيحية أشراف الحيرة ، منهم من بنى تيم آل عدى بن زيد العبادي ، ومنهم أناس من سليم ومن طيء وغيرهم^(٦) . وفي عام ٤١٠ م ورد ذكر أسقف على الحيرة ،

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والأعلاق النفيسة لابن رسته ٢١٧/٧

(٢) الفصل لابن حزم ٤٩/١ (٣) العرب قبل الاسلام ١٩١ جرجي زيدان

(٤) تاريخ الفلاسفة في الاسلام ١٥ و١٨ دي بور ترجمة أبور ريده

(٥) الفصل لابن حزم ٤٩/١ (٦) البلدان لليعقوبي ٣٠٩

وفيا بين ٥٥٩ و ٥٧٥ م كان أحودمه يدشر بالنصرانية بين التnoxيين (١) .

ولما فتح العرب العراق كان على شواطئ القرات مسيحيون ، وكان بعض البدو من انتجعوا الجزيرة قد دخلوا في حورة الكنيسة (٢) . وقد نزل خالد بن الوليد في طريقه إلى العراق سنة ١٢ هـ بقرى يقال لها بانقيا وباروسما وأليس فصالحه أهلها النصارى (٣) . وقد بقيت كتب من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية استعملت لغة للكنيسة (٤) .

وكانت على النصرانية قبيلة تغلب ، وقد دانت بها بعد يوم خزاز ، ذلك أن نزار لم تكن تستنصف من الين ، ولم نزل الين قاهرة لها حتى هذا اليوم (٥) ، فلما انتصر عرب الشمال على الين شعروا بنعمة الاتحاد ، والتفوا حول زعيمهم كليب ، ووجدوا أن عرب الين يهود ونصارى ، وعرب الشام والحيرة نصارى ، فاعتنق النصرانية كليب وبعض حلفائه من ربيعة ومن مضر ، ومن إياد ، ومن طي ، ومن قضاعة . ومن قيس بن ثعلبة ، وبني كليب كنيسة ينافس بها حرم مكة ، وهو إنما يريد أن يثبت ملكه على دعائم من العقيدة الدينية والعصبية القبلية . ولم ترم تغلب عن المسيحية ، وما زالت عليها إلى عهد عمر بن الخطاب . ولما أراد أخذ الجزية منهم انطلقوا هاربين ، فقال له زرعة بن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبي أو عبادة بن النعمان التغلبي : أنشدك الله فيهم ، فأنهم قوم عرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم لهم نكاية ، فلا تعن عدوك عليك ، فأضعف عمر عليهم الصدقة ، وشرط عليهم ألا ينصروا أولادهم (٦) ، وكانت هذه معاملة خاصة بالتغليبيين ، إذ اعتبر عمر أن المضاعفة بمنزلة الجزية على غيرهم . وليس يؤخذ من غيرهم من أهل الذمة صدقة مضاعفة (٧) .

وكان بعض قبيلة — بكر تيم اللات وضبيعة وبعض بني عجل — نصارى (٨) ، وكان قرب منازل تميم من منازل بكر وتغلب وسيلة إلى أن يعتنق بعضهم النصرانية (٩) ، وقد افتخر الزبرقان بن بدر أمام النبي بنصرانيته في قوله :

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/١٣ عن نو Nau في كتابه Les Arabes. P. 16

(٢) الحصار الإسلامية ٧٣ فون كريم (٣) تاريخ الطبرى ٣/٤

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ٩ بارتولد (٥) معجم البلدان مادة خرز

(٦) المعارف ١٩٣ والخراج لأبى يوسف ٦٨ والخراج للقرشى ٦٦ وفتوح البلدان ١٨٩

(٧) الخراج للقرشى ١٠

(٨) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر المجلد الرابع العدد الأول ٤٣

(٩) سيرة ابن هشام ٢٢٥/٤ ودائرة المعارف الإسلامية ٥/٧٤

نحن الكرام فلا حتى يعادِلُنَا منا الملوك وفيْنَا تُنصَّبُ البَيْعُ^(١)

كما اعتنقها جماعة من إِيَاد ، منهم قس بن ساعدة^(٢) ، وجماعة من جُذَام^(٣) ، وجماعة من قُضَاعَة^(٤) ، ودان بها أناس من الثَمَرِ^(٥) ، وأناس من طيء كعدى بن حاتم^(٦) ، وأبي زَيْد^(٧) .

وكان في أيلة نصارى ، ضرب عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة دينار كل سنة ، وأن يضيفوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثاً ، ولا يغشوا مسلماً^(٨) .

أما في قلب الجزيرة وخاصة مدن الحجاز التجارية فلم تكن المسيحية مجهولة ، ذلك بأن سكان هذا الإقليم كانوا على اتصال دائم بأهل الشمال ، ولا شك أن الرهبان الذين كانت صوامعهم تنتشر من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر عظيم في تعريف العرب بالنصرانية ، على أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية^(٩) ، ففي ناحية من نجد كشف بلي Pely عن عمود مسيحي حطمه الوهابيون^(١٠) .

وقد تنصر من قریش بنو أسد بن عبد العزى ، منهم عثمان بن الحوirth وورقة ابن نوفل^(١١) ، وكان ورقة قد استحكم في النصرانية حتى علم من أهل الكتاب كثيراً^(١٢) .

وفي يثرب كان من المحاربين ضد النبي عند مقدمه إليها شريف من الأوس مطاع اسمه أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ، كان قد ترهب ولبس المسوح وسمى الراهب^(١٣) ، وكان

(١) سيرة ابن هشام ٢٢٥/٤

(٢) التفتيه والإشراف ١٧٦ ودائرة المعارف الإسلامية ١٦٦/٣

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣١٣/٦

(٤) المعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والاعلاق النفيسة ٢١٧/٧

(٥) تاريخ الطبري ٧٣/٤ (٦) سيرة ابن هشام ٢٤٦/٤

(٧) الشعر والشعراء ١٠١ والاغاني ٢٣/١١

(٨) الأم للإمام الشافعي ١٠١/٤ (٩) العرب والإمبراطورية العربية ٢٩ بروكلمان

(١٠) عصر ما قبل الاسلام ٩

(١١) تاريخ اليعقوبي ٢٩٨/١

(١٢) سيرة ابن هشام ٢٤٣/١ والأم للشافعي ١٠١/٤ والخراج للقرشي ٧٣ والاغاني ١٢٠/٣

(١٣) سيرة ابن هشام ٢١٦/٢

بمكة نصراني اسمه موهب ضرب عليه النبي ديناراً كل سنة (١).

وكان بالبحرين نصارى ، ففي سنة ٧ هـ صالحهم العلاء بن الحضرمي عن رسول الله (٢).

على أننا نجد أسماء كثير من النصاري في أماكن شتى من الجزيرة (٣). وكان بكندة نصارى منهم حجة بن المضرب (٤) ، وامروء القيس بن عابس الكندي (٥).

النصرانية في اليمن

سلكت المسيحية طريقها إلى اليمن منذ أواسط القرن الرابع الميلادي . وتضافرت على فسح المجال لها هناك عوامل شتى ، بعضها سياسي ، وبعضها تجاري ، وبعضها ديني . ذلك بأن قياصرة الروم لما تنصروا أخذوا يهتمون بنشر دينهم ، ويستعينون به على لسط نفوذهم وتوسيع المجال لمتاجرهم ، فأرسل الإمبراطور قسطنطين مبشراً هو فرومنتوس إلى الحبشة نصبه أسقفاً عليها ٥٣٤ م فنشر النصرانية فيها (٦). وفي سنة ٣٥٦ م بعث ثيوفيلوس لبشر باليمن ، واستطاع أن ينشئ كنيسة بأرض حمير وثلاثة بعدن ، وليس ما يمنع من أن ونصدق أن المسيحية وفدت أيضاً من الشمال بعد ذلك (٧).

وكان بنجران كنيسة بناها بنو عبد المدان الحارثي وسموها كعبة بنجران ، وقد ذكرها الأعرشي في قوله لناقته :

وكعبة بنجران حتم عليك حتى تنأخي بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها (٨)

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٣/١ و ٢٠٦

(٢) فتوح البلدان ٨٥ (٣) المعارف ٢٠ ومروج الذهب ٢٩/١ - ٣٢

وقاريخ الخلفاء ٣٢/١ ومجالس نعلب ٦٥٣/١ ودبوان المتلوس عطاوط

(٤) الأغاني ١٠/٢١ وسمط الآلى ٢٠٤/١

(٥) أسد الغابة ١١٥/١ (٦) دائرة المعارف للبستاني ٦٧٩/٦

(٧) العرب قبل الإسلام ١٢٦ زيدان و History of the Arabs. P. 67. Hitti.

(٨) الكامل لابن الاثير ١٤٩/١ وسيرة ابن هشام ٣٠/١ - ٣٤ و Hitti. P. 67

(٩) الأغاني ١٠/١٣٥ - ١٣٧

ثم كانت الغزوة الحبشية الأخيرة لليمن في ٥٢٣ م ، فاعترف النصارى بالحبش ، وراجت الدعوة إلى النصرانية ، واستطاع أبرهة أن يحكم اليمن ، وكان نصرانياً ورعاً متحمساً لبث دينه في بلاد العرب ، فبنى القلنس بصنعاء^(١) ، وهى كنيسة لم ير الناس أحسن منها ، ولما أتم بناءها كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك كنيسة لم يكن مثلهما لملك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب^(٢) . وفى سبيل ذلك حاول أن يهدم الكعبة ، وكانت غزوة الفيل التى باء كيدها بتضليل .

ومن تنصر باليمن طيء ومذحج وبهراء وسليح^(٣) ، وهذه الكثرة نخولنا أن نرفض قول تسدال Tisdall إن المسيحية لم يعتنقها من العرب إلا بنو الحارث في نجران ، وبنو حنيفة في اليمن ، وبعض طيء في تيماء^(٤) .

وما جاء الإسلام حتى كانت النصرانية ذائعة في الجنوب ، يدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وجه عماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على النصرانية^(٥) ، وصالح وفد نجران على ألني حلة في صفر وألني حلة في رجب... وأن عليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بغيراً، إن كان باليمن كيد^(٦) ، ومع كل حلة أوقية من الفضة^(٧) ، وهذا دليل على كثرة العدد والثروة ، لذلك لا عجب أن يبلغوا في عهد عمر أربعين ألفاً ، وأن يتحاسدوا ، فأتوا عمر فقالوا : أجلنا ، وكان قد خافهم على المسلمين ، فاغتنم الفرصة وأجلاهم^(٨) .

أثر النصرانية في العرب

١ — كانت النصرانية ذات آثار شتى في العرب ، فبعضهم مال إلى الرهبنة وبناء الأديار كمنظلة الطائي ، إذ فارق قومه ونسك ، وبني ديراً بالقرب من شاطئ الفرات ، وترهب فيه

(٢) معجم البلدان ١٥٥/٧ و ١٥٧

(١) تاريخ ابن خلدون ٦١/٢

(٣) تاريخ يعقوبين ١٩٨/١

(٤) Original Sources of The Quran P. 1:6.

(٥) فتوح البلدان ٧٠

(٦) فتوح البلدان ٧٥

(٨) فتوح البلدان ٧٣

(٧) الحراج لأبن يوسف ٤١

حتى مات سنة ٥٩٠ م^(١)، وقس بن ساعدة كان يسكن القفار ويتناول قليلا من الطعام^(٢)، وكان القسس والرهبان يعظون الناس في المجامع والأسواق، ويذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار، ومن هؤلاء قس بن ساعدة، وقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم إحدى خطبه في عكاظ ورواها^(٣).

ومما يدل عن انتشار آرائهم أن القرآن الكريم يحكى كثيراً من أقوالهم ويفند بها، وأن كثيراً من الشعراء كانوا نصارى، وللنصرانية آثار في شعرهم وخیالهم وعقائدهم، كأمية ابن أبي الصلت^(٤)، وذی الإصبع العدواني^(٥)، وعدی بن زید العبادي^(٦)، والأعشى^(٧)، والنابعة الجعدی^(٨) وغيرهم^(٩).

على أن العرب كانوا يتزوجون بنصرانيات في الجاهلية وفي الإسلام، وكان ينسلن لهم بعض الأشراف، ذكر كثيراً منهم ابن رسته، كالحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي^(١٠).

٢ — وإذا كانت اليهودية قد عجزت عن أن تصرع الوثنية الجاهلية فكذلك قد عجزت المسيحية؛ لأنها لا توائم طباع العرب الميالين إلى الثأر والانتقام والأنفة من الضيم، وما من عربي يرضى أن يدبر لضاربه خده الأيسر إذا ضربه على خده الأيمن.

ثم إن المسيحية كانت قد اختلطت تعاليمها بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة^(١١)، ففقدت

(١) معجم البلدان ١٤٣/٤ وشعراء النصرانية ٩١/١

(٢) الأغاني ٤١/١٤ وشعراء النصرانية ٢١١

(٣) نقد النثر لقدامية بن جعفر ٩٨

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ١٠٣ والأغاني ١٢٥/٤ طبعة الدار ودبوان أمية ابن أبي الصلت.

(٥) الأمل ٢٥٥/١ والأغاني ١٠٥/٣ الدار.

(٦) البيان والتبيين ٢٨٥/٢ (٧) الأغاني ٧٦/٨ ساسي

(٨) طبقات الشعراء ١٠٣ — ١٠٥ تحقيق شاكر

(٩) الحياطة العربية من الشعر الجاهلي. أحمد الحوفي ٨١ — ٨٢ والمفضليات ٥٢/٢ والمؤتلف والمختلف

للأمدي ٧٤ والبيان والتبيين ٣/٣ و٥٤/١

(١٠) الأعلام للنفسية ٢١٣/٧

(١١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ٢٦ دي بور ترجمة أبو ريذة.

بساطتها ، وامتلات بالشبهات والغموض ، يقول تايلور Canon Taylor إن أئمة اللاهوت في إفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتا فيزيقية عويصة ، ودعوا إلى العزوبة والعزلة ، وادعوا أن القذارة من خصائص الرهبنة ، ولم يكن للعبيد أمل في حاضر أو مستقبل ، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك كله^(١) ، لذلك كان من العسير أن يشرب العرب هذه التعاليم .

على أن العرب خالفوا النصارى في أشياء ، فالنصارى يحرمون لثمان الإبل وألبانها ، ولكن العرب أحلوها ، والكنيسة تحرم تعدد الزوجات والعرب يعددون ، والنصارى يحظرون الطلاق والعرب يستبيحونه^(٢) .

المرأة النصرانية

أعزت المسيحية المرأة بعض الإعزاز ، وحمتها بعض الحماية من المهانة التي كانت تُمنى بها ، فلا جرم أن تهرع النساء إلى المسيحية أفواجا ، لأنهن أحبين من تعاليمها أنه « لا يهودى ولا إغريقى ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا أنثى ، كلكم واحد في يسوع المسيح » ، في وقت كانت النساء فيه محتقرات ، ينظر إليهن على أنهن يقمن بعمل ثانوى في النسل ، حتى لقد كان اليهودى الورع يحمد الله دائماً على أنه لم يخلقه غير يهودى ، ولم يجعله عبداً ولا امرأة .

وقد قامت المسيحية في أول عهدها على جهد النساء إلى حد كبير ، فكان مبشرات وكن يهبن لها المال ، ويُدْعُنَّها في حماسة ، وقد اعترف بهن قسيسات ، وبلغت القسيسات عشرات^(٣) وأظهرت المبشرات كثيراً من ضروب الشجاعة والإيمان والتمسك بالعقيدة ، واحتملن العذاب راضيات^(٤) ، وكان أعظم ما أنعمت به المسيحية على المرأة أن حرمت تعدد الزوجات ، والتسرى ، وحدث من الطلاق^(٥) ، فقد سأل المسيح تلاميذه عن الطلاق ، فقال لهم : « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى ، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزنى »^(٦) .

(١) الدعوة إلى الإسلام ٦٦ و ٦٧ أننولد (٢) صبح الأعشى ٢٨٥/١٣

(٣) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ١٩٣ نشره السير جون هامرتن .

(٤) المرأة في العصور ٣١ أحمد خاكي (٥) المرأة في العصور ٣٦

(٦) انجيل مرقس . الإصحاح ١٠

ولكن إعزاز المسيحية للمرأة كان بقدر ضئيل ، لم يرفع من شأن المرأة ، ولم يطلقها من سلطان الرجل ، ولم يحمها من عسفه وازدراءه ، فالإنجيل يخص الرجال بالذكر دون النساء ، « لأن الرجل مخلوق على صورة الله ، وأما المرأة فإنها مخلوقة من جنب الرجل » . وقد أيدت آراء رجال الدين أن المرأة ساقطة المكانة ، وأنها خلقت للرجل ، ففي رسالة بولس إلى أهل كورنثوس : أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ولم يخلق الرجل من أجل المرأة ، بل خلقت المرأة من أجل الرجل ^(١) . وجاء في رسالته إلى أهل أفسس : « أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ، لأن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة » ، وإن كان قد أوصى الرجال بحب النساء : « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة ^(٢) » ، وشبهه بهذا ما ورد في رسالة بطرس الأولى ^(٣) .

وقد فسر بعض رجال الدين قصة آدم وحواء كما وردت في الإنجيل بأن المرأة حليفة الشيطان ، فهي جديرة بالاحتقار ، وعدوها بعضهم مصدراً للرجس ، وكان من أثر ذلك انتشار الرهبة والتبتل ^(٤) . ومن عجب أن يبحث المجتمعون في مجمع (ماكون) ٥٨١ م فيما إذا كان للمرأة نفس ، وهل تعد من البشر ؟ وبعد جدال طويل عنيف كان الجواب أن لها نفساً ، وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة ^(٥) .

(١) رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس الإصحاح ١١ : ٢

(٢) من رسالة بولس إلى أهل أفسس الإصحاح ٥ : ٢٢ ، ٢٥

(٣) الإصحاح ٣ : ١ — ١٠

(٤) المرأة في العصور ٣١ — ٣٦ وتاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ Mrs Ray Strachey

(٥) المرأة في التاريخ والشرائع ٦٢ جميل بينهم .

صلة العرب بالفرس

يحدث التاريخ بصلة قديمة جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسس مملكة الحيرة بقرون . فقد أدوا الجزية للملك قورش سنة ٥٥٠ ق . م ، وكانوا أعواناً لقمبيز في فتح مصر سنة ٥٢٥ ق . م ، ثم كانوا مع الفرس في حملتهم على اليونان سنة ٤٩٢ ق . م (١) .

وقد ذكر الكاتب اليوناني كينوفند (٤٠١ ق . م) أن كورة في شرقي الفرات كانت تدعى (العربية) (٢) . وكانت البلاد الواقعة شرقي الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة ٤٠١ ق . م (٣) .

وفي عهد سابور الأول بن أردشير (٢٤١ — ٢٧٢ م) كانت بين دجلة والفرات مدينة اسمها الحضّر ، يحكمها عربي من قضاة ، وقد شمل ملكه أرض الجزيرة ، وبلغ الشام ، ثم إنه أغار على بلاد الفرس فخاربه سابور (٤) .

وفي أوائل القرن الثالث لليلاد تنازعت إياد ومضر بعد انتصارهما على جرهم وإجلاتها عن مكة ، فهزمت إياد وهاجرت إلى العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ ، على أنها استوطنت أجزاء متفرقة من جنوبي الحيرة (٥) ، منها سنداد — نهر فيما بين الحيرة إلى الأبلّة — وكانوا ذوى منعة لا يعطون الإتاوة أحداً من الملوك ، وقد أغاروا على كسرى وهزموه مرتين (٦) .

ثم كانت حروب بين العرب وسابور الثاني المسمى بذى الأكتاف (٣٠٩ — ٣٧٩ م)

(١) العرب قبل الإسلام ١٠١ نقلا عن هيرودوت .

(٢) مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ٣/٣٣١ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد

(٤) تاريخ الطبري ٦٢/٢ والأغاني ١٤١/٢ الدار ومعجم البلدان ٩٧/٣ وسيرة ابن هشام

٧٨/١ ومروج الذهب ٢٩٦/١ والكامل لابن الأثير ١٣٥/١

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ١٦٧/٣ (٦) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٧٣

بعد أن أغار العرب على أطراف مملكته ، ومكثوا بها مدة ، فغزاهم في بلادهم ، وأسر منهم كثيراً ، وأسكن أسراهم مع بكر ابن وائل كرمان ، ومن بني حنظلة الأهواز ^(١) ، وأسكن عدداً عظيماً من أسرى العرب إقليم تَوَجَ أيضاً ، وكانت حملة سابور حوالى ٣٥٠ م ^(٢) .

وبذلك تعددت الفرص لأن يحتك العرب بالفرس من قديم ، وأن يخالطوهم ويساكنوهم .

ثم بعد ذلك ساعد الفرس العرب على تأسيس إمارة الحيرة ، التي ظلت نحو أربعة قرون (٢٦٨ — ٦٣٣) ^(٣) ، وُصلة بين العرب والفرس ، وكان أهلها أكثر حضارة من عرب الجزيرة ، وكان الفرس يعجبون بهم ، حتى لقد أرسل يزيد جرد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠ م) ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرئ القيس بن عمرو (النعمان الأعور ٤٠٣ — ٤٢١ م) ليربيه تربية عربية ، وأمره ببناء قصر الخورنق له ، وأن يخرج به إلى بوادي العرب ^(٤) ، وقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتلبذ لأساتذة من الفرس ومن العرب ، وقد أعانه العرب في أن يخلف أباه على عرش فارس ^(٥) ، وتوسط عطاء الفرس وأهل البيوتات بالعرب ليتجاوز بهرام عن مساوئهم إليه ويعفو عنهم ^(٦) ، وأثرت التربية العربية في بهرام فأجاد اللغة العربية كما أجاد لغات أخرى ، وقرض الشعر العربي والفارسي ^(٧) ، وذكر شمس الدين الرازي في كتابه المعجم في معايير أشعار العجم أن بهرام جور أول من نظم شعراً فارسياً ، وأنه أخذ الشعر عن عرب الحيرة ، وأن علماء الفرس استهجنوا منه قرض الشعر ، ونهوه عنه .

وكان إقليم الحيرة وما جاوره مجعاً لأديان شتى أيضاً في العصر الجاهلي ، فقد فتح

(١) تاريخ الطبري ٦٦/٢ — ٦٩ و ٦٨/٣ ومروج الذهب وتاريخ ابن خلدون ١٦٩/٢

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر

(٣) تاريخ الطبري ٣٧/٢ و ٧٢ و ٧٤ و ٧٦ و ٧٨ و ١٥٦ و جغرافيا الإسلام ١٨ وتاريخ الإسلام السياسي

حسن إبراهيم ٤٨ ومروج الذهب ١٢٦/١

(٤) تاريخ الطبري ٧٢/٢ ونهاية الأرب للنويري ٣٧٢/١

(٥) تاريخ الطبري ٧٤/٢ — ٧٦ (٦) الطبري ٧٨/٢

(٧) مروج الذهب ١٢٦/١

المسلمون هذه البلاد وعلى شواطئ دجلة والفرات أناس من أديان شتى ، فرس يعتقدون الزرادشتية ، ومسيحيون يدينون بالمسيحية ، وإلى هؤلاء جميعاً كان أتباع الديانة المانوية — وهى ديانة نشأت من اتحاد دين زرادشت بالأفكار المسيحية والهندية — وأتباع لديانات قديمة وثنية ، وقد بقيت آخر طائفة منهم وهى الصابئة بخران حتى القرون الوسطى (١) .

على أنهم حكموا الين عهداً طويلاً منذ استنجد بهم سيف بن ذى يزن لطرد الحبشة ، وظلوا يحكمونها إلى أن أشرق الإسلام (٢) ، وقد اشترط أنوشروان على سيف بن ذى يزن — أو معديكرب — بعد أن ساعد اليمانيين على إجلاء الحبش شروطاً ، منها أن الفرس يتزوجون بنساء الين ، ولكن لا يتزوج اليمانون بنساء الفرس ، وفى ذلك يقول الشاعر :

على أن ينكحوا النسوان منهم وألا ينكحوا فى الفارسينا (٣)

وقد سمي العرب الفرس الذين قدم بهم سيف بنى الأحرار ، يقول أمية بن أبى الصلت فى تهنته ومدحه لسيف بن ذى يزن :

حتى أتى بنى الأحرار يقدمهم تخالهم فوق متن الأرض أجبالاً
لله درهم من فتية صبروا ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالاً (٤)

على أنهم حكموا البحرين أيضاً ، وهجر ، وقد بعث رسول الله إلى أتباع كسرى بهجر فلم يسلموا ، فوضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل (٥) .

ثم إن الفرس كانوا يستخدمون بعض العرب فى دواوينهم ، فمثلاً لقيط الإيادى كتب لكسرى وترجم له (٦) ، وعدى بن زيد كان من تراجمة كسرى ابرويز (٩٥٠ — ٦٢٨ م)

(١) Literary History of Persia. Broune. P. 154. والحضارة الإسلامية ٧٣

فون كريم . والفهرست ١٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ١١٥/٢ — ١٢٤ وسيرة ابن هشام ٦٥/١ — ٧٣ والأغانى ٧٣/١٦ و

Original Sources of the Quran. P.P. 212 215.

(٤) طبقات الشعراء ٢١٨ شاعر والأغانى ٧٣/١٦

(٣) مروج الذهب ٢١٨/١

(٥) المغازى ٨٥ و ٨٨

(٦) معجم ما استعجم للبكرى ٧٥/١

وأبوه زيد كان يقرأ العربية والفارسية ، وزيد بن عدى كان من تراجمة كسرى بعد أبيه^(١) :

وقد رحل بعض العرب إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث بن كلدة الثقفي ، رحل من الطائف إلى جنديسابور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب ، وضرب العود ، ووفد على كسرى وله معه حديث طويل^(٢) ، وكذلك رحل ابنه النضر إلى الحيرة وإلى فارس ، وكان يشتري كتب الفرس ليحدث منها ، ويعاند الدعوة الإسلامية^(٣) ، ورحل الأعشى إلى فارس ومدح كسرى ، وأدخل في شعره كلمات فارسية كثيرة^(٤) .

ووفد عبد الله بن جُدعان على كسرى^(٥) ، وكان لعبيد بن شَرِيّة المخضرم علم بأخبار ملوك العرب والعجم^(٦) .

وكانت ترد على أهل مكة في الجاهلية دراهم الفرس البغلية والكسروية^(٧) .

أثر الفرس في العرب

ليس من أغراضى هنا أن أبسط القول في أفانين التأثير الفارسي في العرب ، لأن ذلك يبعد بي عما أقصد الآن إليه ، وله مجال آخر^(٨) ، لهذا سأقصر بحثي على تبيان التأثير الفارسي في الحياة الاجتماعية ، وما يتصل بالمرأة ، وإذ كانت الزرادشتية والمزدكية دعائم العبادة والاجتماع عند الفرس فإن من حقهما أن تفردا بكلمة .

أما زرادشت فهو عند الفرس نبي أسموه زرتشترا ، وسماه اليونان زرواستر ، ونسبوه إلى زمن قديم ، ولكن المؤرخين المحدثين يرون أنه كان بين القرن العاشر والسادس قبل

(١) الأغاني ١٠١/٢ - ١٠٦

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٠٩/١ - ١١٣ وأخبار الحكماء للقفطي ١١١

(٣) سيرة ابن هشام ٣٢٠/١ وعيون الأنباء ١١٣/١

(٤) معجم البلدان ٥١/٢ ودراسة الشعراء للمرصفي ٩٢

(٥) الاغانى ٤/٨

(٦) الفهرست ٨٩

(٧) فتوح البلدان ٤٧١ - ٤٧٢ (٨) الحياة العربية من الشعر الجاهلي للمؤلف ٥٥ - ٦٥

الميلاد^(١)، وقد ظهر بين الفرس وهم يعبدون مئرا إله الشمس، وأناهيتا إلهة الخصب والأرض وغيرهما، فثار ضد المجوس أو السكينة الذين كانوا يلون شئون هذه العبادة، وأعلن وحدانية الله، وسماه أهورا مزدا إله النور والسماء، وأعلن أن ما عداه من آلهة إن هي إلا مظاهر من صفاته. وآزره في نشر هذه العقيدة دارا الأول، وجعل الزرادشتية وحدها الدين الرسمي^(٢). ورمز إلى أهورامزدا برمين هما الشمس والنار، ودعا إلى تقديسهما على هذا الاعتبار^(٣)، ولكن أتباعه عبدوا النار من بعده، وعدوها من آلهتهم، وأسموها (آنز) وجعلوها ابنا لإلههم الأعظم إله النور والضياء، وكانوا يقدمون للشمس والنار وأهورامزدا قرايين من الزهور والخبز والفاكهة ومن الحيوان، وأحيانا من البشر^(٤).

وصارت ديانة زرادشت الدين الرسمي للدولة بعد أن كانت بغیضة إلى الأهلين^(٥).

وأما مزدك فقد ظهر في عهد قباد، ووافق زرادشت في بعض ماجاء به، وزاد ونقص، ولكنة استحل المحارم والمنكرات، وسوى بين الناس في الأموال والأموال والنساء والعبيد والإماء، فكثرت أتباعه من السفلة والطغام، وصاروا عشرات الألوف، فعظم شأنه، وتبعه الملك قباد، فعظمت البلايا على الناس، وصار الرجل لا يعرف ولده، والولد لا يعرف أباه. فلما مضت عشر سنين من ملك قباد اجتمع موبدان موبذ والعظماء وخلعوا قباد وولوا عليهم أخاه جامسب، ثم أعيد قباد بعد قتل كثير من المزدكية^(٦).

ويتحدث نظام الملك في تفصيل عن المزدكية، فيبين أن كبراء الدولة لما أقروا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم، وكذلك الشأن في نسائكم، فهي كالأموال بينكم، فمن يرغب في امرأة فليجتمع بها، فليس في ديننا غيرة ولا حمية، وبهذا لاتيحيا النساء بغير نصيب من لذة الدنيا وشهواتها. وإذا فقد فتح مزدك أبواب الفساد لجميع الناس، ورغبهم في مذهبه ولاسيما

(١) قصة الحضارة الفارسية ٣٨ ول ديورانت

(٢) قصة الحضارة الفارسية ٣٩ (٣) قصة الأدب الفارسي ٣٢ حامد عبد القادر

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٤٨ ول ديورانت

(٥) الدعوة إلى الإسلام ١٧٩ أرنولد

(٦) الكامل لابن الأثير ١٤٤/١ والأغاني ٦١/٨ ساسي

العامّة . ومن نظمه التي وضعها أنه لو دعا شخص عشرين رجلاً إلى منزله فعليه أن يمدّهم بالطعام والطرب ، ويبيح لهم مجامعة نسائه . . . ولكن أنوشروان ألب رجال الدين على مزدك وعلى أبيه ، وبين لهم وخامة هذا العمل وسوء عقباه على الملك والدولة ، وأوعز إليهم أن ينصحوا أباه ، وأن ينظروا مزدك ، وأسرّ إلى كبراء الدولة أن عقل أبيه قد اختل ، فاستمعوا إلى نصحه ، وقتل مزدك وكثير من أتباعه (١) .

وإذا فقد حاول مزدك أن يفلسف مذهبه ، ويصبغه بصبغة فيها خير للجمتمع ، فادعى أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر ما بين الناس من شخاء وسفك دماء إنما سببه النساء والأموال ، فأحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلاء (٢) .

وأغلب الظن أن الدعوة إلى شيوع النساء في فارس أقدم من مزدك هذا ، لأن الطبري يذكر أن مبتدع هذه الدعوة رجل منافق من أهل فسا ، يقال له زرادشت بن خرکان ، وقد تابعه الناس على بدعته « ثم دعا العامة إليها بعده رجل يقال له مزدق (٣) . وبهذا الرأي أخذ براون (٤) ، ويعزره أيضاً أن ابن النديم ذكر أن اثنين دعوا إلى هذا المذهب ، كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر في أيام قباد ، وقتله أنوشروان (٥) ، وقتل بأتباعه (٦) .

وأيّما كان الأمر فقد قضى أنوشروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذبوع المذهب في الناس ، ولكن الطائفة لم تنقرض ، بل بقي عدد منهم تعقبه أنوشروان بعد استوائه على العرش ٥٣١ م ، ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خفية حتى جاء الإسلام ، فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التي ظهرت في الدولة الإسلامية .

(١) سياسة نامه ٢٤٠ تأليف نظام الملك . ترجم هذه الفقرة صديق الدكتور محمد موسى هنداو

(٢) الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ٨٦/٢ وصبح الأعشى ٢٩٧/١٣

(٣) تاريخ الطبري ٩١/٢

(٤) Literary History of Parsia Berune P. 170

(٥) الفهرست ٣٤٢

(٦) التنبية والإشراف للمعزدي ٨٩ والفهرست ٣٤٢

بعض مظاهر التأثير الفارسي في العرب :

١ — عبد الفرس النار بعد زرادشت كما سبق ، وكانت بيوتها منبثة في العراق مثل بيت النار الذي بنته بوران بنت كسرى ابرويز ، وغيره من بيوت كثيرة بناها المجوس هناك ^(١) ، ناهيك بما كان في فارس نفسها من بيوت النيران ، حتى لقد قال ابن حوقل عن كورة اصطخر : إن بيوت نيرانها كثيرة والعلم بها من غير الديوان متعذر ، إذ ليس من بلد ولا رستاق ولا ناحية إلا بها عدد كثير منها ^(٢) وظلت معابدهم إلى ما بعد الفتح الإسلامي بثلاثة قرون في العراق وفارس ^(٣) .

وكان المجوس منبثين في بقاع شتى من جزيرة العرب ، وقد دفعوا الجزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم مجوس نجران ^(٤) ، ومجوس اليمن ، ومجوس هجر ^(٥) ، ومجوس عُمان ^(٦) ، والبحرين ^(٧) . وكان بالقطيف وبالزارة مجوس امتنعوا من أداء الجزية للنبي ، وبالغابة ودارين مجوس أيضاً ^(٨) ، وكان بتميم مجوس ، منهم زرارة بن عدس ، وابنه حاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سود جد وكيع بن حسان وغيرهم ^(٩) .

وقد ظلت المجوسية عقيدة لبعض العرب إلى عهد النبي ، بل إلى عهد عمر ، فقد ذكر له في خلافته قوم يعبدون النار وليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ، فقال عبد الوحن بن عوف : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سنوا بهم سنة أهل الكتاب ^(١٠) .

وكان سلمان الفارسي مجوسياً أسلم ^(١١) .

لذلك لا عجب أن تزوج كثير من العرب مجوسيات ، أفرد لهم أبوا لحسن المدائني كتاباً

(١) مروج الذهب ٢٦٨/١ (٢) المسالك والممالك لابن حوقل ١٨٩

(٣) مروج الذهب ٨٦/٤ والاصطخرى ١٠٠ و ١١٨ والمسالك والممالك ٨٩

(٤) فتوح البلدان ٧٥

(٥) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٨ والخراج لأبي يوسف ٧٤

(٦) فتوح البلدان ٨٤ (٧) فتوح البلدان ٨٦ (٨) فتوح البلدان ٩٢ و ٩٣

(٩) الأعلام النفيسة ٢١٧/٧ والمعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والكامل لابن الأثير ٢١٣/١

(١٠) الخراج لأبي يوسف ٧٤ (١١) أسد الغابة ٢/٣٢٩

سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية) (١). ولم يكن هذا الزواج في الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج المجوسية ، إذ أن المجوس مصدقون بنبوة زرادشت مكذبون بسائر الأنبياء (٢).

وقد تجلى تقديسهم للنار في مظاهر شتى ، فهم حلقوا بها ، إذ كانت نار بالين ، لها سدنة ، وسموها الهولة والمهولة ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه الحلف بها بأن يطرح فيها الملح والكبريت لتستشيط وتنفض ، فيهل بذلك على الحالف لينكل إذا كان مذنباً ، ويجرؤ على الحلف إذا كان بريئاً (٣) ، يقول أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهول حالف (٤)

ويذكرها غيره من الشعراء كالأعشى (٥) وأفنون التغلبي (٦) ، ثم ذكرها السكيت في العصر الإسلامي (٧) .

وكان العرب يتحالفون على النار ، وربما يدنون منها حتى تكاد تحرقهم (٨) ، ثم إنهم استمطروا بها أيضاً (٩) ، وفي شعر أمية بن أبي الصلت تسجيل لهذا الاستمطار (١٠) .

وقد روى أن بشار بن برد كان يدين بهذا المذهب ، لذلك فضل النار على التراب ، وإبليس على آدم بقوله :

الأرض سافلة سوداء مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار (١١)
وقوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجار

- (١) الفهرست ١٠٢ (٢) الفصل ١١٣/١
(٣) تاريخ الطبري ٩٦/٢ وأبيات المعاني لأبي هلال العسكري وأساس البلاغة والقاموس المحيط مادة هول
(٤) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين ٦/٣ وأساس البلاغة مادة هول
(٥) الأغاني ١٣٩/٢٠ (٦) المفضليات ٦٢/٢
(٧) البيان والتبيين ٦/٣ وأساس البلاغة مادة هول
(٨) أيمان العرب للنجيري الكاتب مخطوط (٩) الحيوان للجاحظ ١٥٠/٤ ساسي
(١٠) ديوان أمية ٤٥ والحيوان للجاحظ ١٥٠/٤
(١١) الأغاني ٢٠/٣ ساسي والبيان والتبيين ١٦/١ بتحقيق هارون

الناس عنصره وآدم طينة^١ والطين لا يسمو سمو النار

وقد رد عليه صفوان الأنصارى بتقصيدة طويلة مطلعها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند^(١)

٢ — وعبد بعض العرب الشمس أيضاً ، يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسطت السماء ، وإذا غربت . ومن عبادها ثمود ، و « كانت تميم أدنى من غيرها ثقافة فألهوا الشمس بخاصة^(٢) » . وعبدها عرب من حمير قبل أن يهودوا منهم ملكة سبأ ، يقول تعالى على لسان الهدهد لسليمان : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله^(٣) » .

وعبد بعض اليمانيين وداً إله القمر ، وعبدته بعض قبائل من كنانة ، وعبدت تميم الدبران ، وعبدت لحم وجذام المشتري ، وعبدت طيء سبيلاً ، وعبدت قيس الشعري العبور ، وعبدت أسعد عطار^(٤) . وعبادة الكواكب والنجوم وثيقة الصلة بعبادة الشمس .

ومن عبدة الكواكب صابئة حران ، لذلك برعوا في الفلك والسحر ، وظلوا على دينهم إلى سنة ٨٣٠ م إذ سألهم المأمون عن دينهم فأجابوا بما لا مقنع فيه ، فهددهم بالقتل إن عاد من رحلته فلم يجدهم على دين سماوى ، فقبلوا نصيحة بعض فقهاء المسلمين ، وأعلنوا أنهم من الصابئة ، وتحت ستار هذا الاسم استمتعوا بحقوق أهل الكتاب ، وإن ظلوا على عقائدهم القديمة^(٥) .

وكان في العرب صابئة آخرون ، قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٦) » .

(١) البيان والتبيين ١/٢٧ — ٣٥ تحقيق هارون

(٢) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٧

(٣) سورة النمل ٢٤ (٤) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٤٣

(٥) Encyclopædia Britannica (Art Sabians)

(٦) البقرة ٦٢

وقال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ^(١) » . وقال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ^(٢) »

وهم في بعض الأقوال يعبدون الملائكة ^(٣) ، أو يعبدون الكواكب ^(٤) ، أو هم لا يعبدون الكواكب لكن يعظمونها كما يعظم المسلمون الكعبة بالتوجه إليها ^(٥) . وفي الصابئة أقوال أخرى ^(٦) .

وقد كان بعض العرب يعبدون الملائكة ، قال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ^(٧) » .

وهم الذين قال الله فيهم : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ^(٨) » وقال : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ^(٩) » وقال :

(١) المائدة ٦٩

(٢) الحج ١٧

(٣) تفسير الطبري ٩٧/١٧ (٤) هذا رأى الصاحبين أبي يوسف ومحمد . عيون المسائل ٥٠

(٥) هذا رأى أبي حنيفة . عيون المسائل ٥٠

(٦) يكذبون بنبوة إبراهيم ومن بعده ويصدقون بنبوة إدريس وغيره (الفصل ١٠٢/١) ، وليس لهم كتاب وإنما لهم حدود وأحكام (الملل ٤٤/١) . وقد يجعلون من النصارى وقد يجعلون من غيرهم (تفسير النيسابوري ٩٧/١٧) أو هم يدينون بكتاب ينسبونه إلى شيث Original Sources of Quran (Adolphe Lods P. 52) and Browne P. 145

وتعرف شريعة شيث عندهم بالملة الحقيقية (قصص الأنبياء ٤٢) وكان شيث قبل إدريس ونوح (قصص الأنبياء ٣٨ و ٤٥) . وكانت له دراية بالفلك والنجوم (قصص الأنبياء ٤٠ و ٤٣) أو هم على دين نوح (القاموس مادة صبا) أو دينهم يشبه دين النصارى ويزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون (التهذيب للأزهري وهامش القاموس مادة صبا) . وقد اعتبرهم المسلمون من أهل الذمة يدفعون الجزية كغيرهم من الكتابيين (الخراج لأبي يوسف ٦٩) والذي هو المتمسك بكتاب كاليهود والنصارى . أما من زعم أن له كتابا كصحف إبراهيم وزبور داود ففيه ، خلاف والأصح عقد الذمة له . وكذلك الصابئة إن وافقت أصولهم أصول النصارى . ولكن لا يعقد لزندق ولا عابد وثن ولا لعابدا لملائكة والكواكب (صبح الأعشى ٣٦١/١٣)

(٩) النجم ٢٢

(٨) النحل ٥٧

(٧) سبأ ٤٠ و ٤١

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا . إنكم لتقولون قولاً عظيماً » (١) . ومن هؤلاء قريش كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ويعبدونها (٢) ، وآخرون من العرب زعموا أن الملائكة والأوثان بنات الله (٣) .

ومن مظاهر عبادة العرب للكواكب والنجوم اعتقادهم في الأنواء ، ونسبتهم المطر والرياح وكثيراً من الأحداث إليها ، كما سآبين في (ثقافة المرأة) . وكذلك تسميتهم الشمس إلهة . قال عتبة بن الحارث اليربوعي .

تروحناً من اللعناء عصراً وأعجَلْنَا الإلهة أن تثوبا (٤)

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذفها إلى الشمس قائلاً : أبديني بها سنّاً أحسن منها ، ولتَجِرْ في ظلِّها أيَّاتك . وزعموا أنه إذا فعل أمن على أسنانه الموج . وإلى هذا يشير طريقة بقوله :

سقته آيأة الشمس إلا لثاتِه أسفّ — ولم تكدم عليه — بإثمد (٥)

وقال أيضاً :

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الأشر (٦)

٣ — واعتنق بعض العرب المزدكية ، اعتنقها ملك كندة الحارث بن عمرو بن حُجر ، وكان معاصراً لقباز بن فيروز نصير المزدكية ، وكان المنذر بن ماء السماء في عهد قباز عاملاً له على الحيرة ونواحيها ، فدعاه قباز إلى الدخول معه في المزدكية فأبى ، فدعا الحارث فأجابه ، فولاه الحيرة مكانه ، ثم لما تولى أنوشروان أعاد المنذر وأبعد الحارث (٧) .

(٢) تفسير الطبري ٦٨/٢٣

(١) الإسراء ٤٠

(٣) تفسير الطبري . سورة النحل ٥٧

(٤) لسان العرب مادة أوب . اللعناء : اسم مكان . تروحناً : رجعنا . أعجلنا : سبقنا . تثوب : تغرب

(٥) ديوان طرفة ٢٥ آيأة الشمس : شعاعها . لم تكدم عليه : لم تعض بأسنانها عظاماً يذهب

تحزير أسنانها . أسف عليه بأثمد : ذر على لثته إثم وهو حجر للكل

(٦) ديوان طرفة ٦٥ الأشر : تحزير الأسنان

(٧) الأغاني ٦١/٨ وتاريخ اليعقوبي ٢٩٩/١ و

المرأة الفارسية

لم تسم المرأة الفارسية إلى مكانة عليّة ، وبحسبنا من الدلالة على أنها كانت في نظر الرجال مستمتعاً رواج الدعوة المزدكية ، وهشاشة العامة لها ، ورضا بعض الخاصة بها ، حتى لقد ناصرها الملك قباد عشر سنوات .

ثم إنه كان للفارسي أن يتصرف في المرأة كما يتصرف في سلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت ^(١) .

ولم تتعلم النساء شيئاً سوى تدبير منازلهن ^(٢) .

ولا يناقض هذه المكانة أن ملك الفرس عليهم سنة ٦٣٠ م بوران بنت كسرى أبرويز فلبست التاج ، ووعدت الحاضرين أن تسير فيهم بأحسن سيرة ، فنثروا عليها الجواهر ، وأظهروا البشائر ، ودام ملكها نحو سنة وأربعة أشهر وماتت . ثم ملكوا بعدها آزرم دخت بنت كسرى نفسه ، فلبست التاج ، ووعدت أن تعدل كما وعدت أختها ، ولكن ملكها لم يمكث إلا نحو أربعة أشهر ، وماتت أو سُمّت ^(٣) .

وكان قدماء الفرس يبيحون للرجل أن يتزوج ببنته ، وبأخته الشقيقة ، أو غير الشقيقة ^(٤) ويبيحون الأمهات ، والجمع بين الأختين ^(٥) ، فيتزوج الأب ابنته ، والابن أمه ، والأخ أخته ، لأن الزرادشتية تبيح ذلك ^(٦) .

وإذا كان الإيرانيون وبخاصة ال (كبر) قد ادعوا في القرون الوسطى أن العقائد المجوسية لم تحل المحارم فإنهم يخالفون الحقيقة الواقعة ^(٧) .

(١) تحرير المرأة قاسم أمين ٢٣ (٢) تاريخ الترية ١١٦/١ الفطان

(٣) الشاهنامه للفردوسي ٢/٢٦١ — ٢٦٢ ترجمة عزام وتاريخ الطبري ١٦٨/٢ والتنبيه والإشراف

للسعودي ٩٠ مع اختلاف يسير في مدة الحكم .

(٤) الأسرة والمجتمع ٤٧ (٥) صبح الأعشى ٢٩٥/١٣

(٦) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ول دورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد

(٧) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢

على أن تعدد الزوجات كان مباحاً أقرته شريعة زرادشت ، كما أباحت التسرى ،
واتخاذ الحظايا والخليلات (١)

وكان الحجاب شديداً على نساء الطبقة الراقية ، حتى لقد كن لا يخرجن إلا في هودج
مرخاة عليها السدول ، وكان محظوراً عليهن أن يخالطن الرجال في مجتمع عام أو خاص ، بل
لقد حيل بين المتزوجات ورؤية آبائهن أو إخوتهن . أما الفقيرات فكن حرات في التنقل
لاضطرارهن إلى السكد والعمل . وكانت الخليلات والحظايا يتمتعن بقسط عظيم من الحرية ،
لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن سادتهن وعن ضيوفهم (٢) .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويغالون في تقديرهم ، ويعدونهم ثروة
اقتصادية لآبائهم ، وعدة حربية لملوكهم . أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة ،
لأن الغرض من تربيتهن إعدادهن لمنزل رجل آخر يحنى فائدتهن . ومما قاله الفرس إن
الرجال لا يبتهلون إلى الله مطلقاً من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعتبر البنات بركة
يجوز منحها للبشر (٣) .

(٢) قصة الحضارة الفارسية ٦٠

(١) قصة الحضارة الفارسية ٥٨

(٣) قصة الحضارة الفارسية ٦١

صلة العرب بالرومان

٢ — إذا كانت صلة العرب بالفرس قد نجمت قبل أن تؤسس إمارة الحيرة ببضعة قرون ، فإن علاقة العرب بالرومان والرومان قد نبئت قبل أن تنشأ إمارة غسان ببضعة قرون أيضاً . فقد عزم الإسكندر على فتح بلاد العرب ، لأن الإغريق كانوا يعتقدون أنها غنية ، ثم كانت الغزوة التي قام بها نيارك حول بلاد العرب نذيراً بإزماع الإسكندر على غزو بلاد العرب نفسها ، ولكن موته وقاها هذا الغز .

وحوالى ٢٤ ق . م أرسل الإمبراطور أغسطس قيصر حملة خرجت من مصر بقيادة والى مصر ايلوس جالوس Aelius Gallus لتستولى على طرق التجارة التي يحتكرها الحميريون ، ولتستغل موارد الثروة في اليمن لصالح روما ، وتوغلت الحملة حتى نجران ، ثم باءت بالخيبة ، وكان يرافقها المؤرخ سترابون ^(١) ، وقد استعان فيها جالوس بالأنباط ^(٢) .

ثم كانت دولة الأنباط مسلکا للاتصال بين العرب والرومان ، وقد قامت هذه الدولة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، ودامت مستقلة إلى أن دخلت في حوزة الرومان ١٠٦ م ، وكان اليونان يسمونها العربية الحجرية Arabia Petra نسبة إلى عاصمتها بطرا (الحجر ^(٣)) وكانت مملكة الأنباط ، ولا سيما عاصمتها مركزاً تجارياً بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .

٢ — ولما سقطت بطرا في قبضة الرومان انتعشت إمارة أخرى هي تدمر ، وطمع فيها الرومان كما طمعوا في بطرا ، وحاولوا فتحها في منتصف القرن الأول قبل الميلاد بقيادة ماركس أنطونيوس ، ولكنهم لم يفلحوا . وبلغ بعض ملوكها من القوة إلى حد أن ساعدوا الروم في حربهم للفرس مساعدة تكفل النصر للروم ، بل لقد انتصر أذينة (٢٦٥ م) على

(٢) العرب قبل الإسلام زيدان ٦٨ — ٧٦

(١) تاريخ العرب ٥٨/١ فيليب حتى

(٣) العرب قبل الإسلام ٦٨

ملك الفرس سابور الأول فثأر لهزيمة الإمبراطور فاليريانوس ، فكافأ الإمبراطور أذينة بأن جعله امبراطور الشرق ، وأشركه معه في لبس رداء الملك الأرجواني . ولكن هذا الصفاء بين الرومان ومملكة تدمر لم يدم طويلا ، فقد تنكر الرومان لتدمر ، وقتلوا الزباء زوجة أذينة ، فانتصرت عليهم انتصاراً ميبئاً ، ثم عاودوا حربها وهزموها ٢٧٢ م ، وبعد موتها أخذت المسيحية تنتشر بتدمر ، وعاش بها بعض الأساقفة ، وشيد بها جستانان كنيسة . واستمرت تدمر خاضعة للرومان زهاء ثلاثة قرون إلى أن أخذها العرب (١) .

والأنباط والتدمريون جميعاً عرب ، لأن مؤرخي اليونان المعاصرين لهم ذكروا أنهم عرب ، ولأن أسماء ملوكهم عربية كالحارث وعبادة ورئبال وأذينة ووائل وعدى وعميرة ، ولأنهم كانوا يتكلمون العربية . ولا يخفى هذا أن آثارهم التي كشف عنها مكتوبة باللغة الآرامية ، فقد كانت لغة الكتابة في ذلك العهد ، وكان هذا شأن الدول القديمة بالشرق وخاصة فيما يتصل بالآثار السياسية والدينية (٢) . ويصح لنا أن نقول إن اللغة الآرامية كانت لغة دولية (٣) ، وفي التوراة ما يؤيد أن الاسرائيليين كانوا يتكلمون بها لما حاصر سنخاريب بيت المقدس (٤) ، وليس هذا بقادح في نسب الإسرائيليين . وكذلك كان عرب الحيرة يتكلمون العربية ، ويستعملون السريانية غالباً في كتاباتهم (٥) ، وعرب غسان يستعملون الآرامية لغة ثانية لهم (٦) ، وهذه الحال تشبه حالنا الآن ، فنحن نصطنع العامية في حديثنا والفصحى في كتابتنا ، بل لقد يصطنع بعضنا لغة أجنبية فيما يكتب ، وفي الشؤون الدولية بخاصة .

٣ — ثم أسست مملكة غسان بالشام ، وكانت صلتها بالرومان وثيقة ، وهي مشهورة شهوة تخولني أن أكتفي هنا بالإشارة إليها .

على أن قبائل عربية كانت تخضع للروم وتتصل بهم ، فمثلاً كانت قبيلة إياد تنزل بقرى

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٣ و ١٣/٥ وتاريخ العرب ١٠٠/١ فيليب حتى

(٢) تاريخ الأدب السرياني ٨ مراد كامل والبكري والعرب قبل الإسلام ٧٨ و ٨٩

(٣) تاريخ الأدب السرياني ٥ و ٩ (٤) سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢٦ وسفر أشعيا ٣٦ : ٧١

(٥) عصر ما قبل الإسلام ١٣٥ (٦) المرجع السابق ١٤٢

من أرض الروم ، وكان بعضها يسكن حمص وأطراف الشام (١) ، ثم دانت لغسان وتنصرت (٢) .

وكان نفوذ الرومان قد تسرب إلى قلب الجزيرة ، نتيجة للاتصال التجاري الدائم بين العرب والشام والرومان ، حتى إن أوليرى يرجح أنه كان بمكة قناصل رومانيون يراعون مصالح قومهم التجارية (٣) . وقد قدم عثمان بن الحويرث على قيصر ، ورغبه قيصر في أن يحض قريشاً على الإقبال بتجارهم إلى الشام ، وقيل إنه ولاه أمر مكة ، لكن قومه انقضوا عليه بعد أن بايعوه (٤) .

ثم إن الدنانير الهرقلية كانت ترد على أهل مكة في الجاهلية (٥) ، وقد شبهت امرأة عربية طلحة بأنه دينار هرقلي (٦) .

وبعض العرب تزوجوا روميات ، فمثلاً أبو الروم بن عمير بن هاشم بن عبد مناف أمه أمة رومية (٧) . ونجد في الجزيرة أشخاصاً من الروم ، وأسماء رومية ، مثل زينة الرومية التي أعتقها أبو بكر (٨) ، والأزرق غلام الحارث بن كلدة (٩) ، وأبي الروم ، وأبي رومي (١٠) .

أثر الرومان في العرب

كان العرب المتصلون بالرومان على قسط عظيم من الحضارة ، لأنهم يقبسون من حضارة الروم ، فمثلاً يصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس الغناء عند جبلة بن الأيهم وصفاً يدل على ترف وتحضر ، ويقول إنه سمع عشر قيان يغنين ، منهن خمس روميات يغنين بالبرابط (١١) .

(١) معجم ما استعجم ٧١/١ (٢) معجم ما استعجم ٧٥/١

(٣) Arabia Before Muhammed. O'leary. P. 184

(٤) الروض الأنف ١٤٦/١ والمتقى من أخبار أم القرى ١٤٣

(٥) فتوح البلدان ٤٧١ — ٤٧٢ (٦) الحيوان ٢٥٢/٤ وعيون الأخبار ٢٥/٤

(٧) أسد الغابة ١٩٤/٥ (٨) أسد الغابة ٤٦٢/٥

(٩) أسد الغابة ٤٨١/٥ (١٠) أسد الغابة ٤٢٧/٤

(١١) الأغاني ١٤/١٦

على أن الرومان كانوا من بواعث نشر المسيحية في بلاد العرب كما سبق ، وقد أعانهم الغساسنة في نشرها وحمايتها ، حتى لقد كان الحارث بن أبي شمر حامياً للكنيسة في الشرق ، والرومان هم السبب في نشر المسيحية في اليمن منذ بعثة تيوفيلوس ٣٥٦ م كما سبق .

المرأة الرومانية واليونانية

١ - كانت المرأة في نظر الرومان القدماء شراً يجتنب ، وإن كانت مخلوقة للبتعة ، وهي دائماً خاضعة للرجل أباً أو زوجاً ، « وكان زوجها يملك مالها ، ويقم عليها وصيا قبل موته ^(١) » ، فهي في نظره ونظر المجتمع أمة لا قيمة لها ، بيد أبيها أو زوجها حق حياتها وحق موتها ، وإذا كانت ملك أبيها في شبابها فإنه هو الذي يختار لها زوجها ، فإذا ماتت زوجت ملكها زوجها ، ويقول الفقهاء إنها في يمينه مثل ابنته ^(٢) . وعلى كثرة المشرعين في روما فإنهم لم يحفلوا بالمرأة ، ولم يعترفوا لها بحق ، وإنما عينوا ما عليها من واجب . فهي في نظرهم أمة شرعية يتصرف فيها رب الأسرة كما يتصرف في عبده وقطعانه .

على أنها في بعض الأحوال عمود النسب ، فإذا تزوج روماني امرأة أجنبية ، ولم يكن بينهما حق المصاهرة لحق الولد بأمه ، وكان غريباً ، وإذا تزوج لاتيني امرأة رومانية لحق الولد بأمه أيضاً ^(٣) .

وإلى هذا النظام يشير أبو العلاء إشارة سافرة في قوله :

ولحُبِّ الصحيح آثرت الروم انتساب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه إلا ظنونا وطلاً الوحش لاحقاً بمهاته ^(٤)

ولكن المرأة تنفست في عصر روما الذهبي ، وتحررت وسادت ، وأمسى الرجال أسارى النساء ، كأنما تواضع الرجال والنساء على تبادل ما كان ، وهال نفوذ النساء كاتو

(٢) حضارة العرب ٤٩٤

(١) المرأة في العصور ٢٥

(٣) تاريخ الحضارة . شارل سنيوبوس ١٩٩ (٤) أساس العدالة في القانون الروماني ٣٦

(٥) الزوميات ٩٦/٢

أحد عظماء روما السياسيين (٢٣٤ — ٣١٥ م) ، وهاله أن عم الرخاء ، وبالغت النساء في زينتهن ، وتدخلت الماحنات في سياسة الدولة ، وتسلمن على الأباطرة حتى أضعف سلطانهن روما نفسها ، عندئذ حاول كاتو أن يؤيد القانون الذي يحرم النساء الثروة ، فعجز ، وازداد التحسن في مركز النساء ، وتقدير الرجال لهن ، حتى إنه بعد الإمبراطور ديوكلتين (٢٨٤ — ٣٠٥ م) لم يبق أثر من سلطة الآباء والأزواج الشديدة ، وما زال الحال كذلك إلى أن كاد المشرعون في عصر جوستينيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) يساوون النساء بالرجال في الحقوق ^(١) .

وسواء نظرنا إلى العصر الذهبي أو إلى ما قبله فإننا نجد المرأة لم تعامل معاملة الرجل ، ولم تنافسه في مرتزقه ، فلم ترب البنات كما يربي الولد ، بل وجهت إلى فنون المنزل ، وأعدت للحياة الزوجية ، واتخذت من أمها معلمة لها ، وكانت تجيد الغزل والنسج والخياطة ^(٢) ، وشئون المنزل ، وكان من تشریفها أن تدعى أم الأسرة كما يدعى الرجل أبا الأسرة ، ومن تشریفها أن تكون زاهدة ، « فإذا ماتت كتبوا على قبرها مادحين : إنها التزمت بيتها ، ولم تبرحه ، وغزلت الصوف ^(٣) » .

كذلك كانت المرأة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية ربة البيت ، ولها نفوذ في مجال عملها المنزلي ، ونفوذ على أطفالها ^(٤) .

وكان الطلاق مألوفاً عند الرومان ، وقد كثر في عهد الجمهورية الأخيرة ^(٥) .

وقد اعترف الرومان بأنه نظام مرعى منذ العصور الأولى في تاريخهم ، فإن قوانين الاثنتي عشرة مائدة سوغته وأقرته ، ولكن ليس للزوجة حق في أن تطلبه ، فإذا حاولت الفراق عرضها عملها للعقاب الصارم ^(٦) .

(١) المرأة في التاريخ والفرائع ٨٥ والمرأة في العصور ٣٠

(٢) تطور النظرية التربوية ١١٨ (٣) تاريخ الحضارة ١٩٩

(٤) الإمبراطورية البيزنطية ٣٣ تأليف نورمان بينتر وترجمة مؤنس وزيدان

(٥) الإسلام والحضارة العربية ٨٠/١

(٦) مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٧٣

ولولا أن المسيحية أطفأت من شرته لظل سيفاً مصلتاً على العلاقة الزوجية إلى عصر متأخر (١).

٢ — أما المرأة الإغريقية فلم تكن أسعد حالا ، ولا أرفع مكانة ، لأن الإغريق عامة يعدون النساء من المخلوقات المنحطة ، وليست المرأة عندهم إلا بطناً يدفع النسل ، وإلا حفيظة على شئون المنزل ، وإذا وضعت المرأة ولداً دميماً قضوا عليها . قال مسيوتروبولوج : « إن المرأة السيئة الحظ كانت تضع ولداً غير قوى صالح للجندية ، فتقتل » . وقال : « كانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها عارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر » . ولم ينل إبان ازدهار الحضارة اليونانية الحظوة من نساء الإغريق سوى بنات الهوى اللاتي كن وحدهن لا يتحرجن (٢) . وهي كأختها الرومانية مسودة دائماً ، فإن كانت فتاة سيطر عليها أبوها ، وإن كانت زوجة سيطر عليها زوجها ، وإن كانت أرملة سيطر عليها أهلها (٣) .

وقد سمرت في إسبرطة وأثينا ، لكن هذا السفور ليس دليلاً على علو مكانتها ، لأن وظيفتها ولا سيما في إسبرطة كان أن تحمل وتلد للدولة ، فالزنا غير محظور ، والحجاب عبث .

وانحطت منزلة المرأة في أثينا حتى عدت من سقط المتاع ، « فكانت النساء يبعن ويشترين في السوق ، ومنزلتهن في الدرك الأسفل ، كأنهن رجس من عمل الشيطان . وكان مصرحاً للأثينيين أن يتزوج بأي عدد يشاء . وقد فاخر ديموستين بأن في عصمته ثلاث طبقات من النساء ، اثنتين منها زوجات شرعيات وشبهيات بالشرعيات (٤) » .

ومن عجب أن فلاسفة اليونان لم يسموا بمركز المرأة ، فإن سقراط لم يجد حرجاً عليها في أن يقرضها زوجها أصدقاؤه . ولم تكن في رأى أفلاطون أسعد حالا ، لأنه قسا عليها كما قسا قانون مانو الهندي القديم ، وأكد في جمهوريته أن الواجب تداول النساء كما تتداول

(١) الاسلام والحضارة العربية ٨٠/١

(٢) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون

(٣) La grande Encyclopedia. Tome 14. P 143-170

(٤) مراكز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٣٦

الحاجات^(١) . ثم لم يحاول أرسطو أن يبدل هذه النظرة ، فتمد قرر أن الخير قد يوجد في أشخاص من كل نوع ، حتى في المرأة والعبد مع أن المرأة أميل إلى الشر منها إلى الخير^(٢) . واصطبغت هذه النظرة للمرأة بصبغة القانون ، لأن قوانين ليكورغ مشروع إسبرطة — قبل تسعة قرون قبل الميلاد — جوزت الشيوخ في النساء ، وأباحن للزوجة أن يستمع بها غير زوجها بإذن منه ، وخولته أن يدفعها للاستبضاع من آخر على أن يكون الولد للزوج^(٣) .

وليس من مجافاة الحق أن نقرر أن المدنية اليونانية كانت تزدهر والمرأة اليونانية تافهة القدر ، متعة للرجل ، ومسلاة ، وقائمة بخدمة الدار ، وقد تبينت تفاهتهن في ضيق آفاقهن وضحولة معلوماتهن . وطاعتن العمياء للرجال^(٤) .

ومن الطبيعي أن تستتبع هذه المكانة إجحافاً بالحقوق المالية للمرأة ، فهي لا تملك ، ولا ترث^(٥) ، فإذا مات أبوها ورثه إخوتها وحدهم ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجها الأكبر من ورثة أبيها الأقربين ، وينسب ابنهما لجده والد أبيه ، وإليه ينتقل إرث جده^(٦) .

وكان الطلاق شائعاً عند الأثينيين بغير قيد أو شرط^(٧) .

على أن الأولاد كانوا في التاريخ القديم للإغريق — المنتهى سنة ٤٧٦ م — ينسبون أحياناً إلى أمهاتهم ، وفي إلياذة هوميروس أثارة من هذا^(٨) ، وهنا يتشابه الإغريق والإسرائيليون في تقدير الأمومة أكثر من الأبوة ، لأن الإغريق أيضاً كان يبيحون للرجل أن يتزوج أخته لأبيه ، ولا يبيحون له أن يتزوج أخته لأمه^(٩) .

(١) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و ١٣١ و ١٣٥ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٩ جستاف لوبون

(٢) الشعر لأرسطو ٦٠١ ترجمة إحسان عباس

(٣) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٢ والأمومة عند العرب ٢٦

(٤) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٨٩ Mrs Ray Strackey

(٥) حضارة العرب ٤٩٤ جستاف لوبون (٦) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٤

(٧) مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٧٣

(٨) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٢ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٥

(٩) الأسرة والمجتمع ٤٧

صلة العرب بمصر

كلما أوغلنا في الماضي لنميط الحجب عن تاريخ العرب في جاهليتهم شعث أمامنا أنوار تكشف عن مجهول ، أو تضيف جديداً إلى ما نعلم . فلقد كان يبدر إلى الخاطر أول وهلة أنه لا عجب في أن يتصل العرب بالعبرانيين والنصارى ، لأنهم مختلطون أحياناً ومتجاورون أحياناً ، وأنه لا عجب أيضاً في أن يتصلوا بالفرس لأنهم تجاوروا وتغاوروا قبل أن تؤسس إمارة الحيرة وبعد أن أسست ، ثم لا غرابة في أن اتصلوا بالرومان ، لأنهم تصاقبوا وتحاربوا وتحالفوا منذ كانت دولة الأنباط وتدمر ، ثم منذ نشأت إمارة غسان .

ولكن العجب في أن يتصلوا بمصر منذ زمن موغل في القدم ، « ففي الدور البنيوي باليمن الذي انتهى حوالى ٣٠٠٠ ق . م كانت رحلات تجارية مصرية أيام الأسرة الخامسة تقوم من مصر إلى الجنوب ، منها رحلة الملك ساحورع من ملوك القرن السادس قبل الميلاد إلى بلاد بنط - وكان يظن أنها الصومال الحديثة فحسب ، ولكن ثبت أخيراً أنها الأرض التي على جانبي باب المندب بشقيه الإفريقي والآسيوى ، وأيدت هذا الرأى البحوث التي قامت بها كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ١٩٣٧ م ، وبحوث الأستاذين رانجنر وفون وسمز - ثم رحلة الملكة حتشبسوت حوالى ١٥٠٠ ق . م ، وهي مدونة على جدران المعبد الكبير الذي أنشأته في الدير البحرى (١) » .

وتعددت حملات المصريين على بلاد العرب الجنوبية للحصول على اللبان والعطور وغيرهما (٢) .

وقد عرف العرب مصر زمن قديم ، وكانوا يفدون على الجزء الشمالى الشرقى من مصر ، وقد سماهم المصريون شاسو أى البدو ، وكانوا يتنقلون في بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر

(١) تاريخ العرب ١/٤١ فيليب حتى وعصر ما قبل الإسلام ٦٣ - ٦٥ نافع

(٢) تاريخ العرب ١/٤١ - ٤٣ فيليب حتى

الأحمر كما يتنقل بدو العصر الحاضر . وكان لهم في سيناء وما يليها سيادة وحكومة من أقدم أزمنة التاريخ . وكثيراً ما جاس العرب في شرقي وادي النيل ، وكثيراً ما سطوا على مدن مصر ، وسلبوا السابلة من عهد مينا ، وكثيراً ما استعان بهم الفراعنة في خروبهم ، لما كانوا يعلمون من شدة بأسهم .

ثم سنحت فرصة لهم وثبوا فيها على مصر وامتلكوها، وعرفت دولتهم بدولة البدو، واليونان يسمونهم هكسوس ، والعرب يسمونهم العمالة أو العرب البائدة ^(١) . والمؤرخون مختلفون في زمن امتلاكهم مصر ، ولكن إخراجهم منها يكاد يكون حوالى ١٥٨٠ ق . م على يد أحسن الأول ، وبذلك حكموا مصر نحو قرن ونصف قرن ^(٢) ، وقيل إنهم قدموا إلى مصر في أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وما زالوا بها إلى أوائل القرن الثامن عشر ^(٣) ، وبذلك قضوا في مصر نحو خمسة قرون . ولقد يقرب مسافة الخلف أن الهكسوس لم يغزوا مصر دفعة واحدة بين عشية وضحاها ، بل كان غزوهم تدريجياً ، واكتسب قوته بمرور الزمن ، كالشجرة التي تضرب بجذورها في أرض خصبة فتزداد نمواً على مر الأيام ، وذلك أنهم وفدوا على مصر جماعات صغيرة متفرقة ، ثم صار لهذه الجماعات سلطان عظيم حتى حكموا مصر حوالى ١٧٣٠ ق . م . ولما طردهم أحسن الأول لم يزل نفوذهم الثقافي من مصر ، بل استمرت ثقافتهم تطبع الحياة المصرية بطابعها الخاص إلى مدة من عهد الأسرة الثامنة عشرة . وهم الذين جلبوا الخيل والعربات إلى مصر ، ولا شك أنهم كانوا على جانب عظيم من المدنية ^(٤) .

والراجح أنهم عرب كما قرر ذلك يوسفوس المؤرخ الإسرائيلي المتوفى في أواخر القرن الأول للميلاد نقلاً عن مانيشون المؤرخ الإسكندري المتوفى في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد ^(٥) ، ودليل آخر أن العرب يسمونهم في كتبهم عمالة مصر ^(٦) . ثم إن لفظ هكسوس

(١) العرب قبل الإسلام ٥٢ — ٥٦ جرجي زيدان

(٢) مصر القديمة . سليم حسن الجزء الرابع

(٣) العرب قبل الإسلام ٥٢

(٤) مصر القديمة ١٦٣/٤

(٥) العرب قبل الإسلام ٥٦ عن josephees. wars of the jews. 1-19

(٦) تاريخ ابن خلدون ٢٧/٢

أصله هيك شاسو ، وكان يظن أن معناه ملوك الرعاة ، ثم تبين أن معناه ملوك البدو أو البادية ، وهم العرب . وقد ورد في الآثار المصرية أن الهكسوس جاءوا من بلاد العرب قديماً . ومما يرجح عروبته أن المصريين بعد أن أجلوهم من مصر استمروا يناصبونهم العداء ، ويغزونهم في أرضهم ، كما فعل رعمسيس الثاني وتحتمس ، واستمر العرب أيضاً يهاجمون مصر بغزواتهم ، وقد ناصروا الفرس في فتحهم لمصر^(١) ، مما يدل على ميل إلى التآمر مستحكم بين العرب والمصريين .

والذين لا يذهبون إلى عروبتهم يقررون أن الساميين هم العنصر الغالب في الهكسوس^(٢) . ومن المحتمل أن بعض أجناس قد اختلطت بهم^(٣) .

وقد ارتاد رعمسيس الثالث بلاد الحبشة والصومال وبلاد العرب بأسطوله ، ولم يكن له بدّ من توطيد العلاقة الودية بين مصر وشواطئ البحر الأحمر واليمن ، ليفسح المجال للتجارة بين مصر وأقصى الشرق ، لذلك أنشأ طريقاً للقوافل منظمًا بين القصير وفقط تسلكه التجارة بعد أن تعبر المحيط الهندي مارة ببلاد العرب .

واقترى به وعمسيس الرابع (١١٦٦ ق . م) فافتتح طريقاً مختصراً إلى بلاد العرب ، وكان الطريق إليها طويلاً^(٤) .

فلا عجب أن يكثر العرب بفقط ، وأن يذكر استرابون أن نصف سكانها كانوا في زمانه (القرن الأول قبل الميلاد) من العرب^(٥) ، لأن مصر ضعفت بعد دولة الرعامسة ، وطمع فيها جيرانها ، وشرع بعض العرب يفدون إليها بأنعامهم وخيامهم ، ويسطون على مدنها كما فعلوا من قبل ، ونزلوا قفط ، وماكوها قروناً^(٦) ، ولم تكن قفط وحدها هي المعمورة بالعرب ، بل كانت مدن كثيرة في صعيد مصر حافلة بالعرب منذ زمن استرابون إلى القرن الأول بعد الميلاد^(٧) .

- | | |
|---|---------------------------|
| (١) العرب قبل الإسلام ٥٩ | (٢) مصر القديمة ١٨٧/٤ |
| (٣) مصر القديمة ١٩٧/٤ | (٤) العرب قبل الإسلام ٩٦ |
| (٥) مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ٣٣١/٣ | (٦) العرب قبل الإسلام ١٠٢ |
| (٧) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد | |

على أن التجارة كانت عروة أخرى من عرى الاتصال ، فكان السبئيون ينقلون العروض الهندية والحبشية على قوافلهم إلى مصر^(١) ، ثم كان عرب الشمال يحملون المتاجر إلى مصر ، وهم الذين اشترى يوسف وباعوه بها . جاء في سفر التكوين : « ثم جلسوا يأكلون — إخوة يوسف — ورفعوا عيونهم ، ونظروا فإذا قافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم محملة وهم سائرون لينزلوا مصر^(٢) » . ثم نجد قبيلة حوثكة تنزل بمصر في العصر الجاهلي بعد نزاع بينها وبين غيرها^(٣) ، وأخيراً نجد أثارة من هذا الاتصال فيما يروى عن وفود عمرو بن العاص على مصر في الجاهلية ، في قصة جال فيها الخيال وصال^(٤) ، وإذا كنا ندفع خيالها ، ونرفض تفاصيلها ، فإننا لا نستبعد جوهرها ، لأن عمرا تاجر ، ومصر من البلاد التي كان العرب يتجرون معها .

لذلك عثر الباحثون في اللغة المصرية القديمة على ألوف من الكلمات العربية ، وقد ألف المرحوم أحمد كمال معجما كبيرا في ذلك لم يطبع بعد .

المرأة المصرية

أما المرأة المصرية فقد كانت سامية القدر ، لها أن تتولى الملك إذا فقد الوارث للعرش من الذكور ، ومع أن هذا النظام سن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة كما روى ديودور فإن جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات بإزاء أربعمائة وسبعين ملكا^(٥) . ويظهر أن شعور المصرية بأنوثتها كان السبب في أنها — وإن كانت ملكة — تشعر بأن الملك أليق بالرجل ، لأن الملكة حثشبسوت — قبل ١٥٥٠ ق . م — اضطرت إلى أن تلبس ثياب الرجل ، مراعاة للرأى العام^(٦) . وكان المصريون يدينون للملكة بالولاء ، ويجلوونها ، حتى ليقول ديودور الصقلي إنها كانت تنال من السلطة والتكريم أكثر مما ينال الملك ، ويرجع هذا إلى الذكرى المجيدة التي خلفتها في مصر الآلهة إيزيس^(٧) .

(٢) سفر التكوين ٣٧ : ٢٥

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي

La uestion Feministe. P. 137 Rosle (٥)

(٧) الحضارة المصرية القديمة لوبون ١٣

(١) العرب قبل الاسلام ١٢٠

(٣) معجم ما استعجم ٤٠/١

(٦) المرأة في التاريخ والشرائع ١٩

وكانت الزوجة جليمة القدر ، حتى إن الملك لا يكاد يصور على الآثار إلا مع زوجته ، وهذا عام لا يقتصر على الطبقة العالية . وكان لقبها أنها ربة البيت ^(١) . وكانت النساء يحضرن مع أزواجهن الحفلات العالية ، وهذا مظهر لم يعهده العالم القديم ولا الشرق الحديث ، فالمصرية كانت امرأته بجانبه أينما وجد ، ولم يكن من الأدب المرعى الفصل بين زوجين ، وهذا يشبه ما نراه الآن في الحفلات الأوروبية ، فالزوج المصري وزوجته يجتازان الحياة واليد في اليد كما نرى في الصور التي على القبور ^(٢) .

ومما يدل على العناية بالزوجة أن فتاحتب — ابن ملك من الأسرة الخامسة — أذاع وصاياه لما طعن في السن ، على بنى وطنه ، وكان منها : إذا كنت عاقلا فأجد تموين بيتك ، وأحبب امرأتك ، ولا تشاحنهما ، وغذها ، وزينها ، وعطرها ، ومتعها ما حييت ، فهي ملك يجب أن تكون جديرة بالملك ، ولا تكن معها فظاً غليظاً ^(٣) .

وكانت المرأة تتناول مهراً من زوجها بعقد زواجها ، وقد ذكر ديودور أنه نص في شرط عقد من عقود الزواج على أن المتزوجين اتفقا على أن يطيع الرجل المرأة ^(٤) .

وقد أباح الفراعنة والبطالسة الزواج بالأخت ^(٥) ، وكان ذلك عاما في الشعب كما ذكر ديودور ^(٦) ، وفي أحيان قليلة كان زواج بالأم ^(٧) .

وعرف المصريون تعدد الزوجات عن طريق التسرى ، لأن النظام الاجتماعي كان يقضى بتقسيم الشعب إلى طبقات ، ولم يكن مباحا للرجل أن يتزوج إلا امرأة واحدة من طبقته ، ولكن له أن يتسرى ، على أن تكون زوجته سيدة سراريه ^(٨) .

وعرفوا النسب إلى الأم أحيانا بدلا من النسب إلى الأب ، إذا كانت الأم من أسرة

(٢) الحضارة المصرية القديمة ٦٣

(٤) الحضارة المصرية القديمة ٧٢

(٦) الأسرة والمجتمع ٤٧

(١) المرأة في مختلف العصور ١٨

(٣) الحضارة المصرية القديمة ١١٦

(٥) قصة الحضارة ٧٣/١

(٧) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧

(٨) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧

عالبة القدر ^(١) ، على أن النسب إلى الأب كان هو الشائع ^(٢) ، ولعل هذا من تأثير الأمومة الأولى التي وجدت آثارها إلى عهد الإمبراطورية الوسطى ، وفي نقوش ذلك العهد نرى أن الجدة من جهة الأم تتقدم في سيرها على جميع أفراد الأسرة ^(٣) .

وتميزت المرأة من بعض معاصراتها بأنها تملك ، بل لقد استأثرت بالملكية أحياناً ، لذا كان يناط بالبنات تغذية أهلهن إذا طعنوا في السن ، ولا يكلف الذكور ذلك ، وهذا دليل على أن النساء لهن وحدهن زمناً طويلاً يملكن ويرثن ^(٤) . ثم تطور النظام فصارت المرأة تأخذ من تركة أبيها نصيباً يعادل نصيب شقيقها ^(٥) ، وكان هذا قبل الحكم اليوناني .

وكانت النساء يمارسن التجارة ، فقد ذكر هيرودوت أن النساء المصريات كن يذهبن إلى السوق ، ويفرغن للتجارة ، أما الرجال فكانوا في منازلهم ينسجون ^(٦) .

وبعد الحكم اليوناني لمصر أباح فرعون بوهورس للأعيان أن يملكوا الأرض — وكان تملكها قبل ذلك مقصوراً على الملك والأشراف والكهنة والقواد ، ولم يكن لعامة الناس ما يستحق أن يملك ويورث — خفيف من استئثار الرجل بالملكية عقب أن شاع تعدد الزوجات ، فعمدت المرأة إلى كبح استئثاره بالاشتراط في عقود الزواج ، حتى كانت إحداهن تشرط عليه أن تنتقل أملاًكه كلها إلى ولده منها إذا تزوج بغيرها. ثم حد فيلوباتور أحد بطالسة اليونان من حق الزوجات في التصرف فيما يملكن ، فأمر بإبطال تصرفهن إلا بأجازة بعولتهن ، وبذلك وضع المرأة في وصاية الرجل ، وجعل الرجل صاحب الحق في توزيع الثروة ، فانحطت مكانة المرأة بتأثير المدنية اليونانية ^(٧) .

(١) La grande Encyclopedie. Tome. 17.P. 143-170

والحضارة المصرية القديمة ٧٢
(٢) المرأة في التاريخ والشرائع ١٣
(٣) الحضارة المصرية القديمة ٧٢
(٤) الحضارة المصرية القديمة ٧٢
(٥) تاريخ التربة لأحمد فهمي القطان ١/٤٤
(٦) الحضارة المصرية القديمة ٧١
(٧) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧

القسم الأول

المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية

الباب الأول

المرأة في الحياة الأسرية

الفصل الأول

الأم

أريد أن أروز قدر المرأة في الأسرة ، وأن أفصل نواحي القول فيها ، سواء أ كانت أم زوجة أم بنتا أم أختا أم قريبة ، معتمداً على ما يبضُّ به الشعر ، وما يسجله القرآن الكريم ، ومتخذاً من التاريخ والأحداث والاجتماع جلاء لما غمض ، ولقد أعتمد على غير الشعر لأمهد للموضوع ، وأعدّ له جواً ملائماً .

١ — ورأيت أن أبدأ بمكانة المرأة في الأسرة ، لأن الأسرة أساس القبيلة ، والنظرية التي قال بها العلامة روبرتسن سمث Robertson Smith وهي « أن النظام الاجتماعي في بلاد العرب كلها واحد ، يمكن تلخيصه في أن القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية ^(١) » ، قد أبطلتها البحوث الحديثة التي قام بها العلامة روبرت لوى R. Lowie لأنه أثبت أن الأسرة هي أصغر وحدة اجتماعية ، وأن الجماعات الكبيرة كالعشيرة والقبيلة قد نشأت من نمو الأسرة ، وبهذا نقض ما ذهب إليه من قبل ماك لنان وسمث من أن العشيرة أصغر وحدة اجتماعية ^(٢) .

(١) Kinship & Marriage in early Arabia. P. 1. by Robertson Smith

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ١٠ عن R. Lowie. Primitiv

Society & Smith Religion of the Semites. P. 38

وتاريخ العرب ٢٣/١ فيليب حتى

لهذا عدت الأسرة عند أكثر الأمم قديماً وحدة اجتماعية ، فكانت حكومة صغيرة في الأمة الكبيرة ، الأب فيها رئيس مطلق وبطريك قديم ، يحف يه أولاده وعبيده وأحفاده ، وقطعانه (١) .

ومن الأسر المشتركة في الدم تنشأ القبيلة ، موسومة بطابع الأسر التي كونتها .

وإذا فالقبيلة العربية هي الأساس الاجتماعي الكبير للحياة العربية ، وعاداتها هي الغالبة ، سواء أكان أفرادها يعيشون في قبائل بدوية تقوم حياتها الاقتصادية على الرعي ، أم يعيشون في قبائل تجارية تحرس اللطائم ، أو تجوس البلاد حاملة السلع والمتاجر .

أما الزراعة فلم يكن العرب يمارسونها في الحجاز ونجد ، لذلك لما فتح النبي خيبر لم يجد من المسلمين ذوى خبرة بالزراعة ، فأبقى اليهود في أرضهم يزرعونها ، على أن لهم الشطر من نخلها وزرعها (٢) ، ثم لما فتح وادي القرى ترك النخل والأرض في أيدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر (٣) .

وقد حافظ العرب على العادات القبلية زمناً طويلاً ، حتى بعد انتقالهم إلى الحياة الحضرية ، فكانت العلاقة بين رجال قبيلة واحدة أو ثقب من العلاقة بين سكان مدينة واحدة ، وإذا فتحت مدينة أنشئت فيها أحياء للقبائل ، ولقد يفصل بين الأحياء أو بين الشوارع بأسوار ذات أبواب ، كما كان الحال في دمشق ، وهذا دليل على خضوعهم للحياة القبلية في المدن أيضاً . وهم حملوا هذه النزعة إلى إيران فيما حملوا (٤) .

٢ — وبدأت بالأم لأنها المعين الذي يفيض بالافراد والأسر والجماعات ، هي التربة الخصيبة التي ينبت فيها الحب ، فإذا ما نضج أنبت حباً آخر . الأم هي التي تمنح بنيتها — بعد الخالق سبحانه وتعالى — الحياة ، فهم في بطنها أجنة يقضون أشهراً في قرار مكين يغتذون من دمها ، ثم هم بعد الوضع أطفال يرتضعون من لبنها ، وينعمون برعايتها وحبها ،

(١) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٣٢

(٢) فتوح البلدان ٣١ و ٣٢ وسيرة ابن هشام ٣٨٩/٣

(٣) فتوح البلدان ٤١

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية . ٣ بارتولد

ويتشكلون إلى حد كبير بتربيتها ، ثم هم فتيانا وشباننا معقد أملها ، وهى أيضاً نجى أنفسهم ، وملاذ الخائف منهم ، وقسيمة الفرح المحبور ، فإذا ما اكتهلوا فهم نخارها وذراها ، وهم حينئذ ذكرانا وإنائاحياتها المتجددة ، وثمراتها الواعدة ، ترى خلودها فيهم ، وفى ذرارهم . فهى أجدد بالتقدمة على الزوجة لهذا ، ولأنها بالأمومة ذات صفتين : فهى زوجة الرجل ، وهى أم لبنين .

أما الزوجة فكثيراً ما تكون ذات صفة واحدة ، لأنها زوجة فحسب قبل أن تنسل ، فإذا ما نسلت صارت أمّاً وزوجة ، وجنح بها الوصف إلى الأمومة أكثر من الزوجية .

وهى مقدمة على الزوجة وعلى البنت معاً لأنها أصل لكتنهما ، ولأنها تجمع صفات ثلاثاً لا تتحقق كلها فيهما ، فالأم ابنة لرجل ، وزوجة لرجل ، وأم لأبناء .

وقد قيل إن البنت أولى بالتقدمة ، لأن حواء — أول أئى — خلقت بنتاً . لكن رد ذلك ميسور ، إذ أن حواء قد خلقها الله زوجة لا بنتاً ، قال تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها »^(١) ، فلو أنا تتبعنا النشأة الأولى لقدمنا الزوجة لا البنت ، على أن تتبع هذه النشأة ليس محتوما علينا ، لأن للأم صفات تؤثرها بالتقديم ، ولأننا نستطيع أن نقول إن الغاية من خلق حواء لا أن تكون بنتاً ولا زوجة وإنما أن تكون أمّاً يكثر بها بنوها ، وتعمر بهم الأرض .

أثر الأم فى القرابة

جـرى العرب على أن الأب هو الأصل فى القرابة وربط الأسرة ، ولكن الأم كانت ذات شأن عظيم فى القرابة أيضاً ، وكثيراً ما كانت المصاهرة وشيجة قوية بين الأسر وبين القبائل ، لأن العرب كانوا يحلون الأم إجلالاً عظيماً « ولا يعززون المرأة إلا أن تكون أمّاً »^(٢) ، وإذا ما ولدت المرأة ارتفع قدرها ، وتوثقت بها العرى^(٣) . وكان هذا شأنها

عند اليونان أيضاً ، فهي كالآمة إلى أن تلد . وكان الفرس يعلون من قدر المرأة إذا ولدت وما زال هذا دأب أهل البادية إلى اليوم ^(١) .

لذلك عبر العرب عن القرابة بالرحم ، والرحم في اللغة منشأ الجنين ومستقره ، وهو القرابة أيضاً ، أو أصلها وأسبابها ، واشتقوا منه الرحمة بمعنى الرأفة والتعطف والمغفرة ، قال الهذلي :

ولم يك فظاً قاطعاً لقرابة ولكن وصولاً للقرابة ذا رُحْم ^(٢)

وقال القتال السكابي يحكى استعطافه لابن عمه زياد :

نشدت زيادا والمقامة بيننا وذكرته أرحام سَعْرٍ وهَيْثُم ^(٣)

وقال آخر :

أفبقوا بنى حَزْنٍ وأهواؤنا معاً وأرحامنا موصولة لم تُقَضَّب ^(٤)

وكثيراً ما يتردد هذا التعبير عن القرابة ^(٥) .

وهم دلوا على القرابة أيضاً بكلمة بطن ، والبطن وعاء الرحم ، لذلك قالوا : نثرت المرأة بطنها إذا أكثر الولد ، وألقت ذات بطنها إذا ولدت ، وهو أيضاً دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العماره ، واشتقوا من البطن ما يدل على الصداقة والمصافاة ، فقالوا : هو بطانة فلان أى من خواصه ^(٦) .

وكثيراً ما كان الشاعر يعبر عن الأخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمه — كما سيجيء في إعزاز الأم لبنيتها — في مجال الاستعطاف وإحياء المودة ، أو في مجال الفخر ، أو اللوم على قطع أرحام كان يجب أن توصل ، كقول الشنفرى :

(١) التمدن الإسلام ١٥/٤

(٢) القاموس المحيط وأساس البلاغة مادة رحم

(٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٠١/١ أى أقسمت عليه وأهل المجلس حاضرون . وذكرته الرحم

(٤) المرزوقي ٣١٢/١

التي تجمعنا من هذين الرجلين

(٥) البيان والتبيين ١٨٢/١ وديوان النابغة ٤١ والأغاني ١٥٩/٢٠

(٦) أساس البلاغة والقاموس المحيط مادة بطن .

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى أهل سواكم لأميل^(١)
وكقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك :

تقول ابنة العُمريِّ مالك بعدما أراك حديثاً ناعم البال أفرعا
فقلت لها طولُ الأسي إذ سألتني ولوعة حزن تترك الوجه أسقعا
وفقدُ بني أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعا^(٢)

وقول النابغة الجعدي في رثاء ابنه محارب ، يخاطب زوجته :

ألم تعلمي أني رزئتُ مُحارباً فمالك منه اليوم شيء ولا ليا
ومن قبله ما قد رزئتُ بوحوح وكان ابن أمي والخليل المصافيا^(٣)

وكان هذا هو السبب في أن عشيرة الأم تناصر أولاد هذه الأم ، وإن كانوا من قبيلة أخرى ، لأن الخثولة قرابة قوية كما سيحيى في الحال .

وكان الرجال يتقربون إلى أخوالهم ، ويقبسون من شرفهم ، ويخيلون بفخارهم . يقول نابغة بني جعدة في آمنة بنت أبان بن كليب زوجة أمية بن عبد شمس :

وشاركنا قريشا في ثقاها وفي أنسابها شرك العنان
وما ولدت نساء بني هلال وما ولدت نساء بني أبان^(٤)

وكانوا يخيلون أيضا بالجد لام ، يقول عمرو بن كلثوم :

ورثت مهلهلا والخير منه زهيرا ، نعم زخر الذاخرينا^(٥)

(١) أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري ٣

(٢) المفصليات ٦٨/٢ ابنة العُمري : زوجته . أسفع : مغبر . تداعوا : تسابعا إلى الموت .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٥١/٣

(٤) الأغاني ٩/١ ساسي . شرك العنان : شركة متساوية لأن عنان الدابة طاقتان متساويتان

(٥) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٣٩

الأم الحرة

١ — أغرم العرب بأن يفخروا بنسبهم ، وبأن يشيدوا بآبائهم ، وأولعوا أيضا بأن يباهوا بأمهاتهم ، ويزهوا بحريتهم ، وعراقة نسبهم . وسنعرف في دراسة (الأمة) أنها كانت دون الحرية مقاما ، وأن أبناءها كانوا يعيرون استرقاقها . وكأنما كان العربي الذي يخایل بأمه يزواج نغره ويضاعفه ، لأنه إذا يفخر بأبيه أيضا ، فما كان العبد ليتزوج حرة ذات عراقة . وهذا الفخار بالأم صراحة وبالآب ضمنا — وإن كانوا كثيرا ما غفروا بالآب صراحة — يستتبع أيضا مباهاة من الفاخر بسجاياه ومزاياه وعراقة التي ورثها من أبويه . يقول جعفر بن عتبة الحارثي إن الحرب والكرب لا يكشفهما إلا ابن الحرة الشجاع ، لأنه يرى من شوائب الهجنة ، فصار كرم أصله مهيجا لأنفته ، ومشجعاه على الاستيسال :

لا يكشف الغناء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها (١)

ويقول القتال الكلابي في نغره بأمه عمرة بنت حرقة من ربيعة :

لقد ولدني حرة ربيعية من اللاء لم يحضرن في القيظ دندنا (٢)

ويفخر بأنه ابن أسماء ، وهي من عشيرة أبيه وأعمامه ، وقد رضع ثديها حرة وزوجة الحر ماجد :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى إذا ترامى بنو الإموان بالعار (٣)

وقد جمع المقدم بن زيد سيد بني حنظل بن خولان نغره بأمه إلى نغره بأبيه في قوله :

نمتنا إلى عمرو عروق كريمة وخولان معقود المكارم والحمد

وأُمى ذات الخير بنت ربيعة ضرية من عيص الساحة والمجد (٤)

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٥٠/١

(٢) الأغاني ١٥٩/٢٠ دندن : ما اسود من نبات أو شجر والمراد أنها لم تكلف الاحتطاب

كالإمام . وفي الأصل ديدنا

(٣) تهذيب الكامل ٣١٣/٢ ولسان العرب ٤٧/١٨ إموان : جمع أمة

(٤) معجم البلدان ٤٣٢/٥ ضرية : بنت ربيعة بن نزار وهي أم خولان وإخوته بني عمرو

ابن الحاف بن قضاة

وكان الفخر بحرية الآم وشرفها عاما ، يشيد به العلية والعامه ، فالشنفري وهو من غير العلية يقول :

أنا ابن خيار الحجر يبتاً ومنصباً وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها ^(١)

ولم يحل تلقب الآم بلقب لا يرضاه الشاعر أن يذكر لقبها هذا ، ويباهى بكرمها وشرفها وعفتها ، يقول ربيعة بن عبد ياليل في أمه قلابه الملقبة بالذبية :

إني لمن أنكرني ابن الذبسة كريمة عفيفة منسوبة ^(٢)

وسيد الأشراف محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يقول في يوم حنين : أنا ابن العواتك من سليم ^(٣) .

وقد تأقلم اليهود في الحجاز كما سبق واحتدوا بالعرب في نخارهم بأسمائهم . فالسموءل ابن عاديا يفخر بأنهم من أمهات أحسن حملهم أجنة ، ومن آباء كرمت عروقهم ، فكانوا في أعلى المراتب من ظهور الآباء الكرام ، وانحدروا منها لوقت معلوم — يريد وقت الأطهار — إلى بطون خير الأمهات :

(١) الأغاني ٨٨/٢١

(٢) من نسب إلى أمة من الشعراء لمحمد بن حبيب . نوادر المخطوطات ٩٠

(٣) إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك للزيدي ٦ مخطوط والنقائض ٤٠٣ ولسان العرب ٣٥١/١٢ وإنسان العيون ٤٦/١ والمغازي للواقدي ٢٧٣ وتاريخ الخميس ٢٥١/١ . امرأة عاتكة : بها ردع الطيب . قال السهيلي في الروض الأنف إنها مصفرة من الزعفران ؛ وفي القاموس بحمرة من الطيب ؛ ويؤيده قول ابن قتيبة هي من عتكت القوس إذا احمرت . وهذه الآراء راجعة إلى تغير لونها من الطيب .

وقال ابن عباد في المحيط : هو من عتكت إذا شرفت ورأست على قومها وعشيرتها ؛ فسموا بهذا الاسم تغاؤلا على عاداتهم . وقيل سميت لصفائها من قولهم نبيذ عاتك أي صاف ؛ وهو قول ابن دزيد . وقال ابن سعد في الطبقات : العاتكة الطاهرة في نسبها وحسبها (إيضاح المدارك ص ٥ مخطوط) . والعواتك : منهن أم هاشم والمطلب وعبد شمس بن عبد مناف ؛ وهي عاتكة بنت مرة بن هلال ابن فالج بن ذكوان . وعاتكة بنت فالج بن ذكوان أم جده هاشم بن عبد مناف . وعاتكة بنت الأوقص ابن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم وهب بن عبد مناف بن زهرة جد الرسول لأمه آمنة . وسائر العواتك أمهات رسول الله من غير بني سليم ؛ فهن تسع ؛ والثلاث الأوليات : الأولى عمة الوسطى ؛ والوسطى عمة الأخرى (النقائض ٤٠٣ وإيضاح المدارك ١١ — ١٤ ولسان العرب ٣٥١/١٢) وقد اختلف في عدد العواتك من جداته ؛ فمن مكثر ومن مقل (إنسان العيون ٤٦/١)

صفونا فلم نَكْدرْ وأخلص سِرنا إناث أطابت حملنا وفحول
علونا إلى خير الظهور وحطنا لوقت إلى خير البطون نزول^(١)

٢ — ومَدَحُوا أيضاً بالأم الحرة، قال حُرَيْث بن مُحَفَّظ في مدح قومه :

بنو المجد لم تَقْعُدْ بهم أمهاتهم وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا^(٢)

وعبروا أحيانا عن الحرائر بالمهيرات ، لأن المهر كان لا يدفع إلا للحرة ، قالت الخنساء
في رثاء أخيها صخر إنه ينتمى إلى السادة ذوى الحصافة والحكمة والسخاء ، وإلى حرائر
مواجد من حرات ماجدات :

يابن القروم ذوى الحجا وابن الخضارمة المرأفد
وابن المهائر للها نرزانها الشيمُ المواجد^(٣)

ولم يكن المُلْكُ ليحول بين الملك ومدحه بأمه كما يمدح بأبيه ، ولم تكن عظمة الملك هي
المجد الفذ الذى يشيد به مادحوه ، لذلك شادوا بأمه كما نوهوا بأبيه ، فهذا حاتم الطائي يمدح
الحارث بقوله :

نمته أمانة والحارثا ن حتى تمهل سبقا جديدا^(٤)

بل لقد تبلغ عزة الشخص بأمه إلى أن يعلو بها على أم الملك الشهير الذى اشتهر باسم
أمه ، يقول عارق الطائي في رده على تهديد الملك عمرو بن هند :

من مبلغ عمرو بن هند رسالة إذا استحقبت العيس تنضى من البعد
أيوعدنى والرمل بينى وبينه تأمل رويداً ما أمانة من هند^(٥)

(١) شرح الحماسة للتبريزي ١١٩/١ وديوان السموءل ١٠

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٢ بتحقيق شاكر وفي بعض المراجع أنه ابن محفض

(٣) ديوان الخنساء ٦٢ القروم : جمع قرم وهو الفحل من الإبل ؛ والمراد السيد الشريف .
الخنزارة : جمع خضرم وهو البحر الطامى والمراد الكريم . المرأفد : جمع مرأفد وهو المعطى . المهائر :
جمع مهيرة وهى المرأة الشريفة الحرة ذات المهر الغالى . للمهائر : أى أن جداته مهائر (٤) ديوان حاتم ٧

(٥) شرح الحماسة للتبريزي ٢١/٤ ومعجم البلدان ١١٥/١

وكان شائعاً أن ينسب الشخص إلى أمه — كما سألين — وأن ينسب نفسه إلى أمه وإن كان أبوه ملكاً ، يقول امرؤ القيس :

ألا هل أتاها والحوادث جمّة بأن امرأ القيس بن تَمَلِّكَ بَيَقْرَا^(١)

وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم زياد بن لبيد البياضى من الأنصار حضرموت ثم ضم إليه كندة ، فانتقضت كندة كلها عليه إلا السكون ، فقال شاعرهم :

ونحن نصرها الدين إذ ضل قومنا شقاء وشايعنا ابن أم زياد
ولم نبغ عن حق البياضى مزحلاً وكان تُقَى الرحمن أفضل زاد^(٢)

وكان شائعاً أيضاً أن تكنى المرأة باسم ابنها تكريماً لها .

قال زيد الخيل فى رثاء أوس بن خالد :

فلا تجزعى يا أم أوسٍ فإنه تصيب المنايا كل حافٍ وذى نعل^(٣)

وقال عمرو بن الأهتم :

ألا طرقت أسماء وهى طروق وبانت على أن الخيال يشوق
ذرينى فإن البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سرُوق^(٤)

وكانت هذه الكنية أثيرة عند المرأة ، لذلك قالت السيدة عائشة يوماً للنبي وهى حزينة إن كل نسائه لهن كنى إلا هى . فقال لها : تكنى بابنك عبد الله — وهو ابن أختها أسماء — فصارت من ذلك الحين تكنى بأم عبد الله^(٥) . ولما ولدت أم هاشم خالد بن يزيد بن معاوية تركت كنيتهما الأولى واكتنت بأم خالد . يقول فيها يزيد :

وما نحن يوم استعبرت أم خالد بمرضى ذوى داء ولا بصحاح^(٦)

(١) ديوان امرئ القيس ٦٩ تملك : اسم أمه أو إحدى جداته . يقرر : أقام فى الحضر وترك أهله فى البادية

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ١٠٧

(٣) المفضليات ١/١٢٣

(٤) الشعر والشعراء ٩٥

(٥) الطبقات الكبير لابن سعد ٨/٤٣ والسنن الكبير للبيهقى ٩/٣١٠

(٦) الأغاني ١٦/٨٥

ويتصل بهذا الفخر والمدح التبرؤ من أن تكون الأم أمة ، والتعيير بالأمة ، يقول القتال المكلابي :

أنا ابن أسماء أعصمى لها وأبي إذا ترامى بنو الإموان بالعار
أما الإماء فلا يدعونني ولدا إذا تحدثت عن نقضي وإمراري
لا أَرْضَعُ الدهرَ إلا ثدي واضحة لو اضح الخد يحمي حوزة الجار^(١)

ويهجو عويف القوافي خصومه بأنهم جبناء ، وبأن أمهم وضیعة النسب :
وما أمكم تحت الخوافي والقنا بشكلى ولا زهراء من نسوة زهر^(٢)
ويبرأ ذو الأصبع العدواني من عبودية أمه ، فيقول في لوم ابن عمه — ويقال إن أمه كانت أمة —

عنى إليك فما أمى براعية ترعى المخاض ولا رأي بمغبون^(٣)
ولما عير المتلمس أخواله بنو يشكر — ويقال إنه ولد فيهم ومكث بينهم حتى كادوا يغلبون، على نسبه ، فسأل الملك عمرو بن هند مضط الحجاره — والمتلمس عنده —
الحارث بن التوأم اليشكري عن نسب المتلمس ، فقال : أنا يزعم أنه من بني يشكر ، وأنا يزعم أنه من بني ضبيعة ، فقال عمرو بن هند : ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين — غضب المتلمس فقال :

تعيرني أمى رجال ولن ترى أخا كرم إلا بأن يتكرما

.....

فلو غير أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرائن ميسما
وهل لى أم غيرها إن ذكرتها أبى الله إلا أن أكون لها ابنا^(٤)
وهجا عمرو بن هند بقصائد أخرى^(٥) .

(١) لسان العرب ٤٧/١٨ وتهذيب الكامل ٣١٣/٢ أموان : جمع أمة . واضحة : شريفة

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٢٨/٤

النسب حرة

(٣) الشعر والشعراء ٢٧١ والمفضليات ١٥٨/١

(٤) الأغاني ١٢١/٢١ وشعراء النصرانية ٣٣٧

(٥) شعراء النصرانية ٣٣٩ و ٣٤٠ والأغاني ١٢٥/٢١ و ١٢٩ و ١٣١ و ١٣٥ و ديوان المتلمس ١

— وظل الاعتزاز بحرية الأم إلى ما بعد العصر الجاهلي — كما سيجيء في الإماء — فقد
فاخر الحجاج بن يوسف بقوله : لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر (١).

الأم المنجبة

زُهِيت الأم بأبنائها السادة الماجدين ، وحق لها أن تزهى لأنهم بعضها ، وثمراتها
الجنية الشبيهة التي حملتها وتعهدتها حتى أنضجتها . فهي الوعاء الذي ضمهم أجنة ، وهي التي
حضنتهم وأرضعتهم وربتهم أطفالا ، فإذا كانت كريمة العنصر وأنجبت نسب إليها قسط من
نجابة بذاتها ، وإن كانت خسيصة العنصر وولدت ولداً وضيعاً ذمّت به وذم بها . لذلك قال
النبي عليه الصلاة والسلام : تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس .

لذلك زُهِيت الأم المنجبة بأبنائها ، وزهى أبنائها بها ، لأنهم يدينون لها بكثير من
عظمة نفوسهم ، وسلامة أبدانهم ، وشهرتهم ومجدهم . وسميت الأم التي يشرف بنوها منجبة .

وقد رفع العرب من أقدار المنجبات ، فنوهوا بهن ، وعدوهن مثلاً عالية يرمقونها
ويقيسون عليها ، لذلك ضربوا ببعضهن المثل فقالوا : أنجب من ماوية (٢) ، وأنجب من
فاطمة بنت الخرشب (٣) ، وأنجب من أم البنين (٤) ، وأنجب من عاتكة (٥) ، وأنجب
من خبيثة (٦) .

أما ماوية فهي بنت عبد مناة بن مالك من تميم ، أم لقيط وحاجب وعلقمة ومعبد
بني زرارة بن عدس (٧) .

(١) البيان والتبيين ٨٢/٢ تحقيق هارون

(٢) مجمع الأمثال ٢٧٦/٢

(٣) جهرة الأمثال ٢٤٢/٢ ومجمع الأمثال ٢٧٦/٢

(٤) مجمع الأمثال ٢٧٦/٢ وجهزة الأمثال ٢٤٢/٢

(٥) مجمع الأمثال ٢٧٦/٢ وجهزة الأمثال ٣٤٢/٢

(٦) جهرة الأمثال ٢٤٣/٢ ومجمع الأمثال ٢٧٦/٢

(٧) الأغاني ١٩/١٦ ومجمع الأمثال ٢٧٥/٢

وأما فاطمة بنت الخرشب الأنماريه فقد ولدت لزياد العبسي الكملة : ربيعا الكامل ،
وقيس الحفاظ ، وأنس الفوارس ، وعمر الوهاب أو عمارة ، وكل منهم ساد في الجاهلية ، وقاد
جيشا . وقد سئلت : أى بنيك أفضل ؟ فقالت : الربيع ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس .
ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ^(١) .
وأما أم البنين فهي ابنة عمرو بن عامر فارس الضخياء ، ولدت مالك بن جعفر بن كلاب
ملاعب الأسنة ، وفارس قرزل طفيل الخيل والد عامر الشاعر الفارس ، وربيع المقترين
ربيعه والد عبید ، ونزال المضيق سُلَى ، ومعوذ الحكماء معاوية ، وهى التى افتخر بها ليبد
فى قوله :

نحن بنو أم البنين الأربعة ^(٢) .

وأما عاتكة فهي بنت هلال بن مرة بن فالح بن ذكوان ، ولدت لعبد مناف ابن قصي
هاشما وعبد شمس والمطلب ^(٣) .

وأما خبيثة فهي بنت رياح بن الأشل الغنوية ، ولدت لجعفر بن كلاب خالداً ومالكا
وربيعة ^(٤) .

لا عجب إذآ فى أن يحفل الشعر بالإشادة بالأمهات المنجبات ، لأن الإعجاب بهن ، والفخر
بهن القلوب الشاعرة ، ويرفد بالحامد النفوس الفاخرة . فهذا أنيف بن حكم - أو ابن زبآن -
النبهاني يفخر بأن قومه يأبون الضيم ، لأن أهمهم أكثرتهم وأنجبهم .

أبى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم بنو نارق كانت كثيراً عيالها ^(٥)

ويفخر ليبد بجدته أم البنين على مسمع من النعمان بن المنذر بقوله :

نحن بنو أم البنين الأربعة ومن خيار عامر بن صعصعة

(١) مستقصى أمثال العرب للزمخشري ٧٦ مخطوط والأغانى ١٩/١٦ وأمالى المرتضى ١٣٤ / ١
وجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦

(٢) جهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ وجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ والأغانى ٢٢/١٦ والمعارف ٣٠ وديوان
ليبد ٧ وأمالى المرتضى ١٣٧/١ ومستقصى الأمثال ٣٨ مخطوط

(٣) جمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ وجهزة الأمثال ٢ / ٢٤٢

(٤) جمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ وجهزة الأمثال ٢ / ٢٤٢ والأغانى ١٩/١٦

(٥) شرح الحماسة للمرزوقي ٧٧/١ النائق : الكشيرة الأولاد

المطعمون الجفنة المدَّعَدَّة — والصاربون الهام تحت الخيضة (١)
وقد كرر لبيد الفخار بقوله :

أَنْبَتُ أَنْ أَبَا حَنِيفٍ لَامَنِي فِي اللَّائِمِينَا
أَبْنِي هَلْ أَحْسَسْتُ أَعْمَى — أُمِّي بَنِي أُمِّ الْبَيْنِينَا
وَأَبِي الَّذِي كَانَ الْأَرَا — مَلَّ فِي الشِّتَاءِ لَهُ قَطِينَا (٢)

ولقد بلغ إعجاب قيس بن زهير العبدي بفاطمة بنت الخرشب أم بني زياد أن لقبها بالجنية ، لأنها أنجبت أسوداً بسلاً لا تنجب إنسية مثلهم :

لعمرك ما أضاع بنو زياد ذمار أبيهم فيمن يُضَيِّع
بنو جنية — ولدت سيوفا صوارم كلها ذكرٌ صَنِيع (٣)

النسب إلى الأم

مظاهره

منذ زمن قديم عرف الساميون والعرب النسب إلى الأم ، ويتكشف هذا في مظاهر عدة .

١ — كان للمرأة أحياناً أن تسمى أبناءها ، وتنسبهم إليها ، وكان لعشيرتها هذا الحق ، وقد استمر هذا إلى قبيل الإسلام ، يدل على ذلك أنه لما خطب عمرو بن حجر إلى عوف ابن محمّل الشيباني ابنته أم إياس قال له : نعم أزوجكها على أن أسمى بنينا ، وأزوج بناتها ، فقال عمرو : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فنكحن أكفاهن من الملوك (٤) ، وأستنتج من هذه القصة أن عوف بن محمّل استمسك بهذه التسمية كبرياء منه

(١) الأغاني ٢٢/١٦ والمعارف ٣٠ وديوان لبيد ٧ وأما إلى المرتضى ١٣٧/١ ومستقصى الأمثال للزحمرى مخطوط ٣٨ . والبنون الأربعة خمسة في الحقيقة هم : مالك بن جعفر ملاعب الأسنة ، وطفيل ابن مالك أبو عامر بن الطفيل فارس قرزل ، وريعة بن مالك والد لبيد وهو ربيع المقترين ، وعبيدة ابن مالك الواضح ، ومعاوية بن مالك معود الحكماء . وهم أشرف بني عامر . وقد جعلهم أربعة لأن أباه كان قد مات والأربعة أحياء (خزائن الأدب للبغدادى وأما إلى المرتضى ١٣٧/١) وليس بصحيح أنه جعلهم أربعة للقافية كما في جمع الأمثال للبيداني وجهرة الأمثال لأبي هلال . المددعة : الملائى . الخيضة : غبار الحرب .

(٢) ديوان لبيد ٤٥

(٣) شرح الخناسة للرزوقي ٤٦٩/١ وسمط اللآلى ١١٧/١ وفي ديوان حاتم الطائي ١٧ أنها لحاتم .

(٤) العقد الفريد ١٩١/٣

واعزازا بنفسه ، أو جريا على عرف اجتماعي في عشيرته ، وأن عمرو بن حجر رفضه ، لأن هذا النظام غير سائد في قومه .

٢ — كان الولد أحيانا إذا ما كبر عاد إلى قبيلة أمه ، وانتسب إليها ، كما فعل زهير ابن أبي سلى ، فقد كان بشامة بن الغدير خال أبيه ، فانقطع زهير إليه ، واختار هذا الحي من أخواله عطفان لحنولتهم ، ولما حضرت الوفاة بشامة جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته ، فأتاه زهير فقال : يا خاله لو قسمت لي من مالك ؟ فقال : والله يابن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله ، قال زهير : وما هو ؟ قال : شعري ورثتيه . ثم أحذاه نصيبا من ماله (١) .

٣ — نسبت كثير من العشائر الآرامية إلى أمهاتها ، ففي النقوش الآرامية التي كشف عنها في الحجر أسماء عشائر تنسب إلى الأم لا إلى الأب (٢) . وقد سبق أن هذا النسب كان معروفا للإسرائيليين ، فهناك شواهد قديمة تذكر سلالات من بني إسرائيل نسبت إلى الأم ، وظلت الأم الاسرائيلية قرونا تحتفظ بنسب بنينا إليها (٣) .

وما زال علماء الاجتماع يعترفون به في بحوثهم ، فلما ارتقت حضارة الساميين ارتفعوا إلى نظام الأبوة ، لأن الحضارة تؤكد الجانب الأبوي . وكثير جداً من القبائل العربية عزت نسبها إلى أمهاتها ، فمثلا باهلة قبيلة من قيس عيلان ، سمو باسم أمهم باهلة بنت ضب بن سعد العشيرة (٤) ، وخندف نسبوا إلى أمهم امرأة إلياس بن مضر ، واسمها ليلى بنت حلوان من قضاة (٥) . وبجيلة حى من اليمن وهم ولد امرأة اسمها بجيلة (٦) ، وبنو العدوية من تميم نسبوا إلى أمهم ، وبنو ظبية من تميم أيضا نسبوا إلى أمهم (٧) ، ونسب بنو مرة بن صعصعة إلى أمهم فعرفوا ببني سلول (٨) ، ونسب الأوس والخزرج إلى أمهم قيلة فسموا بني قيلة (٩) ،

(١) الأغاني ١٤٩/٩ ساسي

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦

(٣) Israel from its begning. Lods P. 192

(٤) منتخبات من أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري ١٠

(٥) نسب عدنان وقحطان للبرد ، والأغاني ١٢/١ الدار

(٦) منتخبات من أخبار اليمن ٥

(٧) المعارف ٢٦

(٨) المعارف ٢٩ وشرح الحماسة للتبريزي ١٩٣/٢ والشعر والشعراء ٢٤٨ ودائرة المعارف

الإسلامية ٣٢٠/٣

(٩) المعارف ٣٦ والتنبيه والإشراف ١٧٤ ودائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٣

ونسب بنو دهن بن وديعة من لكير من ثقيف إلى أمهم وائلة (١) ، ونسب بعض بني الحارث بن ذهل بن شيبان إلى أمهم الورثة من بني يشكر ، فقييل بنو الورثة ، ونسب بعضهم إلى أمهم جذرة ، وهى سبية من الين ، ونسب بعضهم إلى أمهم الشقيقة (٢) .
والذى يبدو لى أن نسب القبائل إلى أمهاتها كان شائعا فى القبائل ، وفى أماكن شتى ، سواء فى ذلك أهل الجنوب وأهل الشمال ، وسواء فى ذلك الحضر والبدو ، وسواء فى ذلك أكانت الأم حرة أم أمة .

٤ — ولا يقل نسب الأفراد إلى أمهاتهم كثرة عن نسب القبائل إلى أمهاتها ، وقد ألف محمد بن حبيب كتابا فيمن نسب إلى أمه من الشعراء ، ذكر فيه ٣٩ شاعرا عدت من بينهم ٣٦ شاعرا جاهليا (٣) .

وفى غيره من المراجع مئات من أشخاص انتسبوا أو نسبوا إلى أمهاتهم ، منهم عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد نسب إلى أمه زهرة دون أبيه (٤) ، وأوس بن مغراء شاعر نسب إلى أمه (٥) ، وشبيب بن البرصاء نسب إلى البرصاء أمه ، وهو القائل :
أنا ابن برصاء بها أجيب
هل فى هجان اللون ما يعيب (٦)

وخفاف بن ثذبة منسوب إلى أمه وكانت سوداء سبية (٧) ، ونسب الأشهب بن ثور إلى أمه رُميلة وهى سبية من سبايا العرب (٨) ، ونسب قيس بن منقذ بن عمرو بن عبيد إلى أمه الحدايه (٩) ، ونسب ربيعة بن عبد ياليل الثقفى إلى أمه قلابة ، وكانت تلقب بالذبية ، فقييل ربيعة بن الذبية (١٠) ، وكان يكنى عن ثابت بن عمرو بن مالك من بني النجار بأنه ابن خنساء (١١) ، ويكنى عن سواد بن وهب بن بلى من قضاة بأنه سواد بن غزيرة (١٢) وغير هؤلاء كثير (١٣) .

- | | |
|--|-------------------------------|
| (١) المعارف ٣١ | (٢) المعارف ٣٣ |
| (٣) من نسب إلى أمه من الشعراء لمحمد بن حبيب . مخطوط بدار الكتب | |
| (٤) المعارف ٤٣ | (٥) الأغاني ٦٢/٢ و ١٣١/٤ ساسى |
| (٦) طبقات الشعراء ٢١٦ والأغاني ٨٩/١١ | (٧) المعارف ١٤٢ |
| (٨) الأغاني ١٥٣/٨ ساسى | (٩) الأغاني ٢/١٣ |
| (١٠) مجالس ثعلب ١٧٣ والمؤتلف والمختلف ١٢٠ | |
| (١١) الطبقات لابن سعد ٧٠/٣ | (١٢) الطبقات لابن سعد ٧٢/٣ |
| (١٣) المعارف ٢٥٧ — ٢٥٨ | |

وما زال النسب إلى الأم حتى صدر الإسلام ، وحتى ما بعده ، فقد كنوا عن الحسين ابن علي بأنه ابن بنت رسول الله تكريماً له بأمه ^(١) ، وإسماعيل بن عليّة منسوب إلى أمه ، وأبوه إبراهيم بن عائشة منسوب إلى جدة له ، وكان أبوه أيضاً يعرف بابن عائشة ، وابن القرية منسوب إلى أمه ، واسمه أيوب بن زيد ، وابن الإطنابة منسوب إلى أمه ، وكذلك ابن ميادة ^(٢) ، وكان ممن يهاجى الفرزدق الأشهب بن ثور ، وقد اشتهر بأنه ابن رُميلة وهي أمه ^(٣) .

آراء في أصل النسب إلى الام

ذهب بعض العلماء إلى أن الأمومة كانت النظام الذى خضع له العرب القدماء .

١ — ففى رأى سمث أن العرب كانوا فى عصر قديم ينتسبون إلى آباء من الحيوان أو النبات يعبدونها ويقدسونها ، ويحملون أسماءها ، ويحرمون أكلها ، وكانوا يجرون فى زواجهم على ما تجرى عليه القبائل المتوحشة فى أستراليا وأمريكا وإفريقية من القبائل التوتمية ^(٤) . ومن نظم التوتمية أن يتبع الولد توتم أمه لا توتم أبيه ، ومن نظمها أيضاً أن زواج الرجل من امرأة تتفق معه فى توتمه محظور . ورأى أن انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم وإلى قحطان ، وأن سلسلة أنسابهم كما تذكرها كتب الأنساب اختلاق وضع فى صدر الإسلام ، متأثراً بنظام الاستحقاق للعطاء الذى وجد فى ديوان عمر بن الخطاب ^(٥) . ويقول إن حروبهم كانت دائمة ، وإنهم لم يعرفوا الملكية ، بل كانت أموالهم ونسائهم مشاعة بينهم ،

(٢) المعارف ٢٥٨ والإصابة ٨/١٤٤

(١) بلوغ الأرب ٣/١٩٦

(٣) طبقات الشعراء ١٩٣

(٤) التوتمية هى أن يرتبط أفراد الأسرة أو العشيرة برابطة قرابة متحدة الدرجة ، ليست قائمة على صلات الدم . وإنما هى قائمة على انتماء الأفراد لتوتم واحد Totem . وهو نوع من الحيوان أو النبات تتخذ العشيرة رمزاً لها ، ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتزله وتنزل الأمور التى ترمز إليه منزلة التقديس . فائمه مجموعة من الأفراد لتوتم واحد يجعلهم أفراد أسرة واحدة ، ويربطهم بقرابة متحدة فى درجتها وقوتها أيا كانت صلة بعضهم ببعض من ناحية القرابة الطبيعية ووشيجة الدم . فليست درجة القرابة التى تربط الولد بأبويه لتزيد على درجة القرابة التى تربطه بأى فرد آخر من العشيرة . بل لقد كان يعتبر أجنبياً عن أبويه أو عن أحدهما إذا قضت النظم المتبعة باتمائه إلى عشيرة أخرى غير عشيرتهما أو عشيرة أحدهما (الأسرة والمجتمع على عبد الواحد ٨)

وإذا أسرت المرأة لم يستأثر بها رجل واحد ، فهم يشبهون جماعة بدائية تدين بالشيوعية (١) .
واستدل على أمومة العرب باستعمالهم كلمة البطن والفخذ للدلالة على القرابة ، وظن أن كلمة
بطن كان لها مدلول آخر غير ما تعارفت عليه الأنساب ، ودليله على ذلك استعمال كلمة
رحم (٢) ، وقال إن البطن والحي هما أول المجتمعات عند الساميين ، والحي في نظره وحدة
اجتماعية سياسية متميزة (٣) ، وفي رأيه أن كلمة حي ذات صلة بالحياة ، فالحي رابطة قرابة
وصلة رحم (٤) .

٢ — وذهب ماك لينان Mac Lannan إلى أنه في بعض الشعوب المتوحشة وبعض
الأمم المتمدنة قديما وحديثا كان الخاطب أو رفاقه يتظاهرون على اغتصاب فتاة له من غير
قبيلته ، واستنتج أن هذه العادة بقية من عادة قديمة مدارها أن يتزوج رجال القبيلة بنساء
قبيلة أخرى ، وأخذ يبحث في أصل هذه العادة ، فحيل إليه أن سببها شيوع الواد عند بعض
القبائل ، حتى لقد أدى إلى زيادة عدد الرجال على النساء ، فاضطروا إلى مباشرة امرأة واحدة .
وفي رأيه أن هذا أصل تعدد الأزواج ، وظهور نظام الأمومة ، لأن الأصل في الأمومة أن
أم الولد معلومة وأباه مجهول ، ثم استنتج أن قلة عدد النساء في بعض القبائل اضطرت رجالها
إلى اغتصابهن من قبائل أخرى ، ولهذا كانت تعدد الأزواج شائعا في القبائل ذات النكاح
الخارجي ، وكانت هذه القبائل لا تعترف إلا بقرابة الأم (٥) .

٣ — وإلى ذلك ذهب ولكن Wilken ، فإنه بعد أن استعرض أنواع النكاح عند
العرب في الجاهلية قال إنه لم يكن سبيل إلى معرفة الأب ، بل لم تكن حاجة إلى هذه المعرفة ،
لأن الاتصال الجنسي في العصر الخالية — حين كان الزواج الشرعي مجهولا — من شأنه
أن يتبع الولد أمه في كل شيء ، ولم يكن هذا لينع الرجل من الحنو على الطفل الذي شارك
في وجوده (٦) ، وله على ذلك أدلة ، منها أن هذا النظام ما زال معروفا عند بعض القبائل
إلى اليوم ، وأن العرب استعملوا كلمة بطن بمعنى القبيلة ، وأن بعضهم نسبوا إلى أمهاتهم ،
وأن أبناء الأخت كانوا يرثون خالهم (٧) .

(١) Ebid. P. 150 (٢) Ebid. P. 37 (٣) Ebid. P. 41

(٤) Ebid. P. 47 (٥) Primitive Marriage. P. 124

(٦) الأمومة عند العرب . ولكن . ترجمة بندى الجوزى ٣٢

(٧) الأمومة عند العرب ٣٥ — ٤٣

٤ — ويعمل شارل لوتورنو للأومة بأن الناس كانوا في العهد الوحشي عاجزين عن إدراك العلاقة بين الزواج والولادة ، فقام نظام الأسرة على الأومة ، ذلك أنه من الطبيعي أن الرجال الذين لا يدركون العلاقة بين المباشرة والإنسال لجهلهم السبب في الحمل أولشيوخ النساء بينهم واختلاط أنسابهم لا يهتمون بعزو أولادهم إليهم ^(١) .

مناقشة هذه الآراء

١ — أغلب الظن أن أصحاب هذه النظريات متأثرون في رأيهم عن العرب بما ذكره سترابون في معجمه الجغرافي من زواج المشاركة في اليمين ^(٢) ، وبما ذكره الكاتب اللاتيني Ammianus Marcellinus من أن عرب الجاهلية لم يعرفوا زواجا مستمرا ترتبط فيه المرأة برجل معين لأجل غير مسمى ، لأنهم كانوا يجرون على نظام النكاح المؤقت ، فهم يقضون حياتهم في تجوال وتنقل ، ونساؤهم يجامعن من يردن من الرجال . وقد ظل النكاح المؤقت شائعا بينهم إلى مشرق الإسلام ، وأباحه النبي (عليه الصلاة والسلام) لأصحابه ، (فترة من الزمن) ويعرف هذا النكاح بنكاح المتعة ^(٣) .

ولكن ما ذكره سترابون من اشتراك الإخوة في زوجة واحدة بالين نوع من الأقاخيص ، لأنه لم يطق أرض الين ولم يخالط أهلها ، وإنما كان مصاحبا لحمة جالوس التي تحدثت عنها من قبل ، فلعله سمع من بعض الناس هذه الرواية فصدقها وعممها ، أو لعلمها كانت حادثة فردية شاذة ضخمتها خيال الرواة لغرابتها ، وكتب السياح حافلة بالأساطير ، وما زال كثير منهم يعززون إلى بلاد الشرق التي يزورونها ولا يقيمون بها إلا قليلا أموراً لا تمت إلى الحقيقة بسبب . وفي التاريخ أمثلة كثيرة لهذا الخلط والاختلاق مثل « زعم بولوجيوس — أحد كهنة قرطبة العلماء المخالطين للمسلمين — أن النبي أنبا أصحابه بأن الملائكة ستحملة إلى المساء بعد موته بثلاثة أيام » ^(٤) . على أن سترابون نفسه صدر روايته بقوله (ondit) أي يقال ^(٥) . ويقول : للإخوة جميعا امرأة واحدة ، والزناة — وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم — يعاقبون بالقتل . وإذا فالقصة تشير إلى اشتراك

Strabo Xvi. 7 (٢)

(٤) أنساب العرب القدماء . زيدان ٢٠

(١) المرأة في التاريخ والفرائع ٦

(٣) الأومة عند العرب ٢٠

(٥) أنساب العرب القدماء ٢٠

الإخوة في الزواج بامرأة واحدة ، ولا تذكر أن العشيرة كلها تشترك في امرأة ، فنظام الأسرة قائم ، وهذا يناقض ما ذكره سميث وغيره في نظام الأمومة من تحريم الزواج من العشيرة التوتمية . ثم قصة سترابون تصرح بأن الزواج الخارجى محرم ، حتى ليعد زنا يعاقب فاعله بالقتل ، والزواج الخارجى أساس الأمومة في رأى القائلين بها . ويستدل الأستاذ محمود جمه على بطلان قصة سترابون بأن النقوش المعينية منذ الألف قبل الميلاد تبين أن عرب الجنوب كانوا يشعرون بشعور دينى قوى في مراعاة قوانين الخلط الجنسى ، ويعدون أى انحراف عن مراعاة هذه القواعد أمراً إذاً ينفرون منه نفوراً شديداً ، وإذا ما زل أحدهم فارتكب فاحشة سارع إلى التوبة ، لذلك لا يمكن افتراض أن الإباحية الجنسية كانت عامة (١) .

وإذا فدعوى سترابون أن زواج المشاركة كان ذائعا في اليمن مردودة لا تؤيدها الحقائق التاريخية ، وعلمه بأحوال بلاد العرب ناقص ، لأنه تلقفه من قصص التجار والمغامرين المتزيدين .

٢ — أما أدلة سميث على توتمية العرب فقد نقضها كثير من علماء الاجتماع (٢) . وأهم أدلته :

١ — أن كثيراً من القبائل كانت تنسب بأسماء الحيوان كأسد وفهد وكلب الخ . . لأن هذه الحيوانات هي توأم القبائل التي تسمت بها . وهذا مردود ، لأن عدد العشائر التي تسمت بأسماء الحيوان لا يعدو الأربعين ، وأسماء القبائل بضع مئات . ثم إن هذه الأسماء التي أطلقت على القبائل وعلى الأفراد أوحى بها ظروف وملابسات خاصة ، عرض لها الجاحظ بقوله : « والعرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ولد ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنسانا يقول حجراً أو رأى حجراً سمى ابنه به ، وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم مالم ي . وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب . وإن كان حماراً تأول فيه

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٢٨

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٩٩ — ١٤٢

طول العمر والوقاحة والقوة والجلد، وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت وغير ذلك (١) .

ولقد يختارون الأسماء المرعبة المربعة لتوحى إلى المسمى بالقوة والشدة ، ولترهب الأعداء ، فقد سئل أبو العرفيش الأعرابي : لم تسمعون أبناءكم بشر الأسماء نحو ذئب وكلب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمى أبناءها لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا (٢) .

(ب) وأن العرب عبدوا الحيوان . وهذا مردود أيضا بآتنا لا نعرف أن العرب عبدوه كما عبده المصريون القدماء .

وليس في أصنام العرب ما كان على صورة حيوان ، إلا ما جاء من بعض الآراء في يغوث ويعوق ونسر ، فقد ذكر الزمخشري والنيسابورى أن يغوث كان على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر (٣) .

على أن الطبرى لم يذكر هذا ، وإنما روى أنها كانت على صورة أناسى ، وقد عبدها قوم نوح ثم عبدها العرب ، وتابعه الزمخشري فذكر ذلك أيضاً (٤) . وليس في كتاب الأصنام ما يشير إلى شبهها بالحيوان (٥) ، فنحن الآن أمام رأيين : فإذا اعتمدنا أن هذه الأصنام الثلاثة كانت على صورة حيوانات ، فعلياً أن نتذكر أنها قلة قليلة بالنسبة لما نعرف من عدد أصنام العرب (٦) ، وإذا أخذنا بأنها كانت على صورة البشر بطلت الدعوى . وسواء أكانت على هذه الصورة أم تلك فإنها لم تكن من مبتدعات العرب ، وإنما هى بقايا من عهد نوح . وهناك عشرات من أصنام العرب لم تكن على شكل حيوان ، وبعضها كان على هيئة إنسان (٧) .

وشتان بين عبادة الحيوان في التوثمية وعبادة صنم على هيئته ، لأن أصحاب

(١) الحيوان للجاحظ ٣٢٤/١ بتحقيق هارون

(٢) حياة الحيوان للدميرى ٢٤٢/٢ وتاريخ الخميس ١٧٣/١ ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب

للقلقشندي ٢١ (٣) الكشف للزمخشري ٤٩٢/٢ وتفسير النيسابورى ٥٢/٢٩

(٤) تفسير الطبرى ٦٢/٢٩ والزمخشري ٢٩٢/٢

(٥) الأصنام لابن الكلبي ١٠ و ١١ و ٥٧ و ٥٨

(٦) في كتاب الأصنام لابن الكلبي ثلاثون صنماً . وفي ملحق الكتاب سبعة وأربعون .

(٧) الأصنام ٩ و ٢٨ و ٥٦ و ٥٩ وتفسير الطبرى ٦٢/٢٩ والنيسابوى ٥٣/٢٩ والزمخشري ٤٩٢/٢

التوتم يعبدون حيوانات لا أصناماً شبيهة بها ، ويمارسون ضروباً من السحر والرقى لحفظ التوتم حياً .

ولا يصح أن نغفل عن تقرير القرآن الكريم أن العرب كانوا لا يعبدون الأصنام لذاتها ، بل لتقريبهم إلى الله زلفى « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

(ح) وأما دليله على توتمية العرب بأنهم حرموا لحم بعض الحيوان ، فهو مردود بأن العرب لم يحرموا حيواناً . ولو أن العرب دانوا بالتوتمية لحرموا لحمان الثور والبكر والظبي والعنز والفهد وغيرها من الحيوانات التي سموا بها .

(د) على أن التوتمية تقضى أن ينسب الولد إلى توتم أمه لا توتم أبيه ، ولو دان العرب بالتوتمية لكان النسب إلى الأم هو الغالب السائد ، ولكن الذي حدث أن النسب إلى الأب كان السائد الغالب .

(هـ) ثم إن من أسس التوتمية ألا يتزوج الرجل امرأة تنفق معه في توتمه كما يقول سميث وغيره . وسنجد في فصل (الزوجة) أن العرب كانوا يتزوجون بأقاربهم وبنات أعمامهم ، كما كانوا يغتربون ، لا لأنهم يدينون بالتوتمية ، بل لأنهم يستجيدون النسل ، ويحققون منافع أخرى ستجىء .

وإذا فقد بطلت نظرية سميث في توتمية العرب ، فبطلت النتائج التي بناها عليها ، وأهمها نظرية الأمومة .

٣ — أما التعبير عن القرابة بالبطن فليس دليلاً على الأمومة ، وقد أسلفت أن التعبير بالرحم والبطن دليل على عظم أثر الأم في القرابة . على أنهم عبروا أيضاً بالفخذ والشعب والعمارة ، وليس في واحد من هذه أثارة من الدلالة على الأمومة .

٤ — ثم إن الأنساب لم تختلق في عهد عمر ، ولم يختلط بعضها ببعض ، لأن العرب منذ العصر الجاهلي كانوا حراساً على حفظ أنسابهم ، وكانوا يتشددون فيها ، ويردون من يدعى نسباً ليس له . ولا شك أن النظام القبلي كان يحتم عليهم الحفاظ على أنسابهم ، لأن القبيلة وحدة متماسكة ، يتداعى أفرادها للنصرة ، ورد الغارة ، ويتضامنون في تحمل المغارم والديات ، ويتعاونون على تحقيق كثير من المنافع ، وهذا كفيل بحرصهم على معرفة أنسابهم . وتحريمهم الصدق فيها ، وإبعادهم كل دخيل ليس منهم « فيؤمن عليهم اختلاط أنسابهم

وفسادها ، ولا تزال بينهم محفوظة صريحة . واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف
وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع
ولا ضرع ، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها
اختلاط ، ولا عرف فيهم شوب ^(١) .

وكيف نصدق أن تلفق الأنساب في عهد عمر ، وهو نفسه كان يحض العرب على حفظ
أنسابهم بقوله : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال
من قرية كذا » ^(٢) .

وكان من العرب نسابون ثقات أطبق الناس على أمانتهم وسعة معارفهم ^(٣) .
وكثيراً ما تباهى الشعراء بأنسابهم ، واعتزوا بها وحرصوا عليها . من ذلك قول بشامة
ابن جزء النهشلي :

إنا بني نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا ^(٤)
فلم يكن عجباً أن رفضت بجيلة أن يولّى عليها عرجة بن هرثمة ، وسألوا عمر أن يعفيهم
منه ، وقالوا : هو فينا لزيق ، وطلبوا أن يولّى عليهم جريرا . فسأل عمر عرجة عن ذلك ،
فقال له : صدقوا يا أمير المؤمنين ، أنا رجل من الأزد أصبت دماً في قومي ولحقت بهم .
فهم على علم بوشائج كل شخص ، يردون نسبه صراحة إن ادعى لغير قومه ، ولا يرضون
بدخيل رئيسا عليهم .

٥ — وإن صدقنا أن النسب محتلق في عهد عمر لنيل العطاء ، فكيف نصدق أن القبائل
التي نحي نسبها عن قريش فقل عطاؤها رضيت بذلك ؟ وكيف تقرر نسبها الموضوع ، وهو
لا يرضيها ، ويظل ذلك إلى العصور اللاحقة وإلى الآن في كتب التاريخ ؟ ثم كيف

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٠٩

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٩

(٣) مثل جبير بن مطعم وأبي بكر وسعيد بن المسيب وعمر بن الخطاب والخطاب ونفيل ودغفل
وعمر وصبح وابن الكيس والأزهر بن عبد الحارث وابن عطاء الليثي وابن كربز والأبرش والخطفي
وغيرهم (البيان والتبيين ١/١٤٤ و ٢٥٣ و ٢٥٨ و ٢٦٩ و ٢٧١ و ٢٧٣ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٢ و
٢٨٣) والأنساب للسماعاني ٨

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ١/١٠٢ و عيون الأخبار ١/١٩٠ وفي شرح التبريزي ١/٥٠
وخزانة الأدب ٣/٥١٥ أن القائل بشامة ابن حزن النهشلي . وفي الشعر والشعراء ٢٤٢ أنه نهشل
ابن حري .

غفل الشعوبية عن هذا النسب المختلق المنحول أو المنتحل ؟ ولا سيما الفرس في وقت كانت المفارقة فيه على أشدها وأعنفها ، وكان العرب يفاخرون الفرس بأنسابهم ، ولم يأل الفرس جهداً في النيل من العوب ، حتى لقد نسبوهم إلى الوحشية وقالوا : « إنهم كالذئاب العادية والوحوش الضارية ، يأكل بعضهم بعضاً ، ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثوقون في حلق الأسر ، ونساؤهم سبابا مردفات على حقائب الإبل ، فاذا أدركهن الصريخ استنقدن بالعشى وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيح ^(١) » . ولو استطاع شعوبي أن ينكر على العرب أو على بعضهم نسبهم لفعل ، مع أنهم أنكروا على العرب دعواهم أن الهند والبربر والديلم وبرجان أصلهم من العرب . قال بجير يعير العرب ذلك :

زعمتم بأن الهند أولاد خندف وبينكم قُربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم وأولى بقربانا ملوك الأكاسر ^(٢)

نعم كان الفرس أحق الناس بطعن هذه الأنساب التي نحلها العرب أنفسهم ، لأنهم على صلة بهم من قديم ، بالجوار والحرب والسلم والحكم ، ولأنهم اتصلوا بهم بعد الإسلام اتصالاً أقوى وأعمق ، وكان يمهدهم هذا الطعن أن كثيراً من المؤرخين والنسابين في الإسلام من أصل فارسي ، فلماذا سكتوا ؟ ولماذا روجوا لأنساب مدخولة يستطيعون أن ينالوا من العرب بنقضها وتزييفها ؟

٦ — على أن الساميين في عصورهم التاريخية اعتبروا النسب إلى الآباء هو النظام الاجتماعي المألوف . حتى لقد حسبوا أن كل شعب قد نجله أب واحد فهو ينتسب إليه . فالأشوريون نسل بهم أب واحد اسمه آشور ، والكنعانيون نجلهم رجل واحد هو كنعان ، والمؤابيون أبناء أب واحد اسمه مؤاب ، والإسرائيليون أولاد إسرائيل وهكذا . ومعنى هذا أن القبيلة تنتسب إلى أولاد الرجل الذي انحدر منه الشعب ، وأن العشيرة تعزى إلى أحفاده وهكذا ^(٣) .

وقد دونت شريعة حمورابي نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد ، وجاء فيها عن

(٢) العقد الفريد ٧١/٢

(١) العقد الفريد ٧٠/٢

(٣) Israel from its Begining. Adolphe Lods P. 199.

نظام الزواج والطلاق ما يدل على أن الرجل رب الأسرة ، ولم يرد فيها ما يشير إلى نظام الأمومة . فالانتساب إلى الأب هو النظام السائد بين الأمم السامية منذ العصور التاريخية ، لأن الأب رب الأسرة ، ويده تصريف أمورها الدينية والمدنية ، وهو الذي يقرب القربان لإله العشيرة ، ويهيمن على بنيه وأهله ، فكان له أن يبيع أبناءه وبناته ببيع العبيد ^(١) ، وكان له أن يقتلهم أو يحرقهم إذا شاء ^(٢) ، إلى أن حرمت التوراة عليه ذلك ^(٣) . ثم شدد القرآن الكريم التنكير على الوائدين كما سيجيء . لذلك دل الساميون على الرجل بكلمة بعل ومعناها الزوج والسيد .

٧ — ثم إننا نجد أحياناً نسباً مزدوجاً في العرب ، إلى الأب والام معا ، فبعض القبائل نسبت إلى أبيها وأمها ، كالأوس ، نسبوا إلى أمهم قيلة وإلى أبيهم حارثة ^(٤) ، وبنو خندف انتسبوا إلى أبيهم إلياس ابن مضر كما انتسبوا إلى أمهم خندف ، وفي ذلك يقول قصي بن كلاب من مرة :

إني أرى الحرب لحَيٍّ وأبي عند تناديهم بهاب وهبي
معترم الصولة على النسب أمهتي خندف وإلياس أبي ^(٥)

وبنو طهية نسبوا إلى أمهم وإلى أبيهم سود بن مالك بن حنظلة ^(٦) ، وأولاد مر بن أد نسبوا إلى أمهم ظاعنة وإلى أبيهم ^(٧) .

كذلك كان بعض الأفراد يعرفون بأبيهم وأمهم معا ، كالحارث بن ثعلبة بن جفنة ، أمه مارية ذات القرطين ، من جفنة ، أو مارية بنت ظالم من كندة ، وقد نسب جماعة من ملوك غسان إليها ^(٨) ، وعنترة بن الآخرس من طيء نسب أيضاً إلى أمه عكبرة ^(٩) .

٨ — وإنا لنجد إصراراً من بعض العرب على نسبهم إلى آبائهم لا إلى أمهاتهم ، من هؤلاء المتلبس (جرير بن يزيد أو ابن عبد المسيح من ضبيعة بن نزار) فقد ولد في أخواله بني يشكر ، ونشأ بينهم حتى كادوا يغلبون على نسبه ، فسأل عمر بن هند يوماً الحارث

(١) سفر الملوك الثاني الأصحاح الرابع الآية الأولى . وسفر الخروج الأصحاح ٢١ الآية ٧

(٢) سفر التكوين الأصحاح ٣٨ الآية ٢٤ (٣) سفر التثنية الإصحاح ٢١ الآية ١٨

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٣

(٥) مروج الذهب ٢٧٥/١ هـ ، هي : زجر للخيال أي أقدمى وأقبل

(٦) المعارف ٢٦ (٧) المعارف ٢٥

(٨) مروج الذهب ٢٠٧/١ (٩) شرح ديوان الحماسة للرزوقي ٢٢٠/١

الشكري عن نسب المتلمس فقال : أوأنا يزعم أنه من بني يشكر ، وأوانا يزعم أنه من بني ضبيعة . فقال عمرو : ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين ، فغضب المتلمس ، وهجا عمرا ، وهدد الحارث (١) ، لأنه كان حريصاً على نسبه لأبيه ، يدل على ذلك قول أبي الفرج إن الحارث الشكري أراد أن يدعى المتلمس ، فقال المتلمس :

ومن كان ذا عرض كريم ولم يصن
أحارث إنا لو تساط دماؤنا
أمنتفياً من نصر بهشة خلتنى
وإن نصابى أن سألت وأسرتى
فلو غير أخوالى أرادوا نقيصتى
وقد كنت ترجو أن أكون لعقبكم
له حسباً كان اللئيم المذمماً
تزايلن حتى لا يمس دم دماً
ألا إننى منهم وإن كنت أينما
من الناس قوم يقتنون المزئماً
جعلت لهم فوق العرانيين ميسماً
زنيماً فما أحرزت أن أتكلماً (٢)

ولما خطب عمرو بن حبر إلى عوف بن محم الشيباني ابنته أم إياس قال له : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فتنكحهن أكفاءهن من الملوك (٣) .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يؤثر أن ينسب إلى جده الأعلى النضر لا إلى جدته ، من ذلك أنه لما قدم عليه الأشعث بن قيس فى وفد كندة قال الأشعث : يارسول الله ، نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار . فتبسم رسول الله . وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعه بن الحارث — وكانا تاجرين إذا شاعا فى بعض العرب فسئلا من هما قالوا نحن بنو آكل المرار ، يتعززان بذلك ، لأن كندة كانوا ملوكا — ثم قال لهم : لا ، بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفوا أمنا ، ولا نفتنى من أبنينا (٤) .

وجاء الإسلام فحرم النسب المختلق المتعمد ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من ادعى إلى غير أبيه متعمداً حرم الله عليه الجنة » (٥) وأمر القرآن الكريم بنسب المتبئين إلى آبائهم (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ،

(١) ديوان المتلمس ١ مخطوط والأغاني ١٢٥/٢١ — ١٣٥ وشعراء النصرانية ٣٣٩

(٢) الأغاني ١٢١/٢١ والأصمعيات من مجموعة وليم البروسى ٦٤/١ بهشة : ابن وهب بن جلى

ابن أحسن بن ضبيعة . تساط : تخلط .

(٤) سيرة ابن هشام ٢٥٤/٤

(٣) العقد الفريد ٢١٠/٣

(٥) تفسير الطبرى ٧٥/٢١

وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ^(١) ، ، فنسبة الشخص الذي يُعلمُ أبوه إلى غير أبيه حرام في الإسلام ^٢ .

٩ — ولقد اعتمد وليكن على تشابه أسماء البطون في دعواه أن الأنساب مختلفة ، لأن التشابه في نظره وليد الانتحال والاختلاق ، ودليل على تشعب الآراء وتصرف الأهواء . ولكن دفع هذا ميسور ، فقد تشترك قبيلتان أو أكثر في لقب واحد كالأراقم ، فهو لقب لجشم ومالك وعمره وثعلبة والحارث ومعاوية بن بكر بن حبيب بن عمرو من تغلب ^(٣) ، ولعل سبب تلفيهم بالأراقم أن عيونهم تشبه عيون الحيات الرقم ، يدل على ذلك قول المبرد إن الأراقم قبيلة من بني تغلب ، لقبوا بذلك لأن عيونهم شبت بعيون الحيات الأراقم ، فعرّفوا بهذا الاسم ^(٤) ، وكذلك بنو أبان بطون شتّى من قبائل شتّى ، بعضها من العدنانية وبعضها من القحطانية ^(٥) ، وبنو أنمارحى من عدنان وحى من كهلان ^(٦) ، وبنو عبد مناف علم على ثلاث بطون من العدنانية ^(٧) ، وبنو أسد بطن من أزد كهلان من القحطانية ، وبطن من قضاة من حمير ، وبنو الأوس بطن من قحطان ، وبطن من عدنان ، وكذلك بنو تغلب وبنو بكر ^(٨) .

وقد تنفرع من القبائل بطون تشترك في اسم واحد لفظاً ونطقاً ، فمن هوازن هلال ابن عامر بن صعصعة ، ومن ضبة هلال بن عامر بن ربيعة ، ومن ربيعة بن نزار هلال ابن ربيعة بن زيد ، ومن الأزد هلال بن عمرو بن كعب ، ومن النخع هلال بن عمرو بن جشم ، ومن قضاة هلال بن جشم بن القين ، وكل هؤلاء بطون ^(٩) ، فالاعتصار على هلال وحده وأحياناً عليه وعلى ما بعده يدعو إلى اللبس . لذلك ألف ابن حبيب كتاباً عرض فيه نواحي من هذا التشابه والاشتباه .

١٠ — وسرى في الزواج أن العرب كانوا يجرون على أنواع ، أقر الإسلام واحداً منها ، وأبطل ثلاثة هي نكاح الاستبضاع ، ونكاح الرهط ، ونكاح البغايا ، وحتى في هذه

(٢) تفسير الطبرى ٧٦/٢١

(٤) الكامل للمبرد ١٢٧

(٥) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ٣٠

(٧) المرجع السابق ٢٨٠

(٩) مختلف القبائل ومؤلفها ١٨ لابن حبيب

(١) سورة الأحزاب ٤

(٣) المعارف ٣٢

(٦) المرجع السابق ٢٦

(٨) المرجع السابق

الأنواع كان ينسب الولد إلى أبيه ، لأن الأب في نكاح الاستبضاع كان يطمع في نجابة الولد وينسبه إليه ، وفي نكاح الرهط كانت المرأة ترسل إلى من باشروها وتعين واحداً منهم فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ، وفي نكاح البغايا كان القافة يلحقون المولود بالذي يرون فيدعي ابنه ، ولا يرفضه (١) .

فإذا كان الولد ينسب إلى أبيه في هذه الأنواع التي لم يقرها الإسلام فأحرى به أن ينسب إلى أبيه في النوع الذي أقره ، وهو الذي كان ذائعاً شائعاً ، ولو أن العرب كانوا يدينون بالأمومة لكان نكاح الرهط ونكاح البغايا أفسح مجال لها ، لأن الأب فيهما مجهول ، أو على الأقل مشكوك فيه .

ومن أمثلة ذلك أن جارية بن سليط بن الحارث اتصل ببغى في سوق عكاظ ، فقالت له : لعل سألقي لك ولداً ، فوعدك فصال ولدى إن حملته ، فعرف الجارية اسمه ، ثم وافى عكاظ بعد ثلاثة أعوام ، فوجدها قد ولدت غلاماً وفطمته ، وأقبلت معها أمها وخالتها يلتمسنه بعكاظ ، ثم دفعن إليه الغلام ، فسماه عوفاً (٢) . والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها اشتراك أبي لهب وأميمة بن خلف وهشام بن المغيرة وأبي سفيان بن حرب والعاص بن وائل في مباشرة النابغة أم عمرو بن العاص ، وحكمها هي بأنه للعاص (٣) .

١١ — وسنرى في فصل (البنت) أن الوأد لم يكن عاماً ، وفي (فصل الزوجة) أن العرب لم يجروا على المشاركة في النساء ، وبهذين يبطل ما ذهب إليه مالك لينان ولكن من أن عموم الوأد اضطر العرب إلى المشاركة في النساء ، وكانت هذه المشاركة هي السبب في نظام الأمومة عندهم ، لأن الأم معلومة والأب مجهول .

رأى في أصل النسب إلى الأم

لم أرتض أن يكون الباعث على النسب إلى الأم عند العرب هو نظام الأمومة ، ولكنهم قد نسبوا أحياناً إلى الأمهات ، فلماذا نسبوا إليهن ؟

(١) ربيع الأبرار للزحشرى ١٤٩ مخطوط وفضل العرب على العجم ٣٩ مخطوط وأمثال العرب للضبي ١٨ وفتح الباري ١٥٨/٩ والاعتصام للشاطبي ١٨٤/٢ وإنسان العيون ٤٧/١ والملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ٢٣٣/٣

(٣) ربيع الأبرار ورقة ١٤٩ مخطوط

(٢) أمثال العرب للضبي ١٨

أرى أن مرّد هذا النسب إلى أمور شتى منها :

١ — تكريم الأم المنجبة ، وتمجيدها ، والإعلاء من قدرها ، كما نسب إلى أمه عمرو ابن هند مُضَرَّط الحجاره ، وكما نسب المناذرة إلى أمهم ماء السماء ، وهى ماوية بنت عوف ابن جُشَم ، وكما انتسب الحارث الأعرج إلى أمه مارية ، وانتسب إليها الغساسنة . يقول حسان بن ثابت فى مدح جبلة بن الأيهم :

لله در عصاة نادمتهم يوما بخلق فى الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل^(١)

ويقول النابغة الذبياني — أو حسان بن ثابت — فى مدح عمرو بن الحارث الأعرج وتفضيله على المنذر :

قدألك أحسن من وجهه وأملك خير من المنذر^(٢)

وقد انتسب إلى أمه ملك الحيرة عمرو بن المنذر الأكبر ، وعرف بأنه عمرو بن هند ، وهى بنت عمة امرئ القيس الشاعر ، يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيسكم فيها قطينا^(٣)

ويقول طرفة فى تحريضه له على الثأر من مُراد الذين قتلوا أخا عمرو بن هند :

أعمرو بن هند ما ترى رأى معشر أماتوا أبا حسان جاراً مجاوراً

فإن مُراداً قد أصابوا حرّيمه جهاراً وأضحى جمعهم لك واترا^(٤)

وفى مدح الحارث بن حلزة اليشكري للملك قيس بن شراحيل بن همام الشيباني كناية عنه بابن مارية (بنت سيار بن ذهل بن شيبان) :

وإلى ابن مارية الجواد وهل شروى أبى حسان فى الإنس^(٥)

ويمدح قيس بن زهير العبسى بنى زياد ، فيكنى عنهم بأنهم أبناء جنية فى فضلهم وسؤددهم ودهائهم :

(١) الأغاني ٣/١٤ وهى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندى أخت هند الهنود امرأة حجر آكل المراد الهنذى (المعارف ٢٦٣ وريبع الأبرار ٢٠٦ مخطوط والفاخر للكوفى ٨٧ ومستقصى أمثال العرب للزمخشري ١٠٠ وخزانة الادب للبغدادى ٢٣٨/٢)

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٣٦

(٣) الاغانى ٤/١٤

(٤) المفضليات ١٣١/١ شروى : مثل

(٥) معجم البلدان ١١٩/٧

لعمرك ما أضاع بنو وُيَادَ ذمار أبيهم فيمن يُضْيِغُ
بنو جنية ولدت سيوفا صوارم كلها ذكرٌ صنيع^(١)

وقد نسب بعض المحدثين النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمه :

صلى الإله على ابن آمنه التي جاءت به سبط البنان كريماً^(٢)
٢ — الفخار بها ، لعراقتها ، أو لادعاء عراقتها ، كقول سلمة بن دُرَيْد بن الصمة وقد
رمى أبا عامراً الأشعري فقتله ، حين بعثه رسول الله في آثار من توجه إلى أوطاس :
إن تسألوا عني فأني سلمة ابن سُمَادِير لمن تَوَسَّمَهُ
أضرب بالسيف رموس المسئلة^(٣)

وكقول وزر بن جابر النبهاني وقد رمى عنزة بن شداد : خذها وأنا ابن سلمى ، فتحامل
عنزة بالرمية حتى أتى أهله ، فقال وهو جريح :
وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمي وهيهات لا يرجي ابن سلمى ولا دمي^(٤)
وكثيراً ما كان يقول الضارب خذها وأنا ابن فلان أو فلانة .

وكان حسان بن ثابت ينسب إلى أمه الفريرة ، وقد ناداه عمرو بن الحارث الأعرج
معجباً بشعره ، بقوله يا ابن الفريرة أربع مرات في مجلس واحد^(٥) ، وكان حسان يلقب
نفسه بذلك ، كقوله :

أُمسى الخَلَا يَبْسُ قد عزوا وقد كثروا وابن الفريرة أضخى بيضة البلد^(٦)
وفي نحر الحارث بن حلزة قوله :

وولدنا عمرو بن أم أناس من قريب لما أتناا الحباء^(٧)
وفي نحر الحصين بن الحمام المري بنفسه قوله :

أبي لابن سلمى أنه غير خالد ملاقي المناسيا أي صرف تيمما^(٨)

(١) شرح الحماسة للمرروق ١/٤٧٠

(٢) تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه للفيروزاباذي ١٠٠ من نوادر المخطوطات

(٣) سيرة ابن هشام ٨٧/٤ سُمَادِير : أمه

(٤) الأغاني ٧/١٤٥ (٥) الأغاني ٣٤ — ٤ ساسي

(٦) الإصابة ٨/١٦٦ والأغاني ٤/١١ ساسي . الخلايس : اللثام الأندال

(٧) شرح القصائد العشر ٢٨٧ يريد عمرو بن حجر الكندي جد الملك عمرو بن هند . وأم أناس

هي أم الأول وهي من ذهل بن شيان ه أي أن النسب بيننا وبين الملك قريب

(٨) المفضليات ٦٧/١ سلمى : أمه أو جدته . أي صرف تيمم : أي جهة قصد أي أبي أن يحتمل

الذل والعار لأنه لا بد أن يموت

ويقول الأحنف بن قيس :

أنا ابن الزافرية أرضعتني بشدي لا أجد ولا وخيم
أتممتني فلم تنقص عظامي ولا صوتي إذا اصطك الخصوم (١)

ويقول إياس بن قبيصة الطائي إنه لا يستحق أن يكون ابن أمه العفيفة الشريفة النسب
إن شايع هواه في طلب امرأة :

ما ولدتني حاصن ربيعة لأن أنا مالات الهوى لاتباعها (٢)
وقد سبق نحر النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ابن العواتك .

٣ — مدح أبناءها بأنهم نسلها ، كما يمدح الملوك وأبناء المنجبات ، من ذلك أن أعشى
بنى عوف — ضابئ أو يزيد بن خليل بن مالك — أحمد جوار أبناء هند ، وهي امرأة من
شيبان ، فقال :

فلم أرجيرانا إذا الحرب شمرت كمثل بني هند أعف وأكرما (٣)
وقول رشيد بن رميض العنزي في غارة شريح بن شرحبيل على اليمن :

باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزلم (٤)
ومدح المساور بن هند بن قيس قومه إذ نفروا له لما استنفرهم ، وفداهم بنفسه وأبويه :
فدى لبني هند غداة دعوتهم بجو وبال النفس والمال (٥)

وقد افتخر موسى بن جابر — وكان يعرف بابن ليلي وبابن الفريعة أيضاً — برجلين
من آبائه كنى عنهما بابني العنبرية :

إذا ذكر أبنا العنبرية لم تضق ذراعي وألقى بأسه من أفاخر
هلالان حمالان في كل شتوة من الثقل ما لا تستطيع الأباغر (٦)

وكان رجل من عبد القيس — يقال له ابن مية — قتل ، فرثته زوجته ، ومن رثائها قولها :

(١) البيان والتبيين ٦٥/١ الزافرية : أمه واسمها حبي وهي من باهلة . لا أجد : ليس بإبسا .
وخيم : ثقیل . اصطك الخصوم : تقارعوا فيما بينهم . وقال يونس إنه عني بعضاه أسنانه لأنها إذا تمت
تمت الحروف وإذا نقصت نقصت الحروف .

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١١١/١ والمرزوقي ٢٠٨/١

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ١٣ (٤) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٥٤/١ والتبريزي ١٨٤/١

(٥) شرح الحماسة للتبريزي ٩٨/٤ الجو : الأرض المطمئة . وبال : اسم ماء

(٦) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٦٩/١ والتبريزي ١٩٠/١

أجيران ابن مية خبروني أعين لابن مية أم ضمار (١)

٤ — ولقد تكون الأم أعظم شهرة وعراقة من الأب فينسب إليها بنوها ، أو تكون الأم هي التي كفلت أبناءها وربتهم ، لأن أباهم مات وهم صغار ، فيشتهرون بها .

على أن من أسباب ذلك أيضاً التمييز بين الأبناء حين يتزوج الرجل بامرأتين أو أكثر ، ويولد له من زوجاته أولاد يشترك بعضهم في اسم واحد ، فينسب كل منهم إلى أمه — مع انتسابه لأبيه — تمييزاً له من أخيه ، ومن أمثلة ذلك ما حدث في الإسلام ، فقد كان لعلي ابن أبي طالب أولاد من زوجات ، سمى ثلاثة منهم باسم محمد ، فنسب أكبرهم إلى أمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة ، وعرف بمحمد بن الحنفية ، ولو أنه كان في الجاهلية لعرف أعقاب بني الحنفية ، كما قيل في الجاهلية بنو العدوية .

ولقد تكون الأم هي الوشيعة بين ابنها ومن ينسبه إليها ، فيؤثر أن يذكره بها لا بوالده ، كما قال النابغة في رثاء أخيه لأمه :

لا يهنأ الناس ما يرعون من كلاً وما يسوقون من أهل ومن مال
بعد ابن عاتكة الثاوي على أمرٍ أمسى ببلدة لا عم ولا خال (٢)

٥ — وسنعرف في حديثنا عن الزواج أن من أحوال النسب إلى الأم أن تعيش الزوجة مع زوجها في عشيرته ، فإذا طلقها عادت إلى أهلها وحملت معها أولادها ، أو أن تعيش في عشيرتها ويعيش زوجها معها ، فإذا طلقها عاد إلى عشيرته ، وترك أولاده مع أمهم ، أو أن تعيش في عشيرتها ويعيش هو في عشيرته ، على أن يتردد عليها ، فإذا طلقها احتفظت بأولادها (٣) . وفي هذه الحالات ينسب الولد إلى أمه .

٦ — ويحق لنا أن نستنتج من بعض الهجاء أن التلقيب بالأم كان يقصد به التحقير أحياناً .

من ذلك قول الطرماح بن جهم السَّنْبِي لنافذ بن سعد المَعْنِي :

متى قدت يا بن الحنظلية عَصْبَةً من الناس تهديها فجاج المخارم ؟
فقد بزمام بظر أمك واحتقر بأير أيبك الفسل كراث عاسم (٤)

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٤/١٤ العين : النقد الحاضر . الضمار : الدين لا يرجي قضاؤه . والمراد

أندركون ثأره أم تطلون دمه ؟ (٢) شرح الحماسة للتبريزي ٢/١٨٥ ذو أمر : موضع

(٣) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٤ (٤) شرح الحماسة للتبريزي ٤/٣٠ المخارم : جمع مخرم

وهو أنف الجبل . للفسل : الضعف . عاسم : رمل لبني سعد

وقول آخر في هجاء :

يا قبح الله أقواما إذا ذكروا بنى عميرة رهط اللؤم والعار (١)

وقول أعشى باهلة في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب يذكر قاتله هنداً :

أصبت في حريم منا أختاً ثقة هند بن سلمي فلا يهنالك الظفر (٢)

وإن عنتره ليفصح عن ذلك بأن قومه كانوا في السلم حين لا تحوجهم نجدته يلقبونه بابن زبينة ، وكانوا في الحرب حين يستصرخونه ويفتقرون إلى بلائه يلقبونه بابن الأطايب :

ينادونني في السلم بابن زبينة وعند صدام الخيل بابن الأطايب (٣)

ومن هذه الزراية قول بشر بن أبي خازم :

قل للشلم وابن هند بعده إن كنت رائم عزنا فاستقدم (٤)

٧ — على أن الأب قد يموت في حياة أمه أو أم زوجته ، فتكفل أحفادها وترعاهم ، فينسبون إليها ، أو تكون ذات شهرة فيعرفون بها ، كما نسب إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي إلى جدته لأمه عليّة ، ونسب إليها أيضا ابن ابنه (٥) . وكما نسب عبد الله بن مالك الأزدي إلى أم أبيه عبدة بنت الحارث بن عبد المطلب ، ولقبها بجينة (٦) ، ونسب سهل ابن عمرو إلى أم أبيه الحنظلية (٧) .

ونسب الحارث بن مالك إلى أم أبيه أيضاً ، واسمها عبدة ولقبها البرصاء (٨) . ونسب سعد بن عقيب إلى أم جده الحنظلية فعرف بابن الحنظلية (٩) . وفي الإسلام نسب جميل ابن معمر إلى أم جده معمر فعرف بابن قميسة (١٠) .

٨ — وفي قليل من الأحيان كان الولد ينسب إلى حاضنته وإن لم تكن أمّاً ولا جدة . فقد كان للنعمان بن المنذر ولد أودعه أخته لأمه سلمى بنت ظالم المري لتحضنه وتربيته ، ثم اعتدى النعمان على جيران للحارث بن ظالم المري أخى سلمى ، وغنم أبلههم ، فغضب الحارث ، واحتال على أخته حتى دفعت إليه ابن النعمان فقتله وقال :

(٢) جهرة أشعار العرب للقرشي ٢٨٢

(٤) جهرة أشعار العرب ١٨٤

(٦) تحفة الأبيّه ١٠٧

(٨) تحفة الأبيّه ١٠٤

(١٠) سبط اللآلى ٢٩/١

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٤/٩٤

(٣) ديوان عنتره ٢٥

(٥) تحفة الأبيّه ١٠٢

(٧) تحفة الأبيّه ١٠٦

(٩) تحفة الأبيّه ١٠٥

فإن تك أذوادُ أصْبَنَ وصبية فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم^(١)
وقد نسب أولاد إلى زوجة أبيهم ، لأنها حضنتهم ، فمثلاً نسب إلى باهلة تسعة رجال ،
ولست أما لغير اثنين منهم ، وإنما حضنت الجميع فغلبت عليهم^(٢) . بل لقد نسب عوف
ابن عبد مناة بن أد بن طابخة إلى أمة سوداء حضنته - اسمها عكل - فغلبت على اسمه ، وإليه
يشير البعيث في هجاء جرير بقوله :
وجئنا بعمر و بعد ما حلَّ سربها محلَّ الذليل خلف أطحل أو عكل^(٣)

مظاهر حب الأم لبنيتها

إذا كان الأولاد قد مجدوا أمهاتهم ، وبأهوا بعراقة نسبهن ، وإذا كان العرب قد عظموا
المنجبات ، وضربوهن مثلاً عالية تحتذى في مجتمع يقدر الأم ، ويحل المرأة ، فإنهم خلفوا
أيضاً من الآثار الأدبية ما يكشف عن حب الأم لبنيتها ، وحسن تربيتها لهم ، وخلفت المرأة
أيضاً ما يدل على إدراكها لواجبها نحو بنيتها ، وتعهدها لثمرات حياتها . وقد تجلى حبها لأبنائها
في مظاهر شتى :

١ - تربيتها لهم

كانت العرب تعير من قصرت أمه في تربيتها ، وتسبه بذلك^(٤) ، وقد تجلت تربيتها
لأبنائها في مظهرين :

المظهر الأول التربية الجسمية : (١) فهي تتعهد وليدها قبل أن تحمله ، ذلك بأنها
كانت لا تحمل إلا في طهر ، ولعل الأب كان يشاركها في ذلك ، لأنهم اعتقدوا أن الحمل
في أعقاب الحيض أو قبيل الحيض ينتج ولداً سقيماً . يقول أبو كبير الهذلي في وصف تأبط شرا
ابن زوجته إن أمه حملت به وهي طاهر ليس بها بقية من حيض :

(١) المفصلية ١١٢/٢ الأذواد . جماعات الإبل . متفاقم : مكسر

(٢) لسان العرب وطهارة للعرب للشنقيطي ٣٢

(٣) النقائص ١٥٦ عمرو : يريد عمرو بن تميم . أطحل : جبل ينزله بنو ثور بن عبيد مناة

(٤) عيون الأخبار ١/٥٤

٢ — ولقد تنسكب بموت زوجها ، فتعكف على رعاية أولادها ، وتأبى أن تزوج وإن كانت في عسرة ، من ذلك أن أم إthal آمت وكانت أجمل نساء اليمامة ، فخطبها أشراف اليمامة فردتهم ، وقالت إنها لا تؤثر أحدا على ابنها ، ولا ترضى زواجا وإن كانت في شظف ، وإنها تبقى على كرامة ابنها بين الناس ، لأن زواجها يطامن من عزته ويحزنه ويؤذيه :

لعمري إthal لا أفدى بعينه وإن كان في بعض المعاش جفاء
إذا استجمعت أم القى غض طرفه وشاعره دون الدثار بلاء (١)

بل رفضت المرأة الزواج من الرسول إشفافا على أولادها ، وبقيت على راحتهم ، فإنه لما خطب رسول الله أم هاني بنت أبي طالب بعد موت زوجها هبيرة ، قالت والله لهُو أحب إلي من سمعي وبصري ، ولكن حقه عظيم وأنا مؤتمة ، فإن قتت بحقه خفت أن أضيع أيتامي ، وإن قتت بأمرهم قصرت عن حقه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خير نساء ركن الإبل صوالح نساء قريش ، أحناء على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده » (٢) .

٣ — وقد كان حبها لبنيتها مدعاة إلى أن تحرص على مالهم ، وتحاول كفهم عن بذله فيما تحسبه إسرافا وحمقا ، وفي هذه المحاولة تشترك الأم والزوجة ، وتبترم الشعراء بلومهما ، وسأتحدث عن هذا في أخلاق المرأة .

ولم يخف الشاعر أن أمه لامتة على جوده ، ولم يحدد غضاضة في أن يبوح بما قالت له وبما قال لها ، فهذا حطائط بن يعفر يقص لوم أمه — رُهم بنت العباب — له ، ودفاعه عن نفسه :

تقول ابنة العباب رُهم حربتنا	حطائط لم تترك لنفسك مقعدا
إذا ما جمعنا صرمة بعد هجمة	تكون علينا كابن أمك أسودا
فقلت ولم أعى الجواب : تأمل	أكان هزالا حتف زيد وأربدا ؟
أرني جوادا مات هزالا لعاني	أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا
ذريني أكن للمال ربا ولا يكن	لى المال ربا تحمدى غبه غدا
ذريني فلا أعيا بما حل ساحتى	أسود فأكفى أو أطيع المسودا

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢

(٢) فتح البارى ١٠٧/٩ والعقد الفريد ٢١٣/٣ وأخبار النساء لابن القيم ٦٧

ذرينى يكن مالى لعرضى وقاية بقى المال عرضى قبل أن يتبددا (١)

٤ - بينا تسعد الأم بطفلها ، وتموسم فى مخايله سيادة وعزة وبراً ، وبيننا تنعم بولدها الذى شبّ أو اكتهل ، تستمتع ببره ، وتتسمع أعذب الشئاء عليه فتزهى وتنشئ ، إذا بالدهر يبدد سعادتها ، ويطيح بنعمائها ، فيخطف ابنها . إنها الساعة المشؤمة التى كانت لا تسمح لطيفها أن يلم بخاطرها ، إنها النكبة الكبرى التى لا تلتئم جراحها ، إنه الحزن الذى يجثم فى قلبها لا يبرحه ما رددت أنفاسها ، وأى حزن على فقيد يعدل حزن الأم ؟ بل أين ذلك الحزن الذى يدانى حزن أم على ولدها ؟

ولقد يتنفس هذا الحزن فى نشيج أو فى وجوم أو فى دموع ، فإذا كانت الأم شاعرة تنفس حزنها فى قصيد أيضاً . وكثيرات الالمات الرائيات ، وفى مرثيئهن تصوير للوعة ، وقسوة الدهر ، وتصويح الأمل ، وإشادة بالمناقب .

فالأم إذ تياس من أن يواتيها الصبر تود لو أنها كانت الفداء لابنها ، قالت أم تأبط شراً أو أم السليك فى رثائه :

ليت قلبى ساعة صبره عنك ملك
ليت نفسى قدمت للمنايا بدلك (٢)

وهى تخدع نفسها إذ تعلم بالفاجعة ، فتشك فى صدق الخبر ، ثم يفجعها الواقع فتحزن حتى تشعر أن الحزن قد جفف مخ عظمها ، وتحار وتسائل الناس أو تسكاد تسائلهم : ماذا تفعل ؟ وأين تجد ابنها ؟ هكذا كان حال أم حكيم بنت قارظ زوجة عبيد الله بن عباس لما ذبح بسر ابن أرطاة ولديها ، وكان معاوية قد بعثه إلى اليمن ونواحيها ، وكان عبيد الله عاملاً لعلى بن أبى طالب على اليمن ، وكانت أم الطفلين قد وارتها ، فأخذهما من تحت ذيلها وذبحهما :

يا من أحس بُنيّ اللذين هما كالدريّن تشطّى عنهما الصدف
يا من أحس بُنيّ اللذين هما سمعى وطرفى فطرفى اليوم مختطف

(١) الأغاني ١١/١٣٣ حربتنا : سلبت مالنا . صرمة : قطعة من الإبل من عشرين إلى ثلاثين ، وقيل غير ذلك . هجمة : قطعة من الإبل من أربعين إلى ما فوقها أو من سبعين إلى مائة . أسود : أخو حطائط .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١٩١/٢

يامن أحس بنيّ اللذين هما
نبتت بسرّاً — وما صدقت ما زعموا
أنحى على ودجى طفلى مرهفةً
من دلّ والهة حرى مفجعةً
مخ العظام فمخى اليوم مزدهف
من قو لهم ومن الإفك الذى اقترفوا
مشحودة ، وعظيم الإفك يقترِف
على صبيذين غابا إذ مضى السلف (١)

ه — وإذا ما قتل ابنها وقبل زوجها ديته ثارت ، فهذه أم قرفة قتل ابنها فى حرب دا حس والغبراء ، قتله قيس بن زهير ، فحمل ربيع بن زياد العبسى ديته إلى أبيه حذيفة ، فرضيها ، وسكن الناس ، فلما علمت أم قرفة بما فعل زوجها هاجت هياج المغيظ المحنق ، ودعت عليه بالهلاك ، وعيرته قبول الدية ، وحرضته على أن يشار لابنه :

حذيفة لاسلت من الأعدى ولا وقيت شرّ النائبات
أيقتل قرفة قيس وترضى بأنعام ونوق سارحات
نخذ ثاراً بأطراف العوالى وباليض الحداد المرهفات (٢)

مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم

حفظ العرب لأمهاتهم صنيعهم ، وأدركوا حقوقهم عليهم فأدوها ، وبروهن على خير ما يبر الولد والديه .

ولعلمهم كانوا أكثر برا بالأمهات وحدا عليهن من برهم وحدهن على الآباء ، لأنهن أضعف ، وأشد حاجة إلى الحب والعطف ، وأكثر لصوقاً بالطفل من الأب .

ويظهر أن هذا شعور عام فى الناس ، فقد جاء فى شريعة مانو الهندى : « الأم أجدر بالاحترام من ألف أب » (٣) . وأبدع القرآن الكريم فى تذكير الأبناء بما قاست أمهاتهم فى حملهم وإرضاعهم ، وكرر الأمر ببر الوالدين ، وقرنه كثيراً بطاعة الله . وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما أمر ببر الأم ثلاث مرات ، وقفاهن ببر الأب (٤) .

(١) النقاى ٧١٧ وتهذيب الكامل ٢/٢٢٢ وبلاغات النساء ١٨٤ والأغانى ١٥/٤٥ مزدهف :

فان هالك . الودج : عرق فى العنق .

(٢) رياض الادب فى مرأى شواعر العرب ٤٩

(٣) حضارة الهند . جستاف لوبون ٣٢٨ (٤) البخارى ٢/٨

حتى الأم الرضاعية كانت لها مكانة في نفس المسترضع منها ، فقد وفد على النبي أشراف من هوازن - قوم السيدة حليلة السعدية مرضعة الرسول - بعد غزوة حنين ، فقالوا ، يا رسول الله إنما في الحظائر عمامتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك . ولو أننا ملحنا - أَرْضَعْنَا - للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائده . فقال رسول الله : ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقالت قريش والأنصار ما كان لنا فهو لله وموسوله . وبذلك أطلقت سبايا هوازن (١) .

وقد اتضح إعزاز الأم في عدة مظاهر .

١ - حمايتها من المهانة أيا كان مصدرها ، وأيا ما كانت نتائج هذه الحماية . فقد حاول عمرو بن هند أن يستذل أم عمرو بن كلثوم . فثارت ليلي بنت كليب أم عمرو بن كلثوم ، وثار ، وقتل الملك في ثورته (٢) ، وقال في ذلك قصيدته المشهورة ، وخطب بها في سوق عكاظ (٣) ، وبنو تغلب تعظمها جدا ، ويرونها كبارهم وصغارهم ، حتى لقد هجوا بذلك :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدا مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسثوم

وكان التغلبيين لم يكفهم فخر عمرو ، على روعته وكثرته ، فافتخر شعراؤهم بجرأته وأنفته ، يقول أفنون بن صريم التغلبي :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم أمي أمه بموفق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلنا فأمسك من ندمانه بالمخنق
وجلله عمرو على الرأس ضربة بذى شطب صافي الحديد رونق (٤)

ثم قتل مرة بن كلثوم أخو عمرو المنذر بن النعمان وأخاه ، وإياه عني الأخطل بقوله لجرير :

(٢) الكامل لابن الأثير ٢٢٦/١

(١) سيرة ابن هشام ١٣٤/٤

(٣) الأغاني ١٧٥/٩

(٤) الأغاني ١٧٦/٩ والحيوان للجاحظ ١٣٥/٣ والكامل لابن الأثير ٢٢٦/١ المخنق : الخلق .

ذو شطب : سبف به طرائق .

أبني كليب إن عمي اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا^(١)

٢ — الفخر بها ، كما سبق ، وقد افتخر خفاف بن ندبة بأمه ، وفضاها على أم العباس

ابن مرداس :

أبي الشتم أنى سيد وابن سادة
أدب على أنماط بيضاء حرة
وأنت لحنفاء اليمين لو أنها
تباع لما جاءت بزند ولا سهم^(٢)

٣ — وهم يقدون بالأم كثيرا ، إشعارا بأنها أعز إنسان عليهم ، وأحيانا يقرنون بها

عزيزا آخر ، وأحيانا يفردونها . يقول العباس بن مرداس في مدح حليس النصرى بعدما ثار له من قاتل أخيه :

فدى لك أمى إذ ظفرت بقتله
ويقول عبد الله بن جذل الطعان :

فدى لهم نفسى وأمى فدى لهم
برزة إذ يخبطهم بالسنايك^(٤)

ولما ردت بنو لحيان غزاتها من بني كعب مدحهم مالك بن خالد الهذلى أو حذيفة ابن أنس الهذلى بقوله :

فدى لبني لحيان أمى وخالى
وقد افتخر حسان بن ثابت بانتصار الخزرج على الأوس فقال .

فدى لبني النجار أمى وخالى
غداة لفوهم بالمتففة السمر^(٦)

وفى يوم أحد نثل النبي كنانته لسعد بن أبي وقاص ، وقال : أرم فداك أبى وأمى^(٧) .

٤ — ثم إن الأولاد كانوا يستجيبون مشورة أمهاتهم ، فإنه لما هجا بشر بن أبي خازم

الأسدى — وكان عبدا — أوس بن حارثة الطائى ، وذكر أمه سعدى ، أغار أوس على نوقه ،

(١) الأغاني ١٧٦/٩

(٢) الأغاني ١٣٨/١٦ أنماط : نسب أو ضرب من البسط . مقابلة الجدين : كريمة النسب من

جهتهما . حنفاء : معوجة .

(٣) الأغاني ٦٦/١٣

(٤) معجم البلدان ١٢٥/٢ برزة : موضع كانت به وقعة قتل فيها مالك بن خالد بن صخر الشريد

(٥) معجم البلدان ٩٦/٤ (٦) الكامل لابن الأثير ٢٤٣/١

(٧) فتح الباري ٢٧٦/٧ وتاريخ الطبرى ١٨/٣ نثل : نفذ .

فهرب منه ، ثم قدم عليه ، فأشار عليه قومه بقتله ، فقال أوس : هجوتني ظالما فلا مفر من قطع لسانك ، أوحبسك حتى تموت ، أو قطع أطرافك وتخليتك . ثم دخل على أمه سعدى ، فقالت له ، يا بني ، مات أبوك ، فرجوتك لقومك ، فأصبحت أرجوك لنفسك . زعمت أنك قاطع رجلا هجاك ، فمن يمحو ما يقوله غيره ؟ قال : فماذا أصنع ؟ قالت : تكسوه حلتك ، وتحمله على راحلتك ، وتعطيه مائة ناقة ، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه ، ففعل ما أمرت به أمه ، فقال بشر : لا مدحت أحدا حتى أموت غيرك ، ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضى حاجتي ولقد قضاها
فما وطئ الحصا مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها^(١)

وكثيراً ما كانت الأم تحرض ابنها على الثأر ، فتوجب حماسه ، وتذكي بغضته ، فيندفع لثأره لا يلوى على شيء ، كما سآبين في أثر المرأة في الثأر .

ه — وقد أسلفت أنهم كانوا يعبرون عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمهم ، يستعطفونهم بذلك ، أو يذكرونهم بصلة حبيبة يجب أن توصل ، أو يظهرون عظم الفجيرة في أخ عزيز ، أو يتحسرون على مودة مقطوعة ، الخ يقول الشنفرى :

أقيموا بني أمى صدور مطيكم فإننى إلى قوم سواكم لأميل^(٢)
ويقول أبو زيد الطائي :

يا بن أمى ويا شقيق نفسى أنت خلّيتنى لأمر شديد^(٣)
ويقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك :

.....

وفقدُ بنى أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعا^(٤)
ويقول أيضاً :

فإن يك إخوانى توفوا وأخطأت بنى أمك الدنيا حُتوفُ الرواصد
فكل بنى أم سيمسون ليلة ولم يبق من أعيانهم غير واحد^(٥)

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٤٠ والكامل لابن الأثير ٢٦٣/١

(٢) أعجب العجب في شرح لامية العرب ٢ (٣) الموشح للمرزبانى ٩٧

(٤) المفضليات ٦٨/٢ (٥) حساسة البحترى ٣٦٢

ويقول أوس بن حجر في هجاء طفيل بن مالك ؛
لعمرك ما آسى طفيلُ بنُ مالكِ بنى أمه إذ ثابت الخيل تدعى

.....

فراراً وأسلمت ابن أملك عامراً يلاعب أطراف الوشيع المززع^(١)
وتقول أم حاتم الطائي تعاتب إخوتها لأنهم يلومونها في كرمها :

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركي يابن أم الطبائعا ؟^(٢)
ويقول معد يكرب بن الحارث في رثاء شقيقه شرحبيل :

يابن أمي ولو شهدتك إذ تد عو تميا وأنت غير مجاب
لتركت الحسام تجرى ظباء من دماء الأعداء يوم الكلاب^(٣)

وفي يوم أحد خرجت صفبة بنت عبد المطلب ، وقد انكشف المسلمون ، فقالت .
يا رسول الله ، أين ابن أمي حمزة ؟^(٤) ، ووفدت أم هانئ بنت أبي طالب على النبي صلى الله
عليه وسلم عام الفتح ، فقالت : يا رسول الله زعم ابن أمي علي أنه قاتل رجلا قد أجرته^(٥) .
٦ — وإذا ما تزوج الرجل أجداً رابطة جديدة بامرأة جديدة ، يتخذها سكنه ،
ويعاطيها كأس المودة دهاقا ، وليست له مندوحة من أن تخلف زوجته أمه في رعايته ، وتعرف
دخيلته ، ومشاركته في كثير من شؤون حياته . ولقد تفرع علاقته بأمه ، ولقد تراوح بين
القوة تارة والضعف تارة ، وربما تسعده ظروفه فتتيح له أن يغمر أمه وزوجه بعطفه كما
يغمرانه . لكن حدثا قد يلزم به ، فيوحى إليه أن أمه أصبر عليه في نكبته من زوجته ، فيؤثر
أمه عليها ، لأنه يعلم بتجربته وبتجارب غيره ، ويعلم بفطرتة أيضا أن أمه أبقى له وأوفى ،
وهي عليه أحنى .

حدث هذا لصخر بن عبد الله الشريد ، كان يتعشق ابنة عمه سلمى بنت كعب ، وكان
يخطبها فتأبى عليه ، فأقام على ذلك حيناً ، ثم أسرت سلمى ، واستنقذها صخر بعدما أصابته
طعنة في جنبه ، وتزوج بها ، وكان يحبها ويكرمها ، ويؤثرها على أهله . ثم انتفض جرحه ،
فرض حولا ، وكان نساء الحى يدخلن إلى سلمى عوائد ، فيقلن : كيف أصبح صخر ؟ فتقول .

(١) ديوان أوس ١٣ تدعى : تلاحق وتفر . الوشيع : الرماح

(٢) شعراء النصرانية ٢

(٣) الأغاني ١٦/٩٤

(٤) فتح الباري ١٩٦/٦

(٥) المغازي ٢٨٣

لا حتى فيرجى ولا ميت فينسى ، فسمعها صخر ، وعرف أنها تبرمت به ، في حين أنه يرى تحرق أمه عليه ، فقال لها ناوليني السيف لأنظر أصدى أم لا ، وهو يريد قتلها ، فناولته فإذا هو لا يقدر على حمله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ومليت سليمى مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ، ومن يغتر بالحدثان ؟
فأى امهىء ساوى بأم حليلة فلا عاش إلا في شقاً وهوان
أهم بامر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
لعمرى لقد أيقظت من كان نائماً وأسمنت من كانت له أذنان
فللموت خير من حياة كأنها معرس يعسوب برأس سنان (١)

ويشفع لتصديق هذه القصة الإجماع على روايتها ، وتسجيل صخر لها في شعره ، وأمر آخر أهم من هذين أن سلمى كانت فاركا له ، راغبة عنه منذ خطبها ، ولقد تزوجها شبيه مرغمة بعد أن استنقذها من السي . ويظهر أن نفرتها منه كانت شديدة لم يلطف من حديثها حبه لها وإيثاره إياها .

٧ - الإخوة لأم

قلت إن الأم كانت وشيجة قوية في القرابة ، وأرجح أن الإخوة لأم كانوا أكثر تعاطفاً وتراحماً وتواداً من الإخوة لأب ، ذلك بأننا نجد الشعراء كثيراً ما يعبرون عن إخوتهم الأشقاء بأنهم أبناء أمهم ، كقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك بن نويرة :

تقول ابنة العمرى مالك بعد ما أراك قديماً ناعم البال أفرعا
فقلت لها طول الأسى إذ سألتني ولوعة حزن ترك الوجه أسفعا
وفقد بني أم تولوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعا (٢)

وقول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام فراره يوم بدر ، وتركه أخاه الشقيق أبا جهل :

(١) الأغاني ١٣/١٣١ وأخبار النساء لابن القيم ٧٦ وتهذيب الكامل ١٩٣/٢ ومستقصى أمثال العرب للزمخشري ٩٩ مخطوط والحاسة البصريه ٢٢٤ مخطوط ووفيات الأعيان ١٣٢/١ والشعر والشعراء ٣٠٣/١ تحقيق شاكر
(٢) جهرة أشعار العرب ٢٩٤

هَلَّا عَطَفْتَ عَلَى ابْنِ أُمِّكَ إِذْ ثَوَى قَعَصَ الْأَسْنَةِ ضَائِعَ الْأَسْلَابِ (١)

ولم يجد دريد بن الصمة في تصارييف الدهر ، وتفريقه شمل الأجابة أقسى من تفريقه بين الشخص وابن أمه ، وقطعه ما بينهما ، فينفد كما ينفد زاد المسافر ، يقول في رثاء أخيه عبد الله بن الصمة :

أَعَاذَلْتِي كُلَّ أَمْرِيءَ وَابْنُ أُمِّهِ مَتَاعُ كَزَادِ الرَّاكِبِ الْمَتَزَوِّدِ (٢)

ثم إنا نستشف من اللغة نفسها ما يثبت أن الإخوة لأم أعظم تحابا من الإخوة لأب ، لأن الأعيان الإخوة لأب وأم ، والأقران والأخيار بنو أم واحدة من رجال شتى ، وبني العلات بنو رجل واحد من أمهات شتى (٣) . وكلمة أقران جمع قرن وهو الكف (٤) ، ففيها دليل على تكافؤ الإخوة لأم وتماثلهم ، وكلمة أخيار معناها أن في سجنهم وألوانهم وخلقتهم بعض الاختلاف ، لأن آباءهم مختلفون ، ولعلها مشتقة من الخيف وهو زرقه إحدى عيني الفرس وغيره وسواد الأخرى (٥) . أما العلات فهن الضرائر ، ويكنى التعبير عن الإخوة بأنهم أبناء ضرائر للدلالة على ما بينهم من تجاف وتباغض .

على أنا ما زلنا نشعر بالجفوة بين أبناء العلات ، مستعانة تارة ، ومسترة إلى حين تارة ، وما زلنا نشعر بالتعاطف بين الأخيار ، وتساقيم الود صافيا . ومرد ذلك إلى أن الأم الواحدة تقرب ما بين بنينا ، أما الضرائر فيباعدن بينهم بالوقية والدس ، وبث عوامل الغيرة والتنافس والتحاسد . ثم إن أبناء الضرائر أكثر تنازعا على الميراث من الأشقاء ، أما الإخوة لأم فلم يتنازعوا على ميراث ، وقلما حدث ذلك لأن الثروة للأب في الأعم الأغلب .

يتجلى حب الأخ لأم في أن ضرار بن عمرو صرّع في معركة بين القنا ، فأسرع إليه إخوته لأمه فأنقذوه ، ثم استشالوه حتى ركب فرسه ، فرفع عقيرته بعكاظ فقال : ألا إن خير حائل أم ، ألا فزوجوا الأمهات (٦) . ويتجلى أيضا في رثاء كثير من الشعراء لإخوتهم

(١) سيرة ابن هشام ٣٨٦/٢ وديوان حسان ١٧ قصص الأسنة : القتل بها في سرعة

(٢) الأغاني ٤/٩ (٣) لسان العرب ١٨١/١٧

(٤) القاموس المحيط مادة قرن . (٥) القاموس مادة خيف

(٦) البيان والتبيين ١٦/١ تحقيق هارون . حائل : لم تحمل

لاماتهم ، كرتاء أعشى باهلة لأخيه المنتشر بن وهب ، وهو رثاء تتأجج فيه اللوعة والحزن ، كقوله :

فَظَلْتُ مَكْتَبًا حَرَّانَ أَنْدَبُهُ وَكُنْتُ ذَا حَذَرٍ لَوْ يَنْفَعُ الْحَذَرُ
عَشْنَا بِهِ حَقَبَةً حَيَا فَفَارَقْنَا كَذَلِكَ الرِّيحُ ذُو النَّصْلَيْنِ يَنْكَسِرُ
فَإِنْ جَزَعْنَا فَإِنَّ الشَّرَّ أَجْزَعُنَا وَإِنْ صَبَرْنَا فَإِنَّا مَعْشَرٌ صَبِرُ
فَإِنْ سَلَكْتَ سَبِيلًا كُنْتَ سَالِكَهَا فَاذْهَبْ فَلَا يَبْعَدُنْكَ اللَّهُ مُنْتَشِرٌ (١)

وفي هذه القصيدة عدد الشاعر مناقب أخيه ، وأشاد بما أثره إشادة المعتر بها الأسيف على ذهابها .

كذلك رثى أبو العيال الهذلي أخاه لأمه عبد بن زهرة ، فأشاد بشجاعته ، وصور الحزن يصيب رأسه بالصداع وجسمه بالألم ، وصور عينه تذرف الدمع غزيراً كأنه سيل يتسرب من مزادة مثقوبة ، ثم صور ليله كئيباً ، لأن الذكريات تتوافد عليه ، ولأن فراغه في الليل يسلمه لهواجسه وبلا بله :

أَلَا اللَّهُ دَرَكٌ مِنْ فَتَى قَوْمٌ إِذَا رَهَبُوا
وَقَالُوا مِنْ فَتَى لِلْحَرِّ بَ يَرْقُبُنَا وَيَرْقُبُ
فَكُنْتُ فَتَاهُمْ فِيهَا إِذَا يَدْعَى لَهَا يَثْبُ
ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صَدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ
فَدَمَعُ الْعَيْنِ مِنْ بُرْحَا مَا فِي الصَّدْرِ يَنْسَكِبُ
كَمَا أَوْدَى بِمَاءِ الشَّنَّةِ الْمَخْرُوزَةُ السَّرْبُ
عَلَى عَبْدِ بْنِ زَهْرَةَ طَو لَ هَذَا اللَّيْلِ أَكْتَتَبُ (٢)

وكذلك رثى النابغة الذبياني أخاه لأمه (٣) ، ورثى سلمة الجعفي أخاه لأمه (٤) .

(١) جهرة أشعار العرب ٢٨٢ وخزانة الأدب ١٣٠/١

(٢) الأغاني ١٦٦/٢٠ و ٦١/٢ و شرح أشعار الهذليين للسكري ١٣٧

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ١٨٥/٢

(٤) شرح الحماسة للتبريزي ٥٩/٣

٨ - إعزاز الخال

أسلفت أن الأم مانتحة ابنها الحياة، ومورثة إياه بعض مميزات الجسمانية والعقلية والخلقية، وأن العرب خابلووا بعراقتها وشرفها وسمو أخلاقها وإنجابها، وسنرى في الزواج أنهم يجيدون اختيار الزوجة، ويتحرون أصولها. وأخوها مقياسهم في ذلك، لأنه النبعة المماثلة للأم، فهو مرآة لها، وهي صورة منه.

فإذا كان أخو الأم سيداً شجاعاً جواداً فصيحاً كان الأمل قويا في أن ينزع إليه ابن أخته نزوعاً يعضد ما يرثه من أبيه. وإذا كان الخال رعيدياً كزاً مهيناً تسربت رذائله كلها أو بعضها إلى ابن أخته، فعاندت وراثته الخيرة من أبيه، أو سائرت رذائله الموروثة من أبيه وغذتها ونمتها.

فالولد أحياناً يشبه خاله جسداً، يقول الراجز في ولده وقد غلبته أمه على شكله :

والله ما أشبهني عصام لا خلق منه ولا قوام

نمت وعرق الخال لا ينام (١)

وأحياناً يرث من خاله خلقاً أو ميلاً، كما ورث زهير خال أبيه بشامة بن الغدير، وكان بشامة يعرف أن زهيراً وارث شعره، فإنه لما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته، فأتاه زهير فقال : يا خاله، لو قسمت لي من مالك ؟ فقال : والله يا ابن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله، قال : وما هو ؟ قال : شعري ورثتيه (٢).

وقد أتى الشعر امرأ القيس بن حجر من قبل خاله مهلهل (٣)، وأتى الأعشى من قبل خاله المسيب بن علس، وأتى خفاف بن ندبة السلمي من قبل خاله تأبط شرا، وأتى دريد ابن الصمة من خاله عمرو بن معد يكرب (٤). وكان لهذه الوراثة أثر في أن ولدت الخنساء بنيتها شعراء جميعاً (٥). واعترف الفرزدق بأنه ورث الشعر من خاله العلاء بن قرظة (٦).

(١) تهذيب الكامل ٥٠/٢

(٢) طبقات الشعراء ٥٦٤ والأغاني ١٥٠/٩ ورسالة الفران ٥٤٧ تحقيق عائشة عبد الرحمن

(٣) سمط اللآلي ٣٨/١

(٤) سمط اللآلي ٣٩/١

وديان زهير ٣٢٥

(٦) الشعر والشعراء ١٣٦ بتحقيق شاكر وسمط اللآلي ٣٩/١

(٥) سمط اللآلي ٣٢/١

وقرر النابغة الجعدي أنهم شاركوا قريشاً في تمواها وأنسابها ، لأن آمنة بنت أبان أم الأعياص وأم أبي معيط منهم :

وشاركنا قريشاً في تقاها وفي أنسابها شُركَ العنان

بما ولدت نساء بني هلال وما ولدت نساء بني أبان ^(١)

نصرة الخال لابن أخته

لا جرم كان الخال في هذه البيئة التي تعتر بالخال يحذب على ابن أخته ، ويقيه أو ينصره ما وسعه النصر ، لأن الأم إذا ما نسلت أنشأت عصبية الخثولة ، وهي نصرة إخوة الأم وأقاربها لابن أختهم ، وأحياناً لعشيرة الزوج كلها . ولقد كانت تحدث هذه النصرة بين القبائل المتباعدة الأصول كاليمينية والمضرية ، من ذلك تأييد الخزرج وبني النجار خاصة ، وتأيد الأوس للنبي عليه الصلاة والسلام ، لأن أمه من بني النجار من الخزرج ، فالخزرج كلهم أخواله ، وخثولتهم له مكررة ، لأن أخوال عبد المطلب من المدينة ، فأمه سلى بنت عمرو من بني النجار ، وأمها منهم أيضاً ، وكذلك أم أمها ^(٢) ، وأخوال عبد الله بن عبد المطلب من المدينة أيضاً ، وقد توفي عندهم شاباً ^(٣) ، وإن كان بنو زهرة يقولون إنهم أخوال النبي ، لأن السيدة آمنة منهم وإن لم يكن لها أخ ^(٤) ، لأن أمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة ^(٥) .

— لذلك لما كبر عبد المطلب وتسلم مال أبيه عرض له نوفل بن عبد مناف في رُكْح له —
— ساحة — فاغتمصبه إياه ، فسأل عبد المطلب رجالات قومه أن ينصروه ، فرفضوا أن يدخلوا بينه وبين عمه ، فكتب إلى أخواله يصف لهم ما فعل نوفل ، فقال :

أبلغ بني النجار إن جئتهم أنى منهم وابنهم والخميس

فان عمى نوفلاً قد أبى إلا التي بغضى عليها الخميس

(١) الأغاني ١٧/١ شرك العنان : التساوى في الحركة لأن عنان الدابة طاقتان متساويتان

(٢) المعارف ٢٤ و ٤٢ وسيرة ابن هشام ١١٩/١ والتنبيه والإشراف ١٩٧

(٣) المعارف ٣٨ (٤) المعارف ٤٢

(٥) سيرة ابن هشام ١٢٠/١

نفرج أبو أسعد بن عدس النجاري في ثمانين راكبا ، وهدد نوفلا ، فرد الركح إلى عبد المطلب ، فقال عبد المطلب :

بهم رد الإله على رُحَى
وكانوا في التَّنَسُّب دون قومي
وقال في ذلك سمرة بن عمير الكناني :
لعمري لأخوالٍ لشيبة قَصْرَةٌ
من أعمامه أبر وأوصل
أجابوا على بعد دعاء ابن أختهم
ولم يثنهم إذ جاوز الحق نوفل
جزى الله خيراً عصابة خزرجية
تواصوا على بر وذوالبر أفضل
فلما رأى ذلك نوفل حالف بني عبد شمس كلها على بني هاشم ^(١) .

فلا عجب في أن تؤيد الخزرج النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن ينضم إليهم إخوانهم الأوس ، فنجد أن أول من لباه من المدينة أخواله ، لأنه لما عرض نفسه في مستهل الدعوة على نفر من الخزرج آمنوا به ، وكانوا تسعة ، فيهم اثنان من بني النجار ^(٢) ، ثم بايعه اثنا عشر رجلا بيعة العقبة الأولى ، فيهم عشرة من الخزرج ، ومن هؤلاء ثلاثة من بني النجار ^(٣) ، ثم بايعه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان بيعة العقبة الكبرى ، وكان النقباء من هؤلاء اثنا عشر ، منهم تسعة من الخزرج ، وبقية من المبايعات تسعة وثلاثين رجلا من الخزرج ، بينهم أحد عشر من بني النجار ، هذا إلى امرأة نجارية من المرأتين المبايعتين ^(٤) . على أن المربد الذي بركت فيه ناقة الرسول في مقدمه إلى المدينة مهاجرا كان لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل ابنا رافع عمرو من بني النجار ^(٥) .

وقد اشتهر الخزرج وبنو النجار ومن يمت إليهم بقرابة بشدة دفاعهم عن الرسول وغيرتهم عليه ^(٦) ، وكان النبي إذا استحر القتال جلس تحت راية الانصار ، كما فعل يوم أحد ^(٧) وكان أعداء الإسلام إذا هجوا النبي والمسلمين خصوا بني النجار بالهجوم ، يقول عمرو ابن العاص — في يوم أحد قبل أن يسلم — :

- (١) تاريخ الطبري ١٧٨/٢
(٢) سيرة ابن هشام ٣٨/٢
(٣) سيرة ابن هشام ٣٩/٢ — ٤١
(٤) سيرة ابن هشام ٤٧/٢ — ٧٥
(٥) الروض الأنف للسيهلي ١٢/٢
(٦) سيرة ابن هشام ٤٧/٢ — ٧٥ و ١١٢ والمعارف ٢٤ و ٣٨ و ٤٢
(٧) سيرة ابن هشام ١٩/٣

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا
تمنت بنو النجار جهلاً لقاءنا
فما راعهم بالشر إلا فجاءة
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا
وكانت قباباً أومنت قبل ما ترى
كان رموس الخزرجين غدوة
مع الصبح من رضى الحبيك المنطق
لدى جنب سلع والأمانى تصدق
كراديس خيل فى الأزقة تترق
ودون القباب اليوم ضرب محرق
إذا رامها قوم أبحوا وأحنقوا
وأيمانهم بالمشرقية بروق^(١)

ويقول ابن الزبعرى فى رثائه قتلى أحد من المشركين :

وجمع بنى النجار فى كل تلة
فأبدانهم من وقعهن نجيع^(٢)
فيرد عليه حسان بقوله :

وحامى بنو النجار فيه وصاروا
ويقول ابن الزبعرى أيضاً :

ليت أشياخى بيدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل^(٣)
فيرد عليه حسان أيضاً^(٥) .

هذه النصرة لا يهب لها إلا مجتمع يقدر الخال ، ويعز ابن الأخت لأنه معدود من القوم ، ويؤيد ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام دعا الأنصار فقال : هل فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، إلا ابن أخت لنا ، فقال : ابن أخت القوم منهم^(٦) . وكان النبى بقولته الحكيمة مترجماً عن شعوره ، وعن شعور العرب جميعاً .

ويؤيد ذلك أيضاً قول الأخنس بن شريق قبيل موقعة بدر — وكان أعرابياً حليفاً لبني زهرة — : يا بنى زهرة قد نجى الله غيركم ، وخلص أموالكم . . . وإنما محمد رجل منكم ابن أختكم ، فان يك نبيا فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذبا بلى قتله غيركم خير من أن تلوا قتل

(١) سيرة ابن هشام ١١٠/٣ الفيفا : الففاء وهى الأرض المقفرة . الحبيك : الذى فيه طرائق . المنطق : الحزوم جيداً . سلع : جبل أو موضع قريب من المدينة . القباب : جمع قبة . أحنقوا : غيظوا . بروق : شجيرة ضعيفة تشبه البصل

(٢) سيرة ابن هشام ١٠٨/٣

(٣) سيرة ابن هشام ١٠٦/٣

(٤) سيرة ابن هشام ٩٧/٣ وطبقات الشعراء ١٩٩ تحقيق شاكر

(٥) سيرة ابن هشام ٩٨/٣

(٦) فتح البارى ٤٠٢/٦

ابن أختكم ، فارجعوا ، واجعلوا جنبها بي . . . فأطاعوه ، ولم يشهد بدر أحد من بني زهرة ، وكانوا مئة أو ثلاثمائة (١) .

ولقد يتجلى إعزاز الخال لابن أخته في إشارته بالمكرمة والمحمدة ، من ذلك أن رجلاً من بني سعد اسمه طلحة كان له إبل أغار عليها جيرانه بنو ربيعة بن عجل ، فأتى الأسود ابن يعفر ، يسأله أن يرد عليه إبله التي اغتصبها جيرانه — وهم أخوال الأسود — فقال الأسود لآخواله :

يا جار طلحة هل ترد لبونه فتكون أدنى للوفاء وأكرما
تالله لو جاورتموه بأرضه حتى يفارقكم إذا ما أجرما
فبعث بنو عجل بإبل طلحة إلى الأسود ، وقالوا : أما إذا كنت شفيعه نخذها وتولّ ردها ، لتحرز المكرمة عنده دون غيرك (٢) .

ويتجلى أيضاً في أن يؤثر البقيا على الشخص من تصله بأمة قرابة من بعيد ، ذلك أن عمرو بن هند وجه طرفة بكتاب إلى عامل البحرين يأمره فيه بقتله ، فقال له العامل : هل تعلم ما أمرت به فيك ؟ قال : نعم ، أمرت أن تجيزني ، وتحسن إليّ ، فقال لطرفة : إن بيني وبينك خثولة ، أنا لها راع حافظ ، فاهرب من ليلتك هذه فإنني قد أمرت بقتلك (٣) .

نصرة الولد لخاله

تبادل الخال وابن أخته النصرة ، لأن كلا منهما يعز الآخر ويعتز به ، وإذا كان الخال يرى في ابن أخته ولده ، فإن الولد كان يرى في خاله أباه ، ويعرف له حقوقه . يقول المرقش الأكبر في رثائه لابن عمه ثعلبة بن عوف ، واستعطافه ملائكة من آل جفنة — هو الذي قتل عوفاً — : إن قومه خثولة هذا الملك ، فحق لهم ألا يعتدى عليهم :

فنحن أخوالك عمرك وال خال له معاظم وحرم (٤)

لهذا كان الخال أحياناً يكل لابن أخته أن يثأرله إذا قتل ، فقد جدّ تأبط شراً في الثأر لخاله ، وتوقع أن يثأر له ابن أخته إذا هلك :

(٢) الأغاني ١١/٢٣١

(١) المغازي للواقدي ٣٧

(٣) شرح المعلقات السبع لابن الأنباري ١٩ مخطوط

(٤) الفضليات ٤٠/٢ : أقسم بحياتك

إن بالشَّعب الذي دون سَلْعٍ لقتيلاً دمه ما يَطْلُ
خَلَفَ العَبءَ على وولِي أنا بالعَبءِ له مُسْتَقَلٌّ
ووراء الثَّأرِ مَنِّي ابنُ أخت مَصْعُ عَقْدَتُهُ ما نُحَلِّ
مَطْرُقٌ يَرشَحُ سُمًّا كما أَطْ— رِقْ أَفْعَى يَنْفُثُ السَّمَّ صِلَ (١)

وكثيراً ما حقق أبناء الأخت أمل أخوالهم في الثَّأرِ لهم ، كما ثَّأرَ تَأْبَطْ شِرا لخاله ، وكما ثَّأرَ عدى بن حاتم لخاله :

من مبلغ أَفْناءَ مَذْحِجَ أننى ثَّأرْتُ بِخَالِي ثُمَّ لَمْ أَتَأْتُمْ (٢)

بل لقد يؤثِّرُ ابنُ الأختِ أخواله على عَشيرته ، ويشتقِي بالثَّأرِ منها لأخواله ، يدل على ذلك أن بني جعفر بن كلاب وبني العجلان أَقْتَلُوا ، فَقَتَلْتُ بنو جعفر رجلاً من بني العجلان ، ورضى هؤلاء أن يأخذوا دية قَتيلهم ، فَعِيرَهُم القَتالُ الكلابي - وهم أخواله لأن جدته أم أبيه عجلانية - وقال :

إذا ما لقيتم عُصْبَةً جَعْفَرِيَّةً كرهتم بني اللَّكْعاءِ وَقَعَ السَّنابِكُ
فَلَسْتُمْ بِأَخْوَالي فَلَا تَصْلُبُنِي وَلَكِنَّمَا أُمِّي لِإِحْدَى الْغَوَاتِكِ
قُتِلْتُمْ فَلِمَا أَنْ طَلَبْتُمْ عُقْلَتُمْ كَذَلِكَ يُوْتَى بِالذَّلِيلِ كَذَلِكَ (٣)

وكان الرجل لا يغتفر لأحد أن يتنقص من قدر أخواله ، وإن كان المتنقص أَلْصَقَ الناس به ، فقد بلغ ذلك بحسان بن ثابت أن طلق امرأته عمره الأوسية ، غضباً لأخواله إذ بخستم أقدارهم ، وأفضلت الأوس عليهم . ولم يثنه عن تسريحها أن كلا منهما كان معجباً بصاحبه ومحباً له . وكأَنَّمَا لم يشف الطلاق غضبه ، فأخذ يفخر بأخواله ، ليحوماً مسهم من زوجته ، وليسمو بهم على قومها الأوس . قال في ذلك :

لا يَكُنْ حَبْكُ حَبَا ظَاهِراً لَيْسَ هَذَا مِنْكَ يَا عَمْرُ بَسْراً
سَأَلْتُ حَسَانَ مِنْ أَخْوَالي إِنَّمَا يَسْأَلُ بِالشَّيْءِ الْغَمْرُ
قَلْتُ أَخْوَالي بَنُو كَعْبٍ إِذَا أَسْلَمَ الْإِبْطَالُ عَوْرَاتِ الدُّبُرِ

(١) شرح الحماسة للتبريزي ١٦٠/٢ ورسالة الغفران للمعري ٥٤٥ الشعب : الطريق في الجبل . سَلْعٌ : جبل أو مكان بقرب المدينة . لا يَطْلُ : لا يهدر . مَصْعُ : ثابت شديد القتال . مَطْرُقٌ : ناظر بعينه إلى الأرض . صِلَ : خبيث من الأفاعي

(٢) الأغاني ١٦١/٢٠

(٣) حماسة البحري ٤٣

رب خال لي لو أبصرته سبط المشية في اليوم الخصر^(١)

الفخر بالخال والمدح به

من الطبيعي إذا أن يزدهي الولد بخاله ، وأن يشيد به في مجال المباهاة . ولقد يشفع خيلاه بخاله إلى فخاره بأبيه وأجداده ، كقول عوف بن الأحوص :

ولكن نلت مجد أب وخال وكان إليهما ينمي العلاء^(٢)

وقول قصي :

عبد يُناديهم بهاب وهبي أممي خندف والياس أبي
حيدرة حالي لقيط وعلى وحاتم الطائي وهاب المي^(٣)

وقول الزبير بن عبد المطلب لأخيه العباس وقد أقعده في حجره صغيراً ، وأخذ يغني له ، مفتخراً بأعمامهما وأخوالهما :

أكرم بأعراقك من خال وعم^(٤) .

وقول حسان بن ثابت :

جدّي أبو ليلى ووالده عمرو وأخوالى بنو كعب^(٥)

وهذا الضرب من الفخر كثير^(٦) .

وكان الشخص يمدح بعراقة خاله ، كما يمدح بشرف أبيه ، قال الأسود بن يعفر في ابنه الجراح :

فأبأ جراح ذؤابة دارم وأخوال جراح سرة بني نهد^(٧)

وجاء في وصف المنذر الأكبر للجارية التي سبها في غارته على الحارث الأكبر الغساني ، وأراد أن يهديها إلى أنوشروان : « كريمة الخال ، تقتصر بنسب أبيها دون فصيلتها ، وبفصيلتها

(١) ديوان حسان ٥٢ والأغاني ٣/١٤ سر : حسن . الغمر : غير الجرب . سبط المشية : كريم

العمل . الخصر : البارد يريد وقت الجذب

(٢) المفضليات ١٧٣/١ ينمي . يرتفع (٣) لسان العرب ١٧/٣٦٤ هاب وهبي : زجر

(٤) الأمل ١١٥/٢ (٥) ديوان حسان ١٥ للغيل لتقدم في الحرب

(٦) البيان والتبيين ٢/١٥٨ و ٢/٢٥٩ وديوان حسان ٩٩

(٧) الأغاني ١١/١٣٣

دون جماع قبيلتها^(١) ، وأحياناً كان الخال يمدح ابن أخته بأنه يزدان بمفاخر أخواله ، وهو بهذا يجمع المدح والفخر معاً ، كقول سلمة بن الخُرْشُب يمجّد ابن أخته الربيع بن زياد العبسي وقد هم قوم بمحاربته :

أَيْتَمَ إِلَيْنَا تَرْجُفُونَ جَمَاعَةً فَأَيْنَ أَبُو قَيْسٍ وَأَيْنَ رَبِيعٌ ؟
وَذَاكَ ابْنُ أُخْتِ زَانِهِ ثَوْبُ خَالِهِ وَأَعْمَامُهُ الْأَعْمَامُ وَهُوَ نَزِيعُ
رَفِيقُ بَدَاءِ الْحَرْبِ طَبٌّ بِصَعْبِهَا إِذَا شِئْتَ رَأَى الْقَوْمُ فَهُوَ جَمِيعُ^(٢)

وكان التجنى ربما يحتمل على مضمض من عريق الأخوال والآباء ، أما من غيره فإنه مر لا يذاق ، وشنار لا يُغضى عنه ، يقول أعرابي :

فَلَوْ أَنِّي بُلَيْتُ بِهَاشِمِيٍّ خُتُلْتُهُ بَنُو عَبْدِ الْمَدَانِ
صَبَرْتُ عَلَى أَذِيَّتِهِ وَلَكِنْ تَعَالَى فَاَنْظُرِي بَيْنَ ابْتِلَانِي^(٣)

على أن بعض الأبطال الذين انحدروا من آباء معرّقين وأمّهات شريفات قد خايلوا بمجدهم الذي كسبوا ، وبمجدهم الذي ورثوا ، يقول عامر بن الطفيل :

فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ فَارِسٍ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِيحُ الْمَهْذَبُ
فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وَرَاثَةِ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بِأَمٍّ وَلَا أَبٍ^(٤)

الثأر من الخال

مازق ضيق حرج أن يضطر الولد إلى التراجع بين أبيه وخاله ، أيهما ينصر على الآخر ، ومن أيهما يثار للآخر ؟ وليس يخلصه من هذا المأزق إلا أن يستوحى فطرته ، فيجد الأب أقرب لحمه ، وأعظم نعمته ، وأنه العصبة التي يحمل اسمها ، فيؤثر أباه على خاله ، ويثار من خاله لأبيه . فقد ثأر الهجرس بن كليب التغلبي من خاله جساس ، وكان قد قتل أباه وهو جنين ، ثم وضعته أمه بين قومها ، فلما شب قتل خاله ثأراً لأبيه ، فلم يقبح ما فعل^(٥) ، وقال في ذلك :

(٢) الأغاني ٢٠/١٦

(١) تاريخ الأمم والملوك ١٥١/٢

(٣) حماسة الخالدين ١٦٤ مخطوط

(٤) ديوان عامر القصيدة ١ من الملحق Lyall

(٥) رسالة الغفران للمعري ٥٤٥ تحقيق عائشة عبد الرحمن

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي أمثلُ أمرى بين خالي ووالدى
وأوردتُ جسَّاسَ بنَ مرَّة غُصَّةً إذا ما اعترتني حرُّها غير بارد

وقال :

بالرجال لقلب ما له آس كيف العزاء وثأرى عند جسَّاس
ولما قتل خاله قال أيضاً :

ألم ترني ثأرت أبي كليبا وقد يرُجى المرشح للذَّحُول
غسلت العار عن جُشمِ بنِ بكر بجسَّاس بن مرَّة ذى الثُّبُول^(١)

ثم قد يبتلى الشخص بوتر له عند خاله الذى قتل أخاه ، فيحار ، ويتردد ، ويسأل نفسه : أيهما أولى بأن يبقى عليه ؟ وأيهما أحق بأن يغضى عنه ، وتتنازعه فى ذلك النوازع ، فيجنح أحيانا إلى الشفقة على أمه حتى لا يضاعف نكبتها بفقد ابنها وأخيها ، ولكنه يحسم هذا التردد بأن يثأر ، هكذا فعل توبة بن مضرَّس السعدى ، إذ قتل خاله بأخيه ، وقال :

بكت جزعا أمى رُميلةُ أن رأت دما من أخيها فى المهند باديا
فقلت لها لا تجزعى إن طارقا حمى الذى كان الخليل المصافيا
وما كنت لو أعطيت ألفى نجية وأولادها لغواً وستين راعيا
لأقبلها فى طارق دون أن أرى دما من بنى عوف على السيف جاريا
وما كان فى عوف قتيل علمتهُ ليوفيني من طارق غير خاليا^(٢)

الصبر على أذى الخال

على أن الرجل قد يصفح عن مساءة خاله ، المساءة التى لا وتر فيها لأب أو أخ ، لأنه موقن أن فى القصاص منه إيلا ما لنفسه ، فسكأنما يقطع كفه . يقول المتلبس فى صفحه عن أخواله ، وتصوير المشاعر التى احتجزته عن القصاص منهم .
ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانيين ميسما

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ٤٨٩ والمستطرف ١/١٩١

(٢) الوحشيات لأبى تمام ٦٧ مخطوط ورسالة الغفران ٥٤٥ والمختلف والمؤتلف للآمدى ٦٨

لغو : ما لا يعتد به فى المعاملة وكانوا لا يحتسبون أولاد الإبل الصغار فى الدية . لذلك يقول الشاعر (كما الغيت فى الدية الحوار)

وما كنت إلا مثل قاطع كفه بكف له أخرى فأصبح أجذما
يداه أصابت هذه حقف هذه فلم تجد الأخرى عليها مقدما
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد دراكا لها في أن تبين فأحجما
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساغا لناييه الشجاع لصمما (١)

وقليلا ما كان الأخوال يعتدون على ابن أختهم - كما اعتدى بنو سعد على ابن أختهم
غسان بن رعلة ، أو كما اعتدى على النمر بن تولب أخواله وأغاروا على إبله ، فتذهب به
الظنون شتى المذاهب ، ويركن أخيراً إلى أنهم عدوا عليه لأنه لاعصية له - ولا أعمام أماجد :
إذا كنت في سعد وأملك منهم غريباً فلا يغرك خالك من سعد
فإن ابن أخت القوم مصغى إناؤه إذا لم يزاحم خاله بأبٍ جلد (٢)

التعيير بالخال

إذا كانت للخال هذه المنزلة فإن ابن أخته يعير به كما يعير بأبيه ، لأنه أحد أصليه ، من
ذلك قول عمرو بن كلثوم في هجاء النعمان ، يعيره لؤم خاله وصناعته :
لحي الله أدنانا إلى اللؤم زلفةً والألما خلا . وأعجزنا أبا
وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله يصوغ القروط والشنوف بيثربا (٣)
وقول عامر بن الطفيل :

وأنت لسوداء المعاصم جعدة وأقعس من نسل الإمام العوارك
أبوك أبو سوء وأملك مثله وهل تشبهن إلا أباك وخالك (٤)

الخال في الإسلام

ظلت الخثولة في الإسلام رابطة قوية تشد ما بين الأفراد ، وتشد ما بين القبائل ،

(١) الوحشيات لأبي تمام ٩٥ مخطوط . أجذم : مقطوع الكف . حقف : أصل . استقاد . أراد
أن ينقم ويقص . دراكا : بدا . الشجاع : الثعبان
(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٤٠/٢ وأساس البلاغة مادة صغى
(٣) الأغاني ١٧٨/٩ زلفة : منزلة
(٤) ديوان عامر القصيدة ٣٥

واستغلتها السياسة ، وأفلحت في استغلالها ، فثلا نصر بنو كلب — من اليمن — معاوية على عليّ ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم ، وقد تلطخت أصابعها بدمه حين مقتله ، ولأن معاوية تزوج منهم أم يزيد وقد ناصروا يزيد أيضا ، لأنهم أخواله . وكان خالد بن يزيد متعصبا لكلب على قيس في الحرب التي نشبت بينهم ، لأن الكلبيين أخوال أبيه وأخوال زوجته ، فقال شاعر من قيس :

يا خالد بن أبي سفيان قد قدَحَتْ منا القلوب وضاق السهل والجبل
أأنت تأمر كلبا أن تقاتلنا جهلا وتمنعهم منا إذا قتلوا (١)

وكانت مناصرة الأخوال في الإسلام أمرا متواضعا عليه وإن لم يتصل بالسياسة ، يدل على ذلك قول غسان بن ذهيل في هجاء جرير :

ستعلم ما يغني معيد وممرض إذا ما سليط غرقك بحورها (٢)

ثم جاء العصر العباسي فنصر الفرس المأمون على الأمين ، لأن أمه منهم ، وكان المعتصم يؤثر الترك ، ويحند منهم ، ويقدمهم على الفرس ، لأن أمه تركية .

عقوق الأمهات

ليس أجلب للعقوق من زوجة الابن المشاكسة الماكرة ، فإنها تريد أن تستأثر بزوجها ، كما استأثرت أمها بأبيها ، أو كما حاولت أن تستأثر . وعزيز على الأم التي حملت وأرضعت وربت وأملت ، وكانت نجى ولدها ومفرغه في مساءته ، وشريكه في حبرته ، وكان ريحانة نفسها وسر سعادتها ، عزيز عليها أن تنتزعه منها هذه الفتاة الطارئة انتزاعا فجائيا قاسيا لا يحامل ولا يتدرج . وهنا يقع الابن في الحيرة ، وتصطرع في نفسه عاطفتان قويتان ، فيحسم الخلاف بحسن سياسته ، ويحاول أن يخمد النار كلها بدا من خلل رمادها وميض ، أو يجنح إلى ناحية من الناحيتين .

وإذا ما جنح إلى زوجته عقوق أمه ، فألقاها في أتون متسع من الهم والحسرات ، يقول عروة في شكواه من أصحابه الذين أحسن إليهم وأسأوا إليه إنه وإياهم كالأم وابنها العاق ،

(١) الأغاني ١٦/٨٨

(٢) النقاظ ٧ معيد : جد جرير لأمه . معرض : من أخواله

حملته وفدته وربته وناطت به آمالها ، فلما كبر وحق لها أن تلتظر نفعه وشكره تزوج ،
فقرب دونها فتاة حميلة تتكحل وتزين لتجتذبه ، فهامت أمه ، وباتت تصيح وتتلطم بما نالها ،
وإنها لخيري بين أمرين ما من أحدهما بد ، وما في أحدهما راحة ، أن تفقد ولدها وهذا
لا يطاق ، وأن تصبر وتتجلد وهذا أيضا لا يطاق ، ولكنه مر المذاق :

فإني وإياهم كذى الأم أرهنتُ له ماء عينيها تُفدى وتحمل
فلما ترجت نفعه وشبابه أتت دونها أخرى جديدا تتكحل
فباتت لحد المرفقين كليهما توخو حُ ما نالها وتولول
تخير من أمرين ليسا بغبطة هو الشكّل إلا أنها قد تجمل^(١)

وليس من الطبيعي أن يكون الأولاد جميعاً بررة ، بل الطبيعي أن يشذ بعضهم فيسيء
إلى أمه وإلى أبيه ، ولو أن الشعر صمت عن هذه المساءة أو صور الأبناء كلهم أخياراً لكان
قد كذب أو قصر .

هذه أم ثواب الهزانية تذكر تربيدها لابنها وتنوِّج من عتوقه لها ، وإساءته إليها ،
وتنظر إليه بقلب الأم وعينها ، فترى طفولته وتذكرها ، وتدهش من لحيته ولثته ، ثم تشير
إلى أمر تكتمه في نفسها ، أو هو ينفلت منها على غير إرادة ، ذلك أن كتمها هي التي أوغرت
صدره ، وزينت له أن يضرب أمه ويمزق ثوبها ، على أنها تتظاهر بالعطف عليها وإن كانت
تود إهلاكها :

رَبِيَّتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيْشِهِ زَغَبًا
حَتَّى إِذَا آخَ كَالْفُحَّالِ شَذَّبَهُ أَبَارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الْكَرْبَا
أَنْشَأَ يَمِزُقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدُ سَتِينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدْبَا
إِنِّي لَا بَصَرَ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ وَخَطَّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجْبَا
قَالَتْ لَهُ عَرْسُهُ يَوْمًا لَتُسْمَعُنِي رَفْتًا فَإِن لَنَا فِي أَمْنَا أَرْبَا
وَلَوْ رَأَتْنِي فِي نَارٍ مَسْعُورَةٍ مِنْ الْجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبَا^(٢)

(١) شعراء النصرانية ٨٩٤ وديوان عروة ٢٧

(٢) شرح الخناسة للتبريزي ١٤٣/٢ وثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ٢٠٥/١ وتهذيب
الكامل ١٨٣/١ أعظمه أم الطعام : أكبر ما فيه بطنه . الفحال : ثل النخل . الأبار : الملقح للنخل .
الكرب : أصول السعف . ترجيل لثته : غسل شعره وتمشيطة . ورواية الثعالبي للبيت الأول : أطعمه
أم الطعام . وفسر أم الطعام بالحنطة

وقد صور أبو العلاء ما يختلج في نفس بعض الالمهات أحيانا من تخوفها سوء عشرة
كتبتها لها ، وإيثارها أن يشغل ابنها نفسه بطلب المجد عن الزواج ، وتحذيرها إياه إغراء
الخاطبات الخادعات :

عليك السابغات فإنهنَّ يدا فعن الصوارم والأسنه

.....

فحنَّ إلى المكارم والمعالي ولا تثقل مطاك بعبء حنه
فإني قد كبرت وما كعاب ملائمة عجوزا مقسئنه
ترى تنومها وترى ثغامي فتهزأ من منهبله مسنه
إذا حاورتها نبذت حوارى وإلا تُلَف لي ذنبا بحنه (١)

والخطيئة مثل سائر في هجائه لأمه — وإن كان قد هجا نفسه وزوجته وأباه — فهل كان
مرجع هجائه لأمه أنه شاعر ساخر ذو شرّ وسفه لا يبالي أين وقع مقالاه ، ولا يراعى حرمة
نفسه ولا حرمة غيره ؟ أو كان سبب هجائه لأمه راجعا إلى عقدة نفسية ، وهذه العقدة هي
التي أضرمت في نفسه المجازفة بالقول ، وجعلته لا يبالي ؟ أرجح أن هذا هو السبب ، وأرجع
هذه العقدة النفسية إلى أنه كان مجهول النسب ، لا يعرف أباه معرفة يقين ، لأنه من أولاد
الزنا ، وقد سأل أمه من أبوه فخلطت عليه ، فقال :

تقول لي الضراء لست لواحد ولا اثنين ، فانظر كيف شرك أولئكا
وأنت امرؤ تبغى أبا قد ضللت هبلت ألما تستفق من ضلالكا

لذلك كان نسبه متدافعا بين القبائل ، فينتسب إلى واحدة إذا غضب على الأخرى ، فآنا
يدعى أنه ابن عمرو بن علقمة ، وحينما ينتسب إلى بني ذهل بن ثعلبة ، وتارة يعتزى إلى
بني عبس ، وآونة يلتصق ببني الأفقم .

ثم إن أمه تزوجت — بعد أبيه ، والخطيئة كبير — بالكلب بن كنيس ، وهو ابن
أمة ، وولد زنا أيضا (٢) . أعتمد أن تخليط أم الخطيئة عليه في نسبه ، وجهله أباه الحقيقي ،

(١) شرح التنوير على سقط الزند ٢٩٣/٢ مقسئنه : يابسة من الكبر . تنومها : شعرها الأسود
الشبيه بشعر شجر النوم . الثنام : نبت يشبه الشعر الأبيض . منهبله : عجوز تمشى في ضعف . تجنه :

تجنّى وتدعى على ذنبا لم أفعله

(٢) الأغاني ١٦٠/٢ — ١٦٤

واضطرابه إلى الالتصاق بأناس شتى ، وأن زواج أمه برجل مجهول النسب أيضاً وخزيتها له في كبره ، أعتقد أن ذلك بلبل خواطره ، ومزج بالسخط حياته ، وركب في نفسه احتقار أمه وامتهان نفسه وكل عزيز عليه . يقول في هجائها وهجاء زوجها :

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني وأبا بنيك فسأني في المجلس
وقال أيضاً :

جزاك الله شراً من عجوز ولقاك العقوق من البنين
فقد ملكت أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين
لسانك مبرد لا خير فيه ودرك در جاذبة دَهِين^(١)

ويقول أيضاً :

تنحى فاجلسي عني بعيداً أراح الله منك العالمينا
أغرباً لا إذا استودعت سرا وكانونا على المتحدئينا
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا^(٢)

وله في هجائها وهجاء غيرها شعر كثير^(٣) .

على أن عقوق بعض الأبناء لم يقتصر على الأمهات ، بل تعدى إلى الآباء ، يقول المنازل ابن الأعراف يتشكى من ابن عاق اسمه خليج :

تظلمني مالى خليج وعقني على حين كانت كألحن عظامي
وكنت أرجى الخير منه ، وأمه حرامية ، ماغرني بحرام ؟
وربيته من بعد ذا فرحاً به فلا يفرحني بعدى أب بغلام^(٤)
ويقول أمية بن أبي الصلت في ابنه :
غذوتك مولوداً وعلتك يافعا فعل بما أحنى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتململ

(١) درك : لبنك . جاذبة : ناقة لا تدر . دهين : ناقة قليلة اللبن لا تدر

(٢) كانون : ثقيلة

(٣) الأغاني ١٦٢/٢ الدار والعقد الفريد ٢٢٢/٣ وخزانة الأدب ١٧٥/٢ وجمع الأمثال ١٤٢/١

(٤) معجم الشعراء ٥١ الحنى : القسى

كأني أنا المطروق دونك بالذى طُرِقتَ به دوني فعينى تَهْمُلُ
تخاف الردى نفسى عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت منك أو مل
جعلت جزائى غلظة وفضاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
وسميتنى باسم المَفْنَد رأيه وفى رأيك التَفْنيد لو كنت تعقل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يَفْعَلُ^(١)

وكذلك يشكو أعشى بنى مازن أو بنى الحرماز^(٢).

وإذا فقد كان عقوق الأمهات نادراً ، وكان العقوق — على ندرته — يصيب الأمهات والآباء ، ولو أنه أصاب الأمهات وحدهن لكان معناه أن الأم أقل فى نظر بنيتها مكانة من الأب ، أو أقل عزازة .

الفصل الثاني

الزوجة

المصاهرة رباط بين المتصاهرين

ما من شك في أن المصاهرة كانت لكمة قوية بين الأفراد والعشائر ، تقوى ما بين الأقرباء وتقرّب ما بين البعداء ، وتطفى نار العداوة والشحناء ، لأنها صلة جديدة مختارة من شأنها أن تمزج المتصاهرين .

يقول خالد بن يزيد بن معاوية : كان أبغض خلق الله عز وجل إلى آل الزبير ، حتى تزوجت منهم رملة ، فصاروا أحب خلق الله إلى^(١) ، وفيها يقول :

أحب بني العوام طراً لحبها ومن حبها أحببت أخوالها كلها^(٢)

وقد استعطف عدى بن زيد العبادي النعمان بن المنذر بمصاهرته له ، لأنه كان زوج أخته كما ذكر العلماء من أهل الحيرة ، أو زوج ابنته هند كما ذكر رواة العرب ، وفي استعطافه يقول :

أجل نَعَمي ربهَا أولكم ودنوي كان منكم واصطهاري^(٣)

وفي تهديد النابغة لعمرو بن هند مضط الحجارة قوله إننا لا بد أن نقابل شرك بمثله ، وإن كنت قد ذكرت ما بيننا من مصاهرة ومودة :

نجزيك إنذاراً بما أنذرتنا وذكرت عطف الود والإصهار^(٤)

(١) بلوغ الأرب ٧/٢

(٢) الأغاني ٨٦/١٦

(٣) الأغاني ١٣/٣ الدار. أجل : نصب على نزع الخافض . ربهَا : نماها

(٤) ديوان النابغة ٤٣

الزوجي المثلي

علم الرجل أن الزواج شركة في الحياة ، وأساس لعشرة طويلة ، ولحمة وثيقة بينه وبين من يصاهر . وعلم أيضاً أن الزوجة سكنه ومتاعه ، وقسيمته في إنتاج أولاده ، يرثون منها كما يرثون منه ، وينطبعون على كثير مما تطبعهم عليه ، وتأخذهم به منذ الحداثة . لذلك تخير الزوجة جهده ، وكانت الزوجة المثلي ممتازة بصفات تحببها إلى الرجل .

١ — بعض هذه الصفات راجع إلى حسبها وشرف قومها . وليس الحسب في نظر العربي هو الغنى ، وإنما هو المجد وحسن الأحداث ، والاشتهار بمكارم الأخلاق ، سواء اقترن به ثراء أم لم يقترن . يدل على ذلك أن قيس بن زهير سيد عبس وبطلها طلب من النمر بن قاسط من ربيعة أن يختاروا له زوجة أذهبا الفقر وأدبها الغنى ^(١) ، وشبيهه به قول خالد بن صفوان لرجل : « اطلب لي بكراً . . . قد عاشت في نعمة وأدركتها حاجة ، خلقت النعمة فيها ، وذل الحاجة معها ^(٢) » .

لذلك أوصى أكرم بن صيفي قومه بقوله : « لا يكفيكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف ^(٣) » . وهو يريد شرف أبنائه . ولأمتين أبو الأسود الدؤلي على بنيه بقوله : أحسنت إليكم كباراً وصغاراً وقبل أن تولدوا . قالوا : كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال : اخترت لكم من النساء من لا تسبون بهن ^(٤) » .

ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فعزز هذه الفكرة بقوله : « احتفظوا لنطفكم فإن العرق نزاع » . وقال : « إياكم وخضراء الدمن » قيل : ما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء ^(٥) . وجرى المسلمون على حكمته ، فقد أوصى عثمان بن أبي العاص الثقفي بنيه بتخير زوجاتهم وأصهارهم ، وضرب لهم من نفسه مثلاً : « يا بني إني أجدتكم في أمهاتكم . . . والناكح مغترس ، فليمنظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين ^(٦) » . ولما خطب عبد الله ابن الزبير مبشراً بفتح إفريقية في مجلس عثمان بن عفان

(١) العقد الفريد ٢١١/٣

(٢) اللطائف والظرائف للشعالبي ٦١

(٣) نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع ٣٢ ومحاضرات الأدباء ١١٧/٢ وجمع

الأمثال ٢١٨/٢ (٤) إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم ٤ مخطوط

(٥) كنز العمال ٢٨٨/٨ ومحاضرة الأدباء ١١٧/٢ (٦) البيان والتبيين ٦٧/٢ طبعة هارون

أعجب به أبوه الزبير فقال : « يا أيها الناس انكحوا النساء على آبائهن وإخوتهن ، فإنني لم أر
لأبي بكر الصديق ولداً أشبه به من هذا (١) » .

لا عجب إذاً في أن افتخر بعض الأرواح بحسب زوجاتهم ، لأن في حسيبهن شرفاً
لأزواجهن ، من ذلك أنه كانت ملاحاة بين لقيط بن زرارة ورجل من بيته اسمه زيد ، فعيره
زيد أنه لم يتزوج ، لأن الألفاء يرغبون عنه . فخطب إلى قيس بن مسعود ، فلما توجه قال :

ألم يأت زيدا حيث أصبح أننى تزوجتها إحدى النساء المواجد
عقيلة شيخ لم يكن لنا لها سوى عُدِيٍّ من زُرارة ماجد
إذا اتصلت يوماً بنسبتها انتهت إلى آل مسعود بن قيس بن خالد

وعير عامر بن الطفيل خصومه بأنهم حقراء لا يتسامون إلى الخطبة من الكرام ولا إلى
أن يخطب إليهم أحد ، لذلك تعهنس بناتهم ولا يخطبن :

لا يخطبون إلى الكرام بناتهم وتثيب أيمهم ولما تخطب (٢)

وإذا فالزوجة نبعة من قومها ، ثمر مثل ثمرهم وتتخلق بأخلاقهم ، وأبناؤها صورة
منها ، لهذا يقول أعشى بني مازن أو بني الحرماز في عقوق بنيه وشراسة زوجته :
إن بني ليس فيهم برٍّ وأمهم مثلهم أو أشرُّ
إذا رأوها نبحتن هروا (٣)

ويقول رافع بن هريرم في عتاب أبناء إخوته إنهم أخسة لأنهم ورثوا عن أمهم الخسة :

عفاريتا على وأخذ مالى وعجزا عن أناس آخرينا
فهلّا غير عمكم ظلمتم إذا ما كنتم متظلمينا
فلو كنتم لكيسة أكاست وكيس الأم أكيس للبينا
ولكن أمكم حقت فجتم غثائاً ما نرى فيكم سمينا (٤)

وكانت المرأة نفسها بصيرة بذلك ، فقد أتى رجل إلى ابنة الخس يستشيرها في امرأة
يتزوجها ، فقالت : انظر رمكاء جسيمة ، أو بيضاء وسيمة ، في بيت جدّ أو بيت حدّ أو بيت
عز . قال : ما تركت من النساء شيئاً (٥) .

(٢) ديوان عامر القصيدة ٨

(٤) البيان والتبيين ١٨٦/١ تحقيق هارون

(١) الحيوان للجاحظ ٤٠٦/١

(٣) معجم الشعراء ١٦

(٥) الأمل ٢٥٦/٢ رمكاه : سمراء

وقد أمر النبي بإيثار المرأة ذات الخلق القويم والتدين ، قال : « تنكح المرأة لأربع :
لما لها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك »^(١) .

وزوج عمر بن الخطاب ابنه عاصم بنت امرأة تبيع اللبن ، لأن خلقها أعجبه^(٢) .

٢ — وبعضها راجع إلى أوصافها الجسدية والنفسية ، وقد فصلت هذا ، ووضحت
نموذج الجمال في نظر الرجال ، في موضع آخر^(٣) ، ويكفي أن أذكر هنا قول لقيط بن زرار
في وصف زوجته :

كأن رضاب المسك دون لثاتها على شيم من ماء مُزَنَّةً بارد
لها بشر صافي الأديم كأنه لجين تراه دون حمر المجاسد
إذا ارتفعت فوق الفراش حسبتها شريحة نبع زينت بالقلائد^(٤)

٣ — وهم آثروا الشابة السكر على الثيب ، ولعلمهم نظروا إلى أنها كاللؤلؤ لم يرايها
صدفها ، وراعوا أنها أساس قياداً وأيسر انطباعاً ، وأكثر نسلاً وولادة ، وهم يعرفون
بالمشاهدة أن الرجل أبعد أمداً في النسل من المرأة ، « فهي تنقطع عن الحبل قبل أن ينقطع
الرجل عن الإحبال بدهر »^(٥) .

لذلك قال الحارث بن كادة : لا تتزوجوا من النساء إلا الشيباب^(٦) .

وقد خدع جهنم في امرأة من بني فقعس اسمها قامة ، فباع ابله ، ومهرها ، فلما دخل بها
وجدها عجوزاً ، فقال :

وما لمت نفسي مذ فطمت بلحية كما لمت نفسي في هجوز بني شمس
فبانت — ولم أغبن — غداة اشتريتها وبعث تلاد المال بالثن البخس
فان مات جهنم غيلة فاقتلوا به قسامة إن النفس تقتل بالنفس^(٧)

والشعراء مكثرون من الوصاة بتجنب العجوز والأيم ، كقول أحدهم :

(١) فتح الباري ١١٥/٩ والطائف والظرائف للثعالبي ٦١ وعيون الأخبار ١/٤

(٢) مجمع الأمثال ١٠٢/٢ (٣) الغزل في العصر الجاهلي ٢١ — ١١٤

(٤) أمثال العرب للضي ٢١ (٥) الحيوان للجاحظ ٢٠٨/٥

(٦) مطالع البدور ٢٧/٢

(٧) عيون الأخبار ٤٧/٤ في الأصل فبنت ، ورجح مصححو الكتاب أن هذا تحريف صوابه

فبت . لكن هذا لا يتفق مع المعنى ، لأن الشاعر يذكر أنه فارقها غداة دخوله بها مسروراً لم يشعر بخسرة
على ماله ، لأنه قنع بالخلاص منها . لهذا رجحت أن يكون التصويب (فبانت) أي طلقها أو يكون
(فبنت) أي قطعت صلتى بها

لا تنسكن الدهر ما عشت أيتما مخزمة قد مل منها وملت
تجود برجليها وتمنع درها إذا طلبت منها المودة هرت^(١)

ويقول آخر :

لا تنسكن عجوزا إن أتيت بها واخلع ثيابك منها ممعنا هرباً
وإن أتوك فقالوا إنها نصف فإن أمثل نصفها الذي ذهباً

وقد شدد النبي عليه الصلاة والسلام في اختيار البكر^(٢) . وروى عن عمر قوله :
« انكحوا الجوارى الأ Bakar ، فإنهن أطيب أفواها ، وأنتق أرحاما^(٣) » . وقال النبي لجابر
ابن عبد الله لما أخبره أنه تزوج ثيباً : « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك » والمراد بالجارية
البكر^(٤) .

وقد آثر أفلاطون المرأة الشابة ، لأن الناس يسلكون ذلك في استيلاء الحيوان ،
ليحصلوا على نسل قوى ممتاز . وذهب إلى أن شباب المرأة يبدأ من العشرين وينتهي
بالأربعين ، أما الرجل فإن شبابه من الثلاثين إلى الخامسة والخمسين^(٥) .

٤ — وهم يحبون المرأة الولود ، وكان هذا من بواعث إيثارهم للشابة البكر ، لأنهم
كانوا يفرحون بكثرة الأولاد — ولا سيما الذكور — ويعتزون بهم ويكاثرون وهم طالما
خابلوا بكثرة عددهم ، وعيروا بقلته ، لأن حياتهم القبلية كانت تعتمد على العصبية والنصرة
والحروب ، وفي كثرة العدد عز ومنعة ، وفي قلته ضعف واستهانته ، لذلك كانت القبيلة تهناً
وتعيم العرس لثلاث : غلام يولد أو شاعر ينفخ أو فرس تلتج^(٦) . يقول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

وكان الرجل يعتمد في نصرته على بنيه أولاً ، يقول الأشهب بن رميلة أو نهشل

ابن حري :

(١) شرح الحماسة للتبريزي ١٩٧/٤ مخزمة ؛ دعا عليها أهل زوجها السابق أن تتخرمها المنية

(٢) فتح الباري ج ٩ وكنت العمال ٢٨٥/٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٨/٧

(٣) كنت العمال ٢٨٨/٨ وفي جمهرة الأمثال لأبي هلال ٧٦ أنه حديث

(٤) فتح المبدى ١٧٨/٢ وفتح الباري ١٠٤/٩ والسنن الكبرى للبيهقي ٨٠/٧

(٥) جمهورية أفلاطون ١٣٢ — ١٣٤

(٦) العمدة لابن رشيقي ٣٧/١

قال الأقارب لا تغررك كثرتنا وأغن نفسك عنا أيها الرجل
عل بني يشد الله أعظمهم والنبي ينبت قضباناً فيكتهل^(١)

لهذا كان من الأسباب التي بغض بها زهير بن أبي صرد عيينة بن حصن في عجز واستمسك
بها من سبي هوازن ولم يطلقها كما أطلق رسول الله والمهاجرون والأنصار سبيهم قوله له :
والله ما فوها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد^(٢) .

وتأني أنوثة المرأة إلا أن تستعلن في تفضيلها المرأة الولود وإن كانت مثناً ، تقول
ابنة الخس : أفضل النساء . . . متوركة جارية ، في بطنها جارية ، تتبعها جارية^(٣) .

وقد أكد النبي هذا الميل بحضه على إشار الزوجة الولود ، جاءه رجل فقال : إني أصبت
امرأة ذات حسب وجمال وإنها لاتلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه
الثالثة ، فقال النبي : تزوجوا الودود الولود فإنى مكائر بكم الأمم^(٤) .

ولم يصرفهم عن المرأة الولود إلى العاقر أن العاقر أخوف من الضرة ، فهي أرفع
للزوج ، حتى تلميه بتبعها عن عقمها ، فلا ينجح إلى زواج غيرها ، يقول المعقر البارقي في
وصف الخيل :

يفرج عنا كل ثغر مخافة مسح كسرحان القسيمة ضامر
وكل لجوج في العناق كأنها إذا اغتمست في الماء فتخاء كاسر
لها ناهض في الوكر قد مهدت له كما مهدت للبعل حسناء عاقر
تخاف نساء يبتدرن حليلها محردة قد حردتها الضرائر^(٥)

وقد شاركهم اليهود في حب النسل ، وكانت كثرته تلوح أعظم ما يمن به (يهوه) على
الرجل ، وكان عقم المرأة يعد عاراً^(٦) . يقول السموءل بن عادياء مدافعاً عن قلة عددهم :

تعيرونا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل^(٧)

(٢) سيرة ابن هشام ١٣٧/٤

(١) البيان والتبيين ٤٧/٣

(٣) الأماي ٢٥٧/٢

(٤) تبسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ٣٤١/٣ وكنز العمال ٢٨٥/٨

(٥) الأغاني ٤٤/١٠ مسح : جواد سريع . سرحان : ذئب . العناق : الإسراع . اغتمست في الماء :
بالها عرقها من شدة عدوها . فتخاء : عقاب . كاسر : منقضة مقترسة . ناهض : فرخ أوشك أن يطير

(٧) ديوان السموءل ٨

(٦) اليهود في تاريخ الحضارة ٤٩

٥ — ومن كمال الزوجة أن تكون أريبة لقنة فصيحة ، لتبشر بأن ابنها سيكون كذلك .
فقد طلق أبو رمادة امرأته لما وجدها لشغاء ، مخافة أن تلد له ولداً أثلغ ، ولم تقفنه بأن
تتبخر في ثيابها الموشاة فتتسبه لشغاء ، قال :

لشغاء تأتي بحيفس أثلغ تميز في الموشى والمصبغ^(١)

ويزعمون أن امرأة القيس آلى ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين ،
فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر ، فبينما هو يسير ليلاً إذا برجل يحمل
ابنه له صببة كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فسألها سؤاله ، فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلمة ،
وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما ثنتان فتدنيا المرأة . فخطبها إلى أبيها ، فزوجه إياها^(٢) .

وهذه القصة تحمل في طياتها بواعث الشك فيها ، فلست أعقل أن يخطب امرؤ القيس
ويتزوج صببية لما يزل يحملها أبوها ، ولست أعقل أن يقصد امرؤ القيس في اختياره لمن
يخطبها إلى اختبارها بهذا الضرب من الإلغاز ، الذي لا يتهدى إلى مرماه إلا مخترعه . وأرجح
أنها قصة موضوعة لتعليم الفروق اللغوية ، وللدلالة على أن اللغة تخص هذه الأثناء بكلمات
مختلفة ، ثم إنها مشفوعة بقصة أخرى لا تقل عنها غرابة ، تدل على ذكاء هذه الصبية وقدرتها
على التمييز^(٣) .

صفات مذمومة في الزوجة

- ١ — تحاموا المرأة الحمقاء ، لأنها تلد الحمقى ، جاء في وصية أكرم بن صيفي إلى طيء :
« وإياكم ونكاح الحمقاء ، فإن نكاحها غرر ، وولدها إلى ضياع »^(٤) ، وكذلك قال الحارث بن
كعب لبنيه : « إياكم والورهاء ، وتجنبوا الخرقاء » . وفي الحديث الشريف : لا تتزوجوا
الحمقاء فإن صحبتها بلاء وفي ولدها ضياع ، و « لا تسترضعوا الحمقاء فإن لبنها يغير » . وقال
عمر بن الخطاب « لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا »^(٥) .
- ٢ — وتحاموا ضرباً من النساء يخدع مظهره ، ويسوء مخبره ، هذا الضرب هو النسوة

(١) البيان والبيان ٥٧/١ وعيون الأخبار ٧/٤ وفيه نسب الشعر لزياد

(٢) الأغاني ٧١/٨ ساسي وجمع الأمثال ٢١١/٢ (٣) الأغاني ٧١/٨

(٤) جمع الأمثال ١١٨/٢ غرر : تعرض للضرر

(٥) السنن الكبرى للبيهقي ٤٦٤/٧ والمبسوط للسرخسي ١١٩/١٥ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٢

اللائى منحن وسامة وقسامة ، لكنهن نشأن فى بيئة لا تغذى بأخلاق فاضلة . يقول أكرم ابن صيفى : « لا يغلبنكم جمال النساء على صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف ^(١) » . ويحس الشاعر أن الخسة قد تأتى من الأم والحالة لأن وراثته الشر قوية :

فأدركنه خالاته فذلته ألا إن عرق السوء لا بد مدرك ^(٢)

وشبيه بهذه الثرية الناشئة فى لؤم وخسة ، وقد نفر منها أكرم بن صيفى فى وصيته لابنه : « يا بنى إياك واختيار اللئيمة بما عندها من المال ، فإن المال يذهب به ، ويبقى فى حالك اللؤم الذى لا يغنيه شئ ^(٣) » . ثم يؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله : « إياكم وخضراء الدمن ^(٤) » يريد المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، كالنبات المعجب الذى نبت على البعر ، يروق ظاهره ، وليس فى باطنه خير ، لأن عرق السوء لا بد أن يظهر .

٣ — وكانت المرأة الثيب غير محبة إليهم فى الأعم الأغلب ، وكذلك المرأة المتمارضة ، والغنية التى تمن بمالها ، وغير المتصونة . قال رجل لولده . « يا بنى لا تتخذها حنانة ولا أنانة ولا متانة ولا عشبة الدار ولا كية القفا ^(٥) » ، ينهاه عن المرأة الثيب التى تحن إلى زوجها الأول ، أو التى لها ولد من غيره فهى تحن عليهم . وينهاه عن التى تن من غير علة ، لأنها إما مترفة مبالغ فى ترفها ، وإما خبيثة تمارض لأرب فى نفسها ، أو هى التى مات عنها زوجها ، فكلما رأت زوجها الثانى أنت . وينهاه عن ذات المال التى لا تفتأ تذكر زوجها بما قدمت له ولبنيه من خير . وينهاه عن الحسناء فى بيئة فاسدة ، وينهاه أخيراً عن المرأة التى تتناولها الألسنة ، فإذا قام زوجها من المجلس قالوا : فعلت كذا وكذا ، وكان بينها وبين فلان كذا .

على أن الثيب كانت تشتهر أحياناً بعراقه أو بجمال أو خلق كريم ومال ، أو تجتذب الرجال بحباله ما فتزوج مرات . وهم يضربون المثل بأم خارجة ، فيقولون : أسرع من نكاح أم خارجة ، كما قالوا ولدت فى العرب فى نيف وعشرين حيا ، من آباء شتى ، وكان الرجل يقول لها خطب ، فمقول نكح ^(٦) ، حتى لو قال قائل إنه لا يكاد يتخلص من ولادتها

(١) محاضرات الأدباء ١١٧/٢ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٢ وجهرة الأمثال ٤

(٢) جهرة الأمثال ٥ (٣) نزهة الأبصار ٣٢

(٤) كنز العمال ٢٨٨/٨ (٥) المحاسن والأضداد ١٦٩ والأمالى ٢٥٦/٢

(٦) تهذيب الكامل ١١٧/٢

كثير من الناس لكان قد قارب ^(١) ، على أن المفضل الضبي ذكر أنها تزوجت خمس مرات فحسب ^(٢) ، وابن حبيب ذكر أنها تزوجت أكثر من ثمانية رجال ^(٣) .

وكثيرات من النساء غير أم خارجة قد أُرِدْنَ ، منهن مارية بنت الجعيد ، ذكر ابن حبيب أسماء أزواجها ، وعددهم عشرة ، ودختنوس بنت لقيط بن زرارة تزوجت ثلاثة ، وهند بنت عتبة تزوجت ثلاثة أيضاً ^(٤) ، والسيدة خديجة بنت خويلد تزوجت قبل المصطفى مرتين ^(٥) ، وضباعة بنت عامر بن قرط تزوجت ثلاثة ^(٦) . وقد استنبطت من رسالة المردفات لأبي الحسن المدائني ثمانى وعشرين مردفة في الجاهلية .

وكذلك أُرِدَتْ كثيرات في الإسلام ، كأم هشام بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب ^(٧) ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، أُرِدَتْ خمسة رجال ^(٨) ، وتزوجت أم كلثوم بنت عقبة أربع مرات ^(٩) ، وجميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول تزوجت أربع مرات ^(١٠) . ولكن الميل العام كان للبكر كما سبق ، في الجاهلية والإسلام . ويدل على ذلك أيضاً قول الجاحظ : إن الزواج بالثيب كان قبيحاً في العصر الأموي والعباسي ^(١١) .

٤ — ومن عيوبها تقطيب الجبين ، والصخب ، والضجاج والمشاركة . قال شيخ من بني سليم لابنه : يا بني إياك والغضوب القطوب ^(١٢) ، وقالت ابنة الخس : شر النساء السويداء الممرض ، الكثيرة المظاظ ^(١٣)

وخير تصوير لذلك قول عبد الله ابن أوفى الخزاعي في امرأته :

نكحت ابنة المنتصى نكحةً على الكره ضرت ولم تنفع
ولم تُغْنِ من فاقةٍ مُعدِّماً ولم تجد خيراً ولم تجمع
منجدةً مثل كلب الهراش إذا جمع الناس لم تهجع

(١) محاسن النساء لابن هاشم ٦٦ مخطوط

(٢) أمثال العرب للضبي ١١

(٣) المحبر ٤٣٥ لابن حبيب

(٤) المحبر ٤٣٥ — ٤٥٥

(٥) الإصابة ٦٠/٨

(٦) الإصابة ١٣٣/٨

(٧) الأغاني ١٣٨/١١

(٨) الأغاني ١٢٧/١٦ وأسود الغابة ٤٩٩/٥ ونزهة الأبصار ١٤ والإصابة ١٣٧/٨

والاستيعاب ٧٦٨/٢

(٩) المردفات من قریش لأبي الحسن المدائني ٦١ من نواذر المخطوطات

(١٠) الإصابة ٤٢/٨ (١١) رسالة القيان ٥٩ (١٢) بلوغ الأرب ٢٢/٢

(١٣) الأملی ٢٥٦/٢ المظاظ : المشاركة والمشاقة

مُفَرَّقَةٌ بين جيرانها وما تستطع بينهم تقطع^(١)

الزوجات الغريات

١ — كان العرب يحرون على نظام الزواج من العشيرة ، ومن غير العشيرة ، لكنهم كانوا يؤثرون الاغتراب ، لأنهم يرون أن ولد الرجل من قرابته يحىء ضاويًا نحيفاً . قال الشاعر يدعو على شخص اسمه عبيد :

ذاك عُبَيْدٌ قد أصاب مَيًّا ياليتَه ألقَهَا صَبِيًّا
حُمِلَتْ فولدت ضاويًّا^(٢)

وفي أمثالهم : النزاع لا القرائب . قال ابن السكيت : النزعة الغريبة ، لأن الغريبة أنجب . ويقال اغتربوا لا تضاوا ، أى انكحوا فى الأبعد حتى لا يولد لكم ضاوى ، قال الشاعر :

فتى لم تلده بذت عم قريبة
تعلم من أعمامه البأس والندى
هو ابن غريات النساء وإنما
وقال آخر فى تخيره زوجة غريبة :

تنحيتُها للنسل وهى غريبة
جاءت به كالبدن خرقاً معمماً^(٣)
وقال آخر :

أنذر من كان بعيد الهم تزويج أولاد بنات العم
فليس بنساج من ضوى وسقم^(٤)

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٤٢ ابنة المنصى : زوجته التى وطئها مرة واحدة . منجدة : مجرب ما عندها . الهراش : تخريش كلب بكلب . إذا جمع الناس لم تهجع : نامة

(٢) لسان العرب ١٩/٢٢٥

(٣) بجمع الأمثال ٢/٢٧٠ ولسان العرب ١٩/٢٢٥ وجهرة الأمثال ١٥ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/٥٠٢ وحماسة الخالدين ١٣٥ مخطوط والتنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ١٢٤

(٤) حماسة الخالدين ٦٥ مخطوط والبيان والتبيين ٣/٦٨ ولسان العرب ١٩/٢٢٥ تنحى : اعتمد ورواية البيان : تنحيتها أى اخترتها . خرق : كرم الخليفة . معمم : سيد

(٥) محاضرات الأدباء ١/٢٠٧ وتاج العروس ١٠/٢٢١

وقال غيره :

الا فتى نال العلا بهمّه ليس أبوه بابن عم أمّه

ترى الرجال تهتدى بأمّه (١)

وافتخر شاعر بأن أمه غريبة :

مكنى بيدت رفيع وجراة وخال كعريان النجوم نزع (٢)

وقد جرى المسلمون على هذا ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يأمر باختيار الغريبات مخافة ضعف النسل « اغتربوا لا تضوا (٣) » ، وعمر بن الخطاب ينظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام فيقول : ما لكم صغرتم؟ قالوا : قرب أمهاتنا من آبائنا : فيقول صدقتم ، اغتربوا . فتزوجوا في البعداء فأنجبوا (٤) . وقال جرير في ابنه بلال .

إن بلالا لم تشنه أمه لم يتناسب خاله وعمه (٥)

على أن بعضهم كان يؤثر بنات العم ، لأنهن في زعمه أصبر على ريب الزمان ونبوة الخلق . ومن هؤلاء بنو عبس ، وقد سئلوا أى النساء وجدتم أصبر؟ قالوا : بنات العم (٦) وهذا النظام الذى سار عليه العرب فى الاغتراب يشبه ما كان سائداً فى بعض الدول المسيحية الأوروبية ، إذ كانت تحرم الزواج بين أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات ، وما زال العرف الأوروبى — بعد إباحة الزواج بهن — يفضل غيرهن عليهن (٧) . والسبب الذى زين للعرب أن يغتربوا هو عقيدتهم أن الاغتراب يقوى النسل وأن الاقتراب يضعفه ، فهل هذا صحيح؟ نعم لأنه إذا كان فى الأسرة ضعف موروث ، فإنه يتفاقم .

وقد تنبه القدماء لهذا ، يقول الجاحظ : « ورأينا الخلاسى من الناس — وهو الذى يتخلق بين الحبشى والبيضاء — ، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه ، وأقوى من أصليه ومشمريه (٨) » .

(١) تاج العروس ٢٢١/١٠ أمه : قصده

(٢) المعانى الكبير لابن قتيبة ٥٠٢/١ خال كعريان النجوم : واضح النسب شهير كالنجم السافر

(٣) لسان العرب ٢٢٥/١٩ وتاج العروس ٢٢١/١٠ ومحاضرات الأدباء ٢٠٧/١

(٤) كثر العمال ٢٨٨/٨ ومحاضرات الأدباء ٢٠٧/١ والعقد الفريد ٢٢٤/٣ وعيون الأخبار ٣/٣

(٥) ديوان جرير ٥٣٣ (٦) عيون الأخبار ١٩٧/١

(٧) الأسرة والمجتمع ٤٧ (٨) الحيوان ١٥٧/١

وزذهب أبو العباس -- وكان يدين بالنجوم ولا يقر بشيء من الحوادث إلا بما يجري على الطبع -- إلى أنه لا يكون الحظ إلا في نتاج شكلين متباينين ، فالتقاءهما هو الإكسير المؤدى إلى الخلاص ، وهو أن تزوج بين هندية وخراساني ، فإنها لا تلد إلا الذهب الإبريز (١) .

ثم جاء العلم الحديث فعزز ما عرفه العرب بالتجربة ، ذلك بأن الوراثة في رأى كثير من العلماء أعظم مؤثر في الحياة ، بل هي مجرى الحياة نفسه ، لأن كل كائن حي نتاج أبوين (٢) . وما أصدق قول منتاني : يالها من قوة خطيرة تلك القطرة المنوية الدقيقة التي تتكون منها ، فتنتقل إلينا صفات آبائنا الجسمية وأفكارهم وميولهم (٣) .

وليس بين العلماء شك في انتقال الصفات الجسدية بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد ، فإذا تزوج اثنان أحدهما أبيض الشعر والآخر أحمر الشعر نسلا وليداً كملت الشعر . وإذا تزوج من هذا النسل اثنان نسلا واحداً أحمر الشعر واثنين كيتين وواحداً أبيض ، أى أن اثنين نزعا إلى الجدين واثنين نزعا إلى الأبوين .

وقد انتهى مندل Mendel من بحوثه إلى أن كلا من الأبوين يمنح الطفل خلاياه ، وأن خلاياهما تصطحب في طفاهما اصطحاباً متقارناً ، وما الطفل والكائن الحى إلا نتاج مزدوج من عناصر الحياة في الأب والأم (٤) . ولقد تظهر الصفات الوراثية في السلالة البعيدة بعد أن اختفت أجيالاً ، وهذه هي الوراثة غير المباشرة (٥) .

وكثير من العلماء على أن الصفات العقلية والخلقية تورث أيضاً ، سواء منها الصالح والظالم كالذكاء والحلم والكرم والورع ، وكالجنون والعتة والجبن والخجل المفرط والميل إلى العهارة أو الانتحار (٦) .

وإذا فقد كان العرب على صواب في إشارتهم الاغتراب في الزواج . يقول العالم النفسى إلدن مور Eldon Moore ، يجب على الرجل أن يحذر حين يتزوج ابنة عمه أو عمتة أو خاله

(١) الحيوان ١/١٤٨

(٢) The Science of living things. Heredity. By Eldon Moore P. 455

(٣) في التربية ١٥٥ على عبد الواحد

(٤) The Science of living things. P.P. 466 - 467

(٦) في التربية ١٣٤

(٥) Ebid. P. 470

أو خالته : لأن هذا الزواج الداخلى قد يسبب ضعفاً فى الجسم أو العقل ، أو يجز بعض الأمراض كالسل وغيره . والسبب الذى يوجب الحذر فى الزواج أنه إذا كان الزوجان جيدي الصحة والعقل كان النسل مثلهما ، وإذا كانا ضعيفي الجسم أو غبيين أو بهما نقص ما نسلا أولادا ضعافا أو مُخَدَّجِينَ ^(١) . وقد تبين مما سبق أن الصفات الموروثة بعضها مباشر يرجع إلى الوالدين ، وبعضها غير مباشر يرجع إلى الأجداد ، فالحيطة تقضى بإيثار الزواج الخارجى نجوةً من تأثير صفات مستكنة بمحولة تضرب إلى الأصول .

أما الخلاسيون « فمن الخطأ الزعم أنهم يحملون أسوأ صفات الجنسين ، لأن الدراسة تبين أنهم أصحاء وأقوياء ، كالجالية الصينية الإنجليزية فى ليفربول وبعض جزر الهند الصينية ^(٢) » .

على أن لاغتراب العرب بواعث آخر ، فالمصاهرة بين قبيلتين تصلهما برباط من المودة والتحالف ، أو تزيد ما بينهما من محبة وتآلف . والزواج من قبيلة أخرى دليل على الفتوة والرجولة وحسن الاحدوثة ، ثم إن نشأة الفتى بين قريباته قد تصرفه عن جماهن وجاذبتين ، لأنه ألفت أن يراهن ، ولكن بعد القريبات عنه يضى عليهن سحرا وجاذبية . وقد ذهب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله إلى تعليل آخر ، فذكر أن السبب فى ضعف الولد من القرية أن شهوة أبيه إلى أمه ضعيفة ، لأن الإحساس بالنظر واللمس يقوى بالامر القريب الجديد ، فأما المعهود الذى دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ، ولا تنبعث به الشهوة ^(٣) . ولكن هذا التعليل لا يقره العلم كما سبق ، ثم هو مردود بأن الرجل يتزوج الغريبة ويألفها بعد حين ، كما كان يألف القرية قبل الزواج .

٢ — لم يقف اغتراب العرب عند الزواج من قبيلة أخرى ، بل تعداه إلى الزواج من أمم أخرى ، وأنا أريد بالزواج هنا الاتصال بين الرجل والمرأة .

(١) فكانت الزوجة فى كثير من الأحيان حبشية ، وكان للعرب ميل خاص إلى الحبشيات ، يدل على ذلك قول أبى حازم المدنى :

The Science of living things. P. 484 (١)

Ebid. P. 483 (٢)

(٣) باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٢٧

ومن يك معجبا ببينات كسرى فإني معجب ببينات حام
 وقول الأصمعي لرجل : أى الرجال أخف أرواحا ؟ قال : الذين أعرقت فيهم السودان ،
 وقول على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلى مهرها ^(١) . وساعدهم على هذا كثرة
 الإماء من الحبشة ، وحسن رأيهن فى الحبشيات ، حتى لقد كان اليمينيون يؤثرون الحبشيات
 وبنات الحبشيات فى زواجهن ^(٢) .

ولم يكن هذا الميل ناشئا عن المساواة التى بثها الإسلام ، فإن كثيرا من العرب فى
 الجاهلية أمهاتهم حبشيات ، فأم عنتره زبيبة وهى أمة حبشية ^(٣) ، وأم خفاف بن عُمير أمة
 سوداء اسمها نذبة وإليها نسب ^(٤) . وكانت بركة أم أيمن مولاة النبى صلى الله عليه وسلم
 وحاضنته أمة سوداء ، وقد تزوجها عبيد بن زيد الخزرجى فولدت له أيمن ، ثم زوجها النبى
 من زيد بن حارثة فولدت أسامة ^(٥) ، وهناك بركة غيرها تسكنى بأم أيمن أيضا ، وهى حبشية
 كانت خادما لأم حبيبة ، وقد ترجم لها ابن حجر ^(٦) ، ويذكر صاحب المحبر عدة من
 الحبشيات زوجات وأمهات ، منهن صهال كانت لهاشم بن عبد مناف وولدت فضلة بن هاشم
 ونفيل بن عبد العزى وعمرو بن ربيعة بن الحارث ، ومنهن حبة كانت لجابر بن حبيب ،
 وهى أم الخطاب بن نفيل ، وقد عير ثابت بن قيس الأنصارى عمر بن الخطاب بقوله
 يا بن السوداء ، فأنزل الله تعالى : د يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا
 خيرا منهم ، ومنهن أم عمرو بن العاص بن وائل السهمى ، وأم معمر بن عثمان التيمى ،
 وأم المتلس الضبي ، وأم عثمان بن الحويرث الخ ^(٧) .

(ب) وتزوجوا بروميات ، كسمية ، فهى رومية الأصل سبهاها اليشكرى ووهبها للحارث
 ابن كعدة ، وكان يطؤها بملك اليمين ، فولدت له نافعا ثم نفيعا . ثم وهبها لزوجته صفية
 الثقفية ، فزوجتها عبدا روميا لها يقال له عبيد ، فولدت له زيادا ، فأعتقه صفية ^(٨) ، ثم
 خلف عليها الأزرق ، فولدت له سلمة ^(٩) .

(١) عيون الأخبار ٤٠/٤

(٢) رسالة غفر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٧٥

(٣) الأغاني ١٤١/٧ والمخبر ٣٠٦ (٤) الأغاني ١٣٥/١٦ والشعر والشعراء ١٢٢

(٥) الإصابة ٣١٢/٨ (٦) الإصابة ٢٧/٨

(٧) المخبر لابن حبيب ٣٠٦ — ٣٠٩ (٨) الإصابة ١١٩/٨ (٩) الإصابة ١١٤/٨

(ح) لكنهم لم يتزوجوا بفارسيات ، لأن الفرس كانوا لا يزوجون بناتهم للعرب في الجاهلية ^(١) ، ولكن بعض الإماء والقيان كن فارسيات ، وكن يستولدن . وقد ألف على ابن محمد المدائني كتابا سماه (كتاب من تزوج بجوسية ^(٢)) .

وكأنما أراد العرب أن يثأروا في العصر الأموي لترفع الفرس عليهم في الجاهلية ، فلم يرتضوا الفرس أزواجا لبناتهم ، تحقيراً لشأن الأعاجم ، كما سيجيء في كفاءة الزوج . ثم انكسب المسلمون على الزواج بالفارسيات في العصر الأموي والعباسي ، حتى لنجد كثيراً من الخلفاء والأمراء من أمهات غير عربيات ^(٣) .

(و) على أن بعضهم عاب الزواج بالنبطيات ، يدل على ذلك أنه كان في شيهم بن ذى النابين فشّل وضعف رأى ، فأقى أرض النبط في نفر من قومه ، فهو جارية نبطية حسناء ، فتزوجها ، فنهاء قومه ، وقال أخوه محارب :

لم يعد شيهم أن تزوج مثله فهما كشيمة علاها شيهم
ورسوله الساعى إليها تارة جعل وطوراً عضر فوط ملجم

ولم يكن في قومة إلا ساخر به عائب له ^(٤) . ولعل مرد ذلك إلى أن العرب كانوا يرون الأنباط أهل زراعة واستقرار وخضوع للحكام ، ولا يدينون بعصبية كما يدين العرب في الجزيرة ، ولا يعتزون بأنسابهم مثلهم ، يدل على ذلك قول عمر بن الخطاب : تعلموا الأنساب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال : أنا من قرية كذا ^(٥) وقوله : تمعددوا ولا تستنبطوا ، أى تشبهوا بمعد ولا تشبهوا بالنبط في سكنها واتخاذ العقار والملك . ويدل على ذلك أن رجلاً قال لآخر : يانبطى ، فقال لا حد عليك ، كلنا نبط ، يريد الجوار والدار دون الولادة . وفي كلام أيوب بن القرية : أهل عمان عرب استنبطوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا ^(٦) .

(٢) معجم الأدباء ١٣٣/١٤

(١) مروج الذهب ١٩٦/١

(٣) الخبر لابن حبيب ٤٥ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان أمه فارسية . إبراهيم بن الوليد ابن عبد الملك أمه أم ولد . مروان بن محمد أمه كردية . أبو جعفر المنصور أمه بربرية . موسى وهارون أنا الرشيد أمهما جرشيّة . المأمون أمه باذغيسية الخ

(٤) بجمع الأمثال ١٥٥/١ شيهم : قنفذ . جعل : دوية كالخنفساء . عضر فوط : ذكر العطاء وهو كسام أبرص ، وفي زعمهم أنه من دواب الجن وركائبهم

(٦) لسان العرب مادة نبط

(٥) مقدمة ابن خلدون ١٢٤

الزوج الكفء في نظر المرأة وآلها

بالغ العرب في تخير الأزواج لبناتهم ، ودققت الفتيات في اصطفاء أزواجهن ، كما تحرى الرجال — فيما سبق — زوجات متمسات بصفات خاصة .

وكانت الفتاة وآلها يهشون للخاطب الكفء ، ويلبسون خطبته ، ولا يردونه ، بذلك نصح حصن بن حذيفة بن بدر أبناءه في قوله : « أنكحوا الكفء الغريب فإنه عزّ حادث ^(١) » وأوصى قيس بن زهير النمر بن قاسط بعد أن تزوج منهم وجاورهم بقوله : « لا تردوا إلا كفءاً عن النساء فتخرجوهن إلى البلاء ، فإن لم تجدوا إلا كفءاً فخير أزواجهن القبور ^(٢) » وقال الأحنف بن قيس : ثلاثة لا أناة فيهن عندي . قيل : وما هن يا أبا بحر ، قال : وأن تنكح الكفء أيمك ^(٣) » ، وكان يقال : لأفعى تحكك في ناحية بيتي أحب لي من أيم رددت عنها كفئاً . وما بعد الصواب إلا الخطأ ، وما بعد منعن من إلا كفءاً إلا بذهن للسفلة والغوغاء ^(٤) .

أما الشروط التي راعتها المرأة وراعاها قومها في الزوج فإنها تدور كلها حول الكفاءة لهذه المصاهرة .

١ — فالزوج الشاب أثير مستحب ، لأنه أدنى إلى الزوجة سناً ، وأشبه بها خلقاً وميلاً ، ولأنه في ريعانه وعنفوانه . لذلك رفضت الخنساء أن تزوج بدريد من الصمة لما خطبها ، لأنها تبينت أنه هرم ، ولم يثنها أبوها عن رفضها ^(٥) ، وحاول أخوها معاوية — وكان صديقاً لدريد — أن يرغمها فما استطاع ، وفي ذلك تقول :

أَتَكْرِهُنِي - هُبَلْتُ - عَلَى دُرَيْدٍ وَقَدْ أَصْفَحْتُ سَيِّدَ آلِ بَدْرِ
مَعَاذَ اللَّهِ يَرْصَعُنِي حَبْرُ كِي قَصِيرُ الشَّبْرِ مِنْ جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ ^(٦)

فغیظ درید وهجاها ، وتمنى ألا تزوج زواجا سعيداً ^(٧) .

(٢) العقد الفريد ٢١١/٣ وأمالى المرتضى ١٤٩

(٤) البيان والتبيين ١٩٩/٢

(١) أمالى المرتضى ١٦٨/٢

(٣) البيان والتبيين ١٩٩/٢

(٥) عيون الأخبار ٤٦/٤

(٦) ديوان الخنساء ١٢٠ أصفحت : رددت : سيد آل بدر : كان زعيمهم خطبها فردته . حبركي : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيف الرجلين يكاد يكون مقعداً . قصير الشبر : متقارب الخطو . يرصعني : يتزوجني (٧) الأغاني ١١/٩ ساسي و١٣٨/١٣ ومنتهى الطلب ٣٢٤ مخطوط

ولما خطب الحارث بن سليل الأسدى إلى علقمة بن خصفة الطائى — وكان الحارث شيخا — قال علقمة لأم الجارية : أريدى ابنتك على نفسها ، قالت : أى بنية أى الرجال أحب إليك ؟ السكهل الجحجاح ، الواصل المنأح ، أم الفتى الواضح ؟ قالت : لا بل الفتى الواضح يا أمتاه :

إن الفتاة تحب الفتى كحب الرءاء أنيق الكلا

ولكن أمها لم تزل بها حتى غلبتها على أمرها ، فتزوجت الحارث ، وبينما هو ذات يوم جالس وهى إلى جانبه أقبل شباب من بى أسد يعتلجون ، فتنفست سعداء ثم بكى ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ الناهضين كالفروخ . فقال لها : أما وأبيك لرب غارة شهدتها ، وسبية أردفتها ، وخمرة شربتها ، فالحق بأهلك فلا حاجة لى فيك . وقال :
تهزأت بى أن رأتنى لابسا كبرا وغاية الناس بين الموت والكبر
فإن بقيت لقيت الشيب راغمة وفى التعرف ما يمضى من العبر
.....

عنى إليك فإنى لا يوافقنى عور الكلام ولا شرب على الكدر (١)

وودت بنت ذى الأصبع العدوانى أن يكون لها زوج شاب :

ألا ليت زوجى من أناس ذوى غنى حديث الشباب طيب الريح والعطر (٢)

٢ — وأن يكون الزوج حسن العشرة ، حذبا على الزوجة ، رفيقا رفيقا ، وهن قد أعلن ذلك فى أحاديثهن ، جاء فى حديث نسوة من بنى سعد قول واحدة منهن : « خير الرجال الحظى الرضى القنوع ، غير الحظال » .

وقول ثانية : « بل خير الرجال الوفى السنّى الذى يكرم الحرة ، ولا يجمع الضرة » ،
وقول ثالثة : « بل خير الرجال الغنى المقيم الراضى لا يلوم (٣) » وتحدثت بنات ذى الأصبع العدوانى عن الصفات التى تتمناها كل منهن فى زوجها حديثا طويلا (٤) يعيننا منه الآن قول السكبرى :

(١) عيون الأخبار ٤/٤٨ وجهرة الأمثال ١/١٨٣ ومجمع الأمثال ١/١١٠ والفاخر للكوفى

٨٩ جحجج : سيد كريم (٢) الأغانى ٣/٩٤ الدار

(٣) الفاخر ١٩٣ وجهرة الأمثال ٢/١٣٣ الحظال : المقتر على أهله

(٤) الأغانى ٣/٩٤ وتهذيب الكامل ١/٣٠٥ ومجمع الأمثال ١/٢٩٣ وأمالى المرتضى ١٧٧

وأخبار النساء لابن قيم ٤٨ وجهرة الأمثال ١١٣

ألا ليت زوجي من أناس ذوى غنى حديث الشباب طيب الريح والعطر
طبيب بأدواء النساء كأنه خليفة جان لا ينام على وتر
وإن الزوجة لترجو أن يكون زوجها مرحا باسم الشجر لتجد الأنس في قربه ، والراحة
في عشرته . قيل لابنة الخس : ألا تتزوجين ؟ قالت : بلى ، لا أريده أخا فلان ولا ابن فلان ،
ولكن أريده كسوبا إذا خرج ، ضحوكا إذا أتى ^(١) .

وما زالت هذه نظرتها إلى زوجها في الإسلام ، فانه لما خطب عمر أم أبان بنت عتبة
ابن ربيعة بن عبد شمس — بعد مقتل زوجها أبان بن سعيد بن العاص بن أمية — أبت
فقيل لها : لم ؟ قالت يدخل عابسا ويخرج عابسا . ثم خطبها الزبير بن العوام ، فأبته ، فقيل
لها لم ؟ قالت : ليس لزوجته منه إلا قضاء حاجته ، ويقول كنت وكان وكان . وخطبها علي
فقالت : ليس للنساء منه حظ . وخطبها طلحة فرضيته ، قالوا لها وكيف ذلك ؟ قالت إني
عارفة بخلائقه ، إن دخل ضاحكا ، وإن خرج بساما ، إن سألت أعطى ، وإن سكنت ابتدأ ،
وإن عملت شكر ، وإن أذنبت غفر ^(٢) .

وهذه الصفات التي جاءت في حديث بنات سعد وبنت ذى الأصبع وابنة الخس ،
وأم أبان ليست إلا ألوانا من العشرة الحلوة والأخلاق الرضية التي تأنس إليها الزوجة
في زوجها .

٣ — وأن يكون الزوج متحليا بالفضائل التي تعارفت عليها العرب ، واقتضتها البيئـة
من كرم وشجاعة وأنفة وغيرها ، فهي تؤثره جواردا لأن جوده يحقق آمالها في حياة ناعمة ،
ويكفل له شهرة وسيادة ، قالت إحدى بنات ذى الأصبع :

ألا ليته يَمَلّا الجفان لضييفه له جَنَمَةٌ يَشْقِي بها النِّيبُ والجزر ^(٣)

ومما يدل على تطلبها أن يكون زوجها كريما أن ماوية بنت عفزر كانت ذات حرية
تتزوج من أرادت ، وقد أتاها حاتم والنابعة ورجل من النبيت يخطبونها ، فطلبت منهم أن
يقول كل منهم شعرا يذكر فيه فعاله ، ثم ينشدونها في الصباح ما قالوا ، وستصطفى أكرمهم
زوجا لها ، وفي الصباح أنشدوها . وكان من قول حاتم :

(٢) أعلام النساء ١٢/١

(١) عيون الأخبار ١١/٤

(٣) النيب : النوق المسنة . الجزر : النوق التي تدبج

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
فقلت إن حاتما أكرمكم وأشعركم. ثم رضيته زوجا لها على أن يخلى سبيل امرأته ، فأبى ،
فلما ماتت امرأته تزوجته ماوية وولدت له عدياً (١) . وأن يكون شجاعا ، لتعزز بحمايته ،
وتفخر برهبته ، ولتعلو مكانته فى قومه ، فلا ينام على وتر كما قالت بنت ذى الأصبع ، وكما
قالت امرأة فى وصف زوجها : ليث عرينه ، وجمل طعينة ، وظل صخر ، وجوار بحر (٢) .
وفى رثاء الخنساء لأخيها صخر نموذج للرجل الأثير عند النساء بكرمه وشجاعته وسيادته ،
وطالما رددت هذه المعانى كقولها :

جلد جميل المحيا كامل ورع وللحروب غداة الروع مسعار
مثل الردينى لم تنفد شببته كأنه تحت طى البرد أسوار
عبل الذراعين قد تخشى بديته له سلاحان أنياب وأظفار (٣)

وقد سئلت ابنة الخس أى الرجال أحب إليك ؟ فقلت : السهل النجيب ، السمع
الحسيب ، الندب الأريب ، السيد المهيّب . وأفضل منه الأهيف الهفهاف ، الأنف العياف ،
المفيد المتلاف ، الذى يخيف ولا يخاف (٤) ، وذكر أبو على القالى حديثاً طويلاً بين ثلاث
فتيات وصفن ما يحببن من أزواجهن ، ملخصه أنهن يتطلبن فى الزوج الكرم والشجاعة (٥) .
لذلك هجا عامر بن الطفيل أناساً بأنهم حقراء لا يخطبون بنات السادة ، ولا يقبل أحد
على الخطبة منهم :

لا يخطبون إلى الكرام بناتهم وتثيب أيهم ولما تخطب (٦)

وقد أبت حسينة بنت جابر العجلي أن تعود إلى زوجها ابن عمها ، لأنه فر عنها فى الحرب
وتركها تسبى (٧) ، ورأت امرأة زوجها قد قبع فى منزله والرجال يقاتلون عدوهم ، وهى
تنظر إليهم معجبة ، فضربها ، فقلت أغيرة وجبنا ، فذهبت مثلاً (٨) . وفى حديث بين

(١) الأغاني ١٦/٩٩ — ١٠١ وذيل الأمل ١٥٤

(٢) مجالس ثعلب ٤٥/١

(٣) ديوان الخنساء ٨٠ مسعار : مشعل . أسوار : سوار كما فى شرح الديوان ، وأرى أنه فارس الفرس

(٤) ذيل الأمل ١١٩ الأهيف والهفهاف : الضامر البطن الدقيق الخصر . الأنف العياف : الأبنى للضم

(٥) الأمل ١٦/٣

(٦) أشعار النساء للرزباني ٥٧ — ٥٩

(٧) ديوان عامر القصيدة ٨

(٨) الميداني ٤/٢

عمر بن الخطاب وعمر بن معد يكرب قول عمرو : كننا نغير على بني مالك ، فأتيننا على قوم سراة ، فجلست في موضع أسمع كلامهم ، وإذا بجارية قد خرجت من خيمتها وجلست بين صواحب لها ، ثم دعت وليدة من ولائدتها فقالت : ادعى لي فلانا ، فلما جاء قالت له : إن نفسي تحدثني أن خيلا تغير على الحى ، فكيف أنت إن زوجتك نفسي؟ قال : أفعل وأصنع ، وجعل يصف نفسه ويفرط ، فقالت له : انصرف حتى أرى رأيي ، وأقبلت على صواحبها وقالت : ما عنده خير . ثم استدعت آخر ، وخاطبته فأجابها بكواب الأول ، فصرفته . ثم قالت لوليدتها : ادعى لي ربيعة ابن مكدم ، فدعته ، فقالت له مثل قولها للرجلين ، فأجابها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه ، ولكنى إن لقيت أعذرت ، وحسب المرء غناء أن يعذر . فقالت له : قد زوجتك نفسي ، فاحضر غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك ^(١) .

لذلك كان الرجال كثيراً ما يتوجهون بفخارهم بالشجاعة إلى المرأة ، ويطلبون منها أن تسقيهم الخمر جزاء وتقديراً ، قال المرقش الأكبر :

يا ذات أجوادنا قومي فحينما وإن سقيت كرام الناس فاسقيننا
وإن دعوت إلى جلي ومكرمة يوماً سراة خيار الناس فادعيننا ^(٢)
وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمر الاندرينا ^(٣)
وقال الدهان بن جندل بعد انتصار العرب في ذي قار :
إن كنت ساقية يوماً على كرم فاسقي فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقي فوارس حاموا عن ديارهم واعلى مفارقهم مسكا وريحانا
وقال بكر بن الأصم :

إن كنت ساقية المدامة أهلها فاسقي على كرم بنى همام
وأبا ربيعة كلها ومحلها سبقوا بغاية أفضل الأقسام ^(٤)
ولقد يشهدا الرجل على مفاخره ، كقول أمية بن الصلت :
فإما تسألني عنى لبني وعن نسي أخبرك اليقيننا

(٢) المفضليات ٢٣١/٢

(٤) الأغاني ١٣٨/٢٠

(١) الأغاني ١٣٢/١٥

(٣) شرح القصائد العشر ٢١٨

ثقي أنى النبیه أبا وأما وأجدادا سموا في الأقدمينا (١)

٤ — ولقد تؤثر الفتاة أن تزوج فتى من عشيرتها ، إشاراً لقربها من آلهها ، ورغبة في أن تقيم بوطنها ، وتهيبا من معاشرة من لا تعرف ، ولقد يكون السبب أيضاً كما قرر ولها وزن Wellhausen أن النساء كن يحتمين بعشيرتهن حتى وهن متزوجات ، وكان أقاربهن يحمونهن ويدافعون عنهن . وفي الحكومة الجمهورية بغير حاكم — كما يحلو لولها وزن دائماً أن يطلق على الحياة السياسية للعرب البداءة — كانت القبيلة هي التي تكفل السلام والحماية لأفرادها جميعاً ، وكان الفرد يسعى ليحقق أهدافه الخاصة في نطاق لا يعدو على مصالح القبيلة ، والمرأة عضو في هذا الاتحاد ، فيجب على القبيلة أن ترعى أمنها وسلامتها وحقوقها حتى بعد أن تتزوج في قبيلة أخرى (٢) .

ويدل على إيثارهن للزوج القريب قول إحداهن :

لصوق بأكباد النساء وأصله إذا ما انتمى من سر أهلى ومحتدى

وقول بنت أوس بن حارثة الطائي لأبيها إذ استشارها في أن يزوجها للحارث ابن عوف :
لست بابنة عمه فيرعى رحى ، وليس بجارك فيستحى منك (٣) . ونصحت أخت أختها ألا تقبل غريباً زوجها لها ، وقالت لها : إن شر الغريبة يعلن وخيرها يدفن ، تزوجى في قومك ، ولا تغرك الأجسام (٤) . وجاء في قول الخنساء لأبيها وقد رفضت دريد بن الصمة زوجها :
أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناحكة شيخ بنى جشم (٥) .

وقد نعت امرأة عامرية من أبيها وأخيها أنهما زوجها في عشيرة أخرى :

لا تحمدن الدهر أخت أخاً لها ولا ترثين الدهر بنت لوالد

هم جعلوها حيث ليست بحرة وهم طرحوها في الأقاليم الأبعد (٦)

ولما خطب عثمان بن عفان نائلة بنت الفرافصة — وكان أبوها نصرانياً — أمر ابنه ضياً — وكان مسلماً — أن يتولى أمر زواجها ، فزوجها عثمان ، فلما حملت كرهت الغربية ، فقالت لأخيها ضب :

(١) جهرة أشعار العرب ١٨٧

(٢) Women in the Aiyam Al Arab. P. 66

(٣) الأغاني ١٤٢/٩ (٤) مجمع الأمثال ١/١٢٤

(٥) الأغاني ١١/٩ ساسى والشعر والشعراء ١٢٢

(٦) تهذيب الكامل ١٢٤/٢ وأشعار النساء المرزبانى . مخطوط

أَلست ترى يا ضَبُّ بالله أنى مصاحبة نحو المدينة أركبا
إذا قطعوا حزنًا تحت ركبهم كما زعزعت ريح يراعا مثقبا
لقد كان في أبناء حصن بن ضمضم لك الويل ما يغنى الحباء المُنطبًا (١)
قضى الله حقاً أن تموتى غريبة ييثرب لا تلقين أما ولا أبا (٢)

ثم بعد ذلك حملت ميسون بنت بحدل الكلبية ، وكانت بدوية ، فتزوجها معاوية ، وأقامت بالشام في بحوحة الملك وخفض العيش ونضرة الحضارة ، وكانت قد حملت بولده يزيد ، فلم تتجلد على انتظار الوضع ، بل أخذت تهتف بقصيدة تقول في آخرها :

خشونة عيشتى في البدو أشهى إلى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطنى بديلاً فحسبى ذاك من وطن شريف (٣)

وكثيراً ما كانت المتزوجات في غربة يتغنين بالحنين إلى أوطانهن ، تقول امرأة شيبانية كانت متزوجة في بني يشكر :

أصبحت في آل الشقيق غريبة على الذى لا عيب فيه معيب
وإن زمانا ردى في عشيرتى إلى وإن لم أرجه حبيب
فسمعها زوجها ، فردها إلى قومها (٤) .

وكان الخاطب من قومها يحتاج إذا ما آثرت عليه غريباً . خطب شقيق بن السليك امرأة من قومه فردته ، وتزوجت غريباً ، فدعا عليها ألا تسعد وألا تنسل ، وأن يكون زوجها هرماً كثير الإماء سيئ العشرة ضروباً لزوجاته ، قدرا قبيح الصورة :

ونبتتها أحرمت قومها لتتكح في معشر آخرينا
فإما نكحت فلا بالرفاء إذا ما نكحت ولا بالبنينا
وزوجت أشتط في غربة تحن الحليلة منه جنونا
خليل إماءٍ يرا وحنه وللحصنات ضروباً مهينا
إذا ما نقلت إلى داره أعد لظهورك سوطاً متينا
وقلبت طرفك في شاهق تظل الحمام عليه وكونا

(١) الأغاني ٦٧/١٥ ورسالة الحنين إلى الأوطان ٢٢ وعيون الأخبار ٧٦/٤

(٢) معجم البلدان ٤٩٩/٨ (٣) حماسة الخالدين ٢٣٢ مخطوط

(٤) أشعار النساء للمرزبانى ٥١ مخطوط

يُشْمُكَ أَخْبَثَ أَضْرَاسَهُ إِذَا مَا دَنُوتَ فَتَسْتَشْقِينَا
كَأَنَّ الْمَسَاوِيكَ فِي شِدْقِهِ إِذَا هُنَّ أَكْرَهْنَ يَقْلَعْنَ طِينَا
فَأَبْعَدَكَ اللَّهُ مِنْ جَارَةٍ وَالزَّمَكَ اللَّهُ مَا تَكْرَهِينَا^(١)

هـ — وقد راعت الفتاة وقومها أن يكون الزوج عربياً ، لأن العرب كانوا ذوى حمية وأنفة واعتداد بالنفس والجنس إلى حد الغلو ، يرون أنهم أرقى الأمم وأصفأها ، فليس شعب بكفء لأن يصهر إليهم ، وكان كثير من الأمم يجرى على ذلك ، فالعبريون كانوا يجرمون تزويج الكنعانيين وغيرهم ، لأنهم اعتقدوا أنهم شعب الله المختار ، واليونانيون كانوا لا يزوجون شعباً آخر ، لأنهم أطلقوا على غيرهم من الشعوب كلمة بربر ، ونظروا إليهم على أنهم دونهم ، وأيد فلاسفتهم هذه النظرية ، فأرسطو يرى أن اليونان وحدهم مزودون بالعقل والشجاعة ، ومن عداهم من الشعوب (البربر) مزودون بالشجاعة وحدها . وكذلك كان الرومان ، فقد أصدر الإمبراطور فالنتينان قانوناً يقضى بعقوبة الإعدام على كل رومانية تزوج بغير روماني^(٢) .

وتشدد العرب في حظر تزويج غير العربي وإن كان ملكاً . ومن أمثلة ذلك أن النعمان رفض أن يزوج كسرى بن هرمز ابنته حرقّة ، وكان من نتائج هذا الرفض أن قتل كسرى النعمان ، ثم أن قامت حرب ذى قار وانتصر فيها العرب^(٣) .

وإن أقدم عربي على تزويج عُلج سخر منه العرب واحتقروه ، قال الأسعوي الجعفي في هجاء أبي حمران :

بَاعُوا جَوَادَهُمْ لَتَسْمَنَ أَمَهُمْ وَلَكِي يَعُودُ عَلَى فَرَاشِهِمْ فَتِي
عُلْجٌ إِذَا مَا بَزَّ عَنْهَا ثَوْبَهَا وَتَخَامَصَتْ قَالَتْ لَهُ : مَاذَا تَرَى

ولما جاء الإسلام قضى على نزعة العصبية الجنسية ، وأحل محلها الدين في الكفاءة ، نقل عن عمر وابن مسعود وغيرهما — وهو الظاهر من مذهب مالك — الاعتداد بالدين وحده ، لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس

(١) لسان العرب ١٧/١٥ وحامسة الخالدين ٣٥٢ مخطوط والحامسة البصرية ٢٢٤ مخطوط . مارد : حصن أو قصر . وكون : جمع واكن أى جأثم يريد أن الحمام يقف على الحصن فلا يذعر لارتفاعه
(٢) الأسرة والمجتمع ٣٣ — ٣٥
(٣) تاريخ الطبري ١٥٠/٢
(٤) الأصمعيات من مجموع أشعار العرب لوليم بن الورد البروسي ٣/١

لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى». وقوله: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه»
وغير هؤلاء يعتدون الكفاءة في الدين والحرية والنسب والصناعة^(١). ولكن بعض العرب
ظلوا يستمسكون بنعرتهم القديمة، ففي الإسلام زوج إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصاري
يحيى بن أبي حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين ألف درهم، فقال شاعر يعيره:

لعمري لقد جللت نفسك خزبة وخالفت فعل الأكرمين الأكارم
ولو كان جداك اللذان تتابعنا ببدر لما راما صنيع الألائم
فرد عليه إبراهيم بقوله:

ما تركت عشرون ألفا لقائل مقالا فلا تحفل ملامة لاثم
وإن أك قد زوجت مولى فقد مضت به سنة قبلي وحب الدراهم^(٢)
وكان يحيى هذا يهوديا فأسلم^(٣)، أو كان أبوه يهوديا فأسلم^(٤).

وروى أن يحيى هذا خطب لابنيه بنتي مقاتل بن طلحة بن قيس بن عاصم فأجابته، فقال
القلاخ بن حزن المنقري:

نبئت خولة قالت حين أنكحها لطلما كنت منك العار أنتظر
أنكحت عبيدين ترجو فضل مالهما في فيك مما رجوت التراب والحجر
لله در جواد أنت سائسها برذنتها وبها التحجيل والغرر^(٥)
وكرر هذا الهجاء^(٦).

وفي العصر الأموي غير الكمية اليمانية بأنهم زوجوا بناتهم للفرس وللخيش في العصر
الجاهلي، وافتخر بأن النزاريين لم ينحدروا إلى هذا الدرك:

وما ضربت فحول بني نزار فوالح من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاق مطهمة فيأفوا مبغلينا
بني الأعمام أنكحنا الأيامي وبالآباء سميئنا البنيينا^(٧)

(١) غيرن المسائل ٥٩

(٢) الكامل للبرد ٢٨١/١ وعيون الأخبار ١٦/٤

(٣) الأغاني ٣٦/٩ ساسي

(٤) عيون الأخبار ١٦/٤

(٥) الأغاني ٣٦/٩ ساسي

(٦) عيون الأخبار ١٦/٤

(٧) العقد الفريد ٢٣٣/٣ الفحول: الرجال البينو الفحولة. فوالح: ضاربون. مبغليين: مهجنين

وكان عقيل بن عُلفَة شديد العجرفة والبذخ بنسبه في بنى مرة ، لا يرى أن له كفوًا ، وقد صاهرته قريش وخلفاؤها وأشرافها ، منهم يزيد بن عبد الملك ، وسلمة بن عبد الله بن المغيرة ، ويحيى وخالد والحارث أبناء الحكم بن أبي العاص ^(١) . ولما خطب إليه عبد الملك بن مروان لأحد بنيهِ ، وكانت لعقيل إليه حاجة ، قال : أما إذ كنت فاعلا فجنبتى هجناءك ^(٢) ، فهو لا يرفض غير العربي فحسب ، وإنما يرفض من أمه غير عربية ، ويرفض أحد الأغنياء لأنه هجين ، وإن كان ذا مال كثير :

لعمري لئن زوّجتُ من أجل ماله هجيناً لقد حُبتُ إلى الدراهم
أأنكح عبداً بعد يحيى وخالد أولئك أكفائي الرجال الأكارم
أبى لي أن أعطى الدنية أنى أمدُّ عنانا لم تخنّه الشكائم ^(٣)

٦ — وهم ترفعوا عن تزويج العبد ، والحر المنحدر من عبد . ولم ينفردوا وحدهم بهذا الترفع ، فكذلك كان العبريون واليونان والرومان ^(٤) ، وما زالت آثار من هذا النظام بأمريكا ، يقول فوليه Alfred fouillée : تحدث مشاهد في الولايات المتحدة لا تجلب فخراً للأمريكان ، وذلك أن الزوج يحبون النساء البيض حبا جما ، ولقد يثور بهم هذا إلى أن يرووا شهوتهم بالعنف ، ويقضى القانون بأن يطلى من يأتى ذلك بالقطران ، ويحرق كما تحرق الشموع ، وتضطّر الحكومة السود الذين يعيشون في المنطقة التي حدث فيها الجرم أن يشهدوا إحراق رفيقهم ، وهم لا يفعلون ذلك ولا قريباً منه بالبيض إذا ما ارتكبوا هذا الجرم ^(٥) .

نعم هنالك في أمريكا يعيش وسط مائة مليون من الرجال والنساء النازحين من أوروبا اثنا عشر مليوناً من أصل إفريقي ، وبين الأبيض والأسود حاجز حصين من اللون يحرص البيض على بقائه وصيانتة كما يحرص غيرهم على حدود مملكته ، والصلات الاجتماعية محظورة على جانبي هذا الحاجز العنصري ، وإذا ما حاول أحد من السود أن يتخطى هذا الحاجز ثار البيض ^(٦) .

(١) الأغاني ١١/٨٢

(٢) تهذيب السكمل ٢٦٨/١ وأخبار النساء لابن قيم ٥٤ وعيون الأخبار ١٢/٤

(٣) الأغاني ١١/٨٦

(٤) أساس العدالة في القانون الروماني ٢٩ والاسرة والمجتمع ٣٣ — ٣٧

(٥) الإسلام والحضارة العربية ١٤/١

(٦) تاريخ العالم عدد ٦ مجلد ١ ص ٣٣٣ Sir Arthur. Keith

ولام عميرة بن جعل قومه بنى تغلب ، لأنهم يزوجون بناتهم من حقراء النسب :

ترى الخاصن الغراء منهم لشارف أخى سلة قد كان منه سليلها (١)

٨ — وقد انقرض الحمس — قريش ومن دان بدينها من خزاعة لنزولها مكة ومجاورتها

قريشاً ، وكنانة وجديلة قيس وثقيف وعامر بن صعصعة . وكانت لهم مناسك خاصة في الحج — باشرطهم في الخاطب أن يكون على دينهم ، لأنهم قد شددوا على أنفسهم في الدين وشددوا على الناس (٢) ، فلم يزوجوا بناتهم إلا للحمس أو لمن يتحمس في دينه .

وهذا القيد عام في الشعوب ، ففي الهند لا يصح الزواج بين البرهميين وغيرهم من الطبقات ، والفوانين اليهودية القديمة تحرم الزواج بين اليهود وأهل الديانات الأخرى حتى النصراني والمسلمين (٣) ، وفي الإسلام لا يصح زواج مسلمة بغير مسلم وإن كان كتابياً ، ولا يجوز زواج مسلم إلا بمسلمة أو كتابية . على أن بعض الفرق الإسلامية ذهبت إلى تحريم الزواج من الفرق الأخرى ، واشتد أبو حنيفة في مراعاة الإسلام فذهب إلى أن أقدمية الآباء في الإسلام من مقاييس الكفاءة ، فمن له أب واحد في الإسلام ليس كفئاً لمن لها أبوان ، ولكنه يقف عند حد الأبوين ، فمن له أبوان مسلمان كفء لها آباء .

وقد بقي الاعتداد بالكفاءة في الحسب إلى الإسلام ، فذهب أبي حنيفة على أن غير العربي ليس كفئاً للعربية ، وأن غير القرشي ليس كفئاً للقرشية ، اعتاداً على قول النبي صلى الله عليه وسلم : « قريش بعضهم أكفاء لبعض ، رجل برجل » فلا يصح على هذا المذهب زواج عربية من أعجمي أو قرشية من غير قرشي إلا إذا تنازل أولياؤها عن حقهم في الكفاءة (٤)

(١) المفضليات ٥٨/٢ شارف : كبير . سلة : هرقة ، أى مسروق النسب . الخاصن : الكريمة

العفيفة . سليلها : ولدها

(٢) المحبر ١٧٩ و٢٣٠/١ ومعجم البلدان ١٣٨/٨ وبلوغ الأرب ٢٨٩/٢ إذا نسكوا لم يسلثوا سمناء ولم يطبخوا إقطاً ولم يدخروا لبناء ، ولم يأكلوا ما طبخوا في الحرم ، ولا يمسون دهناء ولا يطوفون في ثياب أتوا بها من الحل ، وتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها مع اعترافيهم أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ، وإنما يطوفون في ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا طافوا عراة ، فإن طاف رجل منهم أو امرأته في الثوب الذى جاء به من الحل ألقاه بعد الطواف فلا يمسه ولا ينتفع به ، وكانت العرب تسمى هذا الثوب اللقي . ولكن الإسلام أبطل ذلك (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟)

(٣) الأسرة والمجتمع ٣١

(٤) عيون المسائل ٦٣ والأسرة والمجتمع ٣٦

ولما كتب زياد إلى سعيد بن العاص يخطب إليه وبعث له بمال كثير قسم سعيد المال بين جلسائه ، ثم كتب إلى زياد : أما بعد فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى^(١).

حريتها في اختيار زوجها

أسلفت أن الرجل كان في خطبته يتجرى مميزات خاصة فيمن يصطفها شريكة حياته ، وأن الفتاة وقومها كانوا يتوخون فيمن يخطب إليهم مميزات خاصة أيضا ، لأن الزواج رباط وثيق مأمول الدوام ، ولأنه عشرة بين الزوج وزوجته .

وقد استمتمت المرأة العربية بحريتها في اختيار زوجها ، فلم تكن تقسر على زوج لا ترتضيه ، أو تزوج بغير مشورة ، ولم يكن للأباء ما كان لهم عند اليونان من سلطة مطلقة على البنات لا تحد ، إذ كان للولى أن يزوجه بغير استشارتها ، وكل عقد تبرمه بغير رضاه باطل^(٢) ولم يكن للعرب أن يبيعوا بناتهم أريزوجهن بغير علمهن كما كان يفعل اليهود . وإنما كان مركز المرأة العربية جديراً بأن نشيد به ، وبأن يشيد به المستشرقون ، يقول نيكلسون : كان مركز المرأة ونفوذها في الحياة الاجتماعية قبل الإسلام عالياً وعظيماً ، فقد كانت النساء حرات في اختيار أزواجهن ، وكن يستطعن العودة إلى ذويهن إذا أسيتت معاملتهن ، وفي بعض الحالات كن يهبن أنفسهن للزوج ، وكان لهن حق الطلاق ، ولم يكن يعددن عبيداً أو أسارى ، بل أندادا ورفيقات^(٣) .

ولهذه الحرية مظاهر :

١ — كانت المرأة تختار زوجها ، وتزوج نفسها أحيانا ، فعلت ذلك ماوية بنت عفزر من بنات ملوك اليمن إذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة : النابغة الذبياني وحاتم الطائي ورجل من النيسيت ، وقيل هم زيد الخيل وأوس بن حارثة وحاتم ، وآثرت حاتما^(٤) ، وفعلت هذا أيضا امرأة من هذيل من بني سهم إذ خطبها تأبط شرا ، فقال لها قائل : لا تنكحيه فإنه وشيك أن يقتل ، فرفضته ، فقال :

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه لأول نصل أن يلاقى بجعاً

(٢) المرأة في التاريخ والفرائع ٧٤

(١) عيون الأخبار ١٧/٤

(٣) Aliterary History of the Arabs, Nickolson. P. 87

(٤) الشعر والشعراء ٧٢ والأغاني ١١/١٠٤ و١٦٠/١٠٠

فلم تر من رأى فتىلا وحاذرت تأيّمها من لابس الليل أروعا^(١)
وكذلك فعلت الرباب من بنى ذهل ثم من بنى سدوس ، فقد خطبها خدّاش بن حابس
التميمي بعد ما هام بها زمنا ، وكان أبواها يتمنعان لجمالها وميسمها ، ويردان خدّاشا ، فأضرب
عنها زمانا ، ثم أقبل ذات ليلة راكبا ، فأنتهى إلى محلّتهم وهو يتغنى بقوله :

ألا ليت شعري يا ربّاب متى أرى لنا منك نُجْحاً أو شفاء فأشتفى
فقد طالما عنيتني ورددتني وأنت صفني دون من كنت أصطفي
لحي الله من تسمو إلى المال نفسه إذا كان ذا فضل به ليس يكتفي
فينسكح ذا مال دميما ملوما ويترك حرا مثله ليس يصطفي

فمرفت الرباب منطقه ، وجعلت تسمع إليه ، وأرسلت إلى الركب الذين منهم خدّاش
أن انزلوا بنا الليلة ، فنزلوا ، وبعثت إلى خدّاش أن قد عرفت حاجتك ، فاغدُ على أبي خاطبها ،
ورجعت إلى أمها فقالت : هل أتزوج إلا من أهوى ؟ قالت : لا ، فما ذاك ؟ قالت : زوجيني
خدّاشا ، قالت أمها : وما يدعوك إلى ذلك مع قلة ماله ؟ قالت إذا جمع المال السيء الفعّال
فقبّحا للمال . فأخبرت الأم أبواها بذلك فرضى^(٢) . وقد سبق ما فعلته المرأة الكنانية حين
اُختبرت ثلاثة من قومها ، وانتقت ربيعة بن مكرم^(٣) .

٢ — وكانت كثيرا ما تستشار في زواجها ، فلا يستبد به وليها كما كان يستبد الآب
العبري واليوناني ، فالخنساء استشارها أبوها حينما خطبها دريد بن الصمة ، لأنها كما قال لدريد :
« لها في نفسها ما ليس لغيرها » ، فرفضت ، مؤثرة بنى عمها ، ولما أراد أخوها معاوية أن
يكرهها — وكان صديق دريد ، وصخر غائب في غزوة — قالت :

تباكرني حميدة كل يوم بما يولى معاوية بن عمرو
فإلا أعط من نفسي نصيبا فقد أودى الزمان إذا بصخر
أتكرهني — هبلت — على دريد وقد أحرمت سيد آل بدر
معاذ الله يرصعني خبركي قصير الشبر من جشم بن بكر^(٤)

(١) الأغاني ٢١٧/١٨ وشرح الحماسة للزبيرى ٢٦/٢

(٢) جمع الأمثال ٤٤٠/١ (٣) الأغاني ١٣٢/١٥

(٤) الأمالي ١٦١/٢ والأغاني ١١/٩ و١٣٨/١٣ أحرمت : منعتني من زواجه . خبركي : قصير
الرجلين أو ضعيفهما . الشبر : الخطو أو الخير والطاء .

ولما خطب الحارث بن سليل الأسدي إلى علقمة بن خصفة الطائي ، قال علقمة لأُم الفتاة أريدى ابنتك على نفسها ، فاستشارتها ^(١) ، وكذلك فعل أوس بن حارثة الطائي لما خطب إليه الحارث بن عوف المري ، فإنه استشار ابنته ^(٢) . واستشار عتبة بن ربيعة بنته هند لما خطبها أبو سفيان وسهيل بن عمرو ^(٣) ، وآثرت هند أبا سفيان فحنق عليها سهيل ، وقال :
 نَبَّأتَ هَندًا تَبَرَّ اللهُ سَعِيهَا تَأَبَّتْ وَقَالَتْ وَصَفَ أَهْوَجَ مَائِقِ
 فَلَمْ تَنْكَحِي يَا هَندُ مِثْلِي وَإِنِّي لَمَنْ لَمْ يَمَقْنِي فَاعْلَمِي غَيْرُ وَاِمَقِ ^(٤)

على أن أم الفتاة كانت ذات رأى فى تزويج ابنتها ، يستشيرها الأب ، وتشير عليه وتهتدى البنت برأيها . هكذا فعلت زوجة أوس بن حارثة ، فإنه رفض أن يزوج بنته للحارث بن عوف ، ودخل على امرأته مغضباً ، فسألته ، فأخبرها ، فقالت له : إذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ وأشارت عليه أن يتدارك ما كان منه ، ففعل ، وزوجه ابنته ^(٥) ، وكذلك فعلت زوجة علقمة بن خصفة الطائي لما خطب الحارث بن سليل بنتها ^(٦) . ويظهر أن المرأة كانت أحياناً تغلب زوجها على أمره ، فقد خطب إلى رجل فأبى ، ورضيت زوجته ، وما زالت به حتى زوج ابنته كارها ، وقال : أنكحنا القرا فسنرى ^(٧) .

الإسلام وتزويج المرأة نفسها

١ — جاء الإسلام ، وكان لا بد من التشريع الذى يصون سمعة الأسرة ، فاختلف الفقهاء فى تزويج البالغة العاقلة نفسها ، فذهب الشافعى ومالك إلى منعها من مباشرة عقد زواجها وزواج غيرها ، وعليه كثير من الصحابة ، مستدلين بأدلة ، منها قوله عليه الصلاة والسلام « لا نكاح إلا بولي » وقوله « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل » وقوله : « لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها » وذهب أبو حنيفة إلى إثبات هذا الحق لها ، واستدل هو وغيره بأدلة منها قول النبي صلى الله عليه وسلم « الثيب أحق بنفسها من وليها » وقوله : « البكر تُستأذن فى نفسها وإذنها صممتها » .

(١) عيون الأخبار ٤/٤٧ ونهاية الأرب ٣/٢١ وجمع الأمثال ١/١٠٧ والمحاسن والأضداد

١٨٣ وجهرة الأمثال ١/١٨٣

(٢) بلاغات النساء ١٤٩ والأغانى ٩/١٤٢ (٣) الأمثال ٢/١٠٤

(٤) العقد الفريد ٣/٢١٢ يمح : يجب (٥) الأغاني ٩/١٤٢ ساسى

(٦) الفاخر ٨٩ وجمع الأمثال ١/١١٠ وجهرة الأمثال ١/١٨٣

(٧) مجمع الأمثال ٢/٢٦٣

والذى يؤخذ من الأحاديث التى استدل بها الحنفية أن الولي يستأذن المرأة فى زواجها ولا يستبد به . والذى يؤخذ من الأحاديث التى استدل بها مخالفوهم أن المرأة ليس لها أن تستبد بأمر زواجها ، ولكن لها أن تبأشر العقد بنفسها (١) .
وبهذا صان الإسلام مكانة الأسرة من أن تعبت بها الأهواء ، أو تعصف بها النزوات ، وحى المرأة من سوء القالة ومن الشبهات .

٢ — وعضد الإسلام حق المرأة فى رضاها بزواجها ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » قالوا : يارسول الله وكيف إذن؟ قال : أن تسكت (٢) .

وللكبيرة التى أكرهت على الزواج أن تفسخه ، فقد كانت خنساء بنت خُذام الأنصارى تحت أنيس بن قتادة ، فقتل عنها يوم أحد ، فأنكحها أبوها رجلاً وهى كارهة ، فأتت النبى ، فقالت يارسول الله : إن أبى تفوت على فزوجنى ولم يشعرنى . قال : « لا نكاح له ، انكحى من شئت » فرد نكاحه وتزوجت غيره (٣) ، واشترت السيدة عائشة بريرة وأعتقها ، وكان زوجها مغيث مولى ، فغيرها رسول الله ، فاختارت فراقه ، وكان يحبها ويمشى فى طرق المدينة يبكى ، واستشفع إليها برسول الله ، فقال لها فيه ، فقالت : أتأمر ؟ قال : بل أشفع ، قالت : فلا أريده (٤) .

أما الصغيرة فاختلف فى أمرها ، ألها الخيار إن كان أبوها هو المزوج أم لا؟ وفى رأى مالك وابن حزم أنه ليس لأحد سوى الأب أن يزوج الصغيرة لو فور شفقته ، وضم الشافعى الجد إلى الأب .

وفى الحديث أن قدامة بن مظعون زوج ابنة أخيه عثمان من ابن عمر ، فردها رسول الله وقال إنها يتيمة ، وإنها لا تنكح حتى تستأمر . قال ابن عمر : لقد انتزعت من نفسى بعد أن

(١) تيسير الوصول ٣/٣٤٥ — ٣٤٦ وعيون المسائل ٦٧ — ٦٩ وحجة الله البالغة ٢/٩٥

(٢) فتح البارى ٩/١٦٤ تيسير الوصول ٣/٣٤٦

(٣) فتح المبدي ٣/٢٣٣ والطبقات لابن سعد ٨/٣٣٤ والإصابة ٨/٦٥ والمبسوط ٥/٢

(٤) الإصابة وأسد الغابة ٥/٤٠٩ والطبقات الكبير ٧/١٦٢ والتجريد الصريح ٣/٢٥٥

ملكته^(١)، على أن بعض المجتهدين كابن شبرمة وأبي بكر الأصم لم يثبتا الولاية على الصغيرة لأحد، والحنفية يثبتونها للأب والجد وغيرهما من العصبات^(٢).
وكثيراً ما تخيرت المسلمات أزواجهن، فأم كلثوم بنت أبي بكر رفضت أن تزوج عمر بن الخطاب، فقالت لها عائشة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت نعم إنه خشن العيش شديد على النساء^(٣)، وكذلك رفضت بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عبد الملك ابن مروان، وآثرت عليه يحيى بن عبد الحكم^(٤)، وفضلت عائشة بنت طلحة ابن عمها على بشر بن مروان^(٥).

الخطبة والأملاك

لا يكاد يختلف نظامهم في الخطبة والأملاك عما يجري في العالم الإسلامي إلى اليوم، ذلك بأنهم كانوا يخطبون المرأة إلى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بني عمها^(٦)، فيقول الخاطب: خطب، ويقول أهل الزوجة: نسكح، ويقوم ذلك مقام الإيجاب والقبول^(٧). فإذا كان يوم العقد اجتمع القوم، ونحرت لهم الذبائح، وخطب خطباء من آل الزوجين، كما حدث في يوم عقد النبي على السيدة خديجة، فقد خطب عمه أبو طالب معدداً بعض مناقب قريش، ومنوهاً بمناقب ابن أخيه محمد بن عبد الله، وذكر أنه خطب خديجة على مهر قدره اثنتا عشرة أوقية ونشأ، ثم رد عليه عمها عمرو بن أسد أو ابن عمها ورقة بن نوفل معدداً مناقب قريش ومفاخر بيت عبد المطلب، ومشهدا الحاضرين على قبوله هذا الزواج. ثم أولم النبي صلى الله عليه وسلم، وأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويغنين^(٨).
وكانت العروس تزين يوم الإملاك بما تملك، ولقد يستعار لها. حدث عبد الواحد ابن أعين عن أبيه قال: دخلت على عائشة رضى الله عنها وعليها درع قطر ثمن خمسة دراهم

(٢) عيون المسائل ٧٢

(٤) العقد الفريد ٢٨١/٣

(٧) إنسان العيون ٤٥/١

(١) المبسوط ٢١٢/٤ — ٢١٥

(٣) العقد الفريد ٢٧٥/٣

(٥) الأغاني ٥٤/١٠

(٦) المحبر لابن حبيب ٣١٠

(٨) إنسان العيون ١٥٤/١

فقلت : ارفع بصرك إلى جاريتي انظر إليها ، فإنها تزهى أن تلبسه في البيت ، وقد كان لي
منهن درع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كانت امرأة تقين بالمدينة إلا
أرسلت إلى تستعيره (١) .

وفي يوم الإملاك يحتفل قومها وقومه وينحرون ، ويسمرون الليل غناء وعزفا ورقصاً ،
تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل بن أبي طالب وجاء في حديثه : « قلت ليلاً لغلّام
من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أنك أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسر كما
يسمر الشباب ؟ فقال : أفعل . فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة
سمعت عزفا بغرايل ومزامير . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا . هذا فلان ابن فلان ، تزوج فلانة
بنت فلان ، فجعلت أنظر ، وضرب الله على أذني فسمت ، فما أيقظني إلا مسّ الشمس (٢) .

ولما تزوج السيدة خديجة نحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس (٣) ، ولما زوج النبي
بنته فاطمة لعل بن أبي طالب قال : يا علي ، لا بد للعرس من وليمة ، فأولم (٤) .

وهم في احتفالهم بيوم الخطبة أو الزفاف يشبهون الشعوب كلها ، ولكنهم لم يفعلوا
ما كان يفعل الرومان إذ كان يقبل جماعة من الفتيان أصدقاء العروس فيأخذون عروسه
ويمضون في منظر يمثل أنهم انتزعوها من أهلها قسراً . وكان العروس الإسبرطي يذهب إلى
عروسه ليلاً فيأتي بها كأنه اختطفها (٥) . والذي يظهر لي أن تمثيل عادة الاختطاف لم يكن في
العرب ، لأنهم ذوو حمية وغيرة وأنفة ، فلا يرتضى أهل الزوجة ذلك المظهر .

-
- (١) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١٤٩/١١ وفتح الباري ١٧٨/٥ درع : قيص . تقين :
تزين وتزف . قطر : ضرب غليظ من البرود في بعضها قطن . ثمن : منصوب على نزع الخافض
(٢) تاريخ مكة للفاكهي ٧ من كتاب المنتقى في أخبار أم القرى
(٣) إنسان العيون ١٥٤/١ وبلوغ الأرب للعطار ٢٩
(٤) بلوغ الأرب في مآثر العرب للعطار ٣٣
(٥) دائرة المعارف للإستانبي ٣٣٦/٩

المهر

المهر والصداق

المهر في الأصل العوض الذي يدفع لأهل المرأة ، أما الصداق فالعوض الذي يدفعه الرجل للزوجة . وكان العبريون والسريريون يطلقون كلمة مهر على الثمن الذي يدفع نظير اقتناء الزوجة ، وكان يدفع لأبيها ، لأن الساميين القدماء كانوا كمثل القبائل البدائية ينظرون إلى الفتاة على أنها سلعة قيمة تزيد مال أبيها ^(١) ، ومن الأدلة على أن المهر كان للأولياء قوله تعالى على لسان شعيب لموسى « إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك » ^(٢) ، ويظهر أن العرب كانوا كذلك ، ففي اللغة النافجة البنت ، لأنها تعظم مال أبيها بمهرها ^(٣) ، لذلك كانوا يهنئون من ولدت له بنت بقولهم هنيئاً لك النافجة ، أى المنفجة لمالك ، لأنك تأخذ مهرها فتضمه إلى مالك فينتفج ^(٤) ، وأحياناً كانوا يعبرون عن الزواج بأنه شراء ، قال جهم في امرأة من بنى فقعس باع إبلاله ومهرها ، وتزوجها ثم وجدها عجوزاً فطلقها :

فبانث ولم أغبن غداة اشتريتها وبعثت تلاد المال بالثمن البخس ^(٥)

ولما خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب قال عامر : « انك أتيتني تشتري منى كبدي ... » ^(٦) . وهم أطلقوا كلمة الحلوان على ما يأخذه الرجل من مهر ابنته أو أخته أو امرأة ما ^(٧) ، ولم يكن هذا شائعاً ، بدليل أن امرأة فخرت بأن زوجها لم يأخذ من بناته حلواناً : « لا يأخذ الحلوان من بناتيا » ^(٨) .

ولكن هذه التفرقة بين المهر والصداق توارت في الإسلام ، فالمهر والصداق معاً

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٤١

(٢) سورة القصص ٢٧

(٣) مجمع الأمثال ٣٢٧/٢

(٤) العقد الفريد ١٩١/٣

(٥) النخص ٢٥/٤ والأمالى ٢٧٦/٢ ولسان العرب ٢١٠/١٨

(٦) لسان العرب ٢١٠/١٨ والأمالى ٢٧٦/٢

(٣) القاموس المحيط مادة نفج

(٥) العقد الفريد ٢١٠/٣ وفي الأصل قبت

ما يستحق به الحرائر من النساء ^(١) ، وإن ظل بعضهم يطلق الصداق على الإبل التي تساق مهرًا ، ويسمونها الناجفة ، ويقول : ساق الرجل إلى المرأة صداقها ، قال الشاعر :

وليس تلادى من وراثته والدى ولا شاء مالى مستفاد النوافج

فإذا كان الصداق عينا وورقا لا يقال ساق إليها صداقها ^(٢) .

وجعل الإسلام المهر أو الصداق حقًا للمرأة لا لوليها ، ونهى الأولياء عن أخذه لأنفسهم لقوله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » ، وإن كان كثير من العرب ما زالوا إلى اليوم يستأثرون به وهو حرام ^(٣) ، لأن المهر ما يجب على الزوج لزوجته في مقابل ملك استمتع بهها ، وهو حق خالص لها ، تمنبضه هي نفسها أو وكيلها إذا كانت رشيدة ، أو يقبضه ولي مالها إذا كانت صغيرة ، وإذا استهلكه كان ضامنا لمثلها أو قيمته ^(٤) .

وأبطل الإسلام أيضاً زواج الشغار ، وهو نوع من زواج المبادلة ، وسمى شغارا لخلوه من المهر ، والطاراز الشائع من هذا الزواج أن يزوج الرجل ابنته أو أخته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته . وكان هذا الضرب من الزواج شائعاً عند الساميين قديماً ، ومارسه العرب إلى أن جاء الإسلام ، فنهى عنه النبي ، وقال ببطلانه كثير من الفقهاء ، وذهب الحنفية إلى فساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل لكل من الزوجتين ^(٥) .

نوعه ومقدراه

١ — كان يقدم إبلاً أو نقداً ، لأن الثروة عند الشعوب الراحية قطعان من الماشية ، والماشية كالنقد ، « وقد احتفظت اللغات الأوروبية بآثار من هذه الحال البدائية ، الدالة على أن الماشية كانت تستعمل استعمال النقود ، لأنها الثروة الوحيدة ، فهو ميروس يتكلم عن بنات بأنهن أحضرن ثيراناً لوالدهن ، يكنين عن رغبة الناس فيهن ، وأنهم سيدفعون فيهن مالا عظيماً . والقانون الإيرلندي يقدر الغرامات والأثمان عادة برموس الماشية ، وظلت الحال على ذلك إلى العصور الوسطى ^(٦) » . وكذلك كان الحال عند العرب . وكان مقداره يتفاوت

(٢) الحيوان للجاحظ ١/٣٣٤

(١) المخصص ٤/٢٥

(٤) عيون المسائل ٨٥ و ١٠٦ و ١٠١

(٣) روح المعاني ٤/١٩٨

(٥) عيون المسائل ٨٨ والنظم الاجتماعية والسياسية ٤٠

(٦) اللغة ٦٢٩ ج فاندريس ترجمة الدواخلى والقصاص

باختلاف المقدرة والمكانة والثروة ، فقد مهر عبد المطلب ابن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب^(١) . ومهر الحارث بن سليل الأسدي الزباء بنت علقمة بن خصفة الطائي مائة وخمسين من الإبل وألف درهم^(٢) . وزوج ذو الجدين بن قيس بن خالد بنته للقيط بن زرارة على مائة من الإبل ليس فيها مصبورة ولا ناب ولا كزوم^(٣) ، وزوج مطرود البجلي ابنته خودة على مائة ناقة ومعها رعاتها^(٤) ، وكان أهل كندة مشهورين بالتغالي في مهورهم ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم اذهب ملك غسان وضع مهور كندة^(٥) » ، وذكر المحبي أنهم كانوا لا يزوجون بأقل من مائة من الإبل ، وربما مهرت الواحدة ألفا^(٦) ، وقد أصدق عمرو بن حجر أم إلياس بنت عوف بن محلم الشيباني عماراً في كندة ومنحها حاجات قومها لا ترد لأحد منهم حاجة^(٧) .

وكان المهر الذي قدمه النبي للسيدة خديجة عشرين بكرة^(٨) ، وقيل إنه كان خمسمائة درهم^(٩) ، وقيل أنه أصدقها اثنتي عشرة أوقية ذهباً ونشأ^(١٠) ورأى السهيلي أنه لا تناقض بين رواية البكرات والدرهم ، فمن الجائز أن تكون البكرات عوضاً عن الصداق المذكور ، أو أن أبا طالب أصدقها من ماله نقداً ، وزاد عليه النبي تلك البكرات^(١١) .

وقد افتخروا بعظمة المهر ، لأنها دليل في نظرهم على علو الشأن ، قال الأبيرد بن هرثمة العذري ، وقد مهر الفغفاء بنت سنان العذري خمسين بعيراً :

إني لسمح إذ أفرّج يديها بأكشبة البقار يا أم هاشم

(١) إنسان العيون ٥٠/١

(٢) الميداني ١١٠/١ والمحاسن والأضداد ١٨٤ وفي جهرة الأمثال ١٨٣/١ أنه خمس ومائة من الإبل وخادم وألف درهم

(٣) الأغاني ١٣١/١٩ مصبورة : مشرفة على الموت . وفي الأصل مصابرة . ناب : مسنة . كزوم : ذهب أسنانها هرما

(٤) بلوغ الأرب في أحوال العرب ٣٣/٢ (٥) البيان والتبيين ٢٨/٢

(٦) ما يعول عليه في المضاف والمضاف إليه (٧) العقد الفريد ١٩١/٣

(٨) سيرة ابن هشام ٢٠٦/١ (٩) إنسان العيون ١٥٤/٤

(١٠) بلوغ الأرب للعطار ٢٨ وطبقات ابن سعد ١١٥/٨ الأوقية : أربعون درهماً والنش : نصف أوقية فتكون جملة الصداق خمسمائة درهم ذهباً (بلوغ الأرب للعطار ٢٩ وفتح المبدى ١٧٩/٢ والطبقات

١١٥/٨ وإنسان العيون ١٥٤/١

(١١) إنسان العيون ١٥٤/١

فَأَفْنَى صِدَاقُ الْمُحْصَنَاتِ أَفْأَلُهَا فلم يبقَ إِلَّا جِلَّةُ كَالْبِرَاعِمْ^(١)

وقال خالد بن جعفر يمين على هوازن بقتله زهير بن جذيمة :

وَجَعَلْتُ مَهْرَ بَنَاتِهِمْ وَدَمَاءَهُمْ عَقْلُ الْمُلُوكِ هِجَائِنَا أَبْكَارِ^(٢)

على أن بعضهم كان يقنع بحسب الخاطب ، ولا يتطلب منه مهرا ، من ذلك أن لقيط ابن زرارة خطب إلى قيس بن خالد الشيباني ، فزوجه ، وساق عنه المهر ، وهداها إليه من ليلته^(٣) .

ومن المهر الضئيل رقاع الجلد التي أجبر الملهل على أخذها من قبيلة جنب — وكان قد اعتزل قومه بعد حروبهم مع بكر ، إبقاء عليهم أن تفنيهم الحرب بسبب الثأر لأخيه كليب — وسار إلى اليمن ونزل في جنب وهم حتى من مذبح ، فخطبوا إليه ابنته فمنعهم ، فأجبروه وصدقوها جلودا من آدم — فتحسر وتألم بقوله :

أَعَزَّزَ عَلَى تَغْلِبِ بِمَا لَقِيتُ أخت بني الأكرمين من جشم
أَنكِحَهَا فَقَدْ هَا الْأَرَاقِمُ فِي جَنْبٍ وَكَانَ الْحِباءُ مِنْ أَدَمِ^(٤)

وذكر الجاحظ أن الأعرابي الفقير ربما صاد ضبا فاحتمله إلى كفيئته فكان مهرها ، وقد قال في ذلك أحدهم :

أَمهرتها بعد المطال ضبين من الضباب سحابين سبطين
نعم لعمر الله مهر العرسين^(٥)

٢ — أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يخفف من غلواء العرب في مهور بناتهم ، وأن يقيم الزوجية على دعائم أخرى من الدين والخلق غير دعامة المال ، فنهى عن المغالاة في المهور

(١) معجم الشعراء ٢٥ البقار : واد . البراعم : شمارغ الجبال

(٢) الأغاني ١٤/١٠

(٣) جهرة الأمثال ١٨٥ وأمثال العرب للضي ٢٠

(٤) أشعار المراقبة ٦٩ وعيون الأخبار ٩١/٣ وشرح الحماسة للمرزوقي ١١٨/١ والمعارف ٣٥

وتهذيب الكامل ١٤/٢ وخزانة الأدب ٢٨/٢ والشعر والشعراء ١٠٠ والكامل لابن الأثير ٢٢١/١

(٥) الحيوان ٣٦/٦ السجبل : الضخم . السبط : الحسن القد والمنظر

بأحاديث كثيرة ، منها « لا تغالوا بالنساء فإنما هن سقيا الله ^(١) » ، وقوله لسهل بن سعد : « اذهب فاطلب ولو خاتما من حديد » فذهب وطلب ، ثم جاء فقال : ما وجدت شيئا ولا خاتما من حديد ، فقال : « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال معي سورة كذا وسورة كذا ، قال : « اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن ^(٢) » ، وفي حديث ابن عباس أن النبي زوج رجلا بدون مهر ، على أن يعلم زوجته أربع سور أو خمسا من كتاب الله ، وفي حديث أبي هريرة أن يعلمها عشرين آية ^(٣) ، وروى عن النبي أن خير النساء أيسرهن صداقا ^(٤) .

ونهى عمر عن المغالاة في المهر بقوله : لا تغالوا في صدقات النساء ، فإنه لو كان تقوى الله أو مكرمة في الدنيا كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أولاكم بذلك ، ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية ^(٥) .

على أن ذلك لم ينزع من العرب ما ألفوا ، وظلوا حراصا على عظم المهر ، وظلت النساء مزهوات بكثرتة ، يدل على ذلك أن عمر نهى عن المغالاة في المهور فردت عليه امرأة بقولها : ليس ذلك لك يا عمر ، إن الله يقول : وآتيتم إحداهن قنطارا من ذهب — وهي كذلك في قراءة ابن مسعود — فقال عمر : امرأة خاصمت عمر فخصمته ^(٦) ، وروى أن عمر نفسه أصدق أم كلثوم بنت علي أربعين ألفا ، وأن ابنه عبد الله أصدق ابنة أبي عبيد الثقفي عشرة آلاف درهم ^(٧) . وقد أصدق مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة خمسمائة ألف ، وأهدى إليها خمسمائة ألف ، فقال أنس بن أبي أنس :

بُضْعُ الْفَتَاةِ بِأَلْفِ أَلْفٍ كَامِلٍ وَتَبِيتِ سَادَاتِ الْجُنُودِ جِيَاعًا
لَوْ لَا بِي حَفْصُ أَقُولُ مِقَالَتِي وَأَبْشُهُ مَا قَدْ أَرَى لَالْتِمَاعًا ^(٨)

وأصدق عبد الرحمن بن عوف امرأة من الأنصار ثلاثين ألفا ^(٩) ، وأصدق يحيى بن

(١) البيان والتبيين ٢/٢٧ (٢) فتح الباري ٩/١٧٨ وتيسير الوصول ٢/٢٨٢

(٣) فتح الباري ٩/١٧٩ وتيسير الوصول ٢/٢٨٢

(٤) تيسير الوصول ٢/٢٨٤ وسنن أبي داود ١/٢١٠

(٥) الطبقات لابن سعد ٨/١١٥ وتيسير الوصول ٢/٢٨٣

(٦) فتح الباري ٩/١٧٥ والكشاف ١/٩٧ (٧) عيون الأخبار ٤/٧١

(٨) المردفات من قریش ٧٠ من نوادر المخطوطات (٩) الطبقات ٣/٨٧

أبي حفصة بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير عشرين ألف درهم^(١). وفي رأى الفقهاء أن أقل المهر ما يمكن أن يتمول به ، وهو ما يجب فيه قطع اليد في السرقة (ثلاثة دراهم وقيل خمسة وقيل عشرة) أو هو أربعون أو خمسون على أنه لا يقدر أقله^(٢) ، وخالف في ذلك المالكية والحنفية ، فعند الحنفية أقله عشرة دراهم ، وهى تساوى الآن خمسة وعشرين قرشا^(٣). ويظهر أن التعالى في المهور كان يحقق كثيرا من العاجزين عن دفع مثلها ، يقول أعرابي :
يقولون تزويج وأشهد أنه هو البيع إلا أن من شاء يكذب^(٤)

وصايا للزوجة عند زفافها :

إذا ما تأهبت البنت لتنتقل من رعاية أبويها إلى كفالة زوجها وزودتها أمها وأبوها بوصايا من نتاج الخبرة والتجربة .

١ — فمن وصايا الأمهات ما أوصت به زوجة عوف بن محلم الشيباني لما زفت بنتها أم إياس إلى عمرو بن حجر ، قالت لها : أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرة يكن لك ذخرا . أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحق السمع والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله ، والارعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصن له أمرا ، ولا تفشن له سرا ، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا^(٥) .

(١) الكامل للمبرد ٢٨١/١ وعيون الأخبار ١٦/٤

(٢) فتح البارى ١٧٥/٩ (٣) عيون المسائل ٩٠

(٤) عيون الأخبار ٧٢/٤

(٥) العقد الفريد ١٩١/٣ ومحاضرات الأدباء ١٢٣/٢ وشرح نهج البلاغة ٣٠٨/٤ وجمع الأمثال

١٩٢/٢ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٣ ومحاسن النساء لابن هشام ٧ مخطوط وأعلام النساء ٦٠/١

وفي هذه الوصية قوام السعادة الزوجية ، لأنها تريد ابنتها على طاعة زوجها ، وتريدها على العناية بنظافتها ونظافة بيتها ، وأن تراعى راحتها في منامه وطعامه ، وأن تقتصد في نفقاتها وتربى أولادها ، وتراقب خدمها ، وأن تصون أسرارها ، وتشاركه مشاركة وجدانية في أفراحه وأتراحه .

إنها إن فعلت ذلك كانت زوجة صالحة ، بل كانت مثلاً أعلى في الزجرات . وإذا كانت قد نهتها على النظافة - كما سينبه غيرها - فإنها بتجربتها تتفق مع ما يقرره الطب الحديث من أن التهاون في تنظيف الجسم والأعضاء التناسلية ينفر أحد الجنسيتين من الآخر ، فتنشأ عن هذه النفرة عوامل نفسية عدة ، كالتمزز والاشتمزاز وغيرهما^(١) ، وقد فصلت القول في أثر الروائح العطرية في الجاذبية في موضع آخر^(٢) .

وليس يعدم المجتمع أن يكون فيه الخير والشرير ، والمسلم والمشاغب ، وأن تكون من الأمهات الشرسة الحريصة على أن تكون ابنتها مثلها ، فقد أوصت امرأة ابنتها بقولها : اختبرى زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه ، انزعى زج رحمة ، فإن سكت فتمطعي اللحم على ترسه ، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلي الإكاف على ظهره وامتطيه^(٣) .

٢ * وللآباء في هذا المجال إرشاد وتوجيه ، ومن هؤلاء الزبير بن بدر ، كان إذا زوج ابنة له دنا من خدرها وقال : أسمعيني ؟ كوني له أمة يكن لك عبد^(٤) . ومنهم ذوالجدين ، قال لابنته لما زفت إلى لقيط بن زرارة : كوني له أمة يكن لك عبداً ، وليكن أكثر طيبك الماء ، واعلمى أن زوجك فارس مضر ، وأنه يوشك أن يقتل أو يموت ، فلا تخمشي عليه وجهها ولا تحلقى شعرا^(٥) . وكذلك أوصى عامر بن الظرب ابنته بأن تتنظف بالماء^(٦) . ولما زفت نائلة بنت الفرافصة الكلبي إلى عثمان رضى الله عنه قال لها : يا بنية إنك تقدمين على نساء

(١) الأزومات الزوجية وعلاجها للدكتور محمد زكى شافعى ١٠٣

(٢) الغزل في العصر الجاهلى ١٠٣ - ١١٢

(٣) عيون الأخبار ٧٧/٤ ومحاضرات الأدباء ١٢٤/٢ والإحياء للغزالي ٤١/٢

(٤) عيون الأخبار ٧٧/٤

(٥) الأغاني ١٢١/١٩ والعقد الفريد ٢١١/٣ وأمثال العرب للضبي ٢٠

(٦) عيون الأخبار ٧٦/٤

قريش ، وهن أقدر على الطيب منك ، فلا تغلبى على خصلتين : الكحل والماء ، فتكحلى وتطيبى بالماء حتى يكون ريحك ريح شئ أصابه مطر^(١) .

وما زال الآباء يوصون بناتهم فى الإسلام ، فمثلا أسماء بن خارجة الفزارى قال لابنته وقد زفها إلى الحجاج: يا بنية إن الأمهات يؤدبن البنات ، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة ، فعليك بأطيب الطيب الماء ، وأحسن الحسن الكحل ، وإياك وكثرة المعاتبة ، فإنها قطيعة للود ، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق ، وكونى لزوجك أمة يكن لك عبدا ، واعلمى أنى القائل لأمك :

خذى العفو منى تستدمنى مودى ولا تنطقى فى سورقى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرة الدف مرة فإنك لا تدريين كيف المغيب
فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب^(٢)
وهذه الوصايا من الآباء تدور حول النظافة ، والطاعة وحسن التبعل عامة .

مكانة الزوجة عند زوجها

يحبها

حضيت المرأة العربية عند زوجها ، وأولاهها من تقديره ورعايته وحب ما يدل على علو مكانتها فى نفسه ، وأنه نظر إليها على أنها شريك فى الحياة جدير بالرعاية والحب والإعزاز ، وأحيانا كان الزواج يسبق بحب ، وكثيراً ما نبتت من الزواج شجرة الحب^(٣) . فهذا دريد بن الصمة يحب الحنساء ويتغزل فيها ، ويخطبها إلى أبيها ، ويحجى فى غزله قوله :

أخناسُ قد هام القواد بكم واعتاده داءُ من الحب^(٤)

وكثير من العشاق كانوا يحبون ، ويريدون أن يتزوجوا بمن يحبون ، كالمرقش

(١) نثر الدر : صورة شمسية بدار الكتب ، وعيون الأخبار ٧٦/٤ والأغانى ٧٦/١٥

(٢) الأغانى ١٢٨/١٨ وفوات الوفيات لابن شاکر ١٢/١ وفى عيون الأخبار ٧٧/٤ أن القائل

أبو الأسود

(٣) الغزل فى العصر الجاهلى ١٩ والأغانى ١٢٨/٢ — ١٣٢ الدار

(٤) الأغانى ١١/٩ والأمالى ١٦١/٢

الأكبر^(١)، وعروة بن حزام^(٢)، وعمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء^(٣)،
وعدي بن زيد العبادي^(٤)، وأبي مالك بن عبد الله بن مسعود^(٥)، وعتبة بن الحباب بن
المنذر بن الجهم^(٦)، والمخبل القيسي^(٧).

وقد تغزل بعض الشعراء في زوجاتهم، لأنهم أحبوهم حبا حارا كما يحب الرجل
فتاة لا ينالها، فمثلا تغزل زهير بن أبي سلمى في زوجته أم أوفى^(٨). وبدأ معلقته
بقوله:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتشلم^(٩)
وامرؤ القيس تغزل في زوجته أم جندب بقوله:

خليلي مرّا بي على أم جندب لنقضي حاجات الفؤاد المعذب
فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب
ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب
عقيلة أتراب لها لا دميمة ولا ذات خلقٍ إن تأملت جانب^(١٠)

وتغزل حسان بن ثابت في زوجته الشعشاء^(١١)، وحدث هذا أيضا في العصر الأموي
من الحارث بن خالد المخرومي إذ شبيب بزوجته أم عمران^(١٢).

وإذا فلم يكن العرب شعبا بدائيا، يجهل عاطفة الحب، ويقيم الزواج على أنه اتصال
حيواني الغرض منه إشباع اللذة وإنسال الولد فحسب، ذلك بأن البدائيين لا يعرفون عاطفة
الحب، وقلبا تغنوا بشعر يصورها، لذلك لما ترجم المبشرون المسيحيون الكتاب المقدس
إلى لغة قبيلة ألجونكون Algonquins لم يجدوا في لغتهم كلمة تعبر عن الحب، وفي قبيلة

(١) الأغاني ١٧٩/٥ الدار والشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الأسواق ٨٨ وديوان طرفة ١١٨

(٢) فوات الوفيات ٣٥/٢ والأغاني ١٥٣/٢٠ والنوادر ١٦١ وتزيين الأسواق ٧٧

(٣) الدر المنثور ٣٤٨ (٤) الأغاني ١٢٨/٢ — ١٣٢ الدار

(٥) تزيين الأسواق ٩١ (٦) تزيين الأسواق ٩١

(٧) الأغاني ١٦ / ٢١ (٨) الأغاني ١٥٠/٩

(٩) شرح القصائد العشر ١٠٣

(١٠) دايون امرئ القيس ٣١ جانب: ضخم قصير

(١١) الإصابة ١٢٠/٨

(١٢) الأغاني ٣٣٠/٣ الدار

الهُوَ تَنَتَوَتْ نَجْدَ الزَّوْجِ عَمَلًا آليًا ، وَلَا يَأْبَهُ أَحَدُ الزَّوْجِينَ بِالْآخِرِ ، وَكَذَلِكَ فِي سَاحِلِ الذَّهَبِ
وَعِنْدَ الْأَسْتَرَالِيِّينَ الْبَدَائِيَّةِينَ^(١).

وَالْمَتَأَخَّرُونَ بِعَامَّةٍ أَقَلُّ مِنَ الْمَتَمَدِّينَ مِيلًا إِلَى الذَّمِّ ، حَتَّى لَمَّا يَبْقَى الرِّجَالُ أَغْزَابًا
مُدَّةَ طَوِيلَةٍ مِنْ أَعْمَارِهِمْ ، ثُمَّ تَطْرَأُ عَلَيْهِمُ الرِّغْبَةُ فِي الْإِتِّصَالِ الْجَنَسِيِّ . وَهُمْ فَقَرَاءٌ فِي عَاطِفَةِ
الْحُبِّ الْجَنَسِيِّ ، لِهَذَا لَا يَعْمُرُ الْغَرَامُ بِالْمَرْأَةِ قُلُوبَهُمْ أَوْ خِيَالَهُمْ^(٢) . بَلْ كَانَ الْعَرَبُ شَعْبًا
مَتَحَضِّرًا يُؤَسِّسُ الْعِشْرَةَ بَعْدَ الزَّوْجِ عَلَى دَعَائِمٍ مِنَ الْحُبِّ وَالتَّعَاطُفِ وَالْإِعْتِزَالِ .

وَكَانَتْ الزَّوْجَةُ الْعَرَبِيَّةُ أَرْفَعُ مَكَانَةً مِنَ الْيُونَانِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ ، لِأَنَّ هَذِهِ لَمْ تَسْكُنْ تَنَالًا
مِثْلَ مَا نَالَتْ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ حُبِّ زَوْجِهَا وَتَقْدِيرِهِ . « وَلَمْ يَعْرِفِ الْأَوْرَبِيُّونَ لِلْمَرْأَةِ هَذِهِ الْمَكَانَةَ
الرَّفِيعَةَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ فَتَحَ الْعَرَبُ الْأَنْدَلُسَ ، وَنَقَلَ عَنْهُمْ الْأَسْبَانُ وَالْأَوْرَبِيُّونَ حُبَّ الْمَرْأَةِ
وَتَقْدِيرَهَا فِيمَا نَقَلُوا »^(٣) .

يُنَادِيهَا بِلِقَبِ التَّكْرِيمِ

وَمِنْ دَلَائِلِ حُبِّهِ وَتَقْدِيرِهِ أَنَّهُ كَانَ يَلْقَبُهَا بِالْقَابِ فِيهَا تَكْرِيمٌ وَإِشْعَارٌ بِالْعِزَازَةِ . فَثَلَا
قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ يَقُولُ لَزَوْجَتِهِ مَنْقُوسَةً بَنَتْ زَيْدَ الْفَوَارِسِ الضَّبِّيَّ وَقَدْ آتَتْهُ بِطَعَامٍ - أَوْ حَاتِمٍ
يَقُولُ لَزَوْجَتِهِ :

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةَ مَالِكٍ وَيَا ابْنَةَ ذِي الْبُرْدَيْنِ وَالْفَرَسِ الْوَرْدِ
إِذَا مَا صَنَعْتَ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلًا فَإِنِّي لَسْتُ آكِلُهُ وَحْدِي^(٤)

وَعُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ يَلْقَبُ زَوْجَتَهُ بِأَبْيَهِ الْعَظِيمِ :

أَقْلَى عَلَى اللَّوْمِ يَا بِنْتَ مَنْذَرٍ وَنَامِي فَإِن لَمْ تَشْتَهِي النَّوْمَ فَاسْهَرِي^(٥)

(١) قصة الحضارة ٧١ ول ديورانت

(٢) The psychology of Marriage P. 240 Waltee M. Gallichan

(٣) تراث الإسلام ١٥٩/١

(٤) الأغاني ١٤٤/١٢ وتهذيب الكامل ١٠٢/٢ وفي شعراء النصرانية ١٣٣/١ وشرح
الحماسة للتبريزي ١٠٠/٤ وحماسة الخالدين ٢٨٩ مخطوط فيه أن القائل حاتم الطائي . ذو البردين : عامر
ابن أحيمر بن بهدلة أخذ من المنذر بن ماء السماء بردي ابنة عمرو بن هند في جمع من وفود العرب مكافأة
لأنه من أعزهم قبيلة وأكثرهم عدداً (النقائض ٧١٤)

(٥) شعراء النصرانية ٨٨٣

ولقد يلقبها زوجها باسم ابنها ، إعزازا لها ومسرة ، كقول أوس بن حجر التيمي
لزوجته :

ألم تعلمي أمَّ الجُلاس بأننا كرام لدى وقع السيوف الصوارم^(١)
وقول عروة في امرأته سلمى :

ذكرت منازل من أم وهب محل الحى أسفل ذى النقيير
وأحدث معهد من أم وهب مُعرَّسنا فويق بنى النضير^(٢)
وقوله أيضا لزوجته ملقبا بأم مالك تارة وبأم حسان تارة .

سلى الطارق المعتزَّ يا أم مالك إذا ما أتاني بين قدرى ومجزري
أيسفر وجهي إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكرك؟
وقوله أيضا :

ذريني ونفس أم حسان إنني بها قبل ألا أملك البيع مشتر
أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمس هامة فوق صير^(٣)
وربما ناداها الزوج باسمها مجرداً : إشعاراً بالآلفة وقرب النفس إلى النفس ،
وهذا هو الغالب ، وربما ناداها باسمها مصغراً تدليلاً وإيناساً ، وربما كنى عنها بميزة
من مميزاتهما ، وخاصة من خواص عملها . قال شاعر :

ألم تعلني ياربة الخدر أننى أبقى إذا رام العدو تهضمي
وقال أزهري بن هلال التيمي :

أعانك ما وليت حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد متقدماً^(٤)
وقال تابط شرا :

إلا تكلم عرسى منيعة ضمنت من الله إثماً مستسراً وعالنا^(٥)
وذكرها المثقب العبدى أو علبة بن يزيد بأنها عرسه :

تهزأت عرسى واستنكرت شبي ففيتها جنف وازورار^(٦)

(١) حماسة البحترى ٢٤٢ (٢) شعراء النصرانية ٨٩٠ ذو النقيير : ماء أو موضع لبى القين
ولكلب . (٣) شعراء النصرانية ٩١١ وديوان عروة ١٣ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ وجموع أشعار
العرب ٢٩/١ هامة : طائر يخرج من القبر في زعمهم يطلب الثأر . صير : قبر (٤) حماسة البحترى ٥١
(٥) الأغاني ٢١٣/١٨ (٦) الحماسة البصرية ١٠ مخطوط

وصغر تأبط شراً اسمها في قوله :

تسول سليمي لجاراتها أرى ثابثاً قد غدا مرّ ملا

يشهدا على مفاخره

إذا كان العربي كلفاً بأن يشيد بمفاخره ، ويذيع محامده ، فإنه كان كلفاً أيضاً بتوجيه الخطاب إلى المرأة - زوجته أو حبيبته - وبإشهادها على هذه المفاخر . من ذلك قول عروة بن الورد في إشهاد زوجته على محامده :

وقد علمت سليمي أن رأيي ورأى البخل مختلف شئت
وأني لا يريني البخل رأي سواء إن عطشت وإن رويت
وأني حين تشتجر العوالي حوالى اللب ذورأي زميت^(٢)

وقول حاتم أوقيس بن عاصم لزوجته :

إذا ما صنعت الزاد فالتسي له أكيلا فإني لست آكله وحدي
أخا طارقا أو جاربيت فإني أخاف ملامات الأحاديث من بعدى^(٣)
وقول أوس بن حجر :

ألم تعلني أمّ الجلاس. بأننا كرام لدى وقع السيوف الصوارم
وأنا لنعطى الحق منا وأننا لناخذه من كل أبلج ظالم^(٤)
وقول عروة :

سلي الطارق المعتز يا أم مالك إذا ما أتاني بين قدرى ومجزرى
أيسفر وجهي إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر^(٥)
وإنه ليمتادى في إشهادها على محامده تمامدا ، فيطلب منها أن تسائل المحاربين عن شجاعته لتزهي به ، ويزهي بإعجابها . يقول عامر بن الطفيل :

فلو علمت سليمي علم مثلى غداة الروع واصلت الكراما^(٦)

(١) الحماسة البصرية ١٢ (٢) ديوان عروة وشعراء النصرانية ٩٠٦ زميت : وقور .

(٣) ديوان حاتم ٩ وشرح الحماسة للتبريزي ١٠٠/٣ وفي الأغاني ١٤٤/١٢ وتهذيب الكامل

١٠٢/٢ أن القائل قيس بن عاصم (٤) حماسة البجترى ٢٥٢ (٥) شعراء النصرانية ٩١١

(٦) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢

ويقول :

هَلَّا سَأَلْتَ بِنَا وَأَنْتَ حَفِيَّةُ بِالقَاعِ يَوْمَ تَوَرَّعْتَ نَهْدُ
هَذَا مَقَامِي قَدْ سَأَلْتَ وَمَوْقِفِي وَعَنِ الْمَسِيرِ فَسَائِلِي بَعْدُ
أَسَأَلْتُ قَوْمِي عَنْ زِيَادٍ إِذْ جَنَى فِيهِ السَّنَانُ وَإِذْ جَنَى عَبْدُ^(١)
ويقول عنتر بن شداد :

سَلَى عَنَا الْفَزَارِيْنَ لَمَّا شَفِينَا مِنْ فَوَارِسِهَا الْكَبُودَا^(٢)
ويقول :

يَا عِبْلُ كَمْ مِنْ غَمْرَةٍ بَاشَرْتَهَا بِمُتَّقِفِ صُلْبِ الْقَوَائِمِ أَسْمَرِ^(٣)
وَيَتَهَدَّدُ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ زَوْجَتَهُ بِالطَّلَاقِ إِنْ هِيَ تَغَاضَتْ عَنِ الْحِفَاوَةِ بِبِلَاقِهِ ، يَقُولُ :
طَلَّقْتَ إِنْ لَمْ تَسْأَلِي أَيْ فَارِسَ حَلِيلِكَ إِذْ لَاقَى صُدَاءَ وَخْشَعًا
أَكْرَ عَلَيْهِمْ دَعْلَجًا وَلِبَاقَةً إِذَا مَا اشْتَكَى وَقَعَ الرَّمَاحُ تَحْمَحًا^(٤)

يَعْتَذِرُ لَهَا مِنْ فِرَارِهِ

أحياناً كان المحارب يضطر إلى أن يفر ، وهو يعلم أن الفرار مخزاة ومعررة ، فيجعل يبرر فِرَارَهُ ، وينتحل لنفسه المعاذير ، ويختص زوجته بأعذاره ، لأنها الشخص الأول الذي يهمله أن يشهد له بالشجاعة ، ويخجله أن يصمه بالجن .

فَرَّ أَوْسُ بْنُ حَجْرٍ عَنْ بَنِي عَبَسَ ، وَكَانَ فِيهِمْ زَهِيرُ بْنُ جَذِيمَةَ الْعَبْسِيُّ وَأَوْلَادُهُ شَأْسُ وَمَالِكُ وَقَيْسُ ، فَاعْتَذَرَ لَزَوْجَتِهِ بِأَنْ أَعْدَاءَهُ أَشْدَاءُ ذُوو دِهَاءٍ ، فَفَرَّ حَتَّى لَا يَقْتُلَ ، وَلَمْ يَفِرْ عَنْ جَبْنٍ ، لِأَنَّ شَجَاعَتَهُ مَعْلُومَةٌ مِنْ قَبْلِ :

أَجَاعِلَةُ أُمِّ الْحُصَيْنِ خَزَايَةَ عَلِيٌّ فَرَارِي أَنْ لَقِيتُ بَنِي عَبَسَ
وَرَهْطُ أَبِي سَهْمٍ وَعَمْرُو بْنُ عَامِرٍ وَبَكَرَا فُجَاشَتٍ مِنْ لِقَائِهِمْ نَفْسِي
أَوْ :

لَقِيتُ أَبَا شَأْسٍ وَشَأْسًا وَمَالِكًا وَقَيْسًا فُجَاشَتٍ مِنْ لِقَائِهِمْ نَفْسِي
كَأَنَّ جُلُودَ الثَّمَرِ جِيبَتْ عَلَيْهِمْ إِذَا جَعَجَعُوا بَيْنَ الْإِنَاخَةِ وَالْحَبْسِ

(١) الديوان القصيدة ٣ (٢) ديوان عنتره ٥٦ (٣) ديوان عنتره ٨٦

(٤) ديوان عامر القصيدة ١٩ ملحق

فَضَمُوا عَلَيْنَا حَجَرَتَيْنَا بِصَادَقٍ مِنْ الرَّأْيِ حَشَّ النَّارِ فِي الْحَطَبِ الْيَبَسِ
فَأَبَتْ سَلِيمَى لَمْ يُحْرِقْ عِمَامَتِي وَلَا صَفَحَتِي وَقَعُ الْقَوَاضِبِ فِي الثُّرْسِ
وَلَيْسَ يَعَابُ الْمَرْءُ مِنْ جَبْنِ يَوْمِهِ إِذَا عُرِفَتْ مِنْهُ الشَّجَاعَةُ بِالْأَمْسِ^(١)

ويعتذر زهير بن هلال لزوجته بأنه لم يفر إلا بعد أن هزم رجاله وتفرقوا ، فلم يجد من الكياسة والحصافة أن يتقدم وحده ، على أنه قد فر بعد أن أئخن الجراح في أعدائه .

أَعَاتَكُ مَاوَلَيْتُ حَتَّى تَبَدَّدْتُ رَجَالِي وَحَتَّى لَمْ أَجِدْ مُتَقَدِّمًا
أَعَاتَكُ إِنِّي لَمْ أَلَمْ فِي قِتَالِهِمْ وَقَدْ عَضَ سَيْفِي كِبْشَهُمْ ثُمَّ صَمَمَا
أَعَاتَكُ أَفْنَانِي السَّلَاحِ وَمَنْ يُطْلُ مَقَارِعَةَ الْإِبْطَالِ يَرْجِعُ مَكْلَمًا^(٢)

ويعتذر شاعر آخر لزوجته بأنه خشي الأسر ، ولم يخش القتل :

قَالَتْ سَلَامَةٌ لَا أَرَى لَكَ عَادَةً أَنْ تَتْرَكَ الْأَعْدَاءَ حَتَّى تَعْذِرَا^(٣)
لَوْ كَانَ قَتْلٌ يَا سَلَامَ فَرَاحَةٌ لَكِنْ فَرَرْتَ مَخَافَةً أَنْ أَوْسِرَا

ولقد نظرت امرأة حماس بن قيس إليه وهو يُحْدِ حَرْبَةً يَوْمَ فَتَحِ مَكَّةَ ، فقالت له :
ما تصنع بهذه ؟ قال : أعدها لمحمد وأصحابه ، فقالت : ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء .
قال : والله اني لأرجو أن أُخْدِمَكَ بَعْضَهُمْ . فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم
الرجل وفر ، وقال لامرأته : اغاقي على بابي ، فقالت له : فأين ما كنت تقول ؟ فاعتذر لها
بأن سادة قریش فروا ، وأن المسلمين غلابون ضرابون :

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ الْخَيْلَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عَكْرَمَةُ
وَأَبُو يَزِيدٍ قَائِمٌ كَأَلْمُؤِمَةٍ وَلِحَقَّتْنَا بِالسَّيُوفِ الْمُسْلِمَةُ
يَفْلُقْنَ كُلُّ سَاعِدٍ وَجْهَ جَمْعَةٍ ضَرْبًا فَلَا نَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةً
لَهُمْ نَهَيْتُ خَلْقَنَا وَهَمْمَةً لَمْ تَنْطَقِ فِي اللُّومِ أَدْنَى كَلِمَةٍ^(٤)

(١) ديوان أوس بن حجر ١٠ والحامسة البصرية ١٢ مخطوط وحامسة البحرى ٥٢ وفي العقد الفريد
١٧٥/١ أن القائل عمرو بن معد يكرب . الحبس : الشجاعة (٢) حماسة الخالدين ٢٤٤ مخطوط
وحامسة البحرى ٥١ (٣) المرأة العربية ٢٢/١ (٤) العقد الفريد ١٧٣/١ (القائل اسمه الخارث)
وفي سيرة ابن هشام ٢٦/٤ ومعجم البلدان عند الكلام على الخندمة أن القائل حماس بن قيس بن خالد وفي
السيرة أيضاً ٢٨/٤ أن القائل الرعاش الهذلي وفي الكامل للمبرد ٣٦٥ طبعة أوروبا أنه أبو عثمان
الهذلي الرعاش أو حماس بن قيس . أبو يزيد : حذف هزمة لضرورة الشعر . المؤتمة : التي قتل زوجها
فبقى لها أولاد أيتام . المسلمة : المسلمون . الغمضة : صوت الأبطال في الحرب . نهيت : نوع من صياح الأسد .
همهمة : صوت في الصدر .

يفخر بحسن عشرته لها :

كان من سراوة الخلق وسمات الرجولة أن يحسن الرجل عشرة زوجته ، لذلك خايل بعضهم بأنه لا يسىء عشرتها ، كقول ذى الأصبع العدواني أنه يلي نداء جارتها وكنّتها ، ولا يفجع زوجته بشر :

ثم سلا جارتى وكنّتها هل كنت فيمن أراب أو فرعا
أو دعثنى فلم أجب ولقد تأمن منى حليلتى الفجعا (١)

ومع شهرة التيميّات بالدل وصعوبة المراس كن حظيات عند أزواجهن ، ينعمن بدمائة أخلاقهم (٢) .

على أن الرجال لم يكونوا على نسق واحد في معاملة الزوجات ، وهذا طبيعى ، فقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : « كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فظفّق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، فصخبّت على امرأتى ، فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فتألت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النّبى ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ، فأفزعنى ذلك . . . وفي رواية يزيد بن رومان . كنا ونحن بمكة لا يكلم أحداً امرأته إلا إذا كانت له حاجة ، وفي رواية عبيد بن حنّس : مانعاً للنساء أمراً ، وفي رواية الطيالسى : كنا لا نعتد بالنساء ولا ندخلهن فى أمورنا ، (٣) . ولكن فى هذا نظراً ، لأن كثيراً من القرشيين كانوا يحفلون بنسائهم أو يشركونهن فى أمورهم كما سبق ، وكما سيحى . ويظهر لى أن خلق عمر كان فيه بعض جفاء فى معاملة النساء ، وربما شركه بعض القرشيين فى خلقه ، وربما توهم بعضهم أن القرشيين مثله . ولسنا نستطيع أن ندعى أن العرب كلهم كانوا يحسنون معاملة النساء ، لأن هذا مغاير للطبائع ، وما زلنا إلى الآن نرى المرأة علمية القدر فى بعض البيئات ومهينة فى بعضها الآخر ، من الوطن الواحد . ثم إن حسن المعاملة لم يتبدل بالزوج إلى أن يكون خنوعاً لزوجته ، أو إمعة لا رأى له ،

(١) الأغاني ٩٧/٣ الدار . الكنة : امرأة الابن أو الأخ . أراب : فعل ما يريب . فرع : أخش أو تسال إلى غير زوجته من فرع العروس إذا غشيها أو فرع فى الجبل إذا صعد فيه . وفى الأصل فدع الفجع : الأذى (٢) الأغاني ٥١/١٠ ساسى . (٣) فتح البارى ٩/٢٤٥

لأن الخلق العربي مدعوم برجولة وفتوة ، لذلك يقول الشنفرى لزوجته : طلقيني إذا رضيت بمخالفتك لي فيما نهيتك عنه ، لأنك إذا الزوج ، ومن حَقَّك أن تؤدبيني بسوطك :

إذا ما جئتِ ما أنْهاك عنه ولم أنْكر عليك فطلقيني
فأنت البعل يومئذ فقوى بسوطك لأبالك فاضربيني^(١)

ويقول عروة إنه لا يصيخ لزوجته إذا أمرته بعقوق :

إذا أمرتني بالعقوق حليلتي فلم أعصها إني إذا لمضيع^(٢)

وإن فحولة الرجل لتتضح حينما تسيء زوجته إلى ابنه من غيرها ، أو إلى أخى زوجها ، فيردعها ردعاً ، من ذلك أنه كان لعمر بن شاس ابن يقال له عرار من أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به ، وكان عرار يشتمها ، فغضب عمرو وهددها بالطلاق إن لم تحسن معاملة ابنه ، لأنه يحبه ويعزه ويحميه :

أرادت عراراً يالهوان ومن يرد
وإن عراراً إن يكن غير واضح
وإن عراراً إن يكن ذا شكيمة
فإن كنت مني أو تريدني صحبتي
وإلا فسيرى مثل ما سار راكب
عراراً لعمرى يالهوان فقد ظلم
فإنى أحب الجون ذا المنكب العمم
تقاسينها منه فما أملك الشيم
فكوني له كالسمن رُبْتُ له الأدم^(٣)
تعجل خمساً ليس في سيره أمم

وأنف دريد بن الصمة أن تشتم زوجته أخاه ، لأنها إذا تشتمه أيضاً :

أعبد الله لو شتمك عرسي
معاذ الله أن يشتمن عرسي
إذا عرس الفتى شتمت أخاه
تساقط لحم بعضى فوق بعض
وأن يملكن إمرارى ونقضى
فليس بحامش الرئين محض^(٤)

يسمع مشورتها

هذه العشرة التي يتعاطى الزوجان صفوها ، ويتبادلان فيها الثقة والإعزاز جديرة بأن

(١) محالزيرات الأدباء ١٢٧/٢ (٢) شعراء النصرانية ٩١٤ (٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ تحقيق شاكر والأمالى ١٨٩/٢ وشرح الحماسة المرزوقي ٢٨٠/١ والأغانى ٦٠/١٠ غير واضح: غير أبيض جميل . العمم : التام الطويل . شكيمة : جفوة . ربت له الأدم : دهن الوعاء بالرب ليصنع السمن الذى فيه ، أى أحسن معاملته ظاهراً وباطناً بحيث لا يكون فيها تغير كالسمن المربوب وعاءه . تعجل خمساً : سار مسرعاً إلى الماء ليسقى لبله بعد أن عطشت أربعة أيام . أمم : إبطاء . (٤) الوحشيات لأبى تمام ١٠١ مخطوط . حامض الرئين : مر اللحم . محض : خالص النسب .

تمهد للزوجة أحيانا سبيل المشورة على زوجها فيما يعود عليهما بالخير ، وهو لا يجد غضاضة في أن يستمع إليها ويحقق ما تريد ، ولقد تكون المشورة إصلاحا بين القبائل ، كما حدث لما خطب الحارث بن عوف بهيئة بنت أوس بن حارثة الطائي ، فلما هم بها قالت : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تتقاتل ؟ — وكان ذلك في أيام حرب عبس وذبيان — فقال لها : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، فخرج هو وهرم بن سنان فأصلحا بين القوم ، وحللا عنهم الديات ، فانصرفا بأجل الذكر ، وشاد بهما زهير بن أبي سلى (١) ، ولقد تشيرا الأم على زوجها في تزويج ابنته ، ويرضى هذه المشورة كما سبق في اختيار الزوج ، ولقد تكون في شأن من شؤون الحياة كالرحلة مثلا ، فقد أراد الخطيئة أن يسافر ، فأتته امرأته بعد ما أعدت راحلته ليركب ، فقالت :

اذكر تحنننا إليك وشوقنا واذكر بناتك لمنهن صغار

فقال : حملوا الرجال ، لا رحلت أبدا (٢) .

على أنها كانت ذات أثر عظيم في تشجيع زوجها وحفز همته ، وخير مثل في ذلك السيدة خديجة ، فقد آمنت بالنبي ، وصدقت بما جاء من الله ، وآزرتة على أمره ، تخفف الله بموازرتها عن نبيه ، وكان لا يسمع مما يكرهه من الرد عليه والتكذيب له إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتصدقته وتهون عليه أمر الناس (٣) .

يغار عليها ويحميها .

في هذه البيئة التي قامت الأخلاق فيها على الإباء ، والاعتزاز بالشرف وحسن الاحدوثة كان لابد للرجال من الغيرة على العرض ، وكان العدوان عليه يجر حربا وويلًا . وقد افتخر العرب بالعفة ، ومدحوا بها ، وهؤلاء المفتخرون بالعفة والمادحون بها غير على النساء ، وما زالت غيرتهم مضرب الأمثال ، لذا قالوا : « كل شيء مَهَّ ما خلا النساء وذكرهن » يريدون أن كل شيء يسير جميل مقبول يحتمله الرجل إلا ذكر الحرم ، فإنه يمتنع منه ولا يطيقه (٤) .

ولهم في الغيرة حديث عجب ، فثلاثا قتل آكل المزارح حجر بن عمر بن معاوية الكندي

(١) الأغاني ١٤٢/٩ ساسي والمستطرف ٢٢٢/٢ (٢) الأغاني ١٧٧/٢ (٣) سيرة

ابن هشام ٢٥٩/١ (٤) مجمع الأمثال ٧٠/٢

أو الحارث بن عمرو بن حجر الكندي امرأته هنداً ، لأن عمرو بن الحُبولة سباهها في غيابه ، فلما قدم تبعه وقتله واستنقذها ، وعلم أنه نال منها ، فربطها في أذنان الخيل حتى تقطعت أوصالها (١) ، وكذلك فعل الحارث بن عمرو إذ غزاه ابن هبيرة الغساني في غيبته ، فأخذ ماله وسبي امرأته ، فأصابها في الطريق ، ثم لحقه الحارث فقتله ، وتخلص امرأته ، ولما عرف أنها مُسِّت أمرها فوثقت بين فرسين ، ثم أحضرهما حتى تقطعت ، وأنشد :

كل أنثى وإن بدا لك منها آية الود حبها خيتُور

إن من غره النساء بود بعد هذا لجاهل مغرور (٢)

وأرجح أن الحادثة واحدة ، ولكنها نسبت إلى شخصين ، بدليل تشابهها وأن صاحب العقد يذكر هذين البيتين بعد قصة آكل المزار (٣) .

أما حماية الزوج لزوجته فإنها صورة من حماية العربي للمرأة عامة ، فلا داعي لتفصيل القول فيها الآن . وحسبنا هنا هذه اللمحة ، يقول مالك بن أبي كعب الأوسي إنه يستعيز بالله من أن تقول زوجته إنه فر عنها ، وإنه يجود بآخر قطرة من دمه ليحميها من الأسر :

معاذ الإله أن تقول حليلتي ألام فر عني مالك بن أبي كعب

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلا وأنجو إذا غم الجبان من الركب (٤)

وعير عامر بن الطفيل قيساً أنه أسلم زوجته سبية :

وأفْلَتْنَا على الحومان قيس وأسلم عرسه ثم استقاما (٥)

وإذا ما تهاون في حمايتها نبذته ، ورفضت أن تعاشره ، لأنه في نظرها فسل لا تعتر في

(١) الأغاني ٨٢/١٥ وسيرة ابن هشام ٢٥٥/٤ . سمي آكل المزار لأنه حنق من سبي امرأته حتى أكل المزار وهو يعث به ولا يدرى (الأغاني ٨٢/١٥ — ٨٤) و (سيرة ابن هشام ٢٥٥/٤) أو لأنه أكل هو وأصحابه شجر المزار في غزوة (سيرة ابن هشام ٢٥٦/٤) وأنا أرجح أحد هذين السببين وأستبعد الرأي الثالث وهو أن امرأته قالت لاسايها : كأي رجل آدم (مسترخى الشفتين) أسود كأن مشافره مشافربعير آكل مزار ، قد أخذ برقبتك . والمزار شجر مر إذا أكلته الابل قلصت مشافره فابتدت أسنانها . وفي آكل المزار خلاف : أهو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية (سيرة ابن هشام ٢٥٦/٤) والأغاني ٨٢/١٥ و ٦١/٨ وشرح القصائد العشر للتبريزي ٣) فهو الجد الثالث لامرئ القيس . أم هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمر بن معاوية (هامش الأغاني ٨٤/١٥) والاشتقاق لا ين دريد وسيرة ابن هشام ٢٥٥/٤ والقاموس المحيط مادة مر (فهو جد امرئ القيس لأنه عاش حوالي سنة ٤٨٠ م (تاريخ العرب ١١٥/١ فيليب حتى) . (٢) أخبار النساء ٣ وجمع الأمثال ١٧٧/٢

(٣) العقد الفريد ٧٠/٢ (٤) حماسة الخالدين ١٠ مخطوط . (٥) ديوان عامر القصيدة ٢

رحابه ، ولا تظمن إلى حمايته . من ذلك أن بنى عبدمناه أغاروا على عجل وحنيفة في يوم العَدَاب ، ويسمى أيضا يوم الصعاب ، وسبى عمرو بن الحارث أو الحارث بن تولب حسينة بنت جابر العجلي ، وكانت زوجة لابن عمها تمام بن سواده ، ففر عنها فأسرت ، ثم إن زوجها وأباها أتاها ليفادياها ، فرفضت واختارت سابها وقالت تعير زوجها :

تمامُ قد أسـ لميتي لرماحهم
وتلومني ألا أكر عليكم هيهات ذلك منكم لا أفعل
ثم فادها أخوها ، وسار معها عمرو بن الحارث حتى جوزها أرض تميم ، وقال :
وخيرنا حسينة إذ أتاها سـوادة ضارعا معه الفداء
وقالت ان رجعت إلى تميم مخيرة فقد ذهب الحياء
وهبناها لايجر إذ أتانا وفيهاها غيرها منهم نساء
وفي ذلك يقول جرير للأختل :

ورأت حسينة بالعداب فوارسا تحوى النهاب وتنسم الأنفالا (١)

الإسلام ومعاملة الزوجات

لا شك أن الإسلام هذب الأخلاق الجاحمة وشذب العادات الطالحة ، وسنَّ جديدا من الآداب ، وزاد من عطف الرجال على الزوجات . فقد شرع القرآن الكريم وسائل تأديب الزوج لزوجته « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واجبروهن في المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا » (٢) ، وشرع التحكيم بين الزوجين المتخاصمين « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا » (٣) ، وأوصى النبي عليه الصلاة والسلام بالنساء خيرا في حجة الوداع ، استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (٤) . وبين النبي أنه لا غضاضة ولا ضير في مداعبة الرجل زوجته « اللهو في ثلاث : تأديب فرسك ، ورميك بقوسك ، وملاعبتك أهلك » (٥) . ، وكان صلى الله عليه وسلم أنبل زوج معاملة ، وأظرف زوج عشرة

(١) أشعار النساء للمرزباني ٥٧ — ٥٩ مخطوط (٢) سورة النساء ٣٤ (٣) النساء ٣٥

(٤) تيسير الوصول ٢/٢٥٦ والمغازي للواقدي ٤٣٤ والبيان والتبيين ٢/٣٢ طبعة هارون

(٥) كثر العمال ٧/٣٣١ وعيون الأخبار ٤/٨١

وحسبنا قوله : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي^(١) . وقد نهى عن ضرب النساء ، فقيل له يا رسول الله إنهن قد فسدن فقال : « اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم »^(٢) وقال في خطبة الوداع ، « إن الله قد أمر أن تهجروهن وتضربوهن ضربا غير مبرح » وهاله أن يلجأ الأزواج إلى الضرب في قلة مبالاة ، فقال : « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل ثائراً فريض عصب رقبتة على مريئته يقاتلها » وشكت إليه امرأة أن زوجها قد ضربها ضربا شديدا ، فقام فأنكر ذلك وقال : « يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحي »^(٣) . وللنبي عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في الوصاية بالزوجات والحث على إحسان معاملتهن^(٤) .

واهتدى بهديه المسلمون ، وساعدهم على تمتيع النساء أن كثرت أموالهم ، حدث محمد بن ربيعة بن الحارث أن أصحاب رسول الله كانوا يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يصفون ويتجمل به ، وإنه رأى على عثمان مطرف خز ثمنه مئتا درهم ، فقال له عثمان : هذا لنائلة كسوتها إياه ، فأنا ألبسه أسرها به . ولا شك أن الإسلام زاد مكانة المرأة عزاً وعلواً ، وعصدها في حريتها في اختيار زوجها ، وكفل لها معاملة حسنة ، حتى لقد دلت بعض المسلمات بمكانتهن ، فاشتطن على أزواجهن ، وشططن في معاملتهن ، فمثلا اشترطت سكينه بنت الحسين على زوجها زيد بن عمرو بن عثمان ألا يمنعها سفرا ولا مدخلا ولا مخرجا ، بل لقد منعه مرة من زيارتها بالطائف حيث أقامت ببیت لها ، ثم أمرت بالرحيل إلى المدينة ، وأذنت له فجاءها^(٥) . وكانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة لعبد الملك بن مروان ، وقد غضبت عليه وهو خليفة ، فاحتجبت عنه حتى شق ذلك عليه ، فأرسل إليها من يحتال في إرضائها^(٦) وقد فعلت ذلك عائشة بنت طلحة مع زوجها مصعب بن الزبير ، حتى أصلح بينهما ابن قيس الرقيات^(٧) .

مكانة الزوج عند زوجته

أسلفت القول في الصفات التي كان يتوخاها الخاطب في الفتاة ، ليطمئن إلى حياة منزلية هادئة سعيدة ، وما زال الأزواج يمتدحون في زوجاتهم مظاهر الانوثة الكاملة التي تتجلى

(١) كنز العمال ٢٥٨/٨ (٢) الطبقات لابن سعد ١٤٧/٨ (٣) كنز العمال ٢٦٠/٨ والطبقات ١٤٨/٨ (٤) كنز العمال ٢٥٨/٨ — ٢٦١ (٥) الأغاني ٩٣/١٧ (٦) الأغاني ١٣٥/٢ (٧) الأغاني ٥١/١٠

في لين العريكة ودماثة الخلق وحسن السمع والطاعة ، يقول البراء بن قيس في زوجته :

كانت إذا غضبت علىّ تظلمت وإذا كرهت كلامها لم تُثقل^(١)

ويمدح عمرو بن أحمد الباهلي المرأة بأنها ليست ثرثرة الحديث ولا مغالبة ، وبأنها كيسة ، لا تتكلم إلا بما ينفع^(٢) .

وقد كانت مكانة الرجل عند امرأته عالية ، وتجلى ذلك في عدة مظاهر .

حبها له

إذا ما انتقلت المرأة من بيت أبيها إلى بيت زوجها فقد شهدت بيتاً آخر جديداً ، تقيم فيه عمرها ، وتغرس آمالها ، وتصل حياتها بزوجها ، تبثه أمانها وتشكو إليه آلامها ، بل تمتزج بهذا الزوج عواطفها ، فتجاوبه ويجاوبها ، هو رجلها ، وهو حاميتها وعائلها ، ووالد بنيتها ، فهي إذا تحبه ويسعدها أن يحبها . ولقد تسلك في تحببها إليه أن تتبعه له ، وأن تنجب ، وأن تتذرع بحماها وكالها وحسن خلقها ، ولقد يسوقها الحرص على حبه لها أن تتذرع بضرب من الخرافة والوهم ، فتعلق الخرزات ، وتقرأ الرقي ، والمرأة هي المرأة في كل عصر وفي كل بيئة ، فما زالت بعض النساء يدنّ بال تعاويذ والرقي والتمايم ، ويعتقدن أنها وسائل ناجعة في أن يجتذبن أزواجهن ، ويعمرن قلوبهم .

وكانت الخرزات في الجاهلية أنواعاً ، منها : الهنمة ، وكن يقلن : أخذته بالهنمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة ، ومنها العطفة والفطسة والسكحلة والضرفة والسلوانة ، أو السلوان والهبرة والقبل والقبلة^(٣) . ومن خرزاتهن أيضاً الدرديس ، وهي خرزة سوداء كأن سوادها لون الكبد تشف مثل العنبة الحمراء تتجيب بها المرأة إلى زوجها ، وتوجد في قبور عاد^(٤) ، والقرزحلة خرزة تلبسها المرأة ليرضى بها زوجها ولا يبتغي غيرها ولا يشرك معها أحداً^(٥) والكرار والهمرة ، ورقيتهما : يكرار كربه ، ياهمرة اهمريه ، إن أقبل فُسرّيه ، وإن أدبر فُضرّيه^(٦) . وقد أنشد ابن برى في القرزحلة :

لا تنفع القرزحلة العجائزا إذا قطعن دونها ألفاوزا^(٧)

(١) معجم البلدان ٣٨٧/٧ (٢) البيان والتهيين ١٤٠/٢ (٣) لسان العرب ١٠٧/١٦ ومواد الكلمات (٤) لسان العرب ٣٨٤/٧ (٥) اللسان ٧٢/١٤ (٦) اللسان ٤٥٢/٢ (٧) اللسان ٧٢/١٤

وقال شاعر في الدرديس وشدة تأثيرها :

قطعت القيد والخرزات عني فمن لى من علاج الدرديس^(١)

وقال آخر في القبل والفضة والدرديس :

جمعن من قبلهن وفطسة والدرديس مقابلاً في المنظم^(٢)

وما من شك في أن هذه الودعات خرافة ، لكن لم تقتصر على المرأة العربية ، فقد كان الأقدمون يتخذون الودع والأصداف رموزاً لقدرة النساء على أن يلدن ويهبن الحياة ، ثم زاد شأنه إلى أن صار يقي الأحياء خطر الموت ، ويمنح الموتى طول البقاء . لذلك أصبح التمنطق بالودع وسيلة لإغراء الرجال بالنساء ، ففي الملاحم البابلية أن اشتار Ishtar ربة الحب والحرب وأم الحياة جميعها كانت إذا خلعت منطقتها وقفت حركة التناسل حتى تعود إلى لبسها ، واشتهرت منطقة أفروديت Aphrodite بقدرتها على إرغام الناس على الحب ، وكانت قوة برنهلد Brunhild مودعة في منطقتها^(٣) .

ومرد ذلك إلى خضوع الناس لسلطان القوى الغيبية في شؤونهم الدنيوية ، وما زالت الكثرة العظمى تخضع لهذا السلطان إلى اليوم ، وليس ذلك مقصوراً على غير المثقفين ، لأن الذين تتيح لهم ظروفهم أعظم الفرص للتعلم والثقف ينتشر بينهم كثير من الخرافات والالوهام التي لا تمت إلى الأديان الراقية بصلة . وليست الرقى والتمايم وقراءة الكف ونحوها إلا قليلاً من كثير من الأمثلة التي تدل على ضروب العرافة والسحر المتعددة ، وما زالت باقية بين الطبقات العالية في المجتمعات^(٤) .

ومن مظاهر حبها لزوجها أنها كانت إذا غاب عنها في سفر تأخذ تراباً من موضع قدمه وموضع رجله ، معتمدة أن ذلك يسرع بعودته . قالت امرأة من العرب :

أخذت تراباً من مواطىء رجله غداة غدا كيما يتوب مُسلياً
وقالت أخرى :

قالت له واقتبضت من أثره يارب أنت جاره في سفره^(٥)

ويتجلى هذا الحب في أن الزوجة كانت تعظم فجيعتها في زوجها أكثر من فجيعتها في أخيها

(١) اللسان ٣٨٤/٧ (٢) اللسان ٣٨٤/٧ و ٤٥/٨ (٣) تاريخ العالم عدد ٦ مجلد ١

ص ٣٧١ — ٣٧٥ اليوت سمث (٤) المرجع السابق ص ٣٦٥ اليوت سمث (٥) بلوغ الأرب ٣٣٩/٢

وخالها ، فقد عاد رسول الله من غزوة أحد ، فلقيته حمنة بنت جحش فنعى لها أخاها عبد الله ابن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزه ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير . فصاحت وولولت ، فقال رسول الله « إن زوج المرأة منها لمكان » لما رأى تثبتها عند مصرع أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها (١) .

خوفها عليه من القتل

مهما تكن المرأة العربية كلفة بالشجاعة وبالبطولة فإنها لا بد أن تتخوف على زوجها الردى ، لثلاث تجرم حمايته وإعزازة وعشرته ، ولثلاث ترمل ، وتيتم بنوها . فهي معذورة في أن تحاول أحيانا أن تثنيه عن الحرب وعن الغارات .

ومن صوروا ذلك عروة بن الورد ، فإنه كان قد أجذب هو وصعاليكه ، فأراد أن يخرج ليعزو ، فنهته امرأته خوفا عليه من الردى ، فعصاها وخرج غازيا ، وأصاب إبلأ عاد بها على نفسه وصحبه ، وقال :

أرى أم حسان الغداة تلومنى
تقول سليمي لو أقمت أسرنا
لعل الذى خوفتنا من أماننا
ويكرر هذا المعنى فى قوله :

تقول لك الويلات هل أنت تارك
ومستثبت فى مالك العام إننى
جفوع لأهل الصالحين ، مزلة
وهو حفى بتكرير هذا (٢) .

ويشركه فى هذا الحديث عمرو بن براقه الهمداني :

تقول سليمي لا تعرض لتسفة
وليلك عن ليل الصعاليك نائم (٣)

(١) تاريخ الطبرى ٢٧/٣ وابن هشام ٥٠/٣ والمغازى ٢٨٥ (٢) الأغاني ٨٢/٣ الدار وشعراء النصرانية ٨٩٨ ديوان عروة ٢٣ (٣) شعراء النصرانية ٨٨٤ ضبوا : لصوقاً بالأرض لحتل الصيد والمراد أصحاب المال ، رجل : رجال . منسر : خيل والمراد خيالة . أقتاد صرماً مذكر : الأقتاد خشب الرجل أو جميع أدواته والمراد الرجال . صرماً : مغارة لاماء فيها (أساس البلاغة) مذكر : داهية شديدة أو طريق مخوف والمراد على شفا هلاك . جفوع : تفجع الناس بالسخط عليهم . الصالحين : ذوى المال (٤) ديوان عروة ١٣ و ٢١ (٥) حماسة الخالدين ٥ مخطوط

وعمر بن معد يكرب :

أعاذلُ عُدَّتِي بَزَى ورَمَحِي وكل مقلَّص سلس القياد
أعاذل إنما أفنى شِبابِي إجابتي الصريحُ إلى المنادى (١)

وكعب بن سعد الغنوي يفصل حواراً بينه وبين زوجته فيقول :

لقد أغضبتني أم قيس تلومني وما لوم مثلي باطلاً بجميل
تقول : ألا يا استبق نفسك لا تسكن تساق لغبراء المقام دُحُول
أراك امرأ ترمي بنفسك عامداً مرأى تغتال الرجال بغول
ألم تعلني ألا يراخي منيتي قعودي ولا يدني الوفاة رحيلي
فإنك والموت الذي ترهيبينه على وما عداله بعقول
كداعي هديل لا يجاب إذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هديل (٢)

هؤلاء الشعراء ومن على شاكلتهم كمضرس بن ربيع (٣) قد يكون تصويرهم هذا صادقا ، وقد يكون ضربا من الفخار بالبسالة واقتحام المهالك ، ولكنه على الحالين تعبير عن دخيلة الزوجة ، وخشيتها على زوجها ، لأن الشاعر ما كان ليتخذ عدلها وتخوفها مدرجة إلى نخره إلا وهو على يقين من صوابه في تصوير نفسية زوجته .

حرصها على ماله :

من أحق من الزوجة المحبة الوفية بالحرص على مال الزوج ؟ إن الأم تحرص على مال ابنها بدافع الأمومة ، غير متأثرة بنفع شخصي تتوقعه ، أما الزوجة فإنها تحرص بدافع المشاركة في الحياة ، وبدافع شخصي من شعورها بأن هذا المال لها ولبنيتها ولزوجها ، وأنها تحقق به آراها ، فهي أشد من الأم حرصا ، وأشد منها لوما للرجل على الإسراف ، وهي ترى إسرافا ما يعتده الزوج أريحية وواجبا محتوما .

لهذا أكثر الشعراء من تصوير الزوجات لوامات على البذل ، فهل كان ذلك لأنهم يتوسلون بهذا التصوير إلى الفخر بالكرم ؟ أو كان هذا تخيلا من الشاعر أراد به أن يعظم من عزيمة ومروءته ، فهو يكرم حين يلام ؟ أرى أن الرجل كان صادقا في حديثه عن لوم امرأته ، فليس من المعقول أن يصم زوجته أو أمه بالبخل المدعى ليمهد به إلى أن يفخر بكرمه وغلبته على اللوم المتخيل ، لأنه بذلك يسيء إلى نفسه أيضا . وإنما كان الأكل لفخاره أن

تكون أمه كريمة أو رثته الكرم ، وأن تكون زوجته كريمة ، لأنها نشأت على الكرم في بيت أبيها صهره ، وعاشت مع زوجها الكريم فصادف كرمه في نفسها هوى .

وإذا فالراجح في نظري أن الشعراء كانوا صادقين في تصويرهم ، وأن النساء كن أبخل من الرجال ، كما سألين في أخلاق المرأة . وقد حاولت ماوية بنت عفزر أن تكف زوجها حاتما عن سخائه فتأبى عليها ، فلما ضاقت به طلقته^(١) ، وفي ذلك قال قصيدته التي مطلعها .

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد كذاك الزمان بيننا يتردد
يفخر فيها بكرمه ، ويشيد بآثاره^(٢) ، ويظهر أن حاتما كان قد أجهد نفسه في الدفاع عن مذهبه ، وفي تحبيب السخاء إلى زوجاته ، بضرب الأمثال ، كقوله لماوية :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إني لا أقول لسائل إذا جاء يوما : حل في مالنا نزر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماوى إن يصبح صدأ بقفرة من الأرض لا ماء هناك ولا خمر
ترى أن ما أهلك لم يك ضرنى وأن يدى مما بخلتُ به صفر^(٣)
وقوله لنوار وقد حاولت أن تصده عن سخائه فرفض^(٤) ، وقوله لزوجتيه معا وقد هددتاه بالطلاق :

فقلت وقد طال العتاب عليهما وأوعدتُمانى أن تبينا وتصرما
ألا لا تلومانى على ما تقدمما كفى بصروف الدهر للره محكما
فإنكما لاماضى تدركانه ولست على ما فاتنى متندما^(٥)

وقد أضاف النمر بن تولب قوما وعقر لهم أربع قلائص ، واشترى لهم زق حمر ، فحنقت زوجته ولامته ، فقال لها إن لومك سفه ، وإنك تتخوفين الغد ، ولكنك لا تستطيعين أن تردى الفقر عني ببخلك ، ثم قال إنها بكيت لما سبأ الزق لضيوفه ، على أنه اشتراه بجمل مسن مهزول ، وبكيت لأنه نحر لهم قلائص أربعة ، على أنه قد نحر مثلها لغيرهم من قبل ، فهذا البكاء ضلة منها وسفه ، بل إنه تباك لا بكاء . ثم أمرها أن تفسح لإخوته ليستمتعوا

(١) ذيل الأماوى ١٥٣ والأغاني ١٠٢/١٦ (٢) الأغاني ١٠٢/١٦ (٣) زهر الآداب ١٨٣/٣ وشعراء النصرانية ١٠٩ والعقد الفريد ٣٣٦/١ وديوان حاتم ١١ (٤) العقد الفريد ٣٣٤/١ (٥) ديوان حاتم وخزانة الأدب للبغدادى ٢٩٠/٢

معه بما يملك ، وقال إنه لا بد أن يموت ويترك ماله فهاذا يتسره على البخل ؟ ثم ضرب لها أمثلة بمن ماتوا وخلفوا المال لغيرهم :

قالت لتعدلني من الليل : اسمع
لا تجزعي لغدٍ وأمرُ غدٍ له
قامت تبكي أن سبأت لفتية
وقريت في مقرى قلائص أربعا
أبكيًا من كل شيء هين
فإذا أتاني إخوتي فدعيمهم
لا تطردهم عن فراشي إنه
هلا سألت بعادياء وبيته
لا تجزعي إن منفس أهلكته

سفة تبكيك الملامة فاهجعي
أتعجلين الشر ما لم تمنعي ؟
زقا وخابية بعود مقطوع
وقريت بعد قرى قلائص أربع
سفة بكاء العين ما لم تدمع
يتعللوا في العيش أو يلهوا معي
لا بد يوما أن سيخلو مضجعي
والخل والخمر التي لم تمنع
وإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (١)

وهذا الضرب من المقال كثير (٢) .

ولبعض الرجال مع نسائهم البخيلات الحريصات على المال أقاصيص ، كهذه التي رووها عن حجية بن المضرب ، فقد رأى جاريته معها قعب من لبن فقال : أين تذهبين ؟ قالت إلى أولاد أخيك اليتامى ، فأراقه . فلما أراح راعيه إبله عليه قال لعبديه : أريحا هذه الإبل على أولاد أخي ، فأراحها كلها عليهم ، فغضبت امرأة حجية غضبا شديدا ، فقال قصيدة يتحدث فيها عن غضب زوجته وغيظها ، وعن أفته أن تهدي إلى أولاد أخيه لبنا في قعب كما يجاد على السائلين والبائسين ، وأنه أمر عبديه أن ينيخا النوق عند أولاد أخيه ليحتلبوا ما يشاءون ، ولم يعبأ بغضب زوجته وحنقها ، بل إنه أرضى نفسه بهذا الصنيع ، وهو ليس بليد الحس للومها ، وليس أحق فتخذه بكحلها لتنسيه ما وجب عليه من رعاية أولاد أخيه ، وإنما هو

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢١٥/١ تبكى : تهيج للبكاء . سبأ : اشترى للشرب . خابية : جرة عظيمة . عود : مسنن من الإبل : مقطوع : مهزول . قريت في مقرى : أضفت في مضيف . فراشي : المراد بيتي . عادياء : أبو السموءل . الخل : جمع خلعة وهي الخمر أو حامضتها أو المنغرة بلا حموضة ، والمراد بالخل والخمر أنه كان يجود بالخمر بنوعيهما (٢) ديوان حاتم ٨ والأغاني ١٩/١٥٨ و٢١٠/١ والأمالى ١/٣٨ و١٩/٢ و٢٨٠/٤ والمفضليات ١/١١٦ و١٢٣/٢ و١٥٦/١ وشعراء النصرانية ١٢٦ وشرح الحماسة للتبريزى ٤/١١٧ ومنتهى الطلب من أشعار العرب ١/١٧ و١٥٩ مخطوط والمؤتلف والمختلف ٨٦ والأصمعيات ١/٥ وخزانة الأدب ١/٢١٥ و٢٩٠/٢ وديوان عبيد القصيدة ٢٨

رجل يحتفظ لنفسه بمقومات الرجولة ، فلتعش معه على ما يريد فيعزها ، وإلا فلتفارق ، ثم ذكر الباعث له على حفاوته بأبناء أخيه أنه وفاء لأبيهم وعرفان بحميله :

لججنا ولجّت هذه في التَّغَضُّبِ ولطّ الحجاب دوننا والتجنب
وخطت بعود إثمٍ فوق عينها لتذهب عقلي بالنواكة زيني
تلوم على مال شفاني مكانه فلومي على ما فاتك اليوم واغضبي
ولا تحسبيني بلداً إذ نكحتي ولكنني حجيّة بن المضرب
فإن تجلسي فأنت أقي عيالنا وإن تكرهي هذي المعيشة فاذهبي
رحمت بني معدان إذ ساف ما لهم وحقّ لهم مني ورب المحصب
ولما رأيت النفس ألا تُقرّها هدايا لهم في كل قعبٍ مشعب
رثيت لهم لما رأيت سوامهم عطاء الموالى من أفيلٍ ومُصعب
فقلت لعبدينا : أريحنا عليهم سأجعل يلقى مثل آخر مُعزب
وقلت خذوها واعلموا أن عمكم هو اليوم أولى منكم بالتكسب
عياي أحق أن ينالوا خصاصة وأن يشربوا رنقا إلى حين مكسب
أحابي بها قبر امرئ لو أتيت به حريياً لآساني على كل مركب
أخي والذي إن أدعه لعظيمة يجنّي وإن أغضب إلى السيف يغضب^(١)

لم تقتصر الزوجة على أن تلوم في الكرم ، بل لامت أيضاً في إعزاز الخيل وتقديم اللبن لها ، ونحن نعلم أن العرب كانوا يرعون خيلهم ويؤثرونها أحيانا على أنفسهم وأهلهم^(٢) . يقول ربيعة بن مقروم :

وجرداً يقربن دون العيال خلال البيوت يلكن الشكيا^(٣)
وكانوا يخصوصونها بلبن الإبل تقوية لها وإعزازا ، قال المتلمس :
ابقت لنا الأيام واللز بات والعاني المرهق
جرداً بأطناب البيو ت تغلّ من حلب وتغبق^(٤)

غضبت الزوجة من هذا الإعزاز ، ورأت أنه إسراف ، فلامت زوجها ، لكنه لم يصغ

(١) المؤلف والمختلف ١٨٣ والأغاني ١٠/٢١ لط : لزوم . بلام : أحق ثقيل لحيم . أقي عيالنا : خيرهم . النواكة : الحق . ساف : نفذ . أفيل : ولد الناقة . مصعب : خل من الإبل . حريب : في شدة
(٢) الحياة العربية ١٧٧—١٨٣ (٣) المفضليات ١٨٣/١ (٤) ديوان المتلمس ٩ مخطوط

إليها ، يقول قبيصة بن النصراني إنها لامته ، وإنها تجهل قيمة الحصان إذا حزب الأمر :
 هاجرتي يا بنت آل سعد أن حلبت لقة للورد
 جهلت من عنانه الممتد ونظري في عطفه الألد
 إذا جيات الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب وحرْد (١)
 وقال الأعرج المعنى إنها عدلتها ، وهي لا تدري أن الحصان أنفع منها إذا جد الجد ،
 وأنه سيجزى صاحبه حين الحرب :

أرى أم سهل ما تزال تفجع تلوم وما أدري علام توجع
 تلوم على أن أعطى الورد لقة وما تستوى والورد ساعة تفزع
 إذا هي قامت حاسرا مشمعة نخيب الفؤاد رأسها ما تقنع
 وقت إليه باللجام ميسرا هنالك يحزني الذي كنت أصنع (٢)
 وكذلك تحدث خرز بن كوزان (٣) وحيال بن حسل (٤) وحاجب بن حبيب
 الأسدي (٥) وغيرهم .

وعذلت في الخمر أيضا ، وأكثر الشعراء من الحديث عن عدلها ، قال أبو ذؤيب :
 رأيتني صريع الخمر يوما فسوتها بقران إن الخمر شعث صحابها
 وضاق أحدهم بلومها فتهدها بالتغالي في الشراب إن لم تكف عن الملام ، ولا يخلو تهديده
 من تصوير فكه .

غضبت على لأن شربت بجزرة فلتن أبيت لأشربن بخروف
 ولئن غضبت لأشربن بنعجة دهساء مائة الإناء سحوف
 ولئن غضبت لأشربن بساقة كوما ناوية العظام صفوف
 ولئن غضبت لأشربن بسابج نهد أشم المنكبين منيف
 ولئن غضبت لأشربن بواحدى ولا جعلن الصبر منه حليف (٦)

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٨٩/٢ (٢) معجم الشعراء ٢٥١ وشرح الحماسة للمرزوقي ٣٤٩/١ مشمعة : مسرعة . نخيب الفؤاد : طائفة اللب . ميسرا : مهيئا (٣) البيان والتبيين ٣/١٩٠ (٤) المؤلف والخفاف ٨٦ (٥) المفصليات ١٦٨/٢ (٦) الأمل ١٥٠/١ دهساء : حمرة اللون أو عظيمة الإلية . سحوف : عليها طبقتان من الشحم . كوما : عظيمة السنام . ناوية العظام : سميكة . صفوف : تصف بين رجلها عند الحلب وأن تحلب في محلين أو ثلاثة ، فهي غزيرة اللبن . سابج نهد : فرس ضخم

وذهب سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلِ الرِّياحِي إلى أن الخمر هي الشَّاء والفَخار ، وأنها لب الحياة ، وهي خير من زوجته اللَّائِمة :

تقول حذراء ليس فيك سوى الخمر — ر معاب يعيبه أحد
فقلت : أخطأت بل معاقرتي الخمر — ر وبذلي فيها الذي أجد
هو الثناء الذي سمعت به لا سببٌ مُخلدي ولا لبَد
ويحك لولا الخمر لم أحفل العي — ش ولا أن يضمني لحد
هي الحيا والحياة واللَّهو ، لا أنت ولا ثروة ولا ولد^(١)

ويبدو أن الليل كان الظرف الملائم لهذه الملامة ، لأن الزوج حينئذ يخلو إلى زوجته وتنفرد به ، ويتناولان معا شئون اليوم ، قال حاتم :

وعاذلتين هبتا بعد هجعة تلومان متلافا مفيدا ملوما
تلومان لما غورَ النجمُ ضلةً فتي لا يرى الإنفاق في الحمد مغرما^(٢)
ويقول عبيد بن الأبرص .

هبت تلوم وليست ساعة اللاحى هلا انتظرت بهذا اللوم إصباحي^(٣)
ويقول النفر بن تولب :

قالت لتعداني من الليل اسمع سفة تبيتك الملامة فاهجعي^(٤)
ويقول ضمرة بن ضمرة إن زوجته عجلت بلومه بعد موهن من الليل :
بكرت تلومك بعد وهن في الندى بسئل عليك ملامتي وعتابي^(٥)

وفاؤها له :

إذا ما جعها الدهر في زوجها وفَت له ما عاشت ، ولهذا الوفاء عدة مظاهر .
(١) فهي تذكره بالخير ، ولقد يتزوجها غيره فلا تنكل عن هذه الذكري ، بل ترتب بها لسانها على مسمع من زوجها الثاني ، من ذلك أنه لما قتل لقيط بن زرارة تزوج امرأته بنت هانيء بن قبيصة رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكني أحدثك أنه خرج إلى الصيد

(١) البيان والتبيين ٢٠٥/٣ (٢) خزنة الأدب ٢٩٠/٢ (٣) ديوان عبيد القصيدة ٢٨

(٤) خزنة الأدب ٢١٥/١ (٥) الأمل ٢٨٠/٢ بكرت : المراد عجلت . بسئل : حرام

مرة فرجع إلى وبقي فيه نضج من دماء الصيد، والمسك يضوع من أعطافه، ورائحة الشراب من فيه، فضمى ضمة، وشنى شمة، فليتني مت ثمة. ففعل زوجها مثل ذلك يوماً، ثم ضمها، وقال لها: أين أنا من لقيط؟ قالت: ماء ولا كصداء^(١).

(٢) ولقد تعاف الزواج بعده، وتقضى حياتها أيماً، أو تترهب، كما ترهبت هند بنت النعمان بن المنذر لما قتل أبوها زوجها عدى بن زيد، وحبست نفسها في الدير المعروف بدير هند في الحيرة، ثم خطبها المغيرة بن شعبة وإلى الكوفة في عهد معاوية فرفضت^(٢). وكذلك فعلت في الإسلام نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة، فإنه لما قتل عثمان خطبها معاوية وألح عليها، فقالت: ما يعجب الرجل مني؟ قالوا: ثناياك، فكسرت ثناياها، وبعثت بها إليه فأمسك. ومثلها الرباب بنت امرئ القيس، كانت زوجة للحسين بن علي، وكان يحبها وتحبه، يقول فيها وفي بنته سكينه.

لعمرك إنني لأحب داراً تحل بها سكينه والرباب
فلما قتل خطبت، فقالت: والله لا اتخذت حموا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).
وروى الأصمعي عن رجل من بني ضبة أنه عرض على فتاة تأيمت أن يتزوجها، فأطرقت ساعة، ثم رفعت رأسها، وعيناها تذر فان دموعاً وقالت:

كنا كغصنين من بان غذاؤهما	ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث صاحبها من جنب صاحبه	دهر يكر بفرحات وترحات
وكان عاهدني إن خانتني زمن	ألا يضاجع أنثى بعد موتاقي
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله	ريب المنون قريباً مذسنيات
فاصرف عتابك عمن ليس يصرفه	عن الوفاء له خلب التحيات ^(٤)

(٣) ولقد يدفعها وفاؤها لزوجها أن تحمس أخاه ليثأر له، وتلومه على تغافله عن القصاص لأخيه، كما فعلت أميمة امرأة عروة بن مرة إذ دخلت على أخيه أبي خراش خويلد بن مرة فرأته يلاعب ابنه، فقالت له: يا أبا خراش، تناسيت عروة، وتركت

(١) جوة الأمثال ١٥٣/٢ وجمع الأمثال ٢٠٦/٢ صداء: بر عذبة لم يكن عندهم أعذب من مائها وفيها يقول ضرار السعدي
ولماني وتهيماني بزيتب كالذي تطلب من أحواض صداء مشرباً
(٢) الأغاني ١٣١/٢ الدار (٣) المحبر ٣٩٦ وأخبار النساء ٦٢ والمستطرف ١٨٥/١
(٤) عيون الأخبار ٣١/٤ وأخبار النساء ٦١

الطلب بثأره ، ولهوت مع ابنك ، أما والله لو كنت المقتول ما غفل عنك ، ولطلب قاتلك حتى يقتله . فبكى أبو خراش ، وقال :

لعمري لقد راعت أميمة طلعتي وأنى ثوائى عندها لقليل
وقالت أراه بعد عروة لاهياً وذلك رزء لو علمت جليل
فلا تحسبي أنى تناسيت فقدته ولكن صبرى يا أميم جميل^(١)

(٤) وإنها لتتفجع على زوجها إذا ما اختطفه المنون ، لأنه سندها قد تقوض ، وأملها الفينان قد صوّح ، وقلبا تصبر على البلوى ، فتذهب تقص شعرها ، وتشمس وجهها ، وتشق جيبيها ، وتلطم خدها ، وتدعو بدعوى الجاهلية . قال طرفة لزوجته :

فإن مت فانعيني بما أنا أهله وشقى على الجيب يابنة معبد^(٢)
وقال ضائب بن الحارث البرجمي :

هممت ولم أفعل ، وكدت وليتني فعلت فكان المعولات حلائله^(٣)

وخشى قيس بن مسعود الشيباني على ابنته أن تفعل ذلك إذا قتل زوجها لقيط بن زرارة أو مات ، فأوصاها فيما أوصى بالألا تشمس وجهها ، ولا تحلق شعرها^(٤) . وقد جزت نساء قريش شعور رؤوسهن حزناً على قتلى بدر^(٥) . وكان بعضهم من المتهجمات يصفقن وجوههن وصدورهن بنعلين ، يدل على ذلك قول عبد مناف بن ربيع الهذلي :

يربع قلب ابنتي ربيع عويلهما لا ترقدان ، ولا يؤسى لمن رقدا
كلتاهما أبطنت أحشاؤها قصباً من بطن حلية لارطباً ولا نقداً
إذا تأوب نوح قامتا معه ضرباً أليماً بسبت يلعج الجلدا^(٦)
ويدل على ذلك أيضاً قول الخنساء في رثاء أخيها معاوية :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق^(٧)

هذه الفجيعة العظمى التي تفجع بها الزوجة ، فتهيجها وتفقدتها رشدها حلت بالمرأة

(١) الأغاني ٤٥/٢١ (٢) ديوان طرفة ٣٥ (٣) حماسة البحري ٥ (٤) العقد الفريد

٢١١/٣ (٥) المغازي ١١٦

(٦) الكامل للمبرد ٢٦٣/٣ ابتنا ربيع : أختاه . قصباً : مزماراً يريد أنها لنواحيهما كأن في جوفهما مزماراً . لارطباً ولا نقداً : ليس القصب رطباً يكتم الصوت ولا متاً كلا يسرع إليه العطب فيخفي الصوت . تأوب نوح : عاودهن نوح في جنح الليل . سبت : نعل . يلعج : يهيج . الجلد : الجلد ، والكلمة بسكون اللام وتحريكها كما في القاموس (٧) لسان العرب ٣٤٥/١١ وديوان الخنساء ١٧٣

اليونانية أيضاً فأحست بأنها أشد وأدهى من فجيرة الأب بابنه والأم بابنها ، قالت أنذروماخ إن مصابها بقتل هكطور أشد من مصاب أبيه وأمه وأقاربه :

جلّ عن واجب التأسي أسا كا ولقد هدّ والديك رداكا
إنما لي فوق الجميع شجاكا^(١)

ولما جاء الإسلام نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو في الحزن ، فقال ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية^(٢) ، وروى عنه أنه يرى من الصالحة والحالقة والشاقة^(٣) .

(٥) وكثيراً ما كانت الزوجة ترثى زوجها ، تصور في رثائها لوعتها وفجيعتها ، وتتحدث عن مآثره في قومه . قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية في رثاء زوجها الجراح إنها تلتذ بالسكاء بدموع غراز تتحدر من جوانب عينيها ، فقد كان ملاذها وتركها بغير ملاذ ، وكان أيباً حمياً تعز به وتحتمى بسلطانته وتمشى مختالة في الناس ، ولكنها اليوم ذليلة تخضع للذليل ، ويعتدى عليها فتضطر إلى أن ترد المعتدى بيدها :

يا عين بكّي عند كل صباح	جودي بأربعة على الجراح
قد كنت لي جبلا ألوذ بظله	فتركتني أضحي بأجرد ضاح
قد كنت ذات حمية ما عشت لي	أمشي البراز وكنت أنت جناحي
فاليوم أخضع للذليل وأتقى	منه وأدفع ظالم بالراح
وأغض من بصرى وأعلم أنه	قد بان حدّ فوارسى ورماحي
وإذا دعت قرية شجنأ لها	يوم أعلّ فن دعوت صباحي ^(٤)

وقد تمثلت السيدة عائشة بهذه الأبيات بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم^(٥) .

وصورت جليلة بنت مرة فجيعتها في زوجها كليب ، ووجيعتها من قتل أخيها جسّاس له ، بقصيدة حارة ، يهمنها منها هنا أن قتل زوجها قوض بيتها ، وهدم أملها ، ورمها فأصمها ، وأحرقها بنار الهم والحزن ، حتى لقد تمت لو أن حياتها كانت فداء لزوجها .

(٣) الألياذة ١١٤٥ (٤) شرح المبدى من مختصر الزبيدي ٣٥/٢ (٥) شرح المبدى ٣٦/٢ الصالفة : الرافعة صوتها في المصيبة . الحالقة : التي تقص شعرها حزناً . الشاقة : التي تشق جيبها حزناً . (١) شرح الحماسة للتبريزي ١٨٩/٢ والأمالى ١/٢ جودي بأربعة : بالموقن واللاحاظين أو بشقون أربعة . دعوت صباحي : قلت واسوء صباحي (٢) الأمالى ١/٢

جَلَّ عِنْدِي فَعَلَ جَسَاسَ فَيَا حَسْرَتِي عَمَّا انْجَلَتْ أَوْ تَنْجَلِي
فَعَلَ جَسَاسَ عَلَيَّ وَجَدِي بِهِ قَاطِعَ ظَهْرِي وَمَدَنٍ أَجَلِي
يَاقْتِيلَا قَوْضَ الدَّهْرِ بِهِ سَقَفَ بَيْتِي جَمِيعاً مِنْ عَلِ
هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثْتَهُ وَانْتَنَى فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ
وَرَمَانِي قَتَلَهُ مِنْ كُشْبِ رَمِيَةِ الْمُصْمَى بِهِ الْمُسْتَأْصَلِ
يَإِنْسَانِي دُونَكَ الْيَوْمَ قَدْ خَصَنِي الدَّهْرُ بَرْزٍ مَعْضَلِ
خَصَنِي قَتَلَ كَلِيبَ بِلَظِي مِنْ وَرَائِي وَلَظِي مِنْ أَسْفَلِ
لَيْتَهُ كَانَ دِمَا فَاحْتَلَبُوا دَرَّأَ مِنْهُ دَمِي مِنْ أَكْحَلِي (١)

أما حديثهن عن شجاعة الزوج ، وبلائته في الحروب ، وسيادته ، وكرمه ومحامده فإنه لا يغيّر ماردده الرجال في مرااثهم ، كرتاء خرنق لزوجها (٢) ، ورتاء الخنساء مرداس السلمي (٣) ، ورتاء دحتنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة (٤) .
ولم تختلف الزوجات المسلمات عن هؤلاء في شيء (٥) ، وسأفصل القول في ذلك في (شعر المرأة) .

تمرّد

ليس من الطبيعي أن يطرد حسن العشرة في النساء جميعاً ، وأن يكن كلهن على طراز من الخلق الكريم ، وإنما الطبيعي أن يتفاوتن في ذلك ، وأن يكون بعضهن جاسيات الطبع ، نابات العشرة .

وقد تحدث الشعر عن هؤلاء أيضاً كما تحدث عن الصالحات .

١ — فالمرأة قد تشغب على زوجها ، كما يقول عامر بن الطفيل إن زوجته أصبحت تلومه على غير ذنب ، وإذا مارد عليها دعوى أتمته بأخرى ، وهذا ضرب من المعاملة لا يرضاه

(١) أشعار النساء مخطوط ٥٠/٣ والوحشيات ١٠٧ مخطوط والكمال لابن الأثير ٢١٦/١ والأغاني ٦٣/٥ الدار ونهاية الأرب ٢١٤/٥ (٢) ديوان خرنق ٣ — ٥ مخطوط وأشعار النساء مخطوط والأمالى ١٥٨/٢ (٣) ديوان الخنساء ١٩٧ وبلاغات النساء ١٦٨ والأغاني ٧٢/١٣ (٤) الشعر والشعراء ٢٧٢ (٥) مثل رتاء عاتكة بنت نفيل لأزواجها الأربعة (الخماسة البصرية ٨٤ مخطوط وحسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة ٢٩٤/١) ورتاء الرباب لزوجها الحسين بن علي (الأغاني ١٥٨/١٤)

على أنه مازال في طبع النساء إلى اليوم — ثم يرى أنه لا خير في صلة وهت أسبابها
وتزايلت عراها :

وقد أصبحت عرسى الغداة تلومنى على غير ذنب هجرها وصدودها
فإني إذا ما قلت : قولى ، فانقضى أتنى بأخرى ، خطة لا أريدها
فلا خير فى ود إذا رث حبله وخير حبال الواصلين جديدها^(١)

ويقول عمرو بن قيسة إن زوجته قد ارتحلت إلى أهلها مغضبة ، وهو راض عن فرقتها
هذه ، بل يدعو عليها بالهلاك ، ويقول إنها قد شغبت عليه ، فلا بد أن يقابل شغبها بمثله ،
فقد جرب معها اللين والدمائة ، فلم تكن لينة ولا دمثة :

فبيني على نجم شخيص نحوسه وأشأم طير الزاجرين سنيحها
فإن تشغبي فالشغب منى سجيته إذا شيمتى لم يؤت منها سجيحها^(٢)

ويتحدث أعشى بنى مازن أوبنى حرماز (الحارث بن قراد بن سفيان) عن شغب زوجته
شاكياً إلى ملك من ملوك العرب ، فيقول إنه خرج يبتغى من خيرات الأرض ، فنازعه
زوجته ، وهربت إلى قومها ، ناكثة بعهدا ، ويختم شكواه بأن النساء شر غالب للرجال :

ياسيد الناس وديان العرب إليك أشكو ذربة من الذرب
خرجت أبغيا الطعام فى رجب تخلفتنى بنزاع وهرب
أخلفت العهد ولطت بالذنب وهن شر غالب لمن غلب^(٣)

٢ — وقد تبرم بفقر زوجها ، ونحن نعلم أن العرب عاشوا كما عاش غيرهم متفاوتي
الفقر والغنى ، وأن الفقر كان أكثر شيوعاً وأوسع دائرة . وكثيراً ما شكوا بعضهم آلام الفقر ،
وضاقوا ببرم الناس بالفقير أو استهانتهم به ، وكثيراً ما شكوا بعضهم تبرم الزوجات بفقر
بعولتهن ، فمثلاً عروة بن الورد يزيده ضجراً أن تجتوى الزوجة زوجها الفقير ، لأن تنكرها
له أشد عليه مرارة من تنكر الناس :

ذرينى للغنى أسعى فإنى رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحققرهم لديهم وإن أمسى له نسب وخير
ويقصى فى الندى وتزدرية حليلته وينهره الصغير^(٤)

(١) ديوان عامر القصيدة ٦ (٢) ديوان عمرو بن قيسة ١٤ شخيص نحوسه : متعدد شؤمه .
سجيج : لين سهل (٣) معجم الشعراء ١٥ الذرية : السليطة اللسان . لطت بالذنب : أصرت على الجذ
في رحلتها وفرقتها (٤) ديوان عروة ٢٠ والبيان والتبيين ١٩٨/١ وشعراء النصرانية ٨٨٨

ويشتد البرم بعبيد بن الأبرص فلا يحفل بفراق زوجته التي قَلَّتْه لفقره ، وأسأت
عشرته له :

تلك عرسي غضبي تريد زبالي ألبين تريد أم لدلال ؟
إن يكن طَبَّكَ الفراقُ فلا أحف ——— ل أن تعطيني صدور الجمال
كنت بيضاء كالمهاة وإذ آتيك نشوان مُرخياً أذبالى
فاتركي مطَّ حاجبيك وعيشي معنا بالرجاء والتَّأمال
زعمت أننى كبرت وأنى قل مالى وضم عنى الموالى (١)

ومنى سعيد بن عمرو بن نفيل زوجته — وقد سألتاه الطلاق لما افتقر — بأن ماله
قد يكثر ، فيقتنى العبيد والخدم والإماء ، ويمتعهما ويكسوهما أنفُس السكسا :

تلك عرساي تنطقان على عم ——— د لى اليوم قول زور وهتر
سالتانى الطلاق أن رأتا ما لى قليلا ، قد جئتماني بُسُكر
فلعلى أن يكثر المال عندى ويعرئ من المغارم ظهري
وتُرى أعبد لنا وإماء ومناصيف من خوادم عشر
وتجراً الأذبال فى نعمة زو ل تقولان: ضِع عصاك لدهر (٢)

ولقد عبست أم حبيش فى وجه زوجها ذى الخرق (خليفة بن حمل بن عامر) وخاصمته ،
لأنه افتقر ، ورأت إبلة مهزولة لا تحمل إلا خرقاً ، وحضته على أن يجهد فى كسب المال :

مابال أم حبيش لا تكلمنا لما افترقنا وقد نُثرى فنتفق
تُقطع الطرف دونى وهى عابسة كما تشاوس فيك الثائر الحق
لما رأت إبلى جاءت حمولتها غرئى عجافاً عليها الريش والخرق
قالت ، ألا تبغى مالا تعيش به عما نلاقى وشر العيشة الرَّمق (٣)

وكذلك حضت تماضر زوجها عروة بن الورد (٤) ، وبذلك تحدث تأبط شرا (٥)
وعبيد (٦) وجابر الطائي (٧)

(١) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/١٩٩ (٢) البيان والتبيين ١/١٩٩ وفى الأغاني
٦٠/١٦ أن الشعر لنبيه بن الحجاج السهمي ، مناصيف : ج منصف وناصف وهو الخادم ، زول : ظريف
(٣) المؤتلف والمختلف ١١٠ وخزانة الأدب ٢٧/١ تشاوس : نظر بمؤخر عينه . غرئى : جياع . الرَّمق
بكسر الميم وفتحها الشئ القليل الذى يحفظ بقية الحياة . (٤) ديوان عروة ٩ (٥) الحماسة البصرية
١٢ مخطوط (٦) البيان والتبيين ١/١٩٩ (٧) شرح الحماسة للمرزوقي ١/٣٠٤

ويظهر أن هذه الخصلة لم تزايل المرأة بعد العصر الجاهلي ، فقد تحدث أعشى همدان عن تبرم زوجته بفقره :

قالت تعاتبني عرسي وتسألني أين الدراهم عنا والدنانير
فقلت أنفقتها والله يخلفها والدهر ذو مرة عسر وتيسير
إن يرزق الله أعدائي فقد رزقت من قبلهم في مراعيها الخنازير
قالت : فرزقك رزق غير متسع وما لديك من الخيرات قطمير
وقد رضيت بأن تحيا على رمق يوما فيوما كما تحيا العصافير (١)

لهذا لما سألت السيدة عائشة رسول الله شيئا من عرض الدنيا زيادة في النفقة أو غيرها (٢) نزل قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجرا عظيما » (٣) ، فعرض ذلك على زوجاته ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة (٤) .
٣ — ولقد تبرم بشبيهه وكبرة سنة ، وقد اتفق علقمة بن عبدة (٥) وأمرؤ القيس (٦) والأعشى (٧) وعنترة (٨) وعبيد بن الأبرص (٩) والأسود بن يعفر (١٠) وغيرهم من شعراء الجاهلية ، ثم كثير من شعراء الإسلام بجران العود النميري وعمر بن أبي ربيعة ، اتفق هؤلاء على أن الشباب والمال — وما يستتبعان من مجد ومحامد ومتعة طبعها — هما وسيلة اجتذاب المرأة ، ونيل إعجابها :

وربما كانت المرأة أكثر بغضة للشيب من الفقر ، لأن الفقر عارض قد يزول ، أما الشيب فإنه وافد لا يبرح ، وتشتد وطأته حيناً بعد حين .
يقول علقمة إنه بصير بنفسية النساء ، عليم بأنهن لا يقبلن على أشيب أو معدم ، وإنما يقبلن على الثرى وعلى الفتى :

فإن تسألوني بالنساء فإنه — في بصير بأدواء النساء طيب — ب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصية — ب

(١) الحيوان للجاحظ ٦٢/٧ (٢) تفسير الطبري ٩٩/٢١ (٣) سورة الأحزاب ٢٨ و ٢٩
(٤) الطبقات الكبير ٤٧/٨ وتفسير الطبري ٩٩/٢١ (٥) ديوان علقمة ٣ و عيون الأخبار ٤٥/٤
وحاسة البحرى ٢٨٩ والعقد الفريد ٣/٢١٨ والمفضليات ١١٩/٢ والشعر والشعراء ٥٩ (٦) ديوان امرئ القيس ٩٨ (٧) ديوان الأعشى ١٥١ ومعجم البلدان ١٣٨/٢ (٨) ديوان عنترة ٥٦
(٩) ديوان عبيد القصيدة ١٣ و ١١٨/٢ (١٠) المفضليات ١١٨/٢

يردن ثراء المال حيث علمته وشرح الشباب عندهن عجيب (١)
وقد أعجب أبو عمرو بن العلاء بهذا الرأي « وقال إن صاحبه أعلم الناس بالنساء (٢)
تحدث الشعراء بكراهية زوجاتهم لشديدهم ، وهرمهم ، فثلاً يقول عبيد بن الأبرص إن
زوجته تعرض عنه ، وتغلظ في مقالها له ، وتمط حاجبها ، لأنها تراه قد كبر :

ألا عبت على اليوم عرسي وقد هبت بلسل تشتكيني
فقلت لي : كبرت ، فقلت هنا لقد أخلفت حيناً بعد حين
تريني آية الإعراض منها وفظت في المقالة بعد لين
ومطت حاجبها أن رأيتي كبرت وأن قد ابيضت قروني (٣)

ويحدثنا المثقب العبدى أو علبة بن زيد بأن زوجته سخرت منه لما رأت شبابه ،
وجفته وهجرته :

تهزأت عرسي واستنكرت شبي ففها جنف وازورار
لا تكثري هزءاً ولا تعجبي فليس بالشيب على المرء عار (٤)

الإسلام يوصي المرأة بزوجها

أقام الإسلام الحياة الزوجية على دعائم من التعاطف والمشاركة القلبية والثقة المتبادلة
والهناة المستطاعة ، وقد أسلفت أن النبي عليه السلاة والسلام كان حفيماً بالزوجات ، يوصي
بهن الرجال خيراً . وهو كذلك طالما أوصى النساء بأزواجهن (٥) ، كقوله : « إذا باتت
المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع » (٦) . وقوله : « انظري أين أنت منه
إنما هو جنتك ونارك » (٧) . وقوله « خدمتك زوجك صدقة » (٨) . وقوله « خير النساء من
تسرك إذا أبصرت ، وتطيعك إذا أمرت ، وتحفظ غيبتك في نفسها ومالك » (٩) .

تعهد الزوجات

وحدة الزوجة

١ — جرى العالم على وحدة الزوجة ، وعلى تعدد الزوجات ، وقديماً اشترط لابان

(١) المفصلات ١٩٢/٢ (٢) العقد الفريد ٢١٨/٣ (٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣ هـ :
تنحى وابعدى (٤) الحماسة البصرية ١٠ مخطوط (٥) كنز العمال ٢٦١/٨ — ٢٦٨ و ٣٠٢ — ٣٠٤
(٦) كنز العمال ٢٦١/٨ (٧) كنز العمال ٢٦١/٨ (٨) كنز العمال ٢٦٧/٨
(٩) كنز العمال ٢٦٧/٨

على يعقوب ألا يقترب من ابنته^(١). وكانت الأسر الشريفة في مصر وبابيلونيا تشترط على الزوج في عقد الزواج ألا يقرب الجوارى والإماء، وفي أوراق البردى التي كشفت عنها في أسوان عقد زواج ينص على تعهد الزوج ألا يقترب بامرأة أخرى غير زوجته، فإن فعل قدم لها غراماً^(٢)، ويذكر ديودور الصقلي أن الكهنة في مصر كانوا يقتصرون على زوجة واحدة، أما سائر الشعب فإنهم كانوا يعددون الزوجات، ويختارون منهن من يشاءون، على أن هيرودوت ذكر من قبله أن المصري كان مثل اليوناني يقتصر على زوجة واحدة^(٣). ومن الممكن أن نرجع هذا التباين إلى أن ديودور جاء بعد هيرودوت بأربعة قرون، فمن المنتظر أن تكون العادات التي شهداها هيرودوت قد اندثرت أو تزعت. وسار الإسبرطيون على نظام آخر، ذلك بأنهم لم يسمحوا للرجل أن يتزوج غير واحدة إلا في ظروف خاصة، ولكنهم أباحوا للمرأة أن تتزوج عدة رجال في وقت واحد، وكانت النساء جميعاً تقريباً يمارسن هذه العادة^(٤).

ولم يستطع الباحثون أن يقرروا أي النظامين كان أسبق: وحدة الزوجة أم تعدد الزوجات؟ فبعضهم يرى أن الزواج بواحدة كان هو الأصل عند آبائنا الأقدمين، وآخرون يخالفون هذه النظرية، ويذهبون إلى أن المجتمع ابتداءً بتعدد الزوجات، ويعزز باخوفن Bachofen هذا الرأي، ويرى أن النساء ثرن على هذا النظام فجذب الرجال إلى وحدة الزوجة^(٥).

٢ - أما العرب فقد اقتصر بعضهم على زوجة واحدة، واشترط بعض الآباء وبعض النساء على الرجل ألا يتزوج بأخرى. يقول عدى بن زيد:

بنات كرام لم يرَ بن بضرّة دُمى شرقاتٍ بالعبير روادعا^(٦)

وجاء في حديث بين العجفاء بنت علقمة وثلاث نسوة قول إحداهن: «خير الرجال الذي يكرم الحرة، ولا يجمع الضرة»^(٧)، ورفضت ماوية بنت عفزر أن تتزوج حاتماً الطائي بعد أن اختارته وآثرته على خاطبها إلا على شرط أن يسرح زوجته، فأبى، فلما ماتت زوجته رضيته وتزوجته^(٨).

(١) سفر التكوين إصحاح ٣١ آية ٥ (٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٣ (٣) الحصار المصرية. لوبون ٧٠ (٤) مركز المرأة في الإسلام ٢٦ وتاريخ اليونان، جرون ١٣٦/٦

(٥) The Psychology of marriage P. 287 walter. m. gallichan

(٦) الأغاني ١٥٠/٢ الدار، روادع: فيهن أثر الطيب

(٧) جمهرة الأمثال ١٦٢ (٨) الأغاني ١٠٤/١١

كذلك استوثقت حُرْقَةُ البلوية من خاطبها مرة بن عوف ألا يتزوج عليها — وكان زوجها لُمْلِيَكَةُ بنت حُصَيْلَةَ المُرِّيَّة — تخلف لها وأغلظ الحلف ألا يتزوج غيرها ، فرضيته ، ثم خرج بها يسير حتى نظرا نيران أهله ، فقالت حرقفة : ما هذه النيران ؟ فقال : أما هاتيك فنار بني وامراتي ، فقالت : أغدرا من أول ليلة ؟ قال : ما غدرت بك ، ولكن غدرت بسواك ^(١)

تعدد الزوجات

١ — كان التعدد وما زال نظاما طبيعيا ، كثيرا ما تلجئ إليه الضرورات ، « وقد ظن رجال الدين في العصور الوسطى أن التعدد نظام ابتكره النبي محمد ابتكاراً لم يسبق إليه » ^(٢) ، ولكنهم مخطئون جد الخطأ ، لأن التعدد أسبق من الإسلام بمئات الأعوام .

١ — ذلك بأن الأمم القديمة كانت تعدد الزوجات ، فالعبريون عدّدوا منذ عهد قديم ^(٣) يدل على ذلك أن التوراة أباحته ، ولم تحدد العدد ، ثم حدد اليهود العدد ^(٤) ، وما روى عن كثرة عدد نساء سليمان ^(٥) ، ثم عدّدوا في عصر متأخر ، ولكنهم اشترطوا على الزوج أن يعدل بين نسائه ، فلا يقبل على واحدة ويعرض عن أخرى . وحدد الربانيون العدد بأربع ، مستدلين بأن يعقوب جمع بين أربع ، وذهب بعض العلماء إلى منع التعدد ، ورأى بعضهم أباحته إذا عقمت المرأة الأولى ^(٦) . وظل اليهود يعددون زوجاتهم في أوروبا إلى القرون الوسطى ، وهم لا يزالون يمارسون التعدد إلى اليوم في العالم الإسلامي ^(٧) .

وكانت تعاليم زرادشت تخول الفرس أن يعددوا زوجاتهم ، وأن يتخذوا الحظايا والحليلات ، لأن الشعوب المحاربة في حاجة دائمة إلى الفتيان ^(٨) . لذلك عدد الفرس ولم يكن عندهم قانون يمنع التعدد أو يحدده ^(٩) .

وقد عدد الرومان ، ويكفي أن نعلم أن الإمبراطور سيلا جمع خمس نساء ، وأن قيصر جمع بين أربع ، وبومبي جمع أربعاً . وأن ملك فرنسا داغوبرت الأول جمع بين ثلاث ^(١٠) .

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٢٠٢/١ (٢) قصة الحضارة ، ول ديورانت ٧٠/١ (٣) حضارة العرب لوبون ٤٨٣ وقصة الحضارة ٧٠/١ (٤) النظم الاجتماعية والسياسة ٦٨ (٥) سفر التثنية أصحاب ١٧ وتاريخ الطبري ٢٦٠/١ (٦) شعار الحضرة ٨٣ (٧) النظم الاجتماعية والسياسة ٦٨ (٨) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ ول ديورانت (٩) مراكز المرأة في الإسلام ٤٤ وحضارة العرب ٤٨٣ (١٠) با كورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام ٧٤ .

أما المسيحيون فقد تحايل بعضهم على الشريعة وعدد ، كالإمبراطور قسطنطين وابنه (١) بل إن الإمبراطور فلافيوس فالنتينيان Flavius Valentinien سن قانوناً يسمح التعدد ، وكان ذلك في منتصف القرن الرابع الميلادي (٢) ، أباح فيه لرعايا الدولة جميعاً أن يتزوجوا عدة زوجات إذا شاءوا . ولم يحتج الأساقفة ورؤساء الكنائس المسيحية . ومارس التعدد البراطرة الذين خلفوا فالنتينيان ، واستمر العمل بقانونه إلى عصر جستنيان ، حيث حرم التعدد ، على أنه لم ينجح في تحريمه ، ولم يكن في هذا التحريم متأثراً بالمسيحية ، لأن أكبر مستشاريه كان غير مسيحي ، لذلك لم يخضع لتحريم التعدد إلا قلة من المفكرين ، أما أكثر الشعب فلم يعيروه طاعة (٣) .

ونحن نعلم أن المنذر بن الحارث بن أبي جبلة الغساني كان بطريقاً وحامياً للكنيسة الشرقية ، ولكنه قد تزوج نساء كثرات ، وكذلك النعمان ملك الحيرة تزوج عدة نساء حتى بعد تنصره ، ويظهر أن الكنيسة لم تكن تبالي ذلك مادام هؤلاء الأمراء غير متزوجين كنسياً إلا بواحدة (٤) . وكان مصرحاً للأثيني أن يتزوج أى عدد من النساء ، حتى لقد افتخر ديموسين بأن في عصمته ثلاث طبقات من النساء ، طبقتان منهما تعتبران الزوجات الشرعيات ، والشبهيات بالشرعيات (٥) .

وقد سبق أن المصريين في عهد ديودور كانوا يعددون ، وكان نبلاؤهم يستمتعون بالإماء وما ملكت اليمن (٦)

على أن شعوباً أخرى كانت تمارس التعدد كالأهندوس القدماء والميديين والبابليين والاشوريين (٧) .

٢ — لا عجب إذاً في أن يعدد العرب في الجاهلية ، وفي أن يشيع هذا النظام بينهم ، فيمارسه من تواتيه ظروفه ، أو تلجئه حاجة ، أو يتوقع منه خيراً . وقد برز الإسلام وفي ثقيف رجال عند كل منهم عشر نسوة . كسعود بن معقب وعروة بن مسعود وسفيان ابن

(١) مركز المرأة في الإسلام للسيد الأمير على ٤٢

(٢) Histoire Des Peps. Tome ... 1.. P.. 255.

(٣) مركز المرأة في الإسلام ٤٢ (٤) أمراء غسان . نولده ٣١ (٥) مركز

المرأة في الإسلام ٢٠ و ٣٦ (٦) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ والحضارة المصرية القديمة . لوبون

٧١ (٧) مركز المرأة في الإسلام ٣٤

عبد الله وأبي عقيل مسعود بن عامر وغيلان بن سلمة ، فلما أسلم غيلان وسفيان وأبو عقيل نزل كل منهم عن ست وأمسك أربعة^(١) ، وكان عند قيس بن الحارث ثمانى نسوة ، وعند نوفل بن معاوية خمس ، فخيرهما النبي في أربع^(٢) ، وقد كان لعبد المطلب بن هاشم ست نسوة ، ولدن له عشرة رجال وست نساء^(٣) ، وكان عند أبي سفيان بن حرب ست ، وعند صفوان بن أمية ست أيضا^(٤) . وكان المغيرة بن شعبه قد تزوج سبعين امرأة^(٥) . وقد ألف أبو الحسن المدائني كتابا فيمن جمع أكثر من أربع^(٦) .

عداء الضرائر

التعدد نظام اجتماعي شائع في الأمم ، لكن شيوعه لم يكن كفيلا ، وإن يكون كفيلا بالتخفيف من تباعد الضرائر وتحاسدهن ، لهذا كانت الزوجة تفجع بالضرة ، وكان بعض النساء يشترطن على الزوج ألا يضارهن بأخرى كما سبق .

وكان عداء الضرائر معهودا معلوما ، حتى إن بنت مرة بن عاهان لما قتلتها باهلة لم تجد ما تشبه به ما بينهم وبين باهلة من بغضة إلا داء الضرائر :

إنا وباهلة بن أعصر بيننا داء الضرائر بغضة وتناف^(٧)

وكانت المودة لا تصفو بين ضربتين ، وكثيراً ما تشغب الأولى ، فثلا كانت الورثة بنت ثعلبة زوجة لذهل بن شيبان ، وكان كلما تزوج امرأة شارتها الورثة وضربتها وأجلتها ، فلما تزوج رقاش بنت عمرو تحرشت بها الورثة ، ثم وثبت عليها لتضربها ، فأمسكتها رقاش وغلبتها ، فقالت الورثة .

يا ويح نفسي اليوم أدركني الكبر أبكى على نفسي العشية أو أذر

فوالله لو أدركت في بقية للاقيت ما لاقى صواحبيك الآخر^(٨)

على أن الأزواج كانوا أحيانا يؤدبون زوجاتهم بالضرائر ، ويعاقبنهن بالتعدد ، يدل على ذلك قول الطهوى :

(١) الخبر ٣٥٧ وجمع الأمثال للميداني ٣٥/١ (٢) عيون المسائل ٥٦ (٣) سيرة ابن هشام ١١٩/١ (٤) الإصابة ١٣٩/٨ (٥) كثر العمال ٢٨٨/٨ وفي الأغاني ١٣٧/١٤ أنه تزوج ثمانين أو تسعا وثمانين أو ثلاثا وتسعين (٦) معجم الأدباء ١٣٣/١٤ والفهرست ١٠٢ (٧) طهارة العرب ٣٢ باهلة . قبيلة (٨) أمثال العرب للضبي ٥٥ وجمع الأمثال للميداني ٩٩/١

لقد خشيت أن يقوم قابرى ولم تمارسك من الضرائر
ذات شذاة جمّة الصراصر حتى إذا جرس كل طائر (١)
قامت تعنّط بك سمع الحاضر تُصرُّ إصرار العقاب الكاسر

ثم إن المرأة تحدثت بغيرتها في غير مواربة ، من ذلك أن ليلي بنت الخطيم وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقبل ، ثم عادت إلى قومها تخبرهم ، فقالوا : أنت امرأة غيرى ، وهو صاحب نساء ، ارجعى فاستقبله ، فرجعت وقالت : إنك نبي الله وقد أحل لك النساء ، وأنا امرأة طويلة اللسان ، لا صبر لى على الضرائر ، فأقالها (٢) . ولما خطب النبي هند بنت أبى أمية القرشية المخزومية قالت له : فى خلال ثلاث : أنا كبيرة السن ، وأنا امرأة معيلة ، وأنا امرأة شديدة الغيرة . فقال : أنا أكبر منك سنّاً ، وأما العيال فإلى الله ، وأما الغيرة فأدعو الله فيذهبها عنك . وتزوجها (٣) .

ولم يكن الإسلام والتدين بقدير على أن يحتث من المرأة غيرتها ، ومن الشطط أن تتطلب منه ذلك ، وإلا فما بال عائشة أم المؤمنين كانت غيرى شديدة الغيرة ؟ كانت تظهر غيرتها فيما تقول وفيما تعمل (٤) . من ذلك قولها : دخل على رسول الله فقلت : أين كنت ؟ قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة ، فقلت : ما تشبع من أم سلمة ، فتبسم . فقلت : ألا تخبرنى عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت ، أيتهما كنت ترعى ؟ قال : التى لم ترع . قالت : فأنا لیس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل ، غيرى . فتبسم رسول الله (٥) .

وكانت تغار حتى من ضررتها المتوفاة ، التى توفيت قبل أن تكون هى زوجة ، ذلك بأن النبي كان عظيم الوفاء والحب للسيدة خديجة ولذكراها ، وكانت السيدة عائشة تغار من ذلك ، قالت : « ما غرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة ، لكثرة ذكر رسول الله إياها وثنائه عليها » (٦) . ولم تضبط غيرتها يوماً ، وقد سمعت الرسول يكثر من ذكر خديجة ويطريها ، فقالت : هل كانت إلا عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها ،

(١) ظهارة العرب ٣٢ ذات شذاة ، ذات خصومة وحدة . جة الصراصر : الصراصر جمع صرصرة وهى الصوت الشديد ، والمراد صخابة جبهة بالسوء من القول . جرس : صوت والمراد الصباح الباكر . تعنّطى : تذكرك بالفحش لتسمع الحى . تصر : تنصب أذنّها للاستماع .

(٢) الإصابة ١٨١/٨ (٣) الإصابة ٢٠٣/٨ والطبقات ٦٣/٨ (٤) أخبار النساء ٩ وعيون الأخبار ١٩/٤ (٥) الطبقات ٥٥/٨ وفتح المدي ، ج ٣ (٦) فتح البارى ٢٨٥/٩

فغضب وقال : والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس . . . قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئة أبداً (١) .

وقد اتفقت عائشة وسودة وصفية — حين علمن أن النبي مكث عند حفصة أطول مما كان يمكث وشرب عندها عسلا — على أن يدعين أن في فم النبي رائحة مغافر فآلى ألا يذوق الغسل (٢) فنزل قوله تعالى : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » (٣) وسواء أكان هذا هو السبب في نزول الآية أم كان السبب أن النبي خلا بجاريته مارية في يوم حفصة ببيتها أو في يوم عائشة ، فما زالت به حتى حلف ألا يقربها (٤) ، سواء أكان هذا أم ذلك ، فإن الغيرة محققة في الحاليين ، لأنهن أردن تبغيض عسل صفية إلى النبي ، فزعمن أنه مغافر (٥) ، أو أردن الحيلولة بينه وبين جاريته مارية .

وربما كان الرجل يبرع في حيلة لطيفة يطبق بها جدوة من الغيرة ، كما فعل عبد الله ابن رواحة ، ذلك بأنه أصاب جارية له ، فسمعت به امرأته ، فأخذت شفرة وأتته فقالت : أفعلتها يا ابن رواحة ؟ قال ما فعلت شيئا . فقالت : لتقرأن قرآنا وإلا بعجتك بها . قال : ففكرت في قراءة القرآن ، وأنا جنب فهبت ذلك ، وهي امرأة غيرة وفي يدها شفرة : لا آمن أن تأتي بما قالت ، فقلت :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يحافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

فلما سمعت ألفت السكين ، وقالت . آمنت بالله وكذبت البصر ، ثم أتيت النبي فأخبرته بذلك ، فضحك ، وأعجبته ما صنعت (٦) .

على أن بعض الرجال في الإسلام كان يتحاشى هذه الحياة المشوبة ، من هؤلاء أعرابي شاعر يصور في أسلوب فكاهة بلواه من زواج أثنتين ، ويوصى بالعزوبة .

(١) أسد الغابة ٤٣٨/٥ والاستيعاب ٧٤١/٢ (٢) الطبقات ٥٩/٨ وتفسير الطبري ١٠٢/٢٨

وتفسير النيسابوري ٩٩/٢٨

(٣) التحريم ١ (٤) تفسير الطبري ١٠٠/٢٨ والنيسابوري ٩٩/٢٨ والجلالين ٤٧٦

(٥) المغافر : شيء ينضحه الثمام والعشر والعرفط مثل الصمغ وهو حلو كالعسل يؤكل ولكن له رائحة

كريمة (القاموس مادة غفر وغثر وتفسير النيسابوري ٩٩/٢٨) (٦) أخبار النساء ٤٤

تزوجت اثنتين لفرط جهلى
فقلت أصير بينهما خروفا
فصرت كنعجة تضجى وتمسى
رضا هذى يهيج سخط هذى
وألقي فى المعيشة كل شر
لهذى ليلة ولتلك أخرى
فإن أحببت أن تبقى كريماً
فعش عزباً فإن لم تستطعه
بما يشقى به زوج اثنتين
أنعم بين أكرم نعجتين
تداول بين أخبت ذئبتين
فما أعرى من إحدى السخطتين
كذلك الضر بين الضرتين
عتاب دائم فى الليلتين
من الخيرات مملوء اليدين
فضرباً فى عراض الجحفلين (١)

هل فى التعدد منقصة للمرأة؟

عرفنا أن الأمم كانت تمارس تعدد الزوجات ، وأنه لم يكن مقصوراً على عرب الجاهلية ، ولم يكن بدعة إسلامية ، بل إن الاسلام حدد العدد المطلق ، وأوصى بالمعدلة بين الزوجات . وقد ظهر لكثير من الباحثين والمؤرخين وعلماء الاتنوجرافيا كالأستاذة وستر مارك وهوبوز وهيلير وجنسبرج (Westermarck, Hoboose, Wheeler and Gensberg) أن هذا النظام لم يبد فى صورة واضحة إلا فى الشعوب المتقدمة فى الحضارة ، وأنه قليل الانتشار أو معدوم فى الشعوب البدائية المتأخرة (٢) .

ويعزز لوى Lowie ذلك بقوله فى تحليله العوامل النفسية لتعدد الزوجات : إن هذا النظام ليس دليلاً على انحطاط المرأة ، أو على الشعور بضعفها ومهانتها ، وليس الدافع اليه الانغماس فى الشهوة والتهالك عليها ، إذ قد يحدث أن تدفع المرأة زوجها إلى الاقتران بأخرى ، لشدة رغبتها فى طرح جزء من أعباء واجباتها المنزلية على عاتق امرأة أخرى ، وقد يكون الدافع اليه الرغبة الطبيعية فى النسل وكثرة الذرية (٣) .

وكذلك يذهب جستاف لوبون إلى أنه نظام حسن ، يرفع المستوى الأخلاقى فى الأمم التى تدين به ، ويزيد الأسر ارتباطاً ، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تجدهما فى أوروبا (٤) .

(١) الأماي ٣٥/٢ وسمط الآلى ٦٦٩/٢ ضرباً فى عراض الجحفلين : تعرض للموت والاستشهاده .

(٢) الأسرة والمجتمع ٨٢ (٣) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٤

(٤) حضارة العرب . لوبون ٨٣ :

ويرد منسينور لوروا على الذين ذهبوا إلى أن التعدد أثر للاختلاط بين الرجال والنساء بأنه قد استيقن أن هذا الاختلاط ليس له أثر في أية ناحية من إفريقية - حيث يكثر التعدد - إلا في قطعان البقر الوحش ، ويؤكد أن تعدد الزوجات ليس نتيجة لحياة بدائية همجية كما يزعم الماديون ، وإنما هو أثر لحضارة قديمة غربت شمسها ^(١) .

وليس من موضوعي أن أبسط حكمة التعدد والأحوال التي تلجئ اليه ، وحسبي أن التعدد ليس دليلاً على مهانة المرأة ، لأخلص من ذلك إلى أن العرب لم يكونوا شعباً همجياً بدائياً ، وأن المرأة العربية لم تكن مهينة القدر .

وإذا فقد بطلت دعوى انحطاط المرأة العربية التي اعتمد القائلون بها على تعدد الزوجات . وإني لأسأل : أيها أدل على ضعة المرأة في نظر زوجها ، وضعته هو في نفسه ، أن يتزوج أخرى أو أخريات زواجا متعارفا عليه معلوما للناس أم يتخون نفسه ورجولته وزوجته فيجعل يخادن غيرها من النساء ؟

إن الرجل الغربي لا يكاد يقتصر على زوجة واحدة ، بل يُخالّ غير زوجته ، ولقد تضطر هي أيضاً إلى أن تخال غيره ، وفي هذا فساد وضلال وانحلال ، لذلك آثر كثير من مفكرهم نظام التعدد .

« وإن رجال الأكايروس أنفسهم كانوا يتخذون أكثر من زوجة ، شرعية أو غير شرعية ، على الرغم مما تقتضيه قداساتهم » ^(٢) .

ثم إن الإسلام راعى الأحوال التي قد تلجئ إلى التعدد ، فأقره في حدود معلومة ، وجعل الحد الأقصى أربع نسوة ، وأوجب العدل بينهن ، وما من شك في أن الإسلام كان يحذب على النساء ويرفع من قدرهن ، فلو أن التعدد منقصة للبرأة لحظره الإسلام حظراً كما حظر الزيادة على أربع . وقد جهل بعض أعداء الإسلام هذا كله ، فزعموا أن النبي هو الذي أباح تعدد الزوجات ليستجاب الرجال إلى دينه ، بل زعم بيرون أنه أراد بذلك استمالة الرجال والنساء . وبلغ من تعصب رينان في كتابه (ابن رشد) أن وصف الإسلام بأنه دين الخنازير والقوم المنهمكين في الشهوات . وزعم الأب بروغلي أن تعدد الزوجات نتيجة للإسلام ^(٣) .

(١) Monseigneur Leory. La Reeligion des Primitifs. P. 95

(٢) مراكز المرأة في الإسلام ٣٩ (٢) الإسلام . الكونت هنري دي كاستري . ترجمة أحمد

فتحي زغلول ٥٢

ويحسبنا في الرد على هؤلاء أنهم يجهلون ما كان قبل الإسلام عند العرب وعند غيرهم من الأمم ، وأنهم يجهلون أو يتجاهلون ما أضفى الإسلام على المرأة من رعاية وتقدير . وقد اعترف كثير من الغربيين بفضل الإسلام على المرأة ، يقول مسيو ريفيل : إننا لا نجد عملاً أفاد النساء ورفع من قدرهن أعظم مما أتى به النبي محمد ، فهن مديونات له بأمور كثيرة ، وفي القرآن آيات ساميات في تقرير حقوقهن ، وما يجب لهن على الرجال (١) .

أنكحة الجاهلية

قلت فيما سبق إن الرجل كان يخطب المرأة إلى نفسها أو إلى وليها ، فيجاب أو يرفض ، فإذا أجيب إلى طلبه مهر زوجته ، ثم جمع من قومه وجمع ولي الزوجة من قومها ، واحتفلوا بهذا الزواج ، فهو إذاً زواج قائم على الإيجاب والقبول ، وهو الضرب الذي كان شائعاً في العرب ، وجاء الإسلام فأقره .

على أنهم كانوا يعرفون ضرباً أخرى من اتصال الرجل بالمرأة ، ذكرت السيدة عائشة أربعة منها ، لعلها كانت أكثرها شهرة .

قالت : إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء (٢) .

١ — « فنكاح منها نكاح الناس اليوم — في الإسلام — يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها » . وقد أقر الإسلام هذا النوع ، وكان قد ساد وعم في آخر العصر الجاهلي وصار هو القاعدة ، حتى إن المرأة إذا ولدت عن الدعارة أو نكاح الرهط نسب وليدها إلى شخص واحد (٣) . وليس بعجيب أن يوافق الإسلام ما أطبق عليه عرب الجاهلية من نظام يكفل للمرأة صيانة ومعزة ، ويصون الأسرة شرفها واستقرارها ، لأن الإسلام أقر كثيراً مما تعارفوا عليه من صالح العمل وطيبه ، فمثلاً كانوا يقطعون يد السارق اليمنى ، ويصلبون قاطع الطريق ، يقول مالك بن عميلة — في ملبح ومدرک بن عوف وكانا قد سرقا حلي الكعبة في الجاهلية — يخاطب حميد بن زهير بن عم ملبح :

تمنى حميد أنه كان حيمضةً ليالى بانث من ملبح أصابعه
ليالى بانث كف من ذراعاه فأصبح لا يدنو لقرن ينارعه

(١) المرجع السابق ٢٨ (٢) فتح الباری ١٥٨/٩ وإنسان العيون ٤٧/١ والاعتصام

للشاطبي ١٨٤/٢ (٣) Muslem Law P. 24

وَدِرْوَاسَ مَخْزُومَ تَرْكُنَا مَجْدَلًا بِمَا قَدَمْتَ أَظْفَارَهُ وَأَشْأَجُهُ
فَأَمْسَى تَلِيلًا لِلْسَبَاعِ تَنْوِبُهُ تَسِيلُ دِمَا آرَابِهِ وَكَرَاسُوعُهُ (١)
وَكَانُوا لَا يَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ ، فَإِنْ حَارَثَتْهُ بَنُ أَوْسِ الْكَلْبِيِّ يَقُولُ :
لَا آكُلُ الْمَيْتَةَ مَا عُمِّرَتْ نَفْسِي وَإِنْ بَرِحَ إِمْلَاقِي (٢)

وبما دعا إليه الاسلام وكانوا يمارسونه : المضمضة والاستنشاق والسواك وقص
الشارب والختان والاستنجاء وتقليم الأظفار الخ (٣) ، وسرى أنهم كانوا يحرمون الأمهات
والبنات والأخوات والعلمات والحالات ، ويكرهون الجمع بين أختين ، والزواج بامرأة الأب .
وإذا ما عرفنا أن هذا الضرب من الزواج كان هو الشائع عند العرب في الجاهلية ،
وأن الرجل كان يدفع مهرًا للزوجة ، كان لنا أن نحكم بأنهم لم يكونوا همجا أو متأخرين في
نظمهم الأسرية عن الأمم المتحضرة التي عاصروها . ذلك بأن الزواج مر بمراحل ثلاث :
الاختطاف والشراء ، والعقد ، وكان العقد عملاً تقديرياً للمرأة ، وفي بعض الأحيان كان
يقدم لها مهر ، وقد جرى عليه اليونان والرومان (٤) .

٢ — « ونكاح الآخر — الصنف الآخر — كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت
من طمثها : أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين
حملها من ذلك الرجل ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في
نجابة الولد » .

وهذا الضرب لم يكن يتعارض مع النسب إلى الأب ، لأن الوليد ينسب إليه « وهو
يخالف نظام تعدد الأزواج للزوج ، لأن الولد في هذا النظام يتبع أمه » (٥) .
وقد سبق في الموازنة بين العربية وغيرها أن كثيراً من الأمم كانت تزاول نكاح
الاستبضاع ، فأفلاطون قد ذهب إلى شيوعية النساء بين الرجال ، وبخاصة الحكام ، فلا يخص
أحد نفسه بإحداهن ، والنسل الناتج مجهول النسب وملك للدولة ، فلا يعرف والد ولده ،
ولا مولود أباه (٦) .

(١) المحبر ٣٢٨ درواس : لقب مدرك بن عوف . كان حيضة لم يولد . الأشاجع : أصول الأصابع
في الكف . تليل : ملق على عنقه وخده . آرابه . أجزاء يده المقطوعة . كراسعه : جمع كرسوع وهو
طرف الزند الذي يلي الخنصر (٢) المحبر لابن حبيب ٣٢٩ (٣) المحبر ٣٢٩

(٤) The Psychology of Marriage P. 238 waltee M gallichan

(٥) (٦) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و١٣١ — ١٣٥ Muslem Law P. 22

وليكورغ مشرع إسبرطة أباح شيوخ النساء ، وسمح للزوجة أن تبيع نفسها لصاحبها بإذن زوجها ، وأباح للزوج أن يدفع زوجته للاستبضاع من آخر ، على أن يكون الولد للزوج^(١) . وأباح شريعة سولون للمرأة أن تستبضع من غير زوجها إذا عجز عن مباشرتها^(٢) . وقد أقرت شريعة مانو نظام الاستبضاع عند الهنود ، لأنها كانت تعد العقم كارثة ، وكانت تحض على الإكثار من النسل ولا سيما الذكور « ولذا تداركت العقم بطريقتين : الأولى أن يزوج الرجل -- الذى عقم -- ابنته ، على أن يكون مولودها الذكر ابناً له ، والثانية أنها أوجبت على الرجل العقيم أن يستولد امرأته من أحد إخوانه أو أقاربه »^(٣) . وذكر العالم الألماني جريم Grimm عن الجرمان القدماء أنهم كانوا يتوخون من الزواج الحصول على وارث شرعى ، حتى إنه كان يحق للرجل أن يطلق امرأته إذا ما تحقق عقمها ، ويأخذ غيرها من غير معارضة^(٤) ، وذكر أن الرجل العاجز عن المباشرة الزوجية كان يجب عليه - مادامت زوجته راضية عنه - أن يحملها على ظهره ، وينقلها إلى رجل آخر يرضيها^(٥) . وقد ورد فى بعض القصائد القديمة عن القديسة اليسانبات أن أحد فرسان تورنغ لما استوثق من عجزه عن إنجاب وارث له مثل أمام الأمير لودفج زوج اليسانبات ، وطلب منه أن يطاء امرأته^(٦) ، ويذهب ولكن إلى أن هذه العادة التى كان يزاولها بعض العرب تختلف عما كان عند بعض الشعوب ، « ذلك أنه كان يحق للمرأة نفسها أن يستمتع بها غير زوجها إذا لم تنجب من زوجها أولاداً »^(٧) .

أريد أن أعتمد على شيوع هذا النوع من الخلط الجنسى بين شعوب شتى لأخلص إلى أنه لم يقتصر على العرب كما كان يزعم .

على أنه ضرب شاذ نادر يتنافى والأخلاق العربية من غيرة وحمية ونخوة واعتداد بالنفس ونفار بعفة الزوجة ، فلا يلجأ إليه إلا رجل عاجز عن مباشرة زوجته ، أو فسل ساقط المروءة . وإذا فليس دليلاً على مهانة المرأة العربية .

وقد سجل النمر بن تولب - الشاعر المخضرم - هذا النوع ، ذلك أنه كان للقمان بن عاد أخت محمقة ، وكذلك كان زوجها ، فتالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلة طهرى ، وهى ليلتك

(١) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة فى التاريخ والشرائع ٧٣ (٢) الأمومة عند العرب ٢٦

والمرأة فى التاريخ والشرائع ٧٣ (٣) Question feminine. Rosler. P. 143

(٤) الأمومة عند العرب ٢٥ (٥) الأمومة عند العرب ٢٦ (٦) الأمومة عند العرب ٢٥

(٧) الأمومة عند العرب ٢٥

فدعيني أنام في مضجعك ، فإن لقمان رجل منجب ، فعسى أن يقع على فأنجب ، فوقع على أخته
فحملت بُلقيم ، فهو قول النمر بن تولب :

لقيم بن لقمان من أخته فكان ابن أخت له وابننا
ليالى حمق فاستحصنت عليه فغر بها مظلمها
فأحبها رجل محكم فجاءت به رجلا محكما^(١)

٣ — « ونكاح آخر ، يجتمع الرهط ، دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ،
فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن
ي تمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، إني ولدت فهو ابنك
يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه ، فيالحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل » .
وهذا النوع هو نكاح المشاركة أو نكاح الرهط ، وهو الذى ذكره سترابون عن أهل
اليمن ، وقد أسلفت قوله والرد عليه فى نسب الولد إلى أمه .

على أن هذا الضرب من الاتصال الجنسى نظام اجتماعى بدائى كان فاشيا بين الساميين
القدماء ، وربما كان دخيلا على العرب من الفرس زمن حكمهم لليمن ، وتسلبهم على الحيرة ،
لأنهم كانوا يمارسون الإباحة الجنسية فى عهد الساسانيين ولاسيما جماعة المانويين ، وربما طرأ
على العرب من شرق إفريقيا ، لأن بعض القبائل كانت تتبع هذا النظام هناك ، وما زالت
تدين به^(٢) ، وقد حدث هيرودوت عن بعض الحبش المقيمين على سطح البحر الأحمر أن
النساء عندهم مشتركة ، ومتى كبر الأولاد أعطى كل من الرجال ماشابهه من الأولاد^(٣) .
وكان تعدد الرجال للمرأة الواحدة شائعا فى العصور القديمة^(٤) ، وما زال النائر - أعيان
الملابار فى الهند - يجرون عليه ، كما ذكر باخوفين Bachofin فى كتابه (آراء القدماء فى
القرابة)^(٥) .

لم يشع هذا النوع فى العرب ، ولم يتعد قلة منهم ، وإن ادعى بعض الباحثين أن الشيوعية
فى النساء كانت نظاما شائعا بين العرب ، وقد رددت عليهم فى النسب إلى الأم . ومن
التعسف بل من الخطأ الفاحش أن نعتسف الشيوعية من قول عنزة :

(١) الحيوان لأجاحظ ٢١/١ طبعة هارون والبيان والتبيين ١٨٤/١ مظلم : فى الظلام

(٢) الأنظم الاجتماعية والسياسية ١٦ (٣) الأمومة عند العرب ٣٣ (٤) Studies in Ancient

History. mac Lennan P. 276 (٥) الأمومة عند العرب ٢٨

إن الرجال لهم إليك وسيلة وابن النعامة يوم ذلك مركبي^(١)
 ٤ — « والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها
 وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لمن أرادهن ليدخل عليهن ، فإذا حملت
 إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ،
 فالتاطته به ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك . فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هدم نكاح
 الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم » وهذا النوع كان محصورا في الإمام وسأعرض له بتفصيل
 عند الكلام على الإمام .

٥ — على أن السيدة عائشة لم تذكر نكاح المتعة ، وربما أغفلته لأنه يشبه النكاح العام ، غير أنه
 محدود الأجل . وكان العرب يعرفونه ويمارسونه ، وأباحه النبي في بعض غزواته ثم حرّمه^(٢) .
 وإليه يشير عمر بن قعاس المرادى بقوله :

ألا رجل جزاه الله خيرا يدل على محصّلة تبیت
 ترجّل لمّتی وتقمّ بیّتی وأعطیها الإتاوة إن رضیت^(٣)
 وكان اليهود يمارسون نكاح المتعة ، ثم نهى الكتاب عنه^(٤) .

٦ — ولم تذكر نكاح الشغار ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه زواج فردى كالزواج العام
 إلا أنه لا مهر فيه ، وهو أن يزوج الرجل ابنته أو موليته لآخر على أن يزوجه الآخر
 ابنته أو موليته ، ولا صداق فيه لكليهما . وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم^(٥) ، وقال
 ببطلانه كثير من الفقهاء ، وصححه الحنفية ، ولكنهم قالوا بفساد التسمية ، وأوجبوا مهر
 المثل^(٦) ، وهذا النوع من الزواج كان معروفاً عند الأمم السامية قديماً^(٧) ، ولا تزال له
 بقايا في كثير من الأمم المتمدينة^(٨) .

(١) ديوان عنتره ٢٠ ابن النعامة ، فرسه

(٢) فتح الباری ١٠٢/٩ و ١٤٤ — ١٤٩ و ١٨٢ و ٣٦٩/٧ وصحيح مسلم ١٣٠/٤ —
 ١٣٥ والمبسوط ١٥٢/٦ وتفسير الطبري ٨/٥ والكشاف ٢٠٠/١ وروح المعاني ٦/٥ والسنن
 الكبرى ٢٠٠/٧ — ٢٠٢ (٣) خزائن الأدب ٢٤٦/٢ أنشد الأزهري هذا البيت وما بعده في
 التهذيب بفتح صاد محصّلة وقال : هما لأعرابي أراد أن يتزوج امرأة بمتعة . وفي لسان العرب مادة حصل
 أن المحصّلة بكسر الصاد هي التي تحصل تراب المعدن أو التي تميز الذهب من الفضة ، وذكر البيهقي وقال إن
 الأزهري قال تبیت أي تبیتني عندها لأجامعها ، والجوهري قال تبیت تفعل كذا . والذي أراه أن الكلمة
 بكسر الصاد والشاعر يريد أنها خبيرة بالرجال فهي تميزه وتؤثره (٤) شعار الحضر ١٠١ (٥) السنن
 الكبرى للبيهقي ١٩٩/٧ (٦) فتح الباری ١٤٠/٩ والمبسوط ١٠٥/٥ (٧) النظم الاجتماعية ٤٠
 (٨) الأسرة والمجتمع ١١٤

الحرمات في الجاهلية والإسلام

١ — حرم العرب على أنفسهم أنواعاً من الألفارب . ثم جاء الإسلام فأقر هذا التحريم . كانوا لا ينكحون الأمهات والبنات والأخوات والعلمات والخالات^(١) ، وذهب ابن عباس وغيره إلى أنهم كانوا يحرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب ، والجمع بين الاختين^(٢) . وقد تباعد أهل مكة في المناكح عن البنت . وبنت البنت والأخت وبنت الأخت وغيره ونفورا من المجوسية ، ونزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم^(٣) . ولا شك أنهم بهذا التحريم سموا على كثير من الشعوب القديمة ، لأن زواج الأخت الشقيقة كان مباحاً عند الآشوريين والفرس والمصريين ، فقد تزوج بطليموس فيلادلفيوس شقيقته — في مصر — وتزوج قميز شقيقته — في فارس — وجاء في كتاب زرادشت أن اقتراناً كهذا من أفضل القرب . وما زال المجوس إلى اليوم على آثار أجدادهم . وكان الإسبرطيون يديحون زواج الأخت لأم^(٤) .

أما زواج الأخت لأب فقد كان مباحاً في كثير من الشعوب المتحضرة القديمة كالعبريين واليونان والفينيقيين وبعض شعوب الصقالية^(٥)

وقد تزوج الملك اليهودي هيرو دأخته هيرودية وزوجها لا يزال على قيد الحياة ولم يرتض يوحنا المعمدان هذا الزواج ، فندد بالملك وبأخته تنديداً ، وأمره بتطبيقها فراراً من غضب الله ، لكن هيرو د استجاب له بأن قتله^(٦)

وكان الفراعنة والبطالسة يتزوجون الأخوات على الإطلاق^(٧)

أما زواج البنت فقد جرى عليه الفرس والميديون^(٨)

وكان العبرانيون يتزوجون بنات الأخ ، يدل على ذلك أن عيسى عليه السلام بعث يحيى بن زكريا في اثني عشر حوارياً يعلمون الناس ، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ^(٩) .

(١) الملل والنحل على هامش الفصل ٢٣١/٣ وبلوغ الأرب للعطار ٣١ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ٩٩/١ (٢) تفسير الطبري ٢١٧/٤ — ٢١٩ وروح المعاني ٢٦١/٤ (٣) معجم البلدان ١٣٧/٨ (٤) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٨/٩ (٥) قصة الحضارة ٧٣/١ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ والأسرة والمجتمع ٤٧ (٦) عبقرية المسيح . العقاد ١١٥ (٧) الأسرة والمجتمع ٤٧ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ وقصة الحضارة ٧٣/١ (٨) المرأة في التاريخ والفرائع ١٧ والأسرة والمجتمع ٤٧ (٩) تاريخ الطبري ١٣/٢

لكن ذلك مازال قائماً ، لأن طائفة الربانيين (الربائيم) وهم سواد اليهود يبيحون زواج الرجل بابنه أخيه وابنة أخته وابنة امرأة أبيه . والسامرة والقراءون يمنعون ذلك ^(١) . أما نكاح زوجة الأب فإن العرب لم يحرموه ، بدليل قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف » ^(٢) والآية تعني رجالاً خلفوا آباءهم على أزواجهم ^(٣) وقد سجل ذلك عمرو بن معد يكرب إذ قال في زوجته التي خلف أباه عليها :

فلولا إخوتي وبني منها ملأت لها بذي شطب يميني
لصلصلة اللجام برأس طرف أحب إلي من أن تنكحني ^(٤)

ولما جاء الإسلام حظر نكاح امرأة الأب ، وفسخ زيجات أربعاً كانت قائمة ^(٥)

على أن العرب كانوا يمتنون هذا النوع ، ويسمون المولود عليه المقتى ، ومن ثم قال تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » كأنه قال فاحشة في دين الله بالغية في القبح ، فبيح بمقوت في المروءة ^(٦) ، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته الضيزن ، ويتهمون به بأنه فارسي يدين بالمجوسية ، قال أوس بن حجر .

والفارسية فيكم غير منكرة فكلكم لأبيه ضيزن سلف ^(٧)

ولم يكن هذا النوع شائعاً إذا ، لأن أحق شخص بامرأة المتوفى ابن زوجها الأكبر ، وقبلها يقدم عليه لقبه .

وقد ظلت زيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، ذلك أن منظور بن زبآن كان قد تزوج امرأة أبيه ، ولم تزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما ، وقال :

لعمري أبي دين يفرق بيننا وبينك قسراً إنه لعظيم
وهجاه حجر بن معاوية بقوله :

لبئس ما خلف الآباء بعدهم في الأمهات عجان الكلب منظور

قد كنت تغمزها والشيخ حاضرها فالآن أنت بطول الغمز معذور ^(٨)

(١) العقائد عمر عنایت ٨٠ — ٨٢ (٢) سورة النساء ٢٢ (٣) تفسير الطبري ٢١٧/٤
(٤) لسان العرب مادة نكح (٥) الإصابة ٨/٤٤ والمعارف ٣٧ و ٥٠ والأغانى ١٢٣/٣ و ١٧/١
والمثل والنحل ٢٣٢/٣ وأسد الغابة ٢/٢٣٨ والروض الأنف ١/١٤٦ والمخير ٣٢٥ والكشاف
١٩٧/١ وإنسان العيون ١/٤٤ والمبسوط ٤/١٩٨ وروح المعاني ٤/٧٠١ والمستطرف ٢/٧٢
ومعجم البلدان ٨/١٣٧ (٦) الكشاف ١/١٩٧ (٧) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ١٧/١٢٢
(٨) الأغاني ١١/٥٣

كذلك لم يحرم العرب الجمع بين الأختين بدليل قوله تعالى « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف » .

وقد ألف أبو الحسن المدائني كتاباً فيمن جمع بين أختين^(١) وبعضهم أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه ، ثم حرمه الإسلام^(٢) وإن بقي أثره إلى عهد عمر ، فقد فرق بين أختين عند رجل من جذام ، حلف أنه لا يعلم أن الإسلام حرم الجمع بين الأختين^(٣) .
على أن العرب لم ينفردوا بهذا الضرب ، فقد كان العبريون يجمعون بين الأختين كما جمع يعقوب بن إسحق بنتي خاله لبان : راحيل وليا ، وأنجبتا له ، وكان الناس يومئذ يفعلون ذلك إلى أن بعث موسى عليه السلام ، وأنزلت عليه التوراة^(٤)

٢ — وإذا فقد كان العرب يحرمون ما حرم الإسلام في قوله تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم »^(٥)

وزاد الإسلام تحريم امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، وبين المحارم مطلقاً ، فقد نهى رسول الله أن تنكح المرأة على عمتها أو العمة على بنت أخيها ، والمرأة على خالتها ، أو الخالة على بنت أختها ، لا تنكح الصغرى على الكبرى ، ولا الكبرى على الصغرى^(٦) .
ولا شك أن العرب بمقتهم نكاح امرأة الأب ، وبتباعدهم عن الجمع بين الأختين ، وبتحريمهم ما حرم الإسلام بعد ، قد تساموا عن أمور كانت بين الساميين وغيرهم ذكرتها التوراة^(٧) .

ولم يتقول مختلف أو شعوبي على عربي أنه تزوج أمه ، كما تزوج مارك أنطونيوس فاربوس هليوجا بال أمه ، وكان يعبد الشمس كملوك الفرس ، ويقدم لها الفرابين من أجمل بنات

(١) معجم الأدباء ١٤/١٣٣ والفهرست ١٠٢

(٢) المحبر ٣٢٧ ولإنسان العيون ٤٤/١ والملل والنحل ٢٣١/٣ وروح المعاني ٤/٢٦١

(٣) فتوح الشام للبصري ٢٣٧ (٤) تاريخ الطبري ١/١٦٣ (٥) النساء ٢٣

(٦) حجة الله البالغة ٢/٩٧ (٧) سفر اللاويين الإصحاح ١٨ آية ٦-٣٠ وحضارة العرب ٨٧٤

إيطاليا ، وقد قتله جنده هو وأمه سنة ٢٢٢ م^(١) ، وكان الكنعانيون يأتون المحارم كلها^(٢) .
أما دعوى زواج لفيط بن زرارة بنته . فقد فندتها فيما سبق .
وبذلك امتاز العرب من الأمم التي كانت تبيع الأخت والبنت وبنت الأخ كما سبق ،
وامتازوا من العبريين الذين حرمت عليهم عماتهم وخالاتهم ، ولكتهم جروا على الزواج
بين^(٣) . وامتازوا من الرومان في زمن القيصر كلوديوس لأهم أباحوا في عهده ابنة الأخ
وابنة الأخت حتى نقض قسطنطين ما أباحوا^(٤) .

٣ — وللإسلام الفضل في تحريم نظامين كان العرب يضارون بهما النساء .

١ — أولهما العضل ، ذلك أن الورثة كانوا يمنعون المرأة المتوفى عنها زوجها من
التزوج ، لتفتدى بما ورثت من زوجها ، أو تعطيمهم الصداق الذي أخذته . وكان الأزواج
أيضا يمسون زوجاتهم أحيانا من غير حاجة إليهن ، فيضاروهن ويضيقون عليهن ، ليستردوا
بعض ما آتوهن بأن يختلعن بمهورهن . وقيل كان الرجل القرشي بمكة ينسكح المرأة الشريفة
وربما لا توافقه ، فيفارقها على ألا تزوج إلا بإذنه ، فان أعطته وأرضته أذن لها ،
وإلا عضلها^(٥) .

هذا هو العضل في رأى المفسرين والفتهاء ، وهو في اللغة التضيق ، ومنع المرأة الزواج
ظلمها^(٦) ، وليس يهمننا أن يكون العاضل هو الوارث ، أو الزوج ، أو غيرها ،
فإن الأب قد يعضل بناته ، كذلك الذى عضلن ومنعهن إلا كفء ، فتأذين ، فزوجهن^(٧) .
وواضح أن عضل الورثة كان الغرض منه أن تبقى في العشيرة ثروة الرجل المتوفى ،
وأن عضل الزوج كان الباعث عليه أن يسترجع ما قدم من صداق . أما عضل الأب
فليس له من باعث إلا الأنفة والغيرة ، أو الأثرة ، وهو على أى حال عمل شاذ مبين لما
كان عليه الآباء .

(١) Histoire Des Popes. Tome 1. P. 187 Paris

(٢) شعار الحضرة في الأحكام الشرعية للإسرائيليين ١٣ (٣) دائرة المعارف للبيستاني ٩ ٣٣٨

(٤) المرجع السابق ٩/٣٣٨

(٥) فتح الباري ٨/١٨٥ وروح المعاني ٤/٣٤٢ (٦) القاموس المحيط مادة عضل

(٧) الأمل ٢/١٠٥

لكن العرب لم يتوحدوا بهذا العمل ، فقد كان العبريون يعتقدون المرأة جزءاً من متاع الرجل ، تورث كما يورث ماخلف ، وللوارث أن يبيعها أو يعرضها^(١) .
ومن نعم الاسلام على النساء أن حظر العزل : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبن ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »^(٢) .

ب — ثانيهما الزواج بالميراث . ذلك أن الرجل كان إذا مات وترك زوجة ألقى عليها ابنه أو قريبه ثوبه ففنعها الناس ، فإن كانت تعجبه تزوجها وإلا حبسها حتى تموت . وفي رواية البخاري وأبي داود أن أولياء الرجل كانوا أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاء زوجها ، وإن شاء منعها الزواج حتى تموت أو ترد عليهم مهرها ، فهم أحق بها من أهلها^(٣) .

وكان الولد الأكبر إذا ما طرح ثوبه على امرأة أبيه أن يتزوجها بغير مهر ، وله أن يزوجه أحد إخوته بمهر^(٤) ، وله أن يعرضها كما سبق ، فلا ينفق عليها ولا يخلى سبيلها لتلحق بأهلها . وقد شككت كبيشة بنت معن إلى النبي صلى الله عليه وسلم ابن زوجها محصن ابن أبي قيس بن الأسلت لما فعل بها ذلك ، فأنزل الله عز وجل : « ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف » ، ثم شككت إليه نسوة أخر كما شككت كبيشة فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن »^(٥) .

ولم ينفرد العرب بهذا النظام ، فقد كان شائعاً عند الإسرائيليين والبابليين والآشوريين ، وكان عند الساميين يعتبر حقاً يتضمن الملكية ، وإذا كانت الزوجة تعد جزءاً من متاع الرجل فإنها كانت تورث كما يورث غيرها من ماله ، وللوارث أن يبيعها أو يعرضها^(٦) . بل إن شريعة موسى أوجبت على أخي الزوج أن يتزوج زوجة أخيه المتوفى ، وإذا لم يفعل شكته إلى الشيوخ ، فإذا أصر خلعت نعله من رجله أمامهم ، وبصقت في وجهه ، وصرخت

(١) النظم الاجتماعية ٦٧ و ١٧٠ (٢) النساء ١٩ (٣) الكشف ٢٠٧/٤ وروح المعاني ٢٤١/٤

(٤) الملل والنحل على هامش الفصل ٢٣٢/٣ والمستطرف ٧٢/٢

(٥) المحبر ٣٢٦ والبخاري ٢٨٨/٦ وروح المعاني ٢٤١/٤ (٦) النظم الاجتماعية ٦٤-٦٧

قائلة : « هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبني بيت أخيه » ، فيسمى مخلوع النعل^(١) ، وتصبح المرأة بعد خلع النعل حرة . لها أن تتزوج من تشاء ، فكأن خلع النعل طلاق^(٢) .
وواضح أن الغرض من الزواج بالميراث كالغرض من العضل ، إنما هو البقيا على ثروة المتوفى والاحتفاظ بها فى العشيرة ، والتحلل من تقديم مهر جديد ، وميراث الزوجة هو السبيل إلى ذلك .

الطلاق

ضرورته

هل من الحتم اللازب أن يتخطى الزوجان مراحل العمر متماسكين بعلاقة وثيقة مصفاة لا تنفصم ولا تترنق ؟ أن هذا مخالف لنواميس الاجتماع ، مناقض لطبائع الناس ، مباين للمشاهد فى كل مجتمع .

لقد كانت الحياة الزوجية فى كل قبيل تهزها هزات عنيفة تقوض أركانها ، وما زالت إلى الآن عرضة لرجات قوية تهدم بنيانها ، فكان من الطبيعى أن يفرع العالم القديم إلى الطلاق ، وكان من تنظيم الأسرة أن تبيحه الشرائع السماوية الثلاث فى حدود وقيود .
فهل عرف العرب الطلاق ؟ وعلى أى الصور عرفوه ؟ وهل كان هذا الحق حكرة للرجل يستأثر به ؟ أو أن المرأة كان لها نصيب من هذا الحق ؟ ثم ما الصورة التى نستشفها من نظام الطلاق ، لنتصور مكانة المرأة فى المجتمع العربى ؟ وماذا كانت نظرة الإسلام إلى ما تعارف عليه العرب من صور الطلاق ؟

الطلاق عند الأمم

مارس العبرانيون الطلاق^(٣) ، وخولت القوانين العبرية القديمة الرجل أن يطلق

(١) المرأة فى التاريخ والشرائع ٤٨ (٢) النظم الاجتماعية ٦٥

(٣) الإسلام والحضارة العربية ٨٠/١ ودائرة المعارف للبستاني ٣٣٧/١١ والمرأة فى العصور ٨٥

زوجته ، ولم تخول الزوجة أن تطلب الطلاق^(١) ، ولم تمنح المرأة العبرية حق المطالبة بالطلاق إلا في عصور متأخرة ، إذ أباح الفراءون للمرأة أن تطلب الطلاق^(٢) ، وليس قبولها الطلاق شرطاً لوقوعه^(٣) . وإذا فلم يكن من حقها أن تطلق زوجها .

ثم جاءت المسيحية فضيقته جداً ، حتى لقد روى عن المسيح أنه حرمه ، ذلك أن نلاميذه سألوه عنه فقال لهم : « من طلق زوجته وتزوج أخرى يزني ، وإن طلق امرأة زوجها وتزوجت آخر تزني^(٤) » ، ولكن الكنائس أباحته في ظروف خاصة ، سواء في ذلك الكنيسة الرومية والمذهب الأرثوذكسي والمذهب البروتستانتي^(٥) . والكاثوليك يحرمون الطلاق لكنهم يفسخون العقد لأسباب قليلة كزنا المرأة ، ويعدون هذا انفصلاً لا طلاقاً ، ولا يجوز لأحد الزوجين أن يتزوج بعده^(٦) .

وإذا ما عدونا التشريع السماوي وجدنا أن الرومان قد زاولوه وأنه شاع في عهد الجمهورية الأخيرة ، وانتشر طمعاً من الرجال في المال ، وإعجاباً بالجمال ، وغراماً بالنساء . وقد طلق الخاصة والقياصرة كما طلق الشعب ، فإن يوليوس قيصر طلق مرتين ، وأنطونيوس طلق ثلاثاً ، وأوكتافيوس طلق أربعاً . وظل الطلاق منتشر حتى خففت المسيحية من شرته ، ثم حظر حظراً^(٧) .

لكن الزوجة الرومانية لم تخول المطالبة به ، فإذا حاولت الفراق عرضها عملها للعقاب الصارم^(٨) .

وكذلك مارسه الاثينيون بدون قيد أو شرط ، وجعلوه حقاً للرجل وحده ، فلا نصيب للمرأة منه^(٩) . وقد أقرته شريعة سولون ، ومنحت المرأة ما كانت محرومة منه . أما ليكورغ فقصر حق التطليق على الرجال^(١٠) . وكان حق الطلاق مباحاً للزوجين في بابل^(١١) .

(١) الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة في الاسلام ٧٣ والاسلام والحضارة العربية ٨٠/١ (٢) شعار الخضر ١٢٦ (٣) الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ (٤) انجيل مرقس الاصحاح ١٠ (٥) الأسرة والمجتمع ١٢٧ (٦) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٧/١١ (٧) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٦/١١ والاسلام والحضارة العربية ٨٠/١ (٨) مركز المرأة في الاسلام ٧٣ (٩) مركز المرأة في الاسلام ٧٣ (١٠) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٦/١١ (١١) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٧

دواعي الطلاق عند العرب

ليس بمستطاع أن نتعرف بواطن الطلاق كلها ، وبحسبنا أن نمثل ببعضها . فقد يكون من بواعثه الفقر ، فمثلاً سألت نبيه بن الحجاج السهمي زوجته أن يطلقهما لأنه افتقر :

تلك عرساي تنطقان على عَمٍّ — دلى اليوم قول زور وهتر

سالتاني الطلاق أن رأتا ما لى قليلا ، قد جئتماني بشكر^(١)

ولقد ينضم الكبر في السن إلى الفقر ، وفي هذين يقول عبيد بن الأبرص :

تلك عرسى غضبي تريد زيالى ألبين تريد أم لدلال

زعمت أنني كبرت وأنى قل مالى وضن عنى الموالى

وصحبا باطلى وأصبحت شيخا لا يواق أمثالها أمثالى^(٢)

وبسبب الكبر طلق عمرو بن عدس دختنوس بنت عمه لقيط بن زرارة ، لأنه كان شيخاً هرماً فرآها يوماً تتأفف منه ، فقال لها : أيسرك أن أفارقك ؟ قالت : نعم ، فطلقها^(٣) .

وربما يدفع إلى الطلاق أن تتناول الزوجة على قوم الزوج وتنال منهم ، فيندفع بعصبيته لهم إلى تطليقها ، فمثلاً كان حسان بن ثابت زوجاً لعمرة بنت الصامت الأوسية وكانا متصافيين متحابين ، ولما أجاز الأوس مَخْلَدَ بن الصامت الساعدي قال أبو قيس ابن الأسلت :

أجرت مَخْلَدًا ودفعت عنه وعند الله صالح ما أتيت

فتكلم حسان في أبي قيس بكلام أغضب عمرة ، فغيرته أخواله ، ونفرت عليه بالأوس . فغضب لهم فطلقها^(٤) ، وكذلك طلق دريد بن الصمة زوجته أم معبد لأنها عاتبته على جزعه على أخيه عبد الله ، وصغرت من شأنه وسبته . فطلقها وقال فيها :

أعبد الله إن سبتك عرسى تقدم بعض لحى قبل بعض

(١) الأغاني ٦٠/١٦ وفي البيان والتبيين ١٩٩/١ أن القائل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وعند الزمخشري أنه زيد بن عمرو بن نفيل .
(٢) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١٩٩/١
(٣) مجمع الأمثال للميداني ١٦٤/١ والأغاني ٣٨/١٠ وتاج العروس ١٤٧/٤ .
(٤) الأغاني ١٤/٣ الدار .

إذا عرسُ امرئٍ شتمت أخاه فليس فؤاد شانه بحمص
معاذ الله أن يشتمن رهطى وأن يملكن إبرامى ونقضى^(١)
وشبيهه بذلك أن عمرو بن شاس كان له ابن أسود من أمة ، يقال له عرار ، وكانت امرأته
تؤذيه وتستخف به ، فهددها بالطلاق في قوله :

فإن كنت منى أوتردين صحبتى فكونى له كالسمن ربت له الأدم
وإلا فسيرى مثل ما سار راكب تعجل خمساً ليس في سيره أمم^(٢)
ولقد يطلق الرجل امرأته لأنه لا يأنس إليها ، ولا يجد فيها الخلال التي يريد ، كما فعل
الاعشى لما تزوج امرأة من غزاة فلم يرضها ، ولم يستحسن خلقها ، فطلقها وقال :
فبيني فإن البين خير من العصا وألا ترى لى فوق رأسك بارقه
وما ذاك عندى أن تكونى دنيئة ولا أن تكونى جئت عندى بباتقه
ويا جارتا بينى فإنك طالق كذاك أمور الناس غادٍ وطارقة^(٣)
ولقد يطلقها لأنه يجد فيها ميلاً إلى غيره وتبرماً به ، كما طلق الحارث بن سليل الأسدى
الزباء بنت علقمة لما رأى إعجابها بشبان من قومها^(٤).

وربما يتوسم الرجل في المرأة التي خطبها شاباً وجمالاً ، فإذا هي عجوز شمطاء ، فلا يجد
بدا من تسريحها . حدث هذا لجهم ، إذ خطب من بنى فقعس ، وباع إبلاً له ومهرها ، فلما
دخل بها وجدها عجوزاً مولية ، فطلقها وقال :

وما لمت نفسى مذ فطمت بلحية كما لمت نفسى في عجوز بنى شمس
فبانَتْ ولم أغبن - غداة اشتريتها - وبعثت تلاد المال بالثمن البنس^(٥)

أنواع الطلاق عند العرب .

١ - كانت العرب تطلق في الجاهلية ثلاثاً على التفرقة ، والزواج أحق بزوجه إلى أن
يستوفى ثلاث طلاقات ، فإن استوفاه انتطع سبيله إليها^(٦) ، وفي ذلك يقول الاعشى لزوجه .

(١) الأغاني ٥/٩ ساسي

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ تحقيق شاكر . ربت له الأدم : الأدم جمع أديم وهو الجلد المدبوغ تتخذ
منه الزقاق والأوعية ونحوها ، ورب الوعاء دهنه بالرب وهو خلاصة التمر بعد طبخه وعصره لينع فساد
السمن . يقول لها : عامليه برعاية كما تستصالحين السمن بدهن وعائه

(٣) ديوان الأعشى ١٨٣ وشعراء النصرانية ٣٦٣

(٤) مجمع الأمثال للميداني ١١١/١ والمحاسن والأضداد ١٨٤ (٥) عيون الأخبار ٤/٧

(٦) المحبر ٣٠٩ والملل والنحل على هامش الفصل ٢٤٣/٣ وبلوغ الأرب للألوسى ٤٩/٢

فبيني حصان الفرج غير ذميمة وموموقه فينا كذاك ووامقه
وذوقى فتى قوم فينى ذائق فتاة أناس مثل ما أنت ذائقه
فبيني فإن البين خير من العصا وألا ترى لى فوق رأسك بارقه
ويا جارتا بينى فإنك طالق كذاك أمور الناس غاد وطارقه (١)

فكرر الطلاق ثلاث مرات متفرقات .

وكان هذا هو الغالب . وقد التزم أهل مكة هذا التفريق ، يدل على ذلك قول ابن عباس
إذ سئل عن طلاق العرب : كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ثم هو أحق بها ، فإن طلقها ثنتين
فهو أحق بها أيضاً ، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها (٢) .

وأحياناً كانوا يوقعون الثلاث دفعة واحدة ، يدل على ذلك قول الشاعر :

فإن ترفق ياهند فالرفق أيمن وإن تخرق ياهند فالخرق أشأم
فأنت طلاق والطلاق عزيمة ثلاث ومن يخرق أعق وأظلم
فبيني بها أن كنت غير رفيقة وما لامرىء بعد الثلاث مقدم

ولكن طلاق الثلاث دفعة واحدة في الإسلام كان لا يقع إلى عهد عمر إلا طلقة واحدة ،
روى مسلم عن ابن عباس أن الطلاق كان في عهد رسول الله وأبي بكر وستين من خلافة
عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة ، فلو
أضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم (٣) .

على أنه وردت آراء أخرى في أن العرب كانوا يطلقون ويراجعون ، ولاحد لهم ينتهون
إليه ، وكانوا يضارون النساء بذلك ، فنزل قوله تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف
أو تسريح بإحسان (٤) » . ولكنى أرجح أن هذا لم يكن نظاماً عاماً ، لأن رأى ابن عباس
أجدر بالقبول ، وأقرب إلى المعقول ، ولأن بعض ما روى عن هذا الإطلاق غير مقبول ،
وكيف نقبل ما ذكره ابن زيد أن الرجل كان يطلق امرأته مائة ثم إذا أراد أن يراجعها كان
ذلك له (٥) ؟ وكيف نقبل ما ذكره الرازى أن الرجل كان له أن يطلق امرأته ألفاً ثم يراجعها
بعد كل مرة (٦) .

(١) ديوان الأعشى ١٨٣ والأغانى ٨٠/٨ ساسى

(٢) معجم البلدان ١٣٨/٨

(٣) تفسير القرطبي ١٣٠/٣ والسنن الكبرى للبيهقي ٣٣٦/٧

(٤) تفسير الطبري ٢٧٦/٢ والنيسابورى على هامش الطبري ٣٦١/٢ وتفسير القرطبي ١٢٦/٣

(٥) تفسير الطبري ٢٧٦/٢ والسنن الكبرى للبيهقي ٣٣٣/٧

(٦) تفسير الرازى ٣٧٢/٢

ومهما يكن من شيء فإن الإسلام قد وافق العرب كلهم أو أكثرهم في أن جعل الطلقات ثلاثاً ، ثم زاد أموراً ، منها أن الزوجة لا تحل لزوجها بعد الطلقة الثالثة إلا إذا تزوجت غيره . ثم إن العرب كانوا يطلقون ثلاثاً دفعة واحدة ، ولما جاء الإسلام اختلف الفقهاء في حكم هذا الجمع ، فذهب جمهور الفقهاء إلى وقوع الطلاق ثنتين أو ثلاثاً دفعة واحدة ، وذهب بعض المجتهدين والمحققين إلى وقوعه واحدة ^(١) .

٢ - الخلع

وكان من صور الطلاق في الجاهلية أن تقتدى المرأة من زوجها بما لها وتختلع منه إذا أساء عشرتها ^(٢) ، من ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابن أخيه ، وبعد أشهر جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : « يا بني ارفع عصاك عن بكرتك ، فإن كانت نفرت من غير أن تنفر فذلك الداء الذي ليس له دواء ، وإن لم يكن بينكما وفاق ففراق الخلع أحسن من الطلاق ، ولن تترك مالك وأهلك » . ورد عليه صداقه وخلعها ^(٣) ، وكذلك خلع دعج ابن عبد الله من رجل إيادي زوجته وتزوجها ^(٤) .

ولما جاء الإسلام أقر الخلع ^(٥) ، مراعاة لصالح المرأة ، لأنها قد تبغض زوجها ، وتتأذى بعشرته ، ويأبى هو أن يخلصها ، حرصاً عليها ، أو نكالية لها ، أو أسفاً على ما أنفق من ماله في زواجها . قال تعالى : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به ^(٦) » .

ولقد يكون في الخلع رعاية لصالح الزوج أيضاً ، فيما إذا أتت الزوجة بفاحشة مبينة كما في الآية ، والمراد بها النشوز وسوء الخلق أو الزنا ^(٧) . وقد كشفت جميلة بنت عبد الله ابن أبي النبي صلى الله عليه وسلم عن كراهيتها لزوجها ، ورغبتها في فراقه ، فقال زوجها : إني أعطيتها أفضل مالى ، حديقة ، فلتردد على حديقتي ، فأمرها النبي بردها عليه ، وفرق بينهما ^(٨) ، ورويت هذه الحادثة بطرق أخرى ، ولكنها كلها تدل على أن العرب كانوا يعرفون الخلع ، وإلا ما طلب الأزواج ما لهم قبل الفرقة .

(١) تفسير القرطبي ١٣٠/٣ وعيون المسائل ١٤٥ — ١٦٠

(٢) الكشف ١٩٧/١

(٣) أوائل الأوائل لأبي هلال العسكري ٣٤ مخطوط وفتح الباري ٣٤٦/٩ وعيون الأخبار ٧٦/٤

(٤) الفاجر الكوفي ٤٩ (٥) تفسير القرطبي ١٣٧/٣ (٦) البقرة ٢٢٨

(٧) روح المعاني ٢٤٢/٤

(٨) السنن الكبرى للبيهقي ٢١٣/٧ وتفسير الطبري ٢٨٠/٢ والنيسابوري ٣٦٣/٢

على أن الإسلام حذر الزوجة أن تختلع أو تطلب الطلاق من غير حاجة ، أو خضوعاً للهوى ، لقوله تعالى : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » ، والمراد الذموز والبغضة من الزوجة ، والتقصير في الحقوق من الزوج ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير ما بأس به لم ترح رائحة الجنة » و « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » و « المختلعات هن المنافقات (١) » .

٣ — الظهار

قال الشافعي رضى الله عنه : « سمعت من أرضي من أهل العلم بالقرآن يقول : « كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث : الظهار ، والإيلاء ، والطلاق . فأقر الله تعالى الطلاق طلاقاً ، وحكم في الإيلاء والظهار بما بين في القرآن » (٢) . ذلك بأن الرجل كان يظاهر من زوجته في الجاهلية ومطلع الإسلام بقوله لها : « أنت علي كظهر أمي » يريد تحريمها على نفسه تحريماً مؤبداً ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لخولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصبامت حين فزعت إليه لما ظاهر منها زوجها : « حرمت عليه » (٣) ، ثم أنزل الله تعالى حكم الإسلام . وقيل إنهم كانوا يعدونه طلاقاً ، ويجيزون للظاهر أن يتزوج زوجته ثانية (٤) ، ولكن جواب الرسول لخولة يناقض هذا ، وربما كان الأكثر يحرمون بالظهار ، والأقل لا يحرمون به .

أما حكم القرآن الكريم في الظهار فواضح من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم . والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل » (٥) ، ومن قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور ، والذين

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٣١٦/٧ وتيسير الوصول ٣٣٨/١

(٢) بلوغ الأرب ٥٠/٢

(٣) تفسير الطبري ٣/٢٨ والقرطبي ٢٧٠/٢٨ وطبقات ابن سعد ٢٧٦/٨

(٤) تفسير الطبري ٦/٢٨ والنيسابوري ٨٢/٢١ والمبسوط ٢٢٤/٦

(٥) سورة الأحزاب ٤

يظاهرون من نسائهن ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » (١) .

وبهذا أبطل الإسلام الظهار وحرمه ، ونفى الخالق تعالى أن يكون لرجل قلبان في جوفه وقاس لهم على هذا المستحيل أن يزعم الرجل أن زوجته محرمة عليه كامه ، ثم جعل عقوبة الظهار الكفارة .

٤ -- الإيلاء

كان الإيلاء من أنواع الفرق في الجاهلية كما ذكر الشافعي (٢) والقرطبي (٣) ، يولى الرجل من زوجته السنة والسنتين وأكثر ، إيذاء لها ، فلا يقربها . فلما جاء الإسلام عين للرجل مدة يراجع فيها نفسه ، ثم يطلق ان شاء أو يفى في يمينه ، للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » (٤) فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكى (٥) .

حق المرأة في الطلاق .

١ — تميزت المرأة العربية بأن لها الحق في أن تكون العصمة بيدها فتطلق الرجل ، وبأن لها أن تطالب الرجل بالطلاق ، سواء أكان على بدل أم لم يكن . وهذا حق لم تظفر به امرأة في الأمم التي عاصرت العرب . « فكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال في الجاهلية ، وكان طلاقهن أنهن إن كن في بيت من شعر حولن الحباء ، فإن كان بابه قبل المشرق حولنه قبل المغرب ، وإن كان بابه قبل اليمين حولنه قبل الشمام ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها قد طلقت فلم يأتها (٦) » ولعل السبب في هذا المظهر أن الحباء كان عند الساميين ملكا للمرأة ، وهو عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضرة (٧) ، فإذا جاء الرجل ووجد المرأة قد حولت باب خبائها علم أنها قد أعرضت عنه وطلقت . أما الحضريات فكانت لهن طريقة أخرى في الإعلام بالتطليق ، ذلك أنهن لا يعالجن للزوج طعامة إذا أصبح (٨) .

(١) المجادلة ١ - ٤ (٢) بلوغ الأرب ٥٠/٢

(٣) تفسير القرطبي ١٠٣/٣ (٤) سورة البقرة ٢٢٦ و٢٢٧ (٥) تفسير القرطبي ١٠٣/٣

(٦) الأغاني ١٠٢/١٦ وذيل الأمل ١٥٣ (٧) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٧

(٨) مجمع الأمثال لهيداني ٣١٨/١

ومن هؤلاء اللاتي امتزن بحق التطليق سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب بن هاشم ، إحدى نساء بني عدى بن النجار ، كانت لا تزوج إلا وأمرها بيدها ، فإذا كرهت من زوجها شيئاً تركته ^(١) ، وأم خارجة عمرة بنت سعد البجليّة ، ومارية بنت الجعيد العبدية ، وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح السليمية ، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، والسوداء العنزية الهزانية ^(٢) ومنهن ماوية بنت عفزر ، وقد طلقت زوجها حاتما الطائي لما تخرق في كرمه وضاق به ^(٣) .

وقد ورد في الشعر ما يثبت ذلك ، قالت امرأة من بني جذيمة بن عامر وقد أوقع بهم خالد ابن الوليد بالغميضاء :

فكأن ترى بالغميضاء من فتى
أظنت بخطاب الأيامى وطلقت
ويقول عبيد بن الأبرص لزوجته :
وعيشي بالذي يغنيك حتى
ويقول الشنفرى :

إذا ماجئت ما أنهاك عنه ولم أنكر عليك فطلقيني ^(٤)

وحتى على فرض أن هذا تهكم من الرجل فإنه دليل على أن للمرأة أن تطلب الطلاق .
٢ — وكان للمرأة أن تطلب الطلاق ، فلم تكن كغيرها من نساء الأمم المعاصرة لا رأى لها ولا اختيار . وهى إما أن تطلب الطلاق بالاختلاع كما سبق ، وإما أن تطلق بغير اختلاع كما حدث عبيد بن الأبرص عن زوجته :

تلك عرسى غضبي تريد زىالى ألبين تريد أم لدلال
إن يكن طبك الفراق فلا أحف — ل أن تعطفى صدور الجمال ^(٥)

وكما حدث سعيد بن عمرو بن نفيل عن زوجته :
تلك عرساي تنطقان على عم — د لى اليوم قول زور وهتر

(١) الأغاني ١١٩/١٣ والميداني ٣١٨/١

(٢) الأغاني ٩٩/١٦ وذيل الأمل إلى ١٥٣

(٣) الميداني ٣١٨/١ والمحبر ٣٩٨

(٤) سيرة ابن هشام ٥٧/٤ ومعجم البلدان ٣٠٧/٦ أظنت : لزمت . الغميضاء : موضع قرب مكة

(٥) ديوان عبيد القصيدة ١٣

(٦) الواحديّات لأبى تمام ٢٧ مخطوط وأخبار النساء ٥٤

(٧) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١٩٩/١

سالتاني الطلاق أن رأتا ما لي قليلا قد جئتما **بُنْكَر** (١)
ويقول أبو قُرْدُودَة :

كَيْشَة عِرْسِي تريد الطلاقا وتسألني بعد وَهْنٍ فراقاً (٢)

وقد سألت ضباعة بنت عامر بن قرط زوجها عبد الله بن جدعان أن يطلقها ، لأنه كان كبيراً وعاشت معه زماناً لا تلد ، ولأن هشام بن المغيرة الخزومي أغراها بطلب الطلاق ، فقال لها عبد الله : أخاف أن تزوجني هشام بن المغيرة ، قالت : لا أتزوجه . قال : فإن فعلت فعليك مائة من الإبل تنحرينها بين إساف ونائلة ، وتغزلين لي خيطاً يقطع ما بين الأخشبين ، وتطوفين بالبيت عريانة . فأرسلت إلى هشام تخبره ، فأرسل إليها : ما أيسر ما سألك ، وما يلوك هذا ، وأنا أيسر قريش في المال ، ونسائي أكثر نساء رجل من قريش ، وأما طوافك بالبيت عريانة فأنا أسأل قريشاً أن يخلوه لك ساعة ، فلا تأتي عليه . فقالت لزوجها ، فإن تزوجت هشاماً فعلى ما قلت . فطلقها ، فزوجها هشام ونحر عنها مائة من الجزر ، وجمع نساءه فففسجن ثوباً يسع ما بين الأخشبين ، ثم طافت بالبيت عريانة (٣) . على أن المرأة كانت لبقة في تصرفها بعصمتها ، لا تطلق زوجها حماقة وهوى ، وإنما كانت تحرص على رباط الزوجية ، لا تفصمه إلا إذا لم تجد بداً من فصمه ، يدل على ذلك أن هؤلاء اللاتي كانت العصمة بأيديهن لم يتلاعبن بها ، يدل على ذلك أن ماوية لم تطلق حاتماً إلا بعد ما يئست من كفه عن التخرق في كرمه ، ولخشيتها على مستقبلها ومستقبل بناتها إن أنجبت منه (٤) . ويدل على ذلك أن رجلاً من آل أبي طالب غضب على امرأته يوماً فقال لها : أمرك بيدك . فقالت : أما والله لقد كان في يدك عشرين سنة لحفظته وأحسننت صحبته ، فلا أضيعه إذ كان في يدي ساعة من نهار ، وقد رددت عليك حمقك . فأعجبه قوله وأحسن صحبتها (٥) .

٣ — ثم جاء الإسلام فأبقى على حق المرأة في الطلاق إذا اشترطته على الزوج . وإلى ذلك ذهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة (٦) ، وأباح لها أن تحتلع ، وأن تطلب التفريق لعيب في الزوج ، أو لامتناعه عن الإنفاق ، أو لسوء عشرته ، أو لغيبته الطويلة (٧) ، وأباح للتي زوجت صغيرة أن تفسخ زواجها عند بلوغها ، أو أن تمضيها (٨) .

(١) البيان والتبيين ٩٩/١ وفي الأغاني ٦٠/١٦ أنه نبيه بن الحجاج

(٢) الحيوان للجاحظ ٤٦٣/٥ هارون

(٣) الإصابة ١٣٣/٨ و ٣٥٣/٤ ورسالة القيان للجاحظ ٥٧ وأشعار النساء للرزباني ٢٤

(٤) الأغاني ١٠٢/١٦ (٥) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢ (٦) عيون المسائل ١٦٩

(٧) عيون المسائل ٢٠٥ (٨) عيون المسائل ٧٧

والفكرة العامة التي تستنبطها أن الإسلام أبقي على بعض النظم العربية الصالحة في الطلاق، وأبطل الإيلاء على أنه طلاق، وحرّم الظهار، وصان للمرأة حقها في الطلاق إذا كانت قد شرطت ذلك على زوجها، ثم إنه بغض الطلاق إلى الرجال، فقد ورد في القرآن الكريم: «فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» (١) و«يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» (٢) و«إن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم: أبغض الحلال إلى الله الطلاق (٤)، وقال أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة (٥)، وذهب الفقهاء إلى أنه قد يكون محرماً وقد يكون مكروهاً (٦)، كما أنه قد يكون واجباً وقد يكون مستحباً (٧).

وما من شك في أن الطلاق نظام طبيعي لا مفر منه أحياناً، وليس أدل على ذلك من لجوء بعض المسيحيين إليه، «والأفضل أن يقتصر الإنسان على امرأة واحدة لا يبدلها ولكن قد يحدث زواج غير موفق، فعلياً أن نسن قوانين تحول الرجل أن يفهم هذه الزيجة التي لا مندوحة من تغييرها، مراعاة لصالحه وصالح المجتمع» (٨).

حسرة بعد الطلاق

قد يشور الزوج، وقد تهتاج المرأة، وقد تنزل بهما عارضة فيفترقان، وهذه حال طبيعية لا منجاة منها، فإذا ما وجدنا الرجل يندم على الطلاق ويتحسر على سعادة قد ذهبت، وإذا ألفينا المرأة المطلقة تُثني على زوجها، وتأسف على صلة قد انقطعت كان لنا أن نوقن بأن العلاقة الزوجية في العصر الجاهلي كانت وطيدة الدعامة، عالية المكانة.

١ — أما الزوج فكثيراً ما حزن وندم، وإذا كانت أخبار حزنه وندمه أكثر من أخبار المرأة فذلك لأنه هو المطلق في الأعم الأغلب، ثم لأنه لا يخجل من البوح بما يمضيه من الألم والندم والحزن إلى زوجته التي طلقها، أما الزوجة فإنها في موضع المرغوب عنها، فلا تكشف عن حسرتها وندمها، وهي إلى ذلك تستحي أن تعلن توجعها وتلفها على أن تعود.

(١) النساء ١٩ (٢) الطلاق ١ (٣) النساء ٣٥

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ٣٢٢/٧ (٥) حجة الله البالغة للدهاوي ١٠٣/٢

(٦) المبسوط للسرخسي ٦/٢ (٧) عيون المسائل ١٤٧

(٨) The Psychology of Marriage P. 240 Walter M. Callichan

كانت أم أوفى زوجة زهير بن أبي سلمى ، وقد ولدت له أولاداً ماتوا ، ثم تزوج فغارت ، وطلبت الطلاق فطلقها ، لكنه حسب أنها ملته لطول عشرتها له ، وأقسم أنه حسير النفس لفرقتها ، وهي لا تبالي بالفرقة ، وأوصاها ألا تقول عليه لآلها فتدعى أنه أساء عشرتها ، ثم ذكرها بما كان بينهما من صلة الأولاد والمودة ، وبرعايته لها وتمتعها :

لعمرك والخطوب مُغَيَّرَات وفي طول المعاشرة التَقَالِي
لقد باليتُ مَظْعَنَ أم أوفى ولكن أم أوفى لا تُبَالِي
فأما إذا ظعنْتَ فلا تقولِي لذي صهرٍ أَذِلْتُ ولم تُذَالِي
أصبتُ بنِي منك ونلتُ مني من اللذات والحُلل الغوالي (١)

وكان لسلمى بن ربيعة زوجة ، وقد فارقته لأنه يستهلك ماله ، ويعرض نفسه للمعاطب ، ولحقت بقرمها ، فأخذ يتلف عليها ويتحسر ، ويبكى بكاء حاراً :

حَلَّتْ تُماضِرَ غُرْبَةً فاحتلت فَلَجًّا وأهلك باللوى فَالحَلَّةُ
وكأن بالعينين حب قرنفل أو سنبلًا كحلت به فانهلت (٢)

وقد تهيب أبو قردودة أن يطلق لأنه يحب زوجته الحسنة ، فلا يطيق صبراً على فراقها ، ولكنها أصرّت على الفراق فآلمته وأبكته :

كَبِيشَةُ عرسي تريد الطلاقا وتَسألني بعد وَهْنِ فراقا
كَبِيشَةُ إذ حاولتُ أن تبدي نَـ يَسْتَبِقُ الدمع مني استباقا
وقامت تريك غداة الفراق كَشِيحاً لطيفا وفخذا وساقا
ومنسدلا كمشاني الجبال توسعه زَنْبَقاً أو خلاقا (٣)

ولما تحاللت على عروة بن الورد امرأته ولحقت بأهلها أرق لما شام البرق من ناحيتها ، ودعا لدارها بالسقيا ، وتحسر وتذكر ، وتغزل فيها :

أرقت وصحبتى بمضيق عمقٍ لبرق من تهامة مستطير

(١) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغاني ١٥٠/٩ ساسي (٢) شرح التبريزي للجحاسة ٥٥/٢
غربة : دار بعيدة . الحلة : موضع في بلاد بني ضبة . فاج : واد في طريق البصرة وبين الحلة وفلج
مسير عشر . القرنفل والسنبُل : من أخلاط الأدوية التي تحرق العين وتسيل دموعها .

(٣) الحيوان للجاحظ ٤٦٣ هـ هارون . منسدلا : شعرا مسترسلا . الزنبق : دهن الياسين . قال الأزهري
وأهل العراق يقولون لدهن الياسين دهن الزنبق . الخلاق : ضرب من الطيب وهو الخلق .

سقى سلى وأين ديار سلمى
إذا حلت بأرض بنى على
ذكرت منازل من أم وهب
وأحدث معهد من أم وهب
وقالوا ما تشاء فقلت ألهو
بأنسة الحديث رُضابُ فيها
سقوني الخمر ثم تكنفوني
وقالوا لست بعد فداء سلمى
فيا للناس كيف غلبت نفسى
إذا كانت مجاورة السرير
وأهـ — لى بين إمرة وكير
محل الحى أسفل من نكير
معرسنا بدار بنى النضير
إلى الإصبـ — اح أثر ذى أثير
بعيد النوم كالغنب العصير
عداء الله من كذب وزور
بمغنٍ ما لديك ولا فقه — ير
على شئ ويكرهه ضميرى^(١)

ولقد يأسى بعض الأزواج إرعاء على ولده من مطلقة ، لا حسرة على الزوجة ، لأنها ذات شغب وصخب ، يقول الغزير لما فارقت زوجته الناقية .

أجد فراق الناقية فانتوت
لقد كنت أهوى الناقية حقبة
فلولا بُنيّاها هبيرة إنه
لكان فراق الناقية غبطة
أم البين يحلولى لمن هو مولع ؟
وقد جعلت أقران بين تقطع
بنى الذى يشقى سقامى ، وصعصع
وهان علينا وصلها حين يقطع^(٢)

بل لقد بلغ الحزن بعبد الله بن العجلان لما طلق زوجته هند ثم تزوجت غيره أن مات أسفاً عليها ، ذلك بأن أباه اضطره إلى تطليقها اضطراراً فقال :

فارقت هـ — دأ طائعاً
فالعين تدرى دمعها
متحلباً فوق الـ — ردا
فندمت عند فراقها
كالدر من آماقها
يحول من رقرقها^(٣)

(١) الأغاني ٧٧/٢ الدار وديوان عروة ١١ والشعر والشعراء ٢٦٠ مضيق عمق : موضع قرب المدينة . السرير : موضع ببلاد بنى كنانة . إمرة : منزل فى طريق مكة من البصرة . كير : جبل بأرض غطفان . نكير : موضع بين هجر والبصرة . أثر ذى أثير : أول كل شئ .

(٢) أمثال العرب الضبى ٢٢ . يحلولى : يحسن . هبيرة وصعصع : ولداه منها .

(٣) الأغاني ١٩/١٠٢

وقال :

فما مُعَوِّلٌ تبكى لفقد أليفها إذا ذكرته لا يكف زفيرها
بأغزر منى عبرة إذ رأيتهما يُحَثُّ بها قبل الصباح بغيرها^(١)

وله فيها غزل وحنين كثير^(٢) . وكذلك حزن عمرو بن شاس لما طلق زوجته^(٣) ،
وحسان بن ثابت إذ طلق امرأته عمرة^(٤) .

٢ — وما زال بعض الرجال يأسون بعد الطلاق إلى الإسلام ، من هؤلاء عبد الله
ابن أبي بكر ، كان قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل ، وكانت من أجمل نساء قريش ، فلما
دخل بها غلبته على عقله ، وأحبها حباً شديداً ، فأمره أبوه أن يطلقها ففعل بعد لاي ، ثم
جزع جزعاً شديداً ، حتى عاف الطعام والشراب ، وأنشد :

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلاً ولا مثلاً في غير شيء تُطَلِّقُ
لها خُلُقٌ سمح ورأى ومنصب وخُلُقٌ سوى في الحياة ومُصَدِّقُ
أعاتك لا أنساك ما هبت الصبا وما ناح قمرى الحمام المطوق
أعاتك لا أنساك ما حجج ركب وما لاح نجم في السماء مخلوق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة إليك بما تخفى الصدور معلق
ولولا اتقاء الله في حق والدي وطاعته ما كان منى التفريق

فبلغ أبا بكر شعره ، فأمره فراجعها^(٥) ، وفرح بمراجعته ، وفاضت فرحته شعراً
طروباً كما فاض حزنه من قبل شعراً غضوباً^(٦) .

٣ — أما الزوجة فقد أثر عنها أحياناً ما ينبئ عن عرفانها جميل زوجها ، وتقديرها
حسن عشرته بعد الطلاق ، فمثلاً أغار عروة بن الورد على مزينه ، وأصاب منهم امرأة اسمها
سلى ، فاستاقها وأعتقها واتخذها لنفسه ، فحكمت عنده بضعة عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ،

(١) الأغاني ١٩/١٠٤ (٢) الأغاني ١٩/١٠٢ — ١٠٥ (٣) جهرة الأمثال ١٧٣

(٤) الأغاني ٣/١٤ الدار (٥) المردفات من قريش للمدائني من نواذر المخطوطات ٦٢ ونزهة

الأبصار والأسماع ١٣ وأسد الغابة ٥/٩٨ والاستيعاب ٢/٧٦٨ والأغاني ١٦/١٢٨

(٦) المردفات من قريش ٦٢

ثم كرهت أن تكون سبيياً ، وأن تنادى بأنها أمة عروة ، فاحتالت على عروة حتى أتت قومها ، فاخترتهم ، فطلقها عروة ، فأقبلت عليه قائلة : « يا عروة أما إني أقول فيك وإن فارقتك الحق ، والله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفاً ، وأقل فحشاً ، وأجود يداً ، وأحصى لحقيقة ، وما مر على يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ، لأنني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم » (١) .

وكذلك لما أسلم قيس بن عاصم ، وعنده امرأة من بني حنيفة — أبي أبوها وأهلها أن يسلموا ، وخافوا إسلامها ، وأقسموا أنها إن أسلمت لم يكونوا معها في شيء ما بقيت — طالبت بالفرقة ، ففارقها ، فلما احتملت لتلحق بأهلها أثنى عليها بقوله : « أما والله لقد صحبتني سارة ، ولقد فارقتنى غير عارة ، لا صحبتك مملولة ، ولا أخلاقك مذمومة ، ولولا ما اخترت ما فرق بيننا إلا الموت ، ولكن أمر الله ورسوله أحق أن يطاق » . فقالت له : « أنبت بحسبك وفضلك ، وأنت والله إن كنت للدائم المحبة ، الكثير المودة ، القليل اللائمة ، المعجب الخلوة ، البعيد النبوة ، ولتعلمن أني لا أسكن بعدك إلى زوج » فقال قيس : « ما فارقت نفسي شيئاً قط فتتبعته كما تتبعتها » (٢) .

العدة

عرف العرب الطلاق ، وجروا على طرق عدة في إيقاعه ، ولم تقف بهم معرفتهم عند ذلك ، بل قرروا العدة بعد الوفاة استبراء للرحم ، وحداداً على الزوج ، « وكانت مشهورة معلومة في الجاهلية ، لا يكادون يتركونها » (٣) ، يدل على ذلك ما ذكره البخاري أن امرأة توفي عنها زوجها ، فحشاها على عينيها ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنوه في الكحل ، فقال : « لا تكحل ، قد كانت إحداكن تمسك في شر أحلاسها (أو شربيتها) »

(١) الأغاني ١٨٥/٢ ساسي

(٣) تفسير القرطبي ١٢٦/٣ وحجة الله البالغة ١٠٦/٢

(٢) الأغاني ١٤٩/١٢

فإذا كان حولٌ فمر كلب رمت ببعرة . فلا ، حتى تمضي أربعة أشهر وعشراً^(١) . وتفصيل ذلك أن المرأة كانت إذا توفى عنها زوجها دخلت حَفْشاً ولبست شر ثيابها ، ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم توثى بدابة : حمار أو شاة أو طائر ، فتفتض به ، ثم تخرج فتعطي بعة فترمي بها ، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره . وكانت ترمي بالبعرة أمامها ، فيكون ذلك ، احلالها ، أو ترمي بها كلباً أو غيره ، لترى من حضرها أن مقامها حولاً أهون عليها من بعة ترمي بها كلباً أو غيره ، أو أن رمى البعة إشارة إلى رميها العدة كما ترمي البعة^(٢) .

وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، لقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً »^(٣) وهذه المدة كفيلة ببيان الحمل إن كان حمل .

أما المطلقة فقد ذكر أنها كانت تعتد في الجاهلية ، ولكن لم يرد تفصيل لطريقة عدتها ، وأجلها . وذكر أيضاً أنها كانت لا تعتد ، وأن بعض النساء ولدن من أزواجهن الأولين وهن في عصمة الآخرين^(٤) . ويعزز ذلك أن عمر رضى الله عنه بلغه أن امرأة من قریش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها ، ففرق بينهما ، وعاقبهما ، وقال : لا تنسكحها أبداً ، وجعل الصداق في بيت المال ، وعلم على ذلك ، فقال : رحم الله أمير المؤمنين ، ما بال الصداق وبيت المال ؟ إنما جهلا ، فينبغي أن يردهما إلى السنة . قيل : فما تقول أنت فيهما ؟ قال : لها الصداق بما استحل من فرجها ، ويفرق بينهما ، ولا جلد عليهما ، وتسكل عدتها من الأول ، ثم تعتد من الثاني عدة كاملة ثلاثة أقراء ، ثم يخطبها إن شاء . فبلغ ذلك عمر ، فخطب الناس بقوله : أيها الناس ردوا الجاهلات إلى السنة^(٥) .

لكنني أرجح أن ترك العدة كان جهلاً ، وأن الحوادث التي كانت فيها ولادة من الأول على فراش الثاني قلة ، مشؤوها الجهل أو الانخداع بأنه لا حمل من الزوج الأول .

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٢٥٧/٣ وفتح الباري ٤٢٨/٩

(٢) فتح الباري ٤٢٨/٩ والتجريد الصريح ٢٥٧/٣ اخفش : البيت الصغير . الأجل : ج جلس وهو الثوب أو الكساء الرقيق . تفتض به : تمسح به جلدها . قال ابن قتيبة : سألت الحجازيين عن الافتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لاتمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ، ثم تفتض أى تكسر ما هي فيه من العدة تمسح به قبلها وتنبذه فلا يعيش بعدما تفتض به

(٣) البقرة ٢٣٤ (٤) المحبر ٣٣٨ (٥) تفسير القرطبي ١٩٤/٣

الفصل الثالث

البنات

كشفت الدراسة السابقة للأم وللزوجة عن مكانة عالية للمرأة في المجتمع العربي ، وعن تفوقها على غيرها من معاصراتها .

فكيف صور الشعر الجاهلي البنات ؟ وما مكانتها التي رسمها لها ؟

حب بعضهم للبنات

١ — الفكرة الشائعة إلى الآن أن البنات كن بغيزات إلى الآباء جميعاً ، ولكن في هذا الحكم بعض الحيف ، لأن كثيراً من الآباء كانوا يحبون بناتهم ويعزونهن ، ويحذبون عليهن ، فقد دخلت أم الحكم على أبيها الزبير بن عبد المطلب ، فهش لها ، وقال :

يا حبذا أم الحكم كأنها ريم أجم^(١)

يا بعلها ماذا يشم ساهم فيها فسهم

وكان لمعن بن أوس — الشاعر المخضرم — ثلاث بنات ، وكان يؤثرهن ويعتز بهن ولا يحب أن يكون له بهن رجال ، لأن في الإناث من هن أصلح من الذكور ، ولأنهن وفيات لآبائهن ، يمرضنهم إذا مرضوا ، ويعدهنهم إذا سقموا ، وينجن عليهم إذا ماتوا :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صواح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملئنه ونوائح^(٢)

ويقول حسان بن الغدير في تحبيب البنات :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وهن البواكي والجيوب النواصح^(٣)

ويتجلى حب الأب لابنته في قول عامر بن الظرب لصعصعة بن معاوية لما خطب إليه بنته عميرة : يا صعصعة إنك أتيقني تشتري مني كبدي ، وأرحم ولدي عندي ، والحسيد كفء الحسيد ، والزوج الصالح أب بعد أب^(٤) . وفي قول عتبة لابن أخيه عثمان بن عنبسة

(١) الأمازي ١١٧/٢ أجم : ليس له قرنان وفي رواية الأمازي أحم . يشم : يختبر . ساهم فسهم : قارع فقرع وغلب . (٢) اللطائف والظرائف للثعالبي ٦٧ ومحاضرات الأدباء ٢٠٤/١ والأغاني ١٥٧/١٠ (٣) المؤتلف والمختلاف ٦٦٤ (٤) العقد الفريد ٢١٠/٣ وجمع الأمثال ٢٨٦/١

وقد خطب إليه ابنته : مرحباً بابن لم ألدّه ، أقرب قريب خطب إلى أحب حبيب قد زوجتكها وهى ألوطُ بقلبي ، فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك ، ولا تنهها فيصغر عندى قدرك (١) .

ولقد يتجلى حب الأب لابنته فى خشيتّه عليها من الحزن بعد موته ، فمثلاً تخوف لبيد أن تخمش بنتاه الوجه ، وتحلقا الشعر ، تفجعاً عليه إذا مات ، ونصحهما ألا تتاديا فى الحزن وأن ترضيا بقضاء الله :

تمنى ابنتى أن يعيش أبوها وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
وفى ابنى نزار أسوة إن جزعنا وإن تسألاهم تخبرا منهم الخبر
فإن حان يوم أن يموت أبوكا فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا حليفه أضع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الخول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر (٢)

بل روى ما يدل على عطف الأب على ابنته وهو يجود برمقه ، فإنه لما طعن لقيط بن زرارة يوم شعب جبلة بقى يوماً ثم مات ، وجعل يقول عند موته :

يا ليت شعرى عنك دُخْتَنُوسُ إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق الرأس أم تميمس لا بل تميمس إنها عروس (٣)

وكأنما لم يجد جحدر بن ضبيعة ما يوثق به قسمه على الجلال والكفاح حين تشتجر السيوف والرماح غير أن يدعو على ابنته باليتم ، قال فى يوم التحاليق — من أيام البسوس لبكر على تغلب — :

قد يَتمَّتْ بنتى وآمت كنتى وشعثت بعد ادهان جمتى
ردّوا على الخيل إن أملت إن لم أناجزها فجزوا لمتى (٤)

على أن البنات كانت مدللة فى صغرهما ، تلعب بالعرانس والدمى ، وتحلّى بما تحلّى به البنات ، قال امرؤ القيس :

(١) محاضرات الأدباء ١٢٣/٢

(٢) ديوان لبيد ١ والأغاني ٩٨/١٤ (٣) الأغاني ٣٨/١٠ ساسى (٤) شرح الحماسة للبريزى ٣٣/٢ والمرزوق ٥٠٧/٢ الكنة : زوجة الأخ أو الابن والمراد هنا امرأته هو . ادهان : المراد به هنا دهان الرأس والعناية بالشعر وفى رواية البريزى بعد الرهان وهو تحريف .

وهي إذ ذاك عليها مزر ولها بيت جوارٍ من لعب^(١)

٢ — ثم جاء الإسلام فزادهن عزازة ، فقد أوصى بهن النبي خيراً ، كقوله : من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار . وقوله : من كانت له أنثى فلم يبدّها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله تعالى الجنة . وله في هذا أحاديث شتى^(٢) .

وجاء في حديث عن السيدة عائشة أنها كانت تلعب مع الجوارى بالبنات (التماثيل الصغار يلعب بها) بعد زفافها فإذا دخل رسول الله خرجن ، وإذا خرج دخلن ، وقد قدم رسول الله من غزوة تبوك ، فوجد في سترها بنات لها ، فقال : ما هذا ؟ قالت : بناتي . ورأى بينهن فرساً له جناحان ، فقال : ماذا أرى وسطهن ؟ قالت : فرس ، قال : وما هذا الذي عليه ؟ قالت : جناحان . قال : فرس له جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه^(٣) .

وكانت قبل زفافها تلعب على المرجوحة^(٤) ، وأرجح أنها كانت تلعب بالدمى في بيت أبيها ثم استأنفتها في بيت الرسول .

وروى عن أم زينب بنت نبيط بن جابر أن رسول الله حلى أمها وخالتها برعات من ذهب ولؤلؤ^(٥) .

وكان رسول الله المثل الأعلى في العطف على البنات ، كان يصلي وهو يحمل على عاتقه حفيدته أمانة بنت أبي العاص^(٦) ، وكان يقبل بنته السيدة فاطمة إذا قدم من سفره ، وكان يكنيها بأمه^(٧) .

وقد رفض بعض الآباء أن يزوجوا بناتهم إلا بعد الاستيثاق من الزوج ألا يجمع الضرة ، كما سبق .

وكذلك رفض رسول الله أن يتزوج علي بن أبي طالب ضرة على ابنته لأنه كان يغار على بناته غير شديدة ، ذلك أنه لما علم أن علي بن أبي طالب يريد أن يتزوج علي فاطمة غضب وصعد المنبر وقال : إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم

(١) ديوان امرئ القيس ٥٥ والكنز الثمين ١٩٦

(٢) تيسير الوصول ٤٧/١ وكنز العمال ٢٧٧/٨

(٣) سنن أبي داود ١٩٧/٢ و٢٠١١ والإحياء ٣٤٥/٢ وريبع الأبرار للزخشرى والقاموس المحيط والصحاح والطبقات ٤٠/٨ (٤) الطبقات ٤٠/٨ (٥) الإصابة ٤٧/٨ وأسد الغابة ٥٨٥٥ و٤٢١/٥ (٦) الإصابة ١٤/٨ وهي بنت بنته زينب (٧) أسد الغابة ٥١٩/٥ والإصابة ١٥٧/٨

لا آذن . ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنما هي بضعة مني ، يريدني ما أرادها ، ويؤذني ما آذاها^(١) .

وقد اقتدى به كثير من المسلمين في عطفه على البنات مثل حطان بن المعلى في قوله :

لولا بُنَيَّاتِ كَرْغَبِ الْقَطَا رَدَدَنْ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَحْكَامُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَتْ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمَضِ^(٢)

ويشبهه في حذبه أبو خالد القناني^(٣) واسحق بن خلف^(٤) والمرار بن منقذ^(٥)

على أن هؤلاء جروا أيضا على عرق من حذب الآباء في الجاهلية ، إذ ليس من الطبيعي أن يبدل الإسلام طباع العرب من النقيض إلى النقيض في برهة من الزمن ، فيسلخهم من حباتهم الأولى سلخاً في بضعة أعوام ، لأن خروج الأفكار من عقول الجماعة صعب كدخولها^(٦) ، فلا بد للانسلاخ من عاداتهم الأولى من زمان طويل يكفل تحولهم في تودة . لذلك لم يكن عجباً أن أحب العرب البنات ، وعطفوا عليهن . ولم يكن عجباً أن أبغضهن بعضهم حتى في الإسلام كما سيجيء .

على أنهم ما كانوا يقيمون بالبكر الذكر ، فإن كان البكر ابن بكر تشاءموا به ، وإن كان ابن بكرين فهو في الشؤم مثل قيس بن زهير ، فإنه كان أزرق وبكراً ابن بكرين . ثم لمهم كانوا يحبون أن تبكر البكر بجمارية^(٧) .

ويعلل الجاحظ لذلك بأنهم كانوا لا يعنون بحياة الولد البكر كما يعنون بحياة الثاني ، فهم يؤثرون أن تبكر البكر بجمارية ، لشدة خوفهم على الذكر . ولكن هذا التعليل لا يتفق

(١) فتح الباري ٢٨٦/٩ وسنن أبي داود ٢٠٦/١ وأسد الغابة ٥٢١/٥ والإصابة ١٥٧/٨

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٨٧/١ (٣) المرزوقي ٢٨٤/١ (٤) المرزوقي ٢٨٢/١

(٥) المفضليات ٨٩/١

(٦) روح الاجتماع . جستاف لوبون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩

(٧) الحيوان للجاحظ ١٧٤/٣ هارون

مع قوله إنهم كانوا يتشاءمون بالبكر (الذكر) وإنهم كانوا أشد تشاؤماً بالبكر ابن البكر وابن البكرين ، فالعلة إذا تشاؤم لا خوف على الوليد .

ولقد يكون مبعث تشاؤمهم أنهم اعتقدوا أن ابن البكر أو البكرين يحىء في شرخ شباب والديه وفورتهما فيرث عنهما نزقا لا يصح أن يوصف به الرجل ، أما الآتي فإن طبيعتها السالبة تخفف من حدة النزق والرعوننة .

تمدح تكريماً لأبيها

كانت البنت تكرم مرضاة لأبيها ، وتعظيماً له ، ولم يمدحها المادح إلا لأنه يعلم عزازتها على أبيها ، وأن مدحها تبجيل له . يدل على ذلك أن أوس بن حجر كان قد سقط من فوق ناقته ، وآواه فضالة بن كعدة ، وكانت تمرضه حليلة بنت فضالة حتى برى ، فقال :

لعم — رك ما ملت ثواء ثوبها	حليلة إذ ألقى مراسي مقعدى
ولكن تلتق باليدين ضماتى	وحل بشرج فالقبايل عودى
ولم تلهها تلك التكاليف أنها	كما شئت من أكرومة وتخود
سأجزيك أو يجزيك عنى مئوب	وقصرك أن يثنى عليك ويحمد ^(١)

ولما أغار النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي — قائد الحارث بن أبي شمر — على بني ذبيان ، وسبي سبياً من غطفان ، وأخذ عترب بنت النابغة ، سألها من أنت ؟ فقالت : أنا بنت النابغة ، فقال لها . والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ، ولا أنفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلها ، ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا ، فأطلق له سبي غطفان وأسراهم ، فقال النابغة في مدحه :

يقودهم النعمان من — بمحصف	وكيد يغم الخارجي مناجد
فآب بأبكار وعون عقائل	أوانس يحميها امرؤ غير زاهد
غ — رائ لم يلقين بأساء قبلها	لدى ابن الجلاح ما يثقن بوافد
أصاب بني غيظ فأضحوا عباده	وجللها نغمى على غير واحد
فسكنت نفسى بعدما طار روحها	وألبيتني نغمى ولست بشاهد ^(٢)

يعتد أبوها برأيها وبجوارها

١ — أليست استشارة الرجل لابنته دليلاً على إعزازها وتقديرها ؟ لقد كان أبوها يستشيرها في زواجها كما سبق ، وكان يستشيرها أيضاً في أموره الخاصة ويستصوب رأيها . وهكذا كان يفعل لقيط بن زرارة ، فيرجع إلى رأى ابنته دختنوس ، ويستصحبها معه في غزواته ، ويرجع إلى رأيها^(١) . وهكذا كان يفعل عامر بن الظرب ، فقد كانت ابنته عمرة تقرر له العصا إذا سها في الحكم ، وفيه يقول المتلس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرر العصا وما علم الإنسان إلا ليعلم^(٢)

ولقد بلغ بالبنت حسن الرأي وعلو القدر إلى أن تصلح ما بين أبيها وجدها ، كما فعلت الجهمانة بنت قيس بن زهير العبسي ، إذ قالت لأبيها لما تنازع مع حميه الربيع بن زياد العبسي في درع لقيس اغتصبها الربيع : دعى أناظر جدى ، فإن صلح الأمر بينكما وإلا كنت من وراء رأيك . فأذن لها ، فأنت جدتها الربيع فقالت : إذا كان قيس أبى فإنك جدى ، وما يجب من حق الأبوة على إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعته العناية ، وتجلي عن محضه النصيحة . إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجد مكافأته إياك سوء عزمه ، والمعارض منتصر ، والبادى أظلم ، وليس قيس بمن يخوف بالوعيد ولا يردعه التهديد ، فلا تترك إلى منابذته ، فالحزم فى متاركته ، والحرب متلفة ، والسلم أرخى للبال . ثم قالت :

أبى لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى

فرأى أبى رأى البخیل بماله وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

فرق جدتها ورد الدرع إلى أبيها وتصافيا^(٣) . ولكن الصفاء كان مؤقتاً لأن أسباباً أخرى أشعلت الحرب بينهما^(٤) .

٢ — وإذا أجارت نفذ أبوها إيجارتها ، ولو أنها تشعر بضعتها ما أجارت ، ولو أن أباه لا يعتد بها ما أمضى إيجارتها . من ذلك أن عمرو بن عبد الملك طلب مروان بن زنباع العبسي ، فخرج هارباً حتى أتى أبيات بنى شيبان ، فلجأ إلى أعظمها — وكان لجماعة بنت

(١) الكامل لابن الأثير ٢١٢/١ (٢) الأغاني ٣/٥ الدارولسان العرب مادة قرع

(٣) بلاغات النساء لابن طيفور ١٢٥ (٤) الأغاني ٢٨/١٦ وشعراء النصرانية ٩٢١

والكامل لابن الأثير ٢٠٤/١

عوف الشيباني — فاستجارها ، فأجارته ، ثم لحقته خيل عمرو ، فبعثت جماعة إلى أبيها أنها قد أجارته ، فخماه من مطارديه^(١) . وكذلك أجات فُكَيْهَة بنت قتاد السليكي بن السُلَكة من بعض قومها ، فلما أدركوه قامت دونه ، وكشفت خمارها عن شعرها ، وصاحت بإخوتها فجاءوها ، ودفعوا عنه حتى نجا من القتل ، فمدحها السليكي بقوله :

لعمر أبيك والأنباء تنمى لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخفريات لم تفضح أباهما ولم ترفع لإخوتها شئارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا^(٢)

٣ — وقد أبقي الإسلام على حقها في الإجارة ، لأنها تكريم لها وإعزاز ، من ذلك أنه لما أسر أبو العاص بن الربيع في غزوة بدر ، وشرعت قريش تفدى أسراها ، بعثت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم — وكانت بمكة — بمال في فداء زوجها أبي العاص ، وفيه قلادة لها كانت السيدة خديجة أدخلتها بها على أبي العاص — وهو بن أختها — ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا . فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه ، وردوا عليها الذي لها . ثم فرق الإسلام بينهما ، وجاءت زينب إلى المدينة . وبعد مدة قابلت سرية لرسول الله أبا العاص عائداً من الشام ، فأصابوا ما معه ، وهرب منهم ، ولكنه أقبل في الليل حتى دخل على زينب فاستجار بها ، فأجارته . وفي صلاة الصبح صرخت من صفة النساء : أيها الناس ، إني قد أجات أبا العاص بن الربيع . فلما سلم رسول الله أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف فدخل على ابنته ، فقال لها : أي بنية أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحمين له . ثم أسلم أبو العاص ، فرد عليه رسول الله زينب بالنكاح الأول ، ورد عليه ماله^(٣)

وفي الإسلام أيضاً أجات أم هانئ بنت أبي طالب رجلين من أحمائها ، فأجارهما النبي صلى الله عليه وسلم .^(٤)

(١) أخبار النساء لابن قيم ٦٥ (٢) المحبر ٤٣٣ والأغاني ١٨/١٣٧ والمحاسن والأضداد ٥٥

(٣) سيرة ابن هشام ٢٩٧/٢ و ٣٠٤ وتاريخ الطبري ١/٢٩١ وتاريخ يعقوب ٢/٧٣ والإصابة

٩٢/٨ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٠ (٤) سيرة ابن هشام ٤/٣٠ .

كنائته باسمها

ومن مظاهر تقدير البنت وعزازتها أن الآباء كثيراً ما كانوا يُسَكِّنُون بأسماء بناتهم كما يكونون بأسماء أبنائهم . يقول أوس بن حجر مفتخراً بنصرهم وببسالة أبي ليلى :

وجاءت سُليمٌ قضاها وقضيضها بأكثر ما كانوا عديداً وأوكعوا
وجئنا بها شهباء ذات أشلة لها عارض فيه الأسنة تلعب
فرد أبو ليلى طفيل بن مالك بمنعرج السُّوبات لا يتقصع^(١)

ويقول راشد بن شهاب اليشكري في هجاء قيس بن مسعود الشيباني :

فهلا أبا الخنساء لا تشتمني فتقرع بعد اليوم سنك بالندم^(٢)
وأمثال هذا كثير ، مثل حذيفة — أوسهيل — بن المغيرة كان يكنى أبا أمية^(٣) ، وربيعه
ابن رياح والد زهير اشتهر باسم أبي سُلَيْ^(٤) ، ووالد حنظلة الطائي كنى بأبي عفراء^(٥) ، ومسافر
ابن أبي عمرو بن أمية كان يكنى بأبي أمية^(٦) ، والنابعة الذبياني كان يسمى أبا أمامة^(٧) ،
ولقب معن أحد أجداد أعشى باهلة باسم بنته فسمى أبا باهلة^(٨) ، وكنى مالك بن عمرو بن ثابت
بأنه أبو حنة^(٩) ، وجابر بن أسامة الجهني بأبي سعاد^(١٠) ، وعمرو بن عبد الله الجمحي
بأبي عزة^(١١) ، وحاتم الطائي بأبي سفانة^(١٢) ، وهناك أبو أمامة^(١٣) ، وأبو ريطة^(١٤)
وأبو آمنة^(١٥) ، وأبو جميلة^(١٦) ، وأبو أسماء ، وأبو كدراء العجلي^(١٧) ، وأبو نائلة^(١٨) ،
وأبو لبابة^(١٩) . ويظهر أن اليهود الذين عاشوا بالحجاز حاكوا العرب في ذلك ، لأن أبا الحارث
الذي أجلى عمر آلِه إلى أريحاء بفلسطين كان يسمى أبا زينب^(٢٠) .

ولإذا كان الأب يكنى باسم ابنته إعزازاً لها فإنه كان يتجه إليها بفخره كما كان يتجه به إلى
محبوبته وزوجته . قال ثعلبة بن عمرو :

أسماء لم تسألني عن أبيك والقوم قد كان فيهم خطوب

- (١) ديوان أوس ١١ وأساس البلاغة مادة شل . أوكعوا : جاءوا بأمر شديد . أشلة . جمع شليل وهو ما يلبس تحت الدرع . لا يتقصع : لا يخرج من ثقب الجبل (٢) المفضليات ١٠٨/٢
(٣) الإصابة ٢٠٣/٨ (٤) الأغاني ١٣٩/٩ (٥) الأغاني ٩٨/٩ (٦) الأغاني ٤٦/٨
(٧) الأغاني ١٥٤/٩ وخزانة الأدب ٥/٢ (٨) خزانة الأدب ١٣٠/١ (٩) الطبقات الكبير
٤٥/٣ (١٠) أسد الغابة ٢٠٨/٥ (٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٩١ (١٢) أسد الغابة ٤٧٥/٥
(١٣) المعارف ٢٧/٣ (١٤) أسد الغابة ١٩٨/٥ (١٥) أسد الغابة ١٣٢/٥
(١٦) أسد الغابة ١٦٠/٥ (١٧) الوحشيات لأبي تمام ٦٢ مخطوط (١٨) المغازي ١٨٧
(١٩) المعارف ٢٥٨ (٢٠) المغازي ٢٧١

إِن عَرِيَا وَإِن سَاءَنِي أَحَب حَبِيب وَأَدْنَى قَرِيب
ثُمَّ أَخَذَ يَعْدُدُ مَفَاخِرَهُ ، وَيَصِفُ مَهْرَهُ وَنِكَاحِيَّتَهُ بَعْدُوهُ ^(١).

بَغْضُ بَعْضِهِمُ لِلْبَنَاتِ

١ — رَغِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ عَنِ الْبَنَاتِ ، وَذَاعَتْ بَغْضَتُهُمْ وَاشْتَهَرُوا بِهَا . فَقَدْ قِيلَ
لِأَعْرَابِيٍّ ، مَا وَلَدَكَ ؟ قَالَ : قَلِيلٌ خَبِيثٌ ، قِيلَ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لَا عِدَدَ أَقْلٍ مِنَ الْوَاحِدِ
وَلَا أَخْبَثَ مِنْ بَنَتٍ ^(٢) . وَقَدْ هَجَرَ أَبُو حَمْزَةَ الضَّبِّيَّ خِيْمَةَ امْرَأَتِهِ حِينَ وَلَدَتْ بَنَاتًا . وَكَانَ يَقِيلُ
وَيُمِيتُ عِنْدَ جِيرَانِهِ ، فَرَّ بِخَبَائِهَا يَوْمًا ، فَسَمِعَهَا تَتَغَنَّى لِابْنَتِهَا بِقَوْلِهَا :

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينَا يَظُلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضَبَانِ أَلَا نُلِدُ الْبَنِينَ تَالَلَّهِ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالْأَرْضِ لَزَارِعِينَا
نَنْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فَثَابَ إِلَى رَشْدِهِ ، وَوَجَلَ الْخُبَاءَ فَقَبِلَ رَأْسَ زَوْجَتِهِ . وَقَبِلَ ابْنَتَهُ ^(٣) . وَكَانُوا إِذَا هَنَّتُوا
بِهَا قَالُوا : آمَنَّاكَ اللَّهُ عَارَهَا ، وَكَفَاكَ مَثْوْنَتَهَا ، وَصَاهَرْتُمُ الْقَبْرَ ^(٤).

وَقَدْ سَجَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْبَغْضَةَ فِي مَوَاضِعَ شَتَّى ، قَالَ تَعَالَى : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
سُبْحَانَهُ ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » وَإِذَا بَشَرُ أَحَدُهُمْ بِالْإِنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مَسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ « يَتَوَارَى
مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيَسْكَبُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » ^(٥)
وَقَالَ . « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ » ^(٦) وَقَالَ . « أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
إِنَاثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا » ^(٧) وَقَالَ : فَاسْتَفْتِهِمُ أَلَرَبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا
الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ لِفْكَهُمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .
أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » ^(٨) وَقَالَ : « وَإِذَا بَشَرُ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ
لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مَسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ » ^(٩). عَلَى أَنَّ بَعْضَ النِّسَاءِ شَارَكَنَ فِي هَذِهِ الْبَغْضَةِ ،
قَالَتْ امْرَأَةٌ مُحَمَّمَةٌ إِنَّهَا لَا تَبَالِي أَنْ تَلِدَ حَقًّا ، لِأَنَّهُمْ ذَكَوْرُ .

(١) سَمَطُ اللَّيْلِ ٥٢/١ وَالْمُفْضَلِيَّاتُ ٥٣/٢ (٢) اللَّطَائِفُ وَالظَّرَائِفُ ٦٨ وَنَزْهَةُ الْأَبْصَارِ
وَالْأَسْمَاعِ ٤٤ (٣) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ١٨٦/١ وَ ٤٧/٤ هَارُونَ (٤) مُحَاضِرَاتُ الْأَدْبَاءِ ٢٠٤/١
(٥) النُّجُلُ ٥٧ — ٥٩ (٦) النُّجُلُ ٦٢ (٧) الْإِسْرَاءُ ٤٠ (٨) الصَّافَاتُ ١٤٩ — ١٥٤
(٩) الزُّخْرُفُ ١٧

وما أبالي أن أكون مُحَمَّمة إذا رأيت خُصِيَّةً معلقةً (١)
وقالت قابلة لامرأة اسمها سحابة وقد ضربها المخاض ، وهي تُطْلَقُ على يديها :
أيا سحاب طرَّق بخير وطرَّق بخصية وأير
ولا ترينا طرف البُظير

٢ — ولم تقتصر هذه البغضة على الجاهليين ، فقد كان بعض المسلمين يبغيضون البنات ،
على تنديد القرآن والحديث ببغضة أسلافهم للبنات . فليس من الإنصاف أن يوصم الجاهليون
وحدهم بهذه الوصمة .

فقد رأى عمرو بن العاص معاوية ومعه ابنته عائشة ، فقال : من هذه يا أمير المؤمنين ؟
فقال : هذه تفاحه البيت . فقال عمرو : انبذها عنك ، فإنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ،
ويورثن الضغائن . قال : لا تقل كذا يا عمرو ، فوالله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى ،
ولا أعان على الأحزان إلا هن . فقال عمرو : ما أراك إلا حبيبتين إلى (٣) .
وكذلك كان عقيل بن علفة يؤثر موت البنت على أن تحيا وتزوج ، وإن عظم الزوج
وكثر المهر .

إني وإن سيق إلى المهر ألف وعبدان وذود عشر
أحب أصهارى إلى القبر (٤)

وكان إسحاق بن خلف البهراني يود أن تموت أميمة وهو يعلم أنها كلفة بحياته ، غير أنه
في تعجله موتها صور حبه لها وحده عليها وحزنه من بكائها عليه إذا مات .

لولا أميمة لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي حنّس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يحفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أبكى عليها من أذى الكلم
تهوى حياتي وأهوى موتها شففا والموت أكرم نزال على الحرم

(١) البيان والتبيين ١٦٢/١ السندوني (٢) شرح الحماسة للرزوقي ١٦٨/٤ والحيوان ١٨١/٥
تحقيق هارون والبيان والتبيين ١٦٣/١ السندوني . طرق : المراد بشرى بخروج الجنين
(٣) اللطائف والظرائف للشعالي ٦٨ ونزهة الأبصار والأسماع ٤٤ (٤) زهر الآداب ١٧٤/٢
تحقيق زكي مبارك ، وذكر أنه ابن علقمة ، والصواب علفة كما في المؤتلف والمختلف للآمدی ١٦٠
ومعجم الشعراء للرزباني ٣٠١ وشرح الحماسة للتبريزي ٢٠٩/١ و٢٣/٣ و٨٦ وطبقات الشعراء
لابن سلام ٥٦١

إذا تذكرت بنتي حين تندبني فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم^(١)
فلما ماتت قال أبياتا منها :

فالآن نمت فلا همٌّ يُورقني بعد الهدوء ولا وجدٌ ولا حلمٌ
للنوتِ عندي أيا دٍ لست أنكرها أحياء سرورا وبى مما أتى ألم^(٢)

وعدَّ عبيد الله بن عبدالله بن طاهر وسائل الستر التي يرجيها كل أب لابنته ، وفضل القبر عليها جميعا :

لكل أبي بنت يُرجى بقاؤها ثلاثة أصهار إذا ذكر الصهر
فببت يغطيها وبعل يصونها وقبر يوارىها ، وخيرهم القبر^(٣)

وروى أن الأحنف بن قيس لما بشر بابنته بكى ، فقبل له في ذلك ، فقال :
وكيف لا تأخذني العبرة ، وهي عورة ، هديتها سرقة ، وسلاحها البكاء ، ومهناها لغيري^(٤)
أما أبو العلاء المعري فكان أشد بغضة للبنات من البنين . ويرى في دفنهن مكرمة .

وإن تعط الأنث فأى بؤس تبين في وجه — وه مقسمات

ودفن والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى المكرمات^(٥)

الوآد

كيف يطيق أب أن يبوى ابنته حفرتها بيديه ؟
وأين ذهبت عاطفة الأبوة وآصرة الإنسانية وخلق الرحمة والشفقة ؟
إن الوآد صورة بشعة تستدر الدموع ، وتستثير الألم ، فكيف صبر الأب عليه ؟
وكيف احتملت الأم آلامه ؟ وهل يتفق الوآد مع ما قدمت من عزازة المرأة أما
وزوجة وابنة ؟

(١) فوت الوفيات لابن شاكر ١٠/١ وزهر الآداب ١٧٤/٢ (٢) زهر الآداب ١/٢٠٤ و ١٧٤/٢
(٣) زهر الآداب ١٧٤/٢ (٤) محاضرات الأدباء ١/٢٠٤ (٥) اللزوميات ١/١٥١

سبب الوأد

١ — ذكر القرآن الكريم أن بعضهم كانوا يثدّون مخافة الفقر أن ينزل بهم ، فيضيق وجدهم عن الإنفاق على الذكور وعلى الإناث معاً ، قال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم » (١) . وذكر أن بعضهم كانوا يثدّون تخففاً من الأولاد ، لأنهم عاجزون عن الإنفاق عليهم « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » (٢) . لهذا قدم الله تعالى رزق الآباء على رزق الأبناء في مقام توقع الفقر والخشية منه في المستقبل ، وقدم رزق الأبناء على رزق الآباء في مقام الفقر الواقع الحادث (٣) فالأولون هم الأغنياء والآخرين هم الفقراء .

كان الوأد أثراً من آثار الفقر المتخوف أو الحادث ، لأن البيئة شحيحة بالزاد ، ضئيلة بالخير ، كثيرة الفواجع والمجاعات ، ليس بها زرع يمون سكانها ، ولا صناعات ينشرونها في الآفاق ، فتدر عليهم الأموال ، والإناث في هذه البيئة عبء على الآباء ؛ لأنهن يأخذن ولا يعطين ، وينفقن ولا يكسبن ، « ولا شك أن الوأد عادة منكورة ، ولكن المجاعات الكثيرة نتيجة لندرة الأمطار دفعت إليها » (٤) .

وإذا كان العرب قد اضطروا إلى استكمال حاجتهم بالإغارة على القبائل المجاورة فإنهم قد اضطروا أيضاً إلى الوأد خشية الإملاق (٥) . وكان العرب الذين يثدّون يعتقدون أن الوأد يدل على الأريحية ، كما كان بعضهم يباهى به ، وبعضهم يقتترفه منجاة من احتمال متاعب من بنات قد يؤسرن . ولكن القرآن الكريم يذكر الفقر وحده ، وهذا حق ؛ لأن البيئة مجدبة جداً ، وقد ذكر مستر داووق كثيراً من المشقات التي يقاسيها سكان الصحراء في أكثر شهور السنة ، حيث لا يجد الطعام إلا الأغنياء (٦) .

وما يدل على أن الوأد كان في الأغنياء أيضاً أن مهلهل بن ربيعة أمر زوجته حين ولدت له بنتاً أن تقتلها ، فأمرت خادماً لها أن تغيبها عندها ، ثم بدا له فأمرها بإحسان تربيتها ،

(١) الإسراء ٣١ (٢) الأنعام ١٥١ (٣) روح المعاني ٥٤/٨

(٤) Nicholson. P. ٥٠

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٢٦٧/٦ (٦) Moslem Law. P. 26

فكبرت حتى تزوجت^(١) ، وسنرى أن كثيراً من الأغنياء وأدوا .

وكان الوأد مقصوراً على الإناث ، وإذا فالمراد من الأولاد في الآيتين الكريمتين الإناث ، وهذا هو المفهوم من حديث صعصعة بن ناجية ، ذلك بأنه خرج يبحث عن ناقتين له ، فمر على قوم من بني أنمار من تميم ، وإذا شيخ يوقد ناراً في مقدم بيته ، ونساء قد اجتمعن إلى امرأة ماخض ، وتكلمت النساء فقلن : « قد جاء » يعنين الولد ؟ قال الشيخ : « إن كان غلاماً فوالله ما أدري ما أصنع به ، وإن كانت جارية فلا أسمع صوتها ، اقتلنها » قلت : « ذرها فإنها ابنتك ورزقها على الله » ، قال « إني أراك بها حفيماً فاشترها مني » فأعطيته ناقتين وجملًا^(٢)

فهذا الرجل حيران ، ماذا يصنع بابنه الذكر ؟ وكيف يطعمه ؟ ولكنه لم يهتم بقتله ، بل اعزم قتل الأنثى .

٢ — وقد ذكر المؤرخون والمفسرون أن من أسباب الوأد الغيرة على البنات أن يسمين أو يزوجن بغير أكفاء^(٣) ، وقالوا إن أول من فعل ذلك قيس بن عاصم ، ذلك بأن تميم منعت الإتاوة عن النعمان بن المنذر ، فخار بهم وسبى نساءهم ، ثم وفد قيس على النعمان ليسترد السبايا ، فأثرن العودة إلا بنته فقد آثرت سايها على أبيها ، فانصرف قيس فوآد كل بنت ، وجعل ذاك سنة كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب ، فكان كل سيد تولد له بنت يئدها خوفاً من الفضيحة^(٤) ولما وفد قيس بن عاصم على رسول الله سأل بعض الأنصار عن وأده ، فأخبرهم أنه ما ولدت له بنت إلا وأدها^(٥) ، وحدث رسول الله بقوله : كنت أخاف سوء الأحداث والفضيحة في البنات ، فما ولدت لى بنت قط إلا وأدتها^(٦) . وقد أمره النبي أن يعتق عن كل موءودة رقبة ، فقال له أبو بكر : فما الذي حملك على ذلك وأنت

(١) الأغاني ١٧٥/٩ ساسي . (٢) تفسير الطبري ٧٥/١٥ والنيسابوري ٣٣/١٥ والكشاف ٥٤٦/١ والاعتصام ١٨١/٢ (٣) النقائض ٦٩٧
(٤) النيسابوري ٣٣/١٥ والكشاف ٥٢٦/٢ والقرطبي ١١٧/١٠ والاعتصام ١٨١/٢ وروح المعاني ٣٢/٨ (٥) الأغاني ١٤٤/١٢ والكامل للمبرد ٢٨٨/١ وصحيح البخاري في الوأد وجمع الأمثال ٣٨٩/١ وشرح ابن أبي الحديد ٢٤٢/٣ ونهاية الأرب ١٠٧/٣ وفي الأغاني أن التي امتنعت بنت أختها (٦) الأغاني ١٤٣/١٢ (٧) الأغاني ١٤٣/١٢

أكثر العرب مالا؟ قال: مخافة أن ينكحهن مثلك. فتبسم رسول الله وقال: هذا سيد أهل الوبر^(١).

وإني أشك في أن يكون قيس هذا أول وائد، لأنه أدرك الإسلام، وأسلم^(٢)، فليس بمعقول أن ينشأ الواد قبيل الإسلام بسنوات، ثم يشيع في بعض قبائل العرب في زمن وجيز، ثم ليس بمعقول أن يحاكي العرب قيس بن عاصم ويشايعوه في عمله، لأن حادثته فردية لا ينشأ عنها عمل إجماعي، وكان حرياً بالعرب أن يعيروه لا أن يحاكوه.

على أنهم اختلفوا في أول وائد، فقليل إنه قيس، وقيل إنه أمير من ربيعة، وذكروا في سبب وأده قصة تشبه تمام الشبه قصة قيس^(٣) ويرجع بعضهم القهقري إلى زمن أبعد، فينسب الواد الأول إلى لقمان بن عاد، لأنه كان يقتل نساءه انتقاماً، بعد أن خُنته، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل كان أول من تلقاه صُخْرًا بنته فوثب عليها فقتلها، وقال: أنت أيضاً امرأة، فضربت العرب المثل بقتله صُخْرًا، قال خُفاف بن ندبة:

وعِمَّاشٌ يُدِبُّ لى المنايا وما أذنبت إلا ذنب صُخْرٍ
وقال عروة بن أذينة:

أتجمع تهماً بليلى إذا نأت وهجرانها ظلماً كما ظلمت صُخْرًا^(٤)

وسواء أكان الوائد الأول معلوماً أم مجهولاً فإنى أرجح أن الخوف من العار كان باعثاً من بواعث الواد، لأن الحروب والغارات كانت لا تخبو نارها، وكان السبي من آثارها، والعرب غير على النساء، والسبي معرة في نظرهم كما سنرى في فصل السبايا.

وإذا كان القرآن الكريم قد اقتصر على ذكر الفقر والخوف من الفقر، ولم يشر إلى السباء، فإن ذلك راجع إلى أن الفقر والخوف منه مردّهما إلى الله تعالى، وإليه الأمل في زوالهما، أما السبي فرجعه إلى العباد وحروبهم، والحروب لا مندوحة عنها، والسبي نتيجة من نتائجها، فكيف ينههم القرآن الكريم عن الواد مخافة السبي وهو لا يحيد عنه؟

نعم كان السبي — كما سألين في السبايا — متوقعاً لا مفر منه « فكان الدافع إلى الواد النزوع إلى المحافظة على الشرف، لأن الآباء كانوا يخشون إطفاء أفواه لا فائدة فيها، ويخشون

(١) محاضرات الأدباء ٢٠٥/١

(٢) الأغاني ١٤٣/١٢ (٣) بلوغ الأرب ٢/٣ (٤) الميوان للجاحظ ٢١/١ هارون

أيضاً أن يصيبهم العار من وقوع بناتهم في قبضة الغالبين^(١) ،

٣ — وقد ذهب الدكتور على عبد الواحد وافي إلى أن وأد البنات دون الذكور راجع إلى عقيدة دينية قديمة .

وذلك أنهم اعتقدوا أن البنات رجس من خلق الشيطان ، أى من خلق إله غير آلهتهم ، فتخلصوا منهن .

وله أدلة على نظريته هذه من الآيات القرآنية الكثيرة التى تربط وأد البنات بنظام من العقيدة ، كقوله تعالى « ويجعلون لما لا يعلمون — أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جماد — نصيباً مما رزقناهم — من الزروع والآنعام — تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم — أى لآلهتهم — ما يشتهون — أى البنين . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم »^(٢) .

وهو يذهب إلى أن هذا نوع من الوأد مقصور على البنات . غير الوأد الذى سببه الفقر^(٣) ٤ — وقيل إن بعضهم كان يثد نوعاً من الإناث هن الزرقاء ، والشيماء — السوداء أو التى فى بدنهما بقع تخالف سائره ، والبرشاء — التى بها نكت صفار تخالف بقية لونها — والكسحاء ، وسبب هذا الوأد التشاؤم من هؤلاء^(٤) . وإن صح هذا فلعل سببه أن اليأس من تزويجهم كان مشفوعاً إلى التشاؤم منهن ، وربما كان السببان معا مشفوعين إلى الفقر أو مخافة الفقر .

طريقة الوأد

تنوعت وسائل الوأد ، فبعضهم كان يحفر حفيرة ، تمخض المرأة على حافتها فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة ، وإن ولدت واداً احتفظت به ، وبعضهم كان يرميها من شاهق جبل ، ومنهم من كان يغرقها ، ومنهم من كان يذبحها^(٥) .

والأعم الأكثر أن تؤاد البنات حين ولادتها ، وإن وردت أخبار عن وأد فى الكبر ، فقد ذكر قيس بن عاصم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأته ولدت بنتاً فى سفره ، فدفعها إلى أخوالها ، فلما قدم من سفره أخبرته أنها ولدت ولداً ميتاً ، ومضت سنون حتى

(١) Nicholson P. 91

(٢) سورة النحل ٥٦ — ٥٩ (٣) الأسرة والمجتمع ١١٩ — ١٢٣ ومجلة الرسالة ٣ مارس

سنة ١٩٤١ (٤) إنسان العيون ١/٥٠ والروض الأنف ١/١٤٨ (٥) تفسير الطبرى ١٤/٨٤

والكشفاف ٢/٥٢٦ والنيسابورى ١٤/٧٧

كبرت الصبية ويفعت فزارت أمها يوما ، فرآها قيس فأعجبته ، فسأل عنها ، فبكت أمها وقالت له : هذه ابنتك وقصت عليه حيلتها . قال : فأمسكت حتى اشتغلت عنها ، ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة ، فجعلتها فيها ، وجعلت أقذف عليها التراب ، وهي تقول : يا أبت أمغطى أنت بالتراب ؟ أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني ؟ وجعلت أقذف عليها التراب حتى واريته وانقطع صوتها ، فما رحمت أحدا ممن واريته غيرها . فدمعت عينا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال إن هذه لقسوة وإن من لم يرحم لا يرحم^(١) . ويذكر الزمخشري أن الرجل كان إذا أراد أن يستحي بنته ألبسها جبة صوف أو شعر ، وأرعاها إبله أو غنمه في البادية ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئرا في الصحراء ، ثم يدفعها فيها ويهيل عليها التراب^(٢) .

وأرى أن إمهال البنت حتى تكبر ثم وأدها أمر بعيد الاحتمال ، فما الذي زين لأبيها أن يستحيها إلى هذه السن ؟ ولماذا لم يتخلص منها وهي وليدة ؟ لماذا أبقاها سنوات ينفق عليها ويتعلق بها وتعلق بها أمها ثم يقتلها ؟

هل اقتصر الوأد على الإناث ؟

لم يقتصر القتل على الإناث ، بل تعداهن إلى الذكور ، بدليل قوله تعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . . . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله أفراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين»^(٣) . وذلك أن أهل المدر والحرث كانوا يقسمون ما حرثوا قسمين : قسما لألهتهم وقسما لله ، فإن سقط فيما لألهتهم شيء مما لله تركوه وأقروه ، وإن سقط فيما جعلوه لله شيء مما لألهتهم ردوه^(٤) ، فوبخهم الله على زعمهم وسوء فعلهم ، ثم شبه بضلالهم هذا ضلالا آخر ، هو أن شركاءهم من الشياطين أوسدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بالنحر للآلهة ، وكان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاما

(١) الأغاني ١٢/١٤٣ (٢) الكشف ٢/٥٢٦ (٣) الأنعام ١٣٦ — ١٤٠

(٤) الخبر ٣٣١

لينحرن أحدهم ، كما حلف عبد المطلب في ابنه عبد الله^(١) ، فقد نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالا أن ينحرا أحدهم الكعبة شكرا لربه ، فلما استكمل أولاده العدد هم بإنجاز ما وعد ، وأجال القداح بينهم ، فكان الذبح نصيب عبد الله ، فخماه أخواله بنو مخزوم ، وأشاروا على عبد المطلب أن يحتكم إلى كاهنة بنى سعد ، فحكمت بالدية مائة بعير فداء لعبد الله^(٢) .

ويظهر من نص الآيات القرآنية النهى عن قتل الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا^(٣) .
على أننا لم نعرف حادثا اللهم بقتل الولد الذكر غير حادث عبد المطلب .

هل كان الوأد عاما؟

ذهب المتنقصون من قدر العرب عامدين أو غير عامدين إلى أن الوأد كان عاما في القبائل كلها ، ونقل الميداني عن الهيثم بن عدى أنه كان في قبائل العرب قاطبة ، يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام وقد قل إلا في تميم ، فإنه تزايد فيهم قبل الإسلام^(٤) .

وذهب الباقيون إلى أنه كان في بعض القبائل ، ولم يكن في جميعها ، وذكروا هذه القبائل وهي : تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل^(٥) ، ومن لم يثدوا : الطلّس وهم جميع أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك ، وعجيب وإياد بن نزار^(٦) . وهذا هو الحق ، لأن إعزاز بعضهم للبنات -- كما سبق -- يتنافى وذلك الوأد العام ، ولو أن الوأد كان عاما في العرب كما ذهب الهيثم بن عدى لقلت النساء قلة لا تكفل للرجال تعدد الزوجات كما رأينا . ولو أنه كان عاما لتباهى به الشعراء ، ولهجوا الذين لا يثدون ، لأن الوأد فضيلة وتركه رذيلة

الأم والوَأَد

هنا تصمت المراجع والأخبار والأشعار صمتا عجيبا ، فلا تنقع غلتنا ، بل لا تبيل بعض صدانا إلى معرفة حال الأم من وأد ابنتها ، أكانت تشارك الأب في كراهيته لابنتها ؟ أم كانت تحبها وتؤثر بقاءها وتبكي لوعة وشجي حينما يختطفها أبوها ليئدها ؟ .

وكل ما عثرت عليه أن كبيرة بنت أبي سفيان -- مخضمة -- قالت لرسول الله صلى الله

(١) الكشف ٣١٢/١ والاعتصام ١٨٣/٢ وروح المعاني ٣٢/٨

(٢) نسيرة ابن هشام ١٦٧/١ والكمال لابن الأثير ٢١٥/١ وإعلام النبوة ٢٦ (٣) الاعتصام

١٨٣ وبلوغ الأرب ٤٤/٣ (٤) مجمع الأمثال ٣٨٩/١ وبلوغ الأرب ٤٢/٣ (٥) الكامل

لهبرد ١٨٨/١ وشرح ابن أبي الحديد ٢٤٢/٣ (٦) المحبر ١٧٩ و١٨١

عليه وسلم : إني وأدت أربع بنين لي في الجاهلية ، فقال : أعتق أربع رقاب^(١) ، والظاهر أنها تريد أربع بنات

وأستنتج من حادثة قيس بن عاصم السابقة أن امرأته كانت حريصة على استحياء ابنتها ، لأنها أخفتها عند أخوالها ، ثم بكى لما توجست أنه سيقتلها^(٢) ، ثم إن صعصعة بن ناحة مر برجل يحفر حفرة وامرأته تبكي ، وأخبرته أنه يريد وأد ابنتها فرق لها صعصعة وفداها^(٣) . على أني أفزع إلى الأمومة أستنبئها ، فتخبرني صادقة أن النساء كن في القبائل الوئدة حسيرات القلوب كسيرات النفوس ، غزيرات الدموع ، وأن غريزة الأمومة وطبيعة الانوثة لا تقر هذه القسوة ، ولا ترتضى أن تنتزع منها ثمرة من ثمراتها لتقدم طعمة للثرى .

ولم تكن المرأة العربية وحدها هي التي سلبت بناتها فرضيت أو كظمت لوعتها ، فقد كانت المرأة في أثينا خاضعة للزوج ، حتى إنه إذا شاء انتزع من الأم ابنتها وتركها في الجبل أو في الطريق في جرة من الفخار ، تبكي بكاء يفقت الأكباد ، إلى أن تلفظ أنفاسها . ولا تستطيع الأم أن تعارضه أو تنطق بكلمة^(٤) .

إحياء الموءودات

سيدان من سادات العرب حملا لواء الرحمة ، وأنقذا من ظلمات الحفائر بنات كثيرات ، هما صعصعة بن ناجية وزيد بن عمرو بن نفيل .

أما صعصعة جد الفرزدق فقد سمي بحي الموءودات ، وكان السبب في مكرمه هذه أنه مر برجل من قومه — تميم — يحفر بئرا ، وامرأته تبكي ، فقال لها صعصعة : ما يبكيك ؟ قالت : يريد أن يئد ابنتي هذه ، فقال له : ماحلك على هذا ؟ قال : الفقر ، قال : فإني أشتريها منك بناقيتين يتبعهما أولادهما تعيشون بألبانهما ، ولا تئد الصبية . فرضى الرجل ، فأعطاه الناقيتين وجلا خلا ، وقال في نفسه : إن هذه لمكرمة ماسبقني إليها أحد من العرب ، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها . فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة ، وقيل أربعمائة ، وقيل ستا وتسعين ، وقيل ثلاثمائة وستين^(٥) وقيل مائتين وثمانين^(٦) وقيل مائة

(١) الإصابة ١٧٦/٨

(٢) الأغاني ١٤٣/١٢ (٣) الأغاني ٤/١٩ (٤) تاريخ العالم عدد ٧ جلد ١ ص ٣٩٠
Mrs Ray Strachey (٥) الأغاني ٣/١٩ — ٥ (٦) الكامل للمبرد ٢٨٩/١

وأربعاً^(١). وليس من المنتظر أن يبلغنا العدد الحقيقي أو القريب منه ، لأن المبالغة والتنفج والمباهاة لابد أن تضاعف العدد أو تضخمه . ولقد يكون من الصواب أيضاً أن كثيراً من الفقراء ادعوا أنهم سيئذون لينالوا من عطاء صعصعة .

وقد خايل الفرزدق بإحياء جده للوئيدات في عدة قصائد ، كقوله :

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي	متى تخلف الجوزاء والدلوى يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر	على الفقر يعلم أنه غير مخفر
على حين لا تحيا البنات وإذ هم	عكوفاً على الأصنام حول المدور
أنا ابن الذي رد المنية فضله	فما حسب دافعت عنه بمعور
وفارق ليل في نساء أتت أبي	تمارس ريحاً ليلها غير متمر
فقلت : أجرلي ما ولدت فإني	أتيك من هزل الحمولة متمر
رأى الأرض منها راحة فرمى بها	إلى جدد منها إلى شر مخفر
فقال لها فيئ فيئ بدمتي	لبنتك جار من أبيها القنور ^(٢)

وقال أيضاً :

— وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد^(٣)

وروى أن غالب بن صعصعة وفد على النبي وأخبره بفعال أبيه في الموءودات ، فاستحسنه وسأله ، هل له في ذلك من أجر ؟ فقال : نعم^(٤) : وروى أن صعصعة نفسه قدم على النبي فأسلم ، وقص عليه إحياءه للوئيدات ، وسأله : هل لى في ذلك من أجر ؟ فقال : هذا باب من البر لك أجره إذ من الله عليك بالإسلام^(٥)

وأما السبد الآخر فزيد بن عمرو بن نفيل القرشى ، كان يستحي الموءودات ، فإذا بصر برجل يهم بوأد ابنته قال له : لا تقمها ، أنا أكفيك مؤنتها . ويأخذها ، وينفق عليها حتى تكبر ، ثم يقول لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيك مؤنتها^(٦) . وقيل إنه أحيا ستاً وتسعين موءودة^(٧)

(١) المحبر ١٤١ والنقائض ٢٦٤ (٢) الأغاني ٢/١٩ وديوان الفرزدق ٤٧٧

(٣) الأغاني ٤/١٩ (٤) الأغاني ٢/١٩ (٥) الأغاني ٤/١٩

(٥) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ١١٣/٣

(٦) بلوغ الأرب للألوسى ٤٥/٣

الوآء عئء غير العرب

لم يكن العرب بدءاً فى وآء البنات ، لآن بعض الاءم القءىمة فعلت بالبئىن فعلا أبشع من فعل العرب .

فالفىئىقىون كانوا يعبدون الطبىعة ، ويرمزون لها بصئم اسمه بعل ىمثل إله النور المسمى مولوخ ، وآخذوا له زوجة أشركوها فى الألوهىة سموها عشتروت (الزهرة) وكانوا فى عبادة عشتروت ىستبىحون النساء عاممة ، وفى عبادة مولوخ ىضحون بالآولاء إحراقا فى النار الملتهمة (١) .

وكان الآب الإسرائىلى ىستطىع أن ىبىع أبناءه ذكوراً وإناثاً للرق ، وقد حءت التوراة فىما بعد من هذا الحق ، لكن الآب ظل ىملك أن ىقتل أبناءه سواء أكانوا كبأراً أم صغاراً (٢) . وكان الإسرطىون ىقتلون المشوهىن والمرضى والضعاف من الأولاء عقب ولادتهم ، وىتركونهم فى القفار طعاما للوحوش والطىور . ولقد تتحقق الأم نفسها من صلاحىة ولدها للحىاة فتغمسه فى دن من البئذ مدة ، فإن عاش دل على قوة بنىته وجدارته بالحىاة فىربى ، وإن مات فقد تخلص المآتمع من إنسان ضعىف لا ىستحق أن ىعش . وكان هذا النظام أو ما ىقرب منه سائدا فى أثىنا وروما . وقد أقره فلاسفة الیونان وفى مقدمتهم أفلاطون وأرسطو (٣) .

وفى روما كان ىحمل الطفل عقب ولادته وىوضع عند قدمى والده ، فإما أن ىرفعه فىصیر فرداً من الأسرة ، وإما أن ىحملة إلى مفترق الطرق لىموت أو لىصیر من الرقىق (٤) . وقد اعتاد الصىنىون أن ىلقوا أبناءهم وبناتهم فى البحر إذا مسهم عوز (٥) .

ولم تكن هذه الشعوب لتفرق فى القتل بین الذكر والأنثى . على أن بعض الشعوب البدائىة و غيرها كانت تقتل الأولاء كلهم أو بعضهم لأسباب اقآصاءىة أو دىنىة ، فبعض العشائر الأسترالىة تختص الذكور بالقتل ، وبعضها تختص الإناث ، وفى بعضها تقتل الأمهات بعض أولادهن بغير تفرقة بین ذكور وإناث (٦) ، وبعضهم لا ىتركون للأم إلا ولداً أو اثئىن ، وىربون الآخرىن إلى سن العاشرة ثم ىذبآونهم وىأكلونهم ، وتبكى الأم قلىلا ثم

(١) المرأة فى التارىآ والشرائع لمآء جمىل بىهم ٤٤

(٢) سفر الملوك الثانى ١٥:٤ وسفر الخروج ٧:٢١ وسفر التكوىن ٣٨:٢٤ وسفر التثنىة ١٨:٩٠
Israel from its Begining. 1٤0. Abolphe. Iods.

(٣) جهورىة أفلاطون ١٣٤ والأسرة والمآتمع ١١٨ وتارىآ التربىة لمصطفى أمىن ٣٥ و٤٧
وتطور النظرىة التربوىة ٥٢ لصالح عبد العزىز (٤) تطور النظرىة التربوىة ١١٥ (٥) باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٧٣ (٦) الأسرة والمآتمع ١١٩

لاتأبى أن تأخذ نصيبها من لحم ابنها طعاما (١) . وما زال الاسكيمويثدو البنات بعد ولادتهن بزمان قصير ، لأن حياتهم شاقة ذات شظف وفقر (٢) . وللزوجين في تاهيتي أن يقتلا طفلهما دون أن يلومها أحد (٣) .

الوآد ومكانة المرأة العربية

أسألت أن الوآد عند العرب لم يكن عرفا عاما ، وأن قليلا من القبائل مارسته ، وحتى هذه القبائل نفسها لم يفش الوآد في أفرادها جميعا ، وإلا فكيف يستمتع بالحياة ، وبنجب الأبناء ؟ كيف نجا من الوآد آلاف من النسوة اللاتي أدركن الإسلام وعددن صحابيات ؟ وبينت أن اليونان والرومان وغيرهم كانوا أقسى على أبنائهم من العرب ، إذ قتلوا الذكور والإناث .

على أن الوآد للفقر ليس دليلا على انحطاط مكانة المرأة ، ذلك أنه (حينما تضطرب الحياة نتيجة لحروب طاحنة ، أو أزمات مالية قاسية ، أو زلازل وبراكين مدمرة قد تتغلب الغريزة الخاصة بالطعام على غريزة الأمومة والابوة ، فيضطر الوالدان إلى بيع أبنائهما أو تركهما (٤) ، فمثلا كان الإسرائيلى يبيع نفسه أو أولاده إذا احتاج (٥) ، فالوآد في حالة العوز إبقاء على النفس ، ولتجنب البنت ما تقاسى من شظف وجوع ، وليس في هذا مهانة لها . أما الوآد خشية العار من سبي يقع فليس حجة على ضعة المرأة عند العرب ، بل إنه دليل على صيانتها وإعزازها وحمايتها وتجنيدتها وتجنيد قومها ما قد يلوثهم من معرة سبائها ، وفخر عدوهم بامتلاكها ، ومعديتها بين أعداء قومها معيشة الذليلة الكسيرة .

حب البنت لأبيها

تتعلق البنت بأبيها منذ طفولتها ، تجد فيه حاميا وعائلها وراعيها ، فإذا ما زوجت ظلت تحبه وتذكره وتشاقه ، ولا شك أنها كانت تؤثر أباهما على زوجها . لأن روابط العاطفة في الجماعات الأولى كانت بين البنت وأبيها وبين الأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته (٦) . ومن مظاهر حبها لأبيها :

١ — أنها تتخوف عليه أن يقتل في حرب ، فتحاول أن تشفيه ، لأنه رجلها ، وليس لها

(١) مقدمة الحضارات الأولى . لوبون ٣٧

(٢) النظم الاجتماعية ١٥ (٣) قصة الحضارة ٦٨/١

(٤) Introduction to Social. Psychology by Mukerjee and Elmer P.271

(٥) التاريخ للسامري ٣١ (٦) قصة الحضارة ٥٨/١

أب غيره . يقول سلامة بن جندل :

تقول ابنتي إن انطلقك واحدا
دعينا من الإشفاق أو قدمي لنا
ستتلف نفسي أو سأجمع هجمة
إلى الرّوع يوماً تاركى لا أباليا
من الحدّثان والمنية واقيا
ترى ساقبيها يألمان التراقيا (١)

ويزمّع السفر فتحاول أن تثنّيه ، وحشة في بعده ، وخشية عليه من ضر ، حتى لقد استشفعت بنت الأعشى بشريف من العشيرة ليصرف أباهما عن رحلته ، فلما يئست دعت ربها أن يحفه برعايته ليثوب إليها سالما :

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا
واستشفعت من سراة الحى ذا شرف
عليك مثل الذى صليت فاعتمضى
واستخبرى قافل الركبان وانتظرى
كونى كمثل التى إذ غاب وافدها
ولا تكونى كمن لا يرتجى أوبأ
يارب جنبّ أبى الأوصاب والوجعا
فقد عصاها أبوها والذى شفعا
نوما فإن لجنب المرء مضطجعا
أوب المسافر إن ريثاً وإن سرعا
أهدت له من بعيد نظرة جزعا
لذى اغتراب ولا يرجو له رجعا (٢)

على أنه يصور في موضع آخر عواطف ابنته ، من حبها له وشفقتها عليه ، وشعورها بآلام اليتيم في معاده ، وإيثارها لقربه ، وأنها تقنع من كل شيء وترضى به ما دام أبوها بجوارها ، وهى تتوجس أن يصيبه مكروه في رحلته ، ولا طاقة لها باحتمال فقدته ، ولن تجد بعده عطوفاً أو معيناً ، لأنها على ثقة من أن الناس سيحفظونها ، والأقارب سيهجرونها . ولكنه شرع يواسيها ويخفف عنها بأمثال يضربها من أسفاره الماضية وأوبته سالما ، ومن مفاجآت القدر للقيم وإن كان ملكاً بمنعاً ، أو إنساناً آخر في برج مشيد :

تقول ابنتي حين جدّ الرحى — ل أرانا سواءً ومن قد يتم
أبانا فلا رمت من عندنا فإننا بخير إذا لم ترم

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٢ مخطوط والوحشيات ٧٣ مخطوط . هجمة : جماعة من الإبل أقلها أربعون وأكثرها مائة . التراقى : جمع ترقوة وهى مقدم الحلق فى أعلى الصدر والمراد أن اللذين يسقيان هذه الإبل يتعبان من كثرتها ويتبين تعبهما فى حركة صدريهما .

(٢) ديوان الأعشى ١٠١ تحقيق محمد حسين و٧٣ تحقيق رودلف جبير والموشح ٥٢ وخزانة الأدب ١٠٤/٢ صليت : دعوت . مرتحل : جل يوضع عليه الرجل . يشر إلى قصة اليمامة حين غاب عنها أخوها ورحل يلتمس عون حسان فظلت ترقب عودته فى شوق وأمل بنظرات جازعة ، وقد أكمل القصة بعد ذلك فى ستة أبيات

ويا أبتا لا تزل عندنا فإننا نخاف بأن تُخترَم
أرانا إذا أضمرت لك البلا دُنُجُفٍ وَتُقَطَّعُ مِنَّا الرَّحِمُ^(١)

٢ — هذا الحب الذى يدفعها إلى الخوف عليه والرغبة فى قربه ، يدفعها أيضاً إلى أن تتعلق بما يطمئنها على حياتها ، فتود أن يظل شاباً قوياً ، وتجزع إذا مارأته قد هرم وضعف . يقول ذو الإصبع العدوانى وقد بكت بنته أمانة إذ رأته فى كبرته قد نهض فسقط وتوكأ على العصا :

جزعت أمانة أن مشيتُ على العصا وتذكرتُ إذ نحنُ مِ الْفَتِيَّانِ
وسلاًها بأمثال من تغير الأحوال ، ثم قال :

لا تعجبَنَّ أُمَامُ من حَدَثَ عَرَا فالدهرُ غَيْرُنَا مع الأزمان^(٢)

وقد ظلت عاطفة البنوة هذه إلى ما بعد العصر الجاهلى ، وظلت البنت تبكى بعباد أبيها ، فقد خرج مالك بن الريب مع سعيد بن عثمان ، فتعلقت ابنته بشوبه وبكت ، وقالت له : أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقى ، فبكى ، وقال :

ولقد قلت لابنتى وهى تبكى بدخيل الهموم قلبا كئيبا
وهى تدرى من الدموع على الخد دين من لوعة الفراق غروبا
عبرات يكدن يجرحن ما جز ن به أو يدعن فيه ندوبا
حذر الحتف أن يصيب أباهما ويلاق، فى غير أهل شعوبا
اسكتى قد حززت بالدمع قلبى طالما حزّ دمعكن القلوبا
فعسى الله أن يدافع عني ريب ما تحذرين حتى أعبوا^(٣)

٣ — وإن حبها لأبيها ليحملها على أن تضن بماله كما ضنت الأم والزوجة ، فمثلا عاتبت سلمى بنت الأسود بن يعفر أباهما ؛ لأنه بضيع ماله فيما ينوب قومه من حمالات ، وفيما يمنحه فقراءهم ، ويعين به مستمنحهم ، فقال :

وقالت لا أراك تليق شيئا أتهلك ما جمعت وتستفيد ؟
فقلت بحسبها يسر وعار ومُرْتَحِلٌ إذا رحل الوفود

(١) ديوان الأعشى ٧٣ نشره رودلف جيبير والأغاني ١٣٧/٨ وخزانة الأدب ١٠٤/٢

(٢) الأغاني ١٠٩/٣ الدار (٣) الأغاني ١٦٧/١٩

وأخذ يدافع عن مذهبه ويضرب لها الأمثال^(١).

٤ — وإذا ما لجعها الدهر في أيها حزنت حتى يمضها الحزن، وبكت حتى يحرقها البكاء، وفعلت ما يفعل النسوة الحزينات، قال لبید :

تمنى ابنتى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فإن حان يوما أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهها ولا تحلقا الشعر^(٢)
وقال في رثاء أربد مخاطبا ابنته مى :

يامى قومی فى المآتم واندبى فقى كان بمن يبتنى المجد أروعا
وقولى ألا لا يبعد الله أربدا وهدى به صدع الفؤاد المرجعا^(٣)

وقال أبو ذؤيب الهذلى فى توقعه ماتفعل بناته بعد موته من ضرب صدورهن بالنعال :

وقام بناتى بالنعال حواسرا والصقن وقع السبت تحت القلائد^(٤)

وصور عبد مناف بن ربيع اله — ذلى تصويرا أليماً ماتفعل أختاه على أبيهما من عويل وأرق ونشيج منبعث من الأعماق، كأن فى جوف كليهما مزارا لا يفتأ يصوت، ومن صفق الصدر بالسبت صفقا يחדش الجلد :

ماذا يغير ابنتى ربيع عويلهما لا ترقدان ولا يؤسى لمن رقدا
كلتاها أبطنت أحشاؤها قصباً من بطن حلية لا رطباً ولا نقدا
إذا تأوب نوح قامتا معه ضرباً ألياً بسبت يلعب الجلدا^(٥)

ولقد كانت أحياناً تبكى أباهما فى المواسم، فإنه لما قتل رجل من جهينة حصين بن عمرو الكلابى قامت صخرة ابنة عمرو تبكيه فى المواسم، حتى ضرب بها المثل، قال الأخنس :

كصخرة إذ تسائل فى مراح وفى ج — رم وعلمهما ظنون
تسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخ — بر اليقين^(٦)

والآباء فى كل عصر على يقين من فجاعة بناتهم فيهم، وبكائن إياهم، يقول أبو فراس الحمدانى قبيل وفاته ٣٥٧ هـ مخاطباً ابنته :

(١) الأغاني ١٣٣/١١ ساسى (٢) الوحشيات ١٣٣ مخطوط والموشح ١٧
(٣) ديوان لبید ٦ (٤) البيان والتبيين ١١١/٣ هارون . السبت : النعال المدبوجة بالقرظ
(٥) سمط اللآلى ٢٢١/١ وتهذيب الكامل ١٩٦/٢ يغير : يفيد . رطب : لين يخفى الصوت . نقد :
متأكل . تأوب نوح : عاودهن النواح ليلاً . الجلد : بكسر اللام هو الجلد بسكونها . (٦) لسان العرب
٢٤٣/١٦ مراح : حى من قضاة .

أَبْنَيْتِي لَا تَجْزِي — زَعَى كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى ذَهَابِ
نُوحِي عَ — لِي بِحَسْرَةٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِكَ وَالْحِجَابِ
قَوْلِي إِذَا كَلِمَةً — نِي فَعِيتُ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ
زَيْنُ الشَّبَابِ أَبُو فَرَا س لَمْ يَمْتَعْ بِالشَّبَابِ (١)

٥ — وإذا قتل أبوها أشعلت الحفيظة في صدور وليائه ، أليثأروا له ، فيشفوا بعض ما تجد من مض الحزن ولو عة الأسي ، فقد حسنت أمانة بنت كليب عمها المهلهل ليثأر له ، قال المهلهل :

تَسَائِلُنِي أَمَامَةً عَنْ أَبِيهَا وَمَا تَدْرِي أَمَامَةً عَنْ ضَمِيرِي
فَلَا وَأَبِي أَمَامَةً مَا أَبُوهَا مِنْ النِّعَمِ الْمُؤَبِّلِ وَالْجَزُورِ (٢)
وَمَا قَتَلَ حَذِيفَةَ قَالَتْ ابْنَتُهُ هِنْدٌ تَحْرُضُ قَوْمَهَا عَلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ :

فِيَا ابْنِي ذَبِّانَ بَكَوَا عَمِيدَكُمْ بِكُلِّ دَقِيقٍ الْخَدَّ أَبْيَضَ بَاتِرٍ
وَكُلِّ رُدْنِي أَصَمَّ كَعُوبِهِ يَنْوُءُ بِنَصْلِ كَالْعَقِيقَةِ زَاهِرٍ
وَكُلِّ أَسِيلِ الْخَدِّ طَاوٍ كَأَنَّهُ ظَلِيمٌ ، وَجَرْدَاءِ النَّسَالَةِ ضَامِرٍ
فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تُصْبِحُوا الْقَوْمَ غَارَةً يُحَدِّثُ عَنْهَا وَارِدٌ بَعْدَ صَادِرٍ
وَتَرَمَوْا عُقِيلًا بِالتِّي لَيْسَ بَعْدَهَا بَقَاءُ فَكُونُوا كَالِإِمَاءِ الْعَوَائِرِ (٣)

٦ — ثم ترثيه ، فتصور فجيعتها فيه ، وتعدد مناقبه ، وتشيد بمفآخره ، كما فعلت الأم في رثاء ابنها والزوجة في رثاء زوجها .

ومن أمثلة ذلك أن هند بنت عتبة ترثي أبأها يوم بدر بأن هلك أبيها لا مثيل له ، وأن الفاجعة التي نزلت بها تنسب المفجوعات فجيعتهن وتستدرد موعهن مواساة لها ، وأنها كانت تخشى هذا اليوم من قبل ، ثم نزل بها ما خشيت ، فطار عقلها وعزب رشدها :

لِلَّهِ عَيْنٌ — مَنْ رَأَى هَلْكَاهُ كَهَلْكَ رَجَالِيهِ
يَارُبُّ بَاكَ لِي غَدًا فِي النَّائِبَاتِ وَبَاكِيهِ

.....

(١) وفيات الأعيان ١/ ١٢٧ (٢) رياض الأدب في مرآئ شواعر العرب للأب لويس شيخو ٦ المؤبل : الكثير .

(٣) رياض الأدب ٤٧ جرداء النسالة : قليلة الشعر . العوائر : الجماعات المتفرقة من الجراد ، فيكون المراد الإماء المتداولات في كل مكان . وأرجح أن في الكلمة تحريفاً ، صوابه (الأعاور) والمفرد أعور ومعناه الضعيف الجبان الذي لا خير فيه .

قد كنت أحذر ما أرى فاليوم حُقْ حذاريه
قد كنت أحذر ما أرى فأنا الغمداء مواميه
يارب قائمة غمداء يابيح أم معاويه (١)
وتقول أيضاً في رثاء أبيها وعمها شيبه .

من حسَّ لي الأخوين كالمغصنين أو من رَاهما
.....

ويلى على أبوى والقهبر الذى واراها (٢)
وتصور صفة بنت مسافر عينها قد جرحها الدمع كأنها رمذى قرحها الرمد ، وإنها
لتبكي منذ انبلاج الفجر ، وحق لها أن تبكى طويلا ؛ لأن البيت قد خرب بقتل أبيها وقومها :
يامن لعين قذاها عائر الرمد حد النهار وقرن الشمس لم يقدر
.....

كانوا سقوب سماء البيت فانتصفت فأصبح السمك منها غير ذى عمد (٣)
ولما قتل النبي صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث رثته ابنته قتيلة ، وعاتبت النبي ،
وودت لو أنه كان قد عفا عنه ، ثم نفثت نفثات حدثت بهن راكبا من مكة إلى المدينة ،
مؤملة أن يبلغ قبر النضر بعد أيام خمسة ، راجية له السلامة في رحلته ، ليسرع بتحية منها
إلى القتل العزيز النضر ، ومع التحية بلاغ تحب أن يصل إلى النضر أن عبراتها بعضها مسفوح
وبعضها مكظوم يخفق ، ثم تسائل نفسها : أيسمعني النضر إن ناديته ؟ وتؤمن بالواقع الأليم
فتقول : وكيف يسمعني ميت مقبور ؟

ياراكبا إن الأثيل فظنة من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية ما ان تزال بها النجائب تخفق
منى إليك وعبرة مسفوحة جادت بواكفها وأخرى تخفق
هل يسمعني النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق ؟ (٤)

- (١) سيرة ابن هشام ٤١٦/٢ : النائبات : نوائب الدهر . مواميه : مختلطة العقل .
(٢) الأغاني ٢١٠/٤ : الدار . حس : أحس .
(٣) سيرة ابن هشام ٤١٧/٢ : قذاها : آذاها . عائر الرمد : ألمه أو قرحته . حد النهار : أوله .
لم يقدر : لم يكمل ضوؤه . سقوب : عمد الحباء التي ترفعه .
(٤) حماسة الخالدين ٦٧ مخطوط وفيه أن الشعر لليلي بنت النضر وفي المرجع نفسه ٣٧٢ أنه لقتيلة
بنت النضر وفي معجم البلدان مادة أثيل أن الشعر لبنت النضر وفي لسان العرب ١١٢/١٢ أنه لقتيلة
بنت النضر وكذلك في حماسة البحترى ٤٣٤ وأسد الغابة ٥٣٣/٥ وفي سيرة ابن هشام ٤٢٠/٢ والأغاني
١٩/١ الدار أنه لقتيلة أخت النضر . الأثيل : موضع قرب المدينة دفن النضر به .

وكثير غير هؤلاء مات آباؤهن فصورن لواعجهن ، وشدن بفضائل آبائهن .^(١)

٧ — وإنه ليسرها أن يشبه ابنها أباه ، ولقد تسمي بمجد أبيها فترى من العسير على ابنها أن يلحق به ، تقول منقوسة بنت زيد الفوارس وهي ترقص ابنها حكيم بن قيس بن عاصم
أشبهه أخى أو أشبهن أباك أما أبى فلن تنـ ال ذاكا
تقصر أن تنـ اله يداكا

وهي بذلك ترد على زوجها في قوله لابنه وهو يرقصه :

أشبهه أباً أمك أو أشبه عمل ولا تكونن كهلوف وكل
يصبح في مضجعه قد انجدل وارق إلى الخيرات زناً في الجبل^(٢)
وتقول السيدة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم وهي ترقص ابنها الحسين :
إن بنى شبيه النبى ليس شبيها بعلى^(٣)

إيثارها قومها على قوم زوجها

بلغ المرأة إعزازها لأبيها وأخيها وقومها واعتزازها بهم أنها لم تغتفر لزوجها أن يتجنى على أخيها وينقصه ، من ذلك أن لييد بن عنبسة الغساني — وإلى ربيعة من قبل ملك اليمن — تزوج الزهراء أخت كليب ، وفي حديث بينهما أحست أنه يحقر من شأن أخيها كليب ، فقالت له : لا أعلم في العرب ذا لبدة أشد منه . فهاج لييد واطمها ، وقال لها : أنت أمتى فاقبلى ما يأتيك منا نحن الملوك . فقالت له : أنا أكرم منك . وفارقت غصبي ، حتى انتهت إلى كليب وقالت له :

ما كنت أحسب والحوادث جمّة أنا عبيد الحى من قحطان
حتى علتني من لييد لظمة بُجرت لها من حرها العينان
إن ترض تغلب وائل بفعالهم تكن الأذلة عند كل رهان

فاحتاج كليب وقصد إلى لييد ، وجلّله بسيفه ، فقامت الحرب بين اليمن وبين ربيعة ومضر وإياد وطيء وقضاعة ، وتقدمهم كليب ، وظفر هؤلاء باليمن في موقعة خزازى ، وتحرروا من سلطانهم^(٤).

(١) الأغاني ٣٠/١٦ و ٣٩/١٠ وأمثال العرب المضي ٣٣ ومعجم البلدان ٧٧٩/٢ وسيرة ابن هشام ٨٤/٤ ومحاسن البحترى ٢١٢ وبلاغات النساء ١٧٩ و ١٨٩ .
(٢) لسان العرب مادة وكل والأغاني للأطفال عند العرب لأحمد عيسى ٥٥ هلوف : ثقل بطين لا غناء عنده . وكل : ضعيف . زناً : صعوداً (٣) الأغاني للأطفال عند العرب ٢٧
(٤) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المراقسة للسندوني ١٩

وهي لا ترضى أن يباغت زوجها قوما ، فيغزوهم وينتصر عليهم ، لذلك تنذرهم بنفسها ، كما فعلت سلمى بنت عمرو ، ففي حرب بين الأوس والخزرج جمع أحيحة بن الجلاح الأوس لبني النجار ليغزوهم ، وكانت عنده سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية ، وله منها ولد اسمه عمرو ، وكان يرثه فطيماً أو دون القطيم ، فلما قارب أحيحة أن يغير عمدت إلى ابنها فربطته بخيط أوجعه ، فبات يبكي وهي تحمله ، وبات أحيحة معها ساهراً يقول : ويحك ما لابني ؟ فتقول : والله ما أدري ، حتى إذا ذهب الليل أطلقت الخيط من الصبي فنام ، فلما هدأ قالت : وارساه ، فبات أحيحة يعصب لها رأسها ، ويقول : ليس بك بأس ، حتى إذا لم يبق من الليل إلا أقله قالت له : نعم أنت فقد ذهب عني ما كنت أجد . وإنما فعلت به ذلك ليشغل رأسه وليشتد نومه بعد طول السهر . فلما نام قامت وتدلّت من الحصن وانطلقت إلى قوما فأنذرتهم بما جمع لهم أحيحة ، فحذروا وأعدوا واجتمعوا ، فلما أقبل أحيحة في قومه وجد القوم على حذر ، فلم يكن بينهم كبير قتال ، ثم رجع فلم يجد سلمى ، فعرف أنها خدعته وأنذرت قوما ، فطلقها ، وتزوجها بعده هاشم بن عبد مناف فولدت له عبد المطلب . وسماها قوما المتدلية ، وقال أحيحة في ذلك قصيدتين^(١) .

وقد تنذرهم برسول لأنهم منها بعيد ، كما فعلت هند من بني نهد لما رأت قوم زوجها بني عامر قد جمعوا لغزو بني نهد ، فقالت لغلام فقير يتيم من بني عامر : لك خمس عشرة ناقة على أن تأتي قومي فتنذرهم ، فرضى ، وحملته على ناقة لزوجها ، وزودته طعاماً وشراباً ، فركب وأنذرهم ، فاجتمعوا واستعدوا ، ووافتهم بنو عامر ، فاقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه العامريون ، وفي ذلك يقول عبدالله بن العجلان من قصيدة :

ألم يأت هنداً كيفما صنّع قوماً بني عامر إذ جاء يسعى نذيرها^(٢)

وقد تنذر قوما برسالة رمزية ، كما أنذرت زهير بن جناب أخته — وكانت متزوجة في بني القين بن جسر — بأن قوم زوجها يعتزمون الغارة عليه ، وذلك بأن أرسلت إليه رسولا معه صرة فيها رمل ، وصرة فيها شوك وقتاد ، فقال زهير إنها تخبركم بعدو كثير ذى شوكة ، وأشار عليهم بالارتحال ، فقال الجلاح بن عوف : لا نرتحل لقول امرأة . فظعن زهير وأقام الجلاح ، فصبحه بنو القين ، فقتلوا عامة قومه ، واستاقوا أموالهم وماله ، ثم قاتلهم زهير وهزمهم^(٣) . وكذلك أنذرت امرأة من هذيل قوما^(٤) .

(١) الأغاني ١١٩/١٣ والكامل لابن الأثير ٢٤٢/١ (٢) الأغاني ١٠٤/١٩

(٣) الكامل لابن الأثير ١٨٠/١ والأغاني ٦٧/٢١ (٤) الأغاني ١٤/١١

الفصل الرابع

الأخت والقريبة

حظيت البنات عند أبيها ، وحظيت الزوجة عند زوجها ، وتبوات الأم مكانة عليّة في نفوس بنينا ، فمن الطبيعي أن تنال الأخت عزازة أخيها ، وأن تسعد القريبة بحب ذويها .

الأخت

أحب الأخ أخته وأعزها ، وأحبت الأخت أخاها واعتزت به .

١ — وأي دليل على الإرعاء والحب أقوى من أن يقاسم الأخ أخته ماله مرات ، جاء في حديث الخنساء للسيدة عائشة قولها : زوجني أبي رجلا مبذرا ، فأذهب ماله ، فأنتيت إلى صخر فقسم ماله شطرين ، فأعطاني خيرهما ، ثم ضيع زوجي ماله مرة أخرى ، فقسم أخي ماله شطرين فأعطاني خيرهما . فلما كانت المرة الثالثة قالت امرأته : أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها الخيار ؟ فقال :

والله لا أمنحها شرارها وهي حصانٌ قد كفتني عارها

وإن هلكتُ خرقتُ خمارها واتخذت من شعرِ صدرها^(١)

وأى شيء أدل على الإرعاء والحب من أن يتخير الرجل زوجته ثيبا حتى لا تضار أخواته كما تضارهن الشابة ؟ حدث جابر أن رسول الله سأل : هل نكحت يا جابر ؟ فقال نعم . فقال رسول الله : ماذا ؟ أبكراً أم ثيبا ؟ فقال : بل ثيبا . قال الرسول : فهلا جارية تلاعبك ؟ فقال جابر : يا رسول الله إن أبي قتل يوم أحد ، وترك لي تسع أخوات فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن ، ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن ، فقال الرسول : أصبت^(٢) .

٢ — وكان الأخ يستمع لمشورة أخته ، ويدعن لرأيها في أمور شتى ، من هذا أن سفانة ابنة حاتم الطائي — بعد أن أطلقها النبي من السبي وكساها وأعطاها — لحقت بأخيها عدى وكان قد فر إلى الشام هاربا ، فرغبته في الإسلام ، وأن يلحق برسول الله سريعا ، وجاء

(١) الإصابة ٦٨/٨ وتهذيب السكامل ١٩٢/٢ والمحاسن والأضداد ١٤٣ (٢) فتح الباري

في كلامها « فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تذلل في عز الدين وأنت أنت » فقال لها : « والله إن هذا للراى » وقدم على رسول الله وأسلم (١) .

وكان الأخ يحمى أخته حتى من زوجها القوام عليها ، فلا يغضى عن مساءة زوجها إياها ، ولا يغتفر له أن يستذلها . من ذلك أن بكره بنت ملىص من بنى مقلد بن كليب كانت تحت تميم بن علاثة من بنى سليط ، فضربها فشجها ، فلقى أخوها زوجها ، فلامه على ضربه وشجها إياها ، فوقع بينهما شجار ، فشج تميم أخا بكره أيضاً ، فانتقم الأخ لنفسه ولأخته ، فشج الزوج فأمة (٢) .

وقد سبق أن كليب وائل ثار حينما استغاثت به أخته من زوجها ليبد بن عبسة إذ لطمها واستذلها وتنقص من قدر أخيها ، وكان من أثر ثورته حرب زبون بين اليميين وربيعه ومضر ومن حالهما (٣) .

٤ — ويحمى من تجيره إعزازاً لها واعتداداً بحمايتها ، وقد ضرب المثل بفكيتها ، ف قيل : أوفى من فكيتها ، وهى امرأة من بنى قيس بن ثعلبة ، كان من وفائها أن السليك بن السليكة غزا بكر بن وائل ، فبصروا به ، فعدا حتى ولج دار فكيتها فاستجار بها ، فأدركوه وحاولوا أن ينزعوه منها ، ونزعوا خمارها ، فاستغاثت بإخوتها ، فجاءوا عشرة ، فنعوهم وأجاروا السليك ، وفى ذلك يقول مادحاً لها :

لعمر أبيك والانباء تنمى	لنعم الجار أخت بنى عوارا
من الخفريات لم تفضح أباه	ولم ترفع لإخوتها شئارا
وما عجزت فكيتها يوم قامت	بنصل السيف وانزعوا الخمارا (٤)

٥ — وكان يغار عليها كما يغار على زوجته ، من ذلك أن القتال - عبدالله بن المضرحى - كان يتحدث إلى ابنة عمه ، فقدم أخوها زياد ورآهما ، فهى القتال وحلف لئن رآه ثانية ليقتلنه ، وبعد أيام رآه يحدثها ، فأخذ السيف ليضربه ، فبصر به القتال فخرج هارباً ، فتبعه زياد ، فلما دنا منه ناشده القتال بالله وبالرحم ، فلم يلتفت إليه ، فعطف القتال على زياد فقتله وقال :

نهيت زياداً والمهامه بيننا وذكرته أرحام سعد وهيثم

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٨/٤ وأشد الغاية ٥٧٥/٥

(٢) النقائص ٢ أمه : أصاب أم رأسه . (٣) أخبار المراقبة ١٩ وكتاب بكر وتغلب ١٥

(٤) المحاسن والأضداد ٥٥ والحجر ٣٣ والأغاني ١٣٧/١٨

فلما رأيت أنه غير منتهٍ أملت له كفى بلدنٍ مقومٍ
ولما رأيت أنني قد قتلتُه ندمت عليه أي ساعة مندم (١)

بل لقد غار الأخ على أخته من أن يتغزل فيها شاعر ، لأن في غزله تشهيراً بها ، وجرحاً لشرف آلهاء . علم الإصبع بن محسن أن مالك بن الصمصامة يجب أخته جنوب ، فآلى يميناً لئن عرض لها أو زارها ليقتلنه ، ولئن عرض بها في شعره أو ذكرها ليأسرنه ، ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته في نادى قومه . فبلغ ذلك مالكا ، فقال في قصيدة :

فما الخلق بعد الأسر شرُّ بقيةٍ من الصد والهجران وهي قريب
أحب هب — وط الواديين وإني لمشته — ر بالواديين غريب
أحقاً عباد الله أن لست خارجاً ولا والجا إلا على رقيب (٢)

لهذا كان الغزل بالأخت يتخذ أحيانا وسيلة للسكيد والإغاظة والتجريح ، كما تغزل قيس ابن الخطيم بعمره بنت رواحة في تمهيدته للفخر بانتصار الأوس على الخزرج في يوم بعث :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمره وحشاً غير موقف واكب
تراءت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب (٣)

فرد عليه عبد الله بن رواحة عدواناً بعدوان ، وتغزل في ليلي بنت الخطيم أخت قيس :
أشأقتك ليلي في الخليلط المجانب نعم فرشاش الدمع في الصدر غالي (٤)

وكذلك تغزل حسان بن ثابت بليلى بنت الخطيم في نغره بانتصار الخزرج على الأوس في يوم الربيع (٥) ، فأجابه قيس بغزل تناول فيه عمرة زوجة حسان (٦) .

ه — ما من شك في أن إعزاز الرجل لأخته يستتبع إعزازه أيضاً لابن أخته ، ولقد فصلت القول في الخال ومكانته في نفس ابن أخته ، ومنزلة ابن أخته من نفسه ، وحسبي أن أذكر هنا أن ابن الأخت كان كثيراً ما يعد من العشيرة ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار يوماً ، فقال لهم : هل فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا إلا ابن أخت لنا . فقال رسول الله : ابن أخت القوم منهم (٧) .

(١) الأغاني ١٥٩/٢ ساسي (٢) الأغاني ٨٣/١٩

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٠ وطبقات الشعراء ١٩٠

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٣٦ والكامل لابن الأثير ٢٨٨/١ (٥) ديوان حسان ٤١٦

والأغاني ١٢/٣ (٦) ديوان قيس بن الخطيم ٧ والأغاني ١٢/٣

(٧) فتح الباري ٤٠٢/٦ وصحيح البخاري ١٢٣/١٤

لذلك كانت قریش والخمس يشترطون على من يزوجه من الحلة أن يكون بنوه
حُسنًا مثلهم^(١) ويمدح أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ابن أخته زهير بن عاتكة
بنت عبد المطلب بقوله :

ونعم ابن أخت القوم غير مكذب زهيرٌ حساماً مفرداً من حمائل^(٢)

وإذا كان بشامة بن الغدير لم يورث ابن أخته زهير بن أبي سلى كما ورث غيره ، فإن
زهيراً كان يعتقد أنه ذو حق في أن ينال من مال خاله كما نال إخوته وعصبته ، فقد قال له :
ماذا قسمت لي يا خاله ؟ فقال له : شعري . ثم أعطاه من ماله أيضاً^(٣)

٦ — وكذلك أحببت الأخت أخاها ، واعتزت به ، وكثيراً ما كانت تؤثره على زوجها ،
لأن روابط العاطفة في الجماعات الأولى كانت بين الأب وابنته والأخ وأخته أقوى منها
بين الزوج وزوجته ، وفي كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ولا يرى
زوجته إلا زائراً . بل إن الأخ في المدنية القديمة كان أعز على المرأة من زوجها ، فزوجة
أنتا فرنيز أنقذت أخاها لا زوجها من غضبة دارا ، كذلك أنتجونا ضحت بنفسها من أجل
أخيها لا من أجل زوجها . والفكرة القائلة بأن زوجة الرجل أقرب إنسان إلى قلبه فكرة
حديثه ، وغير محققة إلا في بعض الأمم^(٤) ، ولم تطلق الزهراء بنت وائل أن يتنقص زوجها
لبيد بن عنبسة الغساني من قدر أخيها كليب ، فقالت له في عزة وغضب : لا أعلم في العرب
ذالدة أشد من كليب . فهاج لبيد ولطمها ، فقالت له : أنا أكرم منك ، وذهبت مغضبة
إلى أخيها^(٥) .

أليس من الطبيعي إذاً أن تندب الأخت أخاها إذا اخترمه المنون ؟ بلى لقد كانت تندبه
بقلبها ولسانها ودموعها ، وكانت تراثه متفجعة متوجعه .

وكانت الحنساء كغيرها من الجاهليات قد حلقت رأسها ، والتدمت بنعلها حزناً على
أخويها ، تقول في ذلك :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق^(٦)

(١) أخبار مكة للأزرقي ١١٥/١ (٢) المواهب الفتية ١٦٢/١

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٦٣ تحقيق شاكر والأغاني ١٥٠/٩ ورسالة الغفران للمعري ٥٤٧
تحقيق عائشة عبد الرحمن

(٤) قصة الحضارة ول ديورانت ٥٨/١ (٥) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المرقسة ١٩

(٦) ديوان الحنساء ١٧٣ والكامل للمبرد ٢٦٢/٢ ولسان العرب ٣٤٥/١١ قال المبرد : كانت
المرأة إذا أصيبت في حميم جعلت في يدها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها

وكانت تلبس صدرأ من شعر حزناً على أخويها اللذين قتلا في الجاهلية ، فدخلت على عائشة فقالت لها : يا خنساء هذا نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ما علمت ، وقصت عليها إكرام صخر لها ، وقوله لامرأته :

ولو هلكت خرقْتُ خمارها واتخذت من شعر صدرها

وقالت : فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدر ، ونذرت ألا أنزعه حتى أموت^(١) .
وليس يعنيني كثيراً أن تمجد الأخت أخاها ، وتؤبنه بذكر محامده ، لأن غيرها من الرائيين والرائيات يشركونها في ذلك ، وإنما يعنيني ما ينبىء عن حرقتها وهيب حزنها . ولأنى لأحس حرارة الحزن في كثير من مرأى الأخوات الإخوتهن ، ولا شك أن زعيمتهن في هذا الضرب الخنساء ، وأنها المقدمة في هذا الفن ، فقد تميزت بكثرة مرأيتها لأخويها ولا سيما صخر ، وتفردت مرأيتها بصدق العاطفة وحرارتها ، فكانت جديرة بالزعامة في النساء الشاعرات ، وكانت زعامتها منفذاً لنحلها قصائد لم تقرضها .

ويطول بي المقال إن أنا حاولت أن أستشهد من رثاء الخنساء ، وحسى أن أستدل من إحدى مرأيتها على توهج حزنها ، وتضرم لوعتها ، وتذكرها أخاها صخرأ ليلها ونهارها ، وصباحها ومساءها ، وأن هذه الذكرى لتحتد في الصباح والمساء ، لأنهما زمن الغارة ، وزمن الضيافة ، وأن حزنها ليشتد بها حتى لتسكاد تبخع نفسها ، ولا يعزيها بعض العزاء إلا أنها ترى الموت حقاً على الناس ينزل بهم ، فيبكي الأحياء ويمضهم ، وهي ترى حولها كثيراً من الباكين والباقيات ، ثم خيل لها حزنها الأليم أنه لا مثيل له ، وخيل لها حبها لأخيها أنه فقيد لا فقيد مثله ، فقالت إن البواكى لا ينحن على عزيز عظيم كأخى ، ولكنى أتأسى بهن ، ثم أقسمت أنها ستظل وفية له ذاكرة حتى يحين حينها ، ولن يتطرق سرور إلى قلبها ، بل ستعيش حياة كثيفة سوداء لا لذة فيها ولا أنس ، وكيف تستطيب الحياة بعد ما ضم التراب أخاها الحبيب ؟ وهي بذلك كله تكشف عن ألم ممض ، وحزن دفين ، ودمع غزير سخين ، وزفير متلهب :

يذكرنى طلوع الشمس صخرأ وأذكره لىكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسى
ولكن لا أزال أرى عجولا ونائحة تنوح ليوم نحس

(١) الإصابة ٦٧/٨ والشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والمحاسن والأضداد ١٤٢

هما كتاهما تبكى أخاها عشيّة رُزُّهُ أو غبّ أمس
وما يبكين مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى
فقد ودعتُ يوم فراق صخر أبى حسان لذاتى وأنسى
فيا لهفى عليه ولهف أُمى أيصبح فى الضريح وفيه يمسى؟^(١)

وتتجلى اللوعة أيضاً فى أن أم عمرو بنت مكدم ترى أخاها ربيعة بن مكدم بأن دمعها
مدرار لا يرقأ ، وحزنها شديد لا يهدأ ، ولو أن حب الأخت لأخيها ووجدتها عليه يرجعانه
أو يحفظانه لحق لها أن تطلب رجعة أخيها أو خلوده ، ولو أن الفداء يقي لإنساناً الموت لفدته
بأهلها جميعاً ، وبما لها :

ما بال عينك منها الدمع مُهراق تجلّ فلا عازب منها ولا راق
أبكى على هالك أودى وأورثنى بعد التفرق حزناً حره باق
لو كان يُرجع ميتاً وجد مشفقة أبقى أخى سالماً وجدى وإشفاقى
أو كان يُفدى لكان الأهل كلهم وما أثمر من مال له واق
فسوف أبكيك ما ناحت مطوقة وما سرت مع السارى على ساق
تبكى لذكرته عينٌ مفجّعة — ما إن يحف لها من ذكره ما^(٢)

ومثل هذا الضرب كثير فى رثاء النساء^(٣) .

القريبة

١ — امتدت عزاة الأم والبنت والزوجة والأخت إلى الخالة والعمة والقريبة ،
فكانت المرأة العربية عزيزة ، تستمتع بعزتها من مناح عدة ، وتشعر بأن رجالها يقدرونها
ويحمونها ، ولقد تسعد فى آن واحد بزواج يحب ، وأب يحذب ، وأخ يعطف ، وابن يبر ،
وقريب يحنو . فمثلاً حزن السليك بن السليكة السعدى — أمه جارية حبشية — لأنه لم يجد
المال الذى يفقدى به خالاته من السبي :

أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة بين الرجال

(١) ديوان الحنساء ١٥١ أبو حسان : كنية من كنى صخر (٢) بلاغات النساء ١٧٧
(٣) قتيلة أخت النضر بن الحارث (بلاغات النساء ١١٩) وهند بنت حذيفة (بلاغات النساء ١٧٣)
وصفية بنت عبد المهبلى (سيرة ابن هشام ١٥٦/٣) والفارعة بنت شداد (الحماسة البصرية ٩٢) وليلى
بنت كليب (أشعار النساء للمرزبانى ٤٩/٣) وعمرة بنت مرداس (الأغاني ٦٩/١٣) وعمرة الهذليّة
(حماسة البحرى ٤٣٠) والخرنق (ديوان الخرنق ٢) .

يشق على أن يلقين ضياءً ويعجز عن تخلصهن مالى^(١)
وكثيراً ما يفدى الرجل بأمه وخالته أو بخالته وحدها ، دلالة على عزازتها وحبها لها ،
قال حاتم في رده على زوجته وقد لامته على كرمه .

فمها فداك اليوم أمى وخالتى فلا يأمرنى بالدنية أسود^(٢)
وفدى عمرو بن قبيصة رفاقه الشجعان بخالته :

فقلت لهم سيروا فدى خالتى لكم أما تجدون الريح ذات سهام^(٣)
وفدى حاجز بن عوف الأزدي رجليه — وقد بجاه جريه من أعدائه — بأمه وخالته :
فدى لكما رجلى أمى وخالتى بسعيكما بين الصفا والأثائب^(٤)
ومن إعزاز القرية أن يحجر لها قريبها كما يحجر لأمه وابنته وأخته وزوجته . من ذلك
أن مسعود بن معتب الثقفي — حين دارت حرب بين كنانة وقيس — ضرب خباء على امرأته
سبيعة بنت عبد شمس وقال لها : من دخله من قریش فهو آمن . فجعلت توصل في خبائها
ولكن قيساً انهزمت ، وخاب ظن زوجها ، وهرع القيسيون إلى خباء سبيعة يستجرون بها ،
فأجار لها حرب بن أمية ، وقال : يا عمه من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن .
فنادت بذلك ، فاستدار القيسيون بخبائها ، وسمى الموضع مدار قيس .^(٥)

وكذلك أجار النبي صلى الله عليه وسلم لعمة أم هانئ اثنتين من أحمائها يوم فتح مكة .^(٦)
وتقتضى عزازة الخالة أن يشور ابن أختها لغضبها ، فإذا ما رجعنا إلى حرب البسوس
ألفينا السبب المباشر لهاجها أن كليياً قتل ناقة رجل من جرم اسمه سعد ، كان جاراً للبسوس
خالة جساس ، فغضبت البسوس وتآلم جارها ، فوعدها جساس أن يعوضه عن ناقته ناقة ،
فأبت ، فزادها إلى عشر ، فلما كان الليل رفعت صوتها لتسمع جساساً ، وهى تخاطب
جارها الجرهمي :

أيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى إليك فإننى محاذرة أن يغدروا ببنياتي
لعمرى لو أصبحت في دار منقذ لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي

(١) الكامل للمبرد ٢٥١/١ (٢) حماسة البحتري ٢٣١ وديوان حاتم ٦ وشعراء النصرانية ١١٢

(٣) ديوان عمرو بن قبيصة ٢٢ ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٢٥/١ مخطوط . ذات سهام : ذات

توهج (٤) الأغاني ٤٩/١٢ (٥) الأغاني ٧٩/١٩ (٦) سيرة ابن هشام ٣١/٤

ولكنني أصبحت في دار غربة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فلما سمع جساس قولها سكنها ووعداها أن يعقر في غده جملا أعظم من سراب —
ناقة جارها — ووفى بما وعد ، فقتل في غده كليبا ، وقامت حرب البسوس ^(١) .
وتستتبع عزازة الخالة أن يعز الرجل ابنها ، فإنه لما غزا عمرو بن هند طيئا وأسر
منها ، وكان في الأسرى قيس بن جحدر ، وهو ابن خالة حاتم الطائي ، وفد حاتم على عمرو ،
وسأله أن يطلق الأسرى ، فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ، فاستعطفه حاتم بقوله :
فككت عديا كلها من إسارها فأفضل وشفعني بقيس بن جحدر
أبوه أبي والامهات أمهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسي ومعشري
فأطلقه ^(٢) .

٢ — وكانت المرأة تقدر هذه القرابة وترعاها ، وتعتز بها ، ففي يوم أحد حمل شماس
ابن عثمان المخزومي إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة ، فقالت أم سلمة زوجة النبي
صلى الله عليه وسلم : ابن عمي يدخل على غيري ؟ فقال رسول الله : احمليه إلى أم سلمة .
حمل إليها ، فمات عندها ^(٣) .
ومن رعايتها لهذه القرابة إيثارها الزواج بالاقارب ، وتفضيلها قومها على قوم زوجها
كما سبق .

أما حزنها على ابن أختها أو ابن أخيها أو قريبها فإنه يتمثل في كثير من المراثي ، كرماء
أمية بنت عبد شمس لابن أخيها أبي سفيان بن أمية ، ولقتلى قومها في حروب الفجار :
أبي ليسلك لا يذهب ونيط الطرف بالكوكب
وهذا الصبح لا يأتي ولا يدنو ولا يقرب
بعقر عشيرة منا كرام الحميم والمنصب
ألا يا عين فابكهم بدمع منك مستغرب
فإن أبك فهم قومي وهم ركني وهم منكب
وهم أصلي وهم فرعي وهم نسي إذا أنسب
وهم مجدي وهم شرفي وهم حصني إذا أُرهب

(١) الكامل لابن الأثير ٢١٥/١ وأخبار المرافسة ٢٣

(٢) الأغاني ١٢٨/١٩ (٣) المغازي ٣٠٢ .

وهم رمحي وهم ترسي وهم سيني إذا أغضب
(١)

ومرئيتها تكشف عن حزن، وأرق، وحسرة، ونفخار. وكذلك رثت الخرنق قومها^(٢)
وربطة بنت عاصم^(٣)، وهند بنت عتبة^(٤)، وصفية بنت مسافر^(٥).

(١) الأغاني ٨٠/١٩ ستغرب : بالغ منتهاه
(٢) ديوان الخرنق مخطوط
(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٦٩/٣
(٤) سيرة ابن هشام ٤١٦/٢
(٥) سيرة ابن هشام ٤١٧/٢

الفصل الخامس

حقوق المرأة المالية

كان العرب في منزلة وسط بين الملكية وما يشبه الاشتراكية ، ذلك بأن « الخيمة وأثاثها ملك للفرد ، أما الماء والمرعى والأرض الصالحة للزراع فهي ملك شائع للقبيلة كلها »^(١) وقد ذكر سترابون أن اشتراكية الأسرة في الملكية كان النظام الشائع في اليمن ، لكن الرجل الأكبر هو المهيمن على الثروة.^(٢)

وفي هذا النظام الوسط بين الملكية والاشتراكية كان للفرد أن يقتني ويحوز ، وللقبيلة أن تقطع منه ما تحتاج إليه في تحمل الديات ودفع المغارم والإنفاق على الغارات وإكرام الوافدين .

ملكية المرأة :

اشتركت المرأة في هذه الملكية ، ولكن في طور متأخر أجحف الرجال بها ، وكثيراً ما كانت تعجز عن المطالبة بنصيبها ، وتعجز عن نياله بالقوة . على أنها كانت في هذا الطور تمتلك بأن يتدخل قريب من أقاربها لينيلها حقها .^(٣)

١ — ولست أشك في أن المرأة الجاهلية كانت تملك ، فالقرآن الكريم يثبت ملكيتها ، والشعر يذكرها ، والأخبار كثيرة فيها . قال تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »^(٤) . وذلك أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من يتامى النساء اللائي يقولون شئونهن ، لا رغبة فيهن ، بل في ما لهن ، وكانوا يسيئون صحبتهم ويتربصون بهن الموت ليرثوهن ، وقد سأل عروة بن الزبير السيدة عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية فقالت : يا بن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه

في ماله ويريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن^(١) . وروى عنها أيضاً في تفسير قوله تعالى : « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً »^(٢) أن المراد اليتيمة التي تكون عند الرجل ، لعلها أن تكون شريكته في ماله وهو أولى بها ، فيرغب عنها أن ينكحها ، فيعضلها ليحتجز مالها ، ولا ينكحها غيره حتى لا يشركه أحد في مالها^(٣) . والرواة جميعاً على أن لليتيمة مالا^(٤) .

٢ — أما الأخبار التي تثبت ملكية النساء فستفيضة . يقول حاتم الطائي لامرأته وقد لامته على البذل إن مالك كثير مصون ، فليذا تلوميني على أن أسخو بمالي .

تلوم على إعطائي المال ضلّة إذا ضن بالمال البخيل وصردا
تقول : ألا أمسك عليك فإنني أرى المال عند المسكين معبداً
ذريني وحالي إن مالك وافر وكل امرئ جار على ما تعودا^(٥)

وقد كانت أم حاتم عتبة بنت عفيف كريمة ، لا يسألها أحد شيئاً إلا أعطته ، وكانت ذات يسار ، ولا تمسك شيئاً ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجبوا عليها ، ومنعوها مالها ، ثم دفعوا إليها صرمة من إبلها^(٦) ، فهي مثرية ذات مال خاص بها ، وإخوتها يرون سفهاً في بذلها فيحجبون عليها ، ثم بعد حين يردون عليها قطيعاً من إبلها .

كذلك روى أن بنت مهلهل بن زيد أخت زيد الخيل كانت تملك مائة من الإبل مع خلتها^(٧) ، وأن هند بنت صعصعة جد الفرزدق قالت : من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لي أن أضع خمارى معهم فلها صرمتي^(٨) ، وكان لضباعة بنت عامر بن قرط مال كثير^(٩) ، وكانت السيدة خديجة صاحبة مال ومتاجر ، وكانت تستأجر رجالاً من قریش ليتاجروا لها ، وقد تاجر لها النبي صلى الله عليه وسلم في اليمن وفي الشام ، وتقاضى منها أجره أربع بكرات أو قلو صين^(١٠) . وفي حديث السيدة أسماء للرسول قولها : يا رسول الله مالي

(١) فتح الباري ٩١/٩ وتفسير الطبري ١٩٣/٥ وروح المعاني ١٨٩/٤ (٢) النساء ١٢٧

(٣) فتح الباري ١٦٠/٩ وتفسير الطبري ١٩٢/٥ (٤) تفسير الطبري ١٩١/٥ — ١٩٥

(٥) ديوان حاتم ٨ وشعراء النصرانية ١٢٠ (٦) الأغاني ٩٣/١٦ وذيل الأمل ٢٣

(٧) الأغاني ٤٩/١٦ — ٥٠ (٨) النقائض ٢٦٤ (٩) أشعار النساء للمرزباني ٢٤

(١٠) إنسان العيون ١٤٧/١ — ١٥٢

مال إلا ما أدخل على الزبير فأصدق . قال : « تصدق ولا تورع فإوعى عليك ^(١) . ومعنى ذلك أن لغيرها من النساء ما لا يتصدقن منه ، أو أنها مظنة أن يكون لها مال كغيرها تتصدق منه .

الملكية بين المرأة العربية وغيرها

هذا الحق الذى خولته المرأة العربية فى الجاهلية لم تنله إلا المرأة المصرية ، لأن النساء فى مصر القديمة كن يملكن (حوالى ٤٠٠٠ ق م) أكثر الأراضى ، وذلك بأن التركة كانت تورث فى الأعم الأغلب بطريق النسب إلى الأم ^(٢) . والمرأة البابلية ، لأن النساء كن يملكن ، وكن حرات فى أن يتعاقدن ، وكن يرثن ^(٣) .

على أن أكثر النساء كن محرومات منه ، كالمرأة العبرية واليونانية . ولم يكن القانون الإنجليزى الذى سن فى القرن الثامن عشر بأعظم حدبا على حق المرأة فى التملك ، فقد حرّمها كل حقوقها المالية تقريباً ، فنزلت عن ثروتها عند الزواج ، ورأى المشرعون فى ذلك صوناً للمرأة ورعاية ، حتى قال بلاكستون Blackstone فى شرحه على قوانين إنجلترا ١٧٦٥ م : إن القيود التى ترزح تحتها المرأة يراد بها فى الغالب حمايتها وخيرها ، لأن القانون الإنجليزى يؤثرها بعطف شديد ^(٤) .

ولم تحوّل المرأة الإنجليزية حق التملك إلا منذ ١٨٨٢ م مع أنها كانت تزاوّل أعمالاً ، ولكن أجراها للأب أو للزوج ^(٥) ، فهى محرومة حق الملكية ، وحق التصرف . وما زالت المرأة الفرنسية المتزوجة محظوراً عليها تصرفها فيما تملك إلا بإقرار زوجها ، ما لم تشترط فى عقد الزواج أنها حرة فى تصرفها المالى بعد الزواج ^(٦) .

حرية المرأة فى التصرف المالى

ليس حق الملكية وحده دليلاً على علو مكانة المرأة ، فإن المرأة الرومانية كانت تملك ، ولكنها محرومة حق التصرف المالى ، وزوجها هو الوصى على مالها ، وله أن يقيم وصياً

(١) صحيح البخارى بشرح الكرماني ١٢٦/١١ لا تورع : أى لا تبخل .

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٨ Mrs Ray Strachey

(٣) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٦ Mrs Ray Strachey

(٤) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٩٩ Mrs Ray Strachey (٥) المرأة فى العصور ٩٤

(٦) القانون المدنى الفرنسى . بلانيول وريبير ص ٦٢٠ بند ١٨١٠ و ١٨١٩

يخلفه بعد موته . كذلك كانت المرأة العبرية في طور متأخر تملك بالميراث ، ولكن زوجها هو السيد والوصى ، وحتى النذر الذي كانت تنذره لاقيمة له ما لم يؤيده زوجها .
أما المرأة العربية فقد استمتعت بالحقين معاً : التملك والتصرف . ويظهر أن الحضريات عامة كن أكثر أملاً وأعظم حرية في تصريف شئونهن المالية .

ومن أمثلة هؤلاء السيدة خديجة بنت خويلد ، فقد كانت تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم بشيء تجعله لهم ^(١) . وأسماء بنت مخزبة أم عبد الله ابن أبي ربيعة كانت تتاجر في العطور بالمدينة ، وكانت تجلبها من اليمن ^(٢) . وكانت تباع عطرها إلى أجل مسمى ^(٣) . ومليكة والددة السائب بن الأقرع كانت تباع العطر زمن النبي صلى الله عليه وسلم ^(٤) . وكانت منشم عطاره يغمسون أيديهم في طيبها ويتحالفون عليه أن يستमितوا في الحرب ، أو كانت تباع الحنوط أيضاً ، وسموا حنوطها عطراً لأنهم أرادوا به طيب الموتى ^(٥) . وقد حدثت قيلة أم بني أنمار أنها جاءت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المروة في إحدى عمره فقالت : « يا رسول الله إني امرأة أبيع وأشتري ، فربما أردت أن أشتري السلعة فأعطى بها أقل مما أريد أن آخذها به ، ثم زدت ثم زدت حتى آخذها بالذي أريد أن آخذها به ، وربما أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ، ثم نقصت ثم نقصت حتى أبيعها بالذي أريد أن أبيعها به . فقال لها الرسول : لا تفعل هكذا يا قيلة ، ولكن إذا أردت أن تشتري شيئاً فأعطى به الذي تريد أن تأخذه به ، أعطيت أو منعت . وإذا أردت أن تباع شيئاً فاستامى الذي تريد أن تباع به أعطيت أو منعت » ^(٦) .

ومعلوم أن ممارسة التجارة باب واسع من أبواب التصرف المالي . ولقد خولتها حرية التصرف المالي أن تخالف أباه وإخوتها ، فقد كانت غنية بنت عفيف أم حاتم من أسخى الناس وأقراهم للضيف ، وكانت لا تبقى على شيء تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ، ومنعوها مالها ، فسكنت دهرأ ، ثم أعطوها صرمة من إبلها ، فسألها امرأة محتاجة ، فأعطتها الصرمة وقالت :

لعمري لقدما عضنى الجوع عضه فأليت ألا أمنع الدهر جائعا
فقلوا لهذا اللائى اليوم أعطى فإن أنت لم تفعل فعض الأصابع

(١) أسد الغابة ١٦/١ وتاريخ الطبرى ١٩٦/٢ (٢) الإصابة ١٠/٨ والأغانى ٦٤/١

(٣) الطبقات الكبير ٢٢٠/٨ (٤) الإصابة ١٩١/٨ (٥) مجمع الأمثال ٣٤٨/١

(٦) الطبقات الكبير ٢٢٨/٨

فإذا عسيتم أن تقولوا لاختكم سوى عدلكم أو عدل من كان مانعاً
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركي يابن أم الطبايعا (١)

وكانت سفانة بنت حاتم من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل
فتهبها الناس ، فقال لها : يابنية إن الغويين إذا اجتمعوا في المال أتلغاه ، فيما أن أعطى وتمسكى
وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله لا أمسك أبداً ، وقال : وأنا والله لا أمسك أبداً .
قالت : فلا تتجاوز ، فقاسمها ماله وتباينا (٢) . وقد سبق في الخلع والعرض ما يدل على حريتها
في التصرف المالي .

المرأة والميراث

المؤرخون والمفسرون مطبقون جميعاً على أن المرأة كانت مسلوقة حق الميراث ، لأن
أهل الجاهلية لم يورثوا النساء ولا الصغار من الغلمان ، وقالوا : لا يرث إلا من طاعن بالرمح
وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة (٣) . وقالوا إن العرب ظلوا على ذلك إلى أن مات أوس
ابن ثابت — وقيل أوس بن مالك ، وقيل ثابت بن قيس — وترك ابنتين وابناً صغيراً ،
وزوجته أم كحة — أو بنت كحة أو أم كحة أو أم كلثوم — فجاء ابن عمه فأخذ ميراثه
كله ، ولم يترك لأمراته وأولادها شيئاً ، لأنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغير وإن
كان ذكراً ، فقالت امرأته لهما : تزوجا اليتيمتين — وكان بهما دمامة — فأبيا ، فأتت
رسول الله فأخبرته ، فدعاهما ، فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرساً ، ولا يحمل كلاً
ولا ينسكى عدواً . فقال : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن . فانصرفوا ، فأنزل الله
الآية الكريمة : وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر
نصيباً مفروضاً (٤) . ثم نزل بعد ذلك « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما
يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن
والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان
به عليماً » (٥) . ثم نزلت (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين
والله عليم حكيم) (٦) .

(١) الأغاني ٩٣/١٦ وذيل الأمالي ٢٣ (٢) ذيل الأمالي ٢٣ والأغاني ٩٤/١٦

(٣) تفسير الطبري ٤ ١٨٥ و ١٩١/٥ والكشاف ١٩٠/١

(٤) النساء ٧ (٥) النساء ١٢٧ (٦) النساء ١٢

لكن ذلك في حاجة إلى مناقشة وتمحيص :

١ — فلو أن حرمان المرأة من الميراث عرف عام في العرب ما شكت أم حجة للرسول أنها وأولادها قد حرمن الميراث ، وإنما تدل هذه الشكاية على أن أولياء الميت كانوا عادة يعطون الزوجة والبنات بعض ماترك ، وهم في هذه الحادثة ضيقوا على الزوجة وأولادها واحتازوا التركة كلها ، فلم تجد بداً من أن تستنجد برسول الله ، فكان حكم القرآن فيصلا بين المرأة والرجل إلى اليوم .

٢ — ثم إنني أجد في الطبري نصاً آخر أستنتج منه أن الثروة كانت من نصيب الولد الأكبر وحده لأنه يقول : « فكانوا لا يعطون الميراث إلا من قاتل ، ويعطونه الأكبر فالأكبر » (١) .

ويعارضة هذا النص بسابقه أستنتج أن الذكور الكبار والمقاتلين كانوا يفضلون على الذكور الصغار وعلى الإناث في تقسيم الغنائم والأسلاب ، لأن عبء القتال ، وتبعة الثأر ، وحماية الحوزة كانت كلها على الرجال وحدهم دون الأطفال والنساء ، فحق لهم أن يستأثروا بالأسلاب ، لأنهم هم الذين غنموها ، وهم الذين ألقوا بأنفسهم في معامع القتال .

٣ — وإذا كان النظام العام ألا ترث المرأة فمن أين حصلت النساء على ما ملكن ؟ حتى لقد كان بعضهن ثريات مشهورات الثروة كما سبق . ومن أين حصلن على المال الذي كان يزين لبعض الرجال أن يعضلوهن حتى يفترقن أنفسهن ، أو حتى يمتن فيرث الرجال ما خلفن ؟ قد يقال إنهن حزن هذا المال عن هبة أو وصية أو عطاء ، وأنا لا أجد هذا ، ولكني أرى أن التي تنال مالاً بهبة أو وصية أو عطاء أجدر بأن تناله أيضاً بالمشاركة في التركة على أي وجه من وجوه المشاركة .

والقرآن الكريم أوصى بالرعاية على اليتامى في مالهم ، وحظر أكله بالباطل ، وحبب إلى المسلمين نكاح اليتامى على أن يعطين صداقهن كاملاً « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الحديث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً » (٢) « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » (٣) « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » (٤) وقد أوصى النبي باليتامى أصحاب المال خيراً ، وحذر الأوصياء من العدوان على مالهم . ومن المعقول

أن يكون بعض هؤلاء قد ورثوا قبل مشرق الإسلام ، وأن يكون آخرون قد ورثوا في مشرق الاسلام ، لأن القرآن الكريم ينص على أن اليتامى كان لهم مال قبل أن تنزل السورة (وآتوا اليتامى أموالهم . .) وذلك أن بعض الأوصياء كانوا يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون لليتيم الرديء والخسيس مكانه ، فنهاهم الله عن هذا التبديل ، ونهاهم عن خلط مال اليتامى بمالهم حتى لا يأكلوه . وقد تشدد بعض الأوصياء في تحرزهم حتى كرهوا أن يخالطوا اليتامى ، فنزل قوله تعالى « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن خالطوهم فإخوانكم » .^(١)

كذلك ينص القرآن الكريم على أن الإناث اليتامى كان لهن مال « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، والمراد كما قالت السيدة عائشة أن تكون اليتيمة منهن في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من صداقها ، فهو أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق ، أو أن تكون اليتيمة ذات مال فلعل وليها ينكحها لمالها وهي لا تعجبه ، ثم يسئ صحبتها ، فهو عن هذا » .^(٢)

٤ — وقد عثرت على نصوص فريدة تكشف الحجاب عن هذه الحقيقة : أن المرأة كانت تترث ، وهي نصوص كالشعاع الذي ينبعث من خلال السحب الكثيفة يعلن أن الشمس ها هنا ضوءها ليسكنه لم يذهب كله ، ولم تغرب الشمس . هي كالأثر الوحيد الذي بقي سليماً على عوادي الدهر وعوادي الناس في أكداس من آثار مهشمة ، ونقوش ممسوخة ، وألواح محطمة .

(١) يقول ابن حبيب : « ورث ذو المجاسد وهو عامر بن جشم بن غنم بن حبيب ابن كعب بن يشكر ماله لولده في الجاهلية ، للذكر مثل حظ الانثيين ، فوافق حكم الإسلام » .^(٣)
(ب) ويذكر ابن حزم الأندلسي أن عامر بن جشم أول من أعطى الذكر حظين والآنثى حظاً^(٤) . ولم يكفل البقاء لهذا الأثر أن ذا المجاسد ورث بناته ، وإنما كفل له البقاء أنه قرى قرىاً عجباً اتفق مع ما شرع الإسلام ، ولولا هذا لصاع ما عمله ذو المجاسد كما صاع ما عمل غيره .

(١) تفسير الطبري ٤/ ١٥٤ (٢) تفسير الطبري ٤/ ١٥٥ وسنن أبي داود ١/ ٢٠٥

(٣) المحبر لابن حبيب ٢٣٦ (٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٩٠

(ح) ووجدت الواقدي يذكر في قصة أم كحة أنها قالت للنبي عليه الصلاة والسلام : لقد مات بعلي فانتقل الميراث إلى أخيه ، وبقيت بناته بدون مال ، ولكن أني للبنات أن يتزوجن إذا لم يكن لديهن مال ؟ (١) . فهذه الزوجة تشكو إلى النبي أن عم بناتها قد استأثر بمال زوجها ، وتقرر حقيقة كانت شائعة ، هي أن البنات الثريات مرغوبات ، وتعجب من أن يقبل أحد على بناتها وهن لا مال لهن ، وتصرخ من استئثار الرجل بتركة أخيه ، ومعنى هذا أنها كانت تتوقع كما يتوقع غيرها من هذا العم أن يترك لبنات أخيه نصيبا من تركة أبيهن .

(و) ثم أجد نصاً رابعاً في الطبري صريح الدلالة : « كان جابر بن عبد الله الأنصاري عم السلي له ابنة عم عمياء ، وكانت دميمة ، وكانت قد ورثت عن أبيها مالا ، فكان جابر ترغب عن نكاحها ، ولا ينكحها ، رهبة أن يذهب الزوج بما لها ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وكان ناس في حجورهم جوار أيضاً مثل ذلك ، فجعل جابر يسأل النبي : أترث الجارية إذا كانت قبيحة عمياء ؟ فجعل النبي يقول : نعم » (٢) . ولا شك أن هذه كانت ورثت في الجاهلية ، بدليل أن جابراً رغب عن أن يتزوجها ، وعرضها . وفي سؤال جابر أترث الجارية القبيحة العمياء ؟ دليل على أن مبعث الاستنكار أو العجب أنها متوفاة لا أنها أنثى .

(هـ) كذلك وجدت أن ضباعة بنت عامر بن قرط ورثت من زوجها هودبة بن علي الحنفي مالا كثيراً ورجعت به إلى قومها (٣) .

هـ -- لست أشك إذاً في أن المرأة كانت ترث في كثير من الأحيان ، وأن بعض الناس كانوا يحرمونها حقها في التركة بغيا منهم وعدوانا . ولكن لم تسكن المرأة ذات حق معلوم مقرر كهذا الذي حدده القرآن الكريم ، وإنما كان العرب يسرون مع المرأة على نظام يشبه التخارج في الإسلام ، فيرضونها بمقدار من المال قل أو كثير . وليس في هذا الحرمان ما يغض من قدر المرأة ، لأن هؤلاء الذين حرموها كانوا يخارجونها على قدر من التركة . ولو أن ختن أم كحة خارجاها هي وأولادها على شيء من تركة زوجها ما شكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا غرابة في هذا ، فإن بعض المسلمين في مصر يفعلون ذلك إلى الآن ، ولقد يخص الوالد بنيه الذكور بقسط من ثروته ، ويدع الباقي ليقسمه البنون والبنات بعد وفاته .

ولقد يكسر بعضهم ماله كله على الذكران ويدع الإناث ، أو يخصهن بنصيب ضئيل . فهل معنى ذلك أن هذا نظام عام في المسلمين ؟ أو أنه هو نظام الإسلام ؟ لا . كذلك كان العرب يفعلون في توريث البنات ، كما كانوا يفعلون في الزواج ، أكثرهم لا ينكح امرأة الأب ، ولا يجمع بين الاختين ، وأقلهم كان يفعل ذلك . « وما زالت بعض الأسر الكبيرة في داخل سوريا ولبنان — وهم الإقطاعيون الذين يرغبون في أن يبقوا على نفوذهم وراثتهم — لا يورثون النساء ، لأن تقسيم الثروة وإشراك الصهر الغريب فيها يضعفهم ، لذلك يلجأ بعضهم إلى حرمان بناتهم من الميراث ، ويعوضونهن نقداً ، ويحتفظون بالأرض للذكور » (١) .

ومالنا لا نعود القهقري إلى عهد عمر رضى الله عنه ، لنجد غيلان بن سلمة الثقفي قد أسلم وتحتة عشر نسوة ، فقال له النبي : اختر منهن أربعاً ، فلما كان في عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر ، فقال : إني لأظن الشيطان فيما يسترق السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك ، ولعلك لا تمكث إلا قليلاً . وأيم الله لتراجعن نساءك ، ولترجعن في مالك أو لأورثن منك ، ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال » (٢) .

ذكور لا يرثون

وإذا كانت المرأة قد حرمت الميراث أحياناً ، عسفاً من إختها أو ولى المتوفى فإن هذا الحرمان لا ينافي مكانتها العالية التي أسلفتها في مواضع شتى ، لأن الذكور كانوا يحرمون أيضاً ، وقد سبق أن الصغار كانوا يرثون . وقد مات أبو طرفة — وطرفة صغير — فأبى أعمامه أن يقسموا له ماله ، فقال .

ما تنظرون بـمال وردة فيكم صغر البنون ورهط وردة غيب
قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصيب (٣)

وكان الخطيئة ينسب إلى أوس بن مالك العبسي تارة ، وإلى الأفغم بن رباح الشيباني تارة ، وقد أتى أخويه من أوس يطلب منهما بعض المال ، فرفضا ، فهجاها ، ثم لحق بإخوته من بني الأفغم ومدحهم ، ومن مدحه قوله :

(١) عائشة أم المؤمنين لزاهية قدورة ٣٦ (٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ١٣٩

بوكر المال ٢٩٠/٨ أبو رغال : رجل من ثمود أو هو دليل الحبشة في سيرهم إلى مكة

(٣) خزائن الأدب ١٨٦/٢

قوى إذا انتسبوا ففرعهم فرعى وأثبت أصلهم أصل—لى
وسألهم ميراثه من الأفغم، فأعطوه نخیلات لم تقنعه، فسألهم ميراثه كمالاً، فلم يعطوه
شيئاً، فغضب عليهم، وهجاهم، وانسل من النسب إليهم، وانتسب إلى أوس بن مالك^(١).
ثم إن الزوج كان لا يرث زوجته أحياناً «لأن الحرة إذا ماتت آلت أملاكها إلى
أولادها، فإن لم يكن لها أولاد فإلى إختوها وأقاربها من القبيلة. أما الرقيقة فإن زوجها
كان يستولى على أملاكها، فإن مات الزوج لم ترث منه الرقيقة شيئاً بل تسلم إلى بنيتها منه
أو إلى ورثته»^(٢).

امتياز المرأة العربية بالميراث

وإذا فقد تميزت المرأة العربية من نساء العالم القديم، لأنهن كن محرومات من الميراث
في قانون حمورابى والقوانين الآشورية. ولم يكن لهن إلا المهر يدفعه الأب لابنته، فإذا
مات قبل أن يمهرها منحها إختوها جزءاً من ريع ما خلف أبوهن، أما العين فلم يحدن^(٣).
وكانت المرأة العبرية لا ترث قديماً، بل لقد كانت تورث كما يورث متاع الرجل، ثم
ورثت البنت أباهما في عصر متأخر إذا لم يكن له أبناء، فإذا خلف ذكر أحجبها، فلا ترث
شيئاً^(٤)، وإذا ما ورثت فعليها أن تزوج رجلاً من أسرة أبيها من قبيلته ليرث كل من بنى
إسرائيل نصيب آبائه ولا ينتقل ميراث قبيلة إلى أخرى^(٥)، وبذلك تنتقل أملاك المرأة إلى
تصرف زوجها، فكانها لم ترث شيئاً. أما الزوجة فلا حق لها فى ميراث زوجها، بل ظلت
تورث كما تورث تركته^(٦).

كذلك لم ترث المرأة اليونانية؛ فإذا مات أبوها ورثه إختوها، وإن لم يكن لها إخوة
تزوجت أكبر الوارثين الأقربين، فهى ذات حصة بالتركة لكنها لا تنال منها شيئاً، وولدها
من هذا الزوج ينسب إلى جده لأمه، وإليه ينتقل ما خلف هذا الجد^(٧).

Muslem Law P. 34 (٢)

(١) خزائن الأدب ١٧٤/٢

(٣) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧١ (٤) النظم الاجتماعية ١٧٠ (٥) The Holy Bible

Numbers 36. 8—9 وسفر العدد إصحاح ٣٦ آية ٩ و٨ (٦) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠

(٧) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٤

ولم ترث المرأة الحبشية مخافة أن ينتقل الملك بالزواج إلى الأجانب ، إلا إذا فقدت الورثة من الذكور إلى الدرجة السادسة . وكان مثل هذا القانون عند الفرنجة ^(١) .

الإسلام وتوريث النساء

ومهما يكن من شيء فقد كفل الإسلام للمرأة حقاً معلوماً ، ونصيباً مقررأ مقدراً مفروضاً في التركة ، فاستكملت المرأة حقوقها المالية . ولا شك أن نظام التوريث في الإسلام قد استوفى العدل والإنصاف والرحمة جميعاً ؛ لأنه فرض للمرأة نصف الرجل ، والرجل هو المكلف الإنفاق على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده منها وإن كانت ذات مال ، وهو المكلف البذل في وجوه أخرى لا تكلفها المرأة . فالإسلام سخيٌّ في فرضه للأنثى نصف الذكر ، ويظهر من مقابلة الإسلام بالقوانين الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات — اللاتي يزعم بعض الناس أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف — حقوقاً في الميراث لا مثيل لها في قوانيننا ^(٢) .

لهذا فإن ليفي Levy يجافى الحق في دعواه أن حق الملكية والميراث في الإسلام نظري لا عملي ، وأن البنات لا يرثن في كثير من القبائل ^(٣) . لأن حرمان المرأة ميراثها معصية لله لا يجرؤ عليها إلا شذاذ من الناس ، وهؤلاء الشذاذ كثيراً ما يقدرون للنساء نصيباً ، سواء أكان المقدر لهذا النصيب الأب قبل موته — إذ قسم أكثر أملاكه على الذكور ببيع صوري وترك بعضها ليقسمه الذكور والإناث بعد وفاته ، أم وزع أملاكه على الذكور جميعاً بنسب يراها — أم أن الذكور اتفقوا مع الإناث على أن يخرجن من التركة لقاء نصيب معين .

(١) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٦٩

(٢) حضارة العرب . جستاف لوبون ٤٧٤ (٣) An. Introduction to the Sociology of

Islam by Levy P. 141

الباب الثاني

المرأة في الحياة العامة

جلوت صور المرأة في الحياة الأسرية في الباب الأول ، والآن أشرع أجلو صورها في الحياة العامة .

والبابان معاً دراسة للمرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وهما متصلان اتصالاً يقرب من التداخل أحياناً ، لكن دواعي الفصل بينهما أقوى من دواعي الإدماج والوصل ، ذلك بأن المرأة أما وزوجة وبنت وأختا وقريبة وذات حق في حيازة المال وامتلاكه ألصق بحياة الأسرة ، وأوثق صلة بنظامها ، من صلتها بحياة المجتمع ونظم القبائل ، فهي في هذا الباب عضو في أسرة وإن لم يزايلها اشتراكها في المجتمع .

أما المرأة من حيث أخلاقها ومشاركتها في الحروب وأعمالها وصناعاتها وسفورها وحجابها فإنها أقوى وشيجة بالحياة العامة ، وبنظم المجتمع كله ، فهي هنا عضو في جماعة ، أو فرد في قبيلة ، وإن لم تنفك عنها سمتها الأسرية .

وإذا فقد كانت دراسة المرأة في الباب الأول لإبراز مكانتها وقيمتها في الأسرة ، أما دراستها في هذا الباب فهي لجلاء أعمالها ومكانها في القبيلة وفي المجتمع كله .

الفصل الأول

أخلاق المرأة

شجاعتها النفسية

سأتحدث في فصل الحرب عن شجاعة المرأة العملية ، إذ قادت الجيش ، وأسهمت في الحرب ، والان أتحدث عن شجاعتها النفسية ، وجراتها القلبية . وللرأة في هذا المجال نصيب أى نصيب . فهي لا تتطامن وإن كان الهلاك محدقاً ، ولا تذلل وإن رأت النكال محققاً . فقد أقسم عمرو بن هند بعد يوم أواراة ليحرقن من بنى حنظلة مائة ، فأحرق ثمانية وتسعين ، ثم أقبل وافد من البراجم فأتم به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر بن دارم ، فقال : إني لأظنك أعجمية . فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم . قال : فمن زوجك ؟ قالت : هوذة بن جربول ، قال : أين هو ؟ قالت : هذه كلبة أحرق ، لو كنت أعرف مكانه حال بينى وبينك . فقال : أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتكَ عن النار . فقالت : أما والذي أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض مهالك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثديي ، وأسافلها حلي . قال : اقدفوها في النار . فالتفتت ، فقالت : ألا فتى يكون مكان عجوز ؟ فلما أبطئوا عليها قالت : صارت الفتیانُ حمماً . فأحرق (١) .

وكانت تستطيع أن تنجو إذا ألانت القول ، وخضعت للملك الجبار الحائق ، ولكنها كانت جريئة مغیظة ، فجبهته بما لم يكن يتوقع .

ولقد يطبق قومها على خطأ فلا تحفل بإطباقيهم ، ولا تكترث بلومهم لها ، من ذلك أن يزيد ابن عبد المدان كان قد أسر عامر بن مالك ملاعب الأسنة وأخاه عبيدة بن مالك ، ثم أطلقهما ، فلما مات يزيد رثته أختهما زينب بنت مالك وذكرت نعمته مرتين ^(١) . فلامها قومها وعيروها أن بكته ، فردت عليهم بقولها :

ألا أيها الزاري على بآني نزيّة أبكي كريما يملأنا
ومالي لا أبكي يزيد وردني أجر جديد مدرعي وردائيا ^(٢)

ومن شجاعتها أنه بعد فتح مكة بايع الرسول الرجال ثم النساء ، وفيهن هند بنت عتبة متقبلة متسكرة تخشى ما فعلت يوم أحد ، فقال رسول الله : تبايعني على ألا تشركن بالله شيئا . فقالت هند . والله إنك لتأخذ علينا ما لم تأخذه على الرجال ، وسؤؤتيكه . قال : ولا تسرقن ، قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان أهنة وأهنة ، وما أدري أكان ذلك حلا لي أم لا . فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك . قال : ولا تزنين . قالت : يا رسول الله هل تزني الحرة ؟ قال : ولا تقتلن أولادكن . قالت : قد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ، فأنت وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب قال : ولا تعصينني في معروف . قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف ^(٣) .

وشجاعة هند تتجلى في قولها : ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ، وفي قولها . إنك تأخذ علينا ما لم تأخذه على الرجال .

وقد تزعمت أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية بنات جنسها ، وكانت نقيبتهن إلى النبي ، تطالب بحقوق المرأة ، وتريد أن تساويها بالرجل في الثواب ، وأعلته أنها سفيرة النساء إليه ، ودلت على مطالبتها بما أعجب رسول الله ، ووفقت في سفارتها ، وعادت مزهوة بما نالت لبنات جنسها من خير . ذلك أنها قالت لرسول الله : إني رسول من ورأى من جماعة النساء ، يقلن بقولي وعلى مثل رأيي ، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ، ونحن مشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت . . . وحاملات

(٢) الأغاني ١٠/١٤٣

(١) الأغاني ١٠/١٤٣

(٣) تاريخ الطبري ٣/١٢١ والمغازي ٤١٦ والطبقات الكبير ٨/١٧٢

أولادكم، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ؟ فالتفت إلى أصحابه وقال لهم : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ فقالوا : لا يا رسول الله . قال انصرفي يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت . فانصرفت وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله (١) .

ولم تطغ هيبة عمر بن الخطاب ورهبته على شجاعة المرأة فتسكت عما ترى في قوله من مخالفة القرآن، والانتقاص من حقوق النساء ، في حين سكنت الرجال . ذلك أن عمر قال : أيها الناس ما هذه الصداقات التي قد مددتم إليها أيديكم ؟ لا يباغنى أن أحداً جاوز بصدقه صداق النبي صلى الله عليه وسلم . فقامت امرأة برزة فقالت : ما جعل الله لك ذلك يا ابن الخطاب ، وقد قال الله عز وجل : « وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فقال عمر : ألا تعجبون ؟ أمير أخطأ وامرأة أصابت (٢) .

استمسكها بعقيدتها

إذا دان الإنسان بعقيدة وأشربتها روحه فأخلص لها ، ثم ابتلى فيها فنافح عنها بنفسه ودمه وماله فهو عزيز النفس ، قوى الشخصية ، ذو رأى يخضع له ، وليس إمعة تبيعاً . فهو يلاحى عن عقيدته حتى يقتبين له بطلانها ، فينزعا من نفسه غير أسيف عايتها .

كان كثير من رجال الجاهلية على ذلك ، فإذا كان نصيب النساء ؟

١ — صبرن على الأذى ، وفدين عقيدتهن بأنفسهن إذ اعتصمن بالشرك ، وناخن عنه . ولست أشيد بهن إعجاباً بعقيدتهن أو إشاراً لهن ، وإنما أريد أنهن ذوات عقيدة ناخن عنها ؛ لأنها في رأيهن الحق ، فلما استبان لهن ضلالها ، وشرح الله صدورهن للإيمان سارعن إليه بقدر ما كن ينفرن منه ، وأخلصن له بقدر ما كن يبغضنه . وهن في هذا شبيهات بعمر ، كان من أشد المشركين بغضة للإسلام وللنبي ، فلما هداه الله إلى الحق كان أحد رجلين رجاً المسامحون أن يعز الله بهما الإسلام .

(١) الاستبصار في أنساب الأنصار ورقة ١٤٩ مخطوط ونزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع ٣٩ وصحيح مسلم . (٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣٧٥/١ وبلاغات النساء ١٢٨

وهؤلاء المشركات كثير ، منهن العَصَاء بنت مَرَّوان من بنى أمية ، كانت تحت يزيد ابن يزيد بن حَصْن الخطمي ، وكانت تؤذى النبي وتعيب الإسلام ، وتحرض على الرسول ، وتهجو المسلمين بشعرها ، كقولها :

فبَاسَتْ بَنِي مَالِكِ وَالنَّبِيَّتِ وَعَوَفٍ وَبَاسَتْ بَنِي الْخَزَرَجِ
أَطْعَمَ أَتَاوِيٌّ مَنْ غَيْرَكُمْ فَلَا مَنْ مُرَادٍ وَلَا مَذْحِجِ
تَرْجُونَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرَّعُوسِ كَمَا يُرْتَجَى مَرَقُ الْمُنْضَجِ ^(١)

فآلى عُمَيْرُ بْنُ عَدَى الْخَطْمِيُّ أَنْ يَقْتُلَهَا إِذَا رَدَّ اللَّهُ الرَّسُولَ مِنْ بَدْرٍ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَوَفَى بِنَذْرِهِ فَقَتَلَهَا ، وَأَشَادَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ بِعَمِيرٍ .

ومنهن أم جميل بنت حرب بن أمية ، كانت زوجة لأبي لهب ، وقد أظهرت صنوف العداوة للنبي ، وأثارت عليه حقد زوجها ، فانضم إلى أخيها أبي سفيان في مناهضته للدعوة . وكانت كسابقتها تهجو النبي بشعرها كقولها .

مَذْمُومٌ أَعْصَى يَنَا وَأُمٌّ رَمَى أَيْدِيَهَا
وَدِينَهُ قَلِيلٌ

وفيهما وفي زوجها نزلت سورة المسد ^(٢)

ولقد يسلم ابنها وزوجها ، وتأبى هي الإسلام ، فقد أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي ، وعاد إلى قومه ، ودعا أبويه إلى الإسلام فأسلم أبوه ولم تسلم أمه ^(٣) .

ولقد تعير زوجها إسلامه ، وتؤنبه وتنتقصه جهرة ، تريد أن يثبت على الشرك ، وأن يبلى في مكافحة الإسلام ، فإن زوجة العباس بن مرداس بنت الضحاك بن أبي سفيان لما علمت بإسلام زوجها قوضت خيمتها ، وارتحلت ، وقالت تؤنبه وتهيج به بثنائها على المسلمين :

أَلَمْ يَنْهَ عَبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ أَنِّي رَأَيْتُ الْوَرَى مَخْصُوصَةً بِالْفِجَاجِ
أَتَاهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ كُلِّ سَمِذَعٍ مِنْ الْقَوْمِ يَحْمِي قَوْمَهُ فِي الْوَقَائِعِ
بِكُلِّ شَدِيدِ الْوَقْعِ عَضْبٍ يَقُودُهُ إِلَى الْمَوْتِ هَامَ الْمُقَرَّبَاتِ الْبَزَائِعِ
لِعَمْرِي لَنْ تَابَعْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ وَفَارَقْتَ إِخْوَانَ الصِّفَا وَالصَّنَائِعِ
لَبَدَلْتَ تِلْكَ النَّفْسَ ذَلَالًا بَعْرَةً غَدَاةَ اخْتِلَافِ الْمَرْهَفَاتِ الْقَوَاطِعِ

(١) الخبر ٢٨٣ والمغازي ٣ و١٧٢ الأتاي : الرجل الغريب (٢) تفسير الطبري ٣٠/٢١٩ وسيرة ابن هشام ٣٧٨/١ مذمما : قال ابن إسحاق كانت قریش تسمى رسول الله مذمماً ثم يسبونونه . وفي القاموس مادة ذم أن المذم المذموم جدا (٣) الأغاني ١٢/٥١

وقوم هم الرأس المقدّم في الوغى وأهل الحجا فينا وأهل الدسائع

سيوفهم عزّ الدليل ، وخيلهم سهام الاغادي في الامور الفظائع^(١)

وفي يوم فتح مكة رأى أبو سفيان جيش المسلمين ، وأيقن أنه لا طاقة لقريش به ، فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن (وكان قد سمع من النبي حين أسلم أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن) فقامت إليه امرأته هند ، فأخذت بشاربه وقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ، قُبِحَ من طليعة قوم . فقال : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم^(٢) . وفي رواية أنها قالت : اقتلوا هذا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه ، وفي أخرى أنها قالت : اقتلوا الشيخ الأحق ، هلاقاتكم ودافعتكم عن أنفسكم وبلادكم^(٣) . وفي رابعة أنها أخذت برأسه وقالت له : بدس طليعة القوم أنت ، والله ما خدشت خدشاً ، يا أهل مكة عليكم الحميت الدسم فاقتلوه^(٤) ، وتذهب رواية خامسة إلى أنها أخذت بلحيته فلطمته وقالت : اقتلوا الشيخ الأحق فإنه قد صبا^(٥) .

والروايات كلها توحى بمعنى واحد هو سخطها على زوجها ، وبرمها بإسلامه ، وتغييره الجنب والخور ، وتحريضها على قتله .

على أن نساء ثقيف قد حزنّ أشدّ الحزن لما هدم الطاغية المغيرة بن شعبة وأبو سفيان ابن حرب بأمر من النبي ، وخرجن حسراً يبكين عليها ، ويقلن إنها كانت عظيمة تعبد وتدفع عنهن الشرور ، ويعين قومهم بالضعف واللؤم ، لأنهم لم يحسنوا الدفاع عنها .

ألا ابكين دُفاع أسلمها الرضّاع

لم يحسنوا المصّاع^(٦) .

(١) الأغاني ١٣/٦٤ السميزع : السيد الكريم الشريف الشجاع . المقربات : جمع مقربة وهي الفرس التي يكرمها صاحبها ويقربها . البرائع : جمع بريعة وهي الحفيضة . وفي الأصل برائع وهي جمع بريعة أي فائقة الجمال . الصنائع : جمع صنعة وهي الإحسان والكرم . الدسائع : جمع دسيسة وهي العطية الجزيلة والمائدة الكريمة والقوة .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٣/٤ الحميت : وعاء السمن والزق الصغير والزق بلا شعر . الأحمس : إما أنها تريد أنه من الخمس وهم قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم لتحمسهم في دينهم ، وفي هذا تفضيع لإسلامه ، وإما أنها تهكم به ، لأن الأحمس الشجاع . وأرجح أن الكلمة محرفة أصلها الأحش بالشين وهو السمين لأن الحميش الشحم أو أن أصلها الأحق بدليل الرواية الأخرى . (٣) إنسان العيون ٩٤/٣

(٤) تهذيب الكامل ٦٣/١ (٥) المغازي ٤١٣ (٦) تاريخ الطبري ١٤٢/٣ دفاع : شيء عظيم يدفع به مثله . الرضاع : اللثام . المصاع : الضرب بالسيف

ولما قبض رسول الله ذهب بنعيه إلى حضرموت رجل من كليب يقال له جهيل ابن سيف ، وكان بها ست نسوة من كندة وحضرموت يتمنين موته ، ففرحن وخضبن أيديهن بالخناء ، وضربن بالدفوف ، وخرج إليهن بغايا حضرموت ففعلن كفعلن ، وكانت البغايا نيفاً وعشرين امرأة ، فكتب امرؤ القيس بن عابس الكندي إلى أبي بكر :

شمت البغايا يوم أعلن جهيل بنعي أحمد النبي المهتدي

.....

اشف الغليل بقطعهن فإنها كالجر بين جوانحي لم تبرد
وكتب إليه شداد بن مالك :

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته أن البغايا رمن كل مرام
أظهرن من موت النبي شماتة وخضبن أيديهن بالعلام
فاقطع هديت أكفهن - بصارم كالبرق أومض في متون غمام
فكتب أبو بكر إلى عامله على كندة أن يقطع أيديهن ، ففعل (١) .

٢ — أسلمت بعض النساء في مطلع الدعوة ، وكان منهن إماء ، ولكنهن صبرن وصابرن ، واحتملن صنوف الإيذاء والتعذيب ، وجهد ساداتهن في ردهن عن الإسلام فما استطاعوا .
منهن أم عبيس — أو عبيس — ، وزيرة ، وقد أصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر ، فزعمت قريش أنه ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان ، فرد الله بصرها . ومنهن النهدية وبنتها ، وقد مر بهما أبو بكر حين بعثتهما سيدهما بطحين لها وهي تقول : والله لا أعتقكما أبداً ، فراجعها أبو بكر ، فقالت أنت أفسدتهما فأعتقهما ، فأعتقهما . ومنهن جارية بني مؤمل التي كان يعذبها عمر بن الخطاب لترك الإسلام ، ويضربها حتى إذا ملّ ضربها قال : إني لم أتركك إلا ملالة ، فتقول كذلك فعل الله بك ، فاشترأها أبو بكر فأعتقها . ومنهن أم عمار بن ياسر ، كان بنو مخزوم يعذبونها برمضاء مكة إذا حمت الظهيرة ، فيمر بها — وبزوجها وابنها عمار — رسول الله فيقول : صبرا يا آل ياسر موعدكم الجنة . ولما ضاق بها بنو مخزوم قتلوها (٢) .

وقد هاجرت بعض المسلمات مع أزواجهن إلى الحبشة ، وتركن الوطن والأهل حفاظاً على عقيدتهن ، وفراراً بدينهن ، كرقية بنت الرسول ، وسهلة بنت سهيل بن عمرو ، وأم سلمة بنت أمية ، وليلي بنت أبي حشمة ، وأسماء بنت عميس ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ،

وأمانة بنت خلف ، وغيرهن ^(١) . وقد آمنت أم كلثوم بنت عقبة وحدها دون قومها
وهاجرت وحدها ^(٢) .

على أن المرأة التي أسلمت لم تكثف باستمساكها بدينها وصبرها على الأذى ، ونزوحها
عن الوطن ، بل لقد دافعت فيما بعد عن هذا الدين بيدها كما يدافع الرجال .
ويحسبنا من التنويه بحمايتها لعقيدتها وتمسكها بها أن فاطمة بنت الخطاب بكرت إلى
الإسلام هي وزوجها سعيد بن زيد ، وكان أخوها عمر لم يسلم ، وكان ذا شكيمة وقسوة
على المسلمين ، فخرج يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه قد اجتمعوا في
بيت عند الصفا ، وهو يعزم أن يقتل النبي لأنه في رأيه صابئ ، قد فرق أمر قریش ،
وسفه أحلامها وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فعلم في طريقه أن أخته فاطمة وختنه سعيدا قد
أسلما ، فرجع إليهما ، وكان عندهما خباب بن الارت يقرئهما صحيفة فيها سورة طه . فلما
أحسوا به اختبأ خباب في مخدع ، وخبأت فاطمة الصحيفة تحت فخذها ، فبطش عمر بسعيد ،
فقامت إليه أخته لتكفه ، فضر بها فشجها ، فقالت له : قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ،
فاصنع ما بدا لك . فلما رأى ما بأخته من الدم ندم ورقّ وطلب منها الصحيفة ، فقالت له :
إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فاغتسل فأعطته الصحيفة فقرأها وأسلم ^(٣) .
أية شجاعة هذه ؟ لقد كان الرجال يرتعدون من عمر ، لأنه شديد التنكيل بمن أسلم ،
وكان من المتوقع أن تكون أخته أشد فرقا منهم ، لأنها دانت بما يبغض ، وانحازت إلى ألدائه ،
لكنها لم تتهيب أخاها الجبار حين أسلمت ، ولم تفرع منه حين انكشف له إسلامها ، بل
لقد جبهته بأنها أسلمت فليفعل بها ما يريد ، وجبهته بأنه مشرك لا يتسامح إلى أن يمس
الصحيفة ، وكانت شجاعتها هذه نعمة وبركة ، لأن عمر أسلم حينئذ ، وآزر الإسلام بقوته
وشخصيته وعبقريته .

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤٤-٣٥٣ وإنسان العيون ١/٣١٩ (٢) الإصابة ٨/٢٧٥

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٣٦٤-٣٦٨

عزة نفسها

لم يؤثر عن المرأة العربية استخذاء أو تخاضع ، وإنما كانت كالرجل شتماً وإباء ، واعتزازاً بالكرامة ، واعتداداً بالنفس .

ولقد يهبط الدهر بها من سماء الملك إلى ثرى الشعب ، وتلفت حواشيها فتجد الدولة غير الدولة ، والصولة غير الصولة ، لكنها تظل كما كانت عزيزة أبية ، تجبه الوالى الجديد الظافر بما لا يتوقع . من ذلك أن خرقاء^(١) بنت النعمان ، أو هند^(٢) بنت النعمان ، أو الحرقة^(٣) بنت النعمان لقيت سعد ابن أبي وقاص أمير القادسية بعد هزيمة الفرس وقتل رستم ، في حشد من قومها وجواربها ، فقال سعد : أيتكن خرقاء ؟ قالت : هأنذه . قال : أنت خرقاء ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك في سؤالك ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ، كسنا ملوك هذا المصر ، يُجبي لنا خراجهم ، ويطيعنا أهلهم ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر ، فصعد عصانا ، وشقت شملنا ، وكذلك الدهر يا سعد ليس يأتي قوماً بمسرة إلا ويعقبهم حسرة :

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ليس نعرف
فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف
فأكرمها سعد وأحسن جائزتها^(٤) .

وفى رواية أخرى أن الذى لقيها خالد بن الوليد بعد فتح الحيرة ، فقال لها : أسلمى حتى أزوجك رجلاً شريفاً مسلماً . فقالت : أما الدين فلا رغبة لى فيه غير دين آبائى (النصرانية) وأما التزويج فلو كانت فى بقية لما رغبت فيه ، فكيف وأنا عجوز هرمة أترقب المنية بين اليوم وغد ؟ فقال : هذا فرض علينا أو صانا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قالت : مالى حاجة غير هذا ، فإنى ساكنة فى هذا الدير الذى بنيت ، الملاصق لهذه الأعظم البالية من أهلى ، حتى ألحق بهم . فأمر لها بمعونة وكسوة . فقالت : أنا فى غنى عنه ، ما طلعت الشمس بين الخورنق والدير إلا على ما هو تحت حكمنا ، فما أمسى المساء حتى صرنا خولاً لغيرنا . وأنشدت البيتين السابقين^(٥) .

(١) مروج الذهب ٢٠٥/١ (٢) معجم البلدان ١٨٣/٤ والكمال ٢٧٧/١ وتهذيب الكامل ١١٩/٢ والأغاني ١٣٦/١٤ (٣) نزهة الأبرار والأسماع ٣٥ (٤) مروج الذهب ٢٠٥/١ ونزهة الأبرار ٣٥ وحزارة الأدب ١٨٢/٣ (٥) معجم البلدان ١٨٣/٤

وروى أن المغيرة بن شعبة خطبها وهو وال على الكوفة ، وكانت مترهبة في ديرها ، وكانت قد عميت ، فقالت : لو كنت جئتني لجمال أو لمال لأجبتك ، ولكنك أردت أن تتشرف بي في محافل العرب ، فتقول : تزوجت ابنة النعمان بن المنذر ، وإلا فأى خير في اجتماع أعور وعمياء (١) ؟

وإذا كانت عزة النفس قد تجلت في ابنة الملك فإنها قد تجلت في كثيرات من غير بنات الملوك ، من ذلك أن تقلى المرأة زوجها الذي فجعها بضرة ، كما فعلت زوجة زهير ابن أبي سلمى (٢) . وأن تنفر من السبي كما سبق في السباء ، وأن تثور لعدوان زوجها على كرامة قومها كما فعلت أخت كليب مع زوجها ليبد بن عنبسة (٣) .

ومن هؤلاء بنت السلمي ، فإن أباه كان قد أخذ الشنفرى من بنى شَبَابَة بعد أسره وكفله حتى صار كابنه ، فقال الشنفرى لبنت السلمي يوماً : يا أختي اغسلى رأسى ، فأنكرت عليه أن يكون أخاها ولطمته (٤) .

ومنهن سلمى الكنانية ، فقد سباه عروة بن الورد ، فأعتقها وتزوجها ، وعاشت معه بضع عشرة سنة ولدت له فيهن أولاداً ، ولكنها كانت ضيقة الصدر بهذه الحياة ، لأنها أنفت أن تقول النساء إنها سبية ، وأنفت أن يتزوجها عروة قسراً ، فاحتالت عليه ، حتى عادت إلى قومها ، واضطر إلى تطليقها ، وتحسر في شعر (٥) .

وكذلك فعلت امرأة تolib ، فلما فارقت حزن ونفت حزنه في شعر (٦) .

وقد ذكرت في السبايا أن فاطمة بنت الخرشب رمت نفسها من فوق جمل قيس من زهير فراراً من أن يسبها فيلحق بها وبأبنائها عار السباء (٧) .

على أن عزة النفس تبدو في صنيع هَيْسَة بنت أوس الطائي ، فإنه لما تزوجها الحارث ابن عوف ، أمر أبوها أمها أن تهيمها وتصلح من شأنها ، وأمر بيت فضرب لها وأنزلها وزوجها فيه ، فلما مد الحارث يده إليها قالت له : مه أعند أبى وإخوتى ؟ هذا والله ما لا يكون . فارتحل بها ، وأراد أن يمسه في الطريق فرفضت قائلة : أكما يفعل بالامة الجليلة أو السبية الأخيذة ؟ لا والله حتى تنحر الجُرُ ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلى (٨) .

(١) الأغاني ١٤/١٣٦ والكمال ١/٢٧٧ وتهذيب الكامل ٢/١١٩

(٢) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغاني ٩/١٥٠ ساسى (٣) كتاب بكر وثعلب ١٥

وأخبار المراقبة ١٩ (٤) الأغاني ٢١/٨٧ (٥) ديوان عروة ١١ والأغاني ٢/٧٦ والشعر والشعراء

٢٦٠ (٦) الأغاني ١٩/١٥٩ (٧) الأغاني ١٦/٢١ (٨) الأغاني ٩/١٤٣

عفة

١ — قامت الأخلاق العربية على دعائم ، منها الاعتزاز بالشرف ، والحرص على حسن الأحداث ، وسمعة الأسرة وصيانة المرأة ، فكان لا بد للرجال والنساء من العفة ، ومن التعفف ؛ لأن العدوان على العرض قد يجر ويلا ، ويشعل حرباً ، ولأن المجانة ليست من سمات السادة .

لذلك أكثر الرجال من الفخر بعفتهم وبصياتهم حرمة جيرانهم ^(١) . وكثيراً ما مدحوا ورثوا بالعفة ^(٢) .

والعرب غير على النساء إلى حد المغالاة ، وهم يبيحون للرجل أن يذكر أى شيء إلا النساء ، وفي أمثالهم ، كل شيء مَهْ ما خلا النساء وذكرهن ^(٣) .

لذلك لما نزل الخطيئة ببني مُقَلَّد بن يربوع وسألوه عما يرضى وعما لا يرضى جاء في قوله :
« ولا تجعلوا فناء بيتي مجلساً لكم ، ولا تسمعوا بناتي غناء شبابكم » ^(٤) .

ولذلك افتخروا بحماية زوجاتهم من العُهار ، كقول أحدهم في أمته أو في امرأته :

حَمَيْتُ عَنِ الْعُهَّارِ أَطْهَارَ أُمِّهِ وبعض الرجال المدَّعينُ غُثَاءً ^(٥)

وهدد الإصبع بن محسن مالك بن الصمصامة بالقتل إن عرض لأخته ، وبالأسر وجزَّ الناصية إن تغزل فيها ، فقال مالك :

فما الخلقُ بعد الأسر شرُّ بَقِيَّةٍ من الصد والهجران وهي قريب
..... : ^(٦)

وهم عبد الله بن المضرحى أن يقتل ابن عمه لما رآه واقفاً يحدث أخته ، وكان قد أنذره من قبل ^(٧) .

٢ — في هذا المجتمع الذي يقدر العفة ، فيعف فيه الناس أو يتعففون ، ولا يجاهرون بالفحشاء ، إلا قلة من الشعراء جاهروا بفحشهم كما سبق ، في هذا المجتمع كانت عفة المرأة

(١) الأغاني ٩٧/٣ وديوان حاتم ٣ و١٧ وديوان أوس بن حجر ٢٤ وديوان قيس بن الخطيم ١١٥ و٢٩ وديوان عنتر ١٨٥ ومجالس ثعلب ٢٥٣/١ وشعراء النصرانية ١٢٢ و٦٤٨

(٢) ديوان الخنساء ٦٨ و٧٠ و٨٢ وبلغات النساء ١٦٨ وديوان الخرنق ٩ مخطوط ومراثي شواعر العرب ١٤٧

(٣) الميداني ٧٠/٢ وجمهرة الأمثال ١٣٠/٢ مهه : يسير محتمل

(٤) الأغاني ١٧٩/٢ (٥) شرح التبريزي للحماسة ١٤٣/١ غناء : ساقطون لا قيمة لهم

(٦) الأغاني ٨٣/١٩ (٧) الأغاني ١٥٩/٢٠

أعظم حلاها ، وأنخر خلاها ، وكانت المرأة العفيفة الممنعة هي المثل الأعلى في نظر الرجال ، لأنهم كانوا يدينون بما قاله علي بن أبي طالب من بعد « خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها » ^(١) . وقد قرر أرسطو أن مزايا المرأة الجسمية هي الفراهة والجمال ، ومزاياها النفسية هي العفة والعمل في غير ابتذال ، وأن الأهم التي لا تغني بخلق المرأة تفقد نصف السعادة التي فقدها اللاسيديميون . Les L'acédemoniens ^(٢) .

وقد صرح سُلَيْكُ بْنُ السُّلَيْكَةِ بأن قلبه يعاف المرأة التي تجود بوصلها ، ويعلق بالممنعة التي لا تأتي ريبة :

يَعَافُ وَصَالَ ذَاتَ الْبَذْلِ قَلْبِي وَأَتَّبَعُ الْمُنْمَعَةَ النَّوَارَا ^(٣)

٣ — وللعفة مظاهر شتى ، فقد تكون في أن تحالط المرأة الرجال وتحديثهم ، على أن تتصون فلا يسمعون منها ولا تسمع منهم غير العف من القول ، يقول في ذلك سويد ابن أبي كاهل :

تَسْمَعُ الْخُدَّاتُ قَوْلًا حَسَنًا لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يُسْتَمَعَ ^(٤)
ويقول كعب بن رواع :

وَيَخَالُهَا الْمَرْحُ السَّفِيهُ تَحْبُهُ وَنَوَاهُ غَيْرَ الْحَدِيثِ بَعِيدَ ^(٥)

وقد تضرب عفتها وهيبتها حجاباً بينها وبين الناس ، فلا يجروا أحد أن يكلمها ، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته وأرضت أوبته ، قال علقمة بن عيدة :

مُنْمَعَةٌ مَا يَسْتَطَاعُ كَلَامُهَا عَلَى بَابِهَا مِنْ أَنْ تَزَارَ رَقِيبَ
إِذَا غَابَ عَنْهَا الْبَعْلُ لَمْ تُفْشِ سِرَّهُ وَتُرْضَى إِيَّابَ الْبَعْلِ حِينَ يَثُوبُ ^(٦)

لذلك احترق الشعراء الغزلون بوهج الحرمان ، وطالما عبروا عن حرمانهم بشعر حزين ناطق بالآنين .

ولقد يفخر الزوج بعفة زوجته ، كقول معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ مَا عَرَسِي بَدَارٍ مَضِيعَةٍ وَمَا بَعْلُهَا إِنْ غَابَ عَنْهَا بِخَائِفٍ ^(٧)

(١) شرح نهج البلاغة ٣٤٦/٤ (٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١٠١ إبراهيم سلامة

(٣) الأغاني ٣٦٤/٤ (٤) المفضليات ١٩٠/١ (٥) المؤلفات والمختلف للآمدى ١٢٨

(٦) المفضليات ١٩١/٢ وديوان علقمة ٣ (٧) ديوان معن ٣٥

ولقد تفتخر هي بعفتها ، فقد قالت الخنساء لبنيها : « والله الذي لا إله غيره ، إنكم
لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت
حسبكم ، ولا غيرت نسبكم » (١) .

وقد شاد أخوها صخر بعفتها حين تسخطت زوجته ، لأنه يقاسم أخته ماله ، ويعطيها
خير النصفين :

والله لا أمنحها شراره — وهي حصانٌ قد كفتني عارها (٢)
وهم يعجبون بالمرأة الطيبة السمحة التي لا تتناو لها الألسن ، يقول الشنفرى :
فيا جارتى وأنت غير مُليمَةٍ — إذا ذُكرتِ ولا بذات تَلَفْتِ
أميمةٌ لا يُخزِي نساها حليمٌ — إذا ذُكر النسوان عفت وجلَّت
إذا هو أمسى أب قرّة عينه — مآب السعيد لم يسأل أين ظلت
تحلُّ — بمنجاةٍ من اللوم — بيتها — إذا ما بيوتٌ بالملامة حُلَّت (٣)

والحوادث الدالة على عفتها كثيرة ، منها أن سهل بن مالك نزل ضيفاً على أخت حارثة
ابن لأم — لأنه قصده فلم يجده — فأكرمه ، ورآها جميلة فوقع في نفسه منها شيء ،
فجلس بفناء الخباء يوماً وجعل ينفث :

يا أخت خير البدو والحضاره — كيف ترين في فـتى فزاره ؟
أصبح يهوى حُرّةً معطاره — إياك أعـنى واسمعى يا جاره

فلما سمعت قوله عرفت أنه يعنها ، فقالت : ما يقول هذا ذو عقل أريب ، ولا رأى
مصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقم ما أقمت مكرماً ، ثم ارتحل متى شئت مسلماً (٤) .

بل لقد بلغت العفة بها أن تبغض من يسئ الظن بها وإن كان زوجها ، فقد شك الفاكه
ابن المغيرة في زوجته هند بنت عتبة — وكانت بريئة — وقضى السكاكين ببراءتها ، فأرادها
الفاكه على أن تعود إليه فرفضته ، وتزوجها أبو سفيان (٥) .

(١) طهارة العرب ١٥ (٢) الإصابة ٦٧/٨ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والمحاسن
والأضداد ١٤٣ (٣) الأغاني ٩١/٢١ والمفضليات ١٠٦/١ تحل بيتها : تنزله
(٤) بجمع الأمثال للميداني ٤٣/١ (٥) المستطرف ٧٣/٢ وشرح نهج البلاغة ١١٢/١

وهي تأنف من الزنا وتجهر بذلك أمام الرسول ، بل تجد في المباشرة المشروعة شيئاً ، فكيف بالمحرمة ؟ ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تلا على النساء اللاتي بايعنه « ولا تزنين » قالت هند : وهل تزني الحرة ؟ ^(١) . وفي رواية أنها قالت : ما أقبحه حلالاً فكيف به حراماً ؟ ^(٢) .

٤ — ولست أريد بهذا القول أن أزعم للمرأة العربية طهارة الملائكة ونقاوة القديسات ، لأن المرأة كالرجل بشر يعتريه الشر ، وتسيطر عليه الغريزة ، فلا بد أن تجافي بعض النساء العفة ، فيعلم خبر بعضهن ، ويخفي خبر الأخريات ، ولكن المكشوفات والمستورات جميعاً قلة ضئيلة في المجتمع العربي القائم على الغيرة وحماية العرض والضم بالمرأة عن سوء الظن . من هؤلاء فاقرة زوجة مرة الأسدى ، فقد غاب عنها أعواماً فهويت عبداً لها كان يرعى ماشيتها ، وترددت طويلاً ، ثم لانت له . لكنها ندمت فيما يزعمون فقالت : « خير قليل وفضحت نفسي » . وأقبل زوجها فعلم ، فشبهت شهقة أماتها . فقال مرة :

لما الله رب الناس فاقـر مـيتةً واهون بها مفقودة حين تفقد
لعمرك ما تقتادني منك لوعـة ولا أنا من وجد عليك مسهد
ثم قتل العبد ^(٣) .

ومنهن رقاش الطائية ، كانت زعيمة في قومها تغزو بهم ، وكانت كاهنة لها حزم ورأى ، زعموا أنها حملت من خادمها — وكان أسيراً جميلاً من إباد — فدعاها قومها للغزو فأمهلتهم حتى تضع ، فلما وضعت قال شاعرهم :

نبئت أن رقاش بعد شماسها حبلت وقد ولدت غلاماً أ كحلا
فالله يحظيها ويرفع بضـعها والله يلقحها كشافاً مقبلاً
كانت رقاش تقود جيشاً جحفلا فصبت وأحر بمن صبا أن يحملا ^(٤)

٤ — قصة الفطيون

أما اسم هذا الرجل فمختلف فيه ، أهو الفطيون ^(٥) أم الفيظون ^(٦) ، أم الفيظون ^(٧) ، أم الفيظور ^(٨) .

- (١) الإصابة ٢٠٥/٨ والطبقات الكبير ٤/٨
(٢) طهارة العرب ١٢
(٣) مجمع الأمثال للميداني ٢٢/١ (٤) مجمع الأمثال ٢٦٣/١
(٥) الروض الألف ٢٤/٢ ومعجم البلدان ٤٢٨/٧ والمحاسن والأضداد ٢١٦
(٦) معجم البلدان ٤٢٩/٧ ومعجم ما استعجم ٣٧١/٢ وخلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ٨٤
(٧) خلاصة الوفا ٨٣ والأخبار الطوال للدينوري ٤٣ والبدء والتاريخ للمقدسي (٨) خلاصة الوفا ٧٩

والراجح أن أى كلمة من هذه ليست علماً عليه ، لأن الكلمة تدل على من رأس اليهود وولى أمرهم ، كما أن النجاشي تدل على من ملك الحبشة ^(١) .
وأما القصة فملخصها أنه كان ملكا على يهود المدينة ، وكان يفتض الغرائس قبل أزواجهن سواء أكن عبريات أم عربيات ، فلما تقوى الأوس والخزرج وتزعمهم مالك بن العجلان ، وتزوجت أخته فضلاء أنفت أن يفعل بها ما يفعل غيرها ، واستشارت أخاها ، فاشتمل على سيفه وتنكر مع النساء ، ودخل على الفطيون فقتله ^(٢) .

وفى رواية أخرى أن القيطون ابن عم أسعد بن عمرو بن ربيعة بن مالك بن صُبْح ، وكان ملكا على تهامة والحجاز من قبل ابن عمه أسعد ، ثم نزل يثرب واعتدى وتجر ، حتى أمر ألا تهدي امرأة إلى زوجها قبل أن يبدؤه بها ، إلى أن زوجت أخت مالك بن العجلان ، فقتله مالك ، وعلم أسعد بن عمرو بذلك فسار إليهم وانتقم منهم ^(٣) .

وقد رووا قصة أقدم من هذه وشبيهة بها ، نسبوها إلى عَمَلِيق — أو عَمْلُوق — ملك طسم وجديس ، وقالوا إنه بلغ من طغيانه ألا تزف امرأة من جديس قبل أن يبدأ بها ، ثم قتله رجل من جديس بعد أن هاجته أخته المعتدى عليها ، واستنجدت جديس بملك اليمن أو ملك نجران — ذو جيشان أو ذو حسان أو حسان — فانتقم من جديس ^(٤) .

وهذه القصة وتلك تغايران ما كان العرب يأخذون أنفسهم به من الأنفة والغيرة على النساء وشراء العرض بالمهج والأرواح . فليس بمعقول أن يصبروا على عهارة الملك وفجوره بيناتهم حيناً من الدهر ، حتى يقيض الله لهم رجلاً منهم يتنكر ليغتال الملك العاهر .

وإن كان الفطيون يهوديا فليس ميسوراً له أن يستبيح هذا العمل البشع المنافي لدينه دون أن يجد حرداً ومقاومة عنيفة من شعبه ورجال دينه ، على أن اليهود بالمدينة لم يكن عليهم ملك فى أى عهد من عهودهم :

وبين القصتين تشابه أو تماثل تام ، فكل من الرجلين طاغية ، وكل منهما يفتزع الغرائس قبل أزواجهن ، والناس يسكتون على هذا الجبروت ردحا من الزمان ، ثم تستثير

(١) الروض الأنف ٢/٢٤ (٢) خلاصة الوفا ٧٩ — ٨٠ و ٨٢ — ٨٤ ومعجم البلدان ٤٢٨/٧ — ٤٣٠ والروض الأنف ٢/٢٤ والبدء والتاريخ للمقدسى (٣) الأخبار الطوال للدينورى ٤٣ (٤) مروج الذهب ١/٢٤٣ والأخبار الطوال ١٧ والمعارف ٢١١ وأخبار النساء ١٦ والأغانى ٤٥/١٠ — ٤٧ ومعجم البلدان ٨/٥١٦ وخزانة الأدب ٢/٨٩ والمحاسن والأضداد ٢١٤ وتاريخ حضرموت السياسى ٣٦ ومنتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان الحميرى ١٧

أخت أخاها في القصتين فيقتل الملك الظالم ، وبعد مقتله يستنجد الأقربون إليه بملك آخر . وهذا التماثل النام يحمل على استبعاد القصتين كليهما ، بهذا التفصيل .

على أن أوروبا كانت تخضع لمثل هذا النظام في عهد الإقطاع ، فكان للسيد في أوائل هذا العهد حق الليلة الأولى ، وذلك أنه يجوز له أن يفض بكارة العروس قبل أن يباشرها زوجها ، وربما كان السيد يمثل في ذلك حقوق القبيلة القديمة ^(١) .

وذكر المستشرق جورج سيل أن مثل هذا كان شائعاً في بعض مقاطعات إنجلترا وأسكتلندا في القرنين العاشر والحادي عشر بعد الميلاد ^(٢) . وكان الليبيون يقدمون العذارى وهن على أهبة الزفاف إلى الملك ، فن أعجبته افتضاها ^(٣) .

حياتها

حياء المرأة وثيق الصلة بعفتها وتصونها ، والحياء يتناول مالا تتناول العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة لكنها تبدى بعض محاسنها للرجال ، وتبتسم لهم ، وتخضع في القول ، ولكن المرأة الحية لا تفعل ذلك .

وقد اتهم شوبنهاور المرأة بأنها أقل حياء من الرجل ، لأنها لا تعرف الحياء بمعزل من غريزة الاحتجاز الجنسي ، ولأن الرجال يستحون حيث لا تستحي النساء ، فيستترون في الحمامات العامة ، ولكن المرأة لا تستتر على المرأة إلا لعيب جسدى تواريه ^(٤) . لكن ذلك موضع نظر ، لأن المرأة تستحي حيث لا احتجاز ، ولأن بعض النساء لا يستحي من بعض كما أن بعض الرجال لا يستحي بعضهم من بعض ، ولكن النساء يستحين من الرجال . وحياء المرأة من مكملاتها الخلقية في نظر الرجل ، لأنه دليل على تصونها وعفتها وتمنعها وأنوثتها ، وقد أعجب به العرب ، لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والاشادة بالمرأة المستكملة لصفات الأنوثة . قال أوس بن حجر إن ضحكهن تبسم .

نواعم ما يضحكن إلا تبسما إلى اللهو قد مالت بهن السوالف ^(٥)
وقال حاتم :

يضئ لها البيت الظليل خصاصه إذا هي يوماً حاولت أن تبسما ^(٦)

(١) قصة الحضارة . ول ديورانت ٦٨/١ (٢) عصر ما قبل الإسلام ٤٧

(٣) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٧/٩ (٤) هذه الشجرة ١٢١ العقاد

(٥) ديوان أوس بن حجر ١٤ (٦) الأغاني ١٥/١٥٩

وأعجب الشنفرى بها وهى تمشى مقنعة لا تتلفت ، وعيناها إلى الأرض كأنها تبحث عن
شئ ضائع ، وإذا كلمت رجلاً أوجزت :

لقد أعجبتنى لاسقوطاً قناعاً — إذا ما مشيت ولا بذات تلفت
كأن لها — فى الأرض نسيّاً تقصه — على أمها وإن تكلمك تبلى (١)
وقال عنتره إنها غضيضة الطرف (٢) ، ومدحها الأعشى بأنها لا تتجسس على أخبار
جاراتها ولا تختل أسرارهن (٣) .

ولقد شهد أعداء القوم بعفة نسائهم ، فقد سبى زهير بن جَنَاب نساء من غطفان ، ثم رد
إليهم السبايا ، وقال من قصيدة :

فلم تصبر لنا غطفان — تلاقينا وأحرزت النساء
فلولا الفضل من — إلى عذراء شيمتهما الحياء (٤)

كرم

اشتهر العربى بكرمه وبشجاعته ، وكان الكرم والشجاعة معاً الفضيلتين الكبيرتين فى
الحياة البدوية ، وكانت المرأة كريمة وإن لم تبلغ الرجل فى كرمه . فمثلاً كانت غنية بنت عفيف
أم حاتم الطائى من أسخى النساء وأقراهن للضيف ، وكانت لا تمسك شيئاً تملكه ، فلما رأى
إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها ما لها ، فحكّت دهرأ لا تنال يدها شيئاً مما تملكه ، حتى
إذا ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم الحاجة ، وارعوت أعطوها صرمة من إبلها ، فجاءتها
امراة من هوازن كانت تأتياها كل سنة تسألها ، فقالت لها : دونك هذه الصرمة نخذيها ، فقد
والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمتع الدهر سائلاً شيئاً ، ثم أنشأت تقول :

لعمري لقد ما عَضْنى الجوع عضه — فآليت ألا أمتع الدهر جائعاً
فقلوا لهذا اللائمى اليوم أعفى — فإن أنت لم تفعل فعَضَّ الأصابع
فماذا عسيتم أن تقولوا لأختكم — سوى عذلكم أو عذل من كان صانعاً

(١) الأغاني ٩١/٢١ والمفضليات ١٠٧/١ ومحاضرات الأدباء ١٣٦/٢ النسي : الشئ المفقود . تقصه :

تبحث عنه . أمها : قصدها الذى تريده . تبلى : تقطع كلامها لا تطيله

(٢) ديوان عنتره ١٤٣ (٣) شعراء النصرانية ٣٦٧ (٤) الكامل لابن الأثير ١٧٩/١

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركي يابن أم الطبايعا (١)؟

وكانت سقانة بنت ابنها حاتم كجدها وكأبيها في الجود، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الابل فتحبها الناس، فقال لها أبوها يا بنية إن الغويين إذا اجتمعوا في المال أتلغاه، فإما أن أعطى وتمسكى وإما أن أمسك وتعطى، فقالت، والله لا أمسك أبداً. فقال: وأنا والله ما أمسك أبداً. قالت فلا تتجاوز. فقاسمها ماله وتباينا (٢).

وكانت ثبيثة من شاعرات العرب وكرمائهن، وكان زوجها كريماً لم يوجد أكرم منه في زمانه، وقد أتاه أخو امرأته يوماً فأعطاه بغيراً من إبله، وقال لامرأته، هاتى حبلاً، فقالت، ما بقى عندى حبل، فقال: على الجمال وعليك الحبال، فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها وقالت:

حلفت يميناً يابن قُحْفَانَ بالذى تَكْفَلُ بِالْأَرْزَاقِ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
تَزَالُ حِبَالُ مُحْصَدَاتٍ أَعْدُهَا لَهَا مَا مَشَى مِنْهَا عَلَى خَفِّهِ جَمَلِ
فَأَعْطِ وَلَا تَبْخُلْ لِمَنْ جَاءَ طَالِبَا فَعَنْدِي لَهَا خُطْمٌ وَقَدْ زَالَتِ الْعُلَلُ (٣)

وقد نزل ببعضهن ضيفان فأكرمنهم، مثل أخت حارثة بن لأم (٤)، وشذرة أم الزبرقان ابن بدر، فقد أكرمت الحطيئة وأولاده، وقيل إن التي أكرمتها هندية بنت صعصعة زوجة الزبرقان (٥).

لكن الانباء عن كرمها قليلة، لأنها أقصر باعاً من الرجال في هذا المجال، ذلك بأن مالها أقل، وهى فى أكثر الأحيان لا مال لها إلا مال الزوج أو الأب، ثم إنها ليست مختلطة بالرجال اختلاطاً يبعثها على الكرم ويمهد أمامها الطريق إلى الشهرة به.

(١) ذيل الأمالى ٢٣ (٢) ذيل الأمالى ٢٣ (٣) شرح الخناسة للتبريزى ٦٧/٤ خطم: جمع
خطام ما يوضع فى أنف الجمل (٤) مجمع الأمثال ٤٣/١ (٥) الأغاني ١٨٠/٢

بخلها

١ — أسلفت المقال في أن المرأة كانت ضئيلة بمال زوجها ، حريصة على مال ابنها وأخيها ، وأنها طالما لامتهم في الكرم ، وطالما لامتهم في الخمر والميسر وإيثار الخيل بالعناية ، لذلك يقول زهير في مدح حصن بن حذيفة بن بدر .

بكرت عليه غدوة فوجدته قعوداً لديه بالصريم عواذله
يفدّينه طوراً وطوراً يلينه وأعيأ فما يدرين أين مخاتله
فأعرض منه عن كريم مرزأ جموع على الأمر الذي هو فاعله^(١)

وقد عاتبت سلمى بنت الأسود بن يعفر أباهما على إضاعته ماله فيما ينوب قومه من ديات ، وما يمنحه فقراءهم ويعين به مستمنحهم ، فقال لها :

وقالت لا أراك تليق شيئاً أتهلك ما جمعت وتستفيد^(٢)

٢ — وقد تحدث الشعراء عن لوم الزوجات والامهات والبنات والأخوات في البذل ، وأكثروا من هذا الحديث كما سبق في فصول الأم والزوجة والبنات والأخت . ولا شك أنهم صادقون فيما حدثوا ، وإلا فكيف يفترى إنسان على أمه وبنته وزوجته وأخته فيصمها بالبخل ، وهو يعلم أن في هذا منقصة له ؟ وليس من الصواب أن يدعى أنها لامته على الكرم ، وأنه خالفها ، ليمتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم كرمه والفخار بنفسه ، لأن هذا التخيل نفسه منقصة له . إذاً كان الشعراء صادقين في تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما كان هذا منهن حرصاً على مال الرجال ، وربما كان بخلاً . ومهما يكن من شيء فإن النساء كن أقل من الرجال كرمًا ، وكن أحرص على المال منهم ، ولعل أسباب ذلك أنهن أحفل بالثروة ، وتنميتها ، وأنهن لا يخالطن الناس كما يخالط الرجال ، فلا يحفلن بأحاديث الكرم كما يحفلون ، ثم لأنهن أحسن تدبيراً للمال من الرجال ، وهن ربات البيوت يباشرن حاجاتها ، ويعددن طعامها ، ويفكرن في غدها ، ثم إنهن أميل إلى الجانب العملي ، فلا يحفلن بثناء ينقص المال ويسبب الخصاصة ، بينما قد يغفل الرجل عن غده وهو في نشوة الثناء وأريحية العطاء ، وأخيراً هن يؤثرن أنفسهن إلا على بنهن ، والرجال كثيراً ما يؤثرن غيرهم على أنفسهم .

فليس بعجيب أن يكن أحرص من الرجال على المال ، وأن يدبرن للأبناء طعامهم
ويقتصدن فيما يقدمن لهم إلى حد الإقلال أحيانا ، يقول الشنفرى :

وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقْوَتَهُنَّ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْ تَحَتَّ وَأَقْلَّتْ
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعَيْلَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِيَاعٌ أَىَّ آلٍ تَأَلَّتْ
وَمَا إِنْ بِهَا ضَنْ بِمَا فِي وَعَائِهَا وَلَكِنَّهَا مِنْ خِيفَةِ الْجُوعِ أَبَقَتْ (١)

بين أخلاقها في الإسلام وفي الجاهلية

١ — ذاعت شجاعة كثيرات من المسلمات كأم الخير بنت الحريش البارقية ، فقد
حرضت جند على يوم مقتل عمار بن ياسر على معاوية ، ولما آلت الخلافة إليه بعث إليها
وذكرها خطبتها الحماسية المثارة وقال لها : والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك . فقالت :
والله ما يسوءنى يا بن هند أن يجرى الله ذلك على يدى من يسعدنى الله بشقائه (٢) .

ومثلها سودة بنت عمار ، حرضت المسلمين يوم صفين على قتال معاوية بأبيات منها :
شمر كفعل أهلك يا بن عمار واقصد لهند وابنها به — وان
ثم وفدت على معاوية في خلافته فذكرها ما قالت ، فقالت . إى والله ما مثلى من رغب
عن الحق أو اعتذر بالكذب (٣) .

وكذلك فعلت الزرقاء بنت عدى الهمدانية في يوم صفين ، وقال لها معاوية لما أوفدت
عليه : قد أشار على بعض من عرفك بقتلك ، فقالت له : لئوم من المشير ولو أطمعته لشاركته (٤)
ومثلهن آمنة بنت الشريد ، ولها مع معاوية حوار طويل يدل على الجرأة والاعتزاز (٥) .

٢ — ومن الأمثلة العالية في الاستمسك بالعقيدة والدفاع عن الرأى وفي الشجاعة العظمى
أسماء بنت أبى بكر ، فقد دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير بعد ما خذله الناس فشكا
إليها ، واستشارها فقالت : إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه ، فقد قتل عليه

(١) المفضليات ١/١٠٨ أو تحت : أعطت قليلا . العيل والعيلة : الفقر . أى آل تألت : أى سياسة

ساست (٢) بلاغات النساء ٤١ والعقد الفريد ٢١٧/١

ساست

(٣) العقد الفريد ١/٢١١ وبلاغات النساء ٣٥ (٤) العقد الفريد ١/٢١٣ وبلاغات النساء ٣٧

(٥) أعلام النساء ٤/١ — ٦ عمر كحالة

أصحابك ، ولا تقل إني كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي ، فليس هذا فعل الأحرار ، والله لضربة بالسيف في عز أحب إلى من ضربة سوط في ذل ، قال إنما أخاف أن يمثلوا بي . قالت : يا بني إن الشاة لا تألم السلخ بعد الذبح ^(١) .

٣ — وذاع كرم كثيرات من المسلمات ، وإذا كان كرم الجاهلية يراد به أحياناً حسن الاحدوثة ، والتباهي ، وتجنب اللوم فإن كرم المسلمات كان ابتغاء وجه الله ، وكان عطفاً على المحتاجين . فقد حدث البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد ، فكلمنهن في الصدقة فأخذن ينزعن الفتخ والخواتيم والخرص والسخاب والقرطة والعقود والأطواق والخلاخيل ويلقينها في ثوب بلال ، وكان قد بسط ثوبه ليضعن فيه صدقاتهن ^(٢) .

وكذلك فعلت النساء لما نزلت الآية الكريمة : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » .

وقد ذكر ابن سعد أن السيدة عائشة كانت صائمة ، وقد بعث إليها ابن الزبير نحو مائة ألف ، فتصدقت بها ، فلما دنا الإفطار طلبت من أم ذرة أن تأتيها بإفطار ، فقالت أم ذرة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت لا تعنيني ، لو كنت أذكرتني لفعلت ^(٣) . ويذكر أنها تصدقت بسبعين ألفاً وإنها لترقع جانب درعها ^(٤) .

وقد اشتهرت بالكرم كثيرات مثل زينب بنت جحش ، وسكينة بنت الحسين ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية ^(٥) .

٤ — أما عفتن في الإسلام فليست في حاجة إلى بيان ، لأن الإسلام حاط المرأة والأسرة بسيلاج حصين من العفة والحياء .

٥ — والذي أستخلصه من أخلاقها في الجاهلية وفي الإسلام أن الإسلام قوى في المرأة بعض الفضائل ، فرغبها في الكرم على أنه صدقة وقربى إلى الله وواجب اجتماعي على الأغنياء للفقراء ، وزادها حرصاً على العفة بحضه عليها وتشديده العقاب للزاني والزانية ، ونمى حيائها ،

(١) بلاغات النساء ١٣٠ — ١٣١ وتاريخ الطبري ٢٠٣/٧

(٢) فتح الباري ٢٧٨/١٠ الفتخ : جمع فتخه الخاتم الكبير في اليد أو الرجل أو الحلقة من فضة كالخاتم لا فص له . الخرص : حلقة الذهب والفضة أو حلقة القرط أو الحلقة الصغيرة من الخلي . السخاب : قلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جواهر

(٣) الطبقات ٤٦/٨ والإصابة ١٤١/٨

(٤) الطبقات ٤٥/٨ (٥) الإصابة ٩٢/٨ وبلاغات النساء ١٢٩ والطبقات الكبرى

وأبقى على أخلاقها الأخرى من الشجاعة والاستمسك بالعقيدة، وعزة النفس . ثم حلاها بنوع آخر من الفضائل كالصبر والقناعة والصفح، وحرمة فجور الاماء وكسب البغايا . فلم يكن في أمهات فضائل المرأة المسلمة خلق جديد لا عهد لها به، وحسبها فخراً أن الأخلاق العالية التي دعا إليها الإسلام كانت من حلاها . وليس طبعياً أن تكون المرأة في الجاهلية محرومة الأخلاق الكريمة ثم نراها تتصف بها في مطلع الإسلام ومستهلها، لأن الجديد من الأخلاق محتاج إلى أن يعمر طويلاً حتى يصير خلقاً عاماً « ويجب لكي يكون للبيئات والتوالد أبلغ الأثر في تكوين العرق — وهو نوع من الناس ذوي أخلاق مشتركة تنتقل إليهم بالوراثة المنتظمة — أن يتوالى التطور بفعل الوراثة المتتابعة المستمرة قروناً كثيرة سائراً نحو غرض واحد^(١) .

فلم يكن مستطاعاً أن ينسلخ العرب نساء ورجالاً من أخلاقهم الجاهلية انسلاخاً تاماً على أثر اعتناقهم للإسلام، لأن ذلك الانسلاخ يقتضى زماناً طويلاً لتتحول الأخلاق في تودة « وعلى ما في السجاياء الخلقية من الثبات نراها تقدر كالصفات الجثمانية أن تتحول ببطء بتأثير مختلف العوامل، ولا سيما بالبيئة المادية والمؤثرات الأدبية والتوالد^(٢) . وإن خروج الأفكار من عقول الجماعة صعب كدخولها^(٣) . وقد جاء الإسلام فوجد في العرب فضائل ورذائل، أما الفضائل فشجعها ونماها، وأما الرذائل فأبطلها وحرمها ومحامها .

فليس بصحيح « أن الجود والوفاء بالعهود والشجاعة والفظن وما جرى في هذا السنن من فضائل الرجال لو مدح النساء به لكان نقصاً عليهن وذماً لهن^(٤) »، لأن الجود والوفاء والشجاعة والاستمسك بالعقيدة والعفة فضائل يمدح بها الرجال، وقد مدحت بها النساء في الجاهلية والإسلام .

(١) حضارة العرب . لوبون ٧٨ (٢) حضارة العرب . لوبون ٨١

(٣) روح الاجتماع . جستاف لوبون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩ (٤) زهر الآداب للحصري ٥٥/٢

الفصل الثاني

المرأة سافراً ومخبجة

شغلت قضية السفور والحجاب العالم الإسلامي والعربي ردحاً من القرن العشرين ، واحتكم أنصار السفور إلى التاريخ وإلى الدين ، واستند أنصار الحجاب إلى التاريخ وإلى الدين ، ثم قضى التطور بالغلب لدعاة السفور ، فسفرت نساء في مصر وفي غير مصر ، لكن الحجاب ما زال صفيقاً في بعض البلاد العربية ، رقيقاً في بعضها الآخر .

كذلك كان شأن السفور والحجاب في العصر الجاهلي ، فنحن نجافي الحق إذا زعمنا أن النساء العربيات كن كلهن سوافر ، ونحن نجانب الصدق إذا حكمنا بأنهن كلهن كن مخجبات ، لأن العربيات مارسن السفور ومارسن الحجاب .

السفوف

١ — كان كثير من النساء سوافر مكشوفات الوجوه ، إذ لم يكن بين رجال العرب وبعض النساء حجاب ، « ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفتنة ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، ثم كانت الشرائع من النساء يقعدن للرجال للحديث . ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً ، (١) .

وقد ذكر الأصمعي أن المرأة كانت تلقي خمارها لحسنها وهي على عفة (٢) .

وكانت نساء الأنصار لا يحتقرن ، حتى نزل قوله تعالى « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن » (١) . وفي تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيماً » (٢) . ما يثبت أن بعضهن كن سافرات ، لأن الغرض من الآية أن يأمر النبي النسوة الحرائر ألا يتشبهن بالإماء في ملابسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن ، فلا يكشفن شعورهن ووجوههن ، بل يجب عليهن أن يدنين من جلابيبهن ؛ لئلا يعرض لهن فاسق بأذى من قول إذا علم أنهن حرات (٣) .

٢ — وكان بعضهن قد أسرفن في سفورهن وتبرجهن ، فنهاهن الله عن ذلك بقوله لنساء النبي : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (٤) ، ولم يتفق المفسرون على زمن الجاهلية الأولى ، فهي القديمة التي كانت في زمن إبراهيم عليه السلام ، أو هي التي بين آدم ونوح ، أو بين إدريس ونوح ، أو هي زمن داود وسليمان . والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد . وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر ، وقيل إن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل الإسلام ، وليست لها أخرى ، وإنما أريد بالأولى الجاهلية القديمة (٥) . وقيل إن الجاهلية الأولى كانت قبل الإسلام ، وفي الإسلام نفسه أخلاق منها ، فقد قال النبي لأبي الدرداء — وقد قال لرجل ينازعه يابن فلانة لأم كان يعير بها في الجاهلية — يا أبا الدرداء إن فيك جاهلية . قال : أجاهلية كفر أم إسلام ؟ قال : بل جاهلية كفر . وقال النبي : ثلاث من عمل أهل الجاهلية لا يدعن الناس : الطعن بالأنساب ، والاستمطار بالكواكب ، والنياحة (٦) .

والذي أرجحه أن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل الإسلام ، لأن القرآن ينهاهم عن عمل شهوده أو سمعوا به ، وليست كلمة (الأولى) مقابلة لكلمة (الأخرى) التي يتوقعها السامع ، بل هي وصف للجاهلية دال على أنها مضت وولى عهدا . وهذا التعبير شبيه بقول الشاعر : « على لاجب لا يُهتدى بمناره » ، فليس المراد أن في الطريق مناراً لا يهتدى ، وإنما المراد

(١) سورة النور ٣١ (٢) سورة الأحزاب ٩٥ (٣) تفسير الطبري ٣٣/٢٢ والنيسابوري ٣٢/٢٢ والرازي ٢٤٩/٥ والطبقات الكبير ١٢٧/٨
(٤) سورة الأحزاب ٣٣ (٥) تفسير النيسابوري ١٠/٢٢ (٦) تفسير الطبري ٤/٢٢

أنه طريق لا منار فيه يهتدى به السائر ، وكقول الشنفرى فى لاميته : ولست بمحيار الظلام (١) .

فظاهر لفظه أنه لا تبلغ منه الحيرة ما تبلغه من اشتدت حيرته فى الظلام ، ولكن هذا ليس مراده ، وإنما مراده أنه لا تقع له حيرة أصلا .

ومهما يكن من أمر الجاهلية الأولى فقد بالغوا فى تشويهها مبالغة بعيدة من الصواب ، فزعموا أن المرأة كانت فى هذه الجاهلية تلبس درعاً من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال (٢) . والصحيح أن المراد بالتبرج فى الآية الكريمة التبخر والتكسر فى المشية والخضوع بالقول وإظهار الزينة والمحاسن للرجال (٣) ، فقد روى عن قتادة أنهم كانت لهن مشية وتكسر ، وروى عن ابن نجيح أنهم كن يتبخرن ويظهرن ريذنهن ويبرزن محاسنهن (٤) .

وقد فهمت بعض المسلمات أن الأمر هنا خاص بنساء النبي ، فظللن على سفورهن ، مثل سَكينة بنت الحسين (٥) . وروى عن عطاء أنه كان يكره أن تطوف المرأة بالبيت وهى منتقبة ، حتى أخبرته صفية بنت شيبة أنها رأت عائشة تطوف منتقبة ، فرجع عن رأيه (٦) ، ورويت عن عائشة أخبار عدة تثبت أن بعض النساء كن يسفرن ، من ذلك قولها إن نساء الأنصار لما نزلت سورة النور عمدن إلى حجور فشققن فاتخذن خمر (٧) . وقولها : يرحم الله النساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » شققن أكثف مروطن فاخترن بها (٨) . وقد دخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن وعليها خمار رقيق يشف عن جيها ، فشققته عائشة وأبدلتها به خماراً كشيفاً (٩) ، وروى عن أم سلمة أنه لما نزلت « يدنين عليهن من جلابيبهن » خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية (١٠) .

٣ — وكانت هنالك حالات لا مندوحة فيها عن السفور حتى من المحجبات ، فكان يسفرن فى المناحة ، لأن الفجيرة والحزن والنواح تنحرف بالمرأة عما اعتادت من تستر

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزحمرى ٢٣ (٢) النيسابورى ١٠/٢٢

(٣) لسان العرب مادة برج (٤) الطبرى ٤/٢٢ (٥) الأغاني ١٤/١٥٩ و ١٠/٥١

(٦) أخيار مكة للأزرق ١٠/٢ (٧) سنن أبى داود ١١٨/٢ حجور : جمع حجر وهو ما بين

اليدنين من الثوب (٨) المرجع السابق ١١٩/٢ وتفسير الطبرى ٩٤/١٨ (٩) الطبقات الكبير ٤٤/٨

(١٠) سنن أبى داود ١١٨/٢

وتقتنع ، يدل على ذلك قول مهمل في رثاء كليب إنهم كانوا يغارون على نسايتهم أن يبرزن من
خدورهن ، فلما قتل كليب خرجن حواسر عواطل من حليهن :

كنا نغار على الع — واتق أن ترى بالأمس خارجة عن الأوطان
نخرجن — ين ثوى كليب حسرا مستيقنات بعهده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلا إذ حان مصرعه من الألفان
يخمشن من آدم الوجوه حواسرا من بعده ويعدن بالأزمان (١)

وقوله :

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً وذراع باكية عليها برنس
تبكي عليك ولست لائم حرة تأسى عليك بعبرة وتنفس (٢)

وقول الربيع بن زياد العبسي :

من كان محزوناً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجهه نهار
يحد النساء حواسرا يندبنه يلطم — ن أوجهن بالأسحار
قد كن يخبان الوجوه تسترا فاليوم حـين برزن للنظار
يضربن حـر وجوهن على فتي عف الشائل طيب الأخبار (٣)

وكن يسفرن إذا أيقن هزيمة قومهن وخشين السبي ، فيتشهن بالإماء حتى يزهد فيهن ،
ويتأهبن للفرار سافرات ، يقول قيس بن الخطيم :

صبحنا كم شهباء يبرق بيضها تبين خلاخيل النساء الهوارب (٤)

ويقول الأفوه الأودي :

يوم تبدى البيض عن لمع البري ولاهل الدهر فيها صغصة (٥)

ويقول طرفة :

سائلوا عما الذي يعرفنا بقوانا يوم تح — لاق اللمم

(١) الكامل لابن الأثير ١٨٩/١ وشعراء النصرانية ١٦٢/٢ عواتق : جمع عاتقة وهي الجارية
أول ما أدركت أو التي لم تنزوج (٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٩٧/٢ وأخبار المراقبة ٥٦
(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٢٦/٣ والكامل لابن الأثير ٢٠٧/١
(٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط وجمهرة أشعار العرب ٢٥٢ (٥) ديوان الأفوه الأودي

يوم تبدى البيضُ عن أسوقها وتلف الخيلُ أعراجَ النعم^(١)
ويقول عوف بن عطية التيمي :

ولنعم فتیانُ الصباح لقيـتمْ وإذا النسـاء حواسر كالعُنُقُرُ
من كل واضعة الخمار وأختها تسعى ومنطقها مكان المـنـزر^(٢)
ويقول مهلهل :

على أن ليس يُـوفي من كليب إذا برزت مخبـأة الخـدور^(٣)

ويقول سبرة بن عمرو الفقعسي في هجاء بني نهشل إن نسوتهم تشبهن بالإماء مخافة السباء
فبرزن مكشوفات :

ونسوتكم في الروح بادٍ وجوههم — ا يُخَنَّ إماء والإماء حـرائر^(٤)
ويقول الأعرج المعنى في رده على امرأته التي عدلته لعنايته بحصانه :

تلوم على أن أعطى الودد لقحةً وما تستوى والورد ساعة تفرع
إذا هي قامت حاء — رأ مشمعةً نخيب الفؤاد رأسها ما تُقنع^(٥)

ولقد يسفرن إدلالاتاً بجمالهن أو مكائنهن ، أو خضوعاً لعرف قبيلتهن ، يقول المسيب
ابن علس :

أرحت من سلتى بغـير متاع قبهـل العطاس ورعتها بوادع
إذ تستيك بأصـلتي ناعم قامت لتفتنه بغـير قناع^(٦)
ويقول الشنفرى :

عفاية لا تقصر الستر دونها ولا ترتجى البيت إن لم تُبيت^(٧)

وقد تقدم في الفصول السابقة أن المرأة كانت تغشى بجامع الرجال ، وتخطب ، وتنفذ
الشعر ، وتحرض على القتال ، وتقاتل ، وتخدم الجرحى ، وهذا يستدعى أن يكون وجهها
مكشوفاً للناظرين .

(١) ديوان طرفة ١٠٤ وشعراء النصرانية ٣١٤ والأغاني ٤٤/٥ الأعراج : جمع عرج وهو الفطيع
من الإبل (٢) المفضليات ١٢٧/٢ العنقر : أصول القصب والبقل والبردى مادام أبيض . منطقها
مكان المزور : سقط لإزارها من فزعها فظهر منطقها (٣) الأغاني ٥٣/٥ (٤) شرح
الحماسة للتبريزي ١٢٧/١ والمرزوقي ٢٣٨/١ (٥) معجم الشعراء ٢٥١ (٦) المفضليات ٥٨/١
وديوان المسيب الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ وسمط اللآلي ١٧٨/١ متاع : متعة . العطاس : الصبح .
أصلتي : خدناعم حسن (٧) الأغاني ٩١/٢١ عفاية : ممتلئة .

الحج — اب

لم تكن النساء كلهن سافرات ، وإنما سفر بعضهن ، وتحجب بعضهن فغطين وجوههن ، وليس في هذا تناقض أو شذوذ ، لأن المجتمعات كثيراً ما تقباين عاداتها ، وتتغير نظمها في البيئة الواحدة والعصر الواحد . ففي مصر اليوم سافرات ومحتجبات ، في المدينة الواحدة ، والقرية الواحدة ، وسفور المرأة في القاهرة والإسكندرية غير سفور المرأة القروية ، وحجاب هذه غير حجاب أولئك .

أما دعوى فير weir أن الحجاب لم يكن معروفاً في الجاهلية ^(١) فغير صحيحة ، تدحضها الأخبار ، وتبطلها الأشعار .

١ — الأخبار صحيحة في ممارسة النساء للحجاب ، منها أنه كان السبب في اليوم الثاني من أيام الفجار الأول أن شاباً من قريش وبني كنانة رأوا امرأة جميلة وسيمة من بني عامر بسوق عكاظ ، وسألوها أن تسفر فأبت ، فامتنها أحدهم ، فاستغاثت بقومها فقامت حرب ^(٢) .

ومنها أن السبب في اعتقال عبد الله بن علقمة بصاحبه حبش أنه نزل ضيفاً عند أهلها ، فأجلسوه في متحدث لهم ، فخرجت حبش وعلى وجهها رِسْب أخضر ، فضربه الهواء فانكشف وجهها ويدها . فهام بها عبد الله ^(٣) .

وكانت هند بنت صعصعة جد الفرزدق تفاخر بقولها : من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لي أن أضع خماري معهم فلها صرمتي : أبي صعصعة ، وأخي غالب ، وخالي الأقرع ، وزوجي الزبرقان بن بدر . وهي ذات الخمار ، لأنها دخلت على هؤلاء الأربعة فألقت خمارها ، فقالوا لها : ما هذا ، ولم تكوني متبرجة ؟ فقالت : داخلتنى خيلاء حين رأيتم ، فأى امرأة من العرب وضعت خمارها عند مثلكم فلها صرمتي ^(٤) .

وفي أمثالهم ما يؤيد معرفتهم الحجاب ، كقولهم (إن العَوَّان لا تَعْلَمُ الحِمْرَةَ) ^(٥) ، أى لا تحتاج إلى تعلم الاختمار ، يضرب مثلاً للرجل المجرب .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢٦٦/٦ T. h. Weir (٢) الأغاني ٧٤/١٩ (٣) تزيين الأسواق ٨١ داود الأنطاكي . (٤) النقائش ٢٦٤ (٥) مجمع الأمثال ١٧/١ وجمهرة الأمثال ٦١/٢ ولسان العرب مادة خر . العوان : الثيب أو بنت الثلاثين .

٢ — والشعر الجاهلي حافل بذكر الحجاب كما حفل بذكر السفور ، فمثلا يقول النمر بن تولب في امرأته التي هجرته :

— وصَدَّتْ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَحْتَ قَنَاعِهَا بَدَا حَاجِبُ مِنْهَا وَضُنْتُ بِحَاجِبِ^(١)

ويقول الربيع بن زياد العبسي بعد مقتل مالك بن زهير :

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَأْتِ نَسُوتَنَا بِوَجْهِهِ — سَار

قَدْ كُنْ يَخْبَأُ الْوَجْهَ — وَهُ تَسْتَرًا فَالْيَوْمَ حِينَ بَدُونَ لِلنَّظَرِ — سَار

يَخْمَشْنَ حَرَّاتِ الْوَجْهِ عَلَى أَمْرٍ سَهْلُ الْخَلِيقَةِ طَيْبُ الْأَخْبَرِ — سَار^(٢)

ويتغزل الخطيئة في قوام محبوبته ووجهها ، ويكنى عن وجهها بأنه موضع النقاب :

طَافَتْ أَمَامَةَ بِالرَّكْبَانِ آوْنَةً يَا حُسْنَهُ مِنْ قَوَامٍ مَّا وَمُنْتَقِبَا^(٣)

ويعجب الشنفرى بحبيبه وهي منتقبة لا تكشف وجهها :

— فَقَدْ أَعْجَبْتَنِي لَا سَقُوطَ قَنَاعِهَا إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بَذَاتَ تَلَقَّتْ^(٤)

وتحرض أم عمرو بنت وقدان قومها على الثأر بأنهم إن لم يثأروا فعليهم أن يدعوا السلاح ويتكحلوا وينتقبوا كالنساء :

إِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَطْلُبُوا بِأَخِيكُمْ فَدَرُوا السِّلَاحَ وَوَحِّشُوا بِالْأَبْرِقِ

وَخَذُوا الْمَكَاحِلَ وَالْمَجَاسِدَ وَالبَسُوا تُقَبِّ النَّسَاءَ فَبُئْسَ رَهْطُ الْمَرْهَقِ^(٥)

ولقد يتمثل الحجاب في أن تتخدر المرأة فلا يراها إلا الأقربون ، ولا تبرز إلا في الفواجع . يدل على ذلك قول زهير :

وَمَا أَدْرَى وَسَّ — وَفَ إِخَالِ أَدْرَى أَقُومُ آلَ حَصْنِ أُمِّ نَسَّ — أَاء

فَإِنْ تَكُنِ النَّسَاءُ مَحْجَبَةً — آتٍ فَحَقُّ لِكُلِّ مُحَصَّنَةٍ — دَاء^(٦)

وفي قول مهلهل يرثى كليباً :

عَلَى أَنْ لَيْسَ — دَلَا مِنْ كَلِيبٍ إِذَا بَرَزَتْ مَحْجَبَةُ الْخُ — دُور^(٧)

(١) الأغاني ١٥٩/١٩ (٢) النقااض ٨٦ (٣) خزانة الأدب ٣٩٥/٢ (٤) الأغاني

٩٠/٢١ (٥) شرح الحماسة للبريزي ٥٥/٤ وحشوا بالأبرق : كونوا مع الوحوش بالأرض الرملية الحجرية . المرهق : الدليل المضيق عليه (٦) شرح ديوان زهير لثعلب ٧٤ (٧) الأمانى ١٣٢/٢ وكتاب بكر و تغلب ٧١

وفي قول عدى بن زيد :

— يُسَارِقْنَ مِ الْإِسْتَارَ طَرْفًا مَفًّا — تَرَا وَيُبْرِزْنَ مَنْ فَتَقَ الْخُدُورَ الْأَصَابِعَا^(١)

٣ — وإذا كان المراد بالحجاب لبس الخمار ونحوه فإنه لم يكن مقصوراً على العرب ، بل كان شائعاً منذ أقدم العصور في بابل وأشور وفارس والروم والهند^(٢) ، فقد كانت النساء الرومانيات مغاليات في الحجاب في العهد الأول للجمهورية ، حتى إن القابلة كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة ، ووجهها ملثم ، وعليها رداء طويل يلامس كعبيها ، وفوقه عباءة لا تبدى شيئاً من قوامها . ثم تغيرت الحال في عهد الإمبراطورية ، حتى هالت بعض المصلحين ، وهب (كاتون) ينذر بالخطر المحقق الذي سيلتهم كل شيء^(٣) .

كذلك عرف الفرس القدماء الحجاب ، وعدوا كشف المرأة أو الرجل عن شيء من جسده غير الوجه مظهراً منافياً للاحتشام والأدب . وكانت النساء يغطين أجسامهن من قمة الرأس إلى إخص القدم^(٤) . وبعد حكم دارا الأول كان احتجاب نساء الطبقة الراقية عن المجتمعات نظاماً ضرورياً مراعى ، فصرن لا يجسرن على الخروج إلا في هودج تغطيها الستائر ، وحظر عليهن أن يخالطن الرجال في مجتمع خاص أو عام . بل لقد منعت المتزوجات من رؤية أدنى الرجال إليهن قرابة حتى الآباء والإخوة . ونشأ عن ذلك أننا لم نجد للنساء ذكراً أو صوراً في النقوش أو التماثيل التي خلفتها إيران القديمة . أما الخليلات والمحظيات فمكن على ضد ذلك ، يتمتعن بحرية عظيمة ، لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن مواليهن وضيوفهم^(٥) . وشاع الحجاب عند الهنود أيضاً ، حتى في عصر المهابراته . وعرفه الآثينيون القدماء^(٦) ، وقد ورد في الإلياذة قول هكتور : « لست أرضى العار إذا اشتجرت النصول بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب ، ومن هذا ، ومن ذكر قناع إيقاب ، وبرقع هيلانة ، وبراقع النساء والربات ، نعرف أن اليونانيات استعملن النقاب^(٧) .

على أنه ما زال شائعاً إلى العصور الوسطى وما بعدها ، وما زالت له آثار ، ولم تغير منه النصرانية شيئاً^(٨) ، لذلك كان ذائعاً في الدولة البيزنطية^(٩) ، وإن لم يكن عاماً^(١٠) .

(١) الأغاني ١٥٠/٢ (٢) الإسلام والحضارة العربية محمد كرد علي ٨٨/١

(٣) المرأة المسامة ١٢٣ فريد وجدى (٤) قصة الحضارة الفارسية ١٩ ول دورانت

(٥) المرجع السابق ٦٠ (٦) مركز المرأة في الإسلام ٢٤ السيد أمير على الهندي

(٧) الإلياذة ٤٧٥ (٨) التمدن الاسلامي ٧٧/٥ جرجي زيدان (٩) مركز المرأة

في الإسلام ٢٤ (١٠) الامبراطورية البيزنطية ٣٤ نوزمان بينتر

٤ — ثم جاء الإسلام ففصل في مشكلة السفور والحجاب ، قال تعالى : «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناء بعولتهن أو أولادهن أو أخواتهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، (١)» .

وقال تعالى : «يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، (٢)» .

واختلف في الإدناء الذى أمرن به ، فقال بعضهم هو أن يغطين رؤوسهن ووجوههن فلا يبدين إلا عيناً واحدة . وقال بعضهم بل يشددن خمرأ على جباههن . وروى عن ابن عباس أن إدناء الجلاباب هو أن تتقنع وتشدد جبينها ، وعن قتادة أن يقنعن على الحواجب (٣) . وذهب آخرون إلى أن المراد ستر الرؤوس والأعناق والنحور (٤) .

وبذلك حرم على المرأة المسلمة أن تكشف عن مواضع زينتها أمام أجنبي ليس من المحارم ، إلا ما اقتضت الضرورة أن يظهر ، كالوجه والكف ، لأن في إخفائهما تضيقاً وحرماً (٥) .

ونهى الإسلام عن التبرج كما سبق .

وهو بذلك يدرأ الفتنة ، ويقي النفوس نزواتها ، لذلك أحل للعجائز اللاتي لا أرب فيهن ما لم يحل للشابات والجميلات ، يقول تعالى : « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، (٦)» .

وقد صور الشعراء بعضهن مختمرات ، فعمر بن أبي ربيعة يقول فى إحدى صواحبه :

— واشتكت شدة الإزار من النهـر وألقت عنها لدى الخمار (٧)

(١) سورة النور ٣١ والنيسابورى ٣٢/٢٢ والرازى ٢٤٩/٥ والطبقات الكبير ١٢٧/٨ (٢) سورة الأحزاب ٩٥ (٣) تفسير الطبرى ٣٣/٢٢ (٤) تفسير الجلالين ٢٩٥ (٥) تفسير الطبرى ٩٤/١٨ والنيسابورى ٧٦/١٨ والبيضاوى ٤٧٦ والجلالين ٢٩٥ (٦) سورة النور ٦٠ (٧) الأغاني ٩٧/٣ ساسى

وقد جلس هو والغرييض في نسوة مقنعات بأخمرتهن ^(١). والحارث بن خالد يقول في امرأة محتمرة وهي تحج :

يقعدن في التطواف آونةً ويظفن أحياناً على فُـتـر
ففرغن من سـبع وقد جهدت أحشاؤهن موائل الخـمر ^(٢)

على أن قلة من المسلمات كانت تسفر ، وزعيمتهن في ذلك عائشة بنت طلحة ، كانت لا تستر وجهها من أحد ^(٣) ، وسكينة بنت الحسين ، كانت برزة أديبة تجالس الجلة من الرجال والأدباء ^(٤) . وقد أشرفت هند بنت النعمان بن بشير على وفد عند زوجها وهي سافر ، وكذلك كانت تسفر امرأة عبد الملك بن مروان ^(٥) . وكانت عمرة صاحبة أبي دهب — وهب بن زمعة الشاعر الإسلامي — امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للحادثة وإنشاد الشعر والأخبار ^(٦) .

وفي حديث لنصيب أنه جالس هو وكثيرٌ والأحوص نساء بارزات لا عهد لهم بهن ، وسمعوا الغناء ، وتغدوا بالعقيق جميعاً ^(٧) .

وكانت خرقاء العامرية حبيبة ذى الرمة فغدا للحجيج وتحادشهم ومعها فاطمة ابنتها ^(٨) . ولقد كان الباعث لهن على السفور في الإسلام كما كان في الجاهلية : الزهو بالجمال ، والاعتداد بالتصون ، والاعتزاز بالعفة ، فقد عاتب مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة في سفورها فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسمي بميسم جمال فأحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، والله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد ^(٩) .

وقد سجل الشعراء هذا السفور ، كقول عمر أبي ربيعة :

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعـا

(١٠)

وقول الشماخ :

« أطارت من الحسن الرداء المحجراً »

- | | | |
|---------------------------------|------------------------|-------------------------------|
| (١) الأغاني ٨٣/٦ ساسي | (٢) الأغاني ٩٧/٣ ساسي | (٣) الأغاني ٥١/١٠ |
| (٤) الأغاني ١٦٥/١٤ | (٥) العقد الفريد ٢٨٩/٣ | (٦) الأغاني ١٥٠/٦ |
| (٧) الأغاني ١٣٧/١ ساسي | (٨) الأغاني ١١٩/١٦ | (٩) الأغاني ٥١/١٠ وزهر الآداب |
| (١٠) شرح الحماسة للتبريزي ١٢٧/٣ | | |

لأنها مدلة بجهالها فلا تختمر ، ولا تستر شيئاً من الناظرين ^(١) .

وإذا فالحجاب الذى دعا إليه الإسلام سهل ميسور مقبول ، وهو شبيه بما كان فى الجاهلية وبما نرى اليوم فى البوادي والقرى .

ولكن بعض المسلمين تشددوا فيه ، ثم تأكد وثبت منذ أصدر المتوكل والقادر بالله العباسي أمرهما بمنع النساء من الصلاة فى المساجد ومخالطة الرجال فى المحافل والمجمعات ^(٢) . وكلما ضعفت مكانة المرأة وساء ظن الرجال بها ، وساء ظنهم بهم ، علت حولها الأسوار ، وخيفت عليها الأنظار ، وعاشت فى منزل أشبه بالحصن ، كالوردة فى أحيص مغلق .

خمرها وملابسها

[١]

كانت أغطية رموسهن متنوعة ، ولها أسماء شتى منها :

(١ —) الخمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . وهو شقة على الرأس تلف على جزء من الوجه ، فهو يشبه ما يسمى فى عصرنا (الطرحة) ، ومن أسمائه النصف ^(٣) ، والقناع ^(٤) . والبرقع ^(٥) ، والسب ^(٦) .

(٢) وإذا كان الغطاء وحده فهو الملقع واللقعة ، وهى أصغر من القناع ^(٧) .

(٣ ✓) والنقاب القناع على مارن الأنف ، وهو على وجوه . قال الفراء : إذا أدنت المرأة نقابها إلى عينها فتلك الوصوصة ، فإن أنزلته دون ذلك إلى المحجر فهو النقاب ، فإن كان على طرف الأنف فهو اللثام . وقال ابن سيرين : النقاب محدث ، أراد أن النساء ما كن ينتقبن أى يختمرن . قال أبو عبيد : ليس هذا وجه الحديث ، ولكن النقاب عند العرب هو الذى يبدو منه محجر العين ، ومعناه أن إبداءهن المحاجر محدث ، إنما كان النقاب لاحقاً بالعين ، وكانت تبدو لإحدى العينين والأخرى مستورة ، وكان اسمه عندهم الوصوصة والبرقع ^(٨) .

(١) الكامل للمبرد ٤٩١/١ (٢) الإسلام والحضارة العربية ٨٩/١ (٣) لسان العرب والقاموس المحيط مادة خمر (٤) القاموس مادة قنع (٥) القاموس المحيط مادة برقع (٦) القاموس مادة سب (٧) لسان العرب والقاموس مادة قنع . (٨) لسان العرب والقاموس مادة نقب والقاموس مادة ثم ولغم

✓ (٤) والوَصَوصُ النِّقَابُ عَلَى مَارِنِ الْأَنْفِ لَا تَظْهَرُ مِنْهُ إِلَّا الْعَيْنَانِ ، وَهُوَ الْبَرْقَعُ الصَّغِيرُ ^(١) وَيُسَمَّى الْبُخْنُقُ ^(٢) .

✓ (٥) الْبَرْقَعُ وَالْبَرْقُوعُ ، وَهُوَ لِلدَّوَابِّ ، وَلِنِسَاءِ الْأَعْرَابِ ، فِيهِ خِرْقَانٌ لِلْعَيْنِ ، وَالْبَرْقَعُ الْمَوْصُوصُ هُوَ الصَّغِيرُ الْعَيْنَيْنِ ^(٣) .

✓ (٦) الْقِنَاعُ ، مَا تَقْنَعُ بِهِ الْمَرْأَةُ مِنْ ثَوْبٍ ، تَغْطِي رَأْسَهَا وَمَخَاسِنَهَا بِهِ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْمَقْنَعِ وَالْمَقْنَعَةُ . وَذَهَبَ الْأَزْهَرِيُّ إِلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَ الثَّقَاةِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ بَيْنَ الْقِنَاعِ وَالْمَقْنَعَةِ ، وَيُظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ مِنْ لِبَسِ الْإِمَاءِ ، فَقَدْ رَأَى عَمْرٌو جَارِيَةً عَلَيْهَا قِنَاعٌ فَضَرَبَهَا بِالْدَرَّةِ وَقَالَ : أَتَشَبَّهِينَ بِالْحَرَائِرِ ؟ ^(٤) .

(٧) الْبُخْنُقُ : بَرْقَعٌ يَغْشَى الْعُنُقَ وَالصَّدْرَ ، وَالْبَرْنَسُ الصَّغِيرُ . وَهُوَ ابْنُ سَيِّدِهِ أَنَّهُ الْبَرْقَعُ الصَّغِيرُ . وَهُوَ أَيْضاً خِرْقَةٌ تَلْبَسُهَا الْمَرْأَةُ فَتَغْطِي رَأْسَهَا مَا قَبْلَ مِنْهُ وَمَا دَبَّرَ غَيْرَ وَسَطِ الرَّأْسِ . وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ هُوَ خِرْقَةٌ تَقْنَعُ بِهَا الْجَارِيَةُ ، وَتَشُدُّ طَرَفَيْهَا تَحْتَ حَنْكَمِهَا لِتَقِيَ الْخِمَارَ مِنَ الدَّهْنِ ، وَتَحْفَظُ الدَّهْنَ مِنَ الْغِبَارِ ^(٥) .

(٨) وَفِي الشَّعْرِ ذَكَرَ لِهَذِهِ الْخُرُ .

فَمِنْ ذَكَرِ الْخِمَارِ قَوْلُ صَخْرٍ فِي أُخْتِهِ الْخُنْسَاءِ :

وَلَوْ هَلَكْتُ خَرَقْتُ خِمَارَهَا وَانْحَدْتُ مِنْ شَعْرِ صَدَارِهَا ^(٦)
وَقَوْلُ الْمَرَارِ بْنِ مَنَقَدٍ :

وَهُوَ الْقَلْبُ الَّذِي أُعْجِبُهُ صُورَةٌ أَحْسَنَ مِنْ لَآثِ الْخُرِّ ^(٧)
وَمِنْ ذَكَرِ الْقِنَاعِ قَوْلُ عَنَتَرَةَ :

إِنْ تَغْدِي فِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنِّي طَبٌّ بِأَخَذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْتَمِ ^(٨)
وَقَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ الْوَرْدِ :

فِرَاشِي فِرَاشُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتِ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مَقْنَعٌ ^(٩)

(١) لسان العرب مادة وصوص (٢) القاموس مادة بخنق (٣) لسان العرب مادة برقع

(٤) لسان العرب مادة قنع (٥) لسان العرب مادة بخنق والقاموس مادة بخنق

(٦) تهذيب الكامل ١٩٢/٢ والشعر والشعراء ١٢٤ والإصابة ٦٧/٨ (٧) المفضليات ٨٧/١

(٨) لسان العرب مادة قنع وشرح المعلقات السبع لابن الأنباري مخطوط ٥٨ تغدفي : ترخي على وجهك

(٩) شعراء النصرانية ٩١٣

ومن ذكر البرقع قوله النابغة الجعدي يصف خشفاً :

— وخداً كبرقوع الفتاة مُلمعاً وروقين لما يعدُّ أن يتقشراً
وقول توبة :

وكنْتُ إذا ما جئتُ ليلي تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها (١)
ومن ذكر الوصاوص قول المثقب العبدى :

— ظهرن بكلة وسدّان رقماً وثقبن الوصاوص للعيون
ويروى ، أرين محاسنا وكنن أخرى .
وأشد ابن برى لشاعر :

يا ليتها قد لبست وصواصا (٢) .

ومن ذكر النصف قول النابغة فى المتجردة :

— سقط النصف ولم ترد إسه قاطه فتناولته واتقتنا باليه (٣)

وقول ثعلبة بن صعير فى وصف النعامه : إنها حضنت بيضها بجناحيها وهى فى خباياها
فلم يبد إلا وجهها ، كالمراة من الحُس تنقع ولكن يبدو بعض رأسها ووجهها .

فبنت عليه مع الظلام خباها كالأحسية فى النصف الحاسر (٤)
وقول ليلي بنت طريف فى رثاء أخيها الوليد :

بكت تغلب الغلباء يوم وفاته وأبرزَ منها كل ذات نصف (٥)
ومن ذكر السب قول معن بن أوس :

— إذا ما لبس الحلى والوشى أشرفت وجوه ولبات يسلبنا الحلى
ولئن السبب خمر قرشية زيرية يعلن فى لوها علما (٦)

ومن ذكر اللثام قول قيس بن الحداية :

نشرت على فيها اللثام وأعرضت وأمعن بالكحل السحيق المدامع (٧)

(١) لسان العرب مادة برقع (٢) لسان العرب مادة وصص (٣) ديوان النابغة ٢٩

(٤) المفصليات ١٢٨/١ (٥) حساسة البحتري ٤٣٦ (٦) البيان والبيان ٣٥٤/٢ هارون. ثن :

أدرن وطوين . الخمره : هيئة الاختمار . لوها : لإدارتها وطيا . يعامن : يسمن من علمه بابه نصر وضرب

(٧) الاغانى ٧/١٣

ومن ذكر البخنق قول عنتره

نُفِّرَ الرجال سلاسل وقيود وكذا النسَاء بنحاق وعقود (١)

(٢)

أما ملابسها فكثيرة أيضاً ومنوعة ، منها :

(١) الرِّبْطَة ، وهى الملاءة من نسج واحد وقطعة واحدة ، وهى كل ثوب لين رقيق (٢).

قال سُلَيْم بن ربيعة يذكر لذاته :

والبيض يَرْفَأُ — نَ كَالْدُمَى فى الرِّبْطِ والمَذْهَبِ المَصُونِ (٣)

وقال الأعشى :

والساحبات ذبول الرِيبْطِ آوَنَ والرافلات على أعجازها العَجَلِ (٤)

وقال الرَّمِق — عبيد بن سالم الخزرجى — فى مدح أبى جبيلة :

أَمْشال غزلان الص — را ثم يأتزرن ويرتدينه — ا

الرِّيبْطِ والديباج وال — ز رَدَ المضاعف والبرينة — ا (٥)

وذكرها حسان فى قوله :

يَحْمَلْنَ حُوراً حُورَ المدامع فى الرِّ — يْطِ وبيضَ الوجوه كالبرَدِ (٦)

(٢) المِرْطُ كساء من صوف أو خز (٧).

ويظهر أن ذيله كان طويلاً ينسحب على الأرض . يقول امرؤ القيس :

خرجت بها أمشى تَجِرُ وراءنا على أثَرِنا ذيلَ مِرْطٍ مرَحَلٍ (٨)

ويقول :

دخلت على بيضاء جَمَّ عَظَامُها تعقَى بذيلَ المِرْطِ إذ جئتُ مودَقٍ (٩)

وقد ذكر المِرْطُ والرِيبْطَة المنتخل بن عويمر الهذلى فى قوله .

خُورٌ قد لهُ — وتُ بهن حيناً نواعمُ فى المِروطِ وفى الرِّياطِ (١٠)

(١) ديوان عنتره ٦٤ (٢) القاموس مادة رِيبْط (٣) شرح الحماسة للتبريزى ٨٣/٣

(٤) شعراء النصرانية ٣٦٨ . العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى دولا ب السقي

يصف أعجازهن بالضخامة . (٥) الأغاني ٦٩/١٩ الصرائم : قطع الرمل : الزرد : الدرع المزرودة .

البرين : جمع برة وهى الخللخال . (٦) ديوان حسان ٣٣ حو : جمع حواء أى ذات شفة حمراء ضاربة

إلى السواد (٧) القاموس مادة مِرْط (٨) ديوان امرئ القيس ١٢٩ مرخل . فيه صور الرجال

(٩) ديوان امرئ القيس ١١٩ ولسان العرب ٢٥١/١٢ (١٠) جمهرة أشعار العرب ٢٢٩

(٣) الصدر ، وهو ما تلبسه المرأة على صدرها ، قال عروة بن الورد في نغره بسباياهم من طي .

ترى كل بيضاء العوارض طفلةً تُفَرَّى - إذا شال السَّاك - صدرها (١)
وكانت الحزينة تتخذه من شعر ، كما فعلت الخنساء تحقيقاً لقول أخيها خنجر .

ولو هلك خرقَت خمارها واتخذت من شعر صدرها (٢)
(٤) السابري ، ثوب رقيق جيد ، قال امرؤ القيس :

تَصَدُّ عن المأثور بيني وبينه — ا — وتدنى على السابري المضلة — ا (٣)

(٥) الجنبه ، وهي ثوب واسع (٤) ، ويظهر أنها كانت من ملابس الإماء ، بدليل قول أوس بن حجر في الأطلال :

تمشى بها رُبْدُ النع — ام كما تمشى إماء سُرِبَلَتْ جُبِيه — ا (٥)
وهم ميزوا الإماء بالجنب ، لأن الأزياء كانت تختلف ، فللحرائر زي ، ولذوات الرايات زي ، ولالإماء زي ، ولكل مملوك زي (٦) .

(٦) الحبرة ، وهي ضرب من برود linen ، وهي أيضاً البرد الموشى (٧) .

(٧) وهناك أنواع كثيرة ، منها : اللقاع والملاحفة ، وهو ما تتلفع به المرأة (٨) ، وهو (الشال) في عصرنا . والنطاق والمنطقة ، وهي شقة تلبسها المرأة ، وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل إلى الأرض ، والأسفل ينجر على الأرض ، ليس لها حُجْزَة ولا ساقان ولا نيفق (٩) ، وهي تشبه بعض الشبه ما يسمى الآن (الجونلا) .

والبت وهو الطيلسان من خز ونحوه (١٠) .

والحلة وهي إزار ورداء ، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة (١١) .

والبرد هو الثوب الموشى ، والكساء الذي يلتحف به (١٢) .

(١) شعراء النصرانية ٩١١ تفرى : تشق . شال الساك : ارتفع هذا النجم .

(٢) الشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب السكاك ١٩٢/٢ والإصابة ٦٧/٨ والمحاسن والأضداد ١٤٣

(٣) ديوان امرئ القيس ١١٣ المضاع : المخطط المسير أو الذي وشيه على شكل الأضلاع

(٤) القاموس مادة جب (٥) ديوان أوس ٢ (٦) البيان والتبيين ٩٧/٣ تحقيق هارون

(٧) القاموس مادة جبر (٨) القاموس مادة لفع (٩) القاموس مادة نطق . نيفق : متسع

(١٠) القاموس مادة بت (١١) القاموس مادة حل (١٢) القاموس مادة برد

والمُعَرَّض الثوب تعرض فيه الجارية وتُجَلَّى^(١) .
✓ والبُرْنُس كل ثوب رأسه ملتزق به ، دُرَاعَةٌ كان أوجبة أو مِطْرًا ، وهو أيضاً قلنسوة طويلة ، وكان النساء يلبسها في صدر الإسلام^(٢) .

قال مهلهل :

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً — وذراع باكية عليها بُرْنُس^(٣)
(٨) وكانت تسمى الملابس بأسماء دالة على نقوشها . فالمرَّحَلُ بُرْدٌ فيه تصاوير الرجال ،
والمرَّجَلُ إزار فيه صور الرجال ، والمرَّجَلُ والمرَّجَلُ بُرْدٌ يعني^(٤) .
والوصائل ثياب يمنية مخططة^(٥) ، قال لبيد :

غرائر أُنْكَار عليها مهابةٌ وعُونٌ كرام يرتدين الوصائلا^(٦)
والمُجَسَّد والمُجَسَّد ثوب مصبوغ بالجد أو الجساد وهو الزعفران^(٧) ، قال طرفه في وصف القينة :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومُجَسَّد^(٨)
والمُذْهَب ما جعل نسجه بخيوط من ذهب ، قال سلمى بن ربيعة :

والبيض يرفلن كالدمى في الریط والمُذْهَب المصُون^(٩)
والحال ضرب محكم من برود الين الموشاة ، وهو أيضاً الثوب الناعم^(١٠) .

والمراجل ضرب محكم من برود الين ، والمرَّجَلُ ضرب من ثياب الوشي فيه صور
المراجل ، ويقال لها المراحل أيضاً ، وفي الحديث (حتى يلين الناس بيوتاً يوشونها وشى
المراحل^(١١)) والمصَّاب فيه نقش كالصليب ، وفي حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان إذا رأى التصليب في ثوب قَضَهُ ، أى قطع موضع التصليب منه . وقد نهى عن الصلاة
في الثوب المصلب ، وفي حديث عائشة : فناولتها عطافاً فرأت فيه تصليياً ، فقالت : نَحْيُهُ عَنِّي

(١) لسان العرب مادة عرض (٢) لسان العرب مادة برنس (٣) شرح ديوان الحماسة للتبريزي
١٩٧/٢ وأخبار المراقبة ٥٦ (٤) القاموس مادة رجل ورجل . (٥) القاموس مادة وصل
(٦) ديوان لبيد ٢٢ عون : ج عوان وهى المتزوجة (٧) القاموس مادة جسد
(٨) ديوان طرفه ٢٦ (٩) شرح الحماسة للتبريزي ٨٣/٣ (١٠) لسان العرب ١٣/٢٤٢
(١١) لسان العرب ١٣/٢٨٣ و ٢٩١

وكانت أم سلة تذكره الثياب المصلبة ^(١) . والمبرج مافيه صور البروج ، وفي التهذيب قد صور فيه تصارير كبروج السور .

قال العجاج :

« وقد لبسنا ثوبه المبرجا ،

وقال في وصف ناقة :

« كأن برجا فوقها مبرجا » . شبه سنامها ببرج السور .

والثوب المبرج أيضاً المعين أى في وشيه ترابيع صغار تشبه بعيون الوحش ^(٢) ،

والمسهم البرد المخطط بوشى على شكل السهام ، قال أوس :

فإننا رأينا العرض أحوج ساعة إلى الصون من ريط يمان مسهم

وفي حديث جابر أنه كان يصلى في برد مسهم ^(٣) .

والمضرس ثوب موشى ، به أثر ، قال أبو قلابه :

ردع الخلو بجلده — فكأنه ريط عتاق في الصوان مضرس ^(٤)

والمعضد ثوب موشى في جوانبه ، أو موشى على العضد من لابس ، قال زهير

يصف بقرة :

جالت على وحشيتها وكأنهم — مسربة من رازق معضد ^(٥)

والمضلع ثوب مخطط على شكل الاضلاع ، أو هو الموشى ، أو المسير ، وقيل برد مضلع

إذا كانت خطوطه عريضة كالاضلاع ، وفي الحديث أنه أهدى له صلى الله عليه وسلم ثوب سيرا مضلع بقز ^(٦) .

والمكعب المطوى الشديد الادراج في تربيع ، أو مافيه وشى مربع ^(٧) ، أو هو المنقوش

على هيئة الكعاب ^(٨) .

والمهلل ما فيه نقوش وصور كالأهلة ^(٩) .

(١) لسان العرب مادة صلب (٢) لسان العرب مادة برج وعين (٣) لسان العرب مادة سهم

(٤) لسان العرب مادة مضرس . جملة مرة على اللفظ فقال مضرس ، ومرة على المعنى فقال عتاق

(٥) لسان العرب مادة عضد . وديوان زهير ٩٢ والكثير الثمين ٨٠ رازق . ثوب كتان أبيض .

(٦) لسان العرب مادة ضلع (٧) لسان العرب مادة كعب (٨) الإفصاح ١٦٠ (٩) الإفصاح ١٦٠

والحال ضرب من برود اليمن الموشية قال الشماخ :

وبردان من خالٍ وسبعون درهماً على ذاك مقرون من الجلد ماعز^(١)

والمعرجن ما فيه صور العراجين والنخل ، قال رؤبة : في خد مياس الدمي معرجن^(٢) .

والمطير ضرب من البرود ، قيل هو المشتق المكسر ، قال العجير السلولى .

إذا ما مشت نادى بما في ثياب — ١ — ذكى الشذى والمندى المطير^(٣)

أو هو المزين بصور الطيور^(٤) .

(٩) وأما ألوانها فأكثرها شيعوا اللون الأحمر ، وقد كان العرب مغرمين بالحمرة في

الحدوج ، يمثل ذلك قول علقمة إن الجمال قد احتملت :

عقلاً ورقماً تظل الطير تتبعه كأنه من دم الأجواف مدموم^(٥)

وقول المسيب بن عاس إن الظعن تحمل :

عقلاً ورقماً ثم أردفه كَلَّ على أطرافها الحمل^(٦)

وكذلك صور الحدوج امرؤ القيس^(٧) ، وطفيل الغنوى^(٨) والخطيئة^(٩) .

كذلك كانوا يؤثرون الحمرة في لون الملابس ، قال أوس بن حجر إن ملابسهن ممنوعة

الألوان وواسعة :

يلبسن رِبْطاً وديباجاً وأكسية شتّى بها اللون إلا أنها قور^(١٠)

وكان اللون الأحمر شعار الملوك والأشراف ، ولعل هذا مما حبه إلى الناس ، على

رغبتهم فيه ، قال النابغة الذبياني في مدح الغساسنة :

تحميمهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضرىج فوق المشاجب^(١١)

(١) لسان العرب مادة خيل (٢) لسان العرب مادة عرجن (٣) لسان العرب مادة طير

(٤) الإفصاح ١٦١ (٥) شعراء النصرانية ٤٩٩ العقل : ثوب أحمر يجلل الهودج أو ضرب من الوشى .

الرقم : ضرب مستدير أو مخطط من الوشى أو الخرز أو البرود . مدموم : مطلى بالدم

(٦) ديوان المسيب بن علس الملحق يديوان الأعشى ٣٥٧ الخمل : هذب القטיפعة ونحوها

(٧) ديوان امرئ القيس ٣٢ (٨) ديوان طفيل ٣٣ (٩) ديوان الخطيئة ٣٧

(١٠) ديوان أوس بن حجر ٩ قور : جمع قوراء أى واسعة (١١) ديوان النابغة ٨ الإضرىج :

وظل إشارهن اللون الأحمر إلى ما بعد العصر الجاهلي ، فالسيدة عائشة كانت تحب من ألوان الملابس الأحمر والمعصفر ، فكانت تلبس درعاً معصفاً أحياناً ، ومذهباً أحياناً ، ومضرجاً وهو الذي كان يسمى المورّد ، وكانت عليها ثياب حمراء كأنها شرر وهي محرمة ^(١) . وقد وصف المتنبي الحسان الطاعنات بأنهن حمر الحلى والنوق والثياب :

مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ حُمْرَ الْحَلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَايِبِ ^(٢)

حليها

غرام النساء بالحلى

كلفت المرأة بالحلى فى كل بيئة وفى كل عصر ، تضيف إلى جمالها تجملاً ، وتزهى به وتفاخر وتكثر ، وتختلب ألباب الرجال ، وقلبا تبدو عاطلا من حلاها ، وإن غنيت بجمالها ومكانتها ، لهذا لم يذكر إلا قلة من الشعراء أن المرأة عاطل ، كقول الشماخ :

دار الفتاة التى كُنا نقول لها يا ظبيةً عطلاً حُسانةً الجيد ^(٣)

وإذا كانت الزينة شية للأنثى من بنى الإنسان ، فإنها من شيات الذكر فى الحيوان ، لأن الطبيعة تزين الذكور من الطيور والحيوان بما يغرى الأنثى ويجتذبها ، أما فى عالم البشر فإن الأنثى تتزين لتجتلب الذكر . وإذا كانت أزياء النبلاء السابقين الحريية الملونة تبهرنا اليوم على المسرح فإن هؤلاء النبلاء كانوا يرون حولهم نساء كثيرات لابسات ثياباً يتفق لهن بها من الفتنة ما لا نبصر نظيره فى عصرنا ، ^(٤) .

لهذا شاع الحلى فى العصور القديمة عند الأمم ، وكان عظيم الشأن عند الأمم التى اتصل بها العرب ، فالإسرائيليات كن يتأنقن بالخلاخيل والأهداب والأهلة والنطف والأساور والرعل والعصائب والمصاعيد والمناطق والخواتم والأحراز والخُرُصان والتيجان وغيرها من الملابس والمرايا ^(٥) .

(١) الطبقات ٤٧/٨ والأنساب ٦٦٥/١ (٢) ديوان المتنبي شرح البرقوقى ١١٤/١ الجآذر : ج جوذر وهو ولد البقرة الوحشية . الأعارب : جمع أعراب وهم سكان الحيام والوبر . المطايا النوق وأجودها الجر . (٣) معجم البلدان ٥٢٥/٨ (٤) الحياة والحب . لميل لودفيج ٢٢ (٥) سفر أشعيا ١٨/٣-٢٣ النطف : الأقراط . الرعل : ج رعلة وهى الإكليل من ريحان وآس . الخرصان : ج خرص وهو حلقة الذهب والفضة أو حلقة القرط أو الحلقة الصغيرة من حلى .

والمرأة الفارسية كانت مولعة بأصناف الحلى ، من تيجان وأقراط وخلاخيل وغيرها ، حتى لقد كانت تلبس حذاء مذهباً (١) .

والمرأة الرومانية أسرفت فى زينتها إسرافاً حمل (كاتو) على أن يسن قانوناً يتخذ من ملكيتها لتقتصد فى نفقات زينتها ، واحتدت المناقشة فى التريبيون بين كاتو وأحد الأعضاء الجانحين إلى أن تطلق المرأة الحرية فى زينتها ، وجاء فى رد العضو المعارض : إن النساء لا يستطعن العمل فى الوظائف العامة ، ولا أن يكن كاهنات أو جنديات يحرزن النصر ، وليس لهن من العمل العام ما يشغل فراغهن ، فإذا يستطعن أن يعملن إن لم يخصصن أوقاتهم للزينة والملبس (٢) ؟

وكانت المرأة المصرية تتزين بالعصائب والخواتم والأساور والخلاخيل والعقود والأحراز الثمينة والأحزمة المحلاة بالأحجار والآلىء والأقراط ، وكان خضاب الأظفار شائعاً ، والكحل بالإثمد كذلك . وغلا المصريون والمصريات فى استعمال الشعر المستعار ، فجعلوه كثيفاً ثقيلاً مقصوصاً مضمخاً بالطيب ، معقوداً بأشرطة من لآلىء (٣) .

صنوف الحلى

تنوع حلى المرأة العربية ، وتعددت أصنافه ، فكان لكل عضو من أعضاء الزينة حلى يلائمه .

(١) فى اليد السوار والإسوار ، وهو القلب أيضاً ، وموضعه المعصم قال العرنس البكلابى :

بل أيها الراكب المفنى شبيلته
يبيكى على ذات خلخال وإسوار
وقال المزار بن سعيد الفقعسى :

كما لاح تبرٌ فى يدٍ لمعت به
كعابٌ بدا إسوارها وخضيبها (٤)
وقال النابغة الذبياني :

وأبدت سواراً عن وشوم كأنها
بقية ألواح عليهن مذهب (٥)

(١) قصة الحضارة الفارسية ٦٧ ول ديورانت (٢) المرأة فى مختلف العصور ٢٧ — ٢٩

(٣) الحضارة المصرية القديمة . لوبون ٧٥ (٤) لسان العرب مادة سوار (٥) ديوان النابغة ٢٨

وفيها الدملج ، وهو المعضد والمعصدة ^(١) ، قال عنتره :

وتحتي منها ساعد فيه دملج مضى وفوق آخر فيه دملج ^(٢)
وأشدد ابن الأعرابي :

والبيض في أعضادها الدماليج ومعطيات بدل في تعويج ^(٣)
وإذا كان السوار من فضة فهو القلد ^(٤) .

وقد يكون على الساعد حل من مرجان ، قال لبيد :

وعالين مضعوفاً وفرداً سموطه جمان ، ومرجان يشد المفاصل ^(٥)
وفي الأصابع الخواتم ، ويقال للخاتم خيتام أيضاً ، أشدد ابن برى :

يا هند ذات الجورب المنشق أخذت خيتامى بغير حق ^(٦)
(٢) وفي ساق الرجل الخلخال ، وهو أيضاً الخلخل والخلخل ، قال الشاعر :
براقة الجيد صموت الخلخل ^(٧)

وقال الأعشى :

وساقان مار اللحم موراً عليهما إلى منتهى خلخالها المتصلصل ^(٨)
وقال طفيل الغنوى :

وفي الظاعنين القلب قد ذهب به أسيلة مجرى الدمع ربا المخدم ^(٩)
وفي تفسير قوله تعالى : (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) أن المرأة ربما اجتازت وفي رجلها الخلخال ، وربما كان فيه الجلاجل ، فإذا ضربت برجلها علم أنها ذات خلخال وزينة ، فنهى عنه لما فيه من تحريك الشهوة ، كما أمرن ألا يبدین ذلك لأن إسماع صوته بمنزلة إبدائه ^(١٠) .

(٣) أما الأذن فلها أقراط من ذهب أو من لؤلؤ أو غيرهما .

ومن أنواع حللها القرط وهو الشنف ، أو الشنف ، في أعلى الأذن والقرط في أسفلها ،
قال الراجز يخاطب امرأته :

(١) لسان العرب مادة عضد (٢) ديوان عنتره ٣٥ (٣) لسان العرب مادة دملج .
(٤) لسان العرب مادة قلد (٥) ديوان لبيد ٢٢ مضعوفاً : ثياباً مضعفة (٦) لسان العرب مادة حتم
(٧) لسان العرب مادة خلل (٨) ديوان الأعشى ٢٢٥ . مار : تحرك واضطرب (٩) ديوان
طفيل الغنوى ٣٣ المخدم : موضع الخدمة وهو الخلخال (١٠) لسان العرب ٢٨٤/١٣

قَرَطَكَ اللهُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ عَقَارِبًا سَوْدَاءَ وَأَرْقَمَيْنِ^(١)
وَقَالَ أَبُو كَبِيرٍ الْهَذَلِيُّ .

وَبَيَاضُ وَجْهِكَ لَمْ تَحُلْ أَسْرَارَهُ مِثْلَ الْوَذِيلَةِ أَوْ كَشَنَفِ الْأَنْضَرِ^(٢)

وَالْحَبُّ الْقَرَطُ مِنْ حَبَّةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهُوَ الْخُرْصُ أَيْضًا ، أَوْ الْخُرْصُ الْحَلَقَةُ مِنْ ذَهَبٍ
أَوْ فِضَّةٍ قَالَ الشَّاعِرُ :

عَلَيْنَ لَعْنٌ مِنْ ظَبَاءٍ تَبَالَةٍ مَذْبُذِبَةِ الْخُرْصَانِ بَادٍ نَحُورَهَا^(٣)
وَقَدْ تَكُونُ لِلْقَرَطِ ذِلَالٌ حَسَانٌ تَهْتَزُّ بِحَرَكَةِ الْعَنْقِ ، قَالَ الْمَرْقَشُ الْأَكْبَرُ :

يَهْدُلُنْ فِي الْأَذَانِ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ لَهُ رَبْذٌ يَعْيَا بِهِ كُلٌّ وَاصِفٌ^(٤)
وَكُنُوا عَنْ طَوْلِ الْعَنْقِ بِطَوْلِ مَهْوَى الْقَرَطِ ، قَالَ عُبَيْدُ :

بَانَ الْخَلِيطُ الْإِلَى شَاقُوكَ إِذْ شَحَطُوا وَفِي الْخُدُوجِ مَهَا أَعْنَاقُهَا عَيْطُ
نَاطُوا الرِّعَاطَ لِمَهْوَى لَوْ يَزِلُّ بِهِ لَانْدَقُّ دُونَ تَلَاقِي اللَّبَّةِ الْقُرْطِ^(٥)
وَقَالَ النَّابِغَةُ :

إِذَا ارْتَعَثْتُ خَافَ الْجَبَانَ رِعَاطُهَا وَسَ يَتَعَلَّقُ حَيْثُ عَاقٌ يَفْرَقُ^(٦)

وَقَدْ يَكُونُ دَقِيقُ الصَّنْعِ يَشْبَهُ فَقْرَ الْجَرَادَةِ أَوْ فَقْرَ أَمِيرِ النِّحْلِ ، وَتَشْدُهُ الْمَرْأَةُ بِأَذْنِهَا
بِخَيْطٍ حَتَّى لَا يَسْقُطَ ، قَالَ سَيَّارُ الْإِبَّانِيِّ .

كَأَنَّ خَوْقَ قَرَطِهَا الْمَعْقُوبُ عَلَى دَبَابَةٍ أَوْ عَلَى يَعْسُوبٍ^(٧)

(٤) وَلِلْعَنْقِ الْقَلَادَةُ . وَهِيَ الْعَقْدُ وَقَدْ تَكُونُ مِنْ ذَهَبٍ . قَالَ الْمُشَقَّبُ الْعَبْدِيُّ :

أَرَيْنَ مُحَاسِنًا وَكَئِنْ أُخْرَى مِنْ الْأَجْيَادِ وَالْبَشَرِ الْمُصُونِ

وَمِنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِيبٍ كَلُونِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونِ^(٨)

(١) لِسَانُ الْعَرَبِ مَادَةُ قَرَطُ (٢) اللِّسَانُ مَادَةُ شَنَفُ . الْأَنْضَرُ : الذَّهَبُ أَوْ الْفِضَّةُ .

(٣) لِسَانُ الْعَرَبِ مَادَةُ خُرْصُ (٤) الْمَفْضِلِيَّاتُ ٣١/٢ رَبْذٌ : عَذْبَةٌ

(٥) دِيْوَانُ عُبَيْدِ الْقَصِيدَةِ ٢٢ الْعَيْطُ : عَلَى وَزْنِ سَبَبٍ وَهُوَ أَعْيَطُ وَهِيَ عَيْطَاءُ وَالْجَمْعُ عَيْطٌ بِكَسْرِ

الْعَيْنِ وَسَكُونِ الْيَاءِ (اللِّسَانُ وَالْقَامُوسُ) وَحَرَكَةُ الْيَاءِ هُنَا ضَرُورَةٌ . نَاطُوا : عَلَقُوا . الرِّعَاطُ : جِ رَعْتُهُ

وَهِيَ الْقَرَطُ (٦) دِيْوَانُ النَّابِغَةِ ٣٩ (٧) الْأُمَلِيُّ ١/١٨٤ . الْخَوْقُ : حَلَقَةُ الْقَرَطِ . مَعْقُوبٌ : مَشْدُودٌ

بِالْعَقَبِ لَثَلًا يَزِيغُ (٨) الْمَفْضِلِيَّاتُ ٨٩/٢

وقد تكون من ياقوت وشذر وجزع من الين ولؤلؤ ، قال المرقش الأصغر :
تَحْلَيْنَ ياقوتا وشذراً وصيغَةً وجزعا ظفاريًا ودرًا توائما (١)
 وقد يكون من لؤلؤ وزبرجد ، قال النمر بن تولب :
أناة عليها لؤلؤ وزبرجد ونظم كأجواز الجراد مفصل (٢)
 وقال طرفة :

وفي الحى أحوى ينفُضُ المردَّ شادنً مظاهرُ سَمَطَى لؤلؤ وزبرجد (٣)
 وقد يصاغ الياقوت دقيقا على شكل فقرات الجرادة ، قال امرؤ القيس :

غرائر في كنٍ وصون ونعمة يَحْلَيْنَ ياقوتا وشذراً مفقرا (٤)
 وقد ذكر العقد المنظوم من لؤلؤ وزبرجد كثير من الشعراء ، مثل قيس بن الخطيم (٥)
 وعلقمة (٦) ، والمثقب العبدى (٧) ، وعنتر (٨) .

(٥) وللوسط الوِشاح ، وهو كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان ، يخالف بينهما ،
 معطوف أحدهما على الآخر ، تشده المرأة بين عاتقها ، وكشحا (٩) .
 وقال أبو علي . لا يكون وشاحا حتى ينظم بلؤلؤ أو ودع (١٠) .
 قال عروة بن حزام :

كان وشاحها إذا ما ارتدتتهما وقامت عسانا مَهْرَةَ سَلَسان (١١)
 وقال عنتره :

والشمس بين مَضْرَج ومُبَلَّج والغصن بين مَوْشَج ومُقَلَّد (١٢)

(١) المفضلات ٤٥/٢ : تحلين : لبس الحلى . الشذر : اللؤلؤ أو قطع صغار من ذهب . صيغة : ما يصنع
 من الذهب وليست في المعاجم . الجزع : بفتح الجيم وكسر ها : الخرز اليماني وهو نفيس . ظفار : بلد باليمن .
 توائم : اثنين اثنين (٢) جهرة أشعار العرب ١٩٦ (٣) ديوان طرفة ٧ أحوى : شبه
 المرأة بالظبي الأحوى الذى فيه سواد وبياض . المرد : ثمر الأراك المدرك أراد أنه في خصب . شادن :
 تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . مظاهر : لباس ثوبا فوق آخر . شبه المرأة بالظبي في طول العنق وطى
 الكشح وجمال العينين (٤) ديوان امرئ القيس ٦٨ غرائر : غوافل غير مجربات . مفقر : مصوغ
 على شكل فقار الجرادة (٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٩٠ وديوان قيس بن الخطيم ٢١
 (٦) ديوان علقمة ٩ (٧) شعراء النصرانية ٤٠٦ (٨) ديوان عنتره ٧٠

(٩) لسان العرب مادة وشح (١٠) الخخص ٩٨/٤ (١١) النوادر ١٦١ وتزين الأسواق ٧٨

(١٢) ديوان عنتره ٦٩ الشمس : وجهها الجميل . مضرج : بحر . مبلج : نقي . الغص : قدحا . مقلد :

وأنشد أبو علي :

وتكسو الوشاح الرخو خَصْرًا كأنه إهانٌ ذَوَى عن صفرة فهو أخلق^(١)

(٦) وقد ساعد على كثرة الحلَى أن اللؤلؤ في خليج فارس ، والمرجان في البحار المحيطة بالعرب ، وأن التجار يقدون إلى الجزيرة يقايضون اللؤلؤ والمرجان بالذهب والفضة والزمرد والزبرجد والياقوت وغيرها . ثم إن العرب يضربون في البلاد المجاورة لهم فيبتاعون منها حلياً للنساء .

وكانوا يعجبون بالنساء الحوالى ، ويعجبون بوسوسة الحلَى ، قال الأعشى :

تسمع للحلَى وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريحٍ عَشْرَقَ زَجَل^(٢)
وتصور النابغة أن الحلَى يستمد لألاءه من بريق ترائبها .

ترائبها يستضيء الحلَى منها كجمر النار يُزْرِى بالظلام^(٣)

وبعد . فقد وصف القرآن الكريم الجنة والحدور العيز في سور شتى^(٤) ، وذكر

حليهن ، وما من شك في أن العرب كانوا يعرفون أصناف الحلَى التي ذكرها القرآن الكريم . هذه الأزياء التي كانت المرأة تختال فيها ، والحلَى التي كانت تزينها وتحليها ، دليل على عناية المرأة في نفسها ، وعزائتها على ذويها ، ودليل على أن قلب الجزيرة كان وثيق الصلة بأطرافها وبالممالك المجاورة ، يحتلب منها أنواع الكساء وأصناف الحلَى . ولئن كان ارتداء الكساء الفاخرة والتزين بالحلَى الغالية النادرة من حظ النساء الثريات المترفات إن هذا يشعر بعلو مكانتهن وعظم تقديرهن . وليس فيه انتقاص من أقدار الفقيرات ، لأن الحكم هنا للوجد والمعصرة ، والعجز والمقدرة ، لا للعزاة والمهانة . ولقد كان يود المملق أن يثرى ليلبس نساءه مثل ما تلبس المثریات ، ويمتعن بالحلَى الذي يشتميه هن ، وكن يشركنه في هذا الوداد ، كما تطمح المرأة المعاصرة في أرقى دولة متحضرة إلى أن تنعم بما تنعم به زميلتها الغنية من وسائل الرفه والترف ، وليس في حرمانها نقيضة لها أو نزول بقدرها .

(١) الخفض ٩٨/٤ إهان : عذق الكباسة (٢) ديوان الأعشى ٤٢ عشق : نبات له

ورق يطير إذا يبس . زجل : يصوت فيه الريح (٣) ديوان النابغة ٧٣ (٤) سورة الرحمن وسورة الدهر وسورة الواقعة .

الفصل الثالث

صِنَاعَاتُ الْمَرْأَةِ

مارست المرأة في البيئـة البدوية من الصناعات والأعمال العامة ما يلائم البيئـة ، وما تحتاج إليه الأسرة .

١ — فربت أولادها ، واشتركت في الحرب ، وضمدت جراح المقاتلين كما سبق في الحرب .

ودبرت شئون الأسرة ، كما يقول الشنفرى :

وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقَوُّهُمْ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْ تَحَتَّ وَأَقْلَّتْ

تَخَافُ عَلَيْنَا الْجُوعَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِيَاعٌ ، أَىَّ آلٍ تَأَلَّتْ (١)

وهى تداوى الجرحى والمرضى بعيدة عن ميدان الحرب أيضا ، فقد كانت لكعبية بنت سعد الأسلمية خيمة بالمسجد تداوى فيها المرضى والجرحى ، وهى التى عالجت سعد بن معاذ من جرحه يوم الخندق (٢) .

وكانت لرقيدة الأنصارية خيمة فى المسجد تداوى فيها الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة جرحى المسلمين (٣) .

واشتهرت بعضهن بالطب فى الجاهلية ، كزَيْنَب طيِّبَةَ بَنِي عَرَادٍ ، كانت تعالج الأبدان وتطب العيون ، وتداوى الجراح (٤) .

لذلك يقول قيس بن الخطيم :

طَعْنَتْ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرَةً لَهَا نَفْدٌ — لَوْلَا الشُّعَاعُ — أَضَاءَهَا

.

(١) الفضليات ١٠٨/١ والأغانى ٩١/٢١ أوتحت : أعطت قليلا . تألت : أقسمت . آل : قسم .

(٢) الطبقات الكبير ٢١٣/٨ والإصابة ٧٦/٨ (٣) الإصابة ١٠/٨ وتهذيب التهذيب ١٢/١٨٨

وفيه أن رقيدة هذه هى التى سماها ابن سعد كعبية . (٤) الطبقات الكبير والإصابة

يهون على أن ترد جراحها عيون الأواسى اذ حمدت بلاءها (١)
ويقول دراج لزوجته وقد طعن .

شدي على العصب أم كهمس ولا تهلك أذرع وأرؤس
مقطعة —————ات ورقاب خنس (٢)

وكان محمد بن الجهم يقول : لا تهاونوا بكثير مما ترون من علاج القوابل والعجائز ،
فإن كثيرا من ذلك وقع إليهن من قدماء الأطباء (٣) .

٢ — وكانت تغزل وتنسج ، ولم يكن أحب إليها في فراغها من الغزل والنسج ، وقد
مارستهما اليهوديات أيضا ، لأن النبي صالح أهل مقنا على أشياء ، منها أن يعطوه كل عام
ربع ما اغزلت نسائهم (٤) . وقد مارسن مع الغزل نسج الأقمشة (٥) . فالسيدة عائشة كانت
تغزل (٦) ، وحث النبي على تعليم النساء الغزل وحببه إليهن بقوله : « نعم هو المؤمنة في
بيتها المغزل » ، وذكر زياد بن السكن أنه دخل على أم سلمة وبيدها مغزل تغزل به ،
فقال لها : كلما أتيتك وجدت في يدك مغزلا : فقالت : إنه يطرد الشيطان ، ويذهب بحديث
النفس ، وإنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظمكم أجرا أطولكن
طاقة (٧) .

وقد ذكر الشعراء هذه الحرفة ، قال جندل بن المثنى الحارثي يصف سرايا :

كانه بالصحصصان الأنجل قطن سخام بأيادي غزل (٨)

وحمس عبد الرحمن بن دارة قومه على الثأر ، فقال لهم إن لم تثأروا فكونوا نساء ،
وامسكوا المغازل بدل الرماح :

لئن أنتم لم تثأروا بأخيكم فكونوا نساء للخلق وللكمل

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٥ مخطوط وشرح الحماسة للمرزوقي ١/١٨٥ الشعاع : الدم المنتشر .
الأواسى : المداويات للجراح . ويذكر المرزوقي أنه ذكر النساء لأن الرجال كانوا يأفون من الصناعات
ويعلمونها الإماء والعبيد والحرائر اللاتي لسن في غاية بعيدة من الشرف (٢) شرح الحماسة للتبريزي
١١١/٢ العصب : أطناب المفاصل وهو أيضاً الشد والطي . وضرب من البرود ولعل المراد هنا السابري .
أم كهمس : زوجته . لا تهلك : لا تحفك . خنس : منخفضة منقبضة من الطعن .

(٣) الحيوان للجاحظ ٣/٣٢٢ (٤) فتوح البلدان ٦٧ (٥) فتوح البلدان ٦٠

(٦) الإصابة ٣/١٠٩ (٧) الأجر الجزل في الغزل للسيوطي مخطوط والطبقات الكبير

(٨) لسان العرب ٤/١٤ وأساس البلاغة مادة سخم . الصحصصان : الأرض المستوية . الأنجل :

الواسع . سخام : لين المس كالخز . والبيت في الأساس منسوب إلى أبي النجم

وبيعوا الردينيات بالحلي واقعدوا عن الحرب وابتاعوا المغازل بالنبل^(١)

٣ — وكان بعضهم يحترف بالتجمل والتزيين ، مثل آمنة بنت عفان أخت عثمان ابن عفان^(٢) ، ومثل أم رعدة القشيرية التي وفدت على رسول الله وقالت له : إني امرأة مُقَيَّنة أَقِينُ النساء وأزينهن لأزواجهن ، فهل هو حُوبٌ فَأُثْبِطُ عنه ؟ فقال : يا أم رعدة ، قينيهن وزينيهن إذا كسدن^(٣) . ولما اشترى النبي صفيية من دحية الكلبي دفعها إلى أم سليم حتى تهيمها ، فشطتها وعطرتها ونمصتها ، واشتركت معها صواحب لها ، منهن أم سنان الأسلمية^(٤) .

٤ — وبعضهم احترفن بالإرضاع ، ولا سيما أهل البادية ، إذ كان الحضر يسترضعون البدويات ، ويعطونهن أولادهم ليربينها . ويظهر أن الذين كانوا يسترضعون لأولادهم هم الأغنياء القادرون على استئجار المراضع ، وأن المراضع كن من المحتاجات .

ومن هؤلاء المرضعات سلمى بنت ظالم العامرية أرضعت ابن النعمان^(٥) ، والسيدة حليلة السعدية أرضعت النبي صلى الله عليه وسلم^(٦) ، وفي حديثها أنها خرجت ومعها زوجها في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعا^(٧) .

وقد أرضعت سفيان بن الحارث أيضاً^(٨) ، ومنهن ثويبة مريض حمزة بن عبدالمطلب^(٩) ، وأم بردة بنت المنذر بن زيد مريض إبراهيم بن النبي منذ ولادته^(١٠) . وكانت السيدة خديجة تسترضع لأولادها قبل أن تلد^(١١) .

وإذا فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم استئجار الظئورة ، كما كان العرب يفعلون^(١٢) . على أن بعضهم كان يعيب الإرضاع ، ففي أمثالهم (تجوع الحرة ولا تأكل بشديها) وقد فسره أبو هلال بأنها تجوع ولا ترضع لقوم على جعل ، فيلحقها عيب ، ويقول : كان أهل بيت زُرارة حُصَّان الملوكة ، فافتخر بذلك حاجب بن زُرارة بقوله :

حُصَّان ابن ماء المزن وابن مُحَرِّق إلى أن بدت منهم لحماً وشوارب

(١) حماسة البحرى ١١ الخلق : نوع من الطيب (٢) الإصابة ٣/٨ (٣) الإصابة ٢٣١/٨

(٤) الطبقات الكبير ٨٦/٨ (٥) الأغاني ٩/١٠ (٦) إنسان العيون ٩٦/١ والمعارف ٤٣

(٧) تاريخ الطبرى ١٢٦/٢ (٨) المعارف ٤١ (٩) إنسان العيون ٩٦/١

(١٠) الاستيعاب ٧٨٨/٢ والإصابة ٢١٥/٨ (١١) الإصابة ٦١/٨

(١٢) المبسوط للسرخسى ١١٨/١٥

فعابه الناس وقالوا : ما رأينا من يفتخر بالمعائب غيره ، لأن الظئر خادمة ، والخدمة تضع ولا ترفع . وقيل في تفسير المثل إن الحرية لا تهتك نفسها ولا تبدى ما لا ينبغي أن يبدي ^(١) .

ولقد يعزز الترفع عن الإرضاع أن حسان بن ثابت رد على وفد تميم بمسمع من النبي ، وجاء في رده :

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم ، علينا تفخرون وأنتم لنا خول من بين ظئر وخادم
فقال رسول الله : لقد كنت غنياً يا أبا بني دارم — يريد الأقرع بن حابس — أن يذكر منك ما كنت ترى أن الناس قد نسوا ^(٢) .

٦ — وكان منهن قابلات ، كسلى امرأة أبي رافع ، كانت قابلة السيدة مارية القبطية ، فلما ولدت إبراهيم بشر به أبو رافع النبي فوهب له عبداً ^(٣) ، وكانت قابلة للسيدة خديجة أيضاً ^(٤) . وكانت سودة أو سودة بنت مسرح قابلة للسيدة فاطمة حين وضعت الحسين ابن علي ^(٥) . ومنهن خافضات ، وكن محقرات ، ففي يوم أحد مر سباع بن عبد العزى الغبشاني على حمزة بن عبد المطلب فقال له : هلم إلى يابن مقطعة البظور — وكانت أمه ختانة بمكة — فلما التقيا ضربه حمزة فقتله ^(٦) . وقد نصح النبي لأم عطية — وكانت تحت النساء — بقوله أشميه ولا تنهكيه ، فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج ^(٧) .

٦ — ومنهن من كن ينسجن الحصر ، وينمقنها ويزخرفنها ، فقد أخرج ابن سعد عن أم صفية خولة قالت : كنا نكون في عهد رسول وأبي بكر وصدر من خلافة عمر في المسجد نسوة قد تحاللن ، وربما غزلت بعضنا فيه الخوص ، فأخرجنا منه عمر ^(٨) . وكان بعض الحصر منمقاً جميلاً ، يقول النابغة الذبياني في الأطلال التي تجعدت رمالها من الريح إنها كالخصير الذي نمقته الصانعات :

كأن مجرّ الرامسات ذيولها عليه حصير نمقته الصوانع ^(٩)
٧ — واشتهرت ردينة بتقويم الرماح ، حتى نسبوا الرماح إليها ، فقالوا ردينة ورذن . وهي امرأة ستمر ، وكانا يقومان الرماح بخط هجر ^(١٠) .

(١) جمهرة الأمثال ١٨٣/١ (٢) أسد الغابة ١٢٠/١ (٣) الاستيعاب ٢٢/١
(٤) الإصابة ٦١/٨ (٥) الإصابة ١١٧/٨ (٦) تاريخ الطبري ١٨/٣
(٧) الحيوان ٢٨/٧ والبيان والتبيين ٢١/٢ هارون . أشمى : اقطعى قليلاً . لا تنهكي : لا تبالغي
في القسط (٨) الطبقات الكبير (٩) ديوان النابغة ٤٩ : (١٠) لسان العرب ٣٧/١٧ والقاموس مادة ستمر

٨ — وبعضهن يرعين الإبل والغنم . وسيرد في أعمال الإمام أنهن مارسن الرعى كالعبيد . ويظهر أن الرعى كان من أعمال العبيد والإماء ، فلم يمارسه من الحرائر إلا الفقيرات ، لذلك يقول ذو الأصبغ العدواني في خطابه لابن عمه — وكانت أمه أمة — :

عنى إليك فـأـمى براعية — ترعى المخاض ولا رأى بمغبون ^(١)

وحدثت سلامة الضبية أو سلامة بنت الحر قالت : مرني رسول الله في بدء الإسلام وأنا أروعى غنما لأهلي ، فقال لي : يا سلامة بم تشهدين ؟ قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ثم أشهد أن محمد رسول الله ، فتبسم ضاحكا ^(٢) .

وظل الرعى عملا لبعضهن إلى الإسلام ، فقد كان المجنون وليلى يريعيان غنما لأهلها وهما صبيان عند جبل التوباد ، وفيه يقول بعد كبره :

وأجهشت للتوباد حين رأيت — وكبر للرحمن حين رآني ^(٣)
ويدل على رعيهما معا قوله :

تعلقت لي — لي وهي ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين زعى البهم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم ^(٤)

وكانت الراعيات خبيرات بالمرعى ، فقد تخاصمت امرأتان إلى ابنة الخس في مراعى أبويهما ، فقالت الأولى ، إبل أبي ترعى الأسليح . فقالت ابنة الخس : رغو وصریح ، وسنام إطريح . قالت الأخرى : مرعى إبل أبي الخلعة . قالت ابنة الخس : سريعة الدرة والجرة ^(٥) .

٩ — وكانت الثريات يمارسن أعمال الرجال أحيانا ، مثل طلاء النوق الجرب ، فقد كانت الخنساء تطلى نوق أبيها ، فرآها دريد بن الصمة في مبادلها ، فأعجب بها وأحبها ، وقال فيها :

(١) الأماي ٢٥٦/١ والمفضليات ١٥٨/١ المخاض : الحوامل من النوق أو الحوامل في عشرة أشهر والمراد النوق مطلقاً (٢) الإصابة ١١٠/٨ (٣) الأغاني ٥٢/٢ (٤) الأغاني ١١/٢ (٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ السندوني ١٦٢/٢ هارون الأسديج : بقلة من أحرار البقول تنبت في الشتاء تسليح الإبل إذا استسكثرت منها . الإطريح : الذي طال ومال أحد شقيه . الخلعة : بضم الخاء شجرة شاكّة وما فيه حلاوة من التبت . الدرة : كثرة اللبن . الجرة بكسر الجيم وتفتح ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، واللقة يتعلل بها إلى وقت علفه

ما إن رأيت ولا سمعت ؛ كالـيوم طالى أينقِ جُرب
متبذلاً تبدو محاسنه — يَضَعُ الهناء مواضع النقب
متحسراً نَضَخَ الهناء ؛ — نَضَخَ العبير برِيطَة العصب (١)

وشبيهه بهذا أن يدبغن الجلود ، ويزلن عنها اللحم ، وفي أمثالهم : « حَلَّاتٌ جارية عن كوعها ، أصله في التي تضع الجلد على كوعها ثم تسحاه بالسكين ، فإن أخطأت قطعت كوعها (٢) .

وحدثت أسماء بنت عميس أن رسول الله أتاها يوماً وقد هنأت — دبغت — أربعين جلدًا (٣) .

١٠ — وكن يجتنين السكّاء ، ولم يكن هذا عمل الحقيرات وحدهن ، بل شاركت فيه الثريات ، فمثلاً حليلة بنت فضالة بن كدّة كانت مع صواحبها يجنين السكّاء وغيرها من نبات الأرض في الربيع حين أبصرن أوس بن حجر طريقاً لا يستطيع الحراك ، إذ سقط من فوق ناقته . والدليل على ثراء أبيها قول أوس :

ولم تلهها تلك التكاليف أنهم — كما شئت من أكرومة وتَخَ — ود
وقوله في رثاء أبيها .

أبا دُلَيْحَةَ من توصى بأرملة أم من لاشعث ذى طمرين بمحال
أبا دليح — من يكفى العشيرة إذ أمسوا من الأمر في لبسٍ ولبال (٤)

١١ — والروايات كثيرة في معابة حلبيها اللبن . من ذلك أن خالد بن جعفر أغار على رهط الحارث بن ظالم من بني يربوع فقتل الرجال ، والحارث يومئذ غلام ، فبقيت النساء ، وكانت نساء بني ذبيان لا يحلبن النعم ، فلما بقين بغير رجال طفقن يدعون الحارث ، فيشد

(١) الأغاني ١٣/١٣٠ والوحشيات ١٧١ مخطوط والشعر والشعراء طبعة شاكر ٣٠٢ . الهناء : القطران . النقب : الجرب . نضح الطيب : أثره في الثوب . ريطه العصب : ملأه مزخرفة .
(٢) جمهرة الأمثال ١/٢٣٧ وجمع الأمثال ١/١٧٦ الكوع : طرف الزند الذي يلي الإبهام .
الجلء : قطع اللحم عن الأديم والمعنى أنها قشرت اللحم من كوعها وهو يضرب لمن يتعاطى ما لا يحسنه .
(٣) الطبقات الكبير ٨/٢٠٦ (٤) الأغاني ١٠/٧ و١٨ أشعث : مغبر الرس من شدة بؤسه .
ذو طمرين : لابس أسمالاً .

عصاب الناقة ثم يحلبنها ، ويبكين رجالهن ، ويبكى الحارث معهن ، فنشأ على بغض خالد^(١) .
ويذكر الميداني أن النساء في البادية كن لا يحلبن ، لأنه عار عندهن ، وإنما يحلب الرجال^(٢) .
لذلك يقول النابغة الذبياني في الهجاء .

قد رأينا مكان أمك إذ تم — منع من ديرة اللقيح الفصيل^(٣) .

١٢ — وكان بعضهم يرقين كخالدة بذت أنس الانصارية ، فقد عرضت رقاها على النبي فأمر بها^(٤) . ومثل الشفاء العدوية فإنها لما عرضت رقاها على النبي قال لها : ارقى بها وعليها حفصة^(٥) .

وكان منهن الفكهة المزاحاة التي تؤنس النساء وتسلين ، ففي سنن أبي داود : كانت امرأة مكية بطالة تضحك النساء ، وكانت بالمدينة امرأة مثلها ، فقدمت المكية المدينة فتعارفتا ، فدخلتا على عائشة فتعجبت من اتفاقهما ، وقالت للمكية : عرفت هذه ؟ قالت : لا . ولكننا التقينا فتعارفنا . فضحكت عائشة وقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف^(٦) .

١٣ — الكهانة والعرافة .

وإذ كانت الكهانة عظيمة الخطر في الحياة الجاهلية ، وإذ كانت نساء كثيرات قد اشتهرن بها ، فمن حقها أن أفرد لها بعناية خاصة . والكهانة بكسر الكاف حرفه السكاهن ، وبفتحة مصدر الفعل كهن ، وهي الإخبار بالغيب الذي سيقع^(٧) .

وللسابقين آراء في وسائط السكاهن إلى معرفة الغيب^(٨) ، ليس من موضوعي أن أعرض لها . وهم ينظمون في سمطها العرافين والزاجرين للطير والطارقين للحصا وغيرهم^(٩) . وإن كان ابن خلدون يفرق بين السكاهن والعراف بأن السكاهن أصنفى روحا وأقوى مخيلة . فهو يعتمد على روحه ، أما العراف فإنه أضعف منه ويعتمد على ظنه وترجيحه^(١٠) . وبعضهم يقصر الكهانة على المستقبل ، والعرافة على الماضي . ولكن الأكثر على أنهما من واد واحد .

والكهانة قديمة النشأة جداً لأن الإنسان كان محاطاً بقوى خفية لا يستطيع أن يفهم كنهها ، وكان عاجزاً عن مقاومتها ، فحاول أن يستميلها بالتضرع تارة وبالفن أخرى . فنشأ

(١) الأغاني ١٠/١٦ (٢) مجمع الأمثال ٢/٣٣٥ (٣) ديوان النابغة ٤٦ (٤) أسد الغابة

٤٣٣/٥ (٥) الإصابة ٨/١٢١ وفتوح البلدان ٤٧٧ والطبقات ٨/٥٩ والاستيعاب ٢/٧٦١

(٦) سنن أبي داود (٧) القاموس مادة كهن (٨) مقدمة ابن خلدون ٨٠ وشرح صحيح مسلم

للنووي وشرح سنن أبي داود للخطابي وبلوغ الأرب ٣/٢٦٩ (٩) مقدمة ابن خلدون ٨٩

والقاموس المحيط مادة عرف . (١٠) المقدمة ٩١

الدين والسحر ، وكانا وليدى هذا الجهد المزدوج ، وكان طبيعياً أن يلتقيا فى نقط عدة ، لأنهما يستعملان فى غرض واحد ، وإليهما يلجأ الإنسان فى حال بؤسه أو خوفه ، تضرعاً أو خيفة ، رغبة أو رهبة . ومن العبت أن نبحث فيما إذا كان السحر وليد الدين أو الدين وليد السحر ، فالاعتقادان قد ظهرا فى وقت واحد ، أملاهما مظهر العالم والطبيعة ^(١) .

وقد عرف العرب الكهانة ، وكثرفيهم الكهان والكواهن . فمن الكهان عَزَى سَلَمَة ، وشَقَّ ابن أنمار ، وحازَى جُهَيْنَة ، وسَطِيح بن مازن الغساني ^(٢) ، وخُنافر بن التوأم الحميرى ^(٣) ، وسَواد ابن قارب الدوسى ^(٤) ، ومن العرافين رَبَاح بن عجلة عراف اليمامة ؟ والأبلى الأسدى عراف نجد ^(٥) وهما اللذان ذكرهما عروة بن حزام فى قوله :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى
فقالا شفاك الله ، والله مالنا بما ضمننت منك الضلوع يدان ^(٦)

أما النساء الكواهن فكثير .

١ — منهن عُفَيْراء الكاهنة الحميرية ، ومن قصتها أن مرثد بن عبد كلال انتصر فى غزاة وغنم ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه . ثم رأى رؤيا أذعته فى منامه ، ولم يستطع أن يتذكرها فى صحوه ، فحزن ، وجعل يسأل الكهان فلا يعلمون ما بنفسه ، فاشتد حزنه وطال أرقه . وكانت أمه قد تكهننت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ؛ لأن أتباعهن من اللجان ألطف وأظرف من أتباع الكهان ، فأمر بحشد الكواهن إليه ، وسألهن فلم يجد عندهن علما . ثم اهتدى مصادفة إلى عفيراء ، فعرفت حله الذى كان قد نسيه ، وقصته عليه ، وأولته له ، فسر منها وأهدى إليها مائة ناقة كرماء ^(٧) .

٢ — ومنهن زَبْرَاء ، وهى أمة من مولدات العرب كانت لخُوَيْلة من بنى رثام ، وقد أنذرت بنى رثام وهم فى عرس لهم بأن بنى داهن يبيتون الشر لهم ، فكذبها بعضهم ، وبقوا فى عرسهم ، وصدقها آخرون فانصرفوا ، فطرقتهم بنوداهن وناعب فقتلوا من فى العرس ^(٨) .

٣ — ومنهن طَرِيفة الكاهنة (بضم الطاء وفتح الراء أو بفتح الطاء وكسر الراء ، أو ظريفة

(١) مصر القديمة ٦٣٠/٧ سليم حسن ومقدمة الحضارات الأولى ٤٨ — ٥٦ جستاف لوبون

(٢) البيان والتبيين ٢٨٩/١ و ٣٥٨ (٣) بلوغ الأرب ٢٩١/٣ (٤) المرجع السابق ٢٩٩/٣

(٥) مقدمة ابن خلدون ٩٢ (٦) الأغاني ١٥٥/٢٠ والنوادر للقالى ١٦١ ومقدمة

(٨) الأملى ١٢٦/١

ابن خلدون ٩٢ (٧) بلوغ الأرب ٢٩٦/٣

بالظاء المفتوحة) . وهم ينسبون إليها التكهن بسيل العرم ؛ لأنها رأت في كهاتها أن سد مأرب سيخرب ، وأنه سيأتى سيل فيدمر الجنتين ، وأندرت بذلك عمرو بن عامر الذى يقال له مزقياء بن ماء السماء ، فباع أمواله وارتحل هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، وكانت طريقة معهم ، ثم أصابتهم الحمى ، فأشارت عليهم أن يتفرقوا فى جهات آخر ، فأطاعوها (١) .

٤ — ومنهن عرافة الحجاز ، وهى التى احتكم إليها عبد المطلب بن هاشم حين هم بذبح ابنه عبد الله ومنعته بنوه وأخواله بنو مخزوم وعظاء قريش ، وذهبوا إليها يسألونها ، فقالت : كم الدية فيكم ؟ قالوا ، عشر من الإبل . قالت : فارجعوا ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه . فعادوا وضربوا بالقداح ، فكانت تخرج على عبد الله ، حتى بلغت مائة ، فخرجت على الإبل فذبحوها وتركوها للأكليين ، ونجا عبد الله (٢) .

٥ — ومنهن كاهنة بنى سعد اسمها هذيم ، وكانت بالشام ، وهى التى كان يريد الاحتكام إليها عبد المطلب وقريش حين تنازعوا فى حفر زمزم (٣) .

٦ — ومنهن الغيطة — كاهنة من بنى مرة بن عبد مناة بن كنانة وهى أم الغياطل — تنبأت ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام (٤) ، وفى مسند أحمد بن حنبل أن كاهنة تنبأت لقريش بمبعث الرسول قبل البعثة بعشرين عاما (٥) .

٧ — ويطول القول إذا فصلنا أخبار هؤلاء وأخبار غيرهن ، وحسبنا أن نشير إلى بعضهن كفاطمة بنت مر الحثعمية (٦) ، والزرقاء بنت زهير (٧) ، وكاهنة بنى حدس (٨) ، وبعضهن كن حسيبات كأمر مرثد السابقة ، وسلى الهمدانية (٩) ، وغيرهما (١٠) .

(١) مروج الذهب ٢٣٩/١ وأخبار مكة للأزرقي ٥٢ - ٥٥ والأغاني ١٠٥/١٣ وجمع الأمثال للبيداني ٢٥٣/١ وجمهرة الأمثال لأبي هلال ٢٨٦/١ والأعلاق النفيسة لابن رسته ١١٤/٧
(٢) سيرة ابن هشام ١٦٦/١ وأخبار مكة للأزرقي ٢٨٨ وتاريخ الخميس ٢٠٧/١ وتاريخ الطبرى ٢٧٤/٢ وفى تاريخ الخميس أن اسمها سجاح أو قطبة (٣) سيرة ابن هشام ١٥٥/١
(٤) سيرة ابن هشام ٢٢٥/١ (٥) المسند ٣٣٢/١ وتاريخ ابن عساكر ٣٦٧
(٦) مجمع الأمثال ٤٦/٢ (٧) الأغاني ١٥٥/١١ (٨) سيرة ابن هشام ٤٣٨/٣
(٩) الأمالى ١٢١/٢ (١٠) جمهرة خطب العرب ٢٣٩/١ - ٣٥٢

سجع السكواهن :

كان السكهان والسكواهن يعمدون إلى لغة مسجوعة ، لا فرق فيها بين سجع الرجال وسجع النساء : مثل قول زبراء لبني رثام تنذرهم بهجوم أعدائهم : واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو ختلا ، ويحرق أنيابا عصلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلى^(١) .

ومثل قول طريفة لقومها وقد أصابتهم الحمى في مكة : « من كان منكم ذاهم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عمن المشيد . ومن كان منكم ذا جلد وصبر ، على أزمت الدهر ، فعليه بالأراك من بطن ممر . ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، المطعمات في المحل ، فليلحق ييثرب ذات النخل . ومن كان منكم يريد الخمر والخمر ، والمُلك والتأثير ، ولبس الديباج والحرير ، فليلحق ببصري وعوير ، ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيل العتاق ، وكنوز الأرزاق ، والدم المهرق ، فليلحق بأرض العراق^(٢) .

ومثل قول الزقاء بنت زهير وقد سألها قومها حين نزلوا بهجر : ما تقولين يا زرقاء ؟ قالت : « سَعَف وإهان ، وتمر وألبان ، خير من الهوان »^(٣) .

وكان هذا السجع ضرورياً للسكهان والسكواهن ، لأن له رنيناً موسيقياً ، ووقعا جميلاً ، فيؤثر في النفس ، وتجذب موسيقاه قلوب السامعين ، فيموه عليهم السكاهن أو السكاهنة ، ويمتلك عواطفهم ، ويخدر وعيهم ، ويحدثهم بما يزعم أنه عليم به ، فيسمع الناس عنه مصدقين لما يقول ، غير متبصرين في نقد ما يسمعون وتقصى معانيه ، لذلك كثيراً ما لجأ الساجعون من السكهان إلى نوع من الغموض ، لتحتمل الكلمة أو الجملة عدة معانٍ ، وليذهب السامعون في فهمها كل مذهب . « والترنيم هو الأساس الذي قام عليه السحر ، ومن المهم كما يقول المصريون القدماء أن يكون الصوت مضبوطاً ، لأن الصوت هو الذي يثير القوى الخفية . فالسحر نوع من الموسيقى المتحجرة كما يقول كبساريو ، وما يصدق على الموسيقى يصدق على الشعر أيضاً^(٤) .

لذلك نهى النبي عن سجع السكهان خاصة^(٥) .

(١) الأما إلى ١٢٦/١ اللوح : الهواء . يادو : يخل . عصلا : معوجة . معلى : منجاة
(٢) أخبار مكة للأزرقي ٥٢ ومروج الذهب ٢٣٩/١ والأعلاق النفيسة ١١٤/٧ وجمع الأمثال ٥٢٣/١
(٣) الأغاني ١١/١٥٥ ومعجم ما استعجم للبكري ٢٢/١ (٤) مبادئ علم الاجتماع الديني ٤٧ تأليف باستيد ترجمة محمود قاسم
(٥) البيان والتبيين ١/٢٣٤-٢٣٦

دلالة الكهانة على علو مكانة المرأة

ومما يسترعى النظر أن الأحداث السكبار ، والهجرات المشهورة ، وتفرق القبائل في أماكن شتى كانت مصحوبة بذكر الكاهنات وسجعهن ، وقد سبق سجع طريفة لما تنبأت بسيل العرم ، ولما أشارت على قومها بالتفرق من مكة فأطاعوها ، ونزلوا بأماكن شتى (١) . كذلك لما تفرقت قضاة في البلاد ونزل بعضهم بهجر أشارت عليهم بالرحلة إلى الحيرة فأطاعوا (٢) . كذلك سبق أن عبد المطلب لما نازعته قريش في زمزم هم بالاحتكام إلى كاهنة بالشام ، وأنه احتكم إلى أخرى بالحجاز لما عزم على قتل ابنه عبدالله ، وأن كاهنة تنبأت بالبعثة المحمدية . ولست أريد بذكر هذا أن يكون تصديقا للسكواهن ، وإنما أريد أن العرب كانوا يحلون السكهان — من رجال ونساء — ويحتكمون إليهم في المشكلات ، ويصدرون عن رأيهم ، وقد نسبوا إلى السكواهن أحداثا أعظم مما نسبوا إلى السكهان ، وسواء أكان لها نصيب من الصحة أم لم يكن فإنها دليل على أن المرأة كانت في نظرهم جديرة بأن تستفتى وأن تنبئ بالغيب ، وأن يطاع نصيحها ، وتتبع مشورتها كما سنرى عند الأشوريين .

شك المرأة العربية في الكهانة

شك رجال في صدق الكهان والسكواهن ، مثل المرقم (٣) ، وربيع بن مقروم (٤) ، وعلقمه بن عبدة (٥) ، والنابعة الذيباني (٦) ، ولييد (٧) . وشكت نساء في صحة الكهانة كما شك الرجال . من هؤلاء هند بنت عتبة ، فإن زوجها الفاكه ابن المغيرة ظن بها سوءا فألحقها بآلها ، ولم تكن تعرف لنفسها جرما ، واستوثق أبوها من براءتها ، فخرج بها في وفد من النساء والفاكه معه إلى بعض الكهنة ، فلما شارفوا بلده تغيرت هند وامتقع لونها ، فقال لها أبوها : إني أرى ما بك ، وما ذاك إلا لمكروه عندك ، فهلا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا . قالت : يا أبت إن الذي رأيت مني ليس لمكروه عندي ، ولكني أعلم أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ، ولا آمن أن يسمني ميسما يكون علي عارا عند نساء مكة . قال لها : فإني سأمتحنه قبل أن نسأله . وامتحنه فعرف صدقه ، ثم قصوا عليه أمر هند ففضى ببراءتها (٨) .

(١) أخبار مكة ٥٢-٥٥ ومعجم البلدان ٣٥٥/٧ ومروج الذهب ٢٣٩/١ وجمع الأمثال ٢٥٣/١

(٢) الأغاني ١١/١٥٥ (٣) حماسة البحترى ٢٥٥ والأغاني ١٥٧/٩ (٤) حماسة البحترى ٢٥٧

(٥) الفضليات ٢٠١/٢ (٦) ربيع الأبرار ١٢٣ مخطوط والعمدة ٢٠٢/٢ والبيان والتبيين

١٨٤/٣ والحيوان ١٣٨/٣ (٧) ديوان لييد (٨) شرح نهج البلاغة ١١٢/١

الكهانة فى الأمم

لا يكاد يخلو شعب من الكهانة فقد كان الآشوريون — وهم أقدم الأمم السامية — يعتقدون أن المرأة وحدها هى التى تستطيع أن تفهم السحر وتمارسه ، وأن تعرف الغيب وتكهن به ^(١) .

وكان فى مصر كاهنات ، زعم هيرودوت أنه كان محرماً على المرأة أن تشغل وظيفة كاهنة سواء أكان ذلك لمعبود أم لمعبودة ، وهذا قول لا نصيب له من الصحة ، لأن النساء كن يستخدمن فى المعابد ، وكثيراً ما وجدنا ذكراً لكاهنات وخاصة فى عبادة الإلهات كالإلهة حاتحور والمعبودة نيت ^(٢) وليس هذا بعجيب فى الشرق عند قدماء المصريين وغيرهم ، لأن السحر كان عظيم الأثر فى حياتهم ^(٣) .

وكان فى اليونان والرومان كهان وكاهنات ، وإن كان النساء أقل عدداً ^(٤) . ثم كانت فى أوروبا فى العصور الوسطى ساحرات قاسيات يزعمن أنهن على صلة بالله . ويرى الناس أنهن على صلة بالشيطان ، وقد حوكن أمام محاكم التفتيش وقطن ، وأحرقن ورجمن ، وأحرقت منهن آلاف فى دول شتى ^(٥) .

١٤ — معرفتها القراءة والكتابة

نعرف أن عرب الجاهلية كانوا يتعلمون بالتجربة والملاحظة والمخالطة ، وكان بعضهم يتميز بلون من المعرفة يشتهر به . فالبداوة كانت غالبية على العرب ، وهى طور اجتماعى طبيعى تجتازه الأمم فى سيرها إلى الحضارة ، ومن شأنها ألا تتيح للبداوة دراسة منظمة ، ولا تفكيراً متفلسفاً ، ولا تعمقاً فى الربط بين الأحداث وأسبابها والمعلولات وعملها ، وإذا جاءت حكمة على لسان أحدهم فهى نتاج طبعه وخطرة من فكره .

وبديهى أننى لا أعنى بالثقافة أو المعرفة أن العرب كانت لهم علوم ذات أصول وقواعد ، لأن طور البداوة يناقض ذلك ، وإنما أعنى المعرفة التى تستمد من الفطرة والبيئة والأحداث ، كالذى قاله ابن خلدون فى طب الجاهلية : « وللبداية من أهل العراق طب يبنونه فى غالب

(١) مقال المذكور والمؤنث . عمر الدسوقي . الرسالة العدد (٢٨٥) ١٩ ديسمبر ١٩٣٨ عن :

Some A. Spects of Gender in the Semitic. Languages. Winsing.

(٢) ديانة قدماء المصريين ٧٣ إستيندروف الألمانية ترجمة سليم حسن (٣) المرجع السابق ٨٣

(٤) الإلياذة ٤٦٤ (٥) المرأة فى مختلف العصور ٤٣

الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان منهم أطباء معروفون ، (١) .

وأقصد فى هذا الفصل إلى تبليان نصيب المرأة من الثقافة فى العصر الجاهلى ، لأروز قيمتها ومكانتها من هذه الناحية أيضاً ، ولأتعرف قدرها بالقياس إلى أقدار الرجال .

١ — لكننى أرى أن أقدم للموضوع بجلاء هذه الفكرة : أكان العرب يعرفون الكتابة والقراءة ؟ أم أنهم كانوا كما أشيع عنهم جهلة لا يكتبون ولا يقرءون ؟ ثم أبين نصيب المرأة من هذا الجهل أو من هذا العلم .

أما العرب البداءة فإنهم ما كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، لأن الحياة البدوية تباعد ما بينهم وبين هذه المعرفة ، وهذا شأن البداءة فى كل الأمم .

وأما أهل الحضرة فقد كان بعضهم على علم بالكتابة والقراءة قبل بزوغ الإسلام ، والأدلة على ذلك كثيرة .

فقد وجدت كتابات عربية فى جنوبى الجزيرة من عهد دولة معين ، وسبأ وحمير ، وجمع المنقبون مئات الألواح والصور منها . وقد كتب العرب على قبة غمدان ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المشقر ، وعلى الأبلق الفرد (٢) .

ووردت أخبار شتى عن معرفة أهل الحيرة للكتابة ، منها أنهم كانوا يعلمون أبناءهم الكتابة فى الصغر ، كما تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة فى داره بعد مقتل أبيه ، فخرج من أكتب الناس ، وصار كاتب النعمان الأكبر ، ثم ولد له ولد سماه زيدا باسم أبيه . وكان لحامد صديق من الدهاقين العظام يقال له فروخ ماهان ، وكان محسناً إلى حماد ، فلما حضرت الوفاة حماداً أوصى بابنه زيد إلى الدهقان ، وكان من المرازبة ، فأخذه عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يصير إلى الدهقان ، فلما أخذه علمه الفارسية فلقنها وتولى كتابة العربية لكسرى (٣) .

(١) مقدمة ابن خلدون ٤١٤ (٢) الحيوان للنجاحظ ٦٨/١ غمدان : قصر بين صنعاء وطبوه . مأرب : بين صنعاء وحضرموت باليمن . المشقر : حصن بالبحرين . الأبلق الفرد : حصن السموع بتيما . (٣) الأغاني ١٠٠/٢

تعلم عدى بن زيد في كتاب عربي ثم كتاب فارسي ، وصار من أكتب الناس بالعربية
والفارسية ، وكتب بالعربية في ديوان كسرى^(١) ، ثم كتب لكسرى ابنه زيد من بعده^(٢) .
وقد تعلم المرقش الأكبر هو وأخوه حرمة الكتابة من نصراني بالحيرة ، وكان
يكتب شعره^(٣) .

وقد دونوا تاريخهم في الجاهلية ، فإن هشام بن محمد السكلي قال : كنت أستخرج أخبار
العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنينهم
من بيع الحيرة^(٤) . ودونوا الشعر أيضاً ، فقد ذكر أبو جعفر النحاس ، أن الملك كان إذا
استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني ، وقال ابن رشيق مثل ذلك^(٥) .
وأرجح أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، لأن ابن سلام يقول : وقد كان عند النعمان
ابن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان
أو ما صار منه^(٦) . وابن جني يقول : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج —
الكراريس — ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن عبيد قتل له : إن تحت
القصر كنزاً ، فاحتفزه فأخرج تلك الأشعار^(٧) .

وقد عرف الحجازيون الكتابة ، لأنه لما ظهر الإسلام كان في قريش سبعة عشر رجلاً
يكتبون ، وذكر أسماءهم البلاذري^(٨) .

وقد كان جماعة من اليهود يكتبون الخط العربي ويعلمونه صبيان المدينة في يثرب ، فتعلم
منهم الأوس والخزرج فكثرت كتبهم من قلة . وبلغوا أحد عشر ، منهم حضير الكاتب
وسويد بن الصامت وعبد الله بن أبي^(٩) .

وفي موقعة بدر فادى بعض المشركين أنفسهم بتعليم عشرة من المسلمين الكتابة^(١٠) ،
وهذا دليل على معرفتهم بها .

وقد ذكر ابن سلام أن الناس اجتمعوا يوماً بمكة وعلى باب دار الندوة مكتوب :

-
- (١) الأغاني ١٠١/٢ (٢) الأغاني ١٠٩/٢ (٣) الأغاني ١٨١/٥ والشعر والشعراء ٥٥
وشرح المفضليات لابن الأنباري ٤٦٠ والمعارف ٣١٩ (٤) تاريخ الطبري ٣٧/٢ (٥) العدة ٦١/١
(٦) طبقات الشعراء لابن سلام ١٧ (٧) الخصائص لابن جني ٣٩٣ (٨) تاريخ خلدون
٦٠/٢ وفتوح البلدان للبلاذري ٤٧١ وعيون الأخبار ٤٣/١ والمعارف ٢٧٣ والمزهر ٣٥١/٢
(٩) فتوح البلدان ٤٧٣ — ٤٧٩ (١٠) الكامل للمبرد ٢١٣/١ والسيرة الحلبية ٢٥٤/٢
ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٤٧/١ وإمتاع الأسماع ١٠١/١

أَهْلَى قُصِيًّا عَنْ الْمَجْدِ الْأَسَاطِيرِ وَرَشُوءٌ مِثْلُ مَا تُرْشَى السِّفَاسِيرِ
وَأَكْلُهَا اللَّحْمَ بَحْتًا لِأَخْلِي — ط لَهْ وَقَوْلُهُ — أَرْحَلْتُ عَيْرُ أَتَتْ عَيْرِ
فَأَنْكُرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا مَا قَالَهَا إِلَّا ابْنُ الزَّبْعَرَى ^(١).

وَرَوَى أَنَّ وَرْقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَكْتُبُ كِتَابَةَ عِبْرِيَّةً ^(٢).
ثُمَّ إِنَّمَا نَعْلَمُ أَنَّ قَرِيشًا تَأْمَرَتْ عَلَى النَّبِيِّ وَمَنْ أَسْلَمَ مَعَهُ ، وَتَعَاقَدَتْ فِي صَحِيفَةٍ مَكْتُوبَةٍ عَلَى
أَنْ يَقَاطَعُوا بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَعَلَقُوا الصَّحِيفَةَ فِي الْكَعْبَةِ ، وَقَدْ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ
عَلَى كَاتِبِهَا فَشَلَّ بَعْضُ أَصَابِعِهِ ^(٣).

وَقَدْ كَتَبَ النَّبِيُّ إِلَى كَسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيَّ وَالْمَقَوْسَ وَإِلَى ابْنِ الْجُلَنْدِيِّ مَلِكِ عِمَانَ :
جَيْفَرُ وَعِيَاذُ أَوْ عِبَادُ ، وَإِلَى الْعَبَاهِلَةِ مِنْ حَمِيرَ ، وَإِلَى هُوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَإِلَى الْمُلُوكِ
وَالْعِظَاءِ ^(٤).

ثُمَّ إِنَّ فِي اللُّغَةِ كَلِمَاتَ كَثِيرَةٍ تَدُورُ حَوْلَ الْكِتَابَةِ وَمَا يَكْتُبُ فِيهِ وَبِهِ ^(٥) ، وَالشَّعْرُ الْجَاهِلِيُّ
حَافِلٌ بِالذَّلَالَةِ عَلَى الْوَرَقِ الَّذِي يَكْتُبُ فِيهِ .

فَمَثَلًا يَقُولُ الْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ إِنَّ آثَارَ الدِّيَارِ تَشْبَهُ صَحَائِفَ الْفُرْسِ :

لَمَنْ الدِّيَارِ عَفَوْنَ بِالْحَبْسِ آيَاتُهُ — أ كَهَارِقِ الْفُرْسِ ^(٦)
وَهُوَ نَفْسُهُ يَذْكُرُ أَنَّ حَلْفَ ذِي الْمَجَازِ كَانَ مَكْتُوبًا :

وَإِذْ كَرُوا حَلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قَدَّ م فِيهِ — ه الْعُهُودُ وَالْكَفَّ — لَاءُ
حَذَرَ الْخَوْنِ — وَالتَّعْدَى وَهَلْ تَنَ — قُضُّ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْإَاهُ — وَاءُ ^(٧)

لَأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَدْعُونَ مَنْ يَكْتُبُ لَهُمُ الْحَلْفَ وَالْهَدَنَةَ ، تَعْظِيماً لِلْأَمْرِ وَتَبْعِيداً
مِنَ النَّسِيَانِ ، وَالْمَهَارِقُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ لَيْسَ يَرَادُ بِهَا الصَّحُفُ وَالْكَتَبُ ،
لَأَنَّهُ لَا يَقَالُ لِلْكَتَبِ مَهَارِقٌ حَتَّى تَكُونَ كَتَبٌ دِينَ أَوْ عُهُودٌ وَمِيثَاقٌ وَأَمَانٌ ^(٨) .

وَيَقُولُ الْبُعَيْثِيُّ بْنُ حَرْيِثِ الْحَنْفِيُّ :

لَمَنْ طَلَّلَ كَرُوضَاتِ السَّخَالِ تَابُدَّ كَالْمَهَارِقِ الْبِوَالِي ^(٩)

(١) طبقات الشعراء طبعة شاكر ١٩٧٧ الأساطير : الخرافات . السفاسير : ج سفسير وهو السمسار .

أَكْلُهَا اللَّحْمَ بَحْتًا : كُنْيَاةٌ عَنِ الْفَقْرِ لِأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ اللَّحْمَ بِغَيْرِ خَبْزٍ (٢) الْأَغَانِي ٢٠/١٣

(٣) سيرة ابن هشام ٣٧٢/١ (٤) الحيوان ٩٨/١ (٥) بلوغ الأرب ٣٦٧/٣ — ٣٧٩

(٦) المفضليات ١٣٠/١ المهاريق : جمع مهريق : الصحيفة معرب (٧) البيان والتبيين ٦/٣ وشرح

القصائد العشر للتبريزي ٣٦٩ (٨) الحيوان ٦٩/١ (٩) معجم البلدان ٣١٧/٤

وقد أكثروا من تشبيه آثار الديار ، وتموجات رمالها ، والخطوط المنتظمة التي تصنعها الرياح فيها ، بالكتابة وبالصحف المكتوبة ، وأكثروا من هذا التصوير كثرة تدعونا إلى أن نصح نظراتنا إلى العصر الجاهلي ، فلم تكن الكتابة بمجولة للعرب هذه الجهالة التي تحكى عنهم ، لأن هذا الفيض من التشبيه ينبئ عن معرفة بالورق وبالكتابة عند بعض الشعراء المشبهين على الأقل ، ومن خصائص التشبيه في العصر الجاهلي أنه لا ينجح إلى العلائق الظاهرة والمشاهمات السطحية قدر ما ينجح إلى الربط الوثيق بين الأثر النفسي للمشبه وللمشبه به ، فالتشبيه هنا ليس منبعثاً عن تخيل أو محاكاة ، وإنما هو تصوير لعلاقة يجدها الشاعر بين منظر الأثر العائى وبين الكتابة .

من ذلك تصوير معاوية بن جعفر عم لبید لآثار الدار بأنها كتابة ظاهرة واضحة ، خطها كاتب ماهر منمق يتخوف أن يلحقه عيب :

فإن لها منازلَ خاويات على نَمَلٍ وقفتُ بها الركابا
من الأجزاء أسفلَ من نَمَلٍ كما رجعتَ بالقلم الكتابة
كتابَ مُحَبَّرٍ هاجٍ بصير ينمقه وحاذرَ أن يعابا (١)

وقول الأخنس بن شهاب التغلبي إن الآثار تشبه كتابة العنوان ، لأن العنوان مجود الخط واضحة :

لابنة حِطَّانَ بن عوف منازل كما رَقَشَ العنوانَ في الرُق كاتب (٢)

وقول امرئ القيس إن الآثار مثل الكتاب المخطوط في سعف النخل الوارد من اليمن معداً للكتابة :

لمن طل أبصرته فشيجاني نخط الزبور في العَيبِ اليماني (٣)

وقول طرفة إنها كسطور الكتابة الجميلة المزينة التي نمنقها كاتب في وضوح النهار ، وذلك أجود لها :

أشباك الربع أم قدَمُه أم ترابُ دارسٍ حمَمُه

(١) المفضليات ١٥٧/٢ نمل : ماء بقرب المدينة . الأجزاء : منعطفات الوادي . نمل : تصغير نمل على حذف الزيادة كما قال البكري . رجعت الكتابة : عدت عليها بالقلم . محبر : محسن . هاج : قارىء .
(٢) المفضليات ٤/٢ والأخنس هذا جاهلي لا صحابي كما توهم الفيروزبادي إذ التبس عليه بالأخنس ابن شريق (٣) ديوان امرئ القيس ١٨٦

كسطور الرق رَقَّشَهُ بالضحاً مَرَقَّشَ يَشْمُهُ (١)

ومثل هذا ورد في شعر حاتم (٢) والمرقش الأكبر (٣) وتعلبة بن عمرو العبدى (٤) .
وقد جاء ذكر الورق الشامى في وصف طرفه لناقته ، وتشبيهه بياض خدها بالقرطاس (٥) .
وجاء ذكر المجلة في مدح النابغة للغساسنة ، والمجلة الصحيفة فقد قال أبو حاتم إن بيت
النابغة يروى مجلتهم ومجلتهم ، فمن روى مجلتهم فقد أراد الصحيفة ، ومن روى مجلتهم فقد
أراد بلاد الشام . قال النابغة :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون خير العواقب (٦)

ثم إن القرآن الكريم كثيراً ما ذكر الكتابة والقلم والقراءة . وليس بمعقول
أن يخاطب بهذا قوماً يجهلون الكتابة والقراءة . من ذلك قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى
خلق (٧) و « كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » (٨) و « فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة » (٩)
و « فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » (١٠) و « اقرأ كتابك كفى بنفسك
اليوم عليك حسيباً » (١١) « إن هذا لى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » (١٢) و « رسول
من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم
البينة » (١٣) و « لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » (١٤)
و « لو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر
مبين » (١٥) و « هذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه » (١٦) و « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا
ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس
تجعلونه قرطاس تبدونها وتخفون كثيراً » (١٧) .

ولذا فليس بصحيح ما شاع عن جهل العرب بالخط ، سواء فى ذلك ما يكرره بعض
المؤرخين المسلمين وما يقرره بعض المستشرقين مثل نيكلسون (١٨) .

(١) ديوان طرفة ٦٨ والأمالى ٢٤٦/٢ الرق : الصحيفة البيضاء . يشمه : يزخره

(٢) شعراء النصرانية ١١٨ (٣) البيان والتبيين ٢٨٨/١ والأمالى ٢٤٦/٢ (٤) المفضليات

٨١/٢ (٥) ديوان طرفة ١٩ (٦) الأمالى ٢٤٥/١ (٧) سورة العلق آية ١ (٨) سورة

الانفطار آية ١٠ (٩) سورة عبس آية ١٤ (١٠) سورة الحاقة الآية ١٩ (١١) سورة الإسراء ١٤

(١٢) سورة الأعلى ١٨ (١٣) سورة البينة ٢ (١٤) سورة الأنبياء ١٠٥

(١٥) سورة الأنعام ٧ (١٦) سورة الأنعام ١٥٥ (١٧) سورة الأنعام ٩١

ب — وإذا ما معنى أميين في القرآن الكريم ؟

كيف تتفق معرفة العرب القراءة والكتابة مع قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (١) ؟

الذي يظهر من سياق الآية الكريمة ومن تفسيرها أنه لا تعارض ، ذلك بأن العرب أمة أمية ، على معنى أنهم ليس لهم كتاب سماوى يقرءونه ويدينون به ، فبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة وهدى ، يهديهم بالقرآن الكريم ، ويعلمهم ما فيه من أمر الله ونهيه وشرائع دينه ، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وابن زيد (٢) . ويعزز هذا التأويل ختام الآية « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » أى أن هؤلاء الأميين كانوا قبل النبي القرآن وقبل الكريم في ضلال من عقائدهم .

على أن النيسابورى يورد رأياً آخر في تفسير الأميين فيقول إن الكلمة منسوبة إلى أمة العرب أو أم القرى (٣) ، ويشاركه في ذلك ابن عبد ربه (٤) وهو رأى ضعيف . وأما قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى » (٥) . فإن الأمى هو النبي صلى الله عليه وسلم (٦) ، لأنه لم يطالع كتاباً ولم يصاحب معلماً (٧) ، وفى قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون » (٨) . فإن المراد أناس من اليهود ، وهم أميون أى لا يقرءون ولا يكتبون ، كقوله صلى الله عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أو أنهم لا يحسنون أن يكتبوا فيطالعوا التوراة . وروى عن ابن عباس أن الأميين قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتاباً أنزله ، فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله . وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله (٩) .

(١) سورة الجمعة ٢ (٢) تفسير الطبرى ٦١/٢٨ - ٦٢ (٣) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٦٤/٢٨ (٤) العقد الفريد ١٦٢/٢ المطبعة الشرفية (٥) الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ (٦) تفسير الطبرى ٥٦/٩ (٧) النيسابورى ٥٩/٩ والعقد الفريد ١٦٢/٢ (٨) سورة البقرة ٧٨ و ٧٩ (٩) تفسير الطبرى ٢٦٩/١ والنيسابورى ٣١٨/١

وإذا فليست كلمة أميين في القرآن الكريم ذالة على العرب وحدهم ، فقد أطلقت على اليهود أيضاً ، ولم يتفق المفسرون على أن معناها الجهلة بالقراءة والكتابة ، فقد ذهب بعضهم إلى أنهم الذين ليس لهم كتاب سماوى يدينون به ، أو إلى أنهم المنسوبون إلى أم القرى ، أو إلى أنهم الذين لا يحسنون أن يكتبوا ويقرأوا .

لكنى أرجح أن الأميين هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون وأرى أن القرآن أطلق هذا الوصف مراعيًا الحال العامة في العرب ، لأن أكثرهم لا يقرءون ولا يكتبون ، وشتان بين أن يكون الشعب كله جاهلاً بالكتابة ، وبين أن تكون السكينة جاهلة . وهذا الحكم لا يتعارض مع ما أسلفت من معرفة العرب بالكتابة ، لأننا في مصر في القرن العشرين ما زلنا نحارب الأمية المتفشية ، على أن في مصر بضعة ملايين يقرءون ويكتبون ، وما زلنا نقول إن مصر قطر زراعى ، ناظرين إلى غلبة الزراعة على بنيتها وإن كان فيها كثير من الصناع والتجار والموظفين والعلماء .

ح — كان بعض النساء يعرفن الكتابة والقراءة وبعضهن يعلمنها ، منهن فاطمة بنت مر الحثعمية كانت قد قرأت السكتب في الجاهلية (١) :

وقد تعلم حماد بن زيد بن أيوب السكتابة من أمة بعد قتل أبيه . ثم كان من أكتب الناس ، وكتب للنعمان الأكبر (٢) .

ومنهن الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية ، كانت تسكتب وترقى ، وقد قدمت على النبي قبل الهجرة فقال لها : ما عليك أن تعلمي حفصه رقية النملة كما علمتها السكتابة (٣) . فكانت حفصه وأم كلثوم من زوجات النبي تسكتبان ، وكانت عائشة وأم سلمة تقرأن المصحف ولا تسكتبان (٤) .

ولا شك في أن هؤلاء النسوة القارئات السكاتبات قليل ، لأن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضى ذلك ، فلم تسكن هنالك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ، ولم تسكن ثمة حاجة تستدعى أن يتعلم النساء القراءة والكتابة ، لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية . ومن عجب أن ينسب إلى عمر قوله في النساء : « جنبوهن السكتابة » وإلى علي بن أبى طالب

(١) الروض الأنف ١/٤٠٤ وجمع الأمثال للبيداني ٢/٤٦ (٢) الأغاني ٢/١٠١

(٣) الإصابة ٨/١٢١ والاستيعاب ٢/٧٦١ وفتوح البلدان ٧٧٤ (٤) فتوح البلدان ٧٣٤

London, 11th Dec

تاریخ کا نام لکھنا، تاریخ کا نام لکھنا

... انه بالاعمال

استدراك

صفحة ٣٣٤ السطر الخامس . صوابه

وعلى فرض أن الأميين هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون
فإن القرآن الكريم أطلق هذا . . .

أنه قال لرجل يعلم امرأة الخط : « لا ترد الشر شراً »^(١) . فإننا لا نجنح إلى تصديق شيء من هذا . وكيف يحث النبي الشفاء العدوية على أن تعلم زوجته حفصة الكتابة ثم يقول عمر وعلى هذا .

وإنما يقال هذا في عصور الضعف الخلق والسياسي ، حيث يشيع سوء الظن بالمرأة ، ويتوهم الرجال أن تعليمها يفسدها أو يضاعف شرها ، وحيث يزدرون المرأة ولا يرونها جديرة بأن تتثقف . ذكر أن بعضهم رأى امرأة تتعلم الكتابة فقال : أفعى تُسقى سماً^(٢) . وسئل فقيه بدمشق في العصر العباسي الثاني ، هل يجوز أن تتعلم النساء الكتابة ؟ فأجاب بأنه لا يجوز . وفي عهد من عهود الضعف افترى بعضهم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور^(٣) . ومادفع هؤلاء إلى افتراء الأحاديث المسكوبة والكلمات المنحولة إلى عطاء الإسلام إلا شعورهم بضعف حججهم ، واستنادهم إلى قول ذي هيبة ومحبة وسلطان ، يحسبون أنهم يزعمون الحق بما يروون وبما يزعمون . ولم يكن عجباً من رجلٍ ساخط على الحياة وعلى الناس والنساء خاصة أن ينادى بحرمانهن الكتابة والقراءة ، قال أبو العلاء :

علموهن الغزل والنسج والرّد نَ وخلوا كة — ابة وقراءة
وصلاة الفتاة بالحمد والإخ — لاص تجزى عن يونس وبراءة^(٤)

وأن يتردد صدى هذه الدعوة في العصر الحديث على لسان الرافعي :

يا قوم لم تُخلَقْ بنات الوري للدرس والطّرس وقال وقيل
لنا عـ لوم ولها غيرها فعلموهن كيف نشر الغسيل
والثوب والإبرة في كفها طرس عليه كل خط جميل

(١) صبح الأعشى ٦٤/١

(٢) صبح الأعشى ٦٤/١

(٣) التراتيب الادارية ٥٠/١ عن كتاب النبراس (٤) اللزوميات ٦٢/١ الردن : تنسيق المتاع .

١٥ - معرفتها النجوم

١ - عرف العرب بالملاحظة والمشاهدة وطول المراتبة كثيراً من الأجرام السماوية والأحوال الجوية، وحركات الكواكب، ومنازل القمر، والأنواء. فهم يذكرون في شعرهم أسماء نجوم شتى كالفرقدين والدبران والثريا والعيوق والسماكين والشعري. وقد سجل شعرهم هذا كله.

وهم سموا الأنجم الأربعة التي خلف النسر الواقع أو الطائر صليباً^(١). وقد جمع كتاب أبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي ٣٧٦ هـ نحو خمسين ومائتين من الكواكب التي يعرفها البدو^(٢).

وهم عرفوا منازل القمر بأن اتخذوا في السماء ثمانى وعشرين كوكبة (بجموعة) لا تبعد عن فلك القمر كثيراً، تدل كل منهما على موضع القمر في إحدى ليالى الشهر. لذلك جاء في القرآن الكريم « والقمر قدرناه منازل »^(٣). هو الذي جعل الشمس ضياء القمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب^(٤). وقد وضعوا لكل منزلة اسماً ذكرها ابن منظور^(٥).

وعرفوا الأنواء - والنوء سقوط منزلة من منازل القمر مع الفجر في الغرب وطلوع منزلة مقابلة لها في الشرق من ساعتها - ونسبوا إليها عدة ظواهر طبيعية من الأمطار والرياح والحر والبرد، وعزوا كل غيث إلى تأثير المنزلة الساقطة في الغرب أو الطالعة في الشرق، حتى شاع استعمال النوء بمعنى الغيث^(٦) والدليل على شيوع قولهم بالأنواء ونسبتهم المطر إلى النجوم لا إلى الله قول النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاث من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة، والأنواء^(٧). وقول أبي العلاء المعري إنه لا ينسب الأمطار إلى الأنواء كما كان العرب يقولون: مطرنا بنوء المرزَم وغيرهما من النجوم:

ولست بالناسب غيثاً هَمَى إلى السماكين ولا المرزَم^(٨)

(١) لسان العرب مادة نوأ (٢) الفهرست ٢٨٤ وصور الكواكب للصوفي. مخطوط بدار الكتب وبه صور (٣) سورة يس ٣٩ (٤) سورة يونس ٥ (٥) لسان العرب مادة نوأ (٦) لسان العرب مادة نوأ وأساس الفلك والجغرافية ٨٥ محمد نجر الدين وعبد الفتاح الزياى (٧) لسان العرب مادة نوأ. (٨) شرح التنوير على سقط الزند ٢/٢١٣

وطبيعى أن تكون معرفتهم بالأنواء عظيمة ، لأن حياتهم وأرزاقهم ذات صلة وثيقة بالمطر وبالمرعى ، فهم يتطلعون إلى السماء يتشوفون مطرها ، ويشيمون برقها ، لذلك كانت لهم فراسة وخبرة بالسحاب الممطر والجّهام ، وبالبرق المنجز والخلب ، وبالرياح وخواصها .

وقد ألف بعض السابقين من علماء اللغة كتباً جمعوا فيها ما كان للجاهليين من معرفة بالسماء . منها كتاب الأنواء لأحمد بن داود بن وَتَد (١) ، وكتاب الأنواء لأحمد بن عبيد الله الثقفي (٢) ، وكتاب الأنواء لأحمد المرثدي (٣) ، وكتاب الأنواء لمحمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي (٤) ، وكتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار لإبراهيم بن سفيان الزياتي (٥) ، وكتاب الأنواء لمؤرج بن عمر النحوي (٦) ، وكتاب الأنواء وكتاب المطر لابن دريد (٧) ، وكتاب الأنواء لأبي اسحاق بن الزجاج النحوي (٨) وكتاب الأنواء وكتاب الشمس والقمر للنضر بن شميل النحوي (٩) ، وكتاب أبي حنيفة الدينوري (١٠) الذى بين فيه ما كان يعرفه العرب من السماء والأنواء والرياح ، وتقسيم العمام إلى أزمان الخ وهو يدل على معرفة تامة بالآخبار الواردة عن العرب وأشعارها وأسجاعها فى ذلك . وكتب الأنواء كثيرة ، منها كتاب للأصمعي ، وكتاب لأبي محم ، وكتاب لقطرب ، وكتاب لابن الأعرابي ، وكتاب للبرد ، وكتاب لابن قتيبة ، وكتاب للدھنى ، وكتاب للريدى ، وكتاب لوكيع وغيرهم (١١) .

وللنضر بن شميل كتاب الصفات ، وهو كبير يحتوى على عدة كتب ، ذكر فى الكتاب الرابع منه ما يتعلق بالشمس والقمر والليل والنهار ، وذكر فى الخامس ما يتصل بالرياح والسحاب والأمطار (١٢) .

ب — وقد أسهمت المرأة فى هذه المعارف .

- (١) معجم الأدباء ٣٢/٣ (٢) معجم الأدباء ٢٤٠/٣ (٣) معجم الأدباء ١٨٧/١٤
 (٤) معجم الأدباء ١٩٦/١٤ (٥) معجم الأدباء ١٦١/١ (٦) بغية الوعاة للسيوطى ٤٠٠
 طبعة السعادة بمصر وكشف الظنون ٢٦٦/٢ (٧) الفهرست ٦١ و ٨٨ وبغية الوعاة ٣٠-٣٢ ونزهة
 الألباء لابن الأنبارى ٣٢٣ وكشف الظنون ٢٦٦/٢ (٨) الفهرست ٨٨ (٩) الفهرست ٥٢ وبغية
 الوعاة ٤٠٥ ونزهة الألباء ١١١ وكشف الظنون ٢٦٦/٢ (١٠) الفهرست ٧٨ و ٨٨ وكشف
 الظنون ٢٦٦/٢ (١١) الفهرست ٨٨ (١٢) الفهرست ٥٢ وبغية الوعاة ٤٠٥

روى بن دُرَيْد أن شيخاً من الأعراب كان في خبائه وابنة له بالفناء ، فسمع رعداً ، فقال : ما ترين يا بنية ؟ فقالت : أراها حواءَ قرحاء ، كأنها أقربُ أتان قراء . ثم سمع راعدة أخرى ، فقال : كيف ترينها ؟ قالت : أراها جمة الترجاف ، متساقطة الأكناف ، تتألق بالبرق الولّاف قال : هلى المعرفة أنتى نؤيا (١)

وروى عن الأصمعي أن أعرابياً ضريراً كانت تقوده ابنته ، وهى ترعى غنيمات ، فرأت سحاباً ، فقالت : يا أبت جاءك السماء . فقال . كيف ترينها ؟ قالت : كأنها فرس دهماء تجرّ جلاها . قال : ارعى غنيماتك . فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها عينُ جمل طريف . قال : ارعى غنيماتك ، فرعت ملياً ثم قالت : يا أبت جاءك السماء . قال : كيف ترينها ؟ قالت سَطَحَتْ وَايْبَضَتْ . قال : أدخلى غنيماتك . فجاءت السماء بشيء شطأ له الزرع وأينع ، وخضر ونضر (٢) :

وروى عن الأصمعي أن معقراً بن حماد البارقي خرج ذات يوم وقد كف بصره وابنته تقوده ، فسمع رعداً ، فقال لها : ما ترين ؟ قالت : أراها حماء عفاقه ، كأنها حولاة ناقة ، لها وسيرٌ وان ، وصدرٌ دان . فقال : مرّى فلا بأس عليك . ثم سمع رعداً آخر فقال : ما ترين فقالت : أراها كأنها لحم نثت ، منه مسيكٌ ومنه منهرت . فقال : وائلى ، الجثى بنى إلى جانب قفلة فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل (٣) .

وذكر أن أعرابياً شام برقا فقال لابنته : انظرى أين ترينه ؟ فقالت : أناخ بذى بقر بركة

(١) المطر والسحاب لابن دريد ١٤ مخطوط . حواء : سوداء محمرة . قرحاء : يتألق برقها من روضة قرحاء إذا كان فيها نوار أبيض . أقرب : خصور . قراء : فى لونها يياض إلى كدرة . الترجاف : الاضطراب . متساقطة الأكتاف : مهدلة الجوانب مسترخية لكثرة ماؤها . البرق الولّاف : الذى يبرق برقاً متتابعاً وهو لا يكاد يخلف . المعرفة : المسحة . أنتى نؤيا : أحفر حفيرة حول الحباء تمنع السيل عنه . (٢) المطر والسحاب ٤٤ مخطوط . الجلال : ما يوضع فوق الفرس ليصونها . جل طريف : مطرف أى يستطرف الكلاً فلا يرعى فى مكان واحد . شطأ له الزرع : أخرج ثماره . أينع : نضج .

(٣) المطر والسحاب ٤ الحماء : السوداء المحمرة . العقاقرة : التى يتسرب برقها فى السحاب وينشق عفاق أو هى السحابة المنبجعة بالماء . الحولاة : جلدة رقيقة مملوءة ماء كأنها مرآة تخرج مع سيل الناقة فشب السحاب بها فى كثرة الماء . لحم نثت : مسترخ متن . وائلى : بادرى . قفلة : شجرة بابسة .

كَأَن عَلَى عَضْدِيهِ كِتَافًا . ثُمَّ قَالَ لَهَا بَعْدَ قَلِيلٍ ، عَوْدِي فَشِيمِي . فَقَالَتْ : نَحْتَهُ الصَّبَا ، وَمَرَّتَهُ الْجَنُوبُ ، وَانْتَجَفَّتَهُ الشَّالُ انتِجَافًا (١) .

وَإِذَا ارْتَبْنَا فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَذَهَبْنَا إِلَى أَنَّهَا مِنْ وَضْعِ ابْنِ دَرِيدٍ أَوْ غَيْرِهِ لِأَحْيَاءِ كَلِمَاتٍ لُغَوِيَّةٍ ، أَوْ نَظْمِهَا فِي سِمَطٍ مَوْضُوعِيٍّ فَإِنَّا لَا نَرْتَابُ فِي أَنَّ وَاضِعِيهَا كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِمَعَارِفِ الْمَرْأَةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَجَدَارَتِهَا بِأَن يَنْسَبَ إِلَيْهَا مِثْلُ هَذَا .

وَالْأَخْبَارُ مُسْتَفِيضَةٌ بِعِلْمِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ يَالْنَجُومَ ، فَقَدْ وَفَدَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ عَلَى هِشَامٍ ، وَسَمَرَتْ عِنْدَهُ مَعَ مَشَائِخِ بَنِي أُمَيَّةٍ ، فَهَذَا تَذَاكُرُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهَا وَأَيَّامِهَا لِإِلَافَاضَتِ مَعَهُمْ فِيهِ ، وَمَا طَلَعَ نَجْمٌ وَلَا غَارَ إِلَّا سَمَّيْتُهُ ، فَقَالَ لَهَا هِشَامُ : أَمَّا الْأَوَّلُ فَلَا أَنْكَرَهُ ، وَأَمَّا النُّجُومُ فَمَنْ أَيْنَ لَكَ ؟ فَقَالَتْ . أَخَذْتُهَا عَنْ خَالَتِي عَائِشَةَ (٢) .

١٦ — خَبَرْتُهَا بِالْمَرْعَى

لَيْسَ أَحَدٌ أَخْبَرَ بِالْمَرْعَى مِنَ الْعَرَبِ ، لِأَنَّ جُلَّ حَيَاتِهِمْ رَعَى ، وَجَلَّ ثَرَوَتُهُمْ إِبِلٌ وَشَاءٌ . وَقَدْ كَانَ بَعْضُ النِّسَاءِ يُمَارِسُنَ الرِّعَى ، وَيَكْتَسِبْنَ مِنْ تَجَرِبَتِهِنَّ خُبْرَةَ وَدَرَايَةَ ، وَبَعْضُهُنَّ يَسْتَمْعِنُ مِنَ الرِّجَالِ وَمِنَ النِّسَاءِ مَا يَبْصُرُهُنَّ بِصُنُوفِ الْمَرْعَى وَأَثَرِهَا فِي السَّائِمَةِ وَلِبْنِهَا .

رَوَى أَبُو زَيْدٍ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ تَخَاصَمَتَا إِلَى ابْنَةِ الْحُسَّيْنِ فِي مَرْعَى أَبِيهِمَا ، فَقَالَتْ الْأُولَى : إِبِلُ أَبِي تَرَعَى الْإِسْلِيحَ ، فَقَالَتْ ابْنَةُ الْحُسَّيْنِ : رَغْوَةٌ وَصَرِيحٌ ، وَسَنَامٌ إِطْرِيحٌ ، وَقَالَتِ الْآخَرَى : مَرْعَى إِبِلُ أَبِي الْخَلَّةِ ، قَالَتْ ابْنَةُ الْحُسَّيْنِ : سَرِيعَةُ الدَّرَّةِ وَالْجَرَّةُ (٣) .

(١) المطر والسحاب ٤٠ ذوبقر : موضع . البركة : البركة : ما ولى الأرض من صدر البعير . عضديه ما بين مرفقيه إلى كتفيه . كتافا : جبلا مشدوداً به . نحته : صرفته نحوهم . مرته الجنوب : استخرجت ماءه . انتجفته : استخرجت أقصى ما فيه من ماء (٢) الأغاني ١٠/١٧ (٣) البيان والتبيين ٢/١٦٢ تحقيق هارون ولسان العرب مادة سلع وطرح . الإسليح : بقلة من أحرار البقول تنبت في الشتاء تسليح الإبل إذا استكثر منها . إطريح : طويل مائل

الفصل الرابع

المرأة في الحرب

تمهيد

١ — أسست الحياة القبلية على العداء والحروب المتوالية ، وعلى المحالفة والنصرة ، مؤازرة في غارة أو درءاً من غارة ، لأن العرب عاشوا في بيئة مؤثرة للحروب ، فهم يتنازعون على المرعى يسمون فيه أنعامهم ، وعلى المنهل يطفثون به ظمأهم ، في بلاد شحيحة بالكلأ ، ضنينة بالماء ، لا ملكية في أرضها لأحد . وهم يتنازعون على الشرف والرياسة ، ويتغاورون رغبة في السلب والغنيمة ، لأن أرزاقهم في رماحهم ، ومعاشهم في أيدي غيرهم . وإن القطامي — الشاعر المخضوم — ليصور ذلك في حديثه عن الخيل والخيالة :

وكن إذا أغرت على جناب وأعوزهن نهبٌ حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول وضبة إنه من حان حاننا
وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا (١)

ولقد تهيج الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالماً ، لأن شعارهم نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، ومن يسلم أخاه يعير . بل إن الشاعر كان يعير قبيلته كلها إن تخلت عن نصرته . قال قريظ بن أنيف — وكان بعض بني شيبان أغاروا على إبله فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فلبجاً إلى بني مازن من تميم فأنجدوه — :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لؤثة لانا

.....

(١) شرح الحماسة للتبريزي ١٨١/١ الضباب : ضبة وضيب وحسل وحسيل . الحلول : الحى الحال

في مكان واحد

لا يسألون أخاهم — ينذبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا — شدوا الإغارة فرساناً وركبانا (١)

وكثيراً ما كانت تنشب الحروب لضغن قديم وقرته الصدور ، أو لهزيمة وثأر ،
والعربي لا ينسى هزيمة ذاق مرارتها ، ولا إساءة كابد حرقها . قال زفر بن الحارث مصوراً
هذا الشعور :

لعمري لقد أبت وقبعة راه — ط لمروان صدعا بيننا متنائيا
وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا (٢)

ثم هم يتسلحون بالشجاعة ، فهي عدتهم ظاهرة وباطنة، وهي مفخرتهم يلبسونها وتلبسهم ،
لأنهم لا يهتمون بشرطة ، ولا يتقون بأسوار ، وقد ألفوا أن يدافعوا عن أنفسهم ،
ويتجافون عن الهجوع ، ويتوجسون للنبات والهيئات ، وينفردون في البيداء ، مدلين
بأسهم ، واثقين بنفوسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية ، (٣) .

وإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه ، وأنه شب وكبر
وهي تمشي في دمه . وكيف لا وقد ربي في بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام ، وحسن البلاء
في حماية الذمار والاختد بالثأر ، وبالعدوان في كثير من الأحيان ؟ وطالما فزع طفلاً على
قعقة السلاح ، وصياح المتقاتلين ، وسمع الأقا صيص عن شجعان من القبيلة حموها ، وردوا
المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها ، ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف
تشتجر ، والقسي تتقارع ، والأبطال في الميدان تتنازع ، ثم كبر فشارك في المواقع ، وأقنى
العمر في المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً في العرب . « وكانت تشبه شجاعة
الإغريق القدماء ، تعتمد على الحماسة ، وتحتفي سريعاً أمام الفتور والتأخر » (٤) .

كانت الحروب من خصائص العرب ، ولا سيما البدو ، وقد وصفهم بذلك منذ القدم

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٥/١ والمرزوقي ٢٣/١ وفي رواية بنو اللقيطة وهي نضيرة بنت عصيم
ولاصلة لها بنى شيان ، أما الشقيقة فهي بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيان . ذلولثة : ضعيف

(٢) حماسة البحرى ١٧ (٣) مقدمة ابن خلدون ١٠٥ (٤) Nicholson P. 81

سمّنه Simneh مؤرخ مصر في عهد الأسرة التاسعة عشرة إذ قال : إنهم رعاة يحبون الحرب
وغير بعضهم على بعض (١) .

فلا عجب أن ورث منهم أبناؤهم الشجاعة والفروسية، لأنه من المقرر أن مهارة الأفراد
في الفروسية وركوب الخيل ترجع في الغالب إلى استعداد فطري ورثه الأبناء
عن آبائهم وأجدادهم الذين تمرسوا زمناً طويلاً بالحروب (٢) .

٢ - وإذا تفحصنا أيام العرب وجدناها كثيرة جداً ، حتى لقد أفرد لها بعض المؤرخين
كتباً أو فصولاً طويلاً ، وألفيناها تزخر ببطولة الرجال وغارهم وحسن بلائهم . وقلنا
وجدنا فيها تفصيلاً لجهود المرأة ، أو غاراً من المرأة بنصيبها في حروب قومها .

فهل كانت المرأة منزوية متخلفة عن الحروب ؟ لا فقد أسهمت فيها بنصيب عظيم
وجهد ماثور لم يفرد له مؤلف فصلاً من كتاب .

وسأكشف عن هذا الجهد الذي بذلته المرأة في الحرب ، ملتمطاً من المراجع ما تفرق هنا
وهناك ، وسيكون هذا رداً على أنها لم تكن في مقدمة المحاربين ، ولم تسكف أن تقوم بما
يقوم به الرجال ، لأنه كان من النادر أن تتيح لها ظروفها ذلك ، وإنما كانت تقتصر على إثارة
العواطف ، كما فعلت في يوم ذي قار ، وعلى مد المحاربين بالطعام والشراب ، وتضميد
الجراح ، (٣) .

ولا شك أن دراستنا لنصيب المرأة في الحروب كفيلة بأن ترسم صورة صحيحة لمكانتها
وأخلاقيها وأعمالها في العصر الجاهلي .

(١) تاريخ الإسلام السياسي . حسن إبراهيم ١/٦٥ (٢) الهنود الحمر . علي عبد الواحد ٧٨

Women in the Aiyam al Arab P. 1 ilse lichtenstadter

(٣)

المرأة المحاربة

كان الرجال وما يزالون في كل أمة ينهضون بأعباء الحروب ، ولقاء الصناديد ، حاملين أرواحهم على أكفهم وشباً أسلهم وسيوفهم . وكان المعروف عن العرب أن القتل والقتال للرجال ، وعلى الغانيات جر الذبول ، فإن شاركن في الحرب فإنما يقمن بما تطيقه الأنثى من تحميس وتضميد وإطعام وسقى . ولكن هذا لا يؤخذ على إطلاقه ، فإن بعض النساء حاربن كما يحارب الرجال ، بل أدرن قطب الحرب أحياناً ، وكن القائدات لجيش من الرجال وقد جانب الجاحظ الصواب في قوله : « والمرأة إذا ضعفت عن كل شيء نزعت إلى الصراخ والولولة ، التماساً للرحمة ، واستجلاً باللغياث من حمايتها وكفاتها أو من أهل الحسبة في أمرها »^(١) ، وسنرى أن هذه لم تكن نزعتها على الإطلاق .

ولا شك أن المرأة العربية — بمشاركتها مشاركة فعالة في الحرب — قد تفوقت على المرأة اليونانية كما يصورها هو ميروس في قوله :

سار هكطور جثيشاً وأتى باب إسكية والزأن ظليل
فتلقته نساء وبنات منه علماً تتقصى سائلات

عن بنهين وإخوان ثقات

لأن عمل النساء هنا مقصور على الاستطلاع والاستخبار . وليس في الإلياذة ذكر لولوج النساء معامع الحرب ، وإن كن قد شاركن في كثير من الأعمال كغسل الموتى وإعداد المعدات وإقامة الصلوات ، وربما عنفن على خمول ، كما فعلت هيلانة مع زوجها فريس^(٢) .

وقد أشار إلى مشاركة المرأة العربية في الحرب قيس بن الخطيم بقوله :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم عن السلم حتى كان أول راجب
أويت لعوف أن تقول نساؤهم ويرمين دفعاً ليتنالم نحارب^(٣)

ولما كانت الحرب بين بكر وتغلب قال الحارث بن عباد للحارث بن همام رئيس بكر . هل أنت مطيعي فيما أمرك ؟ قال : ما أنا بتارك رأيك . قال : قاتلوا القوم بالنساء قضلا عن

(١) الحيوان ٢٧٩/٦ طبعة هارون (٢) الإلياذة . ترجمة البستاني ٤٥٧ (٣) ديوان قيس ابن الخطيم ١٨ مخطوط . راجب : ميت . يرمين دفعاً : يرميننا من فوق الآطام دفاعاً عن أنفسهن .

الرجال . قال الحارث : وكيف؟ قال : تعمدون إلى كل امرأة لها جلد ونفس فتعطونها إداوة وهرأوة ، فإذا صففت أصحابك فصفهن خلفهم ، فإن ذلك مما يزيد الرجال جلدا وشدة ونشاطا ، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم ، فإذا مرت المرأة على صريع منكم عرفته فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهرأوة فقتلته وأتت عليه ، ففعل الحارث بن همام ما أمره به ، وكان النصر لهم ^(١) .

المرأة تقود الجيش

وأى دليل على مشاركة المرأة في الحرب ، وممارستها ما يمارس الرجال من لظاها وفواجعها أقوى من أن تقود الجيش ؟

إن قيادة الجيش لا تناط إلا بالشهم الجلد المحنك المطاع ، وإن القائد ليصرف جنده ، ويدبر الخطط للنصر ، فإذا كانت المرأة العربية قد سمت إلى هذه الرتبة العالية فإن ذلك إقرار من الرجال بعظمتها ، وسمو مكانتها ، ودليل على خضوعهم لها وإطاعتها . ومن هؤلاء القائدات :

١ — رقاش ، كانت في طيء ، وكانت تغزو بقومها ، ويتمنون برأيها ، وكانت كاهنة لها حزم وعزم .

وقد أغارت طيء بزعامتها وقيادتها على إباد بن نزار يوم رحى جابر فظفرت بهم ، وغنمت وسبت ، ثم بعد ذلك حملت فتراخت عن الغزو ، فقال شاعرهم :

نَبَّئْتُ أَنَّ رَقَاشَ بَعْدَ شِمَاسِهَا حَبَلْتُ وَقَدْ وَلَدْتُ غَلَامًا أَكْثَلَا
فَاللَّهِ يُحْظِيهَا وَيَرْفَعُ بُضْعَهَا وَاللَّهِ يُلْقِئُهَا كَشَافًا مُقْبَةً لَا
كَانَتْ رَقَاشُ تَقُولُ جَيْشًا جَحْفَلَا فَصَبَّتْ وَأَخْرَجَتْ بَيْنَ صَبَا أَنْ يَحْبَلَا ^(٢)

ويظهر لى من حق الشاعر عليها أنه كان يظنها قد انسلخت من أنوثتها أو انسلخت منها أنوثتها ، فلما حملت ووضعت استبان له أن القائدة الحازمة الأربية مازالت أنثى . تتزوج وتحمل ، وتلد ، تخيفت ظنه ، ولعله سخط أيضاً لأنه خشى ألا يكون في رجال القبيلة من يخلفها في القيادة وبث الحماسة ويمن الزعامة ، فيعجزون عن الغارة واكتساب الغنائم .

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٣٤/٢ وكتاب بكر وتغل ٨٣

(٢) جهرة الأمثال لأبي هلال ٣١٣/١ وجمع الأمثال ٢٦٣/١

٢ — وهذه قائدة أخرى وزعيمة ، كانت تناوى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قومها يأترون بأمرها ، ولعلها لو أسلمت لكان لها في التاريخ شأن أي شأن ، تلك هي أم قرفة . وقد ضرب العرب المثل بعزتها ، فقالوا : أمنع من أم قرفة . وهي امرأته فزارية . كانت زوجة لمالك بن حذيفة بن بدر ، وكان يعلق في يديها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها محرم (١) . كانت فاطمة بنت ربيعة بن زيد الفزارى هذه زعيمة مطاعة ، وكانت تجاهر بعدائها للإسلام ، حتى لقد بعثت إلى النبي أربعين رجلاً من بطنها ليغزوه في المدينة ، فبعث النبي إليها في السنة السادسة للهجرة زيد بن حارثة في خيل ، فلقبها بوادي القرى ، فمزمته ، فحلف ألا يغسل ولا يدهن حتى يغزوه ، فسأل رسول الله أن يبعثه إليهم فبعثه في خيل عظيمة ، فانتصر في هذه المرة وسبي أم قرفة ، وكانت عجوزاً كبيرة ، وسبي ابنتها ، ثم أمر زيد قيس بن المسحّر أن يقتل أم قرفة فربط حبلين برجليها ، ثم ربطهما بين بعيرين وزجرهما فذهبا بها ، فشقاها شقاً (٢) . ويذكر ابن هشام أنه قتلها قتلاً عنيفاً ، ولا يفصل هذا القتل (٣) ولكن وصف القتل بالعنف كاف في الدلالة على نوعه .

٣ — قتلت أم قرفة وسبيت ابنتها سلمى ، وقدم زيد بن حارثة بها على رسول الله ، وكانت من نصيب قيس بن المسحّر أو سلمة بن عمرو الأكوع ، فسأها رسول الله هذا أو ذاك فوهبها له ، فأهداها إلى خاله حزن بن أبي وهب (٤) ، وقيل كانت لعائشة فأعتقتها (٥) . وأياماً كان الأمر فقد رجعت سلمى إلى قومها ، وارتدت معهم عن الإسلام ، ثم انضمت إلى طليحة هي وعيينه بن حصن ، ولست أشك في أنها لم تنس مصرع أمها العنيف ، ولم تنس مقتل أخيها حكمة يوم أغار عينية بن حصن على سرح المدينة ، ولم تنس مرارة السبي ومذلتها فارادت أن تشقى بالثأر .

وقد شرعت تحقق ذلك ، وتحلق حول لواثها جموع من غطفان وفزارة وأسد وهوازن وسليم وطيء ، فقادتهم كما قادت أمها الجموع من قبل ، وأمرتهم أن يهجموا على خالد بن الوليد وكان مشغولاً بحرب المرتدين ، فسار إليها .

كانت سلمى تشرف على المعركة وهي راكبة جملاً كانت أمها تركبه في المعارك من قبل

(١) تاريخ الطبري ٨٤/٣ وتاريخ الخميس ١٣/٢ وجمع الأمثال ٢٤٩/٢ (٢) تاريخ الطبري ٨٣/٣ وتاريخ البعقوي ٧٤/٢ وتاريخ الخميس ١٣/٢ والتنبيه والإشراف ٢١٩ و٢٢٠ ولم يذكر طريقة القتل (٣) سيرة ابن هشام ٢٩٠/٤ (٤) سيرة ابن هشام ٢٩٠/٤ وتاريخ البعقوي ٧٥/٢ وتاريخ الطبري ٨٤/٣ (٥) تاريخ الطبري ٢٣٤/٣

وليس أدل على عظم خطرهما من أن يدبر خالد أمره للقضاء عليها أولاً ، فيعد من يعقر جملها مائة من الإبل ، فعقر المسلمون جملها ، وقتلوا مائة من الملتفين بجملها ودارت الدائرة عليها (١) .

٤ — وبعد قليل ظهرت امرأة أخرى تزعم قومها ، وتقدمهم في الحرب ، بل لقد تنبأت أيضاً . ودان لها كثير وآمنوا بها . أما اسمها فسجاح ، وأما كنيتهما فأم صادر .

وهي بنت أوس بن حق بن أسامة من تميم ، أو بنت الحارث بن سويد بن عقفان (٢) ، أو بنت سويد بن أسامة التميمي (٣) . وأما تاريخها فمن المرجح أنه قد شوه كثيراً ، لأنها ارتدت عن الإسلام ، وتزعمت بعض القبائل المرتدة ، ولكن هذا التشويه لا يغير الجوهر وهو أن سجاح كانت زعيمة في قومها ، ومتنبئة ، وقائدة مطاعة . نشأت سجاح بين أخوالها بني تغلب ، وتنصرت مثلهم (٤) ، فلما كانت السنة الحادية عشرة للهجرة تنبأت بعض العرب ، وارتد بعضهم ، ووضعوا التيجان على رؤوسهم ، وامتنع قوم من دفع الزكاة ، فتنبأت سجاح في بني تغلب ، وخرجت بجمع منهم — الهديل ابن عمران — إلى بلاد بني تميم فلقبها بنو حنظلة وصدقوها ، وأجمع بنو تميم على نصرتها ، وفيهم بعض سادتهم كالأحنف بن قيس وحارثة بن بدر والزبرقان بن بدر وعطار بن حاجب وغيرهم من سادة تميم .

وكان فيما أغرتهم به أن الله لم يجعل هذا الأمر في ربيعة ، وإنما جعله في مضر ، وأن تيمما تعدل قريشاً في السيادة والشرق لأنهما معا من مضر ، وادعت أنه أنزل عليها (يأيها المؤمنون الممتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يبيعون) (٥) . فعلى المضريين أن يقصدوا جموع ربيعة ويفضوها ، ثم يكرؤا على قريش ويغلبوها .

وراجت دعوتها ، وانضم إليها عدد كبير من إباد وتميم ، ومن القبائل العربية النصرانية بالجزيرة (٦) ؛ ثم سيرت جمعاً إلى بني ضبة من الرباب ، وسارت بجميع آخر من التغليبين والنمر بن قاسط إلى تيم وعدى وثور ، ثم اتجهت إلى اليمامة (٧) .

وراسلت مالك بن نويرة ، ودعته إلى الموادة فأجابها ، ونهاها عن غزوها بني تميم فأجابته وقالت : نعم فشأنك بمن رأيت ، وأنا امرأة من بني يربوع ، وإن كان ملك فهو لكم (٨)

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٣ (٢) الأغاني ١٤/ ٦٤ وفتوح البلدان ١٠٦

(٣) أوائل الأوائل لأبي هلال ٢٢٢ مخطوط (٤) فتوح البلدان ٩٩ ودائرة المعارف الإسلامية

٣٢٩/٥ (٥) الأغاني ١٨/ ١٦٦ (٦) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٦٧ (٧) أوائل الأوائل

٢٢٢ مخطوط وتاريخ البعقوني ٢/ ١٤٤ والأغاني ١٨/ ١٦٥ (٨) الأغاني ١٤/ ٦٤

ولما أيقنت من قوتها وسيطرتها على هذه القبائل بعد أن هُزمت مرتين ^(١) أرادت أن تقضى على منافسها مسيلمة ، فتوجهت إليه لتحاربه ؛ وعزمت على أن تشخص بعد الانتصار عليه إلى أبي بكر وقريش . ولما بلغ خبرها مسيلمة ضاق ذرعا وتحصن في حصن اليمامة ، فلما أحاطت به استشار قومه فيما يفعل ، فأشاروا عليه أن يسالمها ويدع لها الأمر وإلا هلكوا جميعاً ^(٢) ولكن لقاءها لمسيلمة كان مغرب مجدها المأمول . فقد تزوجته . وجعلت دينه ودينها واحداً . وآمنت به . ويروون في ذلك روايات تحمل في طياتها عناصر الشك فيها ^(٣) . فلما غزا خالد بن الوليد اليمامة وقتل مسيلمة وأسر قيس بن عاصم مؤذن سجاح فرت إلى بني تغلب بالعراق ^(٤) . يائسة من تحقيق أحلامها بعد أن ظفر خالد بالمرتدين . وبعد أن قتل أكبر حلفائها مالك بن نويرة .

وقيل إنها أسلمت وهاجرت إلى البصرة ، وحسن إسلامها ، وصلى عليها سمرة بن جندب الفزارى وإلى البصرة من قبل معاوية قبل ولاية عبيد الله بن زياد ^(٥) . وفي سجاح يقول مؤذنها قيس بن عاصم :

أُصْحَتْ نَبِيَّتِنَا أَثَى نَظِيفُ بِهَا وَأَصْبَحْتَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذَكَرَانَا ^(٦)
ولا شك أن سجاح لم تُدع النبوة في أخوالها وقومها ، وأنهم لم يلتفوا بها هم وغيرهم من المرتدين إلا وهي جديرة في نظرهم بهذه الزعامة الدينية والسياسية .

المرأة تحارب

١ — اشتركت المرأة في الحروب اشتراكاً عملياً ، فكانت تضرب الأعداء بالهراوى ، وتساعد قومها على النصر ^(٧) ، وقد رمت النساء الخزرجيات الأوس بالحجارة من فوق الآطام في حرب حاطب ، وفيهن يقول قيس بن الخطيم :

أُوَيْتَ لَعُوفٌ إِذْ تَقُولُ نِسَاؤُهُمْ وَيَرْمِينَ دَفْعاً لَيْتَنَّا لَمْ نَحَارِبْ ^(٨)
بل لقد كانت تقدم حيث يحجم الرجل ، وتشجع حين يجين ، ففي يوم أحد سقط لواء قريش ، فلم يتقدم لرفعه أحد ، وشمرت هند بنت عتبة وصواحبها ليهربن ، فتقدمت عمرة

(١) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط . هزمت بنو ضبة جموع بني حنظلة الذين أوفدتهم إليهم سجاح ، وقتلها بنو تميم وعدى وثور حين سارت إليهم فتالاً شديداً (٢) الأغاني ١٨/١٦٦

(٣) الأغاني ١٨/١٦٥ - ١٦٦ (٤) الكامل لابن الأثير ٢/٢٧١ والأغاني ١٨/١٦٦

(٥) فتوح البلدان ٩٤ و١٠٦ والأغاني ١٨/١٦٧ (٦) الأغاني ١٢/١٥٠

(٧) كتاب بكر وتغلب ٨٣ (٨) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ والمغازي ٢٠٩ أويت لهم :

بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فراجع المشركون واجتمعوا حولها ، واثنتفوا القتال : وفيها يقول حسان بن ثابت :

فولا لواء الحارثية أصبـحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب^(١)

وقد شهدت هذه الموقعة نسبية بنت كعب المازنية أم عمارة هي وزوجها وابناها فقاتلت يومئذ قتالا شديداً وأبلى بلاء حسناً ، حتى قيل إنها جرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة رمح وضربة سيف ، ولما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله وجعلت تقاتل عنه وتذب بسيفها ، وترمي دونه بقوسها حتى كثرت جراحها ، وأصابها عمرو بن قميصة بجرح غائر في عاتقها ، وأصابته هي إصابات ، ولم يقه منها إلا درعان كانتا عليه . ورأى النبي بلاءها ، فأعجب بها ، وقال : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ وفي حديثها عن هذا اليوم : وأقبل الرجل الذي ضرب ابني فقال رسول الله : هذا ضارب ابنك . فاعترضت له ، فضربت ساقه فبرك ، فرأيت الرسول تبسم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقدت يا أم عمارة . ثم أقبلنا على الرجل نعلوه بالسلاح حتى أتينا عليه ، فقال النبي : الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك تارك بعينك .

وهي نفسها قد أصيبت يمنها في موقعة اليمامة وجرحت جراحات^(٢) . ولما انهزم المسلمون في يوم أحد وولى بعضهم ولقيتهم أم أيمن ناكسين حثت في وجوههم التراب ، وقالت لبعضهم : هناك المغزل اغزل به ، وهات سيفك . وقصدت إلى أحد مع بعض النساء^(٣) .

وقد جرئت صفية بنت عبد المطلب على ما رهبه حسان بن ثابت ، ذلك أن نساء المسلمين كن في الحصون يوم الخندق ، وكانت صفية في قارع — حصن حسان — وتحدثت صفية فقالت : وكان معنا حسان ، فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وكان بنو قريظة قد غدروا بالرسول وحاربوا مع المشركين ، فقلت يا حسان : إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . فقال : يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزت ، وأخذت عموداً

(١) سيرة ابن هشام ٢٥/٣ وزاد المعاد ١٣١/٢ وتاريخ الطبري ١٧/٣ والمغازي ٢٠١ والسكامل لابن الأثير ٦٣/٢ وديوان حسان ١٣ الجلائب : العبيد (٢) المغازي ٢٦٣ و٢٦٦ وزاد المعاد ١٣١/٢ والإصابة ١٩٩/٨ وسيرة ابن هشام ٣٠/٣ و٧٥/٢ وفتوح البلدان ٩٩ (٣) المغازي ٢٧٢

ونزلت من الحصن إلى اليهودى فضربتته حتى قتلتته، فلما فرغت منه رجعت إلى حسان فقلت : انزل إليّ فأسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . قال : مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب ^(١) . وروى الواقدي أن صفية رأت يهوداً جاءوا ليهجموا على الحصن ، فأشارت على حسان أن يحاربهم فامتنع ، فلما رأت يهودياً يصعد إلى الحصن قالت لحسان : شد على يدي السيف ، فضربت عنق اليهودى ، ثم رمت برأسه إليهم فانكشفوا ^(٢) .

ومن نغار المرأة أن يتحلحل كثير من الرجال فلا تتحلحل مثلهم ، بل تثبت ، وتشير على القائد أن يضرب أعداءه سواء بسواء ، ذلك أنه في غزوة هوازن كان المشركون قد تهيئوا وأعدوا ، وسبقوا المسلمين إلى الوادى فكمّنوا لهم في شعبه وأحنائه ومضايقه ، فشددوا على المسلمين ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ذات اليمين ، ثم قال : أين أيها الناس، هلموا إلى - أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله . ولكن نداه لم يُجد شيئاً ، وبقي رسول الله في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، واغبتبط المنافقون أيما اغبتباط حتى قال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وصرخ كلدة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم . ثم صرخ فيهم العباس فاستجاب له مائة من الفارين .

في هذا الهول الشديد والمأزق الضيق المبيد التفت رسول الله فرأى أم سليم بنت ملحان — وكانت مع زوجها أبي طلحة — وهى حازمة وسطها ببرد لها ، ومعها جمل زوجها ، وقد خشيت أن يعزّها الجمل فأدنت رأسه منها وأدخلت يدها في خزامته مع الخطام ، فقال لها الرسول : أم سليم ؟ قالت : نعم يا أبا أنت وأُمى يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين يهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل . وكان معها خنجر ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به . فقال : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟ ^(٣) .

وقد حاربت نسوة كثيرات بالسيوف والرماح ، منهن الربيع بنت معوذ بن عقبة الأنصارية ^(٤) ، وصفية بنت عبد المطلب ^(٥) ، وخولة بنت الأزور ^(٦) . وهؤلاء اللاتي حاربن في مشرق الإسلام كأخواتهن اللاتي حاربن في الجاهلية ، دليل على بطولة المرأة العربية وقدرتها على أن تصطلي نار الحرب ، وتمارس أحياناً ما يمارس الرجال .

(١) تاريخ الطبرى ٥٠/٣ والاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة ١٩ مخطوط وسيرة ابن هشام ٢٤٦/٣ والأغانى ١٦٤/٤ (٢) المغازى ٢٨٢ (٣) سيرة ابن هشام ٧١/٤ — ٧٥ وتاريخ الطبرى ١٢٩/٣ (٤) الإصابة ٨٠/٨ (٥) المغازى ٢٨٢ (٦) الدر المنثور ١٨٥

وما من شك في أن هؤلاء المسلمات اللاتي ناغفن عن عقيدتهن وحاربن كما يحارب الرجال — قد جرّين على خلق أصيل في نفوسهن منذ الجاهلية، جاء الإسلام فزاده وقواه؛ لما بث في النفوس من حماسة دينية، وبما أعد للمجاهدين من مثوبة ورضوان . فليس من الحق أن ندعى أن الإسلام قد صاغ من الجبانة شجاعة في بضع سنوات ، لأن هذا مخالف لسنة الحياة، ولأن المرأة التي لم تسلم كانت تحارب وتقود الجيش في مستهل الإسلام وفي حرب الردة، وكانت تمارس ذلك قبل الإسلام، فمن أين جاءتها شجاعته إن كان الإسلام هو الذق شجع المرأة المسلمة وأغراها بالقتال ؟

٢ — وبعد فقد حققت بعض النساء العربيات باشتراكهن في الحرب ما كان يتخيله أفلاطون في جمهوريته وما كان يريده، فقد فرض الجندية على المرأة، وأشركها مع الرجل في حماية الوطن والقتال دونه، وذلك في رأيه خير من أن تعيش كلاً على الرجال المقاتلين يحمونها من السبي^(١)، لذلك سوى بين الفتيات والفتيان في طرائق التربية وفي الواجبات الوطنية، وقال في جمهوريته: « ليس للرجال في إدارة أعمال الحكومة واجبات خاصة، وليس للنساء واجبات خاصة، وإنما واجبات الرجال هي واجبات النساء، فإن الطبيعة قد سوت بينهما في المواهب، وما المرأة في الحقيقة إلا رجل ضعيف » وقال أيضاً: « أترانا نفرق بين إناث الكلاب وذكورها فنخرج الذكور وحدها للصيد ونكلفها وحدها حراسة الأغنام، وندع الإناث في المنازل بحجة أن الحمل والإرضاع يحولان بينها وبين مشاركة الذكور في الصيد والحراسة؟ حقاً إننا لا نفعل ذلك، فيجب أن تتعلم الإناث الأعمال العسكرية والرياضة البدنية، ويعاملن معاملة الرجال، لأن التباين العقلي بين المرأة والرجل موجود مثله بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة، فهو تباين في الجنس الواحد أيضاً^(٢) .

لا أريد من ذلك أن أدعو إلى أن تستوى المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات والأعمال، وإنما أريد أن أبين أن بعض النساء العربيات قد حققن بعض ما يريده أفلاطون ويتمثله النظام الأسمى للمجتمع الخيالي الذي ينشده، في حين أن خياله هذا لم يتحقق في بلاد اليونان نفسها .

(١) جمهورية أفلاطون ١٣٩ و ١٢٤

(٢) جمهورية أفلاطون ١٢٥ — ١٣١ و ١٣٩ و ٢٠٩ وتاريخ التربية لمصطفى أمين ٨٩ .

المرأة والثأر

هذه الحروب المتوالية لا بد أن تنجلي عن قتلى وجرحى وأمرى وأسلاب ، ولا بد أن يعقب هذا في نفس المهزوم والموتور حفيظة وموجدة لا يطفئها إلا أن يثأر ، وكان العرب كلفين بالثأر جد الكلف ، لقد كانوا يحرمون على أنفسهم النساء والخمر والطيب حتى يثأروا ، حتى لقد كان القريب يثأر من قريبه ، وكان قبول الدية عاراً لا يرضاه إلا الأذلاء ^(١) . وقد كان للنساء شأن عظيم في الثأر .

١ — فكن يقرعن المنهزمين تقرعاً يزيد الهزيمة ألماً ، ويبتعث الحمية للثأر ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة بن مكرم جمعا من قومها :

ألا هل أتاها على نأيهما بما فضحت قومها غامد
تمنيـــــــــــــــــتم ماتي فارس فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيو ل ضاناً لها طالب قاعد ^(٢)

٢ — وكن لا يفتان يحرضن على الثأر بالقول الملهب ، المثير ، وطالما نفرن من قبول الدية أيما تنفير . قالت كبشة أخت عمرو بن معيد كرب الزبيدية تحرض قومها على أن يثأروا لأخيها عبدالله — وقد هم أخوها عمرو أن يقبل الدية ، أوهى توهمت أنه سيقبلها — أبياتاً على لسان القليل كأنها وصية لهم لتزيدهم جداً في الثأر له ، ولتحتاج حميتهم ، نهمهم فيها عن قبول الدية وعن طاعة عمرو ، ثم هاجت نخوتهم بأنهم إن لم يثأروا نعام مجدوع الآذان ، حقراء لا يستحقون أن يردوا الماء إلا بعد النساء الحيض :

وأرسل عبدالله إذ حان يومه إلى قومه لاتعه — لوا لهم دمي
ولا تأخذوا منهم إفاًلاً وأبكرأ وأنزل في بيت بصعدة مظلم
ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فإن أنتم لم تثأروا واتديــــــــــــــــتم فمشوا بآذان النعــــــــــــــــام المصلــــــــــــــــم
ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم ^(٣)

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢١٠ — ٢١٧ الطبعة الثانية .

(٢) البيان والتبيين ٢٠٨/١ وبلاغات النساء ١٥١

(٣) حماسة أبي تمام شرح التبريزي ٢١٧/١ وحماسة البحتري ٣٠ والأمالى ٢٢٦/٢ لا تغفلوا دمي :

لا تأخذوا بدله دية . الإفال : صفار الإبل . الأبكر : فتیان الإبل . صعدة : مكان باليمن . اتديتم : قبلتم الدية . مشوا : امشوا . المصلم : المقطوع الآذان . ارتملت : تلطخت .

وحسنت بنت حكيم العبيدية قومها على أن يثأروا من ربيع قاتل أبيها ، فقالت لهم :
عجلوا بقتله وإلا فأنتم نساء ، وربيعة ربكم فاسجدوا له ، وما أنتم إلا حقراء ضعاف كقصار
المعيز وقباحها :

أيرجو ربيع أن يثوب وقد ثوى حكيم ، وأمسى شلوه بمطبق
فإن كنتم قوماً كراماً فعجلوا له جرأة من بأسكم ذات مصدق
فإن لم تنالوا نيلكم بسيوفكم فكونوا نساء في الملاء المخلق
وقولوا ربيع ربكم فاسجدوا له فما أنتم إلا كمعزى الحبلى (١)
واستشارت هند الجلاحية قومها بأنهم عبيد إن لم يثأروا :
فإن لم يثأروا من قد أصـ ابوا فكانوا أعبدا لبـنى كلاب (٢)
وكثيراً ما حرصت الخنساء على الثأر لأخيها صخر ، كقولها :

ولن أسالم قوماً كنت حربهم — م حتى تعود بياضاً جؤنة القـار
لأنوم حتى تع — ود الخيل عابسة ينبذن طرْحاً بمهرات وأمم — ار
أو تحفزوا حفزة والموت مكنتع عند البيوت حصيناً وابن سيار
فتغسلوا عنكم عاراً يجلكم غسل العوارك حيضاً بعد أطهار (٣)

ولقد تعمد إلى كلام مثير يشغز المتواني عن الثأر بعجزه ، ليدفع التهمة عن نفسه
بالجد في الثأر ، كما قالت ريحانة بنت معد يكرب لابنها دريد بن الصمة بعد أن مر حول علي
مقتل أخيه عبد الله :

يا بني إن كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد — تعنى
عمرو بن معد يكرب الزبيدي — ، فأنف ابنها من ذلك ، وحلف ألا يكتحل ولا يدهن
ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأ حتى يدرك ثأره ، فغزا غطفان وقتل من
بني عبس وفزارة وبني مرة وبني ثعلبة ، وكان ذلك يوم الغدير ، وجاء إلى أمه بذؤاب
ابن أسماء فقتله بفنائها ، وقال : هل بلغت ما في نفسك ؟ قالت : نعم متعت بك .
وقد نخر بفعاله في عدة قصائد (٤) .

(١) حماسة البحرى ٣٥ مطبق : قبر . المخلق : المطيب . الحبلى : قصار المعزى ودمامها

(٢) الأغاني ١٢٢/٢٠ (٣) ديوان الخنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تطفنوا . مكنتع :

دان . حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار من بني مرة . العوارك : الحوائض

(٤) الأغاني ٦/٩ و ٢٦/١٤

٣ — ولقد يهجن النخوة للثأر بالمظهر المشير ، كما فعلت خويلة عجوز بني رثام ، فقد حدثوا أنه كان لها أربعون رجلا من إخوتها وأخوتها ، وكانت عقيما ، فهي ترى هؤلاء جميعاً بنديها ، ثم إن بني ناعب وبني داهن تظاهروا على بني رثام — وهم جميعاً من قضاة متجاورون بين الشجر وحضر موت — فقتلوا منهم ثلاثين رجلا ، فهلعت خويلة هلعاً شديداً ، وبالع الرواة فزعموا أنها عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ونظمت منها قلادة وألقته في عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمرضاوى بن سعوة المهري وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائها ، وأنشدته قصيدة منها :

ياخير معتمد وأمنع ملجأ وأعز منتقم وأدرك طالب
جاءتك وافدة الشكلى تَغْتَلِي بسوادها فوق الفضاء الناصب
فابرد غليل خويلة الشكلى التي رُميت بأثقل من صخور الصاقب
وتلاف قبل الفوت ثأرى إنه علق بثوبى داهن أو ناعب

فاحتاج ابن أختها ، وخرج في منسر من قومه ، فطرق ناعباً وداهنا وأوجع فيهم ^(١) .

٤ — ولقد يبلغ بها الحنق حدا يقرب من الوحشية ، بل هو ضرب من الوحشية ، ففي غزوة أحد لما التقى الجمعان حرّضت هند بنت عتبة وصواحبها الرجال على الاستبسال ^(٢) . وكانت هند تحرض وحشياً على أن يقتل حمزة ، وكلها مرت به قالت له : وبها أبا دسمة ، اشف واشتف ^(٣) . وكان وحشى هذا عبداً لجبير بن مطعم بن عدى ، فقال له جبير : قد علمت أن حمزة قتل طعيمة بن عدى يوم بدر ، فخرنت نساؤنا أشد الحزن ، فإن قتلته فأنت حر ^(٤) ولم يكف هنداً ما ذاقته من حلاوة النصر والثأر ، فشرعت هى ومن معها يمثلان بالقتلى من المسلمين ، فيجد عن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند منها خدماً وقلائد ، ثم لم يشف ذلك ما بنفسها من موجدة فبقرت بطن حمزة ، واقطعت فلذة من كبده ولاكتها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها .

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدرى ^(٥)

(١) الأمالى ١٢٧/١ الصاقب : جبل معروف (٢) سيرة ابن هشام ١٣/٣ (٣) سيرة ابن هشام ٦/٣ (٤) شرح نهج البلاغة ٣٨٦/٣ (٥) سيرة ابن هشام ٤٢/٣ والمغازى ٢٦٩ وتاريخ الطبرى ٢٣/٣ والطبقات الكبير ٤/٣ سعر : سعي وأصله بضم العين . عتبة : أبوها . أخى : الوليد بن عتبة . بكرى : حنظلة بن أبي سفيان . عمى : شيبه بن ربيعة . وهؤلاء الأربعة قتلوا يوم بدر

ولم أجد من المؤرخين من يدفع هذه التهمة عن هند أو يخالف الآخرين في جوهرها ، فليس يجدى دفاع ميور *muir* عنها ، ولا تكذيب لا مانس *Lammans* للمؤرخين ، لأنهما لا يعتمدان على دليل . يقول ميور : إن مؤرخى السيرة قد بالغوا في تصويرها بمحنة متبررة ^(١) . ويذهب لا مانس إلى أبعد من ذلك ، فيدعى أن كتاب السيرة زعموا أن شريفات قرشيات شاركن في غزوة أحد ، وفسحوا المجال لادعاء كاذب أن هنداً مثلت بحسد حمزة ، وهو ادعاء اخترعه أنصار العباسيين ^(٢) . وهى تشبه فى قصتها هذه أم هكطور ، على أن أم هكطور تمت أن تأكل كبدا أخيل ، ووفقت عند حد التنى :

من لى بذا السفاك أقضم كبده قضمًا فلا أبقي عليه ولا أذر ^(٣)

ه — وإذا كان الرجال قد حرموا على أنفسهم النساء والخمر والطيب حتى يثأروا فإن النساء أشبهنهم فى ذلك ، فقد حرمت هند بذت عتبة على نفسها أن تبكى قتلاها الأربعة فى يوم بدر حتى تثار من النبي وأصحابه ، وحرمت على نفسها الطيب حتى تغزو النبي والمسلمين ، ولم تقرب فراش أبي سفيان من يوم أن حلفت رأسها حزناً على قتلاها حتى كانت وقعة أحد ^(٤) . وهن أشبهن الرجال أيضاً فى أن الثأر يشفى بعض حزنهن ، ويكفكف من جفيعتهن ، لذلك يطربن له ، وينتشين به ، ويكافئن الثائر ، ففى يوم أحد منحت هند بذت عتبة وحشياً ثيابها وخدمتين من جذع ظفاز كانتا فى ساقها ، ومسكتين وخواتم من ورق كن فى أصابع رجلها ^(٥) . ووعده أن تعطيه عشرة دنائير إذا عاد إلى مكة ^(٦) . كذلك أشادت الحنساء بقيس بن عامر بن الأمرار الجشمى لأنه قتل هاشم بن حرملة قاتل معاوية بن صخر ، وفدته بنفسها وبأعزائها جميعاً ، وبينى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ؛ لأنه أقر عينها فنامت بعد أرق طويل :

أفديه بمن لى من حميم	فدى للفراس الجشمى نفسى
بظاعنهم وبالأنس المقيم	أفديه بـ كل بنى سليم
وكانت لا تنام ولا تنم	كما من هاشم أقرت عيني
فتى فى بيت مكرمة كريم ^(٧)	خصصت بها أخوا الأمرار قيساً

Muir, The Caliphate, its rise, Decline and Fall. 3—129 (١)

H. Lammans L'arabie occidentale avant L'Hagire P. 124 (٢)

(٣) الإلياذة ١١١٥ (٤) المغازى ٣٢٤ (٥) شرح نهج البلاغة ٣/٣٨٦ (٦) المغازى ٢٧٩

(٧) ديوان الحنساء ٢٣١ ولسان العرب ٧٨/١٦ والأغانى ١٤٠/١٣ وبلاغات النساء ١٦٧

الحميم : القريب والإخوة وبنو العم والعشيرة . الأنس : الحى المقيمون

وتحدثت صفية بنت الخرج عن فرحتها لما قتل عبد يغوث بالنعمان بن جساس فقالت
لقد أخذنا شفاء النفس لو شُفيت وما قتلنا به إلا امرأ دونه (١)
وقد بقيت بغضة المرأة لواترها ، وتلفهها على الثأر منه إلى ما بعد العصر الجاهلي (٢)

المرأة جاسوسة في الحرب

تصطنع الدول في حروبها الحديثة جواسيس من الرجال ومن النساء . ولقد يكون النساء
أقدر من الرجال على تلميط الأنباء ، وتعرف الدخائل ؛ لأنهن يتذرعن بجملهن وبمكرهن
ودهائهن ، وبالرغبة في حدثهن ، فيبلغن ما لا يبلغ الرجال .
وقد عرف العرب الجاسوسية وتذرعوا بالنساء لمعرفة ما خفي عليهم من أنباء العدو .
من ذلك أن رجلاً من غنى قتل شاس بن زهير العبسي ، وأنكر بنوغى أن يكونوا هم القتلة ،
فأرسل زهير امرأة إليهم على أنها تاجرة ، وأمرها أن تكتم نسبها ، وأن تتعرف خبر ابنه
شاس ، فاتصلت بنساء غنى ، وعرفت من إحداهن أن زوجها هو قاتل شاس ، ثم عادت إليه
فأخبرته ، فأغار عليهم (٣) .

وقد اصطفى حاطب بن أبي بلتعة ساورة المزنية ، وقيل إنها كانت مولاة لبني عبد المطلب ،
وأرسل معها كتاباً إلى قريش بمكة ، يحذرهم المسلمين ، وجعل لها جعلاً على ذلك ، فوضعت
الكتاب في رأسها ، ثم قتلت عليه قرونها وخرجت به ، فبعث رسول الله وراها على
ابن أبي طالب وأبا مرثد والزبير ، فأدركوها تسير على بعير لها ، فقالوا لها : أين الكتاب ؟
فأنكرت ، فأناخوا جملها ، والتسوا الكتاب معها فلم يجدوه ، فهددوها أن يجردوها إن لم
تخرجه ، فلما رأت إصرارهم أخرجه من قرون رأسها أو من حجزتها ، فانطلقوا به إلى
رسول الله (٤) .

الظعن في الحرب

١ — كان المحاربون كثيراً ما يصطحبون معهم نساءهم في الحروب ، ففي يوم ذي قار
استصحب العرب ظعنائهن ، وأمر حنظلة بن ثعلبة أن تقف الظعن خلف الناس ، ثم قال :
يا معشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم . ثم قام إلى وذين راحلة امرأته فقطعه ، وتبع

(٢) بلاغات النساء ١٢٨ و ١٣٠

(١) الأغاني ٧٣/١٥

(٣) الكامل لابن الأثير ٢٠٠/١ (٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٠٥/١ وفتح الباري

٢٣٧/٧ وتاريخ الطبري ١١٣/٣

الظعن بقطع وضمنهن ، فسمى مقطع الوُضْن ^(١) ، وحاكاه العرب ، فقطعوا وضمن نسايتهم حتى يقتسروا أنفسهم على الثبات ، دفاعاً عن الحرائر اللاتي لا يستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها .

وكان لقيط بن زُرارة يغزو ومعه ابنته دُخْتَنُوس ^(٢) .

وفي يوم التحالق كانت مع عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس أمه على ناقة لها ، فلما توسط الثنية ضرب عرقوبى الناقة ، ثم انتضى سيفه وقال : والله لا يجرى رجل من بكر بن وائل إلا ضربته بالسيف ^(٣) .

وفي يوم فيف الرياح بين عامر بن صعصعة وبين الحارث بن كعب وحلفائها أقبلت مذحج ومعهما النساء والذراري حتى يشجعنهم على القتال والثبات ^(٤) .

٢ — وقد حدثت السيدة عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يخرج في سفر أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ^(٥) .

وفي غزوة أحد بعث النبي الحباب بن المنذر ليحزر له قريشاً ، ولما عاد سأله : هل رأيت ظعنأ ؟ قال : رأيت النساء معهن الدفاف والطبول ، فقال رسول الله : أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر ^(٦) . وقد تحقق ما توقعه ، فإن قريشاً خرجت وخرج معها أحلافها ، واصطحب كثير من القرشيين نساءهم . فكانت هند وضرتها أميمة بنت سعد مع زوجها أبي سفيان ، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام مع عكرمة بن أبي جهل ، وفاطمة بنت الوايد بن المغيرة مع الحارث بن هشام ، وبرزة بنت مسعود الثقفية وضرتها البغوم بنت المعذل مع زوجها صفوان بن أمية ، وريطة بنت منبه مع عمرو بن العاص ، وسلافة بنت سعد مع طلحة بن أبي طلحة . وكانت خناس بنت مالك مع ابنها أبي عزيز بن عمير الخ وكانت عمرة بنت علقمة وحدها ^(٧) .

وما زالت المرأة العربية ترافق المحاربين إلى خلافة عثمان ^(٨) .

(١) أوائل الأوائل ٢٣٥ مخطوط وتاريخ الطبري ١٥٤/٣ والأغاني ١٣٦/٢٠ والنقائض ٦٤١

الوضن : جمع وضين وهو حزام الرجل (٢) السكامل لابن الأثير ٢١٢/١

(٣) شرح التبريزي للحماسة ٣٤/٢ (٤) السكامل لابن الأثير ٢٣١/١

(٥) فتح الباري ٥٨/٦ والزبيدي ٢٦٣/٢ وسيرة ابن هشام ٢٤٢ (٦) المغازي ٢٠٧

(٨) سيرة ابن هشام ٦/٣ والمغازي ٢٠١ والسكامل لابن الأثير ٦٣/٢ وتاريخ الطبري ١٠/٣

والأغاني ١٢٠/١١ وشرح نهج البلاغة ٣٥٩/٣ (٨) فتح الباري ٥٧/٦

أثر الظعائن

١ — كن يهجن حماسة الرجال ، ويحفزنهم إلى المخاطرة والاستبسال ، فيقاتل الرجل حتى الموت ، حماية لنفسائه اللاتي كن يصاحبن القبيلة في الحروب العظيمة ، ويقمن خلف صفوف القتال ، ^(١) . وكن يحمن بضروب شتى ، فمن أحياناً يلهن العواطف بأناشيدهن المشجعة ، كأنهن قواد يسكبون في قلوب الجنود حميا البطولة . وأحياناً يضربن على الدفوف كأنهن فرقة موسيقى حربية ، وتارة يثرن إقدام الرجال بنظراتهن إلى بلائهم ، وشهودهن إقدامهم . والرجال منذ كانوا وكانت النساء — يبذلون في محضرهن من أفانين البطولة والشهامة حيث تراد البطولة والشهامة ، ومن ضرب البراعة والكياسة واللباقة حيث تطلب البراعة والكياسة ما لا يبذلون في مغيب النساء .

كان تشجيع النساء للمقاتلين عرفاً عاماً بين العرب ، حضريهم وبدويهم ، ملوكهم وغير ملوكهم ، فإن الحارث بن أبي شمر الملك الغساني ^(٢) . في حربه مع المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في يوم حليمة وجد أن الحرب قد قامت بينهما أياماً وهي سجال ، فأمر ابنته أن تطيب جنوده ، ثم نادى : يا فتیان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي ، فاستشاط لبيب بن عمرو الغساني شجاعة ، وشد على المنذر فقتله ، ثم قاتل فقتل ^(٣) .

والمؤرخون مختلفون في اسم بنت الملك ، أهى هند ^(٤) أم حليمة ^(٥) ، ويرجح نولدكه أن حليمة اسم مكان لا اسم امرأة ، مستدلاً بما ذكره ياقوت والبكري ^(٦) . وبأن النابغة يذكر يوم حليمة في الأيام التي كان يفاخر بها الغساسنة السابقون للحارث ، ويستنتج أن يوم حليمة هو يوم الحيار ^(٧) ، وهو الذي ذكره الحارث بن حلزة في معلقته .

وهو الرب والشهيد على — م الحيارين والبلاء بلاء ^(٨)

وكان ذلك حوالي ٥٤٤ م ^(٩) .

(١) Nicholson P. 82

(٢) يرى نولدكه أنه الحارث بن جبلة (أمراء غسان ٢٢ نولدكه) وهو نفسه الحارث الأعرج (ابن الأثير ١/٢٢٣) (٣) السكامل لابن الأثير ١/٢٢٣ (٤) ابن الأثير ١/٢٢٣ وأمراء غسان لنولدكه ١٩ (٥) ابن الأثير ١/٢٢٥ وجمع الأمثال ٢/٢٠٢ والمعارف ٢٨٠ وأمثال العرب للضي ٧٩ (٦) معجم ما استعجم للبكري ٢٨٢ ومعجم البلدان لياقوت ١٣/٢ و٣٢٥ (٧) أمراء غسان لنولدكه ١٩ — ٢٠ (٨) شرح الفصائد العشر للتبريزي ٢٦٨ الحياران : بلد ، وقال ابن الأنباري بلدان ، وقال صاحب القاموس موضع وكذلك قال صاحب اللسان وذكر هذا البيت (٩) أمراء غسان ١٩

والعرب قد ضربوا المثل بيوم حليلة فقالوا : ما يوم حليلة بسر^(١) ، والنابعة قد ذكره في مدح الغساسنة إذ قال في سيوفهم :

تُخَيِّرُنْ من أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جُرِّبْن كل التجارب
وذكر بعض الشعراء في نفيهم بانتصار الغساسنة في هذا اليوم أن هند طيبت الجنود ونص على أن حليلة اسم واد :

يوم وادي حليلة وازدلفنا بالعناجيج والرماح الظمـاء
وأنت هند بالخُلُق إلى من كان ذا نجدة وفضل غناء^(٢)
ولما كانت حرب بين إياد وكسرى أنوشروان حمست هند بنت طارق بن بياضة قومها بقولها :

نحن بنات طارق نمشي على النمـارق
والمسك في المفـارق مشى القطـاء النـواثق
إن تقبلوا نعـانق ونفـرش النمـارق
أو تدبـروا نفـارق فراق غـير وامق^(٣)

حمست بهذا القول ابنة الفند الزماني قومها في يوم تحلاق اللهم^(٤) ، ثم شجعت به عربية قومها في يوم ذي قار^(٥) ، وفي يوم أحد حمست به قريشاً هند بنت عتبة وصواحبها^(٦) وحسن بقولهن أيضاً .

ضرباً بني عمد الدار ضرباً حمـاة الأدبار
ضرباً بكل بـة ـ ار^(٧)

(١) الميداني ٢٠٢/٢ وأمثال العرب للضيبي ٧٩ وتهذيب الكامل ١٦١/٢ (٢) الكامل لابن الأثير ٢٢٣/١ العناجيج : جواد الخيل والإبل . (٣) معجم ما استعجم ٧٠/١ النواتق : الكثيرات الولادة . (٤) شرح الحماسة للتبريزي ٣٥/٢ والأغاني ١٤٤/٢٠ (٥) النقائض ٦٤١ ولسان العرب ٨٧/١٢ والمعاني الكبير لابن قتيبة ٥٣٠/١ والمغازي ٢٠٦ وأشعار النساء للمرزباني ٥٧ مخطوط وتاريخ الطبري ١٥٣/٢ وشرح نهج البلاغة ٣٦٦/٣ . وفي النقائض ٣٦٨ أن يوم ذي قار هو يوم قراقر وبوم الحنو حنو قراقر وحنو ذي قار وهو أيضاً يوم الجبايات وبوم ذات العجرم وبوم الغدوان والبطحاء وكل هذه الأسماء ذكرها الشعراء . (٦) تاريخ الطبري ١٥/٣ والفاخر للسكوفي ١٩ والمعارف لابن قتيبة ٢٢٣ والأغاني ١٢٠/١١ (٧) سيرة ابن هشام ١٣/٣ والمغازي ٢٢٤ والأغاني ١٦/١٤

وإذا صح أن هند بنت طارق أول قائلة للرجز الأول وأن هؤلاء قد تغنين به في الحروب ، فانه إذا تدرج هذا التدرج التاريخي ، لأن النساء أعجبن به فردنه في حرب بعد حرب .

على أنه في يوم تحلاق اللمم أثارت بنت أخرى للفند الزمانى قومها بقولها :

وغى وغى وغى وغى حراً الحرار والتهـ ظى
وملئت منه الربا يا حبذا المحلقون بالضحا (١)

ولقد كان الإنشاد يصحب أحيانا بتبكيك الفارين ، ففي يوم حضرة الوادى بين دوس وبني الحارث جعلت البنات الأربع لخالد بن ذى سبلة يحضضن على الثبات والإقدام ، فإذا رجع إليهن رجل فار أعطينه مكحلة وبجمره وقلن : معنا فانزل . أى أنك من النساء . وجعلت هند ترتجز بقولها .

من رجل ينازل الكتيبة فذلكم ترؤو له الحبيبة (٢)

وهذا التحميس كثير في الجاهلية (٣) ، وبقي إلى صدر الإسلام ، فقد حرضت الحنساء بنيتها الأربعة على الاستبسال في حرب القادسية ، وكان لتحريض النساء أثر عظيم في حرب على ومعاوية

٢ — وإن الشعر لحافل بتصوير الحماسة التي كانت تمشى في نفوس الرجال من الطعان ، وحافل بالفخر بحمايتهم من السبي ، ولطالما أشهد الشجعان النساء على بلائهم المجيد الذى أبلوا . يقول سلامة بن جندل :

ألا هل أتى أنباؤها أهل مأرب كما قد أتت أهل الدباء والخورنق
بأنا منعنا بالفروق نساءنا ونحن قتلنا من أتاناً بملزق (٤)

ويقول عمرو بن كلثوم في ذلك أبياته المشهورة :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
ظعان من بنى جشم بن بكر خلطن بمسيم حسباً وديننا

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٣٧/٢ (٢) الأغاني ٥٣/١٢ وفي الأصل تزنى به
(٣) أيام العرب ١٧٩ وشعراء النصرانية ٢٤١ (٤) ديوان سلامة بن جندل ١٦ مخطوط .
ملزق : أرض معينة . الدبي : سوق للعرب . الخورنق : قصر بالحيرة والمراد أهلها

أخذت على بعولتهن عهداً إذا لاقوا فوارس معلينا
ليستلبن أبدانا وبيضاً وأسرى في الحروب مقريننا
إذا ما رحن يمشين الهوينا كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيه — ادنا ويقلن لستم بعولتهن — إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمن ف — لا بقينا لشيء بعدهن ولا حينه —
وما منع الطواغن مثل ضرب ترى منه السواعد كالبرين — (١)

ويفخر قيس بن الخطيم بأنهم حموا نساءهم من السبي، وبأنهم انتصروا في يوم بعث،
ويعير خصومهم الهزيمة والأسر:

وإنا منعنا في بُعث نساءنا وما منعت مُمخزيات نساءها (٢)

وهم يتجهون بفخرهم بشجاعتهم وانتصارهم إلى المرأة، كقول حاجب بن دينار المازني:

سلى يشكراً عنا وأبناء وائل لهازمها طراً وجمع الأراقم
ألم تعلني أنا إذا الحرب شمرت سهام على أعدائنا في الحلاقم
عتاة قُرأة في الشتاء مساعِر حمأة كُاة كالليوث الضراغم (٣)
ومثل هذا كثير (٤).

٣ — وكانت المرأة تصحب المحاربين لتضمدهم جراحهم كما يعمل الآن نساء الصليب

الأحمر ورجالهم، ولتسقيهم الماء

وكثيرات هن اللاتي نفرن مع المسلمين في غزواتهم الأولى، وكان الرسول يغزو بالنساء
فيداوين المرضى ويعطين من الغنائم ولكن لم يفرد لهن سهما (٥). وقد جاءت إليه امرأة
في نساء من بني غفار وقلن لهن يردن أن يخرجن معه في خيبر فيداوين الجرحي ويعن
المسلمين بما يستطعن. فقال لهن: على بركة الله (٦)، منهن أم عمارة بنت كعب، وأم حكيم

(١) شرح المعلقات السبع لابن الأنباري ٧٦ مخطوط والتبريزي ٢٤٧ الأبدان: الدروع. البرين: جمع برة وهي حلقة في أنف البعير: وفي التبريزي (القلين) جمع قلة وهي خشبة يلعب بها الصبيان ويضربونها بالقلل (٢) ديوان قيس بن الخطيم ٦ مخطوط (٣) العقد الفريد ٣/٧٨ (٤) أمية بن الأسكر (البيان والتبيين ١/١٩٢) ودريد بن الصمة (البيان والتبيين ٢/١٠١) والدهان بن جندل (الأغاني ٢٠/١٣٨) وعمرو بن حوط (التقاضي ٦٩) والأعشى (الأغاني ٢١/١٤٠)
(٥) المدونة الكبرى للإمام مالك ١/٣٧٠ وسيرة ابن هشام ٣/٣٩٥
(٦) سيرة ابن هشام ٣/٣٩٥

بنت الحارث (١) ، والربيع بنت معوذ (٢) وليلى الغفارية (٣) .

وكانت في أحد أربع عشرة امرأة يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويقين الجرحى ويداوينهم ، كفاطمة بنت الرسول ، وأم سليم بنت ملحان ، والسيدة عائشة ، وخمينة بنت جحش ، وأم أيمن (٤) .

ولما انهزم المسلمون كانت عائشة وأم سليم قد شمرتتا حتى بدت خلاخيلهما ، وهما تحملان القرب ، وتفرغان الماء في أفواه القوم ، فإذا فرغت القربة عادتتا فلأتاها (٥) . ومنهن أيضاً السميرة بنت قيس (٦) ، وكعبية بنت سعد (٧) وأم سليط (٨) ، وقد اختصها عمر بمرط جيد وآثرها به على زوجته ، وقال : أم سليط أحق به ، فإنها كانت تحمل لنا القرب يوم أحد (٩) .

٤ — وفي شعر النساء كثير من الفخر بالنصر ، وتعبير للأعداء المنهزمين ، وإشادة بشجاعة الصناديد من العشيرة . تقول عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم في نحرها يوم عكاظ أيام الفجار :

سائل بنا في قومنا — وليكف من شر سماء —
قيساً وما جمعوا لنا — في بحم — مع باق شناء —
فيه السنور والقنا — والكبش ملتجع قناء —
بعكاظ يعشى الناظري — من إذا هم لمحوا شعاء —
فيه قتلنا مالكا — قسراً وأسلبه رعاء —
ومج — دلاً غادره بالقاع تنهسه ضباعه (١٠)

وتغلب نثار غفيرة الكلبية على عطف الأنثى على الأنثى ، فتحدثت في زهو بأن قومها قتلوا فتيان قيس ، فتأيمت نساؤهم وقد كن يوشكن أن يتخضبن للزواج ، ووصفتن بأنهن غير الألوان من الحزن والفجيعة والمذلة .

(١) ألف باء ٢١٠/٢ (٢) الإصابة ٨٠/٨ وفتح الباري ٦٠/٦ (٣) الاستيعاب ٧٨٠/٢

(٤) المغازي ٢٤٦ (٥) فتح الباري ٥٨/٦ و٢٧٩/٧ (٦) المغازي ٢٨٥

(٧) الاستيعاب ٧٧٩/٢ وطبقات ابن سعد ٢١٣/٨ (٨) كنز العمال ٩٧/٧

(٩) الاستيعاب ٨٠٤/٢ وفتح الباري ٢٨٢/٧ وكنز العمال ٩٧/٧

(١٠) شرح الحماسة للتبريزي ١٣٠/٢ وبلاغات النساء ١٩١ . السنور : الدرع أو السلاح . القناع :

المراد به البيضة . الرعاع : سفلة الناس . غادره : الضمير للخيول . تنهسه : تنزع لحمه

تركنا الطُّلسَ من فتيات قيس أيامي بعد تيس — ير الخضاب
فلم أر للمقادة كالعـ والى ولا للثأر كاقـ وم الغضاب
أراق البَحْدَلِي دمـاء قيس وألصق خد قيس بالتراب^(١)

ووصفت امرأة من الأزد قومها بقولها :

قوم إذا حضروا الهـياج فلا ضرب ينههم ولا زجـر
خزر العيون إلى لوائهم يتزidon كأنهم نمر^(٢)

وكذلك فخرت امرأة من عبد القيس^(٣) ، وفخرت أم الحباب^(٤) . وهنا نلاحظ أن النساء كالرجال في المدح بالشجاعة والثناء بها ، لأنها فضيلة عظيمة القيمة في الحياة البدوية ، لذلك أثرها العرب ، وفضلها اليونان القدماء ، فكانوا يرون أن الجندي أكبر خادم للوطن ، فيصفون عليه من الإجلال أكثر مما يصفون على الفنان ، وحين أرادوا أن يكتبوا شيئاً على قبر اسخيلوس لم يذكروا مهارته الفنية ، ولكنهم كانوا حراساً على أن يكتبوا : إنه أبدى شجاعة فائقة في معركة مرثون ،^(٥) .

هـ — وما من شك في أن اشتراك المرأة في الحرب ، سواء أقادت الجيش أم حاربت أم رافقت المحاربين لتحريضهم وتسقيهم وتداوى جراحهم دليل على شجاعتها ، وتشوقها إلى انتصار قومها ، واعتزازها بسيادتهم وحريتهم وقوتهم ، ودليل على سمو مكانتها في القبيلة ، لأنها جديرة بأن تشارك الرجال في الذود عن الحمى ، وفي كسب النصر ، ولو أنها لم تكن جديرة بالمشاركة في هذا العمل الخطير ما سمح الرجال لها بأن تشاركهم . ثم إن في إعجابها بالشجعان وإشادتها بالبطولة والابطال ، وحرص المقاتلين على نيل إعجابها وثنائها دليلاً على عظم أثرها وعلو قدرها .

المرأة تنجى عن الحرب

١ — ليس من الطبيعي أن يستن العرب جميعاً نظاماً واحداً ، يأخذون به أنفسهم دائماً ، لأن العرف لا بد أن يتغير بتغير الناس ، وكثيراً ما يتخلى عنه الآخذون به في ظرف من الظروف ، لذلك كان بعض العرب ينحون المرأة عن الحرب .

(١) الوحشيات لأبي تمام ٢ مخطوط الطلس : المغبرات من الحزن والذل

(٢) قواعد الشعر لشعوب ١٧ يتزidon : يسرون سيراً فوق العنق (٣) حماسة البحتري ٤٥

(٤) ربيع الأبرار للزحشرى ٩٣ مخطوط (٥) مقدمة الشعر عند أرسطو ٢

ولعل مردّ هذا إلى أن بعضهم كان يدين بأنها لا تصبر طويلا على أهوال الحرب كما يصبر الرجل ، ولأنه كان يحرص عليها ويضن بها أن تصطلي بسعير القتال وتناجحه . ولقد يتجلى إشارها للعمل المنزلى في قول امرئ القيس بن عابس الكندى لامرأته .

أيا تم — لك — لا تم — لي — صليني وذرى ع — ذلى
ذريني وس — لاحي ثم شدي الكف بالغزل (١)

تقول ابنة العُمري لما رأيتها تنكرت حتى كدت منك أهال
فإن تعجبي مني عُمير فقد أتت ليال وأيام على ط — وال

.....

ولكنهم — ا في كلّة كلّ شتوة وفي الصيف كن بارد وجمال
تصان وتعلّى المسك حتى كأنها إذا وضعت عنها النصف غزال (٢)

والدليل على أن بعضهم كان لا يصطحب الطعان أن حاجب بن زرارة استعد للقاء بني عامر في يوم رحرحان ، وأرسل إلى الرعاء يأمرهم بإحضار الإبل ففعلوا ، وأمرهم فحملوا الأهل والمتاع وساروا نحو بلاد بغيض ، ولبت هو مع القوم ينتظر العامرين (٣) .
وفي حرب داحس والغبراء قال قيس العبسي : الرأي أننا لا نلقى ذبيان وحلفاءها ، فإننا قد وترناهم ، فهم يطالبوننا بالذحول ، والذي ينبغي أن نفعله أن نرسل الطعان والأموال إلى بني عامر ، ويبقى أولو القوة والجلد منا على ظهور الخيل (٤) .

ثم أن دريد بن الصمة سفه رأى مالك بن عوف حين سارت ، ثقيف للقاء الرسول في غزوة حنين ، لما علم أن مالكا ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وأبنائهم ، وسأله دريد في ذلك فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . فهزى برأيه ، وقال : راعي ضأن والله ، وهل برد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا لرجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك . فلم يستمع مالك إليه (٥) .

كذلك اختلفت قريش وأحلافها ، وهم يزعمون السير إلى أحد ، فرأى صفوان بن أمية أن تخرج النساء مع المحاربين ليحمسهن ويذكرنهم قتلى بدر ، ووافقه عكرمة وعمر بن العاص ورأى نوفل بن معاوية أن هذا ليس برأى ، لأنه لا يأمن الهزيمة فتقتضح النساء ، ووافقه

(١) أخبار المراقسة ٩٥ لا تمل : لا تضجري (٢) البيان والتبيين ٣/١٩٠ (٣) الكامل لابن الأثير ٢٠٣/١ (٤) أيام العرب ٢٦٥ (٥) تاريخ الطبري ٣/١٢٦ وسيرة ابن هشام ٤/٦٥

صفوان بن أمية ، فجاء نوفل إلى أبي سفيان يعرض عليه رأيه ، فصاحت هند : إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ، نعم نخرج فنشهد القتال ، فإنه لما ردت القيان إلى الجحفة يوم بدر قتلت الأحبة يومئذ . فقال أبو سفيان : لا أخالف قريشاً فيما أجمعت عليه فخرجوا بنسائهم ^(١) .

ويتضح من هذا أن النظام الأعم الأغلب كان أن تخرج الطعان مع المحاربين ، وكان هذا النظام متبعاً حتى عند ترجيح الهزيمة أو التخوف منها ، في حرب بعيدة عن الديار .
٢ — وسواء أكان إبعاد المرأة عن الحرب خوفاً عليها من عواقب الهزيمة ، أم ظناً من بعض الرجال بمعجزتها عن البلاء ، فإن الإسلام لم يشجعها على أن تحارب . فقد قالت السيدة عائشة للنبي : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور ^(٢) ، وله في هذا أحاديث شتى ^(٣) .

وفي غزوة خيبر خرجت أم زياد الأشجعية سادسة ست نسوة ، فقال لهن النبي : باذن من خرجتن ؟ وظهر في وجهه الغضب ، فقلن : خرجنا ومعنا دواء نداوى به الجرحى ، ونتناول السهام ، ونسقى السويق ^(٤) .

ولما استأذنته أم كبشة القضاعية أن ترافق جيشه ، قال : لا ، قالت : إني لست أريد أن أقاتل ، إني أريد أن أداوى الجرحى والمرضى وأسقى الماء . قال : لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن اجلسي ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يغزو بامرأة ^(٥) . ولم يأذن لأم ورقة بذت عبد الله أيضاً ، وقال لها : قري في بيتك فإن الله يرزقك الشهادة ^(٦) .

ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم أباح للنساء أن يصحبن الجيوش في بعض غزواته ليسقين الماء ويداوين الجراح ، فلما قوى الإسلام وكثر عدد المسلمين آثر أن تقرر النساء في بيوتهن ، اكتفاء بالرجال في الحفاظ ، وصيانة للمرأة عن أهوال المعارك ، وإيثاراً لأن تفرغ لشئون الأسرة ، وإبعاداً لها عن الاسترجال .

(١) المغازي ٢٠٠ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩

(٢) فتح الباري ٣/٦ والطبقات ٦/٧٩ (٣) فتح الباري ٦/٥٧ والطبقات ٦/١٦٥ و٨/٥٠

(٤) الإصابة ٨/٢٣٥ (٥) الإصابة ٨/٢٧٠ (٦) الإصابة ٨/٢٨٩

المرأة رسول سلام

إذا ما ذكرت المرأة بدرت إلى الذهن صفات الأنثى من رقة ولين وعطف وشفقة وحنان ، فهل كانت المرأة الجاهلية حجراً صليداً لا حنو فيه ولا إشفاق ؟ هل كانت المرأة العربية دائماً تسعر الحروب وتوقد الضغائن وتورث العداوات ؟ هل غفلت عما تجرّه الحروب عليها من ثكل ويثم وترميل وأحزان ؟ وعما قد يصيبها من سبي ومذلة وهوان ؟ .

لا . وإنما عاشت في بيئة تتوالد حروبها ، وتتفاقم منازعاتها ، فلم تستطع إلا أن تندفع في تيار الرجال .

وهل كان يجديها أو يجدى الرجال أن تتخلف عنهم حيث تستطيع أن تقدم العون وتذكى الحماسة وتسهم في القتال ؟ وهل كان الرجال يصيخون إلى صوتها الحنون الرقيق يدعوهم إلى السلام ، ويحجب إليهم الوئام ، وهم يشقون أن أعداءهم ينهزون منهم الغرة ليكروا عليهم كرة بعد كرة .

نتعسف إذا ما ملنا المرأة على مشاركتها في الحروب ، ونتجنى عليها إذا ما انتقصناها لأنها لم تحمل غصن الزيتون في عالم يتلهب كالأتون .

وها هي ذى المرأة المعاصرة تدعو إلى السلام في عصر الحضارة الزاهية ، فلا يستمع لها الحاكمون ، وقد بحت أصوات الدعاة إلى السلام من العلماء ورجال الدين ، وليس لدعواتهم من الأثر إلا ما للصوت يردد صداه ، ثم تبتلعه البيداء أو يخنقه الفضاء .

ومع ذلك فلم يخل تاريخ المرأة العربية من جهد بذلته لفشر لواء السلام ، فإنه لما تزوج الحارث بن عوف بهيسة بنت أوس الطائي رفضت أن يقرّبها وقالت له : لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك . قال : وكيف ؟ قالت أفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً — وكان ذلك في حرب عبس وذبيان — قال : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك . فخرج وسعى بين القوم بالصلح ، وحمل الديات هو وهرم بن سنان ، وقد مدحهما بذلك زهير بن أبي سلمى ^(١) .

كذلك أسلفت في دراسة (البنات) أن الجمانة بنت قيس بن زهير العبسي أصلحت بين أبيها وجدّها لأمها .

وأسلفت في الفصول السابقة أن المرأة كانت تجير ، والإجارة ضرب من كف القتال ودرء الفتنة .

الفصل الخامس

السبَايا والَاِماء

السبَايا

طبيعى أن تنكشف الحرب عن قتلى وجرحى وسبَايا وأسرى، وما زال هذا ديدن الحرب إلى العصر الحاضر .

وربما كان العرب أحرص على الأسر والسبي من حرصهم على الغنائم الأخرى، لأن في الأسر والسبي إذلالاً للعدو وقهراً، ولأنهم يفتفعون بالأسارى والسبَايا، فهم يبادلون بهم أسارهم تارة، ويأخذون فداءهم تارة، ويستخدمون الأسرى في العمل عبيداً، ويتزوجون السبَايا بغير صداق، ويستولدونهم . وهم إلى ذلك كله كافون بأن يفخروا بأنهم أثخنوا في عدوهم، وظفروا به، وليس بعد الأسر والسبي دليل على مقدرتهم وصولاتهم .

ولقد يحرضهم على السبي أنه انتقام، وجزاء بالمثل، يؤيد ذلك قول المرعش الكلبى :

لو كنتَ حرّاً كريماً ذا محافظة ما نمتَ إلا ونار الحرب تشتعل

حتى تساق نساء سوق نسوتكم بما أصابكم أو يُبلِّغ الأجل ^(١)

ولما افتخر عامر بن الطفيل بأنه سبي امرأة من عبس ثم من بنى سكين — وقد استردها

قومها بعد أيام — رد عليه عروة يعيره سبيه ليلى بنت شعواء الهلالية، وحسناه :

إن تأخذوا أسماء موقف ساعة فماخذ ليلى وهى ع — ذراء أعجب

لبسنا زماناً حسناً وشبابها وردت إلى شعواء والرأس أشيب

كما أخذنا حسناء كرها ودمعها غداة اللوى معصوبه يتصبب ^(٢)

السبي نظام عام

وقد حدث السبي كثيراً، حتى لتخولنا هذه النكثرة أن نذهب إلى أنه نظام عام متواضع عليه . ولا نستثنى من ذلك إلا أهل مكة، لأنهم كانوا آمنين، فلم تُسب قرشية قط فتوطأ

قهرأ أو تجال عليها السهام : قال حرب بن أمية يرغب الحضرمي في نزول م — مكة —
ويكنى أبا مطر — :

أبا مطر هلم إلى حص — لاح فيكفك الندامي من قریش
وتنزل ب — لدة عزت قديما وتأمين أن يزورك رب جيش^(١)

وتسكني هذه الأمثلة لشيوع السبي : فقد أغار قيس بن زهير العبسي على بني يربوع ،
فأصاب ابنتي قرواش بن عوف ومائة من إبله^(٢) . وأغار بسطام بن قيس على بني مالك
ابن حنظلة ، فأخذ نسوة فيهن أم أسماء بن خارجة . وهاج أبو جندب بن مرة خلعاء بكر وخزاعة
على بني لحیان ، فقتل منهم وسبي من نساءهم وذرائعهم سبايا^(٣) . وأغار الهذيل بن هبيرة
التغلبی على بني يربوع ، فقتل فيهم قتلا ذريعا ، وأصاب نعمة كثيرا ، وسبي سبايا كثيرا^(٤) .
وفي يوم جدود أغار الحارث بن شريك الشيباني في بكر بن وائل على بني ربيع بن الحارث
فأصابوا سبايا ونعمة^(٥) . وفي يوم النصار سبيت نساء كثيرات من شريفات بني عامر^(٦) .
وفي يوم الزويرين بين بكر بن وائل وتميم اجترفت بكر أموال تميم ونساءهم ، ووصل
الحوفزان بن شريك إلى من بقي من النساء اللاتي خلفهن الرجال وساروا عنهن للقتال فأخذ
جميع ما خلفوه من نساء وأموال^(٧) . وكان السبي هدفا مرموقا ، يدل على ذلك أن عامر
ابن الطفيل قال لبني عامر يوم فيف الريح — بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب — :
أغبروا بنا عليهم فإنی أرجو أن نأخذ غنائمهم ونسبي نساءهم^(٨) .

الفخر بالسبي والتعير به

أما غرهم بالسبي فكثير جدا ، لأنه الآية على القدرة والظفر بالخصم ، ولأنه مضاعفة
لزهور الغالب ونشوته بالغلب ، ثم إنه إرهاب للآخرين الذين قد تسول لهم قوتهم أن
يحاربوا هؤلاء الأقوياء الغلابين ، وكثيرا ما يتصل بالفخر تعيير . يقول طفيل الغنوي في
رده على زيد الخيل وقد أدرك بنو عامر ثأرهم من طيء :

وقتلنا سراتهم — جم — أرا — وجئنا بالسبايا والنهب

- (١) معجم البلدان ١٣٧/٨ صلاح : اسم لمكة (٢) النقائض ٨٤ (٣) النقائض ٧٥
(٤) الأغاني ٤٧/٢١ (٥) النقائض ٧٠٣ (٦) النقائض ٣٢٦ والكمال لابن الأثير ٢٢٢/١
(٧) النقائض ٢٤٢ والكمال لابن الأثير ٢٢٥/١ بين بني تميم بن أمربن أد وبني عامر بن صعصعة
وبين الرباب (تميم وعدى وثور أطحل وعكل بن عبد مناة بن أد وضبة بن أد) وحلفائهم ظبي وغطقان
(٨) الكامل لابن الأثير ٢٢٠/١ (٨) النقائض ٤٦٩ والكمال لابن الأثير ٢٣١/١

سب—ايا طيء أبرزن قسراً وأبدلن القص—ور من الشعاب
سب—ايا طيء من كل حي بمن في الفرع منها والنصاب (١)
ويقول الحارث بن حلزة .

ثم ملنـ ا على تميم فأحرمة—ا وفيينا بنات مري إماء (٢)
ويفخر قيس بن الخطيم بصونهم نساءهم في يوم بعث ، وبسبيهم نساء الخرج :
وإنا منعنا في بعث نساء—ا وما منعت مملخزيات نساءها (٣)
وعبر زهير بن جناب التغلبيين بقوله :
تبّا لتغلب أن تساق نساؤهم سوق الإماء إلى المواسم عطلاً (٤)
وبقوله :

وسبينا من تغلب كل بيضا ر قود الضحابرود الرضـ اب (٥)
وباهى الأفوه الأودي بأنهم سبوا حسانا لم يستطع رجالهن أن يحموهن ، وأنهم مشوا
بهن يناغين العبيد ، وعليهن ملابسهن الطويلات الذبول تتدلى على أطراف النوق ، دلالة
على ترفهن :

فأبنا بحور كالظباء وجاء—ل ولم يمنع البيض الحسان بعولها
تناعى العضاريط المشاة خرائد تمسح أطراف القلاص ذيولها (٦)
وكذلك باهى عنزة بسبيهم من بني ضبة وتميم :

نخلوا لنا عوذ النساء وجبوا عبايد منهم مستقيم وجاح (٧)
وهم يفخرون بأن السبايا حسان منعمات ، يقول زهير بن جناب في تعبيره بني تغلب :
وسبينا من تغلب كل بيضا ر قود الضحا برود الرضاب (٨)

(١) الأغاني ٥١/١٦ (٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٦٧ لما بلغنا الحساء ملنا على تميم
فلما صرنا في بلادهم دخلنا في الأشهر الحرم فكففنا عن قتالهم وقد سبينا بناتهم قبل دخول الأشهر الحرم .
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٤ (٤) الأغاني ٦٤/٢١ وأخبار المراقبة ١٥ (٥) الأغاني
٦٥/٢١ وأخبار المراقبة ١٦ (٦) ديوان الأفوه الأودي ١٧ مخطوط . جامل : قطع من الجمال
برعاته . العضاريط : العبيد والأجراء والخدم (٧) ديوان عنزة ٤٤ عبايد ويروي عبايد وهما بمعنى
يقال ذهبوا عبايد وعبايد أي متفرقين . جبوا : فروا . مستقيم وجاح : بعضهم على الطريق وبعضهم
عدل عنه وضل (٨) الأغاني ٦٥/٢١ وأخبار المراقبة ١٦

وبأنهن حسييات شريفات ، لأن هذا أدل على السطوة ، وعلى نفاسة الغنيمة ، وأشد إيلاما للعدو ، كقول الأسود بن يعفر في ابنه الجراح ، وكانت أمه أحيذة ، سبها الأسود من بني نهد في غارته عليهم :

فسآباء جراح ذؤابة دارم وأحوال جراح سراة بني نهد ^(١)
وبالسباء والسبايا افتخر طرفة ^(٢) ، وعامر بن الطفيل ^(٣) ، وزيد الخيل ^(٤) ، وعروة
ابن الورد ^(٥) ، والأعشى ^(٦) .

المدح بالسبي

١ — مدحوا القادرين على السباء كما غفروا بالسباء ؛ لأنهم بهذا المدح يضاعفون من سطوة الممدوح ومن لذته بالنصر ، فالأعشى يقول في مدح قيس بن معد يكرب إنه أذل أحياء كثيرة ، وسبي نساءهم ، وفيهن الغانية المترفة الممثلة الجسد ، حتى إنها لضخامتها تأزر بشوبين قد لفق أحدهما على الآخر ، وهي جميلة جداً تعلق التائم وقاية من الحسد ، ولا تقوم من فراشها لتشرب الغبوق إلا ضحا ، وقد فجعها قيس في أهلها ، وسبها واستمتع بها :

فيارب ناعمة منهم تشدُّ اللِّفَاقَ عليها إزارا

تنوط التَّيْمِ وتأبى الغبو ق من سنة النوم إلا نهارا

ملككت فعانقتها ليلة تنص القعود وتدعو يسارا ^(٧)

ولم تشذ المرأة عن الرجل ، فمدحته بالسبي كما يمدح الرجل ، قالت جنوب الهذلية في رثاء أخيها عمرو :

والمخرجُ الغائقُ الحسناءَ مُدْعَنَةً في السبي ينفعُ من أردانها الطيب ^(٨)
وقالت الحنساء في رثاء صخر :

وسبي كآرام الصريم حويته خلال رجالٍ مستكينٍ عواطله ^(٩)

(١) الأغاني ١١/١٣٣ (٢) ديوان طرفة ١٢٨ وشعراء النصرانية ٣١٣

(٣) ديوان عامر القصيدة ٢ (٤) الأغاني ١٦/٥٥ (٥) ديوان عروة ١٩

(٦) ديوان الأعشى الكبير ١٣ تحقيق محمد حسين

(٧) ديوان الأعشى الكبير ٤٩ اللفاق : ثوبان يلفق أحدهما بالآخر . الإزار : الملحفة وكل ما ستر .

تنوط : تعلق . تنص : ترفع وتظهر . يسار : شعار لهم بالخير (٨) رياض الأدب ٧٨ (٩) ديوان

الحنساء ٢٠٠ آرام الصريم : ظباء بيض في كثيب من الرمل . خلال رجال : جعلتهن في رجالك . مستكين

عواطله : قد ذلن وفقدن حلين

٢ — فمن الطبيعي — والسبي مفخرة للسبي ومعرفة للسبي — أن يستमित الرجال في الحرب حتى لا يهزموا فتسبي نساؤهم .

يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض كرام نحاذر أن تقسم أوتـهـونا
أخذن على بعولتهن عهدا إذا لاقوا فوارس معلـهـينا
ليستلبن أبدانا وبيضـا وأسرى في الحـديـد مقرئـينا
إذا مارحن يمشين الهوينا كما اضطربت متون الشاربـينا
يقتن جيـادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعـونا
إذا لم نحمن فـلا بقينا لشيء بعدهن ولا حينـنا
وما منع الظعائن مثل ضرب ترى منه السواعد كالقلـينا (١)

ولذلك كان من مفاخر الرجل أن يقي النساء السبي ، يقول الشمر دل بن شريك في رثاء أخيه وائل :

إذا استعبرت عوذ النساء وشمرت مآزر يوم لا توارى خلاخله
وثقن به عند الحفيظة فارعوى إلى صوته جاراته وحلائله (٢)

ومدح خريب بن الحرب التيمي بنى لجيم ، لأنهم حموا العربيات من السبي يوم ذى قار :
وإن لجيما أهل عز وثروة وأهل أياـد لا يُنال قديمها
هم منعوا في يوم قار نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها (٣)

وكان لقيط بن يعمر قد حذر إيادا بعد هزيمتها للفرس في دير الجماجم قبل موقعة ذي قار بقوله :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نساءكم كسرى وما جمعا (٤)

(١) شرح القصائد العشر للبزري ٢٤٧ القلون : جمع قلة وهي الحشبة التي يلعب بها الصبيان يضر بونها بالثقل . (٢) الأمل لليزيدي ٣٤ والأغاني ١٢/١١٣ ومراث وأشعار لليزيدي ٨١٦ مخطوط . عوذ النساء : جمع عائد وهي الأنثى الحديثة النتاج . (٣) الأغاني ٢٠/١٤٠ اشول : جمع شائلة وهي من الإبل ما أتى على حماتها أو وضعها سبعة أشهر خفف لبنها . الهجان : الإبل البيض أو الكرام الجياد . القروم : جمع قرم وهو الفحل من الإبل . (٤) الأغاني ٢٠/٣٤

استخلاص السبايا

تتفانى القبيلة في حماية نساءها حين يدوى نفير الحرب ، ويعظم تفانيها إذا سبيت نسوة منها . عندئذ تنفر القبيلة كلها سراعاً إلى الميدان لاستخلاص السبايا ، ويقدم كل فرد حياته ثمناً لشرف القبيلة وتخليص نساءها من أيدي أعدائها ، يقول طرفة بن العبد :

ونحن إذا ما الخيل زایل بينها من الطعن نَشَاجُ مَحَلٍّ وَمَزْعَفُ
وجالت عذارى الحى شتى كأنها تَوَالِي صُورٍ وَالْأَسْنَةُ تُرْعَفُ
فَقُتْنَا غَدَاةَ الْغَبِّ كُلِّ نَقِيذَةٍ وَمِنَّا الْكَمِيُّ الصَّابِرُ الْمُتَعَرِّفُ^(١)

وكذلك فخر زيد الخيل بأنه استعاد السبايا اللاتي كانت فرارة وخطافان قد أخذتها منه ومن نهبان :

لقد علمت نهبان أنى حميتها وأنى منعت السبي أن يقتبدا^(٢)
وافتخر طفيل الغنوى بأنه تخلص السبايا ، ولام بنى جعفر على ضعفهم :
فنحن منعنا يوم حَرَسُ نَسَاءِكُمْ غَدَاةَ دَعَانَا عَامَرٌ غـ يَرِ مَوْتَلُ
رددنا السبايا من نُفَيْلٍ وَجَعْفَرٍ وَهَنَ حَبَالِي مِنْ مُخَفٍّ وَمُثَقَلِ^(٣)

وبحسب الرجل شرفاً أن يحمى المرأة من السبي أو يتخلصها من سابيها ، وقد ضرب المثل بريبعة بن مكدم ، لأنه حمى الطعائن ، ويزعم الرواة أنه حماهن وهو ميت ، فقد هجم بنو سليم يطلبون دماءهم من الحارث بن مكدم وريبعة بن مكدم السكناني ، فلقوا طعائن من كنانة ، فأرادوا أن يسبوها ، فمانعهم ريبعة في فرسان معه ، فشد عليه نبيشة بن حبيب السلمى فرماه في عضده ، فلحق بالطعن يستدى ، حتى انتهى إلى أمه ، فقال : اجعلى على يدي عصابة ، وهو يرتجز بقوله :

شدى على العصب أم سيار فقد رزيتُ فارساً كالدينـار
يطعن بالرمح أمام الأدبار

(١) ديوان طرفة ١٢٧ زایل : فرق . نشاج : طعن يخرج الدم بصوت . محل : يتزف الدم ويهزل الطعين . مزعف : قاتل . توالى صوار : أواخر قطع من البقر . شبه العذارى حين جلن فزعات بقطعان بقر يتبع بعضها بعضاً . فقتنا : رددنا . غداة الغب : غداة اليوم التالى ليوم الحرب . النقيذة : ما يستنقذ من الأعداء . المتعرف : الذى يبحث عن الرئيس ويتعرفه ليحمل عليه .
(٢) الأغاني ١٦/٥٣
(٣) ديوان طفيل الغنوى ٣٧ مخف : لم يثقل بطنها . مثقل : عظم بطنها .

وشدت عليه أمه عصابة ، فسكّر على القوم وهو ينزف حتى أنخنهم وكشفهم ، وقال للظعائن :
أسرعن ركابكن حتى ينتهين إلى أدنى البيوت من الحى ، وسوف أقف دونكن لهم على العقبة
فأعتمد على رمحى فلا يقدمون عليكم ، ففعلان ذلك ، واعتمد على رمحه واقفاً على متن فرسه
حتى بلغت النساء مأمنهن ، وما يقدم عليه أحد خشية منه ، ثم رموا فرسه لما رأوه مائل
العنق ، فقمصت ، فقال عنها ميتاً ، فأسرعوا وراء النسوة فلم يلحقوهن . قال أبو عمرو بن
العلاء إنه لا يعلم قتيلاً حى الظعائن غير ربيعة ^(١) . وقد مدحه كثير من الشعراء ، وضرب
العرب به المثل . يقول دريد بن الصمة :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامى الظعينة فارساً لم يقتل ^(٢)

ولقد كان استخلاص السبايا مجداً يفخر به الذرارى وإن بعدوا ، ففي يوم الحدّاب سبّت
قيس عيلان نساء من سليط ، فأدركتهم بنو الخطف وبنو ثعلبة فاستمقدوا السبايا ، وإلى
ذلك يشير جرير بقوله :

لقد جرّدت يوم الحدّاب نساؤهم فسأت مجاليها وقلت مهورها ^(٣)

ومن الطبيعى أن تكون المرأة أعظم لهفة على إنقاذ السبايا ، وأن تبتهج بتخلصهن
وتشيد بمخلصهن ، لأنها تعلم ما تقاسى السبية من آلام السبي والغربة والحنين إلى الأهل ،
لهذا شادت عمرة بنت دريد بن الصمة فى رثام أبيها بفكها السبايا :

ورب كريمة أعتقت منهم وأخرى قد فككت من الوثاق ^(٤)

وكان دريد قد قال لربيعة السلمى لما ضربه بسيفه : إذا أتيت إلى أمك فقل لها إنك قد
قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك . فلما رجع إلى أمه أخبرها ، فقالت
له : لقد أعتق قتيلك ثلاثاً من أمهاتك ^(٥) .

ومدحت الخنساء أخاها صخراً بأنه فكك السبايا :

ردّاد عادية فكّك عانية كضيغم باسل للقرن هصار ^(٦)

وقالت :

وبيضٍ منعت غداة الصبا ح تُكشّف للرّوع أذيالها ^(٧)

(١) الأغاني ١٢٦/١٤ وجمع الأمثال ٢٠٣/١ (٢) الأمل ٢٧٠/٢

(٣) النقاى ١٣ (٤) الأغاني ١٥/٩ (٥) معجم البلدان ١٣٨/٥

(٦) ديوان الخنساء ١٣٦ (٧) الديوان ٢٠٩

إعتاق السبايا

١ — أطلق العرب الأسرى أحيانا بغير عوض ، إكراما لشاعر يشفع ، كما أطلق الحارث بن أبي شمر أسرى بني تميم وفيه شاس بن عبدة ، لما شفع فيهم علقمة ومدحه بقصيدته ، بل إنه أطلق الأسرى وكساهم وحباهم وزودهم زادا كثيرا (١) . وأحيانا كانوا يطلقون الأسير بعد جزناصيته ، كما فعل الحارث بن عباد بمهل (٢) .

كذلك كانوا يعتقون النساء ، كرامة لشفيح ، أو زرعاً للجميل ، أو عفواً بعد مقدرة . فقد أكرم يزيد بن عبد المدان دريد بن الصمة ، ورد عليه سبايا رجل من ثمالة كان جاراً لأخيه عبد الله ثم جاراً له ، فقال دريد في مدحه :

مدحت يزيد بن عبد المدان	فأكرم به من فتى مُستدَح
إذا المدح زان فتى معشر	فإن يزيد يزين المِــــدَح
ورد النساء بأطهارها	ولو كان غير يزيد فَضَح
وقلت له بعد عتق النساء	وفك الرجال ورد اللقح
(٣)	

ولما انتصر زهير بن جناب على غطفان قتل منهم وأسروا ، ثم رد لهم النساء والأولاد وأخذ الأموال (٤) وقال :

فلم تصبر لنا غطفان لما تلاقينا وأحرزت النساء (٥)

وأعتق حكيم بن حزام مائة رقبة في الجاهلية ومثلها في الإسلام (٦) . وإذا كان السبي مفخرة للسباي فقد كان إطلاق السبايا مفخرة أيضاً ومأثرة يمدح بها ، فإنه لما أغار الحصين بن الحُمام على بني عقيل وبني كعب أنخن فيهم واستاق نعباً كثيراً ونساء وكان فيهن أسماء بنت عمرو وسيد بن كعب ، ثم أطلقها الحصين ومن عليها ، وقال في ذلك :

تركنا من نســــاء بني عُقَيْل	أيامى تبتغى عقد النكاح
فأبنا بالنهب وبالسبايا	وبالبيض الخرائد واللحاح

(١) الكامل لابن الأثير ٢٢٤/١ والمعارف ٢٨٠ (٢) ابن الأثير ٢٢٠/١

(٣) الأغاني ١٨/٩ (٤) ابن الأثير ٢٢٦/١ (٥) ابن الأثير ١٧٩/١

(٦) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحداث الرسول ٤٩/١

وأعتقنا ابنة العمريِّ عمه — رو — وقد خضنا عليها باله — داح (١)

وفي يوم أوراة الأول ذبح المنذر بن ماء السماء أسرى بني بكر بن وائل وأحرق بعض السبايا ، فكلمه رجل من قيس بن ثعلبة في شأن الباقيات من السبايا فأطلقهن ، فقال الأعشى يفتخر بشجاعة هذا القيسي :

ومنا الذي أعطاه بالجمع ربه على فاقة وللبلوك هباته
سبايا بني شيبان يوم أوراة على النار إذ تجلى به فتياته (٢)
وقد مدحت عمرة بنت دريد بن الصمة أباها بفكه سبايا بني سليم :
ورب كريم —ة أعتقت منه —م وأخرى قد فسكتت من الوثاق (٣)

وكانت القبائل الفقيرة الضيقة المراعى القليلة الأنعام لا تجد ما تفتدى به سباياها وأسراها فتعتمد على كرم السابي ، وتنتظر إطلاقهن بغير فداء (٤) . أو تتحين الفرص لتسترد سباياها بالقوة ، وتثار من خصومها .

٢ — وفي الإسلام كان ذلك ، فإنه لما سبي رسول الله سبياً كثيراً من هوازن أتى وفدهم إليه مسلمين ، ورجوا منه أن يمين عليهم ، وقال أحدهم يارسول الله : إنما في الحظائر عمالك وخالاتك وحواضنك — يشير إلى حاضنته من بني سعد وهم من هوازن — ولو أنا أرضعنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه ، وأنت خير المكفولين . فقال رسول الله : أبناؤكم ونسائكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا ، فهو أحب إلينا . فقال لهم : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وأشار عليهم أن يتشفعوا به إلى المسلمين ويتشفعوا بالمسلمين إليه . ففعلوا ، وتنازل المهاجرون والأنصار إلا الأقرع بن حابس وبني تميم ، وعيينة ابن حصن وبني فزارة ، وعباس بن مرداس . فقال رسول الله : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه (٥) .

٣ — وبهذا التسريح الذي لا عوض فيه امتاز العرب والمسلمون من الأمم الأخرى ، لأن العبرانيين كانوا يطلقون أرقاءهم بعد أن يتموا في الرق ست سنوات ، وكان الآثينيون يطلقون

(١) الأغاني ١٢/١٢ وشعراء النصرانية ٧٤٥ اللقاح : الإبل الحديثة النتاج

(٢) ديوان الأعشى (٣) معجم البلدان ١٣٨/٥

(٤) Women in the Aiyam Al arab. P. 69 (٥) سيرة ابن هشام ١٣٤/٤

وصحيح البخاري بشرح الكرماني ٩٠/١١ والكامل لابن الأثير ١٠٢/٢

أسراهم إذا ما أدوا ثمن الإطلاق . ولم يعطف عليهم الإسبرطيون بمثل هذا التسريح العوضي ولم ينيلوهم حقاً من حقوق البشر ، بل كانوا إذا زاد عدد الأرقاء من الأسر والشراء قتلوهم غير مستبقيين إلا من يحتاجون إليه ^(١) .

إطلاق السبايا بعوض

جرى الأقوياء من العرب على أنه من العار أن يستردوا السبايا بمال ، لأن هذا دليل الضعف ، فلا هم قادرون على استخلاصهن واستنقاذهن عنوة ، ولا هم قادرون على استرجاعهن بغير مال ، سواء أكان ذلك بالانتقام من أعدائهم وجزائهم سبياً بسبي ، أم بإطلاق السبايا للسبايا تسكريماً لقومهن أو لمن يشفع فيهن . لذلك عير سويد بن أبي كاهل بنى شيبان بأنهم اشتروا نساءهم من بهراء التي أغارت عليهم .

ظللن ينازعن العضاريط أزرها وشيبانُ وسط القطقطانة حُضر ^(٢)

١ — على أنهم كانوا يمارسون فداء الأسرى والسبايا ، وكانت لهم نار تسمى نار الفداء ، يوقدونها إذا طلب منهم الفداء كراهة أن يعرضوا النساء نهراً لثلاً يفتضحن ^(٣) .

من ذلك أن أنس بن مدركة الخثعمي أغار على ناس من ثمالة كانوا جيراناً لدريد ابن الصمة ، وغنم وسبي ، وذهب ، بسبيته وغنائمه إلى نجران ، فذهب دريد إلى يزيد بن عبدالمدان بنجران ، ليرد عليه ما سلب أنس ، وجاء في قصيدته ليزيد طلبه رد السبايا بالمن أو بالفداء :
بنى الديان ردوا مال جـ اري وأسرى في كـبولهم الثقال
وردوا السبي إن شئتم بمـنـ وإن شئتم مفاداةً بمال ^(٤)

٢ — ولم أعثر فيما قرأت على مقدار ما كان يدفع فداء للمرأة إلا في مرة واحدة ، هي أن أبجر ابن جابر العجلي فادى أخته حسينة من عمرو بن الحارث بمائة من الإبل وخمسة أفراس ^(٥) .
أما فداء الرجل فقد ذكر مرات ، فأحياناً كان خمسمائة من الإبل ، وقد كانت فداء الحاجب بن زرارة لما أسره العامريون والعبيسون يوم شعب جبلة . وكان أحياناً مائتين دفعت فداء لعمرو بن عمرو ^(٦) . وفي يوم السلان أسر العامريون وبرة بن رومانوس الكلبي

(١) دائرة المعارف للبستاني ١/٦٩٦ (٢) الأغاني ١١/١٦٦ العضاريط : الأجراء والخدم .

القطقطانة : موضع (٣) مطالع البدور ٢/١٨ (٤) الأغاني ٩/١٧

(٥) أشعار النساء للمرزباني ٥٧ — ٥٩ (٦) الكامل لابن الأثير ١/٢٤٤

أخا النعمان بن المنذر لأمه فافتدى بألف بعير وفرس^(١) . وفي يوم طخفة بين بني يربوع وجيش النعمان بن المنذر انهزم جيشه ، وأسر بنو يربوع القائدين قابوس بن النعمان وحسان ابن المنذر ، ثم أطلقوهما ، فأعطى النعمان بن يربوع ألفي بعير وأبقى لهم الرقادة^(٢) .

وقد فدى بسطام بن قيس نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً وبهودج أمه^(٣) ، وفي رواية أخرى أن عتيبة بن الحارث قال لبسطام — وقد عاب بسطام هودج أمه — أما واللات والعزى لا أطلقك حتى تأتيني أملك بكل شيء ورثك قيس بن مسعود ، وبجملها وحدجها ، فأتته أم بسطام على جملها وحدجها وبثلاثمائة بعير^(٤) .

وقدم سيار بن عمرو الفزاري للأسود بن المنذر دية ابنه الذي قتله الحارث بن ظالم ألف بعير وهي دية الملوك ، ورهنه بها قوسه وفي ذلك يقول قراد بن حنش الصاردي :

ونحن رهنا القوس ثمت فوديتْ بألفٍ على ظهر الفزاري أقرعا
بعشر مئينٍ للملوك سعى بها ليوفي سيار بن عمرو فأسرعاً^(٥)

هذا التفصيل الذي نجده في فداء الأسير لا نجد مثله في فداء السبية ، وكل ما نعلم أن سابها كان يتقاضى قدرأ من المال ليطلقها .

فقد أغار قيس بن زهير بن جذيمة العبسي على بني يربوع ، فلم يصب غير ابنتي قرواش ابن عوف ومائة من الإبل لقرواش ، ثم اتفق قيس أن يرد ما أخذ ويعطي فرساً . فلما رأى أصحابه ذلك قالوا : لا نصالحك أبداً ، أصبنا مائة من الإبل وامرأتين ، فعملت إلى غنيمتنا فجعلتها في فرس لك تذهب به دوننا . فاشتري منهم غنيمتهم بمائة من الإبل^(٦) .

والذي يوحى به النص أن نصيب أصحاب قيس كان مائة من الإبل عوضاً عن نصيبهم من الغنيمة كلها ، وهي مائة من الإبل وامرأتان . وليس يفهم منه قيمة فداء المرأتين وحدهما .

(١) ابن الأثير ٢٣٤/١ (٢) ابن الأثير ٢٧٣/١ (٣) النقائض ٣١٦

(٤) النقائض ٧٦ و ٣١٦

(٥) بلوغ الأرب ٢٢/٣ قال ابن عبد ربه في العقد إن سيار بن عمرو بن جابر الفزاري احتمل للأسود بن المنذر دية ابنه الذي قتله الحارث بن ظالم ألف بعير وهي دية الملوك ورهنه بها قوسه فوفى وكان هذا قبل قوس حاجب بن زرارة . وقال أبو عبيدة في مقاتل الفرسان إن أخا سيار لأمه الحارث ابن أبي سفيان الصاردي تكفلها للأسود بن المنذر فقام منها بثلاثمائة ثم مات فوهن سيار قوسه على المائتين . فلما مدح قراد بن حنش بني فزارة جعل الدية كلها لسيار . (٦) النقائض ٨٤

٣ — وسنعرف أن الإسلام أقر إطلاق السبايا بعوض .

وهذا الإطلاق المالى تميز العرب فى الجاهلية وتميز المسلمون على الرومان ، ذلك بأن الرومان كانوا يطلقون العبيد بالمسكاتبة وبالتدبير ، ولكن العتقى لا يتحررون الحرية الكاملة ، بل يبقون خاضعين لسيادة مولاهم ، فإذا افتقر السيد أو أملق أبوه أو أمه كان على المعتق أن يعود إلى الرق ، وأن يقوم بأود المملق ، وإذا أهان العبد سيده بعد عتقه جازله أن يسترده ^(١) .

بغض المرأة للسي

اعتزت المرأة بحريتها كما اعتز الرجل ، وأبغضت السي كما أبغض الأسر ، لأن فى سبيلها إذلالاً لها وتغريباً ، وحرماناً من الوطن ومن الأهل ، وقسراً على معيشة لا ترضاهما مهما تكن معززة مكرمة .

وقد تجلت كراهيتها للسي فى عدة مظاهر :

١ — كانت إذا هزم قومها تبرز مكشوفة سافراً ، ليحسبها الغالبون أمة فيخلوها ، وهى تعلم أنهم يقصدون الحرائر ويريدونهن . قال سيرة بن عمرو الفقعسى :

ونسرتكم فى الروع بادٍ وجوها
يَخَانُ إِمَاءً وإِمَاءَ حرائر ^(٢)

وقال طرفة بن العبد مفتخراً على تغلب يوم تحلاق للمم :

سائلوا عنا الذى يعرفنا
بخرزى يوم تحلاق للمم

يوم تبدى البيض عن أسوقها
وتلف الخيل أعراج النعم ^(٣)

وقال قيس بن الخطيم فى هجاء الخزرج :

صبحناكم بيضاء يبرق بيضا
تبين خلاخيل النساء الهوارب ^(٤)

وقال الشمردل بن شريك فى رثاء أخيه وائل

إذا استعبرت عوذ النساء وشمرت
مآزر يوم لا توارى خلاخ — له

ووثقن به عن — د الحفيظة فارعوى
إلى ص — وته جاراته وحلائله ^(٥)

(١) دائرة المعارف للبستانى ٦٩٦/١١

(٢) شرح الحماسة للمرزوقى ٢٣٨/١ (٣) الديوان وكتاب بكر وتغلب ٨٩ أعراج النعم :

قطعان الإبل (٤) جهرة أشعار العرب ٢٥٢ وديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط .

(٥) الأمالى لليزيدى ٣٤ مخطوط والأغانى ١١٣/١٢ ومراث وأشعار لليزيدى ٨١٦ مخطوط

٢ — وإذا وقعت الواقعة، وفجعت المرأة بالسبي سخطت على قومها الذين تركوها تؤسر، وغيرتهم ضعفهم وجبنهم. من ذلك أنه لما سبيت سلى بنت المخلق في يوم النصار قالت تعير جواباً — مالك بن كعب من بني أبي بكر بن كلاب — والطفيل؛ لأنهما فرا:

لحا الإله أبا لـ يلى بفرته يوم النصار وقنب العير جـ — وأبا
كيف الفخار وقد كانت بمعترك يوم النصار بنو ذبيان أربابا
لم تمنعوا القوم إذ شلوا سوامكم ولا النساء وكان القوم أحزابا (١)

وقد أبت حسينة بنت جابر العجلي أن تعود إلى زوجها ابن عمها لأنه فر عنها وتركها تسبي (٢).

بل لقد كانت المرأة تزدري الأسير وإن كان قومها هم الذين أسروه، لأنها مفتونة بالبطولة والشجاعة والآنفة كما سبق في صفات الزوج الأثير. فمثلا لما أسرفتي من بني عمير ابن عبد شمس عبد يغوث بن صلاء سيد بني الحارث، يوم الكلاب الثاني، وانطلق به إلى أهله، وكان الأسر أهوج، قالت له أمه لما رأت عبد يغوث عظيما وسيما: من أنت؟ قال: أنا سيد القوم. فضحكت وقالت: قبحك الله من سيد قوم أسرك هذا الأهوج. وإلى هذا يشير عبد يغوث بقوله:

وتضحك مني شيخه عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا (٣)
وكذلك سخرت بطهمان بن عمرو الدارمي امرأة من آسريه، فقال:
ألا هزئت مني بنجران إذ رأت عثاري في الكبلين أم أبان
كأن لم ترى قبلي أسيرا مكبلا ولا رجلا يرمى به الرجوان (٤)

وما زالت المرأة العربية تحقر الأسير إلى ما بعد العصر الجاهلي، فإن حمدة أو حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري لامت زوجها رَوْح بن زنباع وعيرته، لأنه أسر يوم المرج، وقيل لأنه أسر قبل ذلك في حرب غسان، وافتدى. تقول في ذلك:
وهل هند إلا مهرة عربية سليطة أفراس تجللها بغل

(١) النقاظ ٢٤٢ والكمال لابن الأثير ٢٥٩/١ أبو ليلى: الطفيل والد عامر. جواب: لقب مالك بن كعب لأنه كان يحب الآبار يحفرها ويتخذها لنفسه. القنب: جراب قضيب الدابة. العير: الحمار الوحشي. (٢) أشعار النساء للمرزباني ٥٧ (٣) المفضليات ١٥٦/١ والأغاني ٧١/١٥ (٤) معجم البلدان ٧١/٤ الكبليين: القيدون. يرمى به الرجوان: استهزاء كأنه رمى به رجوا يثر أي ناحيتها وجانباها (القاموس مادة وجا)

فان تُتَجَتْ مهرأً كريماً فبالحرى وإن يك إقرافُ فما أنجب الفحل^(١)

على أنه تزوجها وهو سيد يمانية الشام وقائدها وخطيبها ، وهي يمانية مثله ، ولو أنها نزارية وهو قحطاني مثلاً ل قيل إن سخطها عليه مبعثه ما بين اليمانية والنزارية من صراع . كذلك رفض عقيل بن علفة أن يزوج عثمان بن حيان المري — وهو من أبناء عمومته — لأنه كان قد مسه أو مس أباه أسر^(٢)

٣ — وقد صور الشعراء ما يعتلج في أحشاء السبايا من حزن ولوعة ، وما ينزل بهن من هم وحسرة . فعروة بن الورد يقول إن سباياهم من طي يشققن صدورهن إذا جن الليل وطلع النجم :

رحلنا من الأجدال أجدال طيء نسوق النساء عودها وعشارها
تري كل بيضاء العوارض طفلة تفرى إذا شال السماك صدرها
وقد علمت أن لا انقلاب لأهلها إذا تركت من آخر الليل دارها^(٣)

ويجمع بن هلال يفخر بأنه أسرا امرأة من مجاشع ، ويقول إن قلبها قد امتلأ حزناً وجزعاً وإن حزنها مقيم لا يبرح ، وهي تدعو عليه بالنعاسة كما أتعسها :

وعائرة يوم الهيماء رأيتها وقد ضمها من داخل الخلب مجزع
لها غلّ في الصدر ليس يبارح شجى نشب والعين بالماء تدمع
تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستني يا مجمع^(٤)

والنابغة يصور السبايا حيارى سواهم ، يخططن على الأرض بالعيدان كما يفعل المكروب المهموم الساهم ، أو هن يخططن على الرمل ليتعرفن متى ينطلقن من الإسار ، وهن كاسفات لا يتزين ولا يبرزن مواضع جمالهن :

ويخططن بالعيدان في كل منزل ويخبأن رمائن الشدى النواهد^(٥)

(١) الأغاني ٨/١٣٤ والتنبيه والإشراف للمسعودي ٣١ وسمط اللآلي ١/١٧٩ وفي رأى ابن سيد ه أن الصواب نفل لا بغل لأن البغل لا يلد . والنفل الحسيس من الإنسان والحيوان (٢) سمط اللآلي ١/١٨٠ (٣) ديوان عروة ١٩ وشعراء النصرانية ٩١١ عوذ: حديثات الولادة . عشار : حوامل . تفرى : تشق . السماك : الأعزل والرايح نجمان نيران اسم موضع كانت فيه وقعة لبني تيم الله بن ثعلبة على بني مجاشع . الخلب : حجاب القلب . الغلل : حرارة الجوف . شجى نشب : حزن دائم ملازم (٥) الحيوان للجاحظ ١/٦٣

والنابعة الجعدى يصور حزنهن يتجلى فى بكائهن وفى الكتابة الناطقة على وجوههن ،
وحسرتهن على فراق أطفالهن الرضع .

فلم أر يوما كان أكثر باكيا ووجها ترى فيه الكتابة مجتلى
ومفتصلا عن ثدى أم تحبه عزيز عليها أن تفارق مفلى^(١)

٤ — وليس أدل على بغض المرأة للسباء من أن تعيش مع سابها حيناً من الدهر ،
وتلد له ، ولكنها لا تزال متبرمة بأن يذكر الناس أنها سبية ، ولا تزال أنوفا من أن تسمى
أمة . فإذا ما برقت لها بارقة أمل فى التحرر والفكك من السبي انطلقت لا تلوى على شيء .
ولقد تحسن الحيلة فى أن تسترد حريتها وقيمتها ، تم تعاود عشرة زوجها وأولادها ، ولقد
تبخع نفسها حتى لا تقع أسيرة .

فقد أغار عروة بن الورد على مزيمة فأصاب منهم امرأة بكرأ من بنى كنانة يقال لها
سلى وتكنى أم وهب ، فأعتقها ، واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت
له أولادا وهو لا يشك فى أنها أرغب الناس فيه ، وكانت تقول له : لو حججت بنى فأمر على
أهلى وأراهم ؟ فحج بها ، ثم أتى يثرب ، وكان يخاطب بنى النضير ويعاملهم ، وكان قومها
يخالطونهم ، فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلى إنه عائد بنى قبل أن ينتهى الشهر الحرام ،
فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة بالنسب سبيا ، وافقدوني
منه فإنه لا يرى أنى أفارقه ، ولا أختار عليه أحدا . فأتوه فسقوه الشراب ، فلما ثمل قالوا له
فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا ، وإن علينا سبة أن تكون سبيا ، فإذا سارت إلينا
وأردت معاودتها فإخطبها فإننا نزوجك . فقال لهم : ذاك لكم ، ولكن خيروها ، فإن
اختارتني انطلقت معى إلى ولدها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها ، فوافقوه ، فلما كان الغد
جاءوه ، فامتنع من فدائها ، ثم رضى ، فخيروها ، فاختارت أهلها ، ثم أقبلت عليه فمدحته ،
ثم قالت : وما مر على يوم مذكنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ؛
لأنى لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا ، والله لا
أنظر فى وجه غطفانية أبدا ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم . فحزن عروة وندم ،
وقال فى ذلك شعرا يدل على جليته وألمه^(٢) .

(١) الشعر والشعراء ٢٥١/١ تحقيق شاكر مفتعل ومفتلى : مقطوم

(٢) ديوان عروة ١١ والأغاني ٧٦/٢ والشعر والشعراء ٢٦٠

كذلك سبي الحارث بن تولب امرأة من بني أسد يقال لها جمره بنت نوفل ، فوهبها لأخيه النمر ، ففركته ، فخبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً ، ثم قالت له في يوم ، أزرني أهلي ، فإني قد شتقت إليهم ، فقال لها : أخاف إن صرت إلى أهلك ألا تعودى . فوائتته على أن ترجع إليه ، فخرج بها حتى أوصلها بلادها ، فلما أطل على الحى تركته واقفاً وانصرفت إلى منزل بعلمها الأول ، فلما مكثت طويلاً ولم ترجع عرف ما صنعت وأنها اختدعته ، فانصرف وقال :

جزى الله عنا جمره ابنة نوفل جزاء مُغلٍ بالأمانة كاذب
لهان عليها أمس موقف راكب إلى جانب السرحات أخيب خائب
وقد سألت عنى الوشاة ليكذبوا علىّ وقد أبليت بها فى النوائب
وصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضنت بحاجب
وقال فيها أشعارا كثيرة (١) .

وكذلك سبيت امرأة من طميم اسمها عنز ، فحملها سابوها فى هودج ، وألطفوها بالفعل والقول ، فلم يلها إلا لطف عن مذلة السباء ، فقالت :

شر يومها وأغواه لها ركبت عنز بحدج جملا
أى شر يومها يوم تكرم وهى سبية (٢) .

أما قتلها نفسها فيتمثل فى فاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، ذلك أنها عرض لها قيس ابن زهير فاقتاد جملا ، يريد أن يرتها بدرعه التى أخذها ابنها الربيع ، حتى يردّها . فقالت له ما رأيت كالיום فعل رجل ، أين ضل حلمك ؟ أترجو أن تصطلح أنت وبنو زياد أبداً ، وقد أخذت أهمهم فقال الناس فى ذلك ما شاءوا أن يقولوا ، وحسبك من شر سماعة . فعرف قيس مقالها فغلى سبيلها (٣) . وفى رواية أنه لم يخل سبيلها ، بل قال لها : إني ذاهب بك لترعى لبلى . فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها عن البعير ، خوفاً من أن يلحقها ويلحق بنيتها عار السبي فسقطت على رأسها فماتت (٤) .

(١) الأغاني ١٥٩/١٩ (٢) جهره الأمثال لأبى هلال ٨/٢ وجمع الأمثال ٣٢٨/١ ولسان العرب ٢٥٠/٧ (٣) النقااض ٩٠ وجمهره الأمثال ٢٢٨/١ (٤) الأغاني ٢١/١٦

معاملة السبايا

تضع الحرب أوزارها ، وتنجلي عن سبايا ، فيقسمن بالسهم بين المحاربين كما تُقسم الغنائم . يقول الأعشى :

فما برحوا حتى استحثت نسائهم وأجرؤا عليها بالسهم فذلت^(١)
ويقول الحصين بن الحمام :

وأعتقنا ابنة العمري عمرو وقد خضنا عليها بالقداح^(٢)
فإذا لم يطلق السابي سبيته بفداء أو منٍّ ، وإذا لم يتخلصها قومها منه عنوة ، فكيف كان يعاملها ؟ وعلى أي وضع كانت تقيم عنده ؟

استيلاء السبايا

١ — كان أول ما يلجأ إليه السابي أن يستولد السبية ، لأنها لا تكلفه مهراً ، ولأنها تلد له أولاداً نجباً كما اعتقد العرب في أولاد الغرائب .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد تزوج زُرارة بن عدس أمته رُشبة ، وكان قد أصابها من الرقيذات — حي من العرب — فولدت له عمراً وذؤيباً وبرغوثة^(٣) ، وكانت له زوجات من سباياه من بني عجل ومن بني عبد القيس ومن الأزد ، وقد أنجب له^(٤) .

وتزوج ضمرة بن جابر سبية من عبد القيس وسبية من الأزد^(٥) ، وسبي الصمة بن عبد الله ربحانة بنت معد يكرب الزبيدي ثم تزوجها .

واشتهر كثير من أبناء السبايا ، وسادوا ، وفرعوا أبناء الحرائر المهيئات ، مثل دريد ابن الصمة أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرهم ظفراً ، وأيمنهم نقيبة ، وأشعرهم ، وكان سيد بني جشم وقائدهم ، وهو وإخوته عبد الله وعبد يغوث وقيس وخالد أمهم جميعاً ربحانة بنت معد يكرب الزبيدي أخت عمرو بن معد يكرب ، كان الصمة سباها ثم تزوجها فأولدها بنيه^(٦) . ومثل الأشهب بن ثور بن حارثة ، كانت أمه لخالد بن مالك

(١) ديوان الأعشى الكبير ٢٦١ (٢) شعراء النصرانية ٧٤٥ (٣) بجم الأمثال ١١٦/١
(٤) أمثال العرب للمفضل الضي ٧ (٥) الميداني ١١٧/١ (٦) الأغاني ٢/٩

فاستراها منه ثور بن حارثة في الجاهلية فولدت له أربعة نفر كانوا من أشد العرب لسانا ويدا ،
وأمنهم جانباً في الجاهلية والإسلام ، حتى كانوا يأخذون هُدباً من قطيفة أمهم ويلقونه على
الماء فلا يرده أحد (١) .

٢ — وكانوا يفخرون بزواجهم ، إذلالاً بقوتهم ، وإذلالاً لعدوهم ، قال عمرو بن يربوع
الغنوي في هجاء عمرو بن معد يكرب الزبيدي .

ألم نحم نجداً بمسنونة عتاق تُباري بفرسانها
فسائل جذاما ولحماً بنا ويحصب من بعد خولانها
ومذحج يُنبوك عن حربنا وما كنت تجهل من شأنها
نكحنا نساءهم عنوة ببيض الصفاح ومرانها (٢)

وقال عمرو بن الذارع الحنفي في يوم الشّماش — وكان لبني حنيفة على بني نмир — :
إذا نحن شئنا زوجتنا رماحنا كما أمكنتنا من بنات المهاجر (٣)
وافتخر النابغة الجعدي بأنهم أكثر القبائل سبياً ونكاحاً للسبايا :

فما وجدت من فرقة عربية كفيلاً دنا منا أعز وأنصرأ
وأكثر منا ناكحاً لغريبة أصيبت سباءاً أو أرادت تخيراً (٤)

وافتخر المطوح بن عثمان التغلبي على بني نмир بأنهم نكحوا نساءهم قسراً واغتصاباً ،
وبأن بني تغلب أعزة لم تغتصب منهم نسوة :

هم أنكحوا بالغصب من فتياتكم جهاراً ومن شرّ المجاهرة الغصب
وما كان منا عنده قوم سبية وما كان من أموالنا عندهم نهب (٥)

وتباهى الأعشى بيوم ذي قار ، وأن الرماح مكنت العرب المنتصرين من زواج نساء
المهزومين من الفرس وحلفائهم من العرب :

ألا يارب ما حسرى ستنكحها الرماح حمأ (٦)

ولم ينفرد العرب بنكاح السبايا ، لأن هذا العرف كان شائعاً عند كثير من الأمم
القديمة والمعاصرة للعرب .

(١) الأغاني ١٥٣/٨ (٢) المؤلف والمختلف ١٥٦ تباري : تعارض وتزاحم . مرانها : جمع
مرانة وهو الرمح الصلب اللدن (٣) معجم الشعراء ٢٢٥ (٤) جهرة أشعار العرب ٣٠٥
(٥) حماسة الخالدين ٥٥ مخطوط (٦) ديوان الأعشى الكبير ٣٠٣

كان شائعاً عند الآشوريين والإسرائيليين واليهود واليونان والرومان ^(١)، وكان المولى الإسرائيلي كثيراً ما يتخذ إحدى إماءته حليلاً، جاء في التوراة : إذا ابتعت عبداً عبرانياً فليخدمك ست سنين ، وفي السابعة يخرج حراً بالبحان وإن زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها لمولاه ويخرج وحده ^(٢).

وكان على الإسرائيلي إن أراد الزواج بإحدى سبائيه أن يدعمها شهراً تنجب أهلها ثم يتزوجها . فإن لم ترقه بعد الدخول بها سرحها ، ولا يجوز له بيعها ، وحينئذ تصير حرة ، ولعل هذا التشريع الذي حسن حال السبايا جاء متأخراً ، وما من شك في أنه يحمل طابع الصحراء ، ونكاد نتنسم فيه روح الفروسية والحرية العربية ، وربما نقلته بعض القبائل الإسرائيلية معها قبل نزوحها من الجزيرة العربية ^(٣) : ولكن مع ذلك ظل مركز السبية أحط من الزوجة الحرة من الوجهة الاجتماعية والقانونية ^(٤).

وكان الزواج بالسبية شائعاً عند الآشوريين ، وعقدت له قوانينهم فصلاً خاصاً ، وإذا تزوج السيد سبيته ارتفعت إلى مقام الزوجة ^(٥).

وفي القوانين البابلية نوعان من الإماء ، يطلق على أحدهما أمتم Amatum ، والميم الأخيرة للتونين ، ويطلق على الثاني شجيتم Sugitim ، والميم للتونين أيضاً ، وهما تضارعان في العربية كلمة أمة وشجية ، والفرق بينهما في البابلية أن الأمة هي الجارية التي كانت تحتارها الزوجة العاقر لبعْلِها لتلد ، كما فعلت سارة مع إبراهيم ، إذ اختارت له أمة مصرية ولدت له إسماعيل ، جرياً على عادة البابليين . وكانت الأمة أحط من الزوجة مقاماً وعليها أن تطيع زوجة سيدها ، فإن عصتها حل بها عقاب شديد ، أما الشجية فهي الأسيرة ^(٦).

وكذلك جرى الفرس القدماء على السبي والاستمتاع بالسبايا ^(٧) ، وكن متعة للأغنياء ، حتى كان من دأب الطبقة العالية ألا ينفروا إلى الحرب إلا والسبايا مصاحبات لهم . وقد ذكروا أن قصر الملك في الإمبراطورية الأخيرة كان يضم من الخطايا عدداً يتراوح بين

(١) الرق في الإسلام لأحمد شفيق ١٢ والنظم السياسية والاجتماعية ٣٣ و ٧٠

(٢) سفر الخروج ٢: ٢١ (٣) النظم السياسية والاجتماعية ٣٨ (٤) المرجع السابق ٣٨

(٥) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧ (٦) المرجع السابق ٣٦ (٧) قصة الحضارة الفارسية

٣٢٩ و ٣٦٠ ، لأنه صار من العادات المرعية ألا يضاجع الملك امرأة غير مرة واحدة ، إلا إذا كانت رائعة الحسن فائقة الجمال ^(١)

وكذلك كان الحال في مصر ، فللرجل أن يباشر أمته ، وله أن يرفعها إلى مقام الزوجة ^(٢) . وقد اعتبرته شريعة ماني نوعا من الزواج . وشاع عند الإغريق في بعض عصورهم ، واحتفظ به الإمبرطيون رمزا لعقد الزواج ^(٣) . وأقره أرسطو ، ولم يكن للمرأة التي تباع أو تؤسر أن تمتنع من أن يباشرها سيدها ^(٤) .

وكان الرومان في أول أمرهم يكرهون التسرى ، حتى تسرى اثنان من كبرائهم وأمرائهم ، فأقبلوا عليه إقبالا ، على أن السرية كانت عندهم أحط منزلة من الزوجة ^(٥) . وكان الساميون عامة ينظرون إلى السرية على أنها أقل شأنا من الزوجة ، ويعتبرونها من العبيد ^(٦) .

وما زال السلاف في روسيا والصرب يمارسون زواج الاغتصاب إلى القرن الماضي ، ولا تزال آثار هذه العادة قائمة في تمثيل العروس لدور المغتصب لعروسه في بعض حفلات الزواج ^(٧) .

٤ — فليس بصحيح إذا أن « السبية عند العرب كانت من الناحية الجنسية خاضعة لأسرها ورهن مشورته ، وهذه معاملة استمرت إلى الإسلام ، وهي تنطوي على خزي وعار ومذلة وهدم لكرامة المرأة وشرف قبيلتها ^(٨) » ؛ ليس هذا بصحيح ، لأن السبي نظام ضروري يتبع الحرب . وماذا يفعل الرجال بالسبايا خيرا من أن يتزوجوهن أو يستولدوهن . فيصرن حليلات وأمهات أولاد وأعضاء في الأسرة ؟ أليس ذلك أفضل من بيعهن أو استعبادهن ؟ بلى . ثم إن الأمم القديمة كلها كانت تمارس زواج السبايا ومباشرتهن كما سبق . على أن العرب كانوا يكرمون زوجاتهم السبيات ، ويفخرون بحسن معاملتهن والحدب عليهن ؛ لأن زواج السبيه لم يكن مقصودا به إذلالها هي ، بل كان مرغوبا فيه ؛ لأنه ضرب من الفروسية ، ولأنه لا مهر فيه ، ولأن العرب كانوا يعتقدون أن أبناء الغرائب أنجب كما سبق ، لذلك يقول سعد بن مالك جد طرفة :

(١) قصة الحضارة الفارسية ٦٠ (٢) الرق في الإسلام ٩

(٣) Westermarck P. 386 (٤) الرق في الإسلام ١٩

(٥) Gibbon. 11, 205 (٦) سفر التكوين ١٢ آية ١٦ وإصحاح ٢٠ آية ١٤ وسفر

الملوك الثاني إصحاح ٥ آية ٢٦ (٧) قصة الحضارة ١/٧٤ ول ديورانت

(٨) Women in the Aiyam El Arab. P. 70

فَالَهُمْ بِيضَاتُ الْخَدَوِ رَهْنَاكَ لَا النَّعْمُ الْمُرَاحُ^(١)
ويقول حاتم الطائي :

وما أنكحونا طائعين بناتهم
فما زادها فينا السَّاءُ مذلةً
ولكننا خلطناها بخير نساتنا
وكأن ترى فينا من ابن سبيبة
ويأخذ رايات الطعان بكفه
كريم إذا اعتز اللثيم تحاله
إذا ماسرى ليل الدجا قمرًا بدرًا^(٢)

كانت السبيبة تعامل معاملة حسنة « معتمدة على جمالها أو مواهبها أو نسلها ، ولكن هذا لا ينبغي أن بعضهن كن يعاملن معاملة فيها قسوة ^(٣) ،

بيع السبايا وهبتهن وإرشن

١ — هل من الطبيعي أن يكلف كل رجل أن يتزوج بسبايا ؟ لقد يكن كثيرات يضيق بزواجهن ، ولقد يكون له في زوجاته السابقات مغنى ومقنع ، وربما لا يرقنه أو لا يروقه بعضهن ، فيلجأ إلى وسيلة غير الزواج للارتفاع بهن .

لذلك كان بعض العرب يبيعون السبايا ، حتى لقد كانت في مكة سوق منظمة لبيعهن بيع العبيد ^(٤) . وقد اشترى ثور بن أبي حارثة من خالد بن مالك أمته رُميلة واستولدها أربعة من بنيه ^(٥) ، وباع رجل في الجاهلية امرأة وأنجبت من سيدها ، فلما مات عنها أريد بيعها وفاء لدينه ، فشكت حالها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر الوارث أن يعتقها وعوضه عنها بعبد ^(٦) .

وكثيراً ما كانت السبايا يوهبن كما يوهب المال ، فقد أغار الحارث بن تُولب — وكان سيداً معظمًا — على بني أسد ، فسبي امرأة منهم يقال لها جمره بنت نوفل ، فوهبها لأخيه النمر ^(٧) . وكان النعمان يهب السبايا ، وبهذا مدحه النابغة في قوله :

(١) الحماسة ١/١٩٨ (٢) العقد الفريد ٣/٢١٠ (٣) Muslem Law P. 24

(٤) النظم السياسية والاجتماعية ٣٣ (٥) الأغاني ٨/١٥٣ (٦) كثر العمال ٤ الحديث

رقم ٥١٢٦ وابن حنبل ٦/٣٦٠ وأبو داود ٤/٢٦ (٧) الأغاني ١٩/١٥٨

الواهب المائة المعكاء زينها سعدان توضح في أدبارها اللبد
والراكضات ذبول الريط فانقها برد الهواجر كالغزلان بالجرّد^(١)

٢ — والعرب لم يشدوا في هذا أيضاً ، لأن العبرانيين كانوا يبيعون النساء وإن لم يكن رقيقات ، فقد قال يوعز للشيوخ ولجميع الشعب : أنتم شهودى اليوم أنى قد اشتريتها لتكون لى زوجة^(٢) .

وكان الرومانيون يبيعون الأسرى والسبايا للنخاسين كما يبيعون الغنائم ، وإذا حملوهم إلى رومة باعوهم بالمزاد ، وكانوا يبيعون عقب كل حرب ألوفاً من السبايا والأسارى^(٣) .
القسوة عليهن أحياناً :

١ — لا شك أن الناس مختلفون في كثير من الأخلاق والعادات ، ولا شك أن ظروف السباء مختلفة أيضاً ، فقد سبى الموتور فيتشفى من سباهن ومن أسرهم ، وقد سبى القوى الغاصب فيحسن معاملة أسراه وسباياه

على أن القسوة في معاملة السبايا كانت عملاً معيماً عند العرب يعبر به القساة ، فقد عاب خفاف بن ندبة العباس بن مرداس بأنه يستهين بسبايا العرب ، ويقتل الأسرى . فلما علم العباس قال لخفاف في ملا من بنى سليم : وإنك لتعلم أنى أطلق الأسير وأصون السبية وأما استهانتى بسبايا العرب فإنى أخذو القوم فى نسائهم بفعالهم فى نسائنا^(٤) . وفى أحوال نادرة سولت الظروف للأسرى أن يقتل أسراه ، فقد قتل بنو تميم عبد يغوث بن صلاءة^(٥) وذبح المنذر بن ماء السماء أسرى بنى بكر على جبل أواره ، وأحرق سباياهم^(٦) ، وإلى ذلك يشير الأعشى بقوله :

سبايا بنى شيبان يوم أواره على النار إذ تجلى له فتياتها^(٧)

(١) ديوان النابغة ٢١ . المعكاء : الغلاظ الشداد . سعدان توضح : نبت جيد التغذية للإبل بهذا المكان . اللبد : المتلبدة الوبر . فانقها : نعم عيشها . الجرّد : الموضع الذى لا ينبت أو موضع بيلاد تميم
(٢) راعوث ٩ : ٤ The Holy Bilbe (٣) تاريخ الحضارة ١٤٨ شارل سنيوبوس
(٤) الأغاني ١٦ / ١٣٥ (٥) المفضليات ١ / ١٥٣ (٦) الكامل لابن الأثير
(٧) ديوان الأعشى ٦٣

وافتخر تميم بن الحباب السلي بأنهم بقروا النساء الحبالي :

بقرنا الحبالي من زهرو مالِك ليأس قوم من رجاء التجبر^(١)
وردد عامر بن الطفيل الفخر ببقر الحبالي .

بقرنا الحبالي من شنوءة بعدما خبطن بفيف الريح نهذاً وخشعا
ونحن صبحنا حتى نجران غارة تبيل حبالها مخافتنا دما^(٢)
وكرر هذا^(٣) .

ومن هذا الحق الذي يعدى على النساء قول جهم بن سبل الكلاني .

حلفت لأتجنّ نساء سلى نتاجا كان أكثره الخ — داج^(٤)

٢ — على أن هذه القسوة كانت شاذة عند العرب كما سبق ، ولم ينفردوا بها على ندرتها ،
فإن الرومان كانوا يعدون الأسرى والسبايا وسكان البلد المفتوح ملكا للفتح يتصرف فيهم
كما يرى ، فله أن يقتلهم ، وله أن يستعبدهم ، وله أن يبيعهم^(٥) .

وكان الإسبرطيون قساة في معاملة أرقائهم ، لا يفلونهم حقا ، بل إذا ازداد عددهم من
الأسر أو الشراء قتلوهم غير مبقين إلا على من يحتاجون إليه^(٦) . وقد حدث هيرودوت
عن الفرس أنهم كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، لكنهم يبيعون لسيده أن
يقتله أو يعذبه إذا أذنب مرة بعد أخرى^(٧) . وكان بعض براهمة الهند يضربون الذلة
على العبيد المعروفين باسم السودرا ، وأيسر ما يعاقب به الرقيق على إغضاب سادته أن
يسل لسانه ، أو يقتله بعد التمثيل به على مشهد من الناس^(٨) .

وما زال الملونون محرومين المساواة الإنسانية إلى اليوم في الأمم الأوروبية والأمريكية .
وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد في المستعمرات إذا هربوا من
الأسر ، أو جفوا في معاملة سادتهم ، ولم يكن على السيد الذي يقتل عبده بالإرهاق أو التعذيب
عقاب منصوص عليه^(٩) .

(١) معجم البلدان ٣١٧/٧ (٢) الديوان القصيدة ١٢ (٣) الديوان القصيدة ٢٧

(٤) معجم البلدان ٢٠/٤ (٥) تاريخ الحضارة ١٤٨ (٦) دائرة المعارف للبيستاني ٦٩٦/١١

(٧) داعي السماء بلال للعقاد ٧٥ (٨) داعي السماء ٧٤ (٩) داعي السماء ٧٧

الإماء

ليس في اللغة تفرقة بين السبي والامة ، فالسبي : النهب وأخذ الناس عبيداً وإماء ، والسبية المرأة المنهوبة ^(١) . والامة : المرأة المملوكة ذات العبودية خلاف الحرة ^(٢) .

ولم أجد تفرقة بينهما في أى مرجع مما قرأت ، لكن الروح العام للشعر الجاهلي ، ولحياة أبناء السبايا وأبناء الإماء يوحى بأن بين السبية والامة فرقا في المكانة الاجتماعية ، فالسبايا عربيات يؤخذن قسراً في حرب أو غارة وثمنهن الدم ، أما الإماء فغير عربيات يشتريهن بالمال للخدمة والتسرى ، لذلك طالما باهى الشعراء — كما سبق — بالسبي وبأهوا باستيلاء السبايا ، ولم يباهوا باستيلاء الإماء ، وتهاجوا بالامهات الإماء ، ولم يتهاجوا بالامهات السبايا ، وبرئوا من أن تكون أمهاتهم إماء ولم يبرءوا من أن يكن سبايا .

وقد مررنا أن المرأة الحرة كانت إذا هزم قومها تبرز مكشوفة سافراً ليحسبها الغالبون أمة فيرغبوا عنها ، لأنها تعلم أنهم لا يريدون غير الحرائر ، وفي ذلك يقول سيرة بن عمرو الفقعسي :

ونسوتكم في الروع بادٍ وجوهها يُخلن إماء والإماء حرائر ^(٣)

فلو أن كل سبية تصير أمة ما فرق السباة بين هذه وتلك . وقد تبين في دراسة السبايا أن العرب طالما غفروا بإطلاق السبايا ومدحوا به ، كما افتخروا بفكهن ومدحوا باستردادهن ، ولم يرد شيء من هذا عن الإماء . لهذا كانت السبية أعلى مكانة من الامة ، وكانت تعامل معاملة حسنة ، فقد سبق أن العرب كانوا يعيرون من يقسو على سباياه . وهذه المعاملة الحسنة للسبايا كانت تقليداً متعارفاً عليه ، لأن السباة حدث متبادل بين المتحاربين ، فالمنتصر اليوم قد يهزم غداً ، فعليه أن يحسن معاملة سباياه حتى إذا ما منى بالهزيمة وسببت نساؤه أكرمهن سباتهن .

(٢) لسان العرب والقاموس المحيط مادة أما

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة سبي

(٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٣٨/١

على أن أبناء السبايا كانوا ينسبون إلى آبائهم بغير حاجة إلى أن يلحقوهم بهم ، كدريد ابن الصمة وإخوته ، والأشهب بن ثور ، وأبناء زرارة بن عدس ، كما أسلفت ذلك . أما أبناء الإمام فكانوا لا يلحقون بآبائهم إلا إذا ادعواهم ، كعنترة بن شداد .

وليس في نحر أبناء السبايا هذا الشعور بالنقص الذي نجده في نحر أبناء الإمام ، وفي محاولتهم التعويض عنه بالإشادة ببطولتهم تارة وبالمباهاة بآبائهم تارة .

ثم إن أبناء الإمام كانوا يتحاشون أن يذكروا أمهاتهم في نغارهم أو في غير نغارهم ، على حين نجد دريد بن الصمة يذكر في رثائه لأخيه عبد الله — وهو أحد أشقائه — أنه ابن أمه وشريكه في رضاع ثديها الثر العذب .

دعاني أخى والخيـل بينى وبينه فلما دعاني لم يحـ — دني بقعد
أخى أرضعتني أم — بلبانها — بشدي صفاء بيننا لم يحـ — دد (١)

ولو أنه كان يجد في نفسه ما وجد عنترة بن شداد من هوان أمه وضعة منزلتها ما سلك هذا المسلك في توكيد حبه لأخيه ، وتفجعه عليه .

وقد سبق أن الخنساء ودريد بن الصمة تهاجيا لما رفضته زوجا ، وأنها رفضته لكبرة سنه ، ولو أن سبي أمه عار لجاء في رفضها ذكر له كما سنرى في رفض الشريقات لأبناء الإمام ، بل إن أباهما هش له ورحب به ، وأنبأها أن سيد بني جشم جاء يخطبها .

وسنرى أن الإمام مارس من الأعمال ما لم تمارس السبايا . وإذا فقد استبان لى أنه لا مندوحة من التفريق بين السبايا والإماء في صفة كل منهن ، وفي مكاتبتها في نظر العرب ، وفي منزلة بنيتها في الحياة الاجتماعية .

(١) الأغاني ٩/٤ ولسان العرب مادة قعد وشعراء النصرانية ٧٥٧ قعد : جبان لثيم قاعد عن الحرب والمسكرام . لم يجدد : لم ينضب لبنه عن عيب أو لم ييبس .

معاملة الإماء

(١)

١ — كان سادتهن يستولدونهن أحياناً .

ومن الطبيعي ألا يسمو ابن الأمة إلى مكانة ابن الحرة إلا إذا تميز بصفات تجبر مافي استرقاق أمه من خدش لمكانته ، وقد كان الأكَسرة وأكثر عرب الجاهلية لا يسودون أولاد الإماء ، ويسمونهم الهُجَناء ، ويسمون أولاد المهيرات الصُّرَحَاء (١) . بقول مهلهل في امرئ القيس بن حُمَام — وكان هجيناً .

لما تَوَعَّر في السُّكْرَاع هجينهم هَلَهَلْتُ أَثَارَ جَابِرًا أَوْ صُنْبِلًا (٢)

وقد سبق في الزواج أن العربية كانت تأنف أن يتزوجها عبد أو ابن أمة ، فقد عاش الشنفرى أسيراً في بني سُلامان حيناً ، لا تحسبه إلا أحدهم ، حتى لقد اتخذهُ السَّلامى ولداً ، فقال الشنفرى يوماً لبنت سيده ، اغسلي رأسي يا أخية . فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته (٣) لذلك كان أبناء الإماء يعيرون بأمهاتهم ، يدل على ذلك أن عروة بن الورد العبسي سبى سَلَى الغفارية ، فولدت له أولاداً ، وكان شديد الحب لها ، وكان أولاده يعيرون بأُمهم ، ويسمون بني الأَخِيذَة . فقالت له : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تردني إلى قومي حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . ففعل ما أشارت به ، وتزوجها من قومها (٤) .

ومن التعبير بالأم الرقيقة قول أوس بن حجر .

أَبْنَى لُبَيْنَى إِبْنِ أُمِّكُمْ أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكُمْ عَبْدٌ (٥)
وقول عُمَيْرَة بن جَعَلٍ في هجاء خَصْمِيهِ .

وَجَدَّا كَمَا عَبْدُ عُمَيْرِ بْنِ عَامِرٍ وَأَمَّا كَمَا مِنْ قَيْنَةٍ أَمْتَانِ (٦)
وقول حسان بن ثابت .

أَبُوكَ أَبُوكَ وَأَنْتَ ابْنُهُ فَبُئْسَ الْبُنَى وَبُئْسَ الْآبُ

(١) جهرة الأمثال ١٥ (٢) معجم الشعراء للمرزباني ١٨ ولسان العرب مادة هَلَل . توعر : أخذ في مكان وعر وأنشده الجوهري لما توغل (٣) الأغاني ٨٧/٢١ (٤) الأغاني ٣٨/٣ (٥) ديوان أوس بن حجر ٥ (٦) المفضليات ٦٠/٢

وأُمك سوداء نوبية — كأن أناملها الحنْظب

بييت أبوك به — مُغْدِفًا كما س — اور الهرة الثعلب^(١)

ويعير الأسود بن يعفر بنى نُجَيْح بقوله :

أبني نُجَيْح إن أمك — أم — وإن أباكم وقب

أكلت خبيث الزاد فاتَّخَمَتْ منه وشمَّ خمارها الكلب^(٢)

وكثير من الشعراء افتخروا بأن أمهاتهم حرائر ، وكثير من السادة مدحوا بحرية أمهاتهم كما سبق في (الأم) . كقول الخنساء في رثاء صخر :

يا بن القروم ذوى الحجا وابن الخضارم — المرافد

وابن المم — ائر للمها ثر زانها الشيمُ المواجد^(٣)

٢ — وقد اشتهر بعضهم بالفروسية كخفاف بن عمير بن الشريد أمه نُدْبَة وهى أمة سوداء وإليها نسب^(٤) ، وأُسَليكَ بن السُلَكة أمه السُلَكة أمة سوداء نسب إليها^(٥) ، وعنترة بن شداد أمه زَبِيبَة أمة سوداء^(٦) ، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أمه حبشية اسمها سَبْحاء ، وكذلك عثمان بن عَنبَسَة ، ومالك بن صَبَّ الكلبى ، وشقيق بن سلمة ، وحنظلة ابن صفوان الكلبى^(٧) . وقد ذكر المبرد طائفة من النجباء أبناء الإمام^(٨) .

٣ — لذلك لم يطق بنو الإمام صبراً على هذا التعبير ، فطالبوا ردوا عليه بفخرهم بأنهم شجعان فرسان مغاوير ، وبأنهم كرماء ماجدون ، لكننا لا نجد في شعرهم اعتزازاً بنسب الأم أو سخطاً على السبى والاسترقاق ، أو نزوعاً إلى المساواة ودعوة إلى الأخوة الإنسانية . وأنى لهم أن يدعوا إلى ذلك وهم لا يدينون به ، والعصر كله يدين بالسَّاء ، وبالتفاوت في القدر بين الحر والعبد ، وبين الحر والحر ؟

لذلك يعترف خفاف بن ندبة بأن نسبه من جهة أمه أسود ، لكن ما أثره سودته في قومه ، يقول عن نفسه وعن العباس بن مرداس وهو ابن أمة مثله .

كلانا يسوده قوم — ه على ذلك النسب المظلم^(٩)

(١) الحنْظب : ذكر الجراد أو ذكر الخنساء . مغْدِف : سافد (٢) لسان العرب ٣٠٠/٢

وقب : عبد (٣) ديوان الخنساء ٦٢ (٤) الشعر والشعراء ١٢٢ والأغانى ١٣٤/١٦

(٥) الشعر والشعراء ١٣٤ (٦) الأغاني ١٤٢/٧ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات السبع

لابن الأنبارى ٥٠ مخطوط (٧) المحبر ٣٠٥ (٨) الكامل للمبرد ٣١١/١ (٩) الشعر والشعراء ١٢٢

وله شعر كثير في دفاعه عن نفسه (٢). وفصل في بعضه مفاخره ، فيقول إنه جلد صبور
لبق ، ينتسب إلى أجداد ذوى عزة ، وذوى مفاخر ، لكنه لم يعين هؤلاء الأجداد أهم آباء
أمه أم آباء أبيه .

إن تعرضى وتضنى بالنوال لنا فواصلن إذا واصلت أمثالى
إنى صبور على ما ناب معترف أصرف الامر من حال إلى حال
أننى إلى مجد أجداد لهم ع - دد مدللين لوطء الحق أزوال (٣)
وكثيراً ما دافع عنتره عن سواده ، وخايل ببطولته ، وإذا كان قد حرم السراوة من
جهة أمه فإنه قد أحرز نصف المجد من أبيه ، وكسب نصفه الآخر بسيفه ، فهو إذاً خير من
شريف الأب والام .

إنى امرؤ من خير عبس منصبا شطرى ، وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتبية أحجمت وتلاحظت ألفت ح - يراً من معمم مخول
إن كنت فى عدد العبيد فهمتى فوق الثريا والسماء الأعزل
وبذابلى ومهندى نلت العلا لا بالقرابة والعديد الأول (٤)
ويدافع عن سواده بأنه تميز له وعلم على شجاعته يوم الحرب .

لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسب يوم النزال إذا ما فاتنى النسب (٥)
وكذلك دافع السليك بن السليكة عن رق أمه بقوله :

ألا عتبت على فصارمتنى وأعجبها ذوو اللمم الطوال
فإنى يا بنه الأقوام أربى على فعل الوضىء من الرجال
أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرجال
يشق على أن يلقين ضيا ويعجز عن تخلصهن مالى (٦)
ولم يفض أبناء الإمام عن مهانة تلحق بأمهاتهم ، وإنما دافعوا عنهن وأحسنوا .

(١) منتهى الطلب ١٥١ - ٢٢ مخطوط (٣) منتهى الطلب ٢١/١

(١) ديوان عنتره ١١٩ وبيع الأبرار ٨ مخطوط والمعانى الكبير لابن قتيبة ٥٠٧/١ ويريد بالمعم
المخول قيس بن زهير وكان له عشرة أعمام وعشرة أخوال (٥) الديوان ١٠

(٦) تهذيب الكامل ٩٧/٢

فقد استطالت امرأة من بنى مرة على سبية أم أرطاة، وسببتها، فخرج إليها أرطاة فسيبها وضربها، فلامه قومه، وقالوا: مالك تدخل نفسك في خصومات النساء؟ فقال:

يعيرني قومي المجاهل — والخنا عليهم — وقالوا أنت غير صميم

هل الجهل فيكم أن أعاقب بعدما تجوز سبي واس — تحل حريمي

إذا أنا لم أ منع عجوزي منكم فكانت كأخرى في النساء عقيم^(١)

على أننا إذا كنا لا نجد في العصر الجاهلي شاعراً نافحاً عن نسبه أو حاول السمو به إلى سمت العرب فليس معنى هذا أنهم ارتضوا حياتهم واطمأنوا إلى أقدارهم لأنه لا شك في أنهم كانوا يجنون آلامهم في أنفسهم ويكتبون سخطهم أن يظهر.

٤ — وكان العرب لا يلحقون أبناءهم من الإماء بنسبهم، فلا يرثون إلا إذا ادعواهم، وأشهدوا على أنهم ألصقوا بهم نسبهم. فإذا لم يلحق الرجل ابنه بنسبه استبعده^(٢). وقد ألحق شداد ابنه عنتره به لما أبلى في رد المغيرين على بنى عبس إذ قال له أبوه: كر يا عنتره. فقال: العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والصر. فقال: كر وأنت حر. ففكر وهو يقول:

أنا الهجين عنتره كبل امرئ يحمي حره

أسودّه وأحمره والواردات مسفره

وقاتل يومئذ قتالا مجيدا، فادعاه أبوه وألحق به نسبه^(٣).

وربما كان من أسباب احتقار بعضهم لأبناء الإماء أن بعض الإماء كن يزنين في الجاهلية، وكان سادتهن يأتونهن أيضاً، فإذا أتت المرأة بولد فربما يدعيه السيد، وربما يدعيه الزاني، فإن مات السيد ولم يكن قد ادعاه ولا أنكره فادعاه ورثته لحق به، لكنه لا يشارك مستلحقه في ميراثه إلا أن يستلحقه قبل القسمة، وإن كان السيد أنكره لم يلحق به. من ذلك أن زمعة بن قيس كانت له أمة، وكان يلم بها، فظهر بها حمل، وكان سيدها يظن أنه من عتبة بن أبي وقاص، فعهده عتبة قبل موته إلى أخيه سعد أن يستلحق ذلك الحمل. فلما كان عام الفتح تنازع في الولد سعد وعبد بن زمعة، الأول يقول إنه ابن أخي، والثاني يقول إنه أخى وابن جارية أبي، واحتسبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقضى بأن الولد للفراش^(٤). ثم إن الأمة أدنى شأنًا من السبية كما سبق، وابنها مثلها في ضعة الشأن.

(١) الأغاني ١٤٠/١١ (٢) الشعر والشعراء ٧٥ والأغاني ١٤١/٧

(٣) الأغاني ١٤٢/٧ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات للزوزنى ٥٠ مخطوط

(٤) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدي ١٧٣/٢

هـ — ليس العرب بدعا في نظرتهم هذه إلى أبناء الإماء . ففي شريعة حمورابي أن أولاد الرجل من جاريته لا يعدون أولاداً شرعيين إلا إذا نسبهم إليه ، فإذا نسبهم إليه كان لهم حق الإرث ، وإلا فلا ميراث ، ولكنهم يعتقون^(١) .

والرومان كانوا يعدون أولاد السبايا عبيداً كأمهاتهم^(٢) .

وقد حدث هيرودوت عن اللاتين أنهم كانوا يلقبون أولاد الإماء بأسماء أمهاتهم لا آبائهم ، فلو سئل أحدهم عن اسمه ذكر اسمه واسم أمه ثم جدته لأمه . وأعجب من ذلك أن المرأة الحرة إذا تزوجت عبداً عد أولادها أحراراً ، أما إذا كان الزوج حراً وامرأته أمة فأولادها رقيق ، وإن كان أبوه أعظم رجل في المملكة^(٣) .

ولم ينتسب ابن الجارية إلى أبيه عند اليهود وإن تهود ، لقول الكتاب :

« عصوا الله وجاءوا بنسل غريب^(٤) » . لذلك كان من الطبيعي ألا يرث^(٥) .

وجرى الآشوريون على حرمان أبناء السبايا من الميراث ، إلا إذا لم يكن للأب أولاد من زوجة حرة^(٦) .

وكذلك البابليون ، فإنهم لم يورثوا ابن الأمة إلا إذا اعترف به أبوه أمام شهود^(٧) . وقد أقر أرسطو استمتاع الرجل بجاريته على أن يكون ابنها حراً^(٨) . ولم تسمُ أمة بأبناء الإماء كما سمت مصر ؛ لأن المصريين كانوا يسوونهم بأبناء الزوجات الشرعيات ، حتى في التربية والميراث^(٩) .

وإذا فقد كان أبناء الإماء عبيداً في نظر العرب والرومان واللاتين واليهود ، وكانوا محرومين من الميراث في عرف العرب وشريعة حمورابي واليهود والآشوريين والبابليين ، وكانوا لا يلحقون بنسب الآباء في الأمم إلا إذا ادعواهم .

ولم يغير العرب في نظام النسب إلا أرسطو والمصريون القدماء .

(١) العرب قبل الإسلام جرجي زيدان ٤٧ (٢) تاريخ الحضارة ١٤٨ شارل سنيوبوس
(٣) الأمم عند العرب ٤٥ (٤) شعار الحضرة ٨٩ (٥) شعار الحضرة ١٧٣ (٦) النظم
السياسية والاجتماعية ٣٧ (٧) المرجع السابق ٣٦ (٨) الرق في الإسلام ١٩ (٩) الحضارة المصرية
لويون ٧١

وكانت الامة تستعبد كما يستعبد الاسير ، والاسير كان في عداد العبيد ، فقد أسر زيد الخيل جماعة من بنى عامر وحلفائهم ، منهم الخطيئة الشاعر ، ثم من عليه وأطلقه وقال :
أقول لعبدي جـرول إذ أسرته أثبني ولا يغـررك أنك شاعر
فمدحه الخطيئة بقصيدتين^(١).

وكن إذا يقمن بأعمال تناسب عبوديتهن :
١ — فيخدمن سادتهن ، ولهذه الخدمة مظاهر شتى . فقد تكون خدمة للبلوك تشبه عمل الوصيفات . يدل على ذلك قول النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث الغساني :
تحيهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضريح فوق المشاجب^(٢)
وقد يطبخن الطعام ، ويظهر أنهن كن يستقلن بالطبخ في بيوت الاشراف ؛ لأن نساءهن مترفات أو مترفعات أو مكفيات العمل ، قال طرفة :
تبئت إماء الحى تطهى قـدورنا ويأوى إلينا الاثـعث المتحرف^(٣)
وقال إن الإماء اشتوين لنا ولد الناقة على الرماد الحار وعلى الجمر ، وسعين علينا بقطع من السنام السمين :

فظل الإماء يمتلن حوارها ويسعى علينا بالسديف المسرهد^(٤)
وإذا ما فرغ انسادة من الطعام أكلت الإماء ما بقي ، يدل على ذلك قول النابغة :
فظل الإماء يبتدرن قديحهم كما ابتدرت سعد مياها قراقر^(٥)
ويقول عمرو بن قيسة :

ورأيت الإماء كالجعثن البـا لى عكوفاً على قرارة قدر
ورأيت الدخان كالردغ الأصـح م ينباع من وراء السـتر^(٦)

(١) الأغاني ١٦/٥٤ (٢) ديوان النابغة ٨ الولائد : الإماء . الإضريح : خز أحمر أو أصفر
(٣) ديوان طرفة ٤٤ و ١٢٧ وشعراء النصرانية ٣١٣ المتحرف : الذى أذهبت السنون ماله
(٤) ديوان طرفة ٣٥ وشرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ٣٧ مخطوط . يمتلن : يشوين فى الملة
وهى الرماد الحار والجمر . الحوار : ولد الناقة . السديف : قطع السنام . المسرهد : السمن
(٥) أساس البلاغة مادة قدح . قديح : بقية المرق فى الفدر (٦) ديوان عمرو بن قيسة ٦٦
الجعثن : أصول الصليان وهو نبت . الردغ : الطين . ينباع : يخرج فى شدة

ومدح الأسود بن يعفر قوماً بأنهم كرماء لا تميل إمامهم أو أنى الطبخ ، أى لا يفرغن من الطهو للضيفان :

بها ليل لا تُصغى الإمام قدورهم إذا النجم وافاهم عشاءً بشمال^(١)
وكن محتطبن أيضاً ، يقول الأخنس بن شهاب فى وصفه الأطلال إن النعام يمشى بها
أمنأ متشافلا كمشى الإمام الحوالب أعياهن ثقل الحمل :

فلابنة حطان بن قيس من — ازل كما نَمَقَ العنوان فى الرق كاتب
تَمْشَى بها حَوْلَ النعام كأنها إمام تَرْجَى بالعشى حوالب^(٢)
ويقول طرفة فى هذا المعنى :

حاسبى رسمٌ وقفتُ به لو أطيع النفس لم أرمه
لا أرى إلا النع — ام به كالإمام أشرفت حزمه^(٣)
وقد وصف قيس بن الخطيم الإمام بأنهم حوالب ، مما يدل على شيوع هذا العمل فى
طبقة خاصة أو على أنه عمل مرهق :

أصابَتْ سراً ملاًغراً سيوفنا وغودر أولاد الإمام الحوالب^(٤)
وكان الاحتطاب من عمل العبيد أيضاً . يؤيد ذلك قول امرئ القيس إنهم خرجوا للصيد
وشرع عبيدهم يجمعون الحطب ليشتروا القنص :

خرجنا نريغ الوحش بين ثعالة وبين رحيات إلى فجٍ أخرب
إذا ماركبنا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتنا الصيد نخطب^(٥)
وكن يرعين الغنم والإبل كما يرعى العبيد ، قال ذو الإصبع العدوانى فى رده على ابن عمه
ونعريضه به — وكان ابن أمة — :

عنى إليك فما أرى براعية ترعى المخاض وما رأى بمغبون^(٦)
وقال الأعشى :

والبيض قد عنست وطال جراؤها ونشأن فى قنٍ وفى أذواد^(٧)

(١) لسان العرب ١٩٦/١٩ لاتصق : لا تميل أو لاتنقص القدور (القاموس والأساس) وفى اللسان
لا تصفو أى لا تأخذ صفوه . (٢) شرح الحماسة للتبريزى ١٢٣/٢ والموشح ٤٤ وشعراء النصرانية
١٨٤ حول : لم تحمل (٣) ديوان طرفة ٧٠ (٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط
(٥) معجم البلدان ١٤٨/١ (٦) المفضليات ١٥٨/١ والأمالى ٢٥٥/١ المخاض : الحوامل من
النوق أو التى بلغت سنتين (٧) ديوان الأعشى ٩٩ : عنست : لم يتزوجن . طال جراؤها : طال
زمن شبابها . قن : رق . أذواد : جماعات من الإبل

٢ — يحترفن بالبغاء :

(١) كان بعض الإماء جميلات كما وصفهن طرفة^(١) ، وعبد بن الطيب^(٢) ، وسلامة ابن جندل^(٣) ، وامروء القيس^(٤) . وكن لا يتحرزن ولا يتصون ، فكان الرجال يستمتعون بهن . يدل على ذلك قول الأعشى :

والبيض قد عنست وطال جراًؤها ونشأن في قنّ وفي أذواد
ولقد أخالهنّ ما يمنعنني عصراً يملنّ عليّ بالأجباد^(٥)

وقد أحب واحدة منهن ، وأكثر من التشبيب بها . أحب هريرة ، وكانت هي وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مرثد ، قدم بهما اليامة لما هرب من النعمان^(٦)

(ب) لهذا احترف بعضهن بالبغاء ، وكان البغاء مقصوراً عليهن ، والدليل على ذلك أن البغى في اللغة الأمة أو الحرة الفاجرة^(٧) ، ومن إطلاقها على الأمة قول الشاعر :

نخر البغى بحدج ربّها إذا ما الناس شلّوا^(٨)

ويذكر أبو علي القالي أن البغاء الفجور في الإماء خاصة ، وأن البغى الأمة^(٩) . وقد عبر الأعشى عن الإماء بالبغايا في مدحه الأسود بن المنذر أو المنذر ابنه :

يهب الجلة الجراجر كالبسّ تان تحنو لدرّدق أطفال
وبغايا يركضن أكسية الإضّ ربيع والشرعيّ ذا الأذبال^(١٠)

ثم إن القرآن الكريم عبر عنهن بالفتيات ، وهذه الكلمة لم تطلق في القرآن إلا على الإماء « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيماهن من فتياتكم المؤمنات »^(١١) . « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيماهنم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم »^(١٢) . فلو أن البغاء كان بين الحرائر أيضاً ما خص القرآن الإماء بالذكر ، على أن أنفة العرب

(١) ديوان طرفة ٣٥ (٢) المفضليات ١٤٣/١ (٣) المفضليات ١١٨/١

(٤) ديوان امرئ القيس ١٤٢ (٥) ديوان الأعشى ٩٩ الجراء : الشباب والفتاء . قن :

رق . أذواد : جماعات من الإبل (٦) الأغاني ٧٧/٨ (٧) القاموس المحيط ولسان العرب مادة بغى

(٨) جمهرة الأمثال ١٠٧ (٩) الأمل ١٧٥/٢ (١٠) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب

٨٣/١٨ الجلة : الإبل المسنة . الجراجر : جمع جرجور وهو البعير الضخم . درّدق : صفار الإبل . الشرعي :

نوع من البرود (١١) سورة النساء الآية ٢٥ (١٢) سورة النور الآية ٣٣

وغيرتهم على الحرائر ، وعفة الحرائر أيضاً وتخوفهن سوء القالة ، كل ذلك كان مغنياً عن نهى العرب عن إكراه النساء الحرات على البغاء ^(١) .

(ج) وإذا فقد كان بعض الرجال يفتنى الإمام ويكرههن على البغاء ، ليجلبن له مالا ، أو ليلدن أولاداً يبيعهم ، أو ليكرم ضيفه ، فمثلاً كان عبد الله بن جدعان نحاساً ، له ست جواريزنين ويبيع أولادهن ^(٢) ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول يجبر جاريتيه أو جواريه الست على البغاء ؛ لأنه كان يبيع أولادهن ويتقاضى منهن ضرائب ، وكان إذا نزل به ضيف أرسل اليه جارية ليباشرها تكريماً له ، فشكت إحداهن أو اثنتان منهن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية . وعن ابن عباس وعن عليّ أن بعض الرجال كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهن فنهوا عن ذلك في الإسلام ^(٣) . ويظهر أن شذاذاً من الأعراب كآل عزة بالعراق ظلوا يجبرون جواريههم على الزنا مجلبة للأولاد كفعل الجاهلية ^(٤) . ولم يكن هذا العمل القبيح موقوفاً على ابن جدعان وابن أبي ، وإنما مارسه غيرهما كما

سيجيء .

(د) وكن يميزن بيوتهن بأن ينصبن عليها رايات لتدل إليهن من يريدن ^(٥) . وقد ذكرتهن السيدة عائشة في أنكحة الجاهلية ^(٦) . وقيل لهن كن تسعا أو أكثر معروفات ، سمى منهن هشام بن الكلبي أكثر من عشر في كتابه المثالب ^(٧) . وهن جميعاً من سواقط الإماء مثل مريفة جارية زمعة بن الأسود ، وأم عُلَيْط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل ^(٨) .

وقد اشتهر من هؤلاء سُمَيَّة أم زياد وإخوته ، وهي جارية فارسية أهديت إلى سيدها الحارث بن كلدة الطبيب ^(٩) ، وكان لها أبناء اشتهروا . فابنها أبو بكر تَفِيع انضم إلى الرسول في حصار الطائف سنة ٨ هـ عند ما وعد من ينضم إليه أن يكون حراً ، سواء أكان حراً أم عبداً ، وصار من مواليه ^(١٠) . وابنها نافع بقى مع الحارث بن كلدة فأعلن حرية وبنوته كما أعلن بنو أزد بنت سمية ^(١١) .

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٧٠ - ٢٧٥ (٢) الأعلام النفيسة لابن رسته ٢١٥/٧
(٣) تفسير الطبري ١٠٣/١٨ وتفسير القرطبي ٢٥٤/١٢ والإصابة ٢١/٨ و١٨٩ وفتح الباري ٣٧٨/٤ وتفسير الألوسي ١٥٧/١٨ والعقد الفريد ٢/٣ وتفسير الجلالين ٢٩٥ وتفسير الرازي ٣٩١/٦
(٤) تفسير الألوسي ١٥٧/١٨ (٥) إنسان العيون ٤٦/١ (٦) فتح الباري ١٥٩/٩
(٧) بلوغ الأرب للألوسي ٥/٢ (٨) بلوغ الأرب للألوسي ٥/٢ (٩) أسد الغابة ١٥١/٥
والروض الأنف ١٣/٢ والمعارف ٩٧ ومعجم البلدان ١٥٢/٢ والأغاني ٦٥/١٧ ودائرة المعارف الإسلامية ٣١٥/١ (١٠) المغازي ٣٧١ والروض الأنف ٣٠٤/٢ (١١) فتوح البلدان ٣٤٣ و٣٥٠ والمعارف ٩٧

وهؤلاء جميعاً إخوة زياد لأمه ، وبحسب زياد من نباهة الشأن أن ادعى أخوته معاوية ، وأن جعله أكبر ولاته .

(هـ) وإذا ما تغضنت وجوه هؤلاء البغايا الحسان ، ويبست أعوادهن ، وانصرف الرجال عنهن غلبتهن طبيعتهن ، فسفرن بين الرجال والنساء ، يتكسبن بذلك ويتعزين بشيوع الفاحشة ، ويثأرن من المجتمع الذي يحتقرهن . يدل على ذلك قول السيدة عائشة : ليست الواصلة بالتي تعنون ، وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن الواصلة أن تكون بغياً في شببتها ، فإذا أسنت وصلته بالقيادة^(١) . وفي شعر امرئ القيس^(٢) والأعشى^(٣) وعنزة^(٤) ما يدل على ذلك .

(و) وهؤلاء البغايا كن محقرات ، لأنهن جمعن حقارة الإماء إلى حقارة البغاء ، والدليل على تحقير الإماء وبخاصة في نظر النساء أن عاصية بنت ثابت بن أبي الأفلح زوجة عمر رضي الله عنه لما أسلمت أتت عمر فقالت : قد كرهت اسمي فسمني . فقال : أنت جميلة . فغضبت وقالت : ما وجدت اسماً تسميني به إلا اسم أمة ؟ وأتت النبي صلى الله عليه وسلم واستقسمته فسمها جميلة أيضاً . فغضبت ، وذكرت ما قالت لعمر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه^(٥) .

ويدل على ذلك أيضاً هجاء عمرو بن معد يكرب لخصومه بقوله :

وكنتم أعبداً أولاد غيلٍ بني أمٍّ مرأتٍ على السَّفاد^(٦)

وقد أكثر يزيد بن مفرغ من هجاء عباد بن زياد ، والتنديد بمعاوية ، لأنه ادعى أخوة زياد ، كقوله لعباد :

إذا أودى معاوية بن حرب فبشر شعب قلبك بانصداع
فأشهد أن أمك لم تبأشر أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمر فيه لبس على وجلٍ شديدٍ وارتياع^(٧)

وقوله لمعاوية :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلَّلةً من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفي وترضى أن يقال أبوك زان ؟

(١) عيون الأخبار ١٠٢/٤ (٢) ديوان امرئ القيس ١١٣

(٣) ديوان الأعشى ١٢٢ و ١١٤ (٤) ديوان عنزة ١٥٢ (٥) الإصابة ٤٠/٨

(٦) لسان العرب ٤٧/١٨ الغيل : اللبن ترضعه المرأة وهي حامل . أم : إماء

(٧) الأغاني ٥٧/١٧ و ٦٦ والشعر والشعراء ١٣٣

فأشهد أن رُحْمَك من زياد كُرْحَم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً وصخرته من سُمَيْة غير دان (١)
وله في هذا المجال جولات (٢).

وكانت البغايا يشعرون بمهانتهم كما يشعر الإمام بغامة ، ومصدق هذا أن بيوتهم كانت
بمنأى عن المساكن ومضارب الخيام ، وأن روادهم كانوا ينسلون إليه في الظلام ، لذا سمّين
المظلمات . تقول العوراء بنت سُبَيْع في رثائها أخاها إنه كان عقلاً لا يرود بيت مظلمة :
أبكي لعبـد الله إذ حُشْتُ قَيْلَ الصبـح — ح نارـه
طـيان طـاوى الكـشح لا يـرْخـى لمظـلمة — إزاره (٣)

وقد قيد العرب البغاء بقيود ، منها أنه كان يحظر على العربية أن تمتن بالبغاء ، لأنه كان
يقصر على الرقيقات الأجنبية ، ومنها أن كثيراً من الالتزامات العائلية كانت تجب بسببه (٤)
كما ذكرت السيدة عائشة في حديثها عن نكاح الجاهلية أن البغي إذا حملت ووضعت جمعوا
لها القافة ، فألقوا ولدها بمن يروونه شبيهاً به من الذين ترددوا عليها ، فيدعى ابنه ولا يمتنع
من إلحاقه (٥).

إز ولست أرتاب في أن تأجير الأمة للزنا امتهان لها ، ومهانة لسيدها . ولا يسمح هذه
الوصمة عن العرب أن بعض الأمم شاركتهم فيها ، فالرومان كانوا يسبون النساء ليستمتعوا
بهن ويؤجروهن ، وارتفعت أثمان الجوارى الحسان لأنهن يجابن لما لهن ثروة من الفجور (٦)
وكانت الفتيات والزوجات يبحن للرجال أن يباشروهن في هيكل الإلهة عشتروت
ببعلبك ، ويعتبرون هذا عملاً مقدساً ، لأنه زلنى إلى إلهة الخصب والنتاج ، وقد ظلت هذه
العاهرة المقدسة إلى عهد قسطنطين (٧).

(١) المرجع السابق (٢) الأغاني ٥٧/١٧ — ٧٠ وخزانة الأدب ٥١٦/٢ ووفيات الأعيان
٣٢٣/٣ والعقد الفريد ٢٣١/٣ ويذكر صاحب العقد أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت هو القائل :
ألا أبلغ معاوية بن حرب . الأبيات (٣) مراثي شعراء العرب ١٤٧ حشثت أو قدت (٤)
(٤) الأسيرة والمجتمع ٧٥ (٥) إنسان العيون ٤٧/١ (٦) الرقي في الإسلام ٣٤
(٧) النظم السياسية والاجتماعية ٢٢

كذلك كان لزاما على كل امرأة في بابل وأشور أن تمارس العهارة المقدسة مرة في حياتها، فكان هيكل مليتا ربة الجمال يغص بهؤلاء النسوة ^(١)، وقد شهد هيردوت هذه الحفلات في آشور تقديسا للإلهة استار ^(٢)، كذلك كان الفينيقيون والإسرائيليون يمارسون العهارة المقدسة، واتخذوا البغاء تكريما لعشترت ^(٣).

بل إن فساد الخلق تسرب إلى زوجات بعض القياصرة، وجاهرن به، وحسبنا أن نذكر اسم ليفيا أو ستيليا زوجة كاليكولا (٢٧ - ٤١ م) ومسالين زوجة خليفته كلود (٤ - ٥٤ م). وكانت تيودورا زوجة جستنيان الأول سيئة السيرة، وقالوا إنها فسقت علانية مع ابنها ومع أختها، ومع سيدات الحاشية، وتمادت إلى أن كانت تخرج مع أختها في الليل فتفترشان بساطا في الشارع وتفسقان عليه ^(٤).

فإذا كان بعض العرب قد أجر الإمام للفجور فإن غيرهم قد فعل ذلك أو ما يشبهه. ولكن هذا لا يبرىء العرب من اللوم، سواء أكان الباعث لهم الرغبة في المال، أم في الأولاد الذين يباعون أحيانا، أم لإطاف الضيف كما سبق، أم كان الباعث أن هذا ضرب مشوه من العهارة المقدسة، التي كانت معروفة عند الآشوريين والبابليين والفينيقيين والرومان واليهود، والعرب على صلة بهؤلاء جميعا.

والواقع أن عدد الإمام اللائي كن يبعين كان قليلا جدا كما سبق، ولم يكن يمارسه من نساء العرب أحد.

(٣)

وكن يبعن ويورثن، فقد اشترت أم حبيبة بنت أبي سفيان أمة اسمها بركة جاءت بها من الحبشة معها ^(٥). وورث النبي عن أمه مولاته أم أيمن - اسمها بركة - ^(٦)، ويظهر أنها هي التي ذكر ابن سعد أنه ورثها من أبيه، وأنها كانت جارية عسراء اللسان، واسمها أم أيمن، وهي حاضنة الرسول ومربيته، وقد أعتقها حين تزوج السيدة خديجة، وكان يدعوها أمه، وكان إذا نظر إليها يقول: هذه بقية أهل بيتي ^(٧).

وسياتي حديث الشعر عن هبة الإمام القيان، وعن أثر القيان في الغناء.

(١) P. A Rosler. la Question Femineste». 137 (٢) Rosler. P. 140

(٣) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى جستاف لوبون ٥١ (٤) المرأة في التاريخ والشرائع ٨٦

(٥) Histoire Des Papes. Tome 2. 67 (٦) الإصابة ٢٧/٨ (٧) المعارف ٤٧

(٨) الطبقات الكبير ٦٢/٧

السبأ بين الجاهلية والإسلام

بزغ الإسلام والسبأ ضرورة من ضرورات الحرب في كل الأمم ، فلا مندوحة عن الحرب ولا مناص من السبي والأسر ، وقد تغلغل نظام الرق في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وصار دعامة في صرح الحياة . فلو أن الإسلام أبطل الرق دفعة واحدة لهدم هذا الصرح وأوقع الناس في اضطراب وثورات وشوور ، ولأضر بالسادة المالكين وبالآرقاء أنفسهم . ثم إن الآرقاء لم يكونوا قد بلغوا من الوعي الحد الذي يجعلهم يسخطون مكاتبتهم ، ويدفعهم أو يدفع بعضهم إلى التمرد والثورة على هذا النظام العام .

ولم يكن الأحرار الذين يقتنون العبيد قد ارتقى بهم تفكيرهم وسمت بهم أخلاقهم وعواطفهم إلى اجتواء هذا النظام وإيثار حريه البشر على استعبادهم وتسخيرهم .

لذلك لم تحرم اليهودية أو المسيحية الرق ، ولم تسن من القوانين ما يضيق نطاقه ، وكل ما فعلت أن أوصت الأحرار بإحسان معاملته الآرقاء ، وأوصت الآرقاء بالإخلاص لساكنهم^(١) .

وأيده توماس الاكوينى كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو في القرن الثالث عشر ، فاستند إلى أقوال رسل المسيحية وإلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الآرقاء في حكم الآلات التى تراد لعمل من الأعمال ، ولم ير في نظام الرق شيئاً يعاب^(٢) .

لكن الإسلام نظم الرق كما نظم شئون المجتمع ، وإذا ما وازنا بين حال السبايا في الإسلام وحالهن في الجاهلية وجدنا الإسلام قد أقر بعض ما تعارف عليه العرب ، وعدل بعضه ، وأبطل الباقي .

ما أقره الاسلام :

١ — أقر الإسلام السبي في الحرب المشروعة . فقد سبي النبي صلى الله عليه وسلم نساء من هوازن ثم ردّهن . وسبي من بنى المصطلق^(٣) . وأسر المسلمون من طيء سبايا ، فهن بنت حاتم ، فاستعطفن النبي بمكارم أبيها غلى سبيلها^(٤) . وحكم سعد بن معاذ في بنى قريظة أن تقتل

(١) رسالة بولس إلى أهل أفسس ٦ : ٥ — ٩ (٢) داعى السماء بلال ٧٤

(٣) صحيح البخارى بشرح الكرماني ٩٠/١١ وفتح البارى ١٢٢/٥ والسنن الكبرى للبيهقي

١٢٤/٩ والتنبية والإشراف ٢١٥ (٤) الأغاني ٩٣/١٦

مقاتلتهم ، وتسبي ذرارهم ونساؤهم . فقال رسول الله : أصبتَ فيهم حكم الله ^(١) . ثم لما بعث معاوية بُسر بن أرطاه لينكل بشيعة على سار حتى أتى همدان فتغفلهم ، وأغار عليهم فقتلهم وسبي نساءهم ^(٢) .

٢ — وأقر الإسلام لإعتاق السبايا كما أطلق النبي سبايا هوازن . وأقر إطلاقهن بعوض ، فقد كاتب النبي عليه الصلاة والسلام جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار من بني المصطلق ، وقيل إنها كانت في سهم ثابت بن قيس ، وكاتبته نفسها فأنجز رسول الله كتابتها وتزوجها ، فأرسل الناس ما في أيديهم من سبايا بني المصطلق ، إكراماً لهم لأنهم صاروا أصهار رسول الله ^(٣) .

٣ — وأقر الإسلام بيع السبايا ، لكنه راعى ألا يفرق بين الأقوياء القاربة ، فقد بعث رسول الله حارثة بن زيد نحو مدين فأصاب سبياً من أهل مينا ، فبيعوا ففرق بينهم ، فخرج رسول الله وهم يبيكون فقال : ما لهم ؟ فقيل : يا رسول الله فرق بينهم . فقل : لا تبيعوهم إلا جميعاً . قال ابن هشام : أراد الأمهات والأولاد ^(٤) . وفي الحديث الشريف : من رضى رقيقه فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه فلا تعذبوا خلق الله ^(٥) .

ولما باع على بن أبي طالب جارية وولدها وفرق بينهما نهاه رسول الله عن ذلك ورد البيع ، وقال بهما أو أمسكهما جميعاً ^(٦) ، وكذلك أمره لما باع غلامين أخوين وفرق بينهما ^(٧) . وفي عهد عمر رضى الله عنه أتى الصحابة إلى المدينة بسبي فارس ، وكان فيهن ثلاث بنات ليزدجرد — ملك الفرس — فباع المسلمون السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً ، فقال له على بن أبي طالب : بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن . فقال عمر لعلى : كيف الطريق إلى معاملتهن ؟ قال يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقومن فأخذهن على بن طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر ، والثالثة لولده الحسين ^(٨) ، وهى شاهبانو Sahbanu ^(٩) .

٤ — كما أقر أن يوهبن وأن يورثن وأن يخدمن سادتهن .

(١) التنبيه والإشراف ٢١٧ والخراج للقرشي ١٤
(٢) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدي ٢٤٨/٢
(٣) سيرة ابن هشام ٣١٢/٤
(٤) البيان والتبيين ٣٦/٢
(٥) السنن الكبرى للبيهقي ١٢٦/٩
(٦) المرجع السابق ١٢٧/٩
(٧) ربيع الأبرار للزمخشري
(٨) الدعوة إلى الإسلام أنولد ١٨١

١ — كان العرب يبيعون للسيد أن يستولد سبيته ، ويبيعون له أن يستولد أمته ، لكنها تظل أمة بعد أن تلد له . فأقر الإسلام حق السيد في استيلادها ، أما حريتها أو عبوديتها بعد أن تلد لسيدها فقد تعارضت فيها الآراء حقبة من الزمن حتى استقرت المذاهب الأربعة ، فتقررت حرية السببية أو الأمة بعد موت سيدها بولادتها منه ، وملخص الآراء :

(١) لا يجوز لولى السيد أن يبيع أمته بعد وفاته إذا كانت أم ولد . حدثت سلامة بنت معقل فقالت : قدم بي عمي في الجاهلية فباعني من الحباب بن عمرو ، فولدت له عبد الرحمن ، ثم هلك ، فقالت امرأته : الآن والله تباعين في دينه . فأثبت رسول الله فشكوت له ، فاستدعى البسر بن عمرو أخا الحباب فقال : أعتقوها ، فإذا سمعتم برقيق قدم عليّ فأتوني به أعوضكم منها^(١) ففعلوا . ثم اختلفوا فيما بينهم بعد وفاة رسول الله ، فقال قوم : أم الولد مملوكة ، ولولا ذلك لم يعوضهم رسول الله منها . وقال بعضهم : هي حرة قد أعتقها رسول الله . ففي كان الاختلاف^(٢) . ورويت في عتق أم الولد أحاديث شتى منها : أم الولد حرة وإن كان سقطا ، و « أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات ، إلا أن يعتقها قبل موته » و « من وطئ أمة فولدت له فهي معتقة عن دبر منه^(٣) .

(ب) ثم جاء عمر رضي الله عنه فقرر أن أم الولد تتحرر إذا مات عنها سيدها ، وقال الأمة يعتقها ولدها وإن كان سقطا ، وطبق ذلك فأعتق أمهات الأولاد وقال : أعتقن رسول الله . وأمر بتقويم أمهات الأولاد بقيمة عدل في أموال أبنائهن ثم يعتقن ، ومكث على ذلك صدرا من خلافته إلى أن توفي رجل من قريش كان له ولد من أمته ، فسأل عمر الغلام يوما : ما فعلت يا بن أخي في أمك ؟ قال قد خيرني إخوتي في أن يسترقوا أمي أو يخرجوني من ميراثي من أبي ، فكان ميراثي من أبي أهون عليّ من أن تسترق أمي . ثم قام عمر فخطب في الناس فقال : إني قد كنت أمرت في أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم قد حدث لي رأى غير ذلك ، فأيما امرئ كانت عنده أم ولد يملكها يمينه ما عاش ، فإذا مات فهي حرة لا سبيل عليها^(٤) .

(ج) ويظهر أن الحكم لم يكن قد استقر ، فإن علي بن أبي طالب انحرف عن رأى عمر^(٥)

(١) أسد الغابة ٤٧٧/٥ وسنن أبي داود ١٠٦/٢ (٢) مسند الإمام أحمد ٣٦٠/٦

(٣) كنز العمال ٢٤٨/٥ الحديث ٥٠٣٩ - ٥٠٤١ ومسند الإمام أحمد ٣٠٣/١ و ٣١٧

(٤) كنز العمال ٢٥٢/٥ الحديث رقم ٥١٨٨ (٥) كنز العمال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٣٠ و ٥١٣١

ثم رجع إليه ^(١) . وقيل إن ابن عباس أيضاً عارض رأى عمر، وقيل إن علياً وابن عباس كانا يوافقانه ^(٢) . وأصر بعض المسلمين على أن النبي أقر بيع أم الولد ^(٣) ، وروى ابن حنبل عن جابر « كنانبيع سرارينا أمهات أولادنا والنبي صلى الله عليه وسلم فينا حتى لا يرى بذلك بأساً » ^(٤) . وذهب آخرون إلى أن النبي لم يقر بيعها مستدلين بأن صحابة النبي وافقوا رأى عمر ^(٥) . وقد أورد البخارى حديثين في أم الولد أيحكم بيعتها أم لا ^(٦) . ثم جاء العيني فتلخص الآراء المختلفة فيها ^(٧) .

(٤) ثم لما تكونت المذاهب أخذت بالرأى القائل إن أم الولد لا يصح بيعها ، وعلى ذلك أبو حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعى وغيرهم . لكن داود والظاهرية والإمامية الاثنى عشرية والمعتزلة ذهبوا إلى جواز بيعها .

فمثلاً يرى الإمام مالك أنه لا يجوز بيعها إذا حملت من سيدها ولا يجوز له أن يقبل منها مالاً فتفتدى به نفسها ^(٨) .

وهذا الجدل الطويل والخلاف فى الرأى فى صدر الإسلام وبعده دليل على أن الإسلام لم يحسم الحكم فى أم الولد إلى أن تكونت المذاهب الأربعة . وإذا فالشبه قوى بين النظام الذى سار عليه العرب فى الجاهلية فى معاملة الأئمة أم الولد وبين الآراء الإسلامية التى تبيح بيعها فى الإسلام ، وإن كان رأى الجمهور أكسبها فى الإسلام حقاً لم يكن لها فى الجاهلية .

- (١) السنن الكبرى للبيهقى ٣٤٢/١٠ (٢) كتر العمال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٣٢ و ٢٤٨/٥ رقم ٥٠٣٩ و ٢٤٨/٥ رقم ٥٠٤١ والطبقات لابن سعد ١٥٥/٨ ومسنند أحمد بن حنبل ٣٠٣/١ و ٣١٧ (٣) كتر العمال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٢٥ و ٥١٢٧ وابن ماجه باب العتق (٤) مسند الإمام أحمد ابن حنبل ٣٢١/٣ (٥) سنن أبى داود باب العتق ٨ والعيني على البخارى عتق باب ٨ (٦) فتح البارى ١١٨/٥ (٧) هذه الآراء هى : « ا » الثابت عن عمر عدم جواز بيعها ، وروى مثله عن عثمان وهو قول أكثر التابعين ومالك والثورى والأوزاعى والليث وأبى حنيفة والشافعى فى أكثر كتبه ، ونقل عن المزنى أنه قال : قطع الشافعى فى أربعة عشر موضعاً من كتبه بالألتباع . قال العيني وهو الصحيح من مذهبه وعليه جمهور أصحابه . « ب » يجوز للسيد أن يعتق أم الولد مقابل مال يأخذه فتكون كالمسكوبة . « ج » يجوز بيعها من غير قيد أو شرط وهو رأى أبى بكر وعلى وابن عباس وغيرهم . « د » يجوز لسيدها وحده أن يبيعها فى حياته فإن لم يبيعها ومات عنها نصير حرة . « هـ » يجوز بيعها سداً لدين سيدها المتوفى . « و » يجوز بيعها ولو كان ولدها موجوداً عند موت أبيه سيدها تعتق وتحسب من نصيب الولد فى التركة وترث معه . « ز » يجوز بيعها على شرط أن تعتق ولايجوز بغير هذا الشرط . « ح » إن عقت وأبقت لم يجز بيعها وإن فخرت أو كفرت جاز بيعها (شرح العيني على البخارى ٢١٧/٦ - ٢٢٠) (٨) شرح الموطأ ٨٧/٣

٢ — وحجب الإسلام إلى الناس أن يقتلوا ؛ لأن نكاح السرية تكريم لها ، وإذا ما ولدت ارتفعت منزلتها فصارت أم ولد . قال تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن ختم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة^(١) .

أى انكحوا من السرارى أى عدد بالغاً ما بلغ ، كما يؤخذ من السياق ومقابلة الواحدة ، وسوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة والسرارى من غير حصر ؛ لقلة تبعتهن وخفة مئوتهن ، وعدم وجوب القسم فيهن^(٢) .

وحجب النبي إلى المسلمين أن يتزوجوا بهن بعد عتقهن كما سبق ، وذكر السيوطى أحاديث ترغب فى الترسى ، منها :

« اتخذوا السرارى فإنهن مباركات الأرحام ، ولهن أنجب أولاداً^(٣) ، وجرى كثير من المسلمين على ذلك ، فعمر بن الخطاب يقول : ليس قوم أكيس من أولاد السرارى ، لأنهم يحملون عز العرب ودهاء العجم .

وأنشد راجز من بنى سعد :

أنا ابن سعد وتوسطت العجم فأنا فيما شئت من خال وعم^(٤)

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفات النساء فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والغريبة أنجب ، وما ضرب رموس الأقران مثل ابن السوداء^(٥) . أو بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وما ضرب رموس الأبطال كابن الأعجمية^(٦) .

ولما اتسعت الفتوح وكثرت السبايا راجت سوق السرارى وعظم الإقبال عليهن ، حتى لقد روى عن عبد الملك بن مروان قوله : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج الحرائر ؟ . وكان يقال : من أراد قلة المئونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر^(٧) .

وكان الخلفاء والأمراء والسراة فى العصر العباسى ينجحون إلى السرارى ، لذلك لا نجد فى خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح ، والمنصور ، والمخلوع ، وأما الباقيون فكلهم أبناء السرارى والجواري^(٨) .

(١) سورة النساء ٤ (٢) روح المعانى ٤/١٩٥ (٣) الدرارى فى أبناء السرارى ١٤٧

السيوطى مخطوط (٤) تهذيب الكامل للبرد ٢/١٠١ (٥) نزهة الأبصار والأسماع ٣٤

(٦) المقد الفريد (٧) اللطائف والظرائف للشعالى ٦٤ (٨) اللطائف والظرائف ٦٤

على أن هذا الجنوح إلى السرارى كان يضاده جنوح آخر إلى إيثار الحرار ولا سيما في الحجاز . فقد كثرت السبايا في صدر الاسلام ولكن لم يتزوج خليفة من الراشدين جارية^(١) وكان أهل المدينة يكرهون استيلاء الإمام حتى نشأ فيهم على بن الحسين ، والقاسم بن محمد ابن أبى بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وفاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً ، وهم جميعاً أولاد سرارى ، فرغب الناس في التسرى^(٢) . وكانت شهرة هؤلاء الثلاثة شرفاً لأبناء السرارى عامة ، فقد حكى قرشى أن سعيد بن المسيب سأله عن أخواله فقال : أمى فتاة . فنقص في عينه . ثم دخل عليه هؤلاء الثلاثة ، فسأله القرشى عن أم كل منهم . فقال : فتاة . فقال له القرشى رأيتني نقصت في عينك لأنى ابن فتاة ، أفعالى بهؤلاء أسوة ؟ فجلى في عينه^(٣) .

ويروون أن عبد الملك بن مروان تنقص من قدر ابنه مسلمة — وكان ابن أمة — متمثلاً بشعر يحقر من شأن أبناء الإمام . فرد عليه مسلمة متمثلاً بشعر يرفع من أقدارهم ، فسر عبد الملك وقبل رأسه ، وأمر له بمائة ألف^(٤) .

وكان بعض العرب يتشدد في عروبة من يصهر إليه وإن كان ابن خليفة كعقيل بن علفة المرى ، فإنه لما خطب إليه عبد الملك ابنته لبعض ولده قال له : جنبني هجناء ولدك^(٥) لهذا عمد بعضهم إلى العزل ليحولوا دون ولادة الإمام ، وقام جدال في العزل أحرام أم مباح^(٦) والذي يظهر لى أن نكاح الإمام كان في الإسلام كما كان في الجاهلية وسطاً بين الرغبة فيه والرغبة عنه ، وأن الإمام وأبناءهن — من غير سادتهن في الإسلام — كن في الغالب أدنى إلى التحقير منهن إلى التوقير . وقد سبق أن العرب كانوا لا يسودون أبناء الإمام ويسمونهم الهجناء ، ويسمون أولاد الحرر الصرحاء ، وسار على سنتهم بنو أمية ، فلم يستخلفوا ابن أمة : لأنه في رأيهم لا تصلح به العرب^(٧) .

٣ — كان الإسلام أعظم عطفاً على الأسرى والسبايا ، لأنه ابتدع وسائل لتحرير الرقيق . من هذه الوسائل تحرير الأرقاء الذين خرجوا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وتحرير العبد إذا عذبه سيده ، والتدبير . ومنها أنه جعل العتق كفارة لكثير من الذنوب كالقتل الخطأ والظهار وإفساد الصوم عمداً والحش في اليمين .

(١) الكامل لابن الأثير ٢٦/٣ و ٢٩ (٢) وفيات الأعيان ١/٣٢٠ والطوائف والظرائف ٦٤

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري ٨ مخطوط (٤) حاسة الخالدين ٣٥ مخطوط و ربيع الأبرار ٣

(٥) العقد الفريد ٢/٢٥٦ (٦) السنن الكبرى للبيهقي ٧/٢٢٨-٢٣١ ومفتاح كنوز السنة

مادة العبيد ٣٣١ ومادة العتق ٣٣٣ (٧) جمهرة الأمثال ١٥ والعقد الفريد ٣/٢٢٩

وكثيراً ما رغب النبي إلى المسلمين أن يعتقوا ويتزوجوا عتائقهم^(١) . وأباح الإسلام للأرقاء أن يكاتبوا ساداتهم^(٢) ، وحبب إلى المسلمين أن يساعدهم في جمع هذا المال ليشتدروا ، وجعلهم مصرفاً من مصارف الزكاة . قال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاوبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »^(٣) . وقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل »^(٤) ، وجعل إعطاءهم من أنواع البر^(٥) . لذلك تنافس المسلمون في عتق الأرقاء ، حتى لقد أنفق أبو بكر كثيراً من ماله في شرائهم وإعتاقهم ، وحتى قيل إن النبي أعتق ٦٣ نسمة وإن السيدة عائشة أعتقت ١٠٠^(٦) ، وإن العباس أعتق ٧٠ وإن عثمان أعتق وهو محاصر ٢٠^(٧) .

وإذا كان العرب قد افتخروا في الجاهلية بإحسانهم معاملة الأرقاء فإن الإسلام كان أعظم حفاوة بهم وحدباً عليهم . حتى لقد أوصى الله بحسن معاملتهم في عداد من أوصى بهم من الأعراء . قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً »^(٨) ، وأمر النبي بأن ينادوا بكلمات لا تؤذي : « لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ، ولا يقولن المملوك ربّي ، وربّي ، وليقل المالك فتاى وفتاى ، وليقل المملوك سيدتي وسيدى . فإنكم المملوكون والرب الله عز وجل »^(٩) . وليس أدل على سماحة الإسلام وتقديره لحرية العتقى من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجبر معتوقة السيدة عائشة على ما لا ترضى ، ذلك أن بريرة كانت مولاة لعائشة فأعتقتها . فقال لها الرسول : ملكك بضّعت فاختارى ، وكان زوجها مغيث يمشى خلفها ويكي ، وهي تأباه . فقال النبي لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له ؟ ثم قال لها اتقى الله

(١) فتح الباري ١٠٤/٥ وكنز العمال ٢٤٥/٥ - ٢٥٠ وفتح الباري ١٢٥/٥ وسنن أبي داود ٢٠٤/١ واليعنى على البخاري ٣٦٩/٩ ومسند أحمد بن حنبل ٤٢٠/٢ و٤٢٢ و٤٢٩ و٤٣٠ و٤٤٧ و٢٢٥ و٩٤٠/٣ (٢) المسكبة هي أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه منجماً عليه فإذا أداه فهو حر . ولها حالتان . الأولى أن يطلبها العبد وبأبائها السيد وفيها قولان . أن الموافقة واجب على السيد ، أو أنها غير واجبة (تفسير القرطبي ٢٤٥/١٢) (٣) النور ٣٣ وكنز العمال ٢٤٨/٥ (٤) التوبة ٦٠ (٥) البقرة ١٧٧ (٦) الأنساب للسمعاني ٦٦٣/١ (٧) التراتيب الإدارية ٢٩/١ (٨) النساء ٣٦ (٩) سنن أبي داود ٢٠١/٢ وفتح الباري ١٣٠/٥ وريبع الأبرار ٢ مع

فإنه زوجك وأبو ولدك . فقالت : أأمرني ؟ فقال : لا ، إنما أنا شافع . فقالت : إذاً لا حاجة بي إليه . فاختارت نفسها ^(١) .

وكان النبي يكرم جاريته أم أيمن كثيراً ^(٢) ، وكان يوصي بالرقيق كثيراً ، كقوله : من رضى رقيقة فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه ، فلا تعذبوا خلق الله ^(٣) . وقال في حجة الوداع : أرقاكم أرقاكم ، أظعموهم بما تأكلون ، واكسوهم بما تلبسون ، فإن جاءوا بذنوب لا تريدون أن تغفروهم فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم ^(٤) .
والوصاة بحسن معاملة الأرقاء كثيرة ^(٥) .

ما أبطله الإسلام :

- ١ — قصر الاسلام الأسر على أن يكون في الحرب بين المسلمين والمشركين ، أو بين المسلمين والكفار ^(٦) ، وبهذا ألغى الأسر والسبي بالنخاسة والاختطاف ، فضيق مجال الأسر
- ٢ — إذا ما انتصر المسلمون على الكفار وأسروا منهم ، فهم مخيرون في أن يمنوا على الأسرى بالإطلاق والتحرير بغير عوض أو فدية ، وفي أن يطلقوهم بعرض أو فدية ، وفي أن يقتلوا من يرون في حياته خطراً عليهم أو يرون في قتله قصاصاً عادلاً ، وفي أن يسترقوهم ، وقد اختلف في قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منابعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ^(٧) ، فذهب بعض السلف إل أن الآية في أهل الأوثان وهي منسوخة ، وبعضهم إلى أنها في الكفار جميعاً وهي منسوخة ، والناسخ لها قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ^(٨) ، وقوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة » ^(٩) . وقوله تعالى : « فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم » ^(١٠) ، وإذا فليس يجوز الفداء ولا المن عليهم ، وقيل : تجوز المفاداة بالمرأة لأنها لا تقتل ، وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة . ورأى بعض السلف أن الآية « فإما منا بعد

(١) التجريد الصريح ٢٥٥/٣ والمبسوط ٩٨/٥ وأسد الغابة ٤٠٩/٥ (٢) الطبقات الكبير

١٦٢/٧ (٣) البيان والتبيين ٣٦/٢ (٤) مسند الإمام أحمد ٣٦/٤ و ١٦٨/٥ و ١٧٣

(٥) مسند الإمام أحمد ١٢/١ و ٩٠/٢ و ١١١ و ٢٤٧ و ٣٤٢ و فتح الباري ١٢٥/٥

(٦) روى عن ابن عباس أن الكفار هم المشركون عبدة الأوثان . وقيل كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كثناني إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة . ذكره الماوردي واختاره ابن العربي ، وقال : هو الصحيح لعموم الآية فيه . والآية هي « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » تفسير القرطبي ٢٢٥/١٦ (٧) سور محمد ٤ (٨) التوبة ٥

(٩) التوبة ٣٦ (١٠) الأنفال ٥٧

ولما فداء . ناسخة للآية « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . فليس للإمام أن يقتل الأسير ، وإنما له أن يمن أو يفادى أو يسترق .

وذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الآية محكمة ، والإمام مخير في كل حال . لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع . فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ . وصفة الناسخ والمنسوخ أنه ما لم يحز اجتماع حكيمهما في حال واحدة ، أو قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر ، وقد أذن القرآن بقتلهم في آية أخرى .

وإلى هذا ذهب كثير من السلف كابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري وأبي عبيد وغيرهم ، وهو المختار لأن النبي والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك . فقد قتل النبي عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث يوم بدر . وقتل بني قريظة لما نزلوا على حكم سعد . وفادى بجماعة أسارى المشركين يوم بدر . ومن على ثمامة ابن أثال الحنفي وهو أسير في يده . وأخذ من سلة بن الالكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين . وهبط عليه قوم من مكة فأخذهم ومن عليهم . ومن على سبي هوازن . وهذا كله ثابت صحيح (١) .

وإذا فالنظام الغالب في الإسلام هو المن والفداء ، لكن النظام الذي كان غالباً في الجاهلية هو الاسترقاق .

٣ — وحرم الإسلام قتل النساء في الحروب (٢) ، وقد حدث ذلك على قلة في الجاهلية إذ أحرق المنذر بن ماء السماء سبايا من بكر بن وائل (٣) ، وأحرق عمرو بن هند امرأة من بني حنظلة هاجت حنقه بردودها عليه (٤) . وذكر بعض الشعراء أنهم بقروا بطون الحبالي (٥) على أن هذا كان عملاً نادراً يدفع إليه الغضب والتشفي ، وكان العرب يعيرون فاعله (٦) .

٤ — وحرم الإسلام بغاء الإمام سواء أكان عاماً أم خاصاً ، وقد سبق أن بعضهم كان يكره إمائه على البغاء ، فنزل قوله تعالى : « ولا تكرر هوا فتيا تكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » (٧) .

ولم يقتصر الإسلام على تحريم البغاء العلني العام بل حرم المخادعة أيضاً « ومن لم يستطع

(١) تفسير الطبري ٢٦/٢٦ — ٢٧ وتفسير النيسابوري ٢٦/٢٦ وتفسير القرطبي ٢٦/٢٦ — ٢٢٨
 (٢) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٢٥/١٣ (٣) السكامل لابن الأثير (٤) الأغاني ١٢٩/١٩ وجمع الأمثال ٣٦٠/١ (٥) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢٧ و١٢ ومعجم البلدان ٣١٧/٧ (٦) الأغاني ١٣٥/١٦ (٧) النور ٣٣

منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان^(١) ، وقد روى عن ابن عباس أن المسافحات هن المعالونات بالزنا ، وأن متخذات الأخدان هن ذوات الخليل الواحد ، وأن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلون ما خفي ، ويقولون إن ما ظهر لؤم ، وإن ما خفي لا بأس به ، فأنزل الله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، وعن قتادة أن المسافحة البغي التي تؤجر نفسها من عرض لها ، وذات الخدن ذات الخليل الواحد^(٢) . فنهى الله تعالى عن البغاء بنوعيه ، ونهى عن نكاح البغي أيضا ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب البغي^(٣) .

٥ — وأبطل الإسلام عبودية ابن الأمة من سيدها وقرر أنه حر ، ويرث أباه^(٤) . وقد أسلفت أن العرب في الجاهلية كانوا يستعبدون أولاد الإماء ، ولا يتحرر الولد ولا يرث إلا إذا ادعاه أبوه وأشهد الناس على إلحاقه به . أما إذا تزوج رجل أمة لغيره فإن أبناءها يتبعونها في الرق^(٥) .

٦ — ثم إن الإسلام لم يبيح ملامسة السبية قبل التثبيت من استبراء رحمها . فقد قسم النبي سبايا أوطاس وبني المصطلق ، وأمر ألا توطأ حامل حتى تضع ، ولا حائل حتى تحيض^(٦) . وقال : لا توطأ حائل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة^(٧) . وقال لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها^(٨) .

٧ — ونحن نعلم أن الإسلام دين المساواة في أسنى صورها ، وأنه قائم على أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وطالما حض النبي على حسن معاملة الأرقاء ، وكثيراً ما رغب الإسلام في عتقهم . لذلك قل أن نجد في شعر المسلمين في صدر الإسلام من عير بالسبي أو هجا برق الأم كما كان يحدث في العصر الجاهلي .

(١) النساء ٢٥ (٢) تفسير الطبري ١٣/٥ والنيسابوري ٢٣/٥

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٣٢/٢ و٢٨٧ والعيني على البخاري ٦٣٤/٩ والأمازي ٢٧٥/٢

(٤) الكشف ٢٠٠/١ والعقد الفريد ٢٠٩/٣ (٥) الكشف ٢٠٠/١

(٦) السنن الكبرى للبيهقي ١٢٤/٩ (٧) سنن أبي داود ٢١٣/١

(٨) سنن أبي داود ٢١٣/١

الفصل السادس

المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة

تبوأَت المرأة في الحياة الأسرية مكاناً عالياً لم تتبوأه أختها المعاصرة لها ، ولقد يكون من البداهة أن تدل هذه المكانة على قيمة المرأة في القبيلة وفي المجتمع كله ؛ لأن القبيلة هي الأسرة الكبيرة ، والمجتمع إن هو إلا قبائل يجمعها الجنس والبيئة والاشتراك في كثير من نظم الحياة .

لكن ذلك ليس بمحتوم . فقد تعز المرأة في أسرتها ، ولكنها لا تستمتع بمثل هذه العزاة في قبيلتها أو في المجتمع ؛ لأن العزاة في الأسرة عزاة في نطاق ضيق ذي حدود ، كثيراً ماتحتبس فيها ولا تمتخطاها إلى الميدان الأعظم اتساعاً وهو ميدان القبيلة والمجتمع ، ذلك بأن الرجال يستأثرون بالنفوذ في هذا الميدان ، ويحتجونه عن النساء ، وإن كن في أسرهن عاليات القدر ماميات المكانة .

وسألجأ هنا إلى الشعر أستبشه وأستنطقه كما لجأت إليه فيما مضى ، وسأضيف إليه من التاريخ ما أحججه لتوضيح الألوان الناصلة والملاح الخائلة ، والأحداث المهمة أو المغفلة ، لا أستطيع أن أرسم صورة بارزة المعالم للمرأة ، تكشف عن مكانتها في الحياة العامة فأبين ما بين هذه الصورة وصورة المرأة في الحياة الأسرية من تشابه وتمائل أو تنافر وتناقض . ولقد يبدو أن في بعض ما روى عن جهود المرأة في الحياة العامة وفي الحروب مغالاة ، ولرب أدفع هذا كله ، ولست أقره كله ، ولكني أرى أن ما عُرِى إلى المرأة — على مبالغته أحياناً — كقيل بأن يقدم لنا صورة صحيحة من حياة المرأة في الجزيرة العربية ، لأنه صدق للواقع الذي كان ، وتعبير عما يمكن أن يكون .

شعور المرأة بمساواتها للرجل

كانت المرأة تشعر بأنها مساوية للرجل في مكانته ، أو يجب أن ينظر إليها المجتمع نظره إلى الرجل . فقد أنشدت فتاة عضلها أبوها ومنعها الأكفاء :

× أَيْزَجُرُ لَا هَيْنَا وَنُلْحَى عَلَى الصَّبَا وَمَا حَنُّ وَالْفَتَيَانِ إِلَّا شَقَائِقُ ^(١)

وفي أمثال العرب : إن النساء شقائق الأ أقوام ، والشقائق جمع شقيقة وهي كل ما يشق نصفين ، فالنساء إذاً مثل الرجال ، لمن مثل ما عليهن من الحقوق ^(٢) .

ولقد بلغ بهن شعورهن بمساواتهن للرجال في كثير من الحقوق أن عجب بعضهن من أن يذكر القرآن الكريم الرجال ويعفل النساء فيما يأمر وينهى ، أو فيما يعد ويوعد ، أو هن وددن أن يشرفهن الله تعالى بالذكر كما يشرف الرجال ، واحتججن على الرجال فقلن : أسلمنا كما أسلمتم ، وفعلنا كما فعلتم فتذكرون في القرآن ولا تذكر ^(٣) ؟ وروى أن أم سلمة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله يذكر الرجال ولا تذكر . وروى أن نساء قنن له : لما ذا يذكر المؤمنون ولا يذكر المؤمنات ^(٤) ؟ وروى أن سلامة حاضنة إبراهيم بن النبي قالت للنبي : إنك تبشر الرجال بكل خير ولا تبشر النساء . قال : أو صويحباتك دسسنك لهذا ؟ قالت : أجل هن أمرتنى ^(٥) . أليس هذا شعورا من النساء بعلو مكانتهن ، وحرصهن على حقوقهن ، وجدهن في أن يتساوين بالرجال في بعض الحقوق ؟

وقد حقق القرآن أملهن إذ أنزل الله تعالى قوله : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ^(٦) » .

(١) الأمالي ١٠٥/٢ (٢) مجمع الأمثال ٢٦/١ والقاموس المحيط مادة شق
(٣) الطبقات الكبير لابن سعد ١٤٥/٨ (٤) الطبقات الكبير ١٤٤/٨ وتفسير الطبري ٨/٢٢
(٥) أسد الغابة ٤٧٦/٥ وكثير العمال ٣١٥/٨ (٦) سورة الأحزاب ٣٥

توليها الملك

لم تكن المرأة تشعر بهذه المساواة غروراً أو افتقاراً أو مجاوزة لقدرها الذي تعارف عليه العرب . ذلك بأن العرب ملكوا عليهم نساء ، وكانرا يستطيعون ألا يولوهن لو أنهم رأوا في توليتهن غضاضة ، أو مجافاة للعرف الذي درجوا عليه .

١ — فقد حكمت سبأ ملكة اسمها بلقمة^(١) أو بلقيس، يقول أسعد تبّع في فخره :

ولدتني من الملوك ملوك كل قيل متوج صديد

ونساء متوجات كبلقيس وشمس ومن لميس جدوى^(٢)

أو أن اسمها بلقمة بلغة حمير ومعناه الزهرة ، ثم سمّتها العرب بلقيس^(٣)

والمؤرخون مختلفون في اسم أبيها ، فهي ابنة اليشرح أو لميلي شرح أو ذي شرح بن ذي جدن القحطاني^(٤) . أو هي ابنة أنيشرح بن الحارث ، أو بنت الهدهاد واسمه أنيشرح بن تبع . وقيل غير ذلك^(٥) ، أو هي بنت آل شرح بن ذي جدن الحارث بن قيس بن سبأ الأصغر^(٦) ، أو هي بنت الهدهاد بن شرحيل بن عمرو بن مالك الرائش ، وكان يلقب بندي شرح^(٧)

وفي هذا خلط واضطراب ، لأن اليشرح من ملوك الطبقة الأولى من حمير (ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ ق . م إلى ٢٧٥ م) وكان حكمه من ٣٥ — ١٥ ق . م ، وبلقيس أو بلقمة التي ينسبونها هي التي لقيت سليمان قبل ذلك بقرون . وهم يخلطون بين صاحبة سليمان وبلقيس التي تسمى الفارعة ، وهي من ملوك الطبقة الثانية من حمير (ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ — ٥٢٥ م) وكان حكمها من ٣٣٠ — ٣٤٥ م^(٨) .

وما زلنا نجعل الاسم الحقيقي للملكة سبأ أهو بلقمة أم بلقيس أم غيرهما ، وما زلنا نجعل اسم أبيها ، ولعل النقوش تفصح عن ذلك في يوم قريب . وهذه الملكة عربية ينتهي نسبها إلى قحطان^(٩) ، والقول بأنها حبشية زعم لم يلبث أن ولد وتوارى ، إذ ذهبت أخيراً إلى

(١) تاريخ الطبري ٢٥٤/١ وابن الأثير ٨٩/١ والعقد الفريد ٥٨/٢

(٢) منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري ٨

(٣) شرح الفصيحة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميري ٢٧٥ مخطوط من مجاميع بدار الكتب .

(٤) تاريخ الطبري ٢٥٤/١ (٥) تاريخ ابن الأثير ٨٩/١ (٦) العقد الفريد ٥٨/٢ المطبعة

الشرقية (٧) الأخبار الطوال للدينوري ٢٢ (٨) العرب قبل الإسلام جرجي زيدان ١٢٢ و ١٢٣

(٩) تاريخ الطبري ٢٥٤/١ وتاريخ ابن الأثير ٨٩/١

سبأ ومأرب بعثة ألمانية علمية برئاسة كارل يونجمان ، ونقبت هنالك طويلا ، ثم اهدت إلى أن ملكة سبأ ليست حبشية ^(١) . وكان حكمها في القرن التاسع قبل الميلاد ^(٢) .

وقد ملكت في حياة أبيها بتفويض منه ، وقيل ملكت بعده ، وقيل إن أباه لم يكن ملكا ، وإنما كان وزيراً للملك خبيث سيئ السيرة مولع بالعدوان على الأعراض ، فقتلته فملكها الناس عليهم ^(٣) .

والمبالغات في عظمة ملكها تتجاوز مطار الخيال الطليق ، وقد استنكرها من قبل بعض المؤرخين كابن الأثير في قوله : « وما أظن راوى هذا الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهله ، وقد تواطئوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال ، » ^(٤) .

واليقين أنها وفدت على سليمان ، لأن القرآن الكريم قص هذه الوفادة في سورة النمل في قول الهدهد لسليمان : « إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ثم أرسل إليها سليمان كتاباً فلما أخذته جمعت مستشاريها « قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم إنه من سليمان ، وإنه : بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو عليّ وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملأ ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا : نحن ألولوقوة وأولوبأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . ثم ذكر القرآن الكريم إيمانها بسليمان . وقصّت التوراة أيضاً هذه الوفادة ^(٥) .

ومن القرآن الكريم نعلم أنها وقومها كانوا يعبدون الشمس ، وأنها كانت ملكة ديمقراطية تستشير ذوى رأى ولا تستبد ، ونعلم أن ملكها كان قوياً أو أن أعوانها كانوا يتوهمون هذه القوة ، لأنهم أرادوها على أن تحارب سليمان ولا تخضع له ، لكنها كانت بعيدة النظر حصيفة رأى ، فجنبت قومها حرباً تنشب بينها وبين الفاتح ، وبعثت إليه هدية لتختبره أهو باحث عن المال أم داع إلى دين ؟

ومنذ عهد قريب كشف الدكتور أحمد فخري عن معبد الشمس والقمر سنة ١٩٤٧ وطبع رحلته في ثلاثة أجزاء . ثم كشفت بعثة أمريكية برئاسة مستر ويندل فيليبس عن كثير من

(١) الهلال . الجزء الخامس سنة ١٩٢٩ (٢) العرب قبل الإسلام ١١٨

(٣) الكامل لابن الأثير ٩٠/١ والأخبار الطوال للدينوري ٢٤ (٤) ابن الأثير ١/١٩٢

(٥) سفر الملوك الأول فصل ١٠ آية ١١ و ٢٢

آثار اليمن ، منها معبد الملكة بلقيس ملكة سبأ ، على مقربة من سد مأرب (١) .
٢ — وهناك ملكة ثانية ، حكمت سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٣٣٠ إلى ٣٤٥ م وهي التي تسمى الفارعة ، ولسنا نعرف عنها شيئاً إلا أنها زوجة عمرو وأخت الهدهاد (٢) .

٣ — وملكة ثالثة ذكرها أسعد تبّع في نخره إذ يقول :
ونساء متوجات كبلقيس وشمس ومن لميس جُودى (٣)
ولميس بنت أسعد تبّع ، قال فيها علقمة بن ذى جدن :
ولميس كانت في ذؤابة ناعطٍ يحجى إليها الخرج ساكن بربر (٤)
وأما شمس فهي أخت بلقيس (٥) .

٤ — وهذه ملكة عربية أخرى ، حكمت تدمر في القرن الثالث بعد الميلاد (٢٦ — ٢٧٢ م) هي الزباء . ولقد ترجع شهرتها إلى سببين :
السبب الأول أنها اتسمت بالشجاعة والسطوة والدهاء ، على جمالها وهيبتها ، فكانت سيرتها أشبه بسير الأبطال من الرجال . كانت فارسة تؤثر الخيول المطهمة على المحفات في أسفارها ، وكانت ديمقراطية كسابقها بلقيس ، تحادث أعوانها ومستشاريها ، وكثيراً ما بهرتهم بقوة برهانها ، ونصاعة رأيها ، وذلاقة لسانها ، وكثيراً ما ضم مجلسها رجالاً من أمم شتى ، كوفود ملك الفرس والآرامن . وقد يشرب جلّاسها حتى يشملوا ، ولكنها لا تشرب .
وكانت إذا جلست في قومها لبست أنغر ما يلبس ، ونشرت على كتفيها القيصرية الأرجوانية ، ووضعت التاج المؤتلق على رأسها ، وإذا استعرضت جنودها في الميدان استوت على صهوة جوادها مرتدية لباس الحرب ، وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر ، وقد عرت إحدى ذراعيها كما كان يفعل اليونان القدماء ، ثم أخذت تنفخ في الجنود شجاعة من روحها ومظهرها ، فإذا رآها الناس كذلك حسبوها إلهة (٦) .

والسبب الثاني ما كان بينها وبين روما من الحرب ، وتداول النصر ، ذلك بأن أذينة زوج الزباء كان ملكاً على تدمر ، وقد أنقذ الإمبراطورية الشرقية من فتك خصومها الفرس ، وهزم سابور (٢٦٠ م) هزيمة ماحقة بعد أن اغتر سابور وازدهى بانتصاره على الإمبراطورية

(١) جريدة المصرى ١٧/١٢/١٩٥٢ (٢) العرب قبل الإسلام ١٢٣

(٣) منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري ٨

(٤) المرجع السابق ٩٦ ناعط : نور وهم حى من همدان (المرجع نفسه ١٧) (٥) المرجع السابق ٩٦

(٦) العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان ٨٧ وموجز تاريخ الحضارة العربية ٣٣٤

الرومانية وأُسره إمبراطورها فاليريان ، ثم أزر أذينة جالينوس بن فاليريان في استرداد الملك من خصومه ، فكافأه جالينوس بأن أقره على ما بيده من بلاد ، ومنحه لقب أغسطس ، وعينه إمبراطوراً على الشرق ، وأشركه معه في لبس رداء الملك الأرجواني . وضربت النقود باسمه ، ورسم يجر خلفه صفّاً من أسرى الفرس ، ووافق مجلس الشيوخ بروما على هذا كله .

فلما اغتيل أذينة خلفه ابن ضعيف لم يلبث أن مات ، خلفته زوجة أذينة وهي الزباء . وهنا بدأت روما تأتلف تحرشها بمملكة تدمر ، إذ أعلن مجلس الشيوخ أن الحقوق التي كان قد نزل عنها لأذينة هي حقوق شخصية لا تورث لغيره ، فالزباء وأولادها لا يرثون شيئاً من ملكه . ولكن الزباء لم تعباً بمجلس الشيوخ ولا بالإمبراطور جالينوس ، فأعلنت نفسها ملكة على المشرق كله وآسيا الصغرى ، فعبّر البحر إليها القائد الروماني هرقل على رأس جيش عرمرم ، وحاربها في أرضها ، واستطاعت البطلة أن تشتت شمله وتفل قواه ، فعاد إلى روما موصوماً بخزي الهزيمة ^(١) .

وبهذا النصر بسطت سلطانها على الشام وبلاد آسيا التابعة للإمبراطورية الرومانية ووصلت إلى مصر ^(٢) .

لكن روما لم تنس هذه الهزيمة ، فعاودت الحرب ، وكان النصر حليفها ، وهلك الرومان بنصرهم تهليلاً ، لأنه نصر كان ميثوساً منه . وليس أدل على ذلك من زعمهم أن ملكاً نزل من السماء وأزر الإمبراطور وجيشه ، حتى إن الإمبراطور أورليان لما دخل معبد الشمس في حمص ليشكر للإله العربي بعل ما أصاب من ظفر ، وصلى بالمعبد ، وقعت عيناه في زعمهم على الكائن السماوى الذى رآه قبل ذلك في المعركة ^(٣) .

(١) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجرى ١٥ نجيب البهيتى عن .

Voyage dans L'Asie Mineur, tome 11. P.115—121, Par Poujoulat.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٣/٥ (٣) Poujoulat. Tome 11 P 123.

نهاية الزباء :

تذكر الروايات العربية كلها أن الزباء قد لقيت حتفها في شرقي مملكتها على يد قصير . ويدعى الرومان أن شمسها قد أفلت في روما لأنهم أسروها ونقلوها إلى هناك . ولكن هذا الادعاء باطل ، لأنهم مختلفون في شخصية الأسيرة ، فهي عند فوسيسكوس vospiscus امرأة كانت ترافق زينب (الزباء) في حمل السلاح ، وعند تريبيليوس Tribelius وپوليون Pollion وغيرهما أن الزباء اسم قائد من قواد ملكة تدمر ^(١) ، لأن أحد قوادها كان اسمه زبدأ من أبناء تدمر ، وهو الذي هزمه أورليانس سنة ٢٧٢ م ^(٢) . ثم إننا على ثقة من نشوتهم بالنصر ، وتنفجهم بما نالوا ، ليستروا هزيمتهم التي أنزلتها بهم الزباء من قبل ، وهذا وحده كاف للتشكك في صحة ما يزعمون .

وإذا فإن التي حملت سبية إلى روما لم تكن الزباء ، وإنما بقيت الزباء في العراق إلى أن لقيت مصرعها كما يقول جميع المؤرخين من العرب ^(٣) . وقد ذكر بعض الشعراء قصتها مثل عدى بن زيد والمخبل وغيرهما ، وشعرهم يتفق مع التاريخ في أنها لقيت حتفها على يد عمرو بن عدى ^(٤) .

٥ - وقد ملكت نساء غير هاتين في اليمن وكندة وبلاد الأنباط ، حتى لتجد في ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات في المدة من ١٦٩ ق م إلى ١٠٦ م . كما نجد في كندة خمس ملكات أيضاً ، منهن العمردة بنت الأعشى ، وكانت أعظم تأثيراً من إخوتها في الناس ، وأعمق نفوذاً ، لبلاغتها وذكائها وجهاها وبراعتها في تدبير شئون الحكم ^(٥) . ونجد ماوية الغسانية تحكم في فلسطين الحالية تقريباً ، فقد ذكر شارب sharpe أن ملك العرب النازلين في سيناء وما جاورها لما مات في أواسط القرن الرابع بعد الميلاد خلفته امرأته ماوية ، فتحللت من قيود المعاهدة التي بينهم وبين الرومان ، وحملت برجالها على فلسطين وسوريا ، واستولت على مدينة بطرا (الحجر) ويممت مصر حتى برزخ السويس ، فاضطر الامبراطور فالانس

(١) Poujoulat. tome. 11. P. 120 وتاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري

(٢) تاريخ العرب ١٠٠/١ فيليب حتى (٣) تاريخ الطبري ٣٦/٢ وابن الأثير ١٢١/١ وأبي الفدا

٧٠/١ واليعقوبي ٢٣٨/١ وابن خلدون ٢٦١/٢ ومعجم ما استعجم ٢٤/١ وجمع الأمثال ٢١٧/١

وجمهرة الأمثال ١٦٧/١ (٤) تاريخ الطبري ٣٦/٢ (٥) تاريخ حضرموت السياسي ٧٤

إلى تجديد المعاهدة بشروط ترضاها ماوية^(١). وقد ملكت أخريات غير هؤلاء وأولئك^(٢)، ولو أن كل واحدة منهن منحت بواعث على شهرتهن كما منحت بلقمة والزباء لكان لنا من تاريخهن سجل حافل، وأرجح أنه لولا القرآن الكريم وصلة بلقمة بسليمان، ولولا حرب الزباء لروما لغمرت كلتا هما كما غمرت غيرهما من الملكات.

شہیرات

على أن بعضهن قد اشتهرن بالفطنة والدهاء واللسن واللقن والجواب العجيب والكلام الفصيح والمثل السائر كما اشتهر بعض الرجال.

منهن هند بنت الحُصَّ — وهي الزرقاء —، وجمعة بنت حابس^(٣)، ورابعة القيسية ومعاذة العدوية^(٤)، ولها حديث في وصف الخيل والنساء والرجال مع القلَّس^(٥).

ومنهن صخر بنت لقمان، وحذام بنت الريان، وخُصيلة بنت عامر بن الطرب، وفاطمة بنت الخُرْشُب^(٦). ومن الشهيرات اللاتي ضرب بهن المثل مارية بنت ظالم بن وهب ابن الحارث الكندي (أو هي بنت أرقم بن ثعلبة من غسان)، وهي أم الحارث الأعرج ملك غسان، التي يقول فيها حسان بن ثابت:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

وقد ضرب المثل بقرطيا، فقيل: «خذه ولو بقرطى مارية، أى خذه بالشئ العزيز الذى لا يُقدَّر عليه ولا يوصل إليه، وذلك للترغيب فى الشئ وإيجاب الحرص عليه^(٧)». وقد ذهب الزمخشري ومن نقل عنه إلى أن المثل ضرب بقرطيا لأنها أول عربية تقرطت، فسار ذكر قرطيا فى العرب^(٨)، ولكن ذلك ليس بصحيح، لأن العربيات كن يتقرطن قبل مارية، وإنما الصحيح أن قرطيا كانا نفيسين جداً وإن بولغ فى نفاستهما، حتى لقد قوما

(٦) History of Egypt, vol. 2, P. 293

(٧) Moslem Law, P. f7

(١) البيان والتبيين ٣١٢/١ طبعة هارون. قال ابن الأعرابي يقال بنت الحُصَّ وبنت الحُصَّ وبنت الحُصَّ وهى الزرقاء وقال يونس لا يقال إلا بنت الأُحْص (٢) البيان والتبيين ٢٨٣/١ طبعة السندوبى (٣) بلاغات النساء ٥٨ — ٦٢ (٤) جمهرة الأمثال ٢٤٢/٢ وجمع الأمثال ٢٧٦/٢ والأغاني ١٩/١٦ — ٢٧ (٥) الفاخر للسكوفى ٨٧ وخزانة الأدب للبغدادى ٢٣٨/٢ ومنتخبات من أخبار اليمن ٩٨ (٦) مستقصى الأمثال للزمخشري ١٠٠ مخطوط وخزانة الأدب ٢٣٨/٢

بأربعين ألف دينار ، وقيل كان فيهما درتان كبيض النعام أو الحمام لم ير الناس مثلهما (١) .
يقول الشاعر للنعمان وقد اتهمه :

يا أيها الملك الذى ملك الأنام علانيه
المال آخذه سواى وكنت عنه ناحيه
إنى أؤديه إليه — ك ولو بقرطى ماريه (٢)

مجيرات

كان من حق الرجل أن يجير فلا يعتدى أحد على من أجاره ، وإن اعتدى عليه أحد
ذب جاره عنه ، وحارب المعتدى وإن كان قريبه أو حليفه .

وكان الجوار نوعاً من الحلف أو الحماية ، ودلالة على قوة المجير ومهابته فى قومه .

١ — ولقد علت المرأة إلى هذه المكانة فأجارت ، وقيل جوارها ، وحت وصين
حماها فى الجاهلية .

فقد أجارت فُكَيْهَةَ بنت قَتَادَةَ — خالة طرفة بن العبد — السليك ابن السُلَكَة ، وحتته
من بكر بن وائل ، ومدحها السليك فى قوله .

لعمر أبىك والانباء تنمى لنعم الجار أخت بنى عوارا
عنيت بها فُكَيْهَةَ حين قامت لنصل السيف وانتزعوا الخارا
من الخفريات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا (٣)

وحت رَيْطَةَ بنت جَذَل الطَّعَّان دريد بن الصمة ، اعترافاً بفضلها ، لأنه كان قد أعطى ربحه
ربيعة بن مُكَّدَم يوم حى الطعينة ، وألقت عليه ثوبها وقالت : يا آل فراس أنا جارة له
منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادى . فخبسه القوم وقالوا : لا ينبغي أن نكفر نعمته . وقال
بعضهم والله لا يخرج من أيدينا إلا برضا المخارق الذى أسره ، فانبعثت رَيْطَةُ فى
الليل تقول :

سنجزى دريدا عن ربيعةَ نعمةً وكل فتى يجزى بما كان قدماً

(١) خزائن الأدب ٢٣٨/٢ وجمع الأمثال ٢١٢/١ وريبع الأبرار للزخشرى ورقة ٢٠٦ مخطوط

(٣) الخبر ٤٣٣

(٢) جمهرة الأمثال ٢٤٢/٢

سنجزيه نَعْمَى لم تكن بصغيرة بإعطائه الرمح السديد المقوماً
فلو كان حياً لم يضق بثوابه ذراعاً ، غنياً كان أو كان معدماً
ففكوا دريداً من إسار مخارق ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سلباً

فلما أصبح القوم تعاونوا بينهم فأطلقوه ، وكسته ريطرة وجهازته ، ولحق بقومه ، فلم يزل كافاً عن غزو بني فراس حتى هلك (١).

وقد سبق أن العدوان على جار البسوس أشعل حرباً طويلة الأجل بين ابني وائل (٢) . ولم تكن هذه الحماية حكرة للشرقيات ، والمتكثات على نسب أو عصبية قبلية ، بل كانت من حق كل امرأة يلجأ إليها مأهوف ، فهذه أم غيلان الدوسية التي كانت تمشط النساء قد أجارت ناساً من قريش خرجوا إلى أرض دوس — وكان هشام بن المغيرة قد قتل أبا أزيهر الدوسي ، فأحس بهم الدوسيون فأرادوا قتلهم بأبي أزيهر — فأمضى قومها إجارتها (٣) على ما بهم من حنق وظمأ إلى النار .

وفي رواية أن اسمها أم جميل ، وأنها حمت ضرار بن الخطاب الفهري ، فلما ولي عمر ابن الخطاب ظنت أنه أخوه ، فأتمته بالمدينة ، وانتسبت له ، فعرف قصتها ، وقال لها : لست بأخيه إلا في الإسلام ، وقد عرفنا ممتك عليه ، وأعطاها على أنها ابنة سبيل (٤) .

٢ — وقد أسلفت في فصل الأم والزوجة والبنت والأخت والقريبة أحوالاً عدة أجرن فيها وقبل جوارهن ، كما يحير الرجال ويحمي جوارهم .

٣ — ثم جاء الإسلام فابقى للمرأة هذا الحق ، فقد أسلمت يوم الفتح أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل — ابن عمها — واستأمنت النبي صلى الله عليه وسلم لزوجها ، وخرجت في أثره وقد فر إلى الين ، فردته ، فأسلم ، وثبتا على زواجهما (٥) . وأجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلاً كان أخوها على يريد أن يقتله عام الفتح ، وأخبرت النبي بذلك ، فقال لها : قد أجرنا من أجرت (٦) .

وأجار النبي والمسلمون لزَيْنَب بنت الرسول زوجها ، وأطلقوه من إساره (٧) .

(١) الأغاني ١٤/١٣٠ والأمالى ٢/٢٧١ (٢) مستقصى أمثال العرب للزحشرى ٤٠ مخطوط والفاخر للكوفي ٧٧ والتنبيه والإشراف للمسعودي ١٧٤
(٣) الإصابة ٨/٢٦٥ (٤) المحبر ٤٣٣ وفي المحاسن والأضداد ٥٦ أنها حمت هشام بن الوليد بن المغيرة ، وهذا لا يستقيم مع ظننا أنه أخو عمر (٥) الاستيعاب لابن عبد البر ٢/٧٩٠
(٦) فتح الباري ٦/١٩٦ (٧) المغازي ١٢٦ وتاريخ الطبري ٢/٢٩١

اشتراكها في حلف

سمت بالمرأة مكانتها إلى أن تشترك أحياناً في حلف الرجال ، تتعاقد معهم على ما يتعاقدون عليه . وقد حدث ذلك من عهد قديم ، فإنه لما مات قصي ترأس ابنه عبد مناف ، وعظم أمره ، فجاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به ، فعقد بينه وبينهم حلف الأحابيش ، واشتركت فيه عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف ، وهي التي جرى على يديها حلف الأحابيش (١) .

ثم اشتركت أم حكيم البيضاء أو أختها عاتكة بنت عبد المطب في حلف المطيبين ، إذ أخرجت طيباً في جفنة ، فتطيب به بنو عبد مناف وأسد وزهرة وبنو تميم وبنو الحارث ابن فهر ، فسموا المطيبين . وكان ذلك لما تحالف بنو عبد الدار ضد عبد المطب ، وآزر بنو سهم بن عبد الدار (٢) .

وإذا كان اشتراكها في هذين الحلفين منبثقاً عن عصبية لقومها ونصرة لآلها فإنها قد اشتركت في حلف إنساني عظيم ، الغرض منه نصر المظلوم وحماية المستضعف ، ذلك بأن قبائل من قريش تعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها إلا قاموا معه ، ونصروه على ظالمه ، وسموا ذلك الحلف حلف الفضول ، وقد شاهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » ، ذلك هو حلف الفضول (٣) . وفخار الاشتراك في هذا الحلف متنازع بين عاتكة بنت عبد المطب وأختها أم حكيم البيضاء (٤) ، كما تنوزع في الحلف السابق .

(١) تاريخ اليعقوبي ٣٧٨/١ والأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة والهُون بن خزيمه ابن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة . تحالفوا جميعاً بواد يقال له الأحابيش ، وقيل يسمى حبشاً بأسفل مكة ، فسموا الأحابيش (سيرة ابن هشام ١٩٥/٣)

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢٨٨/١ وسيرة ابن هشام ١٤٣/١ (٣) سيرة ابن هشام ١٤٤/١

(٤) تاريخ اليعقوبي ١٦/٢

إهانتها تشعل حرباً

وإذا كانت القبيلة تتداعى كلها لنصرة من يعتدى عليه من أفرادها فتتشب حرب بين قبيلتين فكثيراً ما نشبت حروب للعدوان على امرأة .

من ذلك أن اليوم الثانى من أيام الفجار الأول كان سببه أن شاباً من قريش وبني كنانة رأوا امرأة من بني عامر جميلة وسيمة جالسة بسوق عكاظ وعليها فضلُ برقعها ، وقد اكتنفها شباب من العرب ، وهى تحدثهم ، فأطاف بها شباب كنانة وقريش ، وسألوها أن تسفر فأبت . فجلس أحدهم خلفها ، وشد طرف رداها بشوكة إلى فوق حمزتها ، فلما قامت انكشف درعها عن دبرها فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهك ، وجدت لنا بالنظر إلى دبرك . فنادت يا آل عامر ، فثاروا وحملوا السلاح ، وحملته كنانة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، ووقعت بينهم دماء ، فتوسط حرب بن أمية ، واحتمل دماء القوم ، وأرضى بني عامر من مثلة صاحبته^(١) .

وقد سبق أن الحرب قامت بين اليمانيين وبين ربيعة ومضر لأن لبيد بن عنبسة لطم زوجته التغلبية لكمة شديدة ، وحقر من شأن قومها^(٢) .

مكانتها العامة

بعد هذا التطواف مع المرأة العربية أمّاً وزوجة وبناتاً وأختاً وقريبة ، وبعد أن درسنا حقوقها المالية ، ومنزلتها العامة ، وبيننا عملها في الحرب واشتراكها في النضال ، وبعد أن تحدثنا عن أخلاق المرأة ، وتوليها الملك ، وتقدير العرب لها ، وإعزازهم إياها ، بعد هذا كله يحق لنا أن نحكم في اطمئنان بأن المرأة العربية تبوأ مكانة سامية في الحياة العربية ، في الأسرة وفي القبيلة .

ثم رأينا الإسلام يعز المرأة إعزازاً ، وينيلها نصيباً ثابتاً في الميراث لم يكن محدداً لها في الجاهلية .

ولا شك أن المرأة التي تبوأ هذه المنزلة كانت خليقة بها ، وكانت جديرة بأن تفتش أشبالا شجعاناً أقوياء الأخلاق ، وجديرة بأن تلهم الشعراء الغزل ، وتبعث في المحاربين البطولة والبسالة والإقدام ، وتوقد في نفوس ذويها الغيرة عليها والحماية لها من الضيم .
ولست أشيد بهذه المكانة متأثراً بتعصب أو محاباة ، فقد شاد بها من لا يربطهم بالعرب عرق ، يقول العلامة نيكلسون : كانت مكانة المرأة العربية عالية ونفوذها عظيماً في العصر الجاهلي ، فقد كانت النساء حرات في اختيار أزواجهن ، وحررات في العودة إلى ذويهن إن أساء الأزواج معاملتهن ، وكن أحياناً يزوجن أنفسهن ، ولهن حق الطلاق . ولم تكن الزوجات محقرات كأنهن إماء أو سُرِّيَّات ، وإنما كن أنداداً للرجال ورفيقات ، وكن يلهمن الشعراء لينشدوا ، والمحاربين ليقاتلوا ^(١) .
فليس بصحيح إذاً أن المرأة كانت في البيئة العربية حقيرة الشأن ، متاعاً للرجال فحسب ، وأن ما صورته بها الشعراء خيال ^(٢) .

أثر هذه المكانة في المرأة الأوروبية

١ — بعد انتشار المسيحية كانت المرأة الأوروبية مزدراة ، حتى لقد كانت النساء يعيرن أنهن إناث ، وكن معدودات باباً للجحيم ، وبلغت كراهيتهن والزراية بهن إلى أن زعم بعض الناس أن أجسامهن من صنع الشيطان — وإن وُسم هذا القول بالكفر — وكان التفكير في النساء خطراً ، وكانت المرأة نحساً ، حتى إن الشيطان طالما زار النساء في شكل أنثى . ونجم عن هذه العقيدة في النساء أن كثرت الرهبنة والزهادة وبناء الأديار ^(٣) .
ولم يكن يجوز للنساء أن يشتركن في عمل خارج دورهن . وكان الزواج منبعثاً عن المصاحبة والرغبة في النفع المادى وتوسيع الإقطاعية . وكان يتم أحياناً في سن الخامسة ، خلافاً لما قررت الكنيسة أن يكون الحد الأدنى اثنى عشرة سنة ، وكان الطلاق شائعاً على تقيض ما تدعو إليه الكنيسة ، والمرأة على العموم مملوكة للرجل ^(٤) .

ولقد قرر برنتيير Brunetier أن المرأة الأوروبية تدلت إلى حضينض لم يتدل إليه غيرها في قوله : لم يحدث أن امرأة في أى زمان ومكان كانت تحنى رأسها ، وتخضع بضغظ

(١) A. Latirary History of the Arabs. PP. 87—89.

(٢) المرأة في العصور ٦٢ — ٦٤ أحمد خاكي .

(٣) تاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ Mes Ray Strachey (٤) المرأة في العصور ١٢

القوة والبطش والجبروت والسلطان أكثر مما كانت تفعل المرأة من نساء الطبقة المتوسطة في العصور الوسطى^(١).

٢ — لكن الغربيين — بعد الحروب الصليبية — تأثروا بتقاليد الفرسان فقدروا المرأة، ونشأت بينهم فكرة جديدة: أن ما يفعله الرجال من أعمال عظيمة قد أوحى به النساء. فالفرسان خرجوا إلى المعارك مدفوعين بحب النساء وحده، وجلسن النساء إلى جوار أطر التطريز يتلفهن على عودة أحبابهن. وكانت نظرة من عيني جيلتين أعظم جزاء على أى نصّب وعناء. ومن هنا حفلت قصص العصور الوسطى وأشعارها بتقدير النساء، فتبدل مركزهن حتى صرن يتقدمن على الرجال في المحافل، ويقبل الرجال أيديهن بعد أن كانوا يضربونهن^(٢):

٣ — فمن أين جاء هذا التقدير للمرأة الأوروبية؟

تذهب مسز راى استراتشى إلى أن تقدير المرأة الأوروبية جاءها من حياتها في الأديار، ومن عبادة الناس للعدراء مريم، لأن التكريم الذى نالته السيدة مريم كان له أثر عظيم في رفع شأن الأمومة^(٣).

١ — لكن في هذا التعليل مجافاة للحق، لأن المرأة الغربية ظلت قروناً عدة وهى مغبونة القيمة مبخوسة القدر هابطة المكانة، فلو أن المسيحية كانت الباعث على رفع شأنها، أو لو أن تقديس العدراء مريم هو الذى بدل وضعها عزرة لتحقيق ذلك بعد المسيحية بقرن أو بضعة قرون. ولكن هذا التقدير باعتراف مسز رى ستراتشى نفسها نجم بعد الحروب الصليبية، فلماذا تأخر إلى هذا العهد لو أنه كان وليد المسيحية أو تقديس السيدة مريم؟

ب — الحق إنه كان ثمرة للفروسية الغربية، والفروسية الغربية صدى للفروسية العربية. يقول نيكلسون: « ولعل من الممكن تتبع فروسية العصور الوسطى، وإرجاعها إلى بلاد العرب الجاهلية، لأن الشهامة ومغامرة الفرسان، وإنقاذ العذارى من السبي، والمساعدة التى كانت تقدم فى كل مكان للنساء المحتاجات، كل هذه صفات عربية، وقد أطلق عليها فى أوروبا كلمة شرف أو نبيل أو بطولة chivalry والصلة وثيقة بين هذه الأعمال المجيدة

(١) تراث الإسلام ١٦١/١ Gibb (٢) تاريخ العالم مجلد ١ ص ٣٩٨ Mers Ray Strachy

(٣) المرجع السابق

وبين الفارس ذلك الرجل النبيل البطل الشريف Chivalrous^(١).

والمسيحيون قد خالطوا العرب والمسلمين زمناً طويلاً في الشام وخالطوهم أزماناً طويلاً في إسبانيا وصقلية. وكان العرب في إسبانيا وصقلية كالعرب في الشام يتسمون بالفروسية المثالية، فيرحمون الضعفاء ويقدرّون المرأة ويرفقون بالمغلّوبين « وهي الخلال التي اقتبستها منهم الأمم النصرانية بأوروبا، فأثرت في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة. وللفروسية العربية تقاليدها كما للفرسية الأوروبية التي ظهرت بعدها،^(٢).

وفي تاريخ العرب بإسبانيا ما يثبت أنه حفل بخصال الفروسية وتقدير النساء، وأن المرأة العربية كانت عالية القدر في الغرب كما كانت في الشرق، بل إن ترند Trend يرى أن النساء تمتعن في ظل الأمويين بالاندلس بنصيب من الحرية وحظ من التقدير أعظم مما تمتعن به في ظل العباسيين ببغداد^(٣).

ولم يكن تقدير العرب للنساء حكرة على العربيات، بل كان تقديراً للأنوثة مطلقاً، ولقد يكون هذا التقدير في موقف ضنك تحتم فيه المصلحة أن يتغاضى الرجل عن بعض ما يدين به من مثل عالية، ولكن الرجل العربي غلب مثله العالية على مصلحته ومصلحة قومه. ذلك بأن والى قرطبة حاصر سنة ١١٣٩ م مدينة طليطلة، وكانت بيد النصارى، فأرسلت إليه الملكة بيرانجير — وكانت بالمدينة — من بلغه أنه ليس من المروءة والكرم أن يحاصر فارس بطل امرأة. فارتد القائد العربي من فوره محيياً الملكة^(٤).

ح — ويطول بنا المقال لو حاولنا أن نفصله في فروسية العرب في الجاهلية وفيما بعدها، وبحسبنا لمحة دالة، ونظرة عاجلة.

فالصناديد يفخرون بعد الغزل ببلاتهم في الحرب، ويوجهون الخطاب إلى المرأة يريدون أن يستميلوها وينالوا إعجابها. يقول عنتره:

سلي يا عبل قومك عن فعالي ومن حضر الواقعة والطرادا
وردت الحرب والأبطال حولي تهز أكفها السمر الصعادا

(١) Nicholson P. P. 81-88 (٢) حضارة العرب ٣٤٤ جستاف لوبون

(٣) تراث الإسلام ١٢/١ J. B. Trend (٤) حضارة العرب ٣٤٤ جستاف لوبون

وخضت بمهجتي بحر المنايا ونارب الحرب تتقد اتقادا (١)
ويكرر هذا في شعره (٢). ويتخذ عامر بن الطفيل شجاعته وسيلة إلى جدارته
بوصال حبيته :

فلو علمت سليمي علم مثلي غداة الروح واصلت الكراما (٣)
وإذا ما عاد من حربه تشوق إلى إعجاب زوجته به وسؤالها الأبطال عن إقدامه ، حتى
ليطلقها إن لم تسأل لتعرف شجاعة زوجها :

طلقت إن لم تسأل أي فارس حليلك إذ لاقى صدأ وخشعا
أكر عليهم دعلجا ولبانه إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحا (٤)
وله كثير مثل هذا (٥).

ولقد يكون مشهد الحبيبة وهي جازعة مخافة السبي باعثاً أي باعث على بطولة تجلب
النصر ، فقد رأى عمرو بن معد يكرب حبيته لميس تجرى كاشفة عن محاسنها هلعاً وذعراً
ونساء قومه يجرين ، فهجم على رئيس الأعداء فقتله ، وكسب النصر ، وصور ذلك في قوله :

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدى
وبدت محاسنها التي تخفى وكان الأمر جدا
نازات كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا (٦)

وقد يستبسل المحاربون لأن وراءهم ظعائن يحمسونهم ، وينفرونهم من الهزيمة ، وهم أضناء
بهن أن يسبين ، يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أوتهونا
أخذن على بعولتهن عمدا إذا لاقوا فوارس معلينا
ليستلبن أبدانا وبيضاً وأسرى في الحروب مقرنا

(١) ديوان عنتره ٥٧ (٢) ديوان عنتره ١٥٠ و ٥٣ و ٥٦ (٣) ديوان عامر القصيدة ٢

(٤) ديوان عامر الملحق ١٩ (٥) الديوان ملحق ٢٢ والقصيدة ٣ (٦) ديوان الحماسة لأبي

تمام شرح التبريزي ٩٢/١ المعزاء : الأرض الصلبة . يفحصن : يؤثرن من شدة الجري . لميس : اسم
حبيته .

يقتن جياتنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذ لم نحملهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيننا
وما منع الظواعن مثل ضرب ترى منه السواعد كالبرينا^(١)

وكثيراً ما أشهدا الرجل على كرمه وشجاعته ، كقول عروة بن الورد :
وقد علمت سليماً أن رأيي ورأي البخل مختلف شئت
وأني لا يرى البخل رأيي سواء إن عطشت وإن رويت
وأني حين تشتجر العوالي حوالى اللب ذو رأي زمت^(٢)
ولهذه الفروسية مظاهر أخر ، كنجدة المستغيث ونصرة المستنصف ، والحدب على
الأرامل واليتامى .

وحسبنا للدلالة على نصرة المستغيث قول سلامة بن جندل :
كنا إذا ما أتاننا صارخ فرع كان الصراخ له قرع الظنايب^(٣)
وقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك إنه كان نصير الضعيف المغلوب :
ويوماً إذا كظك الخصم إن يكن نصيرك منهم لا تكن أنت أضياعاً^(٤)
ومن العطف على المرأة المحتاجة إلى رعاية قول أوس بن حجر في رثاء فضالة
ابن كلفة :

أبا دليجة من يوصى بأرملة أم من لاشعت ذي هدمين طملال^(٥)
وقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك :
وللشرب فابكى مالكا ولهممة شديد نواحيه على من تشجعا
وأرملة تمشى بأشعث محتل كفرخ الحبارى رأسه قد تصوعاً^(٦)
وقول بنت وثيمة في رثاء أبيها وثيمة بن عثمان إنه ملجأ الأرامل واليتامى :

(١) شرح المعلقة السبع لابن الأنبارى مخطوط ٧٦ والتبريزى ٢٤٧ الأبدان : الدروع . البرين :
جمع برة وهى حلقة فى أنف البعير . ورواية التبريزى (كائنين) جمع قلة وهى الخشبة التى يلعب بها الصبيان
يضرّبونها بالقلل (٢) ديوان عروة . زميت : وقور (٣) سمط اللآلى ٤٧/١ الظنايب : جمع ظنوب
وهو مسمار فى جبة السنان (٤) الفضليات ٦٥/٢ الخصم : الحصوم : كظك : قهرك وغلبك .
(٥) ديوان أوس بن حجر ٢٣ والبيان والتبيين ١٥٩/١ أشعث : مفبر . هدم : بال . طملال :
فقير (٦) الفضليات ٦٦/٢ محتل : سىء الحال والغذاء . الحبارى : ضرب من الطير : تصوع : تفرق شعره .

ألفيته مأوى الأرا مل والمدفعة اليتيمه (١)

والأمثلة شتى على حماية العرب للمستجير، وفكهم الأسير، ونصرهم للمهزوم .
وقد بسطت المقال في موضع آخر (٢) في افتتاحهم القصائد بذكرها، وفي أفانين غزلم
بها، وتنافسهم لنيل إعجابها .
وهذه كلها هي الأسس التي قامت عليها الفروسية في الإسلام وفي أوروبا في
العصور الوسطى .

و — وليست هذه الفروسية الغربية ذات المثل السامية وما تقتضى من احترام المرأة
إلا أثراً للعرب والإسلام لا للنصرانية . فالإسلام هو الذى رفع المرأة من الدرك الأسفل الذى
كانت فيه، لا النصرانية . فإذا نظرت إلى أمراء النصارى الإقطاعيين فى القرون الوسطى
رأيتهم لم يحملوا شيئاً من التقدير للنساء، ووجدت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً فى
معاملة النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب معاملتهن بالحسنى (٣) .
ونجد أن الشعر فى أوروبا اقترن بالفروسية كما كان عند العرب، بل أصبح شرطاً من
شروطها، وصار لزاماً على الفرسان أن يقرضوه كباراً وصغاراً، ومن لم يستطع أن يقرض
الشعر بنفسه ليتغنى بحبه ويفصح عن لواعج قلبه أنشد شعر سواه (٤) . وعد الفارس من
واجبه حماية المرأة والأرملة واليتيم والضعيف من الرجال الذين يطلبون المعونة
والغوث (٥) .

وكثير من العلماء الغربيين يصلون الفروسية الأوروبية بالفروسية العربية والإسلامية،
يقول فلوريان : « المسلمون أرق الناس حباً وأكثرهم خشوعاً وأشدهم عاطفة، وإذا أحب
أحدهم امرأة — وإن حبها حتى تصير أسيرة بيته — أصبحت حاكمها مطلق السيادة،
وملكت قلبه . من أجل النساء سعى العرب وراء المجد، ولـكى استطعوا فى عيونهن سعوا فى
سبيل الثراء حتى يقدموا لهن أغلى ما يملكون من مال وحياة (٦) . » ويقول بارثلى سانت

(١) البيان والتبيين ١/١٦١ (٢) الغزل فى العصر الجاهلى ٢٣١ — ٢٣٩

(٣) حضارة العرب ٤٨٨ جستاف لوبون والفتوة عند العرب عمر الدسوقي ٢٧٢ عن :
Florian, dans son Précis Historique. sur le Mauers Floian, dans son Précis. Historique
sur le Mauers.

(٤) الفتوة عند العرب ٢٨٧ عن Fauaiel, op cit. t. I. P. 529

(٥) الفتوة عند العرب ٢٧٨ عن Mémoires sur l'ancienne chevalerie

(٦) الفتوة عند العرب ٢٨٥

هيلير : « أما الفرسان فقد تعلموا المشاعر الرقيقة وأجل الفضائل الإنسانية من العرب . ومن المشكوك فيه أن المسيحية وحدها على عظمتها كانت تستطيع أن تلهبهم هذه الأخلاق (١) » .

ويذهب جب Gibb إلى أن الشعر البروفانسي حافل بعشق غنى بالصور الجميلة ، وإلى أن هذا الضرب من الحب أو التقديس للمرأة لم يكن نتيجة لتقاليد العصور الوسطى ، ولم يكن صدق للأدب اليوناني أو اللاتيني ، وإنما قام على تقاليد أدبية راسخة صادرة من شعر العرب في إسبانيا ، لأن الأدب العربي كان في كل عصوره يستمد من ينبوع حب الرجل للمرأة (٢) . وآخر شهادة أعزز بها أن الفروسية الغربية وليدة العربية قول الأديب الإسباني الوطني الغيور بلاسكوا أبايز الذي توفي منذ بضع سنوات : إن أوروبة لم تكن تعرف الفروسية ولا تدين بأدائها المرعية ولا نخوتها الحماسية قبل أن يفد العرب إلى الأندلس وينتشر فرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب . وهذه الفروسية التي ظهرت بين عرب الأندلس قد تبناها فيما بعد رجال الشمال كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية (٣) .

٤ — وبعد ، فلقد جانبت مسز رى سراتشى الصواب حين زعمت أن الإسلام كان ذا تأثير مضاعف في التدلى بالمرأة ، وتثبيطها عن النهوض ، لأنه قرر أن النساء لا نفوس لهن ، وأنهن أدوات للاستمتاع فحسب (٤) . وليست هذه الدعوى في حاجة إلى تفنيد بعد ما تقدم من نصررة الإسلام للمرأة ، ومن شهادة الغربيين المنصفين بذلك . وكأما نسيت السكاتبة أن عليقة من رجال روما اجتمعوا في القرن السابع عشر وتناقشوا طويلا في أن للمرأة روحاً أم لا روح لها (٥) ، وأن امرأة بيعت بشلن في أسواق لندن سنة ١٧٩٠ م لأن نفقات معيشتها زادت على الكنيسة التي تؤويها ، وأن القانون الانجليزي ظل إلى سنة ١٨٥٠ لا يعدها من المواطنين (٦) ، ونسيت أنها هي نفسها التي قالت : لقد كتب بلاكستون Blachstone في شروحه المشهورة على قوانين انجلترا في سنة ١٧١٠ م يقول : « إن القيود التي تزرع تحتها المرأة يراد بها في الغالب حمايتها وخيرها » والحق إن القانون قد حررها كل حق مدني تقريباً ، وحال بينها وبين التعليم وكل شيء آخر ما عدا أحط موارد الكسب ،

(١) الفتوة عند العرب ٢٧٧ عن Barthelemey Saint-Hilaire. et le coran.

(٢) تراث الإسلام ١٦٠/١ — ١٦٨

(٣) أثر العرب في الحضارة الأوروبية ٦٨ و ١١٤ العقاد

(٤) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٤ Mrs Ray Strachey

(٥) دائرة المعارف . مادة المرأة . فريد وجدي

(٦) المرأة ومرکزها الاجتماعي ٤٣ محمد البنداري

ونزلت عن ثروتها كلها عند الزواج ، ونستطيع أن نقرر أن مركز النساء منذ أواخر القرون الوسطى إلى آخر القرن التاسع عشر لم يفتح خيراً (١) . ونسبت أيضاً أنها هي القائلة : إن النساء كن يعيرن أنهن إناث ، وكن معدودات بابا للجحيم ، حتى قيل : إن أجسامهن من عمل الشيطان ، وإن الشيطان طالما زار النساك في شكل أنثى ، لذلك كثرت الرهبنة والزهد وبناء الأديار ، وكان هذا كله بعد النصرانية وانتشارها (٢) .

وإذا كانت الأحوال قد دالت ، فتقهقرت المرأة العربية ، ونسى العرب أو تناسوا خلال الفروسية ، بينما أغدت المرأة الغربية سيرها ، ثم جعلت المرأة العربية تتطلع إلى أختها الغربية وتحاكيها ، فإنها بذلك تسترد ديناً لها ، وتأتسى بعد أن كانت أسوة .

موازنة المرأة العربية بغيرها

أستطيع — بعد أن جَلَوْتُ الصورة الصحيحة للمرأة العربية ، وبينت منزلتها في الحياة السياسية والاجتماعية : في الأسرة وفي القبيلة ، وبعد أن وازنتها بالنسوة المعاصرات لها — أن أعرض مكاتبتها العامة بالنسبة لغيرها من النساء .

١ — بين المرأة العربية والعبرية :

قلت إن اليهود اصطبغوا بصبغة عربية في جزيرة العرب فكانوا عرباً في عاداتهم ونظمهم ولغتهم .

لذلك نجد تشابهاً بين بعض أحوال المرأة العربية والمرأة اليهودية ، فكل منهما تسمى ، وتباع ، وتورث أو يورث نكاحها ، ولا ترث ، وإن كانت العبرية قد ورثت في عصر متأخر في حالات خاصة ، وورثت العربية أحياناً نصيباً غير مقدر .

وتتشابهان أيضاً في أن كلا منهما نسب إليها بنوها أحياناً ، وفي حرمة بعض النساء على بعض الرجال ، وفي إباحة زواج المتعة .

لكن المرأة العربية تمتاز بأنها خولت حق الطلاق كالرجل ، وخولت أن تطالب بالتطليق ، وأن تختلع . وقبلها باعها أبوها بيع الرقيق كما كانت تباع العبرية . ولم يتزوج عربي أخته كما فعل العبرانيون .

ثم إن العرب لم ينظروا إلى المرأة على أنها شر ووباء كما نظر العبرانيون ، بل لأنهم أحبوها ومجدوها وتقربوا إليها وصانوها .
وتتميز المرأة العربية أيضاً بمشاركتها في الحياة العامة مشاركة عظيمة القيمة : في تولي الملك ، وفي قيادة الجيوش ، وفي الحرب ، وفي أنها تجير ، وتشترك في حلف .

بين المرأة العربية والمسيحية

لا شك أن المرأة العربية كانت أعظم قدراً من المسيحية ، فإن العرب لم يهبطوا بالنساء إلى تجريدن من الروح والبشرية ، ولم يصموهن بأنهن رجس .
وإذا كانت المسيحيات قد أبلين بلاء حسناً في نشر المسيحية فقد أبلت العربيات بلاء حسناً في الدفاع عن الوثنية أولاً ، وفي الدفاع عن الإسلام ثانياً .
على أن المرأة المسيحية سعدت بما حرّمته العربية ، فهي لا تنضار بالضرائر ، ولا بالطلاق ولا بالتسرى ، وإن كان كل من هذه الثلاث سلاحاً ذا حدين ، فقد ينتفع به الرجل ، وقد تستفيد به المرأة ، وربما لا يكون منه بدّ في بيئة بدوية محاربة تخشى العار ، وتحرص على عفة النساء ، وكثرة النسل .

بين المرأة العربية والفارسية

تمتعت المرأة العربية بالملك كما تمتعت الفارسية ، وكان تعدد الزوجات والتسرى شائعاً هنا وهناك .
وكان الحجاب عند الفرس أشد منه عند العرب ، ثم كانت العربية مصونة ومحاطة بسياسج منيع من غير الرجل عليها ، فلم يعرف العرب نظام الشيوع في النساء كما عرفه الفرس .
ثم إن العرب كانوا لا يحلون البنات ولا الأمهات ولا الأخوات ، كما كان يفعل الفرس .
ولا أشك في أن العرب الذين تمجّسوا لم يرتضوا زواج الأمهات والبنات والأخوات ، بل نفروا منه ، وأنغضوا رءوسهم له ، ولكن هذا لا ينفي أن قلة منهم شذت عن العرف العربي في نظام الزواج . يدل على ذلك هجاء أوس بن حجر لبعض العرب بقوله :
والفارسية فيهم غير منكّرة فسكلهم لأبيه ضيزن سلف (١)

وقول المتلس في هجاء عمرو بن هند :

ملكٌ يلاعب أمه وقطينها
رخو المفاصل كالبرد (١)

وذكر بعض المؤرخين أن حاجب بن زرارة تزوج بنته دختنوس ، ثم ندم (٢) . وقيل إن لقيط بن زرارة هو الذي تزوج بنته دختنوس ، وسماها بهذا الاسم الفارسي ، فلما قتل في يوم شعب جبلة وهي في عصمته قال :

يأليت شعري عنك دختنوس إذا أتاها الخبر المرموس

أتخلق الرأس أم تميمس لا بل تميمس إنها عروس (٣)

على أن بعض المؤرخين يتفق مع ابن قتيبة في أنها بنت لقيط ، ولكنها كانت زوجة لابن عمها عمرو بن عمرو بن عدس (٤) ، ثم تزوجها بعده معبد بن زرارة (٥) أو عمير بن معبد ابن زرارة (٦) ، ولم يُشر واحد من هؤلاء إلى زواجها بأبيها .
وتتشابه الفارسية والعربية في بغضة الآباء للبنات ، وتفضيلهم الذكور عليهن .

بين المرأة العربية والرومانية واليونانية

إذا ما قايستنا المرأة العربية بهاتين وجدناها أعلى مكانة ، لأن العرب لم ينظروا إليها نظرة المهانة ، ووجدناها تشارك في الحياة الأسرية والحياة العامة بقدر عظيم ، ولها حق الملك والتصرف فيما تملك .

ثم إن العرب لم يعتبروها وعاء للنسل فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها مخلوق منحط ، ولم يقتلوا الأم إن ولدت ولداً ضعيفاً .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بأنها كانت صاحبة حق في أن تطلق زوجها ، وأن تختلع منه لتفارقه ، وأن تطلب الطلاق بدون خلع ، وبأنها لم تكن مشاعة بين الرجال هذا الشيوع الذي جرى عليه الإغريق والرومان . ولم يستحل العرب نكاح الأخت لأب كما استحلّه الإغريق .

(١) ديوان المتلس ٦ مخطوط (٢) المعارف ٢٠٥ والأعلاق النفيسة ٢١٧/٧ والمغرب للجواليقي ١٤٢ شرح شاكر وكتاب الزينة لأبي حاتم الرازي ٦٠ مخطوط
(٣) الكامل لابن الأثير ٢١٣/١ (٤) الأغاني ٣٨/١٠ وتاج العروس ١٤٧/٤
(٥) مجمع الأمثال للميداني ١٣/٢ (٦) الشعر والشعراء ٢٧١ وتاج العروس ١٤٧/٤

والعربية على العموم أسمى في الأسرة وفي المجتمع منزلة ، ولها قسط عظيم من المساهمة في الشؤون العامة .

على أن ثمة بعض التشابه ، فبعض العرب كانوا يثدنون البنات ، والإغريق كانوا يقتلون الضعاف من الذكور والإناث . وقليل من العرب كانوا يبيعون لنسائهم الاستبضاع كما أباحه الإغريق والرومان ، وكثير من العربيات كن يسفرن ، كما كانت تسفر المرأة في إسبرطة وأثينا ، وإن كان سبب السفور عند العربية مغايراً لسببه عند الإغريقية . والعرب والإغريق كانوا يعددون الزوجات ، ويحرمون المرأة أن ترث ، وينسبون أحياناً إلى الأم .

بين المرأة العربية والمصرية.

تشابه العربية والمصرية في سمو المكانة ، فكل منهما استوت على عرش الملك ، وكلتاهما جليلة الشأن في الحياة الأسرية وفي الحياة العامة ، وإذا كانت المرأة المصرية قد حظيت عند بلعها فإن العربية أيضاً كانت ذات نفوذ عظيم ، حتى لقد نسب إليها زوجها أحياناً .

على أن كليهما تملك المال ، وتصرفت فيه مستقلة عن الرجل ، وإذا كان الحكم اليوناني لمصر قد سلب المرأة المصرية هذا الحق فإن العربية لم تُسلبه . وكان تعدد الزوجات والتسرى هنا وهناك .

ولكن المصرية امتازت من العربية بأنها ورثت وحدها أحياناً ، وورثت بالرجل أحياناً أخرى .

والعربية امتازت بأن نكاح الأم والأخت كان محرماً عند العرب .

دلالة هذه المكانة على رقي العرب

كان العرب في العصر الجاهلي يعرجون إلى الرقي ، فقد أقر الإسلام كثيراً من نظمهم في الزواج والطلاق ، وفي معاملة السبايا ، وفي الحجاب والأخلاق ، وحق النساء في الامتلاك والتصرف فيما يمتلكن . وليس أدل على رقيهم من أنهم أوفضوا سراعاً إلى زعامة العالم بعد الإسلام . ولم يكن من الطبيعي أن يخلقهم الإسلام خلقاً جديداً في بضعة أعوام ، وأن يسن آداباً وأخلاقاً وعادات ومعاملات تناقض طباعهم الأصيلة ، وتغايير نفوسهم ، ثم يدينون بها وتشربها قلوبهم حتى ليجهشون في نشرها ، ويطيرون بها طيراناً في الآفاق ، ليس من

الطبيعى أن يحدث ذلك إن لم يكونوا مستعدين لتلقى هذا الجديد وتقبله وتنفيذ تعاليمه بقلوب واعية ، وعزائم ماضية ، ونفوس طماعة ، لأن حضارة الأمة لا تولد فجأة ، ولا تنجم على حين غرة ، وإنما تولد بعد زمن طويل وماض بعيد كفيل بالتبدل والتطور والانتقال ، كالشجرة تبدأ بذرة فى تربة ملائمة وبيئة موافقة ، ثم تتدرج فى نموها حيناً بعد حين .

على أنا نعلم أن العرب تسابقوا إلى اقتباس حضارة الأمم فى الإسلام ، وهم بهذا الاقتباس السريع أثبتوا أنهم ذوو قرائح مستعدة للرقى والانتفاع بما هو خير ، وهذه القرائح لا تكون إلا ثمرة لوراثة سابقة ، وثقافة قديمة ، فهم على النقيض من البرابرة الذين قوضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية ، وظلوا قروناً كثيرة لا يستطيعون أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينية ، ويخرجوا من ظلمات القرون الوسطى ^(١) .

ومن عجب أن يشيد بعض الأجانب من المؤرخين الأقدمين ومن المحدثين بحضارة العرب ، ونغفل عن هذه الإشادة ، ونروح نرميهم بالهمجية والوحشية متأثرين بحملات شعوبية قديمة ، وتعصب استعماري ظالم .

لقد وصف هيرودوت بلاد اليمن وصفا دالا على حضارتها ، وتابعه سترابون . ولقد كان عرب الحيرة والشام على صلة بالفرس والروم وبحضارتهم . على أن العرب ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة ، وحضارة اليمن أقدم من حضارة الرومان . ولسنا نغالى فى قولنا إن العرب فى شبه الجزيرة ولا سيما فى الجنوب أسهموا فى تشييد الحضارة الإنسانية ، بل إنه لا يمكن إنكار ذلك ، فقد كانت شبه الجزيرة قبل الإسلام بألنى عام ذات مكانة عظيمة فى العالم القديم ، ثم زادها الإسلام عزة ، حتى حمل العرب مشاعل النور إلى أوروبا والجهل يتفشى فى ربوعها ^(٢) . وإذا فما بُد من تصحيح النظرة إلى عرب الجاهلية ، فقد استبان لى من هذا الكتاب ومن كتاب الغزل فى العصر الجاهلى أن العرب ظلوا بالحكم عليهم بالهمجية . وإذا كان قد اتضح لى أنهم على قسط عظيم من الحضارة فيما يتصل بالمرأة فى الأسرة والقبيلة والحياة العامة فإننى أتوقع أن تكشف دراسات أخرى عن ألوان من الرقى طمست معالمها مع الزمن .

(١) حضارة العرب ١١١ جستاف لوبون . (٢) حضارة العرب ١٢١ و

القسم الثاني

المرأة في الحياة الفنية

الباب الأول

المرأة المغنية

أتحدث في هذه الفصول عن المرأة في الحياة الفنية ، مغنية ، وراوية للشعر وناقدة ، وشاعرة . وفي هذه الدائرة ناحية عظيمة القيمة كان من المنتظر أن أفرد لها فصلاً حافلاً ، أقصد المرأة الحبيبة أو المرأة الملهمة للغزل ، لكنني لم أفعل ؛ لأنني خصصت المرأة الملهمة للغزل بكتاب (الغزل في العصر الجاهلي)

الغناء في الجاهلية :

أولع العرب بالغناء أيما ولوع ، فكان العربي يتغنى وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلة تمشي به مثتدة أو مُرَقَلَة ، وهو يهتز على ظهرها هزات تبطيء وتسرع ، وتطول وتقصر . وكان يتغنى وهو يهجم في الحرب فيجرى أو يثب ، ويتغنى وهو يمتح الماء من البئر فيعلو جسمه أو ينخفض ، ويتغنى وهو يرقص ، ويتغنى وهو يزاول عملاً تصحبه العاطفة وتعوزه التسلية . تنزل به النازلة فيروح عن نفسه بالغناء ، وتبسم له الحياة فيصور حواره في غناء .

فالغناء حُداء الركب ، وشَدُو الفرد ، وأهزوجة المنتصر ، وأغرودة العاشق ، وسلوى المكروب والمحروب .

علاقة الشعر بالغناء

وقد ارتبط الشعر بالغناء في النشأة الأولى ارتباطاً وثيقاً ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة ويعبران عنها ، فبواعث الغناء هي بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى أساس فيهما معاً ، ففي الغناء موسيقى النغمات والألحان ، وفي الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان .

لذلك لا نعرف شعباً غنى بالثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى وأحلى ، وأكثر طواعية للتنعيم والترنيم .
وظواهر هذا الارتباط كثيرة في الأدب العربي القديم وفي غيره من الآداب .
١ — فقد كان شعراء العصر الجاهلي يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه ، وهم يعبرون عن الإنشاد أحياناً بالغناء ، لأن الإنشاد ضرب منه ، كما روى أن المهلهل شرب خمرأ وتغنى قصيدته التي مطلعها :

طَفَلَةٌ مَا ابْنَةُ الْمُحَلَّلِ بَيْضًا • لعوب لذيذة في العناق^(١)
والسلبك بن السلكة غنى بقوله :

يَا صَاحِبِي أَلَا لَا حَيَّ بِالوَادِي سوى عبيد وآم بين أذواد
أَتَنْظُرَانِ قَرِيبًا رَيْثَ غَفْلَتِهِمْ أم تغدوان فإن الريح للغادى^(٢)
والأعشى كان يغنى في شعره ، وكانت العرب تسميه صنّاجة العرب^(٣) . ومُزَرَّد بن ضرار أو أخوه جزء يقول في تهديد أعدائه بهجاء ممض إنه سيرميهم بأهاج مرة يتغنى بها السارى ، ويحدو بها الحادى .

زَعِيمٌ لِمَنْ قَاذَقُوهُ بِأَوَابِدِ يغنى بها السارى وتُحَدَّى الرواحل^(٤)
وامروء القيس كان يغنى بشعره ، يدل على ذلك قول أبى النجم لقينته أن تغنيه ببعض ما كان يغنى به امرؤ القيس أو عمرو :
تَغْنَى فَإِنْ الْيَوْمَ يَوْمٌ مِنَ الصَّبَا ببعض الذى غنى امرؤ القيس أو عمرو^(٥)
وحسان بن ثابت يقرن الشعر بالغناء :

تَغْنَى بِالشَّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلُهُ إن الغناء لهذا الشعر مضمار^(٦)
وقد عبروا عن الشعر بالغناء ، من ذلك أن عمر بن الخطاب قال للناطقة الجعدى : أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له ، فقال له : وإنك لقائلها ؟ قال : نعم . قال عمر : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب^(٧) .

(١) الأغاني ٥١/٥ (٢) الأغاني ١٨/١٣٤ (٣) الأغاني ٩/١٠٩
(٤) الفضليات ٩٨/١ أو ابدا . غرائب القول يريد الأهاجى المرة (٥) الشعر والشعراء ٤٢
(٦) الموشح ٢٩ والعمدة ٢/٢٤١ وفي أساس البلاغة (إما كنت ذا بصر) ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح لأن المضمار هو الموضع الذى تضم فيه الخيل (٧) العقد الفريد ٤/٩٠

وكانت النساء يتغنين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، كقول منفوسة بنت زيد الخيل
في ترقيص ولدها

أشبه أخى أو أشبهن أباكأ أما أبى فلن تنال ذاكأ
تقصّر عن مناله يداكأ^(١)

وكن يبكين موتاهن بغناء حزين هو النواح ، كما ناحت الحنساء على أخويها ، وهند بنت
عتبة على أبيها وعمها وأخيها^(٢) ، وكن يغنين فى المعارك ليشجعن الرجال على القتال كما سبق
فى الحرب .

وظل لفظ الإنشاد إلى ما بعد العصر الجاهلى دالا على إلقاء الشعر وإن لم يصاحبه غناء ،
كما فى شعر ذى الرمة^(٣) والمتنبي^(٤)

وطالما غنى الرجال بشعر حماسى وهم يحاربون كما فعل عُمر بن الحُمام إذ سمع النبى صلى الله
عليه وسلم يحرض المسلمين على قتال المشركين فى بدر فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :
ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاذ
غير التقى والبر والرشاد^(٥)

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مر عليها — وهى فى حصن بنى حارثة يوم
الخنندق ومعها أم سعد — وهو يسرع إلى الحرب ويقول :

لَبْتُ قَلِيلًا يشهد الهيجا جَمَل لا بأس بالموت إذا حان الأجل^(٦)

وفى غزوة خيبر خرج مَرحب اليهودى من حصن لليهود وقد جمع سلاحه وارتجز بقوله :
قد علمت خيبر أنى مَرَحْبُ شاكى السلاح بط — ل مجرَّبُ
أطعن أجيانا وحينما أضرب إذا الليوث أقبلت تُحَرَّبُ

.....

وكان يقول من يبارز ، فأجابه كعب بن مالك بقوله :

قد علمت خي — بر أنى كعب وأنتى متى تُشَبُّ الحرب

(١) لسان العرب مادة وكل والأغاني للأطفال عند العرب ٥٥ (٢) الأغاني ١٣/١٢٩

(٣) العمدة ٢٤١/٢ (٤) ديوان المتنبي ١٩٣/١ شرح البرقوق

(٥) تاريخ الطبرى ٢٨١/٢ (٦) تاريخ الطبرى ٤٩/٣

ماضٍ على الهول جرى صلب معى حسام كالعقيق عَضْب
(١)

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى وجماعات ، فقد روى عن أنس بن مالك وعن عائشة أنه لما قدم رسول الله المدينة تغنت النساء والصبيان بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمير المطاع (٢)

وفي حفر الخندق رأى النبي ما بالصحابة من تعب وجوع ، فقال متمثلاً بقول ابن رواحة :

لاهُمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة
وكان الصحابة يجيبونه بقولهم :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وروى أنه صلى الله عليه وسلم تمثل بشعر آخر أيضاً (٣) ، وأن الصحابة ارتجزوا برجل من الأنصار اسمه جُعيل وسماه الرسول عمرأ فقالوا :

سماه من بعد جُعيل عمرأ وكان للبائس يوماً ظهراً

فإذا مروا بكلمة عمرو قال الرسول (عمرأ) وإذا نطقوا كلمة ظهر قال الرسول (ظهرأ) (٤)

٢ — ولم يكن الشعر العربي وحده هو الوثيق الصلة بالغناء ، فقد كان الشعر اليوناني كذلك ، فأطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى المغنى . وكان هوميروس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية . ولم يكن الغناء بالشعر عند اليونان محصوراً في نوع معين منه ، فقد تغنوا في مناجاة الآلهة ، وفي مدح الملوك ، وفي إلقاء القصص ، وفي الشعر التمثيلي الذي كان حواراً وأنشيد غنائية ، على أن الشعر الغنائي استمد هذه التسمية من نسبته إلى كلمة Lyre ، وهى آلة موسيقية قديمة ، فسمى Lyric Poetry أى الشعر الغنائي (٥) .

(١) سيرة ابن هشام ٣٨٣/٣ والمغازى ٣٩٠ (٢) السيرة الحلبية ٥٨/٢

(٣) السيرة الحلبية ٣٣٢/٢ (٤) سيرة ابن هشام ٢٣٢/٣

(٥) أصول النقد الأدبي ٣١٨ أحمد الشايب

وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائي مرتبط أشد الارتباط بالموسيقى^(١) ومنذ عهد قديم أطلق الإنجليز كلمة Bard على الشاعر المغني الذي كان يتغنى أمام المحاربين ويعزف على آلة موسيقية^(٢). ثم ظهرت طائفة التروبادور Troubadour في القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر في شرق إسبانيا وشمالي إيطاليا وجنوبي فرنسا، وكانوا يتنقلون من قصر إلى قصر ينشدون شعرهم ويوقعون على آلات موسيقية معهم^(٣). وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر ظهرت جماعة المينسينجر Minnesingers في ألمانيا، ينشدون الشعر ويتغنونه على أداة موسيقية^(٤).

أنواع الغناء عند العرب

تغنى العرب بشعرهم كما سبق، فرادى وجماعات، رجالاً ونساء، وهذا هو الترنيمة. ثم تنوع الغناء إلى ثلاثة ألحان: نَصَب وسناد وهَزَج. أما النصب فغناء الركبان والقيان، وأما السناد فالثقل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج فالخفيف كله الذي يلهم وينشط على السير، وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم^(٥). وإنما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب^(٦).

غناء الإماء

النساء أليق بالغناء

كانت النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال، لأنهن في الغالب أندى صوتاً وأحلى ترجيعاً وأرق نغماً، ولأن لجامهن وأنوثتهن أثراً في الطرب لهن. وقد ذهب الجاحظ إلى أن الغناء المطرب في الشعر الغزل من حقوق النساء، وإنما ينبغي أن تغنى بأشعار الغزل

(١) قواعد النقد الأدبي . ٧ لاسل كرومي

(٢) The great Encyclopaedia of Universal Knowledge

(٣) المرجع السابق و Twentieth Century dictionary Larrous

(٤) Twentieth Century dictionary

(٥) كتاب الملاحى للغنى ٤٤ مخطوط والعقد الفريد ١٨٦/٣ (٦) العقد الفريد ١٨٦/٣

والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شُبب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول في التشبيب ، ^(١) ، ثم قال : « وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله وبين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . وبعد فأئما أحسن وأملح وأشهى : أن يغنيك خل ملتف اللحية كث العارضين أو شيخ منخلع الأسنان مغضن الوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينه ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة ؟ ^(٢) »

وإذا كان الجاحظ قد وازن بين الجارية الحسناء والرجل القبيح ليخلص إلى أننا نؤثر سماع الجارية ونفر من سماع الرجل ، فإن الجواب واحد إذا وازنا بين مغنية جميلة ومغن جميل .

وقد حدث ثُمَامَةُ بن أَشْرَس فقال : كنت عند المأمون يوما فاستأذن المغني عُمَيْرٌ ليدخل فكرهت ذلك ، فقال المأمون : ما بك يا ثُمَامَةُ ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إذا غنى عُمَيْرٌ ذكرت مواطن الإبل وكشبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملى وقوى جدلى وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والولدان . كم بين أن تغنيك غادة كأنها غصن بان ترنو بمقلة وسان ، كأنما خلقت من ياقوتة أو قرطت من فضة ، وبين أن يغنيك رجل كث اللحية غليظ الأصابع خشن الكف ؟ فتبسم المأمون وقال : الفرق بينهما واضح . يا غلام لا تأذن له . وأمر بأن تحضر أطيب قيناته ^(٣) .

القيان محترفات بالغناء :

هل كان في العصر الجاهلي مغنيات محترفات ؟ نعم ، كانت هنالك مغنيات يحترفن بالغناء ويشتهرن به هن القيان . والقينة : الأمة المغنية ، من التقين وهو التزين . ومنه قيل للمرأة مَقِينَةً إذا كانت تزين النساء ، شبهت بالأمة ، لأنها تصلح البيت وتزينه . وقيل القينة الأمة مغنية أو غير مغنية ، والقينة الجارية تخدم ، والأمة غنت أو لم تغن . والمغنية تسمى قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر ^(٤) .

(٢) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٤

(١) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٥

(٤) لسان العرب ١٧/٢٣١

(٣) رهر الآداب ٢٧/٣

وقد عرف العرب القيان منذ زمن بعيد ، فقد يما كانت لمعاوية بن بكر العمليقي — سيد
العمالقة الذين نزلوا بمكة في سالف الدهر — جرادتان كانتا قيمتتين ، وبهما ضرب المثل في
سالف الدهر فقيل صار فلان حديث الجرادتين ، إذا اشتهر أمره ^(١) . وقيل إنهما أول من
غنى الغناء العربي ^(٢) .

ولما حبس المطر عن عاد — وكانوا ينزلون بين الشَّحْر وحضرموت — بعثوا وفد
إلى مكة يستسقون لهم ، فنزلوا على معاوية بن بكر ، لأنه كان صهرهم ، فشغلوا بشرب الخمر
وسماع الجرادتين عن الاستسقاء ، ثم تذكروا قومهم فاستسقوا لهم ^(٣) .
ثم كانت لعبد الله بن جدعان أمتان تتغنيان في الجاهلية سماهما بجرادتي عاد ، وقد غننا له
قول أمية بن أبي الصلت في مدحه :

عطاؤك زين لامرئٍ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئٍ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين
وذكر لها إسحق الموصلي في المائة المختارة لحنا وهو :

أفقر من أهله مصيفُ فبطن نخلة فالعريف
..... : (٤)

وكانت لبشر بن عمرو بن مرثد قينتان أختان هما هريرة وخليفة ، كانتا تغنيانه النصب ،
وقد قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان ^(٥) . وهريرة هي التي شذب بها الأعشى في قوله :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟ ^(٦)
وفي قوله يذكر غناءها :

وتليت داجنةً تحاوب مثلها خوداً منعمةً وتضرب معتبا ^(٧)

والقيان المشهورات كثيرات ، منهن بنت عفزر ^(٨) وحمامة ^(٩) وأرنب ^(١٠) وزينب ^(١١) .

(١) مجمع الأمثال ١٨٦/٢ و ١١٨/١ (٢) جهرة الأمثال ١٩٠/٢

(٣) كتاب الملاحى للضبي ٥٣٣ مخطوط وجمع الأمثال ١١٨/١

(٤) أوائل الأوائل لأبي هلال ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان للجاحظ ٦٢ (٥) الأغاني ٧٧/٨

(٦) ديوان الأعشى الكبير (٧) المفضليات ٧٦/٢ الداجنة : شرحها ابن الأنباري بأنها القينة

المغنية ولس هذا في المعاجم . معتب : مطيع مجاوب والمراد به العود (٨) الأغاني ١٧/١٠

(٩) الإصابة ٤/٨ (١٠) الإصابة ٤/٨ (١١) الإصابة ٩٩/٨

ثم كثرت في العصر الأموي والعباسي ، وبرعن أيما براعة ^(١) ، حتى لقد خرج يودع جميلة وهي ترمع الحج كثير من المغنين والمغنيات الحذاق منهم هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحاحا وقد ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلبله ولذة العيش وسعيدة والزرقاء ^(٢) ، حتى قالوا إن زهاء خمسين قينة لحقن بها ، ولحق بها أيضا زهاء ثلاثين مغنيا ^(٣) .

جنسية القيان :

١ — انصرف العرب عن الاحتراف بالغناء ، على شغفهم به وطربهم له . ولعل السبب في انصراف الرجال عن احترافه أنهم كانوا يكسبون أرزاقهم من الحرب ، ومن التجارة والرعي ، وأنهم كانوا يتجافون عن أنواع الصناعات ، وأن مكانة المغنى — وإن أطرب ونال العطاء الجزل — لم تكن توائم المكانة التي يريدها العربي لنفسه ، ثم إنهم وجدوا الغناء أليق بالنساء من الرجال .

وكذلك انصرفت الحرائر عن الغناء ، لأنهن إما مكفولات الرزق برجالهن ، وإما كاسبات رزقهن بأعمال غير الغناء . وما من شك في أن الغناء يقتضى من المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تبرز بعض مفاتها لهم ، وأن تكون مناط أنظارهم وبجمع اشتهاهم — كما تحدث الشعراء — وما يرضى رجل عربي أن تكون ملتقى الأنظار والشهوات امرأة تربطها به صلة ، ولا تجرؤ عريية أن تشذ عن بنات جنسها فتحتل هذا الموضع المخصص للإماء .

٢ — لهذا كانت الكثرة الغالبة من القيان في العصر الجاهلي غير عربيات ، وما زالت هذه الكثرة من الموالى والجوارى في العصر الإسلامى والعباسي .

يدل على ذلك أن حسان بن ثابت وصف ليلة من لياليه في الجاهلية عند جبلة بن الأيهم وجاء في وصفه أنه سمع عشر قيان : « خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها » ^(٤) ، ولكنه لم يذكر جنسية هؤلاء اللاتي يغنين غناء أهل الحيرة أم هن فارسيات أم عربيات ؟ وما يؤيد هذا أن عامر بن الطفيل هجا خصمه بقوله :

واختر برهـ طـ بني الحـماس ومالك وبني الضباب ورعـبل وقيان ^(٥)

(١) الأغاني ١٧٩/٧ و ١٢/١٦ و ١١٨/٧ - ١٤٠ (٢) الأغاني ١٢٨/٧

(٣) الأغاني ١٢٨/٧ (٤) الأغاني ١٤/١٦ (٥) الأغاني ١٤/١٦

وأن الأعرشي كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهم ما شاء يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي ، وفي ذلك يقول لناقته :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تنأخي بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها
وشاهدنا الجُل والياسمين والمُسمعات بقصاها
ويربطننا دائماً معمل فأى الثلاثة أزرى بها؟ (١)

وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليال فقال إن القيان كن فارسيات أو يونانيات من سوريا وإنهن كن يغنين بالعربية ، وربما غنين بلهجة أجنبية (٢). وهو في هذا يتفق مع فون كريم ، وإن ذهب فون كريم إلى أنهن كن يغنين بلسانهن اليوناني أو الفارسي (٣).

وإنه لأدنى إلى الصواب أن نضيف إلى اليونانيات والفارسيات الحبشيات أيضاً كما ذهب الدكتور بيرون Perron إذ قال في كتابه عن النساء العربيات إن معظم المشهورين والمشهورات بالغناء كانوا عبيداً ، ولا شك أن أكثرهم من الحبش ، لأن أكثر العبيد قبل الإسلام كانوا حبشاً أو زنجياً ، وليس ببعيد أن تكون القيثتان المشهورتان باسم جرادتي عاد فتاتين حبشيتين (٤). وسنتبين من الفقرات المقبلة أن أكثر القيان كن غير عربيات .

غناؤهن بالشعر

وقد تغنت القيان بالشعر العربي ، كما تغنين بلغاتهن ، ولا عجب في أن يسمع العربي غناء بلغة غير لغته ويطرب له ، لأنه يطرب للصوت واللحن ، ويعجب بجمال المغنية . وقد روى أن أبا تمام قد سمع غناء بخراسان بالفارسية ، فلم يدر ما هو ، غير أنه أشجاء فقال :

حمدتك ليلة شرفت وطابت أقام سهادها ومضى كراها
سمعتُ بها غناء كان أولى بأن يقتاد نفسي من عناها
ومُسمعة يحار السمع فيها ولم تصممه لا يصمم صداها
مرت أوتارها فشجت وشاقت فلو يستطيع حاسدها فداها

(١) الأغاني ٩/١٥٧ (٢) الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية ٤٥

(٣) Farmer. A. History of Arabian Music. P. 17 (٤) داعي السماء بلال ١٥٠ العقاد

ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدى فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها (١)

أما الدليل على غناء بعضهم بالشعر العربى فقول عبدة بن الطيب :

ثم اصطبحت كميّاً قرقفاً أنفاً من طيب الراح واللذات تعليل
صرفاً مزاجاً وأحياناً يعللنا شعر كذهبة السمان محمول
تذرى حواشيه جيداً آنسة فى صوتها لسماع الشرب ترتيل
تغدو علينا تلهيناً ونصفدها تلقى البرود عليها والسراويل (٢)

فهو يقرر أن القينة كانت تغنيهم بالشعر العربى الجيد .

ثم إنه كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها
إقواء فتعقظ له وأصلحه (٣) .

وكانت سارة مولاة لبنى عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى
رسول الله بالمدينة وأسليت وشكت حاجتها وطلبت منه الميرة ، فقال لها : أما كان فى غنائك
ما يغنيك ؟ فقالت إن قريشاً منذ قتلى بدر تركوا الغناء . فوصلها صلى الله عليه وسلم (٤) .
وكانت هريرة وخليصة قينتين لبشرى بن عمرو بن مرثد ، وكانتا تغنيانه النصب (٥) ، وهو
غناء عربى صرف .

وقد تغنين بالشعر العربى فى أغراض شتى ، فقد غنت جرادتاً عبد الله بن جدعان قول
أمية بن أبى الصلت فى مدحه ، وأمية يسمع :

عطاؤك زين لامرى إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين

(٦)

وتغنين بالهجوم أيضاً ، فإن خالد بن جعفر قال لقينة بالخيرة اجتمع عندها هو والحارث
ابن ظالم — وهما خصمان — أن تغنيه :

(١) تهذيب السكامل ٣٤/٢ وزهر الآداب ١٣٧/١ (٢) الفضليات ١٤٣/١ كميّاً : خمرأ فى
لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربها برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفاً مزاجاً :
خالصة وكأنها ممزوجة بالماء لطيفها . يعللنا : السمان : وشى مقارب أو الأصباغ التى تزوق بها
السقوف . محمول : مروي ذائع لحسنه . تذرى : ترفع أو تسقط حواشى أغانيها نظرياً وترجيماً .
حواشيه : أطرافه . آنسة : منبسطة متحدثة . نصفدها : نعطها

(٣) الأغاني ١٥٧/٩ (٤) لإنسان العيون ٨٧/٣ (٥) الأغاني ٧٧/٨ (٦) الأغاني ٣/٨

دار لهند والرباب وفرتنا ولميس قول حوادث الأيام
وهن حالات الحارث ، فغضب الحارث^(١) .

وكان لابن خطل قينتان يعلمهما الغناء بهجاء النبي ، فأمر النبي بقتلهما يوم الفتح . فأما قريبة
فقتلت مصلوبة ، وأما فرتنا ففرت حتى استؤ من لها الرسول فأمنها فآمنت^(٢) .
وكن يغنين وراء المحاربين ليلهن حماسهم ، فإن قريشاً كانت قد خرجت في غزوة بدر
ومعها ثلاث قيان ، ثم أرسل أبو سفيان فردهن من الجحفة ، وخرجت قريش في أحد
ومعها قيانها^(٣) .

وكان الرجل يستمع إلى الغناء ليشجع ويثأر ، ذلك بأن الحارث بن ظالم اعترى أن يقتل
خالد بن جعفر ، فخرج إلى بنت عفزر فشرب عندها ، وقال لها : تغنى
تعلم أبيت اللعن أنى فاتك من اليوم أو من بعده بابن جعفر

.....

ثم مضى إليه فقتله^(٤) .

وكن يغنين في المآدب ، فقد تحدثت خارجة بن زيد فقال : دعينا إلى مآدبة في آل نبيط ،
فحضرتها وحضرها حسان بن ثابت ، فجلسنا على مائدة واحدة ، فلما فرغنا من الطعام أتوا
بجارتين إحداهما رائقة والأخرى عزة ، فجلسنا وأخذتا مزهرهما وضربتا ضرباً عجيباً ، وغنتا
بقول حسان :

انظر خيلي بباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد^(٥)

ويغنين في الأعراس ، فقد كانت أرنب مغنية بالمدينة ، ولما تزوج بعض الأنصار قريبة
لعائشة قال لها النبي : أهديت عروسك ؟ قالت نعم . قال : فأرسلت معها بغناء فإن الأنصار
يحبونه ؟ قالت : لا . قال : فأدركيها بأرنب^(٦) .

وكن يغنين للتسلية والتطريب غزلاً وغير غزل ، فقد أخرج مسلم والبخاري عن عائشة
أنها قالت : دخل علي أبو بكر وجاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما قالت الأنصار في
يوم بعث ، فقال أبو بكر : أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ؟ وكان ذلك في يوم عيد ،

(١) الأغاني ١٧/١٠ (٢) تاريخ الطبري ١١٩/٣ وتاريخ الخيس ١٠٤/٢ والإصابة ١٦٦/٨

(٣) المغازي ٣٦ والسيرة الحلبية ١٥٥/٢ وتاريخ الطبري ٢٧٦/٢ (٤) الأغاني ١٠/٧ (٥) الأغاني

١٤/١٦ (٦) الإصابة ٤/٨ والعقد الفريد ٢٣١/٣ والتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٢٣٣/٣

فقال رسول الله : يا أبا بكر لكل قوم عيد وهذا عيدنا ، وخرج أبو داود والإمام أحمد ابن حنبل عن الربيع بنت معوذ بن عفراء أن النبي دخل عليها صبيحة زفافها ، فجعلت جوهرات يضربن بدف لهن ويندن من قتل من آبائهن يوم بدر إلى أن قالت إحداهن : « وفينا نبي يعلم ما في الغد » فقال : دعي هذه وقولي الذي كنت تقولين ، أو قال لهما : أما هذا فلا تقولاه (١) .

ومن هذا أن فتية من قریش اجتمعوا عند قينة من قيان المدينة ، ومعهم عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت ، فإذا بحسان يستأذن ، فكرهوا دخوله ، وشق ذلك عليهم ، فقال لهم عبد الرحمن : أيسركم الآن مجلس ؟ قالوا نعم ، قال : مروها إذا نظرت إليه أن ترفع عقيرتها وتغني :
أولاد جَفَنَةٍ عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

ففعلت ، فبكى حسان حتى ظنوا أن نفسه سقطت (٢) .

وقد كان لحسان جارية اسمها سيرين تغنيه بشعره ، وقد جلس يوما في ظل حصنه وحوله أصحابه وهي تغنيه بمزهرها :

هل على ويحكم إن لهوت من حرج

فر النبي فسمع وضحك وقال : لا حرج إن شاء الله (٣) .

كذلك كان امرؤ القيس يأمر قيانته أن يغنيه بشعر مرة بن الرواع (٤) :

إن الخليل أجسد البين فادجوا وهم كذلك في آثارهم لجج (٥)

وغنت القيان أيضا بالأسواق ، وكان بدر موسما من مواسم الجاهلية يجتمع به العرب ولهم به سوق ينحربها الأشراف الجزر ، ويطعمون الطعام ، ويشربون الخمر ، وتعزف القيان لهم (٦) .

أثر غنائهن في النفوس

كن يشجعن على الاستبسال ، وعلى المخاطرة والتأثر كما سبق ، وكن يلهين السامعين ويطربنهم ، يقول عبدة بن الطبيب إنهم كانوا يطربون فيخلعون عليها الخلع :

تغدو علينا تلهينا ونصفدها تلقى البرود عليها والسراويل (٧)

(١) سنن أبي داود ١٩٧/٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٦٠/٦ (٢) الأغاني ١٦/١٦

(٣) الأغاني ١٦١/١٠ (٤) الرواع اسم أمه كما في ترجمة أخيه في معجم الشعراء للمرزباني وأبوه

سلم بن عمرو وهو شاعر قديم من بني أسد (٥) المؤلف والمختلف ١٢٧ لجج : جمع لجة وهي الجماعة

الكثيرة (٦) المغازي ٣٧ وتاريخ الطبري ٢٧٦/٢ (٧) المفضليات ١٤٣/١

ويقول امرؤ القيس إن القينة كانت تفرج عنه همومه :

وإن أمس مكروبا فيارب قينة منعمة أعملتها بكران^(١)
ويشتد الطرب بعبد يغوث فيشوق رداه :

وأنحر للشرب الكرام مطيتي وأضدع بين القينتين رداثيا^(٢)

فكان يعمل ما عمله من بعده عمر بن أبي ربيعة ، إذ كان يسمع جميلة فيشوق رداه إلى أسفله^(٣) . وسمع يوما عزة الميلاء تغنى بشعره ، فشوق ثيابه ، وصاح صبيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب . قال : إني سمعت والله ما لم أملك معه نفسى ولا عقل^(٤) . ثم جاء بعدهما أحد الظرفاء في العصر العباسى ، وكانت له قينتان إحداها مجيدة مطربة والأخرى مسيئة ، فكان إذا غنت المجيدة خرق قيصه ، وإذا غنت المسيئة قعد يخطئه^(٥) .

وقد سمع حسان غناء رائقة وعزة وعزفهما العجيب على مزهريهما فدمعت عيناه ، فإذا سكتا ذهب بكأؤه ، وإذا غنتا عاوده .

وكان الشراب كثيراً ما يصاحب الغناء ، لأن بين الخمر والغناء مناسبة في أكثر الأحوال ولهذا صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ أزيد مما يحتمله حاله إذا لم يصغ إليه ، ويستمرى الكثير مع سماعه وإن كان يثقل عليه قليله إذا خلا من استماعه^(٦) ، لذلك كان أعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب أتوا حوائط من النخل عند استواء الظهيرة حين تطير الوراشن والفواخت إلى تلك الظلال فيشربون ويأنسون بتغريدها ، ويقىمون أصواتها مقام المزامير والأوتار^(٧) .

هكذا كان يفعل الاعشى ، إذ يشرب الخمر ويسمع الغناء الرومى عند أساقفة نجران^(٨) . وامرؤ القيس كان يتنقل في أحياء العرب ومعه رفاقه ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه كل يوم ، وخرج إلى الصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانته^(٩) .

ولقد تحدث الشعراء عن مصاحبة الخمر للغناء ، يقول لبيد إن القينة تعزف على العود بأناملها الطيعة وسامعوها يحسسون الخمر :

أغلى السَّباء بكل أدكن عاتقٍ أو جَوْنَةٍ قُدَحَتْ وَفُضَّ خَتَامُهَا

(١) الديوان ١٨٧ كران : عود (٢) الفضليات ١٥٦/١ (٣) الأغاني ١٢٧/٧ و ١٢٩-١٣٤

(٤) الأغاني ١٣/١٦ (٥) محاضرات الأدباء ٤٦٦/١ (٦) الأغاني ١٤/١٦

(٧) مطالع البدور ٢٣١/١ (٨) مطالع البدور ٢٦١/٢ (٩) الأغاني ١٣٥/١٠

(١٠) الأغاني ٦٥/٨

بَصُوح صَافِيَةٍ وَجَذْبُ كَرِينَةٍ بِمَوْتَرٍ تَأْتِي لَهُ إِهَامُهَا^(١)
ويقول في رثاء النعمان :

لَيْبِكِ عَلَى النِّعْمَانِ شَرْبٌ وَقِينَةٌ وَمُخْتَبَطَاتٌ كَالسَّعَالِي أَرَامِلَ^(٢)
ويقول الأعشى :

وَرَادَعَةٌ بِالطَّيِّبِ صَفْرَاءَ عِنْدَنَا لَجَسَ النَّسْدَامِي فِي يَدِ الدَّرْعِ مَفْتَقُ
إِذَا قُلْتُ غَنَى الشُّرْبِ قَامَتْ بِمِزْهَرٍ يَكَادُ - إِذَا دَارَتْ لَهُ الْكَفُ - يَنْطِقُ^(٣)
وما زالت الخمر تلازم الغناء في كثير من الأحوال بعد العصر الجاهلي ، فمثلا يقول
الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

فَاصْطَبَحْنَا بِخَمْرٍ عَانَةً صِرْفَا وَلَهْوَنَا بِقِينَةٍ عَزَافَةً^(٤)
ويقول :

دَعَا لِي سَلِيمِي وَالطَّلَاءُ وَقِينَةٌ وَكَأْسَا أَلَا حَسْبِي بِذَلِكَ مَا لَا^(٥)
ويقول مالك بن أسماء (ونسب إلى الوليد بن يزيد وربما زاد في شعر مالك) :

حَبِذَا لَيْلَتِي بِلَّيُونًا حَيْثُ نُسْقَى شَرَابَنَا وَنَغْنَى
مِنْ شَرَابٍ كَأَنَّهُ دَمُ جَوْفٍ يَتْرَكُ الشَّيْخَ وَالْفَتَى مُرْجَحِنًا
حَيْثُ دَارَتْ بِنَا الزَّجَاجَةُ دَرْنَا يَحْسَبُ الْجَاهِلُونَ أَنَا جُنُنًا
وَمَرَرْنَا بِنَسْوَةِ عَطَرَاتٍ وَسَمَاعٍ وَقَرْقَفٍ فَنَزَلْنَا^(٦)

وقد أولع الغزلون بالصوت فيه غنة ، وأولع الشاربون بصوت المغنية الأبيح ، وقد
يفخرون بأن البجة من أثر الخمر ، قال عبيد :

وَبَدَتْ يَفُوحُ الْمِسْكُ مِنْ حَجَرَانِهِ تَسْدِيئُهُ مِنْ بَيْنِ سَرٍّ وَمُخْطُوبٍ

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ١٦٣ ولسان العرب ٥٤/١٨ السباء : شراء الخمر للشرب
لا للبيع . أدكن : زق أغبر . عاتق : سفة للخمر أو للزق والعاتق الخالصة أو المعتقة أو التي لم تفتح .
جونة : خاية مطلية بالفار . كرينة : مغنية . موتر : له أوتار . تأتي له : تأتي له أي تطاوعه .
وروى تأتا له بضم اللام أي تصلحه (٢) ديوان لبيد ٢٩ مختبطات : نائلات نعمة . السعالي : الغيلان
(٣) ديوان الأعشى ١٤٧ وطبقات الشعراء ٣٦ تحقيق شاكر . رادعة بالطيب : مطيبة بالزعفران .
مفتق : شق وفتحة (٤) الأغاني ١٠٥/٦ (٥) الأغاني ١٣٤/٦ (٦) ديوان الوليد ٥٦
وسمط الآلي ١٥/١ والأشربة ٧٨ مخطوط . قرقف : خمر تصيب شاربها برعدة

اشترك فيه ثلاث من الحواس ، وصار القلب لها رابعاً ، فللعين النظر إلى القينة الحسنة ، وللسمع منها حظ الذي لامثونة عليه ولا تطرب آلهة إلا إليه ، وللمس فيها الشهوة ، والحواس كلها رواد للقلب وشهود عنده^(١)

وقد أسلفت حب بعض الشعراء لهن كالأعشى وامرئ القيس .
فإذا ما اجتزنا العصر الجاهلي إلى الأموي والعباسي وجدنا اشتهاً بعشق المغنيات ، إذ شاع اقتناؤهن واقتناء الإماء بعامه ، والاستمتاع بهن في عصر فاضت فيه الأموال بأيدي العرب ، وجنحوا إلى الترف واللذة والمجانة ، فتضاءلت الأخلاق العربية البدوية ، حتى لقد ظهر جماعة من الخنشين يصلون ما بين الرجال والنساء ، وجماعة من النساء يسفرن بالرسائل ويمهدن للقاء ، ويغرين النساء ويصلحن العتب بانتحال الأعذار ، كهؤلاء اللاتي سفرن بين عمر بن أبي ربيعة وعشيقاته ، وهو يصف إحداهن بقوله :

فَاتَمَّتْهَا طَبَّةٌ عَالِمَةٌ	تَخْلُطُ الْجَدَّ مَرَاراً بِاللَّعِبِ
تُعْلِظُ الْقَوْلَ إِذَا لَانَتْ لَهَا	وُتْرَاخِي عِنْدَ سَوَرَاتِ الْغَضَبِ
لَمْ تَزَلْ تَصْرِفُهَا عَنْ رَأْيِهَا	وَتَأْتَاهَا بِرَفْقٍ وَأَدَبِ
أَنْ كُنِّيَ لَكَ رَهْنٌ بِالرِّضَا	فَاقْبَلِي يَا هِنْدُ قَالَتْ : قَدْ وَجِبَ

ولما أنشد ابن أبي عتيق هذه القصيدة قال له : الناس يطلبون خليفة في صفة قوادتك هذه يدبر أموره فما يجدونه^(٢) . ويقول أيضاً :

فَبَعَثَتْ كَاتِمَةَ الْحَدِيثِ	رَفِيقَةً بِجَوَابِهَا
وَحْشِيَةً	إِنْ سِيَةَ خَرَّاجَةٍ مِنْ بَابِهَا
فَرَقَّتْ فَسَهَّلَتْ الْمَعَا	رَضَ مِنْ سَبِيلِ نَقَابِهَا ^(٣)

وبلغ من حب يزيد بن معاوية لحبابة أنه كان لا يعصى لها رجاء ، وكان يخرج عن الوقار إذا سمعها^(٤) . ولم يكن وحده المفقون بها ، فإن كثيراً كانوا يشركونه في ذلك ، حتى إنه لما اشتراها وهو أمير وأراد الخروج بها قال الحارث بن خالد :

(١) رسالة القيان للجاحظ ٦٩ (٢) الأغاني ٥٧/١ ساسي (٣) الأغاني ٦٠/١ ساسي

(٤) الأغاني ١٤٨/١٣ - ١٥٧

قد سُلَّ جسمي وقد أودى به سَقَمٌ من أجل حيٍّ خلوا عن بلدة الحرم
يحن قلبي إليها حين أذكرها وما تذكرتُ شوقاً أب من أمِّهم
وقال فيها الشعراء فأكثرُوا ، وغنى أشعارهم المغنون بمكة والمدينة (١) .

أثر القيان في الشعر

١ — تغنى الشعراء بشعرهم ، وتغنّت القيان بشعر الشعراء ، ولم نعرف أن العرب تغنوا بالنثر ، وأرجع أن الغناء بالشعر كان عظيم الأثر في أوزانه وتطورها ، وإذا فقد كان للقيان نصيب في هذا التطور أسهم به مع الرجال .

وقد ذهب أبو حيان التوحيدي فيما رواه عن مسكويه إلى ما يعزز هذا ، في قوله :
« ربما سمعنا للشعراء الجاهليين المتقدمين أوزاناً لا تقبلها طباعنا ، ولا تحسن في ذوقنا ، وهي عندهم مقبولة موزونة ، كقول المرقش .

لابنة عجلان بالطفّ رسومٌ لم يتعفّين والعهدُ قديمٌ
وكذلك قد يستعملون من الزحاف في الأوزان ما يكون عند المطبوعين منا مكسوراً ، وهي صحيحة . والسبب في جميع ذلك أن القوم كانوا يجربون بنغمات يستعملونها مواضع من الشعر يستوى بها الوزن ، ولأننا لا نعرف تلك النغمات ، فإذا أنشدنا الشعر على السلامة لم يحسن في طباعنا » (٢) :

وقد سبق أن العرب كانوا يغنون بشعرهم ، ويمدون أصواتهم بإنشاده . بل إنهم كانوا يزنون شعرهم بالغناء ، قال حسان بن ثابت :

تغن في كل شعر أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار (٣)

٢ — وكانت القيان أكثر غناء بالشعر من الشعراء أنفسهم ، والشعراء يسمعونهم ويضطربون لهم ، فهم يجودون شعرهم ويتخيرون وزنه سهل التلحين والترجيع ، وهم إذا ما سمعوه يغنى تنهبوا إلى ما قد يكون فيه من عيب في الوزن أو القافية . من ذلك أن النابغة أقوى في قصيدته التي مطلعها :

(١) الأغاني ١٣/١٥٠ (٢) الهوامل والشوامل ٢٨٢ لأبي حيان التوحيدي ومسكويه .

(٣) الموشح ٤٠ وفي أساس البلاغة : تغن بالشعر إما كنت ذا بصر . ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح ، لأن المضمار الموضع الذي تضر فيه الخيل

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود
فقدم المدينة فغيب عليه ذلك ، فلم يأبه له ، فقالوا للجارية : غنيه هذه القصيدة ، فإذا
صرت إلى قوله :

زعم الأحبة أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود
فرتلى . فلما سمعها انتبه ، وأصلح إقواءه ، ولم يعد إليه ، وقال : قدمت يثرب وفي شعري
شيء ، وخرجت وأنا أشعر الناس (١) .

٣ — فلم يكن عجباً أن تقوى الوشيجة بين الشعراء والقيان في العصر الجاهلي ، فلعبد
الله بن جدعان قينتان (٢) ، ولبشر بن عمرو بن مرثد قينتان (٣) ولسلامة بن جندل
قينة (٤) ، ولطرفة قينة (٥) ، وكذلك لعمر بن الإطابة (٦) ، ولعبدة بن الطيب (٧) ،
ولعبد يغوث (٨) ، ولامرئ القيس قيان يغينيه في تنقله ورحلاته للصيد واللهو (٩) ، ولأحيحة
ابن الجلاح قينة تغنيه بشعره (١٠) .

ثم قويت اللحمة بين الشعراء والمغنين والمغنيات في العصر الأموي والعباسي ، فالغريض
وابن سريج يرافقان عمر بن أبي ربيعة ويغنيانه بشعره ، ويذيعان غناءهما وشعره في الناس
حتى لقد قالوا : إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة
فإنك ترقصه (١١) . وكان الإعجاب متبادلاً بينه وبين جميلة ، يعجب بغنائها وتعجب بشعره
فتغنيه ، حتى لقد يشق قيضه إلى أسفله (١٢) ، وكذلك غنى ابن سريج بشعر عمر على مسمع
منه ومن جميلة (١٣) ، وتغنى بشعر الأحوص (١٤) .

ويكفي للدلالة على إعزاز الشعراء للمغنيات أن جميلة لما خرجت إلى الحج ودعها إلى مكة
كثير من المغنين والمغنيات ، وودعها من الشعراء ابن أبي عتيق والأحوص وكثير
عزة ونصيب وجماعة من الأشراف ، وتلقاها بمكة عمر بن أبي ربيعة والعرجي والحارث
ابن خالد المخزومي . فلما حجت قال عمر : أقسمت على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها

(١) الموشح ٣٩ وطبقات الشعراء ٥٦ بتحقيق شاكر والشطر الثاني بعد الإصلاح : وبذاك تنعاب
الغراب الأسود (٢) أوائل الأوائل ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان ٦٢ والأغاني ٣/٨

(٣) الأغاني ٧٧/٨ (٤) المفضليات ١١٨/١ (٥) ديوان طرفة ٢٨ (٦) الأغاني ١٦٤/٩

(٧) المفضليات ١٤٣/١ (٨) المفضليات ١٥٦/١ (٩) الأغاني ٦٥/٨ والديوان ١٨٧

(١٠) الأغاني ١١٥/١٣ (١١) الأغاني ١٠٩/١ (١٢) الأغاني ١٢٧/٧-١٢٨-١٢٩-١٣٤

(١٣) الأغاني ١٢٩/٧ (١٤) الأغاني ١١٤/١

إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج . فخرجوا فكان في موكبها من رافقوها من المدينة إلى مكة ، ومن خرجوا معهم من مكة إلى المدينة (١) .

هبة القيان

كان الملوك والموسرون لا يستأثرون بالإماء ، بل يشركون معهم غيرهم في سماعهن ، وكانوا يهونهن أحياناً .

قال الأعشى في مدح مسروق بن وائل :

الواهب القينات كالغز لان في عُقد الخنائل
يركضن كل عشيّة عصب المريش والمراجل (٢)

وقال :

هو الواهب المسمعات الشرو ب بين الحرير وبين السكتن (٣)

وقال في مدح الأسود بن المنذر اللخمي أخى النعمان بن المنذر أو في مدح المنذر بن الأسود :

يهب الجلة الجراجر كالبلستان تحنو لدرّق أطفال
وبغايا يركضن أكسية الإضرع والشرعيّ ذا الأذبال (٤)

وكانت لعبد الله بن جدعان قيتان ، وكان سيداً جواداً ، فرأى أمية بن أبي الصلت ينظر إليهما وهو عنده ، فوهبه إحداهما ، فلما انصرف لامه الناس على أخذها وعبد الله عليل ، فعاد ليردها ، ومدحه ، فوهب له الثانية أيضاً (٥) .

وكن يسبين أيضاً ، فقد أغار ضرار بن عمرو على كلب بن وبرة فغنم وسبي ، وكانت في السبي قينة لعمر بن ثعلبة اسمها الرائقة ، وبنت لها اسمها سلمى (٦) . وقد سبق أن السابي كان يتحرى الحرائر ، وأنهن كن يتظاهرن بأنهن إماء حتى لا يسبين . ولكن القيان سبين لأنهن غنيمة نفيسة .

- (١) الأغاني ١٢٨/٧ (٢) ديوان الأعشى ٢٢١ يركضن : يحركن . المريش : البرد الموشى .
المراجل : جمع مرجل وهو إزار من خز فيه علم أو فيه صور الرجال
(٣) اللسان ٢٣٥/١٧ المسمعات : القيان . الضروب : الشاربون . السكتن : السكتان
(٤) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ٨٣/١٨ درّق : صغار . الجلة الجراجر : الإبل المسنة الضخام . البغايا : الإماء . الإضرع : خز أصفر أو أحمر . الشرعي : نوع من البرود
(٥) الأغاني ٢/٨ والمجهر ١٣٨ وأوائل الأوائل ٢٢٠ مخطوط . (٦) مجمع الأمثال ١٢١/١

أثر الغناء الأجنبي في العربي

- ١ — أسلفت أن العرب قد اتصلوا بالفرس وبالروم ، وبينت مناحي التأثير بهم .
وهم قد اختلطوا بالأحباش أيضاً وتأثروا بهم (١) .

(١) اختلاطهم بالحش يرجع إلى ما قبل الميلاد . ذلك بأنه في العهد الأول للدولة الخيرية الأولى (١١٥ ق . م — ٣٠٠ م) ترحت جموع من العرب إلى بلاد كوش وأسسوا المملكة الحبشية . ثم قامت دوله أكسوم الحبشية في القرن الأول الميلادي (تاريخ العرب ٦٥ فيليبس) وفي القرن الأول قبل الميلاد تدخل الحبش في شئون الملك العربي باليمن ، ثم اتخذوا لهم مستعمرة في الجنوب الغربي من بلاد اليمن واستقرت بها جاليات حبشية (بين الحبشة والعرب ، عبد المجيد عابدين ٢٣ — ٣٦) وفي نهاية القرن الثالث بعد الميلاد طردوا الاحتكاك ، وحكموها إلى القرن الرابع The Bach ground of Islam P. 123 Glasser ثم عادوا ففتحوها في القرن الخامس (٤٨٠ م) وولوا على اليمن أميراً نصرانياً لكنه لم يعيش طويلاً ، فلما مات انتهز اليهود الفرصة وولوا على حمير ملكاً يهودياً هو ذو نواس (بين الحبشة والعرب ٤٥ — ٤٧) وحوالي ٥٢٣ م كانت حملة أرياط أو أبرهة ، وكان الاستعمار الحبشي الأخير ، وأقام أبرهة باليمن ، وأصلح أمورها ، وحاول أن يمد نفوذه إلى الحجاز فكانت غزوة الفيل (تاريخ الطبري ١٠٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٦/١ ومعجم البلدان ٢٤٣/٢)

والمؤرخون مختلفون في زمن هذه الغزوة اختلافاً يجعل بدءها من ٥٠٠ إلى ٥٧٠ م بناء على اختلافهم في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنسان العيون ٦٥/١) وكثير من الباحثين يرجحون أنها كانت حوالي ٥٤٠ م وأن استيلاء الفرس على اليمن وطردهم الأحباش كان في ٥٧٠ م ويجمعون الفترة بين ٥٤٠ و ٥٧٠ لحكم أبرهة وحكم يكسوم ومسروق ابني أبرهة (بين الحبشة والعرب ٦٥) ومهما يكن من شيء فقد كان حكم الحبشة لليمن منذ دخولها هذه المرة إلى أن قتل الفرس مسروق بن أبرهة وأجلوا الأحباش عنها اثنتين وسبعين سنة كما يذكر الطبري (تاريخ الطبري ١١٥/٢) ومعنى هذا أن الغزوة بدأت في مستهل القرن الخامس ، ولكننا إذا سلمنا بأنها بدأت سنة ٥٢٣ م وأن أبرهة مات ٥٤٤ م وحكم بعده يكسوم ١٩ سنة ثم مسروق ١٢ سنة (بين الحبشة والعرب ٦٧) كان عمر هذا الاستعمار اثنتين وخمسين سنة لاثنتين وسبعين . على أن العرب كانوا على صلة بالأحباش عن طريق آخر ليس بأقل تأثيراً من الحكم والاستعمار ، أقصد التجارة ، فكان اليمنيون والقرشيون مختلفون إلى هناك متاجرين كما اختلفوا إلى الشام وفارس والعراق (تاريخ الطبري ١٨٠/٢ وجمع الأمثال ٦٦/٢) فكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهها (الأغاني ٥٠/٨) ويستنبط أوليري أنه كان في مكة بيوت تجارية رومانية ، وأحباش يرعون مصالح قومهم التجارية (جغرافيا الإسلام ١٥) ومن مظاهر هذا الاتصال الودي أن كانت أول هجرة للمسلمين الأولين إلى الحبشة (سيرة ابن هشام ٣٤٤/١ — ٣٦١) ثم إن أكثر العبيد والإماء كانوا أحباشاً ، وكثيراً ما تزوج العرب بحبيبات أوسود (عيون الأخبار ٤٠/٤ ورسالة نجر السودان من مجموع رسائل الجاحظ ٧٥ والأغاني ١٤١/٧ و١٣٥/١٦ و١٣٣/١٨ و٢/٢٠ والمجهر ٣٠٦ — ٣٠٩ والشعر والشعراء ١٢٢ و١٣٤ والإصابة ٢٧/٨ و٣١٢)

وهذا الاتصال بالأحباش والفرس والرومان كانت له آثار في الغناء . وقد علمنا أن أكثر القيان كن غير عربيات ، سواء تغنين بالشعر العربي أم بلغاتهن ، وليس ببعيد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين كما ظن الدكتور بيرون Berron^(١) . ونحن نعلم أن أكثر المغنين في الإسلام كانوا غير عرب ، مثل سعيد بن مسجح المغنى ، فقد كان مولى أسود^(٢) ، وابن محرز كان مولى فارسياً^(٣) ، وسائب خاثر كان مولى من الفرس أيضاً^(٤) . ونجد في اللغة كلمة الدَّرْقَلَة أو الدَّرَكَة تدل على ضرب من الرقص الحبشى^(٥) ، وكان الأحباش كافين بالرقص واللعب بالحراب في المحافل والأعياد في الجاهلية والإسلام ، والعلاقة وثيقة بين الرقص والغناء والموسيقى .

وإذا ما رجعنا إلى الآلات الموسيقية التي ذكرها الشعراء في الجاهلية — كما سيحىء — وجدنا أكثرها أجنبية عن العرب .

فكلمة قنين حبشية ، وقد جاءت في الحديث إن الله حرم الخمر والكوبة (الطبل) والقنين^(٦) . والطنبور كلمة فارسية أصلها من كلمة (دنبه بره) ومعناها إلية الحمل^(٧) . والبربط هو العود أعجمى ليس من ملاحى العرب ، وفي التهذيب أنه من ملاحى الفرس ، شبه بصدر البط ، والصدر بالفارسية بر ، فقليل بربط^(٨) . والون الصنج الذى يضرب بالأصابع ، وهو الونج ، كلاهما دخيل مشتق من كلام العجم^(٩) . والصنج هو الآلة المصنوعة من صُفر أعجمى معرب^(١٠) . والونج هو المعزف وهو المزهر والعود ، وقيل نوع من الصنج ، فارسي معرب أصله ونه ونطقه العرب الون^(١١) . واليم الوتر الغليظ من أوتار المزهر ، أعجمى^(١٢) ، ومشتق صيني آلة يضرب عليها معرب ، ذكر الضبي أن الكلمة فارسية أصلها مشتة صيني أى يؤخذ باليد^(١٣) ، وفي القاموس مستقة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه ، معرب^(١٤) .

(١) داعى السماء بلال ١٥٠ (٢) الأغاني ٨١/٣ ساسى (٣) الأغاني ١٤٥/١ ساسى
(٤) الأغاني ١٧٩/٧ ساسى (٥) لسان العرب والقاموس مادة درقل (٦) لسان العرب
مادة قن (٧) لسان العرب والقاموس مادة طنبور وفرهنگ نفيسى و Steingass (٨) لسان العرب
والقاموس المحيط مادة بربط (٩) لسان العرب مادة ون (١٠) لسان العرب والقاموس مادة صنج
و صرح (١١) لسان العرب والقاموس مادة ونج (١٢) لسان العرب مادة يم (١٣) الملاحى للضبي
٢١ مخطوط (١٤) القاموس المحيط مادة ستوق .

أما كلمة دُف وكران وعود ومزهر فعربية الأصل^(١) ، وقد نقلها الفرس عن العرب^(٢) .

١ — وإذا فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسي والرومي والحبشي منذ الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء هذه الآلات الأجنبية قبل أن يبرز الإسلام ، ومن أن الغناء الرومي والفارسي كان معروفا لهم في الشام كما ذكر حسان^(٣) ، وفي نجران كما ذكر الأعشى^(٤) . وكان الحارث بن كلدة قد تعلم ضرب العود بفارس واليمن ثم قدم مكة وعلم أهلها^(٥) ، ثم سافر ابنه النضر كما سافر أبوه ، وحصل من العلوم القديمة أشياء جلييلة القدر وتعلم من أبيه الطب وغيره^(٦) .

أليس من حقنا أن نصصح ما ذكره أبو الفرج ، أو نذهب في فهمه مذهبا آخر ؟ فهو يذكّر أن سعيد بن مسجح المكي الأسود المغني أول من نقل غناء الفرس إلى العرب ، وأنه رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والاسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغمات الموجودة في غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعده^(٧) .

وذكر في رواية أخرى أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غناءهم بالفارسية فقلبه في شعر عربي ، وهو الذي علم ابن سريج والغريص^(٨) . ويقول إنه كان مولى أسود^(٩) ، وكذلك كان ابن سريج^(١٠) . وفي رواية ثالثة أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم يبنون دوراً لمعاوية فأخذ ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربي ، ثم صاغ على نحوها^(١١) . وهذه الروايات وإن اختلفت في ظروف نقل ابن مسجح للغناء تتفق مع الروايات الأخرى التي ذكرها أبو الفرج أن ابن مسجح أول من نقل الغناء الفارسي إلى العربي .

(١) لسان العرب والقاموس مواد الكلمات (٢) المعجم في اللغة الفارسية . هنداوى ومعجم Stienpass (٣) الأغاني ١٤/١٦ (٤) المعاني الكبير لابن قتيبة ٤٦٨/١ والأغاني ١٥٧/٩ (٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٠٩/١ وأخبار الحكماء ١١١ (٦) عيون الأنباء ١١٣/١ (٧) الأغاني ٨١/٣ ساسى (٨) الأغاني ٨١/٣ و ٨٢ (٩) الأغاني ٨٢/٣ (١٠) الأغاني ٨٢/٣ (١١) الأغاني ٨٤/٣

ثم إن أبا الفرج يذكر في موضع آخر أن ابن مُحَرِّز — مسلم أو سلم أو عبد الله — كان أبوه من سدنة الكعبة ، أصله من الفرس — كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم العزف من عزة الميلاء ، ثم يرجع مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم يشخص إلى فارس فيتعلم ألحان الفرس وغنائهم ، ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم وغنائهم . وقد أسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفرس والروم ، وأخذ محاسنه ومزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب ، فأتى بما لم يسمع مثله ، وكان يقال له صَنَاج العرب . وهو الذي ابتكر غناء الرمل ولم يعرفه العرب ولا الفرس قبله ، لأن ابن سَلَمَك أول من غنى رملاً بالفارسية أيام الرشيد محاكياً لابن محرز وهو تلميذه (١) .

ويذكر مرة ثالثة أن سائب خاثر — الفارسي الأصل — أول من عمل العود بالمدينة وغنى به ، وأن عبد الله بن عامر سيده كان قد اشترى إماء نائمات وأتى بهن المدينة ، فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه ويسمع الناس منهن ، ثم قدم رجل فارسي اسمه نشيط فغنى ، فأعجب به عبد الله ، فقال له سائب خاثر : أنا أصنع لك مثل هذا الغناء الفارسي بالعربية ، ثم غدا عليه وقد صنع . ولما الديار رسومها قفر

وهو أول صوت غنى به في الإسلام من الغناء العربي المنفق الصنعة . ثم اشترى عبد الله نشيطاً فأخذ عن سائب الغناء العربي ، كما أخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم . وسائب هو أستاذ معبد ، وكثير من أصواته منحوالة إلى معبد (٢) . وذكر في رواية رابعة أن طويس مولى بني مخزوم أول من غنى الغناء المقتن من المخنثين ، وأنه أول من صنع الهزج والرمل في الإسلام (٣) وكان في عهد عثمان بن عفان ، وقد علم ابن سريج والدلال ونومة الضحا . ويتفق ابن عبد ربه وابن شاكر مع أبي الفرج في أنه أول من غنى الغناء الرقيق في الإسلام (٤)

ثم يفتقروا بعض المؤرخين للحضارة الإسلامية أبا الفرج ، فيذهب خدا بنخش إلى أن الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب في الإسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أفواجا ، وعلموا العرب الغناء على نغمات الدف والناي والطنبور والعود (٥) .

(١) الأغاني ١٤٥/١ ساسي (٢) الأغاني ١٧٩/٧ ساسي (٣) الأغاني ٣٨/٤ ساسي

(٤) العقد الفريد ١٨٦/٣ وفوات الوفيات ١٩٧/١ (٥) مقدمة خدا بنخش لكتاب الحضارة

والذى ألاحظه على روايات أبي الفرج أنها لا تلتقى عند شخص معين يصح أن ننسب إليه السبق في إدخال الغناء الفارسي أو الرومي إلى العربي . فهو مرة ابن مسجح ومرة ابن محرز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نشيط ، وخامسة طويس .

ولست أذهب إلى إنكار أثر الغناء الفارسي والرومي في العربي ، بل إنى أؤكد أنه رفده ومده ، وإنما أذهب إلى أن هؤلاء كان لهم فضل في تظوره وتجديده ورفده بالغناء الأجنبي ، ولم يكن أى واحد منهم هو السابق ، لأن العرب — كما أسلفت — عرفوا هذا الغناء من قبل ، وأطربتهم به قياتهم ، وتحدثوا عن آلات الموسيقى فارسية ورومية وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين .

ولست أشك في أن الغناء شق طريقه نحو الرقي والكمال بعد اتصال المسلمين بالفرس والروم وغيرهم ، وصار فنارفعاً يختص به ذوو اللّهوات الحلوة ، والأذواق العالية ، والحس المرهف من نساء ورجال .

وقد بدأ ذلك منذ صدر الإسلام ، إذ انتشر الغناء وذاع وأُخذ طرباً ومسلاة فيما لم يكن من قبل . يدل على هذا أن زيد بن ثابت الأنصاري ختن بنته فأولم ، فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة ، وحضر حسان بن ثابت وقد كف بصره يومئذ وثقل سمعه ، فلما أكلوا ضربت عزة الميلاء على مزهرها وغنت بقول حسان :

فلا زال قبر بين بَصْرَى وجَلْقَ عليه من الوَسْمَى جَوْذٌ وواہل

فطرب حسان وبكى . وقيل لخارجة بن زيد : أكان يكون هذا الغناء عندكم ؟ قال : في الأعراس ، ولم يكن يشهد بما يشهد به اليوم من السعة ^(١) . ويدل على هذا أيضاً أن ابن رشيق ذكر أنواع الغناء العربي من نصب وسناد وهزج ، ثم نقل عن إسحاق الموصلي أن هذا كان غناء العرب حتى جاءهم الإسلام وفتحت العراق وجلب الرقيق من فارس والروم . فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير ^(٢) .

على أن بعض البدو ظلوا يجهلون آلات الموسيقى الدخيلة إلى العصر العباسي ، فإن ناهض بن ثومة بن نصيح الشاعر الفارس كان بدوياً جافياً كأنه من الوحش ، وقد

اتتجع الشام في العصر العباسي فقصده صديقاً له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية بحلب ،
فرأى عرساً ، فتحدث بما رأى حديثاً طريفاً ، يهمننا منه دهشته بما رأى من آلات الموسيقى ،
وتصويره الطريف لأصواتها ، كقوله : « جاء شاب بخشبة عيناها في صدرها ، فيها خيوط
أربعة ، فاستخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك أذناها وحركها في يده ،
فنطقت ورب الكعبة ، وإذا هي أحسن قينة رأيته قط ، وغنى عليها فأطربني حتى استخفى
من مجلسي ، فوثبت فجلست بين يديه وقلت : بأبي أنت وأمي ماهذه الدابة ؟ فليست أعرفها
للأعراب وما أراها خلقت إلا قريباً . فقال : هذا البربط ، فقلت فما هذا الخيط الأسفل ؟ قال :
الزير . قلت : فالذي يليه . قال : المثنى . قلت : فالثالث ؟ قال : المثلث . قلت : فالأعلى ؟ قال :
الجم . فقلت آمنت بالله أولاً وبك ثانياً والبربط ثالثاً والجم رابعاً (١) .

الآلات الموسيقية .

لم تكن القيان يغنين معتمدات على الصوت وحده ، فقد ذكر الشعراء أسماء الآلات
الموسيقية التي كن يعزفن عليها .

ومن هذه الآلات الدف وهو (الطار) قال عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيان يعزفن بالدف لفتياننا وعيشا رخيا (٢)

ومنها العود ، وهو أيضا الكران والمزهر ، والبربط ، والموتر ، والمكبل . وكتب اللغة
تنص على أنها مترادفات . ولقد يصح ذلك ، ويصح أنها آلات متقاربة الشكل تشبه العود .
قال الصَّقَب بن حَبَّان التغلبي :

وَقَرَّبَ الْخُرْدُ مِنْ قِيَانِهِ عودا له الفضل على عيدانه

أخف عند الحمل واحتضانه من ريشة توضع في ميزانه

أخرس تلقاه على بيانه كرامة المجلس في هوانه

(٣)

وسماه سَلَمَى بن ربيعة المزهر في قوله يعدد لذاته :

وَالكَثْرُ وَالْخَفْضُ آمِنَا وَشِرْعَ الْمَزْهَرِ الْخَنُونِ (٤)

(١) الأغاني ٣٣/١٢ - ٣٥ (٢) الملاحى للضي ٤١ مخطوط (٣) الملاحى ٥٣٣

(٤) شرح الحماسة للتبريزي ٨٣/٣ الكثر : المال الكثير . الشرع : أوتار العود

وسماه امرؤ القيس الكران والمزهر :

فإن أمس مكروبا فيارب قينة
لها مزهر يعلو الخنيس بصوته
منعمة أعملتها بكران
أجش إذا ما حركته يدان (١)

وسماه الأعشى المزهر :

وصدوح إذا يهيجها الشرب
وسماه البربط في قوله :

وبربطنا دائما معمل
وسماه لبيد الموتى :

بصبوح صافية وجذب كرينه
وسماه كعب بن زهير المكبل :

ورثة هتاف العشى مكبل
تنازعه مثل المهابة رفيقة
ينازعه الأوتار من ليس راميا
بحس الندامى تترك اللب رانيا (٥)

وسموا أوتار العود محابض واحدها محبض ، وهى الشرع أيضا مفردة شرعة ، قال تميم
ابن أبى بن مقبل :

صدحت لها جيداء تركض ساقها
فضلا ينازعها المحابض رجعها
عند التجار بجامع الخلل
بأخذ لأصل ولا مصحال (٦)

وذكروا الصننج أيضا ، قال الأعشى إن الصننج يترنم استجابة للمزهر ، وكأنا يبكي بكاء
الحزين مخافة أن يلام :

ومزهرنا دائما معمل
ترى الصننج يبكي له شجوه
فأى الثلاثة أزرى بها
مخافة أن سوف يدعى بها (٧)

(١) ديوان امرؤ القيس ١٨٧ (٢) ديوان الأعشى الكبير ٣١٥ ترقى : تصعدت في غنائها . مزهر
مندوف : عود يضرب على أوتاره (٣) المعانى الكبير لابن قتيبة ٤٦٨/١ (٤) الملاحى للضبي ٥٣٣ مخطوط
وشرح القصائد العشر ١٦٣ والمعانى الكبير ٤٦٩/١ وشرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ١١٤
مخطوط . تأتاله : تصلحه وتسوسه . وفى لسان العرب تأتله أى تطاوعه (٥) المعانى الكبير لابن قتيبة
٤٧٠ لب : لبيب (٦) الملاحى للضبي ٥٣٣ تركض ساقها بجامع الخلل : ترفع ساقها ذليها . التجار
الخمارون . فضل : فى ثوب بذلة . أخذ : ضامر يعنى العود . الصحل والمصحال . الأبح (٧) ديوان
الأعشى ١٧٣ والمعانى الكبير ٤٦٨/١ ولسان العرب مادة صننج . الصننج . دوائر صغار من النحاس تعلق
بالأصابع وتنقر الراقصة عليها .

وقال إن العود يجيب الصنج ويجاوبه :

ومستجيب تخال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل^(١)

وفي لسان العرب أن الكرينة المغنية الضاربة على الكران وهو العود أو الصنج ،
الكنارة نحو منه^(٢) ، قال لبيد :

صعل كسافلة القناة وظيفه وكان جؤجؤه صفيح كران^(٣)

وقد وصف الأعشى في مدحه إياس بن قبيصة الطائي أو قيس بن معد يكرب مجلس
شراب وندامى وغناء بقوله :

ومستق صيني وون وربط يجاوبه صنج إذا ما ترنما^(٤)

وهذه الآلات قد بقيت إلى العصر الاموى ، وعزفت القيان عليها ، مثل سيرين وسلي
وجميعة وعزة الميلاء ورائقة^(٥) .

(١) ديوان الأعشى ٤٦ مستجيب : عود (٢) لسان العرب ٢٣٨/١٧ (٣) اللسان مادة كرن
(٤) الملاحى للضبي ٢١ مخطوط . المستق : آلة يضرب عليها معرب . اللون : آلة طرب معرب .
الربط : العود أو المزهر معرب . وذكر أن كلمة مستق صيني فارسية أصلها مشتة صيني أى يؤخذ باليدين .
وفي القاموس مستق بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه ، معرب
(٥) الأغاني ١٦/٢

الباب الثاني

المرأة راوية للشعر وناقدة

١ — كان الشعر يذيع ويتخطى الآفاق والنجاد والفيافي بالرواية ، وكان يرويه جيل بعد جيل ، ويحفظه الرجال كما يحفظون الأنساب والوقائع .

فهل روت المرأة الشعر ؟ نعم ، فقد قدمت على النبي الفارعة بنت أبي الصلت أخت أمية بعد فتح الطائف ، فقال لها : هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فأخبرته خبره وأنشدته شعره الذي أوله :

باتت همومي تسرى طوارقها أكف عيني والدمع سابقها
وأنشدته قوله :

كل عيش وإن تطاول يوماً صائرٌ مرة إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في تلال الحياة أرعى الوعولا

فقال لها رسول الله : كان مثل أخيك كمثل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . وفي رواية أنها أنشدته شعراً دينياً لأمية فقال : آمن شعره وكفر قلبه^(١) .

وكان الأعرشي قد علم ابنته وثقفها ، حتى وثق بذوقها ونقدها ، فكان يعرض عليها شعره ، ويقول لها : عدى لي المخزيات — القصائد اللاتي يخزين غيره فلا يستطيع أن يأتي بمثلهن — فتسمعه من شعره^(٢) .

وكذلك كان حسان بن ثابت على ثقة من ذوق ابنته ، وطواعية التعبير لها على البديهة ، فقد أرق ليلة وعنده ابنته ليلى ، فعن له الشعر ، فقال :

متاريك أذئاب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتثنا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئاً . فقالت له ابنته : يا أبتاه كأنك أجبلت ! قال : أجل . فقالت : هل لك أن أجيز عنك ؟ قال : نعم . قالت : أعد . فأعاد البيت ، فقالت :
مقاويل بالمعروف خرس عن الحنا كرام يعاطون العشيرة سولها
خمى حسان فقال :

وقافية مثل السنان رزينة تناولت من جو السماء نزولها
فقالت :

براهما الذى لا ينطق الشعر غيره ويعجز عن أمثالها أن يقولها (١)
وكانت عائشة مثلاً فى رواية الشعر ، فقد تولى تربيتها جماعة من بنى مخزوم ، فنشأت
فصيحة اللسان ، قوية البيان ، حافظة لكثير من الشعر . حدث هشام بن عروة عن أبيه :
ما رأيت أحداً أعلم بفقهِ ولا بطب ولا بشعر من عائشة (٢) ، وحدث أبو الزناد أنه ما رأى
أحداً أروى لشعر من عروة ، وأن عروة قيل له : ما أرواك ! فقال : ما روايتى فى رواية
عائشة ؟ ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً (٣) .

وكانت إلى هذه الرواية لبقّة حصيفة فى الاستدلال بالشعر والتمثيل به ، حدثت فقالت :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، وكنت جالسة أغزل ، فنظرت إليه ، فجعل
جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فهتت . فنظر إلى فقال : مالك بهت ؟ فقلت :
يا رسول الله ، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، ولورأك أبو كبير
الهدلى لعلم أنك أحق بشعره . قال : وما يقول يا عائشة أبو كبير الهدلى ؟ قلت : يقول :

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت : فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقبّل ما بين عيني ، وقال : جزاك الله
خيراً يا عائشة ، ما سررت منى كسرورى منك (٤) .

وقالوا إنها كانت تروى القصيدة ستين بيتاً ، والقصيدة مائة بيت (٥) ، وكانت معجبة
بشعر حجة بن المضرب ، وتحض على روايته ، لأنه يعين على البر (٦) . وذهب عطار
والزهري إلى أنها كانت أعلم الناس من نساء ورجال (٧) . وليس من الطبيعى أن تنفرد السيدة

(١) الموشح ٦٢ فى الأصل عنده بدلا من غيره (٢) الطبقات ٣٩/٧ والإصابة ١٤٠/٨
وأسد الغابة ٥٠٤/٥ والاستيعاب ٧٦٥/٢ وتهذيب التهذيب ٤٣٥/١٢ (٣) الإصابة ١٤٠/٨
والطبقات ٥٠/٨ والاستيعاب ٧٦٥/٢ (٤) الإحياء للغزالي ١٠٩/٣ ودلائل النبوة للبيهقي
(٥) الطبقات ٥٠/٨ (٦) لسان العرب ٦٦/١٩ (٧) تهذيب التهذيب ٤٣٥/١٢

عائشة بالحافظة الراوية للشعر بين النساء العربيات ، وإنما الطبيعي أن يشركها كثير من النساء ، فلا بد أن كانت نساء آخر يحفظن الشعر ويروينه ، لكنهن لم ينلن ما نالت السيدة عائشة من مجد ونباهة صيت ، ولم تسجل حياتهن كما سجلت حياتها ، فهي زوج النبي ، وبنت صديقه وخليفته . ولو لم يقدر لها أن تكون كذلك ، وأن تشترك في نصرة حزب سياسي قوى ، وأن تكون راوية للحديث الشريف ، لو لم يقدر لها ذلك كله لضاع كثير من أخبارها كما ضاعت أخبار مئات من أمثالها .

٢ — أما نقدها للشعر فإنه كان كنقد الرجال ، قائماً على استحسان أو استهجان ، في جمل قصار تدل على الاستجادة أو الاستهجان .

فكان الأعشى إذا قال القصيدة عرضها على ابنته ، وقد كان ثقفاً وعلماً ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختبار لجيد الكلام ، وكان يقول لها : عدى لى المخزيات — القصائد البارة التي تعجز غيره — فتعد منها :

أغر أروع يُستسقى الغمامُ به لو قارع الناسَ عن أحسابهم قرعاً
وتذكر ما أشبهها من شعره (١) .

وذكروا أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الشعر ، فقال له علقمة : قد حاكت بيني وبينك امرأتك أم جندب . قال : قد رضيت . فقالت لها : قولاً شعراً على روى واحد وقافية واحدة ، تصفان فيه فرسيك .

فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خليلي مرأبى على أم جندب لنقضى لبانات الفؤاد المعذب
.....

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب
.....

فغلبت علقمة . فقال لها زوجها : بأي شيء غلبته ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط ألحوب وللحاق ديرة وللزجر منه وقع أخرج منعب

فجهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك وزجرك ، وأتعبته بجهدك . وعلقمة قال :
 فولّى على آثارهن بحاصب وعيبة شُبوب من الشد مُلّهب
 فأدركن ثانياً من عنانه يمرُّ كمرِّ الراح المتحلّب
 فلم يضرب فرسه بسوطه ، ولم يمرّه بساق ، ولم ينعبه بزجر .
 فغضب من قولها وطلقها ، وخلفها عليه علقمة (١) .

وفي رواية عمر بن شبة وأبي عمرو الشيباني (٢) وابن عائشة (٣) أن امرأ القيس تزوج
 امرأة من طيء فأبغضته ، ثم نزل به صديقه علقمة فتنازعا في أيهما أشعر ، فاقترح امرؤ
 القيس أن يصف كل منهما ناقته أو فرسه ، وأن يكون الحكم بينهما امرأة امرئ القيس .
 وتتفق رواية المفضل عن أبي الغول النهشلي عن أبي الغول الأكبر مع هذه الرواية ، لكنها
 تنسب إلى علقمة أنه القائل : قل شعراً وانعت الصيد وهذه — يعني أم جندب — الحكم
 بيني وبينك (٤) .

وقالوا إن علقمة سمى الفحل لأنه خلف امرأ القيس على زوجته (٥) .
 لكن هذه القصة المشهورة في حاجة إلى تمحيص .

ذلك أن الحكم من الناحية الفنية جائر ، لأن المعارضة لم تكن قائمة على المفاضلة بين
 الفرسين نفسيهما ، وإنما كانت قائمة على البراعة في الوصف ، وما من شك في أن كلا من
 الشاعرين قد وصف حصانه فأجاد ، بغض النظر عن عتق الحصان وكرمه ، وشدته وإسراعه .
 فمثلاً صور امرؤ القيس حصانه يجرى وراء الصيد ، ولكنه لم يغفل عن تصوير مشاعره
 ولهفته ليدرك هذا الصيد بأنه صبّ على حصانه سوطه ، وزجره ، ليجود بما فوق الطاقة ،
 وهو بهذا التصوير لم يخرج على طبيعة الإنسان في أي زمان ، فالمسافر العجلان اليوم يركب
 الطائرة التي تقطع الأميال في الدقيقة الواحدة ، ويشعر بسرعتها التي ما كانت في خلد البشر ،
 ولكنه إذا كان ملهوفاً يشعر أنه في حاجة إلى سرعة أعظم .

وكيف نغفل عن قول امرئ القيس بعد البيت الذي عابته أم جندب :

- (١) الأغاني ١٢١/٧ و ١١٢/٢١ والموشح ٢٨ ألحوب : شدة عدو . درة : المراد سرعة جرى .
 أخرج : ظليم . منعب : عداء يمد عنقه . وروى مهذب : سريع العدو . حاصب : ريح تحمل التراب . عيبة
 شُبوب : المراد دفعة قوية من السرعة . ملهّب : مسرع . الراح المتحلّب : المطر الغزير
 (٢) الأغاني ١٢١/٧ (٣) الأغاني ١٢١/٧ (٤) الموشح ٣٠ (٥) الأغاني ١١٢/٢١

فأدرك لم يجهّد ولم يشن شأوه يمر كخذروف الوليد المتقّب^(١)

أى أنه قد أدرك طريقته دون حاجة إلى طلق آخر ، وإنه ليعدو عدواً يكاد يخفى تفاصيل أجزائه ، مثل الدوّارة التى يرمىها الصبي على الأرض فتدور بسرعة حتى لا ترى أجزاؤها . وهذا تصوير بالغ حد الروعة من حيث الصورة ومن حيث الوقع فى النفس ، ذلك بأن الصبي حينما يقذف خذروفه فى قوة ومهارة فيدور دورانا قويا يعجب به ويباهى بمهارته ، وكذلك امرؤ القيس أجرى حصانه معجباً به وبنفسه ، وهو فى وصفه هذا جار على طريقة العرب من حيث إظهار الصدق والتوسط بالخيال المقبول المشوق المستمد من الواقع .

ثم إن البيتين معاً يجعلان حصان امرئ القيس كحصان علقمة عدواً وجُوداً بأقصى ما يجود به الأصيل الكريم .

ومن الإنصاف أن نقرر أن قول امرئ القيس :

إذا ماجرى شأوينِ وابتل عطفه تقول هزيرُ الريحِ مرتِ باثاب
ليس أقل روعة من قول علقمة :

فأدركن ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلّب

لأن امرأ القيس صور حصانه بعد ماجرى شوطين ، وابتل جنبه بالعرق ، سريعاً خفيفاً يموج من جريانه الهواء ، كأنه ريح مرت بالاثاب خف خفيفاً قويا .

وإذا ما قرأنا القصيدتين كليهما وراعينا أن امرأ القيس هو البادى استرعى نظرنا أن علقمة يجرى على إثره ، ويستعين كثيراً بأبياته . من ذلك أن البيتين الأولين من وصف علقمة لخصانه هما البيتان الأولان من وصف امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب

بمنجرد قيد الأوابد لاه طراد الهواذى كل شأو مغرب^(٢)

وليس المقام مقام توسع فى الموازنة ، وقد وازن بين القصيدتين موازنة مفصلة الأستاذ السباعى بيومى ، من حيث وصف الشاعرين لفرسيهما ، ومن حيث وصفهما للعدو والصيد

(٣) شأوه : طلقه . الخذروف : لعبة للصبيان تشبه النحلة الحشبية الآن

(١) مذنب : مسيل ماء . لاه : غير لونه . الهواذى : الوحوش السريعة . الشأو : الغاية والأمد .

مغرب : مسرع جداً

ومن حيث النزول بعد الصيد والرواح منه ، وانتهى إلى أن امرأ القيس أجود من علقمة ، وأن علقمة يحاكيه وينقل منه ، وأن من الإجحاف أن يؤخذ بقول أم جندب ^(١) .

على أن في القصة ما يفهم منه أن حكم أم جندب ضالع ؛ لأنها كانت تفرك امرأ القيس ^(٢) ولأنه لما سمع حكمها قال : ليس كما قلت ولكنك هويته ^(٣) .

أما الناحية الثانية فهي أني أشك في هذا التحكيم ؛ لأنني لا أعقل أن تجرؤ امرأة عربية على أن تؤثر علانية رجلا على زوجها ، وهي واثقة بأن الرجال غير ، وهي أيضاً ذات حياء وحصانة . ولا يشفع في هذا أنها فارك تهتاج زوجها ليطلقها ، لأنها لم تكن تدري ماذا يجره حكمها ، فقد يجز الطلاق الذي تريده لكنه مخالط بسوء ظن ومذمة ، وقد يجز عضلا وتعليقا ، وربما نجم عنه أن يزهرق روحها زوجها الهائج الغضبان .

وكيف يغفل امرؤ القيس عن بغضتها إياه ، ويفتح قصيدته بالغزل فيها ؟ ثم إنني أستبعد أن يقول الشاعران على البديهة هاتين القصيدتين الطويلتين البارعتين . ولا أصدق أن تجري على لسان أم جندب كلمة روى وقافية ، لأن الروى والقافية اصطلاح لم يعرف إلا فيما بعد .

ولأنه ليعزز رأيي في اختراع القصة أن علقمة لم يسم خلا لتزوجه أم جندب بعد امرئ القيس ، وإنما سمى خلا — كما ذكر الجاحظ — للتفريق بينه وبين علقمة بن سهل بن عمار لما وقع عليه اسم الخصى ^(٤) .

ويزيد هذا تعزيزاً أن مئات من الشعراء وغيرهم من مشهورى الجاهلية قد خلفوا غيرهم على نسائهم ، ولم يسم أحدهم خلا ، فلماذا خص علقمة بهذا اللقب ؟ ولكن القصة لها دلالتها على أن المرأة العربية كانت تتذوق الشعر ، وتنقده ، وتبين مواضع الجودة والرداءة فيه .

وهي شبيهة بقولهم إن حسان لما غضب من تفضيل الخنساء عليه قال للنابعة : أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابعة ، حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجففات الغر يلعن في الضحا وأسياقتنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني مُحَرَّق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . السباعي يومي ٢٥٦ — ٢٦٢

(٢) الأغاني ١٢١/٧ (٣) الأغاني ١١٢/٢١ (٤) الحيوان ١٢٠/١ طبعة هارون

فقال : إنك لشاعر لولا أنك قلت الجففات فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لكان أكثر .
وقلت يلعن في الضحا ، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر
طروقا . وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لكان أكثر
لأنصباب الدم . ونحرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسرا منقطعا (١) .
وعزى نقد بيت حسان إلى الخنساء على مسمع من النابغة ، ذلك بأنها قالت لحسان :
ضعفت اقتخارك وأنزرتة في ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت : قلت الجففات ، والجففات
مادون العشر فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لكان أكثر . وقلت الغر والغرة البياض في الجهة ،
ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعا . وقلت يلعن واللمع شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت
يشرقن لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت بالضحا ولو قلت بالليل لكان
أبلغ ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا . وقلت أسيافنا والأسياف دون العشرة ، ولو قلت
سيوفنا لكان أكثر دما . وقلت يقطرن فدللت على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لكان أكثر
لأنصباب الدم . وقلت دما والدماء أكثر من الدم . ونحرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ،
فقام حسان منكسرا منقطعا (٢) .

والوضع ظاهر في هذا الحكم لأنه يتكئ على التفرقة بين جمع المؤنث السالم وجمع
التكسير من حيث القلة والكثرة ، وهذا المعنى من اصطلاح النحاة في عصر التدوين ،
ويعتمد على المبالغة في الاستعارة وعلى التهويل في التصوير ، وهذه نزعة لم تعرف إلا
حينما درست علوم البلاغة ، وزاحم العقل والمنطق الذوق والفطرة . والنقد كله منبعث
عن إشار للغلو والمغالاة في المعاني في عصر كان الشعراء أميل فيه إلى الصدق والخيال
المقبول . لذلك فإن قدامة بن جعفر على الحق في دفاعه عن حسان (٣) .

٣ — فلما جاء الإسلام نافست النساء الرجال في العلم والأدب ، لأن النبي عليه الصلاة
والسلام حث الرجل والمرأة على التعلم ، وحث الرجل على تعليم ولده وابنته ، إذ ذكر في
الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين : « ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها
فأحسن تعليمها » (٤) .

(٢) شرح مقامات الحريري للشريشي ٢/٢٥٣ والمعارف ١٠٥

(٤) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدي ١/١٠٤

(١) الأغاني ٨/١٨٨

(٣) نقد الشعر ٣٦

١ — فكان من المسلمات راويات للحديث ، يأخذ عنهن الرجال ، كالسيدة عائشة ^(١) ، وقد تلقى علي بن أبي طالب الحديث على مولاة لرسول الله كانت تقوم على خدمته هي ميمونة بنت سعد ^(٢) . وعد محمد بن سعد أكثر من سبعائة راوية للحديث عن رسول الله أو عن الثقات من أصحابه ، وأخذ الرواة عنهن ^(٣) ، وكذلك فعل ابن حجر ^(٤) في كتابه (الإصابة) على أنه ذكر ٣٢٢ صحابية روين عن الرجال وروى عنهن الرجال في كتابه (تهذيب التهذيب) ^(٥) .

وألف الحافظ الذهبي كتابه (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) قال فيه : وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها ^(٦) . وقرأ أبو بكر الخطيب الحافظ أحمد بن علي بن ثابت (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) صحيح البخاري بمكة على كريمة المروزية ^(٧) . وتلذذ الحافظ أبو القاسم ابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) لشيخو عدة منهم بضع وثمانون امرأة ^(٨) . وسمع محمد ابن المؤرخ أبي شامة المقدسي صحيح البخاري وغيره على أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب المتوفاة ٦٤١ هـ ^(٩) . وكان لشهادة الكتبة المتوفاة ٥٧٤ هـ السماع العالي الذي ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر ، وقد سمع عليها خلق كثير ^(١٠) .

ب — وكان منهن ناقدات للشعر يتجرى الشعراء مرضاتهن . فكانت عمرة الجُمحية صاحبة وهب بن زَمْعَة الجُمحي امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار . وكان أبو دَهَبَل لا يفارق مجلسها مع كل من يجتمع إليها ، وكان يحبها وتحبه ، فلما قيل لها إن أمرهما ذاع احتجبت عن جلاسها ، وعن أبي دَهَبَل ، فقال :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ مَا يَتَبَلَّجُ	وَأَعْيَتْ غَوَاشِي عَابِرَتِي مَا تَفَرِّجُ
وَبُتُّ كَثِيبًا مَا أَنَامُ كَأَنَّمَا	خَلَّالُ ضُلُوعِي جَمْرَةٌ تَتَوَهَّجُ
فَطَوَّرَا أَمْنِي النَّفْسَ مِنْ عَمْرَةٍ أَمْنِي	وَطَوَّرَا إِذَا مَا لَجَّ بِي الْحُزْنُ أَنْشَجُ

- | | |
|--|---------------------------------------|
| (١) الإصابة ٤٠/٨ | (٢) الإصابة ١٧٣/٨ |
| (٣) الطبقات الكبير لابن سعد | (٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر |
| (٥) تهذيب التهذيب ٣٩٧/١٢ - ٤٩٢ | (٦) ميزان الاعتدال ٦٨٢/٢ |
| (٧) طبقات الشافعية الكبرى ١٢/٣ | (٨) طبقات الشافعية الكبرى ٢٧٣/٤ |
| (٩) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٧٣ أبو شامة | (١٠) وفيات الأعيان ١٨٣/١ |

لقد قطع الواشون ما كان بيننا ونحن إلى أن يوصل الحبل أحوج^(١)
 ح — وكانت في الإسلام تحيز الشعر كما أجازته سابقتها في الجاهلية ، من ذلك أن عقيل
 ابن علفة كان في سفر ومعه ابنه علفة وجثامة وابنته الجرباء فقال عقيل :

قضت وطراً من دير سعد وطالما على عرض ناطحنه بالجماجم
 إذا هبطت أرضاً يموت غرابها بها عطشاً أعطيتهم بالخزائم
 ثم قال : أنفذ يا علفة ، فقال علفة :

فأصبحن بالمواة يحملن فتية نشاوى من الإدلاج ميل العمام
 إذا علم غادرته بتسوفة تذارعن بالأيدي لآخر طاسم
 ثم قال : أنفذ يا جرباء ، فقالت :

كان الكرى سقام صرخدية عقاراً تمشى في المطا والقوائم
 فغضب عقيل وهاج وقال : والله ما وصفتها هذه الصفة إلا وقد شربتها ، ثم أحال عليها
 يضربها فصدده عنها أخوها^(٢) .

وكانت عائشة بنت طلحة أديبة ناقدة ينشدها الشعراء ، وقد أنشدها أبو عمرو قصيدة
 قيس بن الحدادية التي مطلعها :

أجـدك إن نعم نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع

فاستحنتها ، وكان بحضرتها جماعة من الشعراء فقالت لهم : من قدر منكم أن يزيد فيها بيتاً
 واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حلتي هذه . فلم يقدر أحد منهم على ذلك^(٣) . وقد أسمعها
 الغريض قصيدة للحارث بن خالد فاستحسنتها وأمرت له بخمسة آلاف درهم وأثواب : ثم
 استزادته من شعر الحارث بن خالد ، واستزادته ، وأمرت له بخمسة آلاف أخرى ، وطلبت
 منه أن يغنيها في شعر غيره ، فغناها لعمر بن أبي ربيعة . فضحك وأعطته خمسة آلاف
 أخرى^(٤) .

(١) الأغاني ١٥٠/٦ (٢) الأثرية لابن قتيبة ٥٩ مخطوط والأغاني ٨٢/١١ علم : جبل .
 تنوفة : صحراء لا ماء بها ولا أنيس . تذارعن : أمرعن . طاسم : منطمس . صرخدية : صخر
 (٣) الأغاني ٧/١٣ ساسي (٤) الأغاني ٣٢٠/٣

وكانت سَكِينَةُ بنت الحسين ذا صيت طائر في حب الشعر وتذوقه ونقده ، حتى ليصح أن نقول بلغة العصر الحاضر إنها كانت ذات ندوة أدبية يهفو إليها الشعراء ، فيستمعون رأيها ونقدها ، ولها في ذلك أخبار شتى ، منها أنها أنشدت قول الحارث بن خالد :
ففرغن من سبع وقد جهدت أحشاؤهن موائل الخمر
فقالت أحسن عندكم ما قال ؟ قالوا : نعم ، فقالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طاقت الإبل سبعاً لجهدت أحشاؤها (١) .

ولما أنشدها الغريص قصيدة عمر بن أبي ربيعة :
ألمم بزئبب إن البين قد أفدا قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا
طلبت أن يغنيها لها ، فلما غناها قالت : أحسنت والله وأحسن بن أبي ربيعة . وأمرت له بكل بيت ألف درهم ، وقالت : لو زادنا عمر لزدناك (٢) .
وقد زارها بالمدينة الفرزدق فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت كذبت ، أشعر منك جرير الذي يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز على ومن زيارته لم
ومن أمسى وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجم النيام

فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعك أحسن منه . ثم عاد إليها من الغد فسأله فأجاب كالיום السابق ، فقالت جرير أشعر منك وذكرت بعض شعره ، وكذلك فعلت في اليوم الثالث (٣) . ونقدت أيضاً قصيدة لعمر (٤) . وكذلك نقدت كلثم بنت سعد المخزومية شعراً (٥) . وكانت خرقاء العامرية محبوبة ذى الرمة تحفظ شعره وتنقده ، ومن قولها : كان رقيق البشرة عذب المنطق حسن الوصف مقارب الرصف (٦) . وروت قطام صاحبة ابن ملجم لكثير بعض شعره ، ونقدته ، وفضلت عليه امرأ القيس (٧) .

و — أما الموالى فكانت لهن ثقافة خاصة تكفل غلاء ثمنهن ، وتدفع الأثرياء إلى التنافس في اقتنائهن ، وحسبى أن أذكر أنه كان منهن مغنيات أستبازات ، تلقى عنهن زعماء المغنين ،

(١) الأغاني ٣/٣٢٧ (٢) الأغاني ٢/٣٧٦ (٣) الأغاني ٧/٥٠ (٤) الأغاني ٢/٣٧٧
(٥) الأغاني ١/٢٠٥ (٦) الأغاني ١٦/١٢٠ (٧) الأغاني ١٤/٥٧

فمثلا جميلة كانت أستاذة ابن سريج^(١) ، وأستاذة معبد ومالك^(٢) ، وعاتكة بنت شهدة كانت أستاذة إسحاق الموصلي^(٣) .

هـ — وإذا فقد برعت المرأة في صدر الإسلام وفيما بعده ، واشتهرت بمعارف شتى حتى سامت الرجال أحيانا ، وليس من المعقول أن تكون خاملة جاهلة وتبرع هذه البراعة فجاءة ، وإنما الطبيعي أن الإسلام قد استهل على العرب والنساء يسهمن في المعرفة ، ويسرن كالرجال بخطا نحو الكمال . فكان الإسلام مشجعا على حث الخطأ ، وكان نورا إلى الهدف الذي يأتته النساء والرجال جميعا .

الباب الثالث

المرأة الشاعرة

العرب أمة شاعرة كما سبق ، وقد قاومت آلاف من قصائدها عوادي الدهر ، حتى جاء عصر التدوين فدونت وأطلت علينا . وبديهي أن هذا الشعر الذي غالب الزمن وتخطاه لم يكن أول شعر ، لأنه شعر قد اكتمل خصائص الشعر الأسلوبية والمعنوية والموسيقية ، فهو من غير جدال مسبوق بمحاولات شتى في أزمان متطاولة . وكان العرب يعتزون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم ، والإشادة بفضائلهم ، فهو عندهم كالأثار المشيدة التي خلفتها بعض الأمم ، ولم يكن من اللغو أن نقول إن العرب قرضوا وحدثهم من الشعر — في الجاهلية والإسلام — أكثر مما قرضته أمم العالم مجتمعة ^(١) .

وقد حقق رواة الشعر فيما يروون ، وتحروا الصواب جهدهم ، ونهبوا على كثير من الدخيل المنحول . حتى لقد حدث الزبير عن ابن سلام عن يحيى بن سعد القطان أنه قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع ^(٢) .

قلة المروى من شعر النساء

أمام هذا الفيض الزاخر من شعر الرجال لا نجد إلا قلة من شعر النساء ، وبخاصة في الكتب الأولى التي جمعت الشعر ، كالطبقات لابن سلام ، والمفضليات للضبي ، ومعجم الشعراء للمرزباني ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ، والحاسة لأبي تمام .

فمثلاً في المفضليات للضبي مرثية واحدة لامرأة من بني ضبيعة في خمسة أبيات ، وليس هذه المرأة معروفة الاسم أو العصر . وذكر ابن سلام من أصحاب المراثي متمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهلة وكعب بن سعد الغنوي ، ثم قال : والمقدم عندنا متمم بن نويرة ^(٣) .

ثم ذكر الخنساء في إيجاز جدا بقوله « بكت الخنساء أخوها صخرا ومعاوية ، فأما صخر فقتلته بنو أسد ، وأما معاوية فقتلته بنو مرة من غطفان . فقالت في صخر كلمتها التي تقول فيها : « وإن صخرا لتأتم الهداة به » وكلمتها الأخرى :

أمن حدث الأيام عينك تهمل وتبكي على صخر وفي الدهر مدهل
وقالت في معاوية قصيدتها :

ألا ما لعينيك أم مالهـا لقد أخضل الدمع سربالهـا (١)

فكانها في رأيه لم تقل غير هذا . ولم يذكر الأمدى في المؤتلف والمختلف إلا بضع شاعرات ، ولم يذكر المرزبانى في معجم الشعراء امرأة . وذكر الفرشى في الجهرة تسعاً وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً ، منها سبع قصائد في للرثاء ، ولم يذكر شاعرة .

لماذا قلت رواية شعرهن ؟

ولعل الأسباب في قلة ما روى من شعرهن أول الأمر راجعة إلى هذه الأمور :

١ — كان الرواة في عصر الجمع والتحصيل حراساً على الغريب ، فكانوا يأخذون عن الأعراب ، لأنهم يقدرون في الشعر قيمته اللغوية ، وسرى أن شعر النساء قليل الغريب ، فلم يحفل الرواة بروايته وإذاعته .

٢ — وشعر النساء كما سرى موحّد الغرض في القصيدة الواحدة ، وربما حسب الرواة هذا عجزاً ، لأن العرب جروا على تعدد موضوعات القصيدة ، وتنوع أغراضها ، وألف الرواة هذا التعدد . وليس أدل على إعجابهم بنظام القصيدة الجاهلية الجارى على تعدد الموضوعات من أنه سيطر على القصائد العربية إلى العصر الحاضر .

٣ — وكان الشاعر لسان قبيلته ، يذيع محامدها ، ويهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل في شعر النساء ذكر الحروب والأيام ، فلم يجد المؤرخون والإخباريون فيه طلبتهم .

٤ — وربما كان مردّ بعض ذلك إلى لون من التعصب ، فقد ضرب المثل ببعض الشعراء في إجادة فنون خاصة ، ولم يضرب بالخنساء مثلاً في إجادتها الرثاء .
من ذلك قول ابن الأعرابي : لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد ،

ولا وصف الجر إلا احتاج إلى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعمة إلا احتاج إلى علقمة ابن عبدة ، ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج إلى النابغة الذبياني (١) .

وقد سبق إيثار ابن سلام لمتهم بن نويرة في الرثاء ، ومثل هذا كثير في كتب الأدب .
٥ — ولقد يكون من بواعث هذا الإغفال أو التغافل أن الشعر الجاهلي قد فقد كثير منه ، كما يقرر عمر بن الخطاب وأبو عمرو بن العلاء (٢) وكما يقرر ابن سلام (٣) ، فضاغ من شعر النساء كثير وبقي قليل .

٦ — ثم إن أوسع أبواب الشعر العربي في الجاهلية ما يتصل بالحروب والمفاخرات والحماسة عامة ، حتى إن القبائل التي كانت تنعم بالسلام الطويل لم ينبغ فيها إلا قليل من الشعراء ، فثلا بالطائف شعراء وليسوا بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان ، وأهل الطائف في طرّف ، ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت وابنه أمية وغيلان بن سلفة وكنانة بن عبد ياليل ، وأبو محجن بن حبيب الثقفي (٤) .

وقد كانت الحرب والحماسة أخلق بالرجال من النساء ، وإن كن قد شاركن في هذه وفي تلك .

٧ — ولقد يكون من بواعث هذا الإغفال أن العرب يؤثرون الفحولة والجزالة في الشعر ، وهم قد وجدوا في شعر الرجال قوة ورصانة فاحتفوا به ، ووجدوا في شعر النساء ليناً وضعفاً فلم يحفلوا به .

٨ — ولاننسى أن الكتب الأولى للمختارات ، وهي القصائد المطولة المسماة بالمعلقات - التي اختارها حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٥ هـ - وجمهرة أشعار العربي للقرشي المنوفى سنة ١٧٠ هـ (٥) والمفضليات للضبي المتوفى سنة ١٧٨ هـ (٦) ، والأصمعيات للأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ هـ ، كلها ليست خالية من شعر النساء فحسب بل من شعر المولدين أيضاً . فكان هؤلاء وجدوا في شعر المرأة رقة وسهولة فألحقوا شعرها بشعر المولدين .

(١) الأغاني ٩٣/١٥ (٢) طبقات الشعراء ٢٣ تحقيق شاكر والخصائص ٩٣١

(٣) طبقات الشعراء ٢٣ و ١١٥ و ١١٦ و ٢٠٥ تحقيق شاكر

(٤) طبقات الشعراء ٢١٧ شاكر (٥) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣/٣٦٤ ومقدمة الإلياذة

للبيستاني ١٧٢ (٦) ذكر الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام وميزان الاعتدال ، والحافظ الجزري في

طبقات القراء أنه توفي ١٦٨ هـ ، وذكر ابن تقي بردي في النجوم الزاهرة أنه توفي ١٧١ هـ . وخطأهم

أحمد شاكر وعبد السلام هارون ورجحا أنه توفي حوالي ١٧٨ (مقدمة شرح المفضليات ٢٣/١)

مراجع تحفل بشعرهن

ثم حفلت المراجع بشعر النساء في الجاهلية والإسلام ، كالأغاني . بل لقد ألف المرزباني كتاباً في ثلاثة أجزاء جمع فيه كثيراً من شعرهن سماه (أشعار النساء) لكن الموجود منه الجزء الثالث وحده ^(١) ، وقد ذكر ياقوت أن أشعار النساء للمرزباني في ستائة صفحة ^(٢) وللخرنق أخت طرفة ديوان مخطوط ^(٣) ثم طبع . ولجنوب الهذلية ديوان ذكره صاحب كشف الظنون ^(٤) . وللخنساء ديوان مخطوط ومطبوع ^(٥) .

وجمع الأب لويس شيخو اليسوعي كثيراً من مرثي شواعر الجاهلية في كتاب رياض الأدب في مرثي شواعر العرب ^(٦) في نحو مائة وستين صفحة ، اعتمد فيه على كثير من المراجع المطبوعة والمخطوطة كالأغاني والكامل لابن الأثير وكتاب القصيدة النورانية في مناقب العدنانية مخطوط في المكتبة الشرقية ، وكتاب الرقائق في مجموعة الشعر الجاهلي الرائق ، والعمدة ومعجم البلدان والحماة والمثل السائر وشرح ابن بدرون على قصيدة ابن زيدون وأمثال العرب للضبي والعقد الفريد ودرة الغواص الخ . .

ثم ألف السيوطي كتاب (نزهة المجالس في أشعار النساء) ^(٧) وذكر في مقدمته أنه جزء لطيف في الشاعرات المحدثات دون المتقدمات من الجاهليات والمخضرمات ، فإن أولئك لا يُحْصَيْن كثرة ، حتى إن الطرمّاح جمع كتاباً في أخبار النساء الشواعر من العربيات ، فجاء في عدة مجلدات رأيت منها المجلد السادس ، وليس هو الأخير ^(٨) .

على أن كتب الأدب واللغة والتاريخ حافلة بقطوف من شعرهن كالأغاني ، وخزانة الأدب ، والعقد الفريد ، وعيون الأخبار ، وشرح مقامات الحريري للشريشي ، ومعجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكري ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، وتاريخ الطبري ، وتاريخ ابن الأثير ، والمنظوم والمنثور لابن طيفور ، وبلاغات النساء لابن طيفور ، وأخبار النساء لابن قيم الجوزية ، ومروج الذهب للمسعودي ، وتزيين الأسواق لداود الأنطاكي ، ووصف جزيرة العرب للهمداني ، وجمهرة الأمثال لأبي هلال ، وحماة البحري ، وسيرة

(١) أشعار النساء للمرزباني مخطوط ٨ أدب ش (٢) معجم الأدباء ٢٦٩/١٨ (٣) ديوان خرنق مخطوط ٣٤ أدب ش ٥٦٨ أدب (٤) كشف الظنون ٢٧١/٣ ليبسيك (٥) مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش والمطبوع أنيس المجالس في شرح ديوان الخنساء الأب لويس شيخو ١٨٩٦ م (٦) طبع في بيروت ١٨٩٧ م (٧) مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر (٨) نزهة المجالس في أشعار النساء مخطوط ص ٢

ابن هشام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وخزانة الأدب للحموي ، وزهر الآداب للحصري ، والكامل للمبرد ، والمؤتلف والمختلف للآمدي الخ .

شعر منحول للنساء

١ — ليس بصحيح كل شعر عُزِيَ إلى النساء ، فإن بعضه دخيل عليهن ، نحله بعض الناس إياهن ، ولقد يكون بعضه لشاعرة وينحل أخرى ، وبعضه لشاعر وينحل شاعرة ، وبعضه من عمل الراوى أو المؤلف ، ومثل هذا حدث في شعر الرجال ، فمثلاً حدث أبو عبيدة أن قراد بن حنش المرى من شعراء غطفان ، كان قليل الشعر جيدة ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبي سلمى ادعى هذه الأبيات :

إن الرزية لا رزية مثلها ما تبتغى غطفان يوم أضلت^(١)

وحدث الأصمعي أن طفيل الغنوى في بعض شعره أشعر من امرئ القيس ، وحدث الرياشي أن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه مثل عمرو بن قيس^(٢) . وكثيراً ما ذكر ابن سلام أن في بعض ما يروى نحلاً وانتحالاً^(٣) . وفي الأغاني كثير من هذا كالأبيات التي قالها عمر بن أبي ربيعة أو والد أبي نهشل في مدح هشام بن المغيرة ، ونسبت إلى عبد الله بن الزبيري^(٤) .

وقد نبه القدماء على كثير من هذا المنحول ، كقول عامر بن جوين في غزله بهند بنت امرئ القيس بن حجر :

هممت بنفسى كل الهموم فأولى لنفسى أولى لها
سأحمل نفسى على آلة فأما عليها وإما لها

هكذا روى ابن أبي سعد عن دارم بن عقال . ومن الناس من يروى هذا للخنساء في قصيدتها :

ألا ما لعيني ألا ما لها لقد اخضل الدمع سربالها^(٥)
والبيتان في ديوان الخنساء^(٦) :

(١) الموشح للمرزباني ٤٧ (٢) المرجع السابق ٣٤ و ٣٧ (٣) طبقات الشعراء تحقيق شاكر
٣٢ و ٤٠ و ٤١ (٤) الأغاني ٦٣/١ (٥) الأغاني ٦٩/٨ ساسي (٦) نزهة الجلساء ٢٠٥

وقد ذكر ابن اسحق أربع قصائد لهند بنت عتبة في رثاء قتلى بدر، وعلق ابن هشام بأن أهل العلم بالشعر ينكرونها (١).

٢ — والخطب هنا سهل؛ لأن دوافع النحل والانتحال في شعر النساء أقل منها في شعر الرجال. ومن السهل أن نرد بعض ما ألصق بهن من شعر دخيل معتمدين على سمات فيه لا تتفق وخصائصهن وأنوثتهن.

من ذلك ما نسبته البحتري إلى امرأة في رثاء:

أقول لنفسي في خفاء ألومها لك الويل ما هذا التجلد والضبر؟
ألا تفهمين الخبر أن لست لاقياً أخي إذ أتى من دون أكفانه القبر (٢)

.....

فكلمة « لاقياً » تدل على أن القائل رجل لا امرأة.

على أن أبا الفرج روى بعض أبيات هذه القصيدة لعلي بن عبد الله أخي جعفي (٣)، ورواها كلها أبو علي القالي لسلمة بن يزيد في رثاء أخيه لأمه قيس بن سلمه (٤)، وكذلك رواها أبو تمام لسلمة الجعفي في رثاء أخيه (٥).

ومن ذلك ما ذكره اليزيدي للخنساء (٦)

أنا باكٍ عليك للمعروف ولكر الحكاة بين الصفوف

.....

ولو أنه للخنساء لقالت باكية، على أن القصيدة ليست في ديوانها.

ولقد يقدح في نسبة الشعر إلى شواعر من العصر الجاهلي تهافت عبارته، وضعف صياغته، ونبوة عن الأسلوب العام لهذا العصر، ومن هذا الضرب كثير مما بالجزء الثاني من جمهرة أشعار العرب للقرشي (٧).

وأرجح أن هذا الجزء معزو إلى القرشي وليس من تأليفه، على أن به بعض القصائد المشهورة التي أجمع الأدباء على صحتها، لكنها مزيدة كثيراً مثل قصيدة جليدة أخت كليب (٨)

(١) سيرة ابن هشام ٤١٤/٢ - ٤١٧

(٢) حساسة البحتري ٤٣١ (٣) الأغاني ١٠٦/٢١ (٤) الأما ٧٣/٢

(٥) شرح التبريزي للحماسة ٥٩/٣ (٦) مرث وأشعار مخطوط بمعهد المخطوطات ٩٤

(٧) مخطوط بمكتبة تيمور (٨) الجمهرة الجزء الثاني ١٧٧

ومن هذا الضرب ما روى أن أمانة بنت كليب — ولم يكن لها من العمر إلا اثنتا عشرة سنة حين قتل أباهما جساس^١ وابن عمرو بن الحارث — دخلت على عمها المهلهل فأخبرته بقتل أخيه ، وقيل إنها وجدته سكران ، فقالت :

أتلهو بالملاهي والخمور ولا تدرى بعاقبة الأمور
ولا تدرى بأن كليب أضحي قتيلا عند جساس الغدور
فواجبها لجساس وعمرو لقد رميا أخاك بعنقفير
على ناب البسوس سراب أعنى يبح دمه سدى كدم البعير^(١)

فأسلوب هذه الأبيات ركيك سخيف ، ومخالفاتها النحوية كثيرة ، وكلت عنقفير ليست من أسلوب المرأة ، ثم ليس بصحيح أن مهلهلا كان يجهل قتل أخيه حتى أخبرته ابنته . كذلك ما ذكره الحصرى من قصيدة لامرأة ترضى طفلها ، وعدد أبياتها ثلاثة وثلاثون بيتاً ، فإن فيها أبياتاً تدل على أن قائلها رجل لا امرأة مثل :

فدعا لأنصرة وكنت له من قبل ذلك حاضر النصر
لو قيل تفديه بذلت له مالى وما جمعت من وفر
أو كنت مقتدرا على عمرى أثرته بالشر من عمرى
قد كنت ذا فقر له فغدا ورمى على وقد رأى فقرى^(٢)

فكلمة حاضر ، وتفديه ، ومقتدر ، وذا ، دالة على ذكر لا أنثى ، والدعوة إلى النصر إنما توجه إلى الأخ الرجل لا إلى الأخت .

(١) رياض الأدب ٦ عنقفير : داهية عظيمة . سراب : علم على ناقة البسوس

(٢) زهر الآداب ٨/٢ على هامش العقد الفريد

فنون شغرها

الرثاء

أسلفت القول في حب الأم لابنها ، والمرأة لزوجها ، والبنت لآبيها ، والأخت لأخيها ،
والقريبة لقربها ، وذكرت نماذج من رثائهن لهؤلاء .

والرثاء هو المجال الفسيح الذي تطلعت فيه عواطف المرأة ، لأنه نوع من النواح والبكاء ،
وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا حزبها الدهر أو كرهها القضاء ، وإنها لتلتذد الحزن
وتستديمه ، وتوالى البكاء وتستطيله ، وفاء وحسرة ، أو ضعفاً ورقة ، ثم تنفس عن نفسها
إن كانت شاعرة بمقطوعات تسكب فيها لوعتها وحرقتها .
فهل كان لرثاء النساء خصائص تميزه من رثاء الرجال ؟

١ — الذى أحسسته فى مرأتهن أنهن يشدن بفضل المرنى من شجاعة وبطولة وكرم
ونجدة وعفة الخ كما أشاد الرجال فى مرأتهن . فثلاً ترى الخنساء صخرًا بالشجاعة فى قولها :

فمن للحرب إذ صارت ككُلوحاً وشمّر مشعلوها للنهوض

وخيلٍ قد دَلَقَتْ لها بأخرى كأن زهاءها سَندُ الحَضيض

إذا ما القوم أحرهم تبولٌ كذاك التبلُّ يُطلب كالقُروض

بكل مُهنّد عَضْبُ حُسام رقيق الحدّ مصقول رَحِيض (١)

وترثيه بالكرم ، وإغاثة الجار ، وإصلاح ذات البين ، والحلم فى قولها :

فمن لِقْرِى الأضياف بعدك إن هم فنائك حلوا ثم نادوا فاستمعوا

كعبدك إذ أنت حى وإذ لهم لديك منالات ورى ومشبع

(١) ديوان الخنساء ١٥٨ سند الحضيض : أسفل الجبل حيث يكون أرسى وأصلب . أحرهم : هيجهم . الرحيض : المغسول وتريد به السيف الصقيل كأن الماء يقطر منه لشدة صفائه .

ومن لهم حل بالجار فادح
ومن لجلس مفحش لجلسه
وأمر وهى من صاحب ليس يرفع
عليه بجهل جاهداً يتسرع
ولو كنت حيا كان إطفاء جهله
بحملك فى رفق وحملك أسرع^(١)
وهى فى رثائها لا تخرج عن وصف أحزانها ، وتعداد مناقب أخويها ، كما يعدد الرجال مناقب الرجال .

ولقد تعاضمت هى وهند بنت عتبة مصيبتيهما ، وادعت كل منهما أنها أعظم بلوى ، فالخنساء تعاضم بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وهند تعاضم بأبيها عتبة وعمها شيبه وأخيها الوليد ، ولكنهما فى هذه المفاخرة لم يخرججا على هذا السياج ، وإنما نوهتا بالمحامد المألوفة . قالت الخنساء :

أبكى أبى عمراً بعين غزيرة
وصنوى لا أنسى معاوية الذى
قليل إذا نام الخلى هجودها
له من سراة الحرّتين وفودها
وصخرا ومن ذا مثل صخر إذا غدا
بساهمة الآطال قبا يقودها
فذلك يا هند الرزية فاعلى
ونيران حرب حين شب وقودها^(٢)
فأجابتها هند بقولها :

أبكى عميد الأبطين كليهما
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلى
وحاميها من كل باغ يريدنا
وشيبه والحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب
وفى العز منها حين ينمى عديدها^(٣)
وقالت لها الخنساء أيضاً :

من حسّ لى الأخوين كالغصنين أو من راهما
أخوين كالصقرين لم ير ناظر شرواهما

(١) الديوان ١٥٩ الحى : جماعة القوم . أى لو نشب الشر بين القوم لشملمهم حلمه وتدارك جهلمهم وهذا على رواية ولو كان حيا . أما الرواية التى اخترتها (ولو كنت حيا) فعناها لو كنت يا صخر موجوداً لتداركت هذا الشر قبل استفحاله .

(٢) الأغاني ٢١١/٤ الدار وجمع الأمثال ٢٠٥/٢ الحرّتين : حرة بنى سليم وحرة بنى هلال بالحجاز . أى هو مقصد الأشراف من القبائل يأتونه فيما يلم بهم . ساهمة : دقيقة . الآطال : الخواصر جمع إطل . قب : جمع أقب الفرس الدقيقة الخصر الضامرة البطن (٣) الأغاني ٢١٢/٤ الدار وجمع الأمثال للميداني ٢٠٥/٢ الأبطين : بطحاء مكة وسهل تهامة . عديدها : جوعها

قَرَمَيْنِ لَا يَتَظَالَمَا ن وَلَا يُرَام حَاهِمَا
أَبْكِي عَلَى أَخِي م ي والقبر الذي واراها
لَا مِثْلَ كَهْلِي فِي الْكُهْو ن وَلَا فَتَى كَفْتَاهِمَا
رَحْمَيْنِ خَطِيئَيْنِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ سَنَاهِمَا
مَا خَلَقْنَا إِذْ وَدَّعَا فِي سُودَدٍ شَرَوَاهِمَا
سَادَا بَغِيرَ تَكَا عَفْوًا بَفَيْضِ نَدَاهِمَا (١)

والخنساء تنزع النزوع نفسه في رثاء زوجها مرداس بن أبي عامر السُلَمي ، فنشيد بعزيمته وشجاعته وقوته وتخليصه السبايا :

وَفَضَّلَ مَرْدَاسًا عَلَى النَّاسِ فَضْلَهُ وَأَنْ كُلَّ هَمٍّ هَمَّهُ فَهُوَ فَاعِلُهُ
وَأَنْ رَبَّ وَادٍ يَكْرَهُ الْقَوْمَ هَبْطَهُ هَبْطَتْ ، وَمَاءَ مَنَهْلٍ أَنْتَ نَاهِلُهُ
وَسَبِي كَأَرَامِ الصَّرِيمِ حَوِيَّتَهُ خَلَالَ رِجَالِ مُسْتَكِينٍ عَوَاطِلُهُ
مَتَى مَا تَعَادَلُ مَا جَدَا تَعْتَدِلُ بِهِ كَمَا عَدَلَ الْمِيزَانُ بِالْكَفِّ ثَاقِلُهُ (٢)

وهذه النزعة نفسها محققة في مرثية دخنتوس (٣) لا يبيها لقيط بن زرارعة :

بَكَرَ النَّعْيُ بَخِيرَ خَنْدَفٍ كَهْلَهَا وَشَبَابَهَا وَبَخِيرَهَا نَسَبًا إِذَا رَجَعْتَ إِلَى أَنْسَابَهَا
وَقَرِيعَهَا وَنَجِيهَا فِي الْمُطَبَقَاتِ وَنَابَهَا
وَرَثِيهَا عِنْدَ الْمَلُو كَ وَزَيْنَ يَوْمِ خَطَابَهَا
فِيَعُولَهَا وَيُحُوطُهَا وَيَذُبُّ عَنْ أَحْسَابَهَا
وَيُطَا مَوَاطِنَ الْعَدُو كَانَ لَا يَمْشِي بِهَا
فَعَلَ الْمَدْلُ مِنَ الْأَسُو دَ لَحِينَهَا وَتَبَابَهَا (٤)

(١) الديوان ٢٥٦ والأغاني ٢١٣/٤ حس : أدرك . شرواحا : مثلها . قرمان : سيدان . كهلي :

تريد أخاها معاوية وكان بكر إخوته . فتى : تريد صخرًا وضمير فتاها يعود إلى فرعي بن سليم

(٢) ديوان الخنساء ١٩٩ آرام : طباء . الصريم : الرمل . ثاقله : وازنه

(٣) قال في تاج العروس ١٤٧/٤ أصله دخنتوش بضم الدال وسكون الحاء وضم التاء والنون أي بنت

الهناء سماها أبوها باسم بنت كسرى وقلت السين شينا لما عربت وقال أيضاً دخنتوس وتختنوس بفتح الدالين

في الأولى والتأين في الثانية (٤) الأغاني ٣٩/١٠ والكمال لابن الأثير ٢٤٤/١ والمنظوم والمنثور

لابن أبي طاهر ٢١ بكر : أتى باكرًا . قريعها : سيدها . المطبقات : الشدائد وسنوات الجذب . كان لا يمشي

بها : يتعقب العدو في أماكن لم يطأها من قبل أو لم توطأ . المدل : الجريء الواثق يقوته ، أي أنه خاطر

وفعل فعل الأسد الذي يعود عليه لإقدامه بالتحف

وفي رثاء خرنق لزوجها وأبنائها الثلاثة :

لا يبعَدَنَّ قومي الذين هم سمُّ العُدَّةِ وآفةِ الجُزُرِ
النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
والخالطون نحيتهم بنضارهم وذوى الغنى منهم بذى الفقر
إن يشربوا يهبوا وإن يذروا يتواعضوا عن منطق الحجر
قوم إذا ركبوا سمعت لهم لغطاً من التأنيهِ والزَّجَرِ
هذا ثنائى ما بقيت عليهم فإذا هلك يحنى قبرى (١)

وكذلك فى رثاء الفارعة بنت معاوية (٢) ، وسارة القرظية لقومها (٣) ، وخرنق لآلها (٤) ، ودختنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة (٥) .

وهذا الاتجاه نفسه غالب فى شاعرات العصر الإسلامى والعباسى ، فمثلا عاتكة بنت عمرو بن نفيل رثت زوجها الزبير بن العوام ، وأشادت ببطولته وشجاعته فى قولها :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء وكان غير مُعَرَّد
يا عمرو لو نهته لوجدته لا طائشاً رعى الجنان ولا اليد
كم غمرة قد خاضها لم يثنه عنها طرادك يا بن فقع القرد
ثكلتك أمك إن ظفرت بمثله فيما مضى من يروح ويغتدى (٦)

وكذلك فعلت ليلي الأخيلية فى رثاء توبة بن الحمير (٧) ، وزينب بنت الطَّثَرِيَّة فى رثاء أخيها يزيد (٨) ، وليلى بنت طريف فى رثاء أخيها الوليد بن طريف الشارى (٩) :

- (١) ديوان خرنق ٣ والأمالى ١٥٨/٢ وأشعار النساء للمرزباني . الهجر : الفحش . اللفظ : الجلبة .
التأنيه : الصوت والصياح . النحيث : المنحوت الفقير (٢) أشعار النساء للمرزباني ٢٢ مخطوط
(٣) معجم البلدان ٢/٢٤٣ (٤) ديوان خرنق مخطوط والخماسة البصرية ٩٥ مخطوط
(٥) الشعر والشعراء ٢٧٢ (٦) حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة ٢٩٤/١ والخماسة
البصرية ٨٤ مخطوط . ابن جرموز : عمرو بن جرموز التميمي قتل الزبير غيلة بوادى السباع فى عودته من وقعة
الجل . فارس بهمة : فارس جيش والمراد الزبير . إن ظفرت : ما ظفرت . فقع القرد : الفقع البيضاء الرخوة
من السمكة ، والقرد : ما ارتفع من الأرض . والمراد وصف أبيه بالذلة لأن هذا الفقع يوطأ بالأرجل
ولا يمتنع على من يجتنيه (٧) خماسة البحتري ٤٢٣ و٤٢٤ و٤٢٦ وزهر الآداب ٧٢/٤

(٨) خماسة البحتري ٤٣٣ وبلاغت النساء ١٩٣

(٩) خماسة البحتري ٤٣٥ والأغاني ١١/١١ و٩/١١

وهؤلاء وأولئك — ماعدا الخنساء في بعض مرثيائها — لم يُجدن تشقيق المال في وصف ما تعتلج به قلوبهن من اللوعة والآسى .

ثم إن المرأة في رثائها لابنها مثلاً لم تتحدث عما كانت تؤمله فيه ، أو عما كانت تتشوف إليه من أن يشب ويكبر فتجبر به وببنيه ، ولم تتحدث زوجة عن دماثة زوجها ، وحسن عشرته لها ، وعطفه عليها ، ووفائه لها .

أفكان مردّ هذا إلى معجزة بيانية ؟ لا ، لأن القدرة التي أسعفتهم بالإشادة بالمحامد كفيّلة أن تسعفن بتصور ذلك . وأرجح أن محركاتهن للرجال في رثائهم وفي إشادتهم بفضائل المرثى ، وأن ضيق أفق خيالهن ، وعجزهن عن تصوير حزنهن ، والتعبير عن مشاعرهن بحيث يشركن الآخرين والآخريات معهن فيما يشعرن به هي السبب فيما نرى من شبه رثائهن برثاء الرجال ، وفيما نرى في مرثيئهن من احتباس على ذكر المحامد العامة ، حتى إننا قلنا نستطيع أن نميز رثاء امرأة من رثاء رجل ، وقلنا نجد في مرثيئهن ملامح ناطقة وسمات كاشفة تنبع من الأنوثة ، وتعبّر عن عواطف الإناث . وفي الحق إنهن أشجى من الرجال قلوباً عند الفجعة ، وأشدّ منهم حزناً ، وأعظم لوعة ، لأنهن أضعف احتمالاً ، وقلوبهن أسرع انخلاعاً ، وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا لم تجيء مرثيئهن أشد حرارة وأقوى تأثيراً ؟ .

سبب ذلك أن الانفعالات والعواطف كالطرب والغضب والحزن والفرح لا يتفجر منها الشعر ساعة احتدامها « لأن الانفعال القوى يعقد اللسان ، ويشل التفكير ، ويشغل عما عداه . فالشاعر لا يقول الشعر إلا بعد أن يصحو من شرابه ، وبعد أن يهدأ من غضبه ، إذ تصفو قريحته ، ويستطيع الخلق ، وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور السكّانة ، وإذا فهو لا يقول إلا عن روية » (١) .

والنساء يفشان حزنهن بالدموع الغزار الحرار ، وبالآهات والانات والبويل ، وبالصمت الحزين والاستغراق الأليم والذكرى الموجعة ، فإذا ما عمدن إلى القريض متحن من عاطفة قد تنفّست ، وأوين إلى لغة كان البكاء والنشيج والدمع السخين أطوع منها وأصدق تعبيراً .
٢ — وفي كثير من مرثي الشواعر تصوير لما أصابهن من ذلة وضعف بعد فقد من فقدن ، كقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية في رثاء أبيها :

قد كنت لي جبلاً ألوذ به فتركتني أضْحَى بأجرد ضاح

قد كنت ذات حمية ما عشت لي أمشي البرازَ وكنت أنتَ جناحي
فاليوم أخضع للدليل وأتق منه وأدفع ظلمي بالراح
وإذا دعت قريةً شجياً لها يوما على فنن دعوتُ صباح
وأغض من بصرى وأعلم أنه قد بان حدٌ فوارسى ورماحي^(١)

وتعترف سلى بنت حريث النظرية بالذلة في رثائها زوجها زفر :

أصبحتُ نهياً لريب الدهر صابرة للذل أكثرُ تحنُّانا إلى زفر
إلى امرئ ما جد الآباء كان لنا حصناً حصيناً من اللأواء والغير
كان العباد لنا في كل حادثة تأتي بها نائبات الدهر والقدر^(٢)
وتعترف الحنساء بتضعضعها وحاجتها بعد صخر :

فقد خلى أبو أوفى خللاً على فكلها دخلت شعابي^(٣)
وتقول :

دق عظمى وهاض مني جناحي هلك صخر فما أطيع براحا^(٤)

وليس لهذا إثارة في رثاء الرجال وإن عظم حزنهم وأمضهم الهم ، كمرثية متمم بن نويرة لأخيه مالك^(٥) ، ومرثية الأبيرد بن المعدر الرياحي لأخيه بريد^(٦) ، ومرثية دريد ابن الصمة لأخيه عبد الله^(٧) ، ومرثية المهمل لأخيه كليب^(٨) ، ورثاء أبي ذؤيب الهذلي لبنيه^(٩) ، ورثاء أبي زبيد الطائي لابن أخته^(١٠) ومرثية أوس بن حجر لفضالة بن كعدة^(١١) .
٣ — وهن أكثر من الرجال ذكر اللوعة ، وأكثر حديثاً عن البكاء والدموع والوجيعه ؛ لأن ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى في تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء .

(١) الأمل ١/٢ وشرح الحماسة للتبريزي ١٨٩/٢ وتنبيهات الأمل ٧٨ ورجح ماروي عن أبي العلاء أن الرواية الصحيحة (شجياً) أي فرخها الهالك وهو الهدل والشجب بفتح الجيم الهلاك وبكسر ها الهالك
(٢) بلاغات النساء ١٨١ (٣) الديوان ١٤ أبو أوفى : كنية صخر (٤) الديوان ٣٤
(٥) المفضليات ٦٥/٢ والأمل لليزيدي ١٨ مخطوط (٦) مرات وأشعار لليزيدي مخطوط والأمل ٢/٣ (٧) شرح الحماسة للتبريزي ١٥٦/٢ والأمل لليزيدي ٣٥ (٨) الأمل للقالى ١٢٩/٢ والأمل لليزيدي ١١٦ (٩) حماسة الخالدين ٣٨٧ مخطوط (١٠) الأمل لليزيدي ٧-١٣ (١١) ديوان أوس بن حجر ٢٢

فمثلاً تقول الخنساء :

تقول نساء شبت من غير كبرة وأيسر مما قد لقيت يُشيب
أقول أبا حسان لا العيش طيب وكيف وقد أفرزت منك يطيب ؟
ذكرتك فاستعبرت والصدر كاظم على غصة منها الفؤاد يذوب
لعمري لقد أوهيت قلبي عن العزا وطأطأت رأسي والفؤاد كئيب
لقد قُصمت مني قناة صليبة ويُقَصِّمُ عود النَّصْبِ وهو صليب (١)

فهى تتحدث عن شديها قبل أوان الشيب ، وعن مرارة حياتها ، وعن دموعها وغصتها ، وحرقة فؤادها ، وعن عجزها عن التصبر ، وكآبة قلبها وطأطأة رأسها ، ثم عن فقدانها سندها الذى كانت تعتمد عليه .

وتقول أيضاً :

ألا يا عين فانهمرى بغزر وفيضى فيضةً من غير نزر
ولا تعدى عزاء بعد صخر فقد غلب العزاء وعيل صبرى
لمرزةً كأن الجوف منها بعيد النوم يُشعرُ حرَّ جمر (٢)

وتقول :

دق عظمى وهاض منى جناحى هلك صخر فما أطبق براحا (٣)
وتقول فى توالى دموعها :

ألا ما لعينى ألا مالهـا لقد اخضل الدمع سربالها (٤)
وتقول أيضاً :

قدى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهاها الدار (٥)
وإذا ما نصب دمعها ، ورقأت جفونها استمطرتها وحثتها على التسكاب :
يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذا راب دهر وكان الدهر ربابا (٦)

(١) الديوان ١٥ النصب : العلم المنسوب أو عود النبع وهو شجر تتخذ منه القسي . أبو حسان : كنية لصخر (٢) الديوان ٦٧ غزر : دمع غزير . نزر : قلة . عيل : غلب . مرزئة : مصيبة . يشعر : ياهق به (٣) الديوان ٣٤ دق عظمى : هزل . ما أطبق براحا : لا أستطيع التحول من مكان إلى آخر (٤) الأغاني ٦٩/٨ والديوان ٢٠١ (٥) الأغاني ١٣/١٣١ (٦) ديوان الخنساء ١

وتقول :

يا عين جودى بدمع منك مسكوب كلؤلؤ جاء فى الأسماط مشقوب ^(١)
وكذلك تقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية :

يا عين جودى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح ^(٢)
وتقول صفية بنت مسافر فى بكاء أهل القلب الذين أصيبوا يوم بدر من قریش :
يا من لعين قذاها عائر الرمد حدّ النهار وقرن الشمس لم يقدر
.....

قوى صفى ولا تنسى قرابتهم وإن بكيت فما تبكين من بعد ^(٣)
وتقول سليمة بنت المهمل فى رثاء أخيها :

أعني جودا بالدموع السوافح على فارس الفرسان فى كل صافح
أعني إن تقف الدموع فأوكفا دما بارفضاض عند نوح النوايح
ألا تبكيان المرتجى عند كل مشهد يثير مع الفرسان نفع الأباطح ^(٤)

أما الرجال فإنهم يتجلدون ويفاخرون بتجلدهم ، كأنس بن مدركة الخثعمى فى قوله :
كم من أخ لى كريم قد جُفعت به ثم بقيت كأنى بعده حجر
لا أستكين على ريب الزمان ولا أغضى على الأمر يأتى دونه العذر ^(٥)
وقول عمرو بن معد يكرب :

كم من أخ لى صالح بواته ييدى لحدا
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا
ما إن جزعت ولا هلعت وما يرد بكأى زندا ^(٦)

ونجد بعض الرجال يعرضون البكاء عرضاً سريعاً عجلاً ، كقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

(١) الديوان ١٢ (٢) الحماسة البصرية ٩٥ (٣) سيرة ابن هشام ٤١٧/٢ العائر : وجع العين
(٤) مرآئى شواعر العرب ١٨ صافح : ضارب بعرض السيف .
(٥) حماسة البحتري ١٩٢ (٦) حماسة البحتري ١٩٣ وشرح الحماسة للتبريزي ٩٢/١

فَعَيْنِي هَلَا تَبْكِيَانِ لِمَالِكِ
أَبِي الصَّبْرِ آيَاتُ أَرَاهَا وَأُنِي
وَأَنِي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تَجِبُ
وَأَنِي وَإِنْ هَازِلْتَنِي قَدْ أَصَابَنِي
وَقَوْلُ مَهْلَهْلٍ فِي رِثَاءِ كَلِيبِ :

أَبْتُ عَيْنَايَ بَعْدَكَ أَنْ تَكْفَأَ
كَأَنِّي إِذْ نَعَى النَّاعِي كَلِيبًا
فَدُرْتُ وَقَدْ عَشَا بِصَرَى عَلَيْهِ
وَأَيُّ فَجِيعَةٍ يَفْجَعُ بِهَا رَجُلٌ أَقْسَى مِنْ أَنْ يَفْقِدَ بَنِيهِ الثَّمَانِيَّةَ ؟

لَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْكَارِثَةُ بِأَبِي ذَوْيْبِ الْهَذَلِيِّ فَلَمْ يَتَضَعَّضْ كَمَا تَتَضَعَّضُ الْمَرْأَةُ ، فَبَكَى وَبَحَثَ
عَنْ بَكَائِهِ فِي إِيجَازِ شَمِّ تَجَلَدِ :

أَوْدَى بَنِيَّ فَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً
سَبَقُوا هَوًى وَأَعْنَقُوا لَهْوَاهُمْ
فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشُ نَاصِبِ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بَأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ
وَإِذَا الْمُنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنْ جَفَوْنَهَا
وَتَجَلَدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيهِمْ
وَلَقَدْ أَرَى أَنْ الْبَكَاءَ سَفَاهَةٌ
بَعْدَ الرِّقَادِ وَعِبْرَةٌ مَا تَقْلَعُ
فَتَخْرُمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
وَإِخَالُ أَنِّي لَأَحِقُّ مُسْتَتَبِعِ
وَإِذَا الْمُنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ
أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
سُمِلْتُ بِشَوْكٍ فَهِيَ عَوْرًا تَدْمَعُ
أَنِّي لَرِيْبُ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعَّضُ
وَلَسَوْفَ يُولَعُ بِالْبَكَاءِ مَنْ يُفْجَعُ (٣)

وَلَقَدْ رَأَى الْأَبِيرْدُ بْنُ الْمَعْدَرِ الرِّيَاحِي أَخَاهُ بُرَيْدًا فَتَفَجَّعَ وَتَوَجَّعَ وَلَكِنْ فِي رَجُولَةٍ كَقَوْلِهِ :
تَطَاوَلَ لَيْلِي لَمْ أَنْمِهِ تَقْلِبًا
أَرَأَيْتَ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ نَجْوَاهُ
كَأَنَّ فَرَاثِي حَالٍ مِنْ دُونِهِ الْجَمْرِ
لَدُنْ غَابِ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى بَدَا الْفَجْرِ

(١) المفضليات ٦٧/٢ و ٦٩ وجهرة أشعار العرب ٢٩٢ (٢) أخبار المراقسة ٤٨ شفار :
أَيُّ جَفَوْنَهَا وَأَشْفَارَهَا كَشَوْكُ الْقَتَادِ فَلَا تَنْطَبِقُ . عَشَا : مِنْ بَابِ رَضِيَ وَدَعَا أَيُّ عَمِي
(٣) جمهرة أشعار العرب للقرشي ٢٦٤

تذكرت علقاً بان مناصره
فإن تكن الأيام فرقن بيننا
وكننت أرى هجراً فراقك ساعة
أحقا عباد الله أن لست لاقياً
فلما نعى الناعي بُريداً تبدلت
إلى الله أشكو في بُريد مصيبي

٤ — ولقد يعبرن تعبيراً نسويًا يكثر دورانه على السنة النساء ، كقول الخنساء :
تعرّقى الدهر نهساً وحزاً وأوجعنى الدهر قرعاً وغمزاً (٢)
فكلمة [أوجعنى] تكاد تكون من لغة المرأة .

وكذلك تكرر كلمة (لهفى) فى قولها :
لهفى على صخر فإنى أرى له
لهفى على صخر لقد كان عصمة
وفى قولها :

فيا لهفى عليه ولهف أمى
وتعبر بكلمة (ولى) :

وىلى عليه ويلةً أصبحت حصنى منكسر (٥)
وتقول ناجية بنت ضمضم المريّة فى رثاء أخيها هرم :

يا لهف نفسى لهفة المفجوع
من أجل سيدنا ومصرع جنبه
ألا أرى هرمًا على مودوع
علق الفؤاد بحنظل مجدوع (٦)

٥ — ويمتاز رثاؤهن بندرة الحكمة فيه ، على أن فى رثاء الرجال أحياناً حكمة متصلة
بالموت وأحداث الدهر وفواجعه ، كقول أبى ذؤيب :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
وإذا المنية أقبلت لا تدفع

(١) مراث وأشعار لليزيدى مخطوط ٨١٦ (٢) الديوان ١٤٣ وأمالى ابن الشجرى ٢١٥/١
نهساً : نهشاً . قرعاً : ضرباً على الرأس . غمزاً : نخساً باليد (٣) الديوان ٢١
(٤) الديوان ١٥٣ (٥) الديوان ١٢٤ (٦) لسان العرب ٢٦٤/١٠ والأغاني ٣٠/١٦
مودوع : اسم فرسه . حنظل مجدوع : حنظل وييل وخم يميت

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تيممة لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغبتهها وإذا تُردُّ إلى قليل تنفع
والدهر لا يَبْقَى على حدثانه مستشعرٌ خلقَ الحديد مقنّع^(١)
وقول أبي زبيد الطائي في رثاء ابن أخيه الجلاح :

إن طول الحياة غير سُعود وضلالٌ تأمِل طول الخلود^(٢)
وقول الغنوي في رثاء أخيه :

لعمركا إن البعيد لما مضى وإن الذي يأتي غدا لقريب^(٣)
ولم أجد في مرثيتهم من الحكمة إلا قليلا جدا ، كقول عمرة أخت عمرو ذي الكلب في رثائه :

كل امرئٍ بمحال الدهر مكذوب وكل من غالب الأيام مغلوب
وكل قوم وإن عزوا وإن كثروا يوما طريقهم في الشر دُعبوب
وكل من غالب الأيام من أحد مودٍ وتابعه الشبان والشيب^(٤)
وكذلك هذه الأبيات من رثاء سعدى الجهنية لأخيها أسعد بن الشمر دل :

ولقد بدالى قبلُ فيما قد مضى وعليت ذاك لو أن علما ينفع
أنّ الحوادث والمنون كلاهما لا يُعتَبان ولو بكى من يَجزع
ولقد عليت بأن كل مؤخر يوما سبيل الأولين سَيَتَبَّع
ولقد عليت لو أن علما نافع أن كل حى ذاهب فودّع^(٥)

وقول الخنساء :

أرى الدهر يرمى ما تطيش سهامه وليس لمن قد غاله الدهر مرجع^(٦)

ولعل ذلك راجع إلى أنهم يستغرقن في الرثاء لا يلوين على غيره كما يفعل الرجال ، وإلى أن المرأة تنجح إلى التخصيص ، والرجل ينجح إلى التعميم ، فنظرتها شاملة ، ونظرتها جزئية ، ونظرتها قاعدة مجردة ، ونظرتها فردية محددة .

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٦٥ (٢) الأمالى للزبيدي ٧ مخطوط ، وجمهرة أشعار العرب ٢٨٦
(٣) جمهرة أشعار العرب ٢٧٤ وذكر القرشي أن اسمه محمد بن كعب وفي خزانة الأدب للبغدادى
أن اسمه كعب بن سعد الغنوي ، وفي لسان العرب أن اسمه ابن سويد الغنوي (٤) حماسة البحترى ٤٢٩
ولسان العرب مادة دعب ورياض الأدب ٧٦ دعوب : طريق مذل موطوء مساوك (٥) لسان العرب
١٠٩/٩ و٣٧٩ و١٣/٣٦٩ ورياض الأدب ١٣٢ (٦) الديوان ١٦٣

يقول بعض الباحثين إن المرأة بوحى عام ، تجذب انتباهها حادثة ما أكثر من فكرة ما ، والرجال يهتمون بعلاقات الأشياء أكثر من اهتمامهم بالأشياء ذاتها . وهذا الرأى يتفق مع رأى جون ستيوارت مل ، لأنه رأى أن المرأة تفكر فى الأشياء على أنها جزئيات منفصل بعضها عن بعض ، ولا تفكر فيها على أنها مجموعات متصلة مترابطة (١) . ثم إن المرأة أقوى وأحد من الرجل عاطفة ، وعاطفة حزنها تتجلى فى هلعها وجزعها وعويلها ونحيبها ، وصياحها برزتها . وليس هنا مجال للحكمة ، لأن الحكمة وليدة العقل والتفكير ، وهذه العاطفة الملتهبة تقضى على العقل والتفكير .

وقد تزعمت الخنساء شواعر الجاهلية والإسلام فى الرثاء ، لكثرة ما رثت أخويها ، ولجوذة مرثياتها ، وحرارة عاطفتها . وقد أنشدت الخنساء النابغة بسوق عكاظ بعد أن أنشدته الأعشى وحسان — وكانت له قبة حمراء تأتبه فيها الشعراء فتندشه — فقال لها : ما رأيت ذا مثانة أشعر منك . فقالت ولا ذا خصيتين (٢) .

وروى أنها أنشدته قصيدتها التى مطلعها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار

حتى انتهت إلى قولها :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وإن صخرًا لمولانا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشئوا لنحار

فقال لها : لولا أن أبا بصير — يريد الأعشى — أنشدنى آنفًا لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة . فغضب حسان وقال : والله لآنا أشعر منك ومنها ومن أهلك ومن جدك (٣) .

ويظهر أن حساناً أراد فيما بعد أن يهون من حكم النابغة ، فقد روى عنه قوله : جئت نابغة بنى ذبيان فوجدت الخنساء حين قامت من عنده ، فأنشدته ، فقال إنك لشاعر وإن أخت بنى سليم لبكامة (٤) .

(١) نفسية المراهق ٤٦ رياض عسكر (٢) الشعر والشعراء ٣٠٢/١ شاكر (٣) الأغاني ١٥٦/٩ و ١٨٨/٨ وبلاغات النساء ١٦٩ وفى الشعر والشعراء ٣٠٢ طبعة شاكر أن حساناً غضب هذه الغضبة لما فضل النابغة الأعشى عليه . ومن معاني المثانة موضع الولد من الأنثى (٤) الأغاني ١٦٧/٤

وقد اعترف بعض القدماء للخنساء بإجادة الرثاء ، واعترفوا بقدره بعض النساء .
يقول أبو العباس : كانت الخنساء وليلى بائنتين في أشعارهما ، متقدمتين لا كثر الفحول ، ورب
امرأة تتقدم في صناعة ، وقلبا يكون ذلك . ثم ذكر أن الجاحظ كان يحضر ذهنه ، ويجمع نفسه
حين تحدثه هاشمية جارية حمدونة ، مخافة أن تورد عليه ما لا يفهمه ، لبعده غورها واقتدارها .
وكان بشار يقول : لم تقل امرأة شعراً إلا تبين الضعف فيه . فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟
فقال : تلك كان لها أربع ^(١) خصى . وقد ذكر ثعلب بيتاً لها فيما سماه الأبيات الغرّ واحدها
أغرّ ، وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه ، وكان لو طرح آخره لأغنى أوله
بوضوح دلالاته — وهو :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وذكر لليلي الأخيلية بيتاً هو :

قوم رباط الخيل حول بيوتهم وأسنة زرق يُخْلَبُ نجومًا ^(٢)
وبعد . فإن رثاء المرأة لابنها وزوجها وأبيها وأخيها وقومها دليل على سمو خلقها وعلو
مكانتها عند العرب في الجاهلية ، لأنها في نظرهم جديرة برثاء الموتى والإشادة بفضلهم ^(٣) ،

(١) تهذيب الكامل ١٩٠/٢ (٢) قواعد الشعر لثعلب ٣١

(٣) Nicholson P. 89

التحميس على القتال وعلى الثأر

١ — عاش العرب في حروب تتوالد، وغارات تتوالى، فكثرت فيهم القتل والجرح والأسر والغنى، وطبعى أن يجد المهزوم على هازمه، وكانت نار موجدته لا تنطفىء إلا بأن يثأر لنفسه. لهذا كان العرب كلفين بالثأر أيما كلف، يحرمون اللذات من خمر ونساء وطيب حتى يدركوا وترهم وإن كان الواتر قريباً.

وكانت النساء دائبات على إشعال الحفيظة للثأر، وكن لا يفترن عن تذكير الرجال به، وحضهم عليه بوسائل شتى. ولعل الرجال لم يكونوا بحاجة إلى هذا الحض، وإنما أرادت النساء أن يشركوهن في التلهف على إدراك الثأر والتشوف لغسل الدم ومحو العار، لأن المنفعل في حاجة إلى أن يشعر بمشاركة غيره له في انفعاله، ولا تشد عواطف العداوة عن هذا، فنحن نحرض الحرس كله على استمالة الآخرين إلينا في غضبنا وفي كراهيتنا، ولا ترضى هاتان العاطفتان إلا إذا قام حكم غيرنا على صدق الدافع إلى الغضب والكراهية، ونحن لا نمل البرهنة على وجاهة الأسباب التي دفعت إلى البغض أو الكراهية، ومعنى هذا أننا لا نمل من محاولة إقناع الآخرين بأنه لا بد أن يشعروا بما نشعر^(١).

٢ — وقد قلن شعراً في التحريض على الحرب وتشجيع المقاتلين كما سبق في الحرب. وقلن شعراً يحرضن به على الثأر كما سبق في المرأة والثأر.

وكن يزدرين الدية وقابل الدية، تقول امرأة من ضبة لقومها: ارفضوا الدية، وأذيقوا خصومكم سلاحكم، فإن لم تفعلوا وتثأروا فلا حلبت نوقم لبناً:

ألا لا تأخذوا لبناً ولكن أذيقوا قومكم حد السلاح

فإن لم تثأروا عمراً يزيد فلا درت لبون بني رباح^(٢)

وقد حرضت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الزبيدية قومها على الثأر لأخيها عبد الله حين هم أخوها عمرو بقبول الدية، أو حين توهمت أنه سيقبلها، فنحدثت بلسان القليل مهتاجة حميتهم، ناهية عن قبول الدية وعن طاعة عمرو، منددة بهم إن لم يثأروا، مشبهة إياهم بالنعام في جنبه وفراره، ثم قالت لهم: وحيئذ أتم أذل الناس، فلا تردوا الماء إلا بعد أن تفرغ طوائف الرجال، والنساء الطاهرات ثم الحيض:

وأرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه لا تعقلوا لهم دمي
ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكراً وأنزل في بيت بصعدة مظلم
ودع عنك عمرا إن عمرا مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم ؟
فإن أنتم لم تثاروا واتديتم فمشوا بأذان النعام المصلم
ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم (١)
وبمثل ذلك حرصت بنت حكيم العبدية قومها (٢).

وكثيراً ما حرصت الخنساء على الثأر لآخيها صخر كقولها :

ولن أسالم قوما كنت حربيهم حتى تعود بياضا جؤنة القار
لا نوم حتى تعود الخيل عابسة ينبذن طرْحاً بمهرات وأمهار
أو تحفزوا حفزة والموت مكتنع عند البيوت حصينا وابن سيار
فتغسلوا عنكم عارا يجلكم غسل العوارك حيضا بعد أطهار (٣)

ولقد كان تحريضها مستجاباً دائماً ، لأنه صادف هوى من نفوس الثائرين ، ولأنه حث من المرأة على الشجاعة وهي طبيعة في العرب ، ثم هم تواقون إلى أن يحققوا أمل المرأة في شجاعتهم . فلقد حرصت كنزة أم شملة بن برد المنقري ولدها شملة على الثأر بقولها : إني واثقة من شجاعة ابني وثأره من خصومنا ، فاستجاب لها وثأر :

إن يك ظني صادقا وهو صادقي بشملة يحبسهم بها محبسا أزلا
فيا شمل شمر واطلب القوم بالذي أصبت ولا تقبل منهم قصاصاً ولا عقلاً

(١) شرح التبريزي للحماسة ١١٧/١ وحماسة البحترى ٣٠ والأمالى ٢٢٦/٢ قال التبريزي : «مشوا أى امشوا ، ومن روى مشوا بضم الميم فعناه امسحوا . والمعنى إن لم تقتلوا قاتلي وقتلتم ديتي فامشوا أذلاء بأذان مجدعة كأذان النعام . ووصف النعام بالمسلم تصغيراً لها وإن كانت خلقة . يقول كأنكم ممتعون ليست لكم أذان تسمعون بها فامشوا صمّاً عما يتكلم به الناس من عيبكم . وفي لسان العرب رواية بفتح الميم ورواية بضمها . قال : والظلم مسلم الأذنين وصفاً بذلك لصغرهما وقصرهما . فاذا أطلق على الناس فإنما يراد به الدليل المهان (اللسان مادة سلم ومش) ولا شك أن فتح الميم أولى

(٢) حماسة البحترى ٣٥ (٣) ديوان الخنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تطعنوا . مكتنع : دان . حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار المريين . العوارك : الحوائض

وقالت أيضاً :

لهني على القوم الذين تجمعوا بنى السيد لم يلقوا عليا ولا عمرا
فإن يك ظني صادقي وهو صادقي بشملة يجلسهم بها محبسا وعرا^(١)
وإذا ما هزم قومها قرعتهم ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة بن مكدّم جمع
غامد وحده :

ألا هل أتاها على نأيتها بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتي فارس فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيول ضائنا لها حال قاعد^(٢)

ولقد تهدد أعداءها وتوعدهم بالغارة ، كقول امرأة من بني عامر :

وحرب يضج القوم من نفيانها ضجيج الجمل الجلة الدبرات
سيتركها قوم ويصلي بحرها بنو نسوة للشكل مصطبرات
فإن يك ظني صادقا وهو صادقي بكم وبأحلام لكم صفرات
تعد فيكم جزر الجزور رماحنا ويمسكن بالأكباد منكسرات^(٣)

ولقد تشيد بمن يشفي حنقها فيشار لها ، كما شادت الخنساء بقيس بن عامر الجشمي إذ
قتل هاشم بن حرملة الذي قتل أخاها معاوية ، فمدحته وفدته بنفسها وبأعزائها جميعاً وببني
سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ، وذلك لأنه أقر عينها فذاقت النوم بعد الأرق الطويل :

فدنى للفارس الجشمي نفسه أفديه بمن لي من حميم
أفديه بكل بني سليم بظاعنهم وبالأنس المقيم
كما من هاشم أقررت عيني وكانت لا تنام ولا تنيم
خصصت بها أخوا الأمرار قيسا فتي في بيت مكرمة كريم^(٤)

(١) شرح الحماسة للتبريزي ١١٨/٢ . أزلا : سجنأ دائما . لا تقبل قصاصا : لا تقبل واحداً بواحد .
العقل : الدية . السيد : اسم موضع (٢) البيان والتبيين ٢٠٨/١ (٣) شرح الحماسة للتبريزي
١٣٢/٢ وأشعار النساء للمرزباني . نفيانها : المراد ما يتطير من دمائها . الجلة : المسنة . الدبرات :
جمع دبرة وهي التي بها قرحة . أحلام صفرات : عقول ضعيفة وهذا تهديد لهم وتوعد . تقول إن صدق
ظني في فساد عقولكم وعدتم لما نكره عادت رماحنا تقتلكم في سرعة ونصيب مقاتلكم وأكبادكم .
(٤) ديوان الخنساء ٢٣١ وبلاغات النساء ١٦٧ والأغاني ١٤٠/١٣ ولسان العرب ٧٨/١٦

وكن يشتمين بالثأر ، ويجدن فيه تضميدا لجراحهن . تقول الخنساء لعامر الجشمي :

كما من هاشم أقررت عيني وكانت لا تنام ولا تنيم^(١)

وتحدث صفية بنت الخرج عن حبتها بقتل عبد يغوث ثأرا للنعمان بن جساس :

لقد أخذنا شفاء النفس لو شفيت وما قتلنا به إلا امرأ دونه^(٢)

وكذلك تتحدث خرنق إذ نكل قومها ببني أسد ، وثأروا زوجها بشر :

فقد قطعت رءوس بني قعين وقد نُقعت صدور من شراب^(٣)

٣ - أما الرجال فكانوا يهددون الأعداء بالثأر لا يدعون غيرهم إليه غالباً ، بينما كانت

النساء في الغالب محرضات لرجالهن محسسات ، يكن إليهم تحقيق الثأر ، لأنهم عليه أقدر .

فمثلاً يقول المهمل في رثاء كليب :

خذ العهد الأكيد على عمري بتركي كل ما حوت الديار

وهجري الغانيات وشرب كأس ولبسي جبة لا تستعار

ولست بخالع درعي وسيني إلى أن يخلع الليل النهار

وإلا أن تبسد سراة بكر فلا يبقى لها أبداً آثار^(٤)

فهو يحرم على نفسه كل طيب ، ويهجر الغواني والخنز ، ولا يغير ملبسه ، ولا يخلع درعه

أو يلقى سيفه حتى يثار ثأراً يشفي .

ويقول دريد بن الصمة :

شئت يميني ولم أشرب معتقة إن أخطأ الموت أسماء بن زُبَاع

وكان عصمة بن حذرة اليربوعي قد نذر ألا يطعم لحماً ، ولا يشرب خمرأ ، ولا يمس

امرأة ، ولا يغتسل حتى يقتل من بني عبس سبعين رجلاً بابن عم له ، فلما قتلهم قال :

الله قد أمكنني من عبس ساغ شرابي وشفيت نفسي

وكنت لا أقرب طهر عرسي وكننت لا أشرب فضل الكأس

ولا أشد بالوخاف رأسي^(٥)

(١) الديوان ٢٣١ (٢) الأغاني ٧٣/١٥ (٣) ديوان الخرنق ٧ مخطوط

(٤) أخبار المراقبة وأشعارهم ٤٩ وشعراء النصرانية ١٦٤ (٥) معجم الشعراء للرزباني ٢٧٤

الوخاف : الخطمي يغسل به الرأس

وهذا الاتجاه كثير في شعر الرجال مثل امرئ القيس ^(١) ، وتأبط شراً ^(٢) ، والمثلّم ابن عمرو والتنوخي ^(٣) ، وزيادة الحارثي ^(٤) .

الهجاء

١ — كان الهجاء فناً شعرياً عظيم القيمة والخطر في الحياة الجاهلية ، لأنه حرب لسانية لا بد منها مع حرب الرمح والسنان ، تسبقها آنا وتمهد لها ، وتصاحبها آنا فتوجب أوارها ، وتلحقها حيناً فتزيد الحزاية والنكال . وقد كان إلقاء الهجاء يصحب أحياناً بمظهر خاص للشاعر ينبئ عن الشر والغضب ، كأن يجمع شعر رأسه في ناحية ، أو يدلي عباءته في غير اتساق وانتظام ، أو يفتعل قدماً واحدة ويترك الأخرى . كما فعل لبيد بن ربيعة العامري حين هجا الربيع بن زياد العبسي في مجلس النعمان بن المنذر ^(٥) .

وكذلك كان الهجاء عند الأمم الأخرى عظيم الأثر أيضاً ، حتى لقد تنسب إلى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تلخص في كلمة الهجاء La Satire ، وهذه الكلمة لا تثير في أذهاننا نحن المتحضرين غير فكرة أنه تمرين أدبي عدا عليه الزمن بعض الشيء ، ولكنه كان في وقت ما يتقمصه ساحر ، وكانت لعنته فادحة تصيب من توجه إليهم ، ونحن نعرف ما كان لأهاجي أرشيلوك من نتائج . فهذا العاشق المطرود قد استطاع بقصائده الهجائية أن يلقى اليأس في قلب والد معشوقته وأن يقوده إلى الانتحار . وأقصى من ذلك أنه استطاع أن يفعل مثل هذا مع الفتاة نفسها . ورواة هذه القصة يحكونها على أنها أسطورة تشيد بموهبة أرشيلوك لا بخلقه ، ولكن ليس من العدل أن نعتقد ذلك ، بل يجب أن نأخذها بنصها وحرفها ، فالحق أن أرشيلوك قضى بالموت على لسكبيس L'yeambés ونيوبولييه Néobule إذ قذفهما بلعنة سحرية لم يستطيعا منها خلاصاً . وأن الشاعر الهجاء لم ينفصل عن الساحر الآثم إلا في العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية . وقد ظل الناس في كثير من الأقطار حيناً طويلاً لا يميزون بينهما ^(٦) .

(١) الديوان ١٥٢ وشعراء النصرانية ٩٣ (٢) شرح التبريزي للحماسة ١٦٠/٢

(٣) المؤلف والمختلف ١٨١ وشرح التبريزي للحماسة ١٨/٢ (٤) شرح التبريزي ١٣٠/١

(٥) أمالي المرتضى ١٣٥/١ (٦) اللغة . ج فندريس ٢٣٨ ترجمة الدواخلي والقصص

ولكن لم يرد عن العرب أنهم أضفوا على الشاعر الهجاء خصائص الساحر أو خصائص الكاهن كما ذهب نيكلسون في قوله « وكانوا يعتقدون أن الهجاء الذي يوجهه الشاعر للأعداء شديد الأثر والخطورة ، وكان لقوافيه التي تشبه بالرماح الأثر الذي للجنة التي يرسلها نبي أو قسيس ملهم ^(١) .

٢ — وقد شاركت النساء في الهجاء على ندرية وإيجاز ، وتختلف قاص عن الرجال . وكان الباعث عليه إما ردًا على مثله ، وإما ضيقاً بعمل ، أو بغضة لشخص . فمثلاً لما خطب دريد بن الصمة الخنساء ، ورفضته قائلة : ما كنت لأدع بني عمي وهم مثل عوالى الرماح وأنزوج شيخاً ، سخط عليها وهجاها بقوله :

وقاك الله يا بنـة آل عمرو من الفتيان أشباهى ونفسى
وقالت إننى شيخ كبير وما نبأها أنى ابن أمس
فلا تلدى ولا ينكحك مشلى إذا ما ليلة طرقت بنحس
تريد شربنت القدمين شئنا يباشر بالعشية كل كرس
فأجابته بقولها :

معاذ الله ينكحنى حبركى قصير الشبر من جشم بن بكر
يرى شرفاً ومكرمة أتاها إذا أغذى الجليس جريم تمر
ولو أصبحت فى جشم هدياً إذا أصبحت فى دنس وفقر
قبيلة إذا سمعوا بدعر تخفى جمعهم فى كل حجر ^(٢)

فرمته بضعف الجسد ، وبطء المشية ، والشيوخوخة ، وبالبخل ، وذمت قبيلته بالجين . وفى الأغاني رواية أخرى ^(٣) أنها رفضته وقالت لأبيها :

أتخطبنى هبلت على دريد وقد أطردت سيد آل بدر
معاذ الله الأبيات

(١) Nicholson P. 78

(٢) الديوان ١٢٠ والأغاني ١٣/١٣٠ ولسان العرب ٢٩/١٢ طرقت بنحس : جاءت بظلمة وغبرة والمراد إذا حدثت حرب . شربنت : غليظ . شئنا : غليظ الكفين أو الأصابع . الكرس : البعر والبول المتجمد . حبركى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيفهما يكاد يكون مقعداً . القصير الشبر : المتقارب الخطو . جريم تمر : تمر يابس (٣) الأغاني ١١/٩

وفي الديوان أنها قالت هذا القول لأخيها معاوية وكان يريد أن يكرها على زواج دريد^(١) . ولكني أرجح أن دريداً هو الذي بدأها بالهجاء ، وأوثر الرواية الأولى لأبي الفرج ، لأن دريداً قد تغزل فيها وتمناها فكان حسبها أن تقنع برده ورفضه ، وليس هناك باعث على الهجاء ، فلما هجاها هجته . ثم إنها كانت لا تهجو إلا من يستحق هجاءها ، روى أن حسناً قال لها يوماً : اهجي قيس بن الخطيم . فقالت : لأهجو أحداً أبداً حتى أراه . فجاءته فوجدته في مشرفة ملتفاً في كساء ، فنخسته برجلها ، وقالت : قم ، فقام ، فقالت : أدبر ، فأدبر ، ثم قالت : أقبل ، فأقبل ، وكأنها تعرض عبداً تشتريه ، ثم عاد إلى حاله نائماً ، فقالت : والله لأهجو هذا أبداً^(٢) . وهذه الرواية على ما فيها من مبالغة تكشف عن طبيعة الخنساء أنها كانت لا تبدأ بالهجوم ، ولا تهجو إلا من يستحق هجاءها .

وقد استشاط حزن دخنوس على أبيها لقيط بن زرارة إذ قتل في يوم شعب جبلة ، وكان لواء الرباب ذلك اليوم مع رجل من أشراف الرباب يقال له النعمان بن قهوس التيمي ، وكان من فرسان العرب ، ففر وترك لقيطاً فقتل ، فهجته دخنوس بقولها :

فَرَّ ابْنُ قَهْوسٍ الشَّجَا عَ بَكَفِهِ رَمَحَ مِثْلُ
يَعْدُو بِهِ خَاظِي البُضِيعِ كَأَنَّهُ سَمْعٌ أَزَلُّ
إِنَّكَ مِنْ تَيْمٍ فَدَعِ غُطْفَانَ إِنْ سَارُوا وَحَلُوا
لَا مِنْكَ عَدُهُمْ وَلَا آبَاكَ إِنْ هَلَكُوا وَذَلُوا
غُفَرَ الْبَغْيِ بِحَدِّجِ رَبَّتِهَا إِذَا النَّاسُ اسْتَقَلُّوا
لَا حُدُجَهَا رَكِبْتُ وَلَا لِرَغَالٍ فِيهِ مُسْتَظَلُّ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَاكَ وَسَطَ الْقَوْمِ يَبْزُو أَوْ يَحُلُّ
مَتَقَلِّدًا رَبَّقَ الْفَرَا رَ كَأَنَّهُ فِي الْجِيدِ غُلُّ^(٣)

فتهمت به إذ وصفته بالشجاعة ، وهجته بالجبن والفرار السريع ، ثم حقرت من شأنه بأنه من تيم فلا يحدر أن يلتحق بغطفان ، وقالت له إن غفسه وغفر قومه بغطفان كالامة

(١) الديوان ١١٩ (٢) الأغاني ١٠/٣ الدار

(٣) الأغاني ١٠/٣٤ ساسي وسمط اللآلي ٨٣٥/٢ والنقائض ٦٥٦ (روى البيت : ولا لرغال فيه مستظل) . مثل : مستقيم قوى منتصب . خاظي البضيع : مكتر . السمع : ولد الذئب من الضبع . ويزعمون أنه في عدوه أسرع من الطير . أزل : أرسح سريع خفيف الوركين . رغال : الأمة . ييزو : يبرز عجزه أو ينحن ظهره . الربق : حبل البهم . الفرار : الخرفان والحملان . يحل : يلقط البعر بيده

التي تفخر بسيدتها لا بنفسها ، ثم عيرته حقارة أبيه فقالت : إنها رأته جباناً يخضع ويخضع ، ويجمع البعر ، وإنه لا يصلح إلا لرعى الغنم حين يضع جبالها في عنقه كالغل ، فهو عبد حقير . وكذلك هجت الحرنق عبد عمرو بن بشر حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند فقتله ^(١) ، ومن هجائها قولها :

ألا ثكلك أمك عبد عمرو أبا الخزيات واخيت الملوكا
هم ركوك للوركين ركلا ولو سألوك أعطيت البروكا
فيوما عند زانية هلوك كصل الرجع مزهرها ضحوكا ^(٢)

فهي تدعو عليه بالختف ، وتعجب من منادته عمرو بن هند وهو موصوم بالخزي ، وتحقر من شأنه بأن الملوك نبذوه وحقروه ورضى عن ذلك ، ولو أنهم سألوه أعز ما يملك لقدمه زلفى إليهم وخنوعا ، ثم تطعن أخلاقه بقولها إنه جلس مومسات يغشاهن ويسمع الغناء عندهن ، وتهجوه مرة أخرى فتذكره بحبسه عن الشر :

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه وأنضجه في غلى قدر وما يدرى
فهلّا ابن حساس قتل ومعبداً هما تركاك لا تریش ولا تبرى
هما طعنا مولاك في عطف صلبه وأقبلت ما تلوى على محجر تجرى ^(٣)
وكذلك هجت عاصية بنت عبد العزى الطائي بنى محارب ^(٤) .

ولقد تهجو المرأة من يخالفها في دينها ، كما هجت هند بنت عتبة رملة بنت شيبه بن ربيعة لما تزوجها عثمان بن عفان وهاجرت معه ، فعابت عليها إسلامها ، واتباعها دين من قتلوا أباه ^(٥) ، وكما هجت المسلمين والإسلام عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد فقال النبي : « ألا آخذلى من ابنة مروان ؟ » فسرى إليها عمير بن عدى الخطمي فقتلها ^(٦) .

ولقد كان المرتقب من المرأة أن تسكر هجاء ضررتها أو ضراتها ، لأن العداوة بين الضرائر متأصلة متفاقمة ، ولكن لم يرد من هذا الضرب إلا قليل ، ولعلها كانت تقنع بالكيد ، والإغارة ، والنظرات الشزر ، والكلمات المرة ، والحركات الساخرة .

(١) ديوان الحرنق ٤ مخطوط (٢) جبهة أشعار العرب ٤٣ . البروك : الإبل الباردة . صل : حبة . الرجع : الغدير (٣) ديوان الحرنق مخطوط . ابن حساس ومعبداً : رجلان غلباه . لا تریش ولا تبرى : كناية عن خذلانه وضعفه . عطف : جانب . محجر : موضع منخفض ذو ماء ومرعى .
(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٥٦/٤ (٥) الاستبصار في أنساب الأنصار ورقة ٣٢ مخطوط
(٦) سيرة ابن هشام ٣١٣/٤

ثم هي تأنف أن تسجل على نفسها أنها دون ضررتها ، وأن زوجها يؤثر ضررتها عليها ،
لذلك لا تهجوها حتى لا تكشف عن موجدتها ، أما سكوتها فإنه يؤول على أنها حظية عند
زوجها ، وأنها لا تحفل بضررتها ، وهذا من مكر النساء .

ومن هذا الهجاء ما قالت امرأة في هجاء أخرى قد خطبها زوجها :

لاخارَ ربي لأبي الفصيلِ
ولا وقاه عشرة الذلول
بدل مني أخبت البديل
هوجاء مقاء ككشبه الغول
تحمل ردفاً واسع الفضول
مثل إهاب المنحة المنجول
يبيت فيه الذئب أو يقيل^(١)

ولقد تحقد على زوجة ابنها فتهجوها ، وهجاؤها هنا كسابقه مقصور على تقبيح المنظر
والذم بالدمامة ، وبسوء الأخلاق .

من ذلك أن هند بنت عضم الدوسية حققت على امرأة ابنها يزيد فشكتها إلى زوجها في
هجاء مر يتناول أعز ما تفخر به المرأة : الجمال والأخلاق .

أيزيدُ قد لا قيتُ ممكرةً عجلتُ بأملك مدخلَ القبرِ
هوجاء جاهلة إذا نطقت ليست كعابا بيضة الخدرِ
سوداء ما تنفك متآقةً ملأى مضببةً على جمر^(٢)

وأحياناً كان الشر يخدم بين المرأة وزوجها فتقلبه وتهجوه ، لأنه أثارها وهاجها ، كما
نشزت أم الصريح بنت أوس السكندية على أبي الصريح الكلبي فقالت :

كأن الدار يوم تكون فيها علينا حفرة ملئت دخاناً

(١) بلاغات النساء لطيفور . الذلول : الجمل الطبع . بديل : خلف وفي الأصل البدول وهو تحريف .
هوجاء : حمقاء . مقاء : عارية من اللحم . ردفاً : كانت في الأصل رفقا وهو تحريف . الإهاب المنجول :
المشقوق عن العرقوين إلى الرأس ثم يسالخ . المنحة : الناقة أو الشاة الحلوب كانت في الأصل (الميعة)
وهو تحريف . (٢) بلاغات النساء ١٠٠ متآقة : مملوءة بالشر والغضب . مضببة على جمر : ممسكة به تريد
أنها شريرة مؤذية .

فليتك في سفين بني عباد طريدا لا نراك ولا ترانا
وليتك غائب بالهند عنا وليت لنا صديقا فاقمتانا
ولو أن النذور تكف منه لقد أهديتها مائة هجانا (١)

وكذلك فعلت أم الأسود، وحذرت النساء أن يتزجن مثل زوجها الجبان البخيل (٢)
٣ — وقد بقيت المرأة تمارس الهجاء في الإسلام كما مارسته في الجاهلية، فقد هجا
أبو وجزة زوجته زينب بنت عرفة فهجته في صدر الإسلام (٣)، وهجا عبدالله بن أوفى
الخراعي امرأته وهجته (٤)، وهجت حميدة بنت النعمان بن بشير أزواجها. ويظهر أن حميدة
هذه كانت كلفةً بالهجاء، فقد هجت زوجها الأول الحارث بن خالد بن العاص بن هشام (٥)،
وزوجها الثاني روح بن زنباع (٦)، وزوجها الثالث الفيض بن محمد بن الحكم (٧). ويدل
على ذلك أنها ولدت من الثالث — الفيض بن محمد بن الحكم — ابنة تزوجها الحجاج
ابن يوسف، فقد تمت على ابنتها زائرة، فقال لها الحجاج: يا حميدة إن كنت أحتمل مزاحك
مرة، وأما اليوم فإني بالعراق، وهم قوم سوء فإياك. فقالت: سأكف حتى أرحل (٨)،
وحميدة في هجائها لم تخرج على سنن الجاهلية من حيث الذم الجسدي كقولها في زوجها الحارث:
نكحت المديني إذ جاني فيالك من نكحة غاويه
كهول دمشق وشبانها أحب إلينا من الجالية
صنان لهم كصنان التيو س أعياء على المسك والغالية (٩)
فرد عليها بمثل هجائها:

قاطنات الحجون أشهى إلى قلبي من ساكنات دمشق
يتضو عن لو تضمخن بالمسك صنانا كأنه ريح مرق (١٠)
وهجت زوجها روح بن زنباع بقولها:
وهل أنا إلا مهرة عربية سليمة أفراس تجلها بغل

(١) بلاغات النساء ١١٨ (٢) بلاغات النساء ١٠٠ (٣) الأغاني ٧٦/١١ (٤) شرح الحماسة للتبريزي ٤٢/٤. (٥) الأغاني ١٣٢/٨ (٦) سمط اللآلي ١٧٩/١-١٨٠
والأغاني ١٣٣/٨ والاستبصار ورقة ١٢٦ مخطوط (٧) الأغاني ١٣٥/٨ وسمط اللآلي ١٨٠/١
(٨) الأغاني ١٣٥/٨ (٩) الأغاني ١٣٢/٨ الجالية: أهل الحجاز لأنهم كانوا يجلون عن بلادهم
إلى الشام (١٠) الأغاني ١٣٢/٨ المرق: بفتح الميم الإهاب المتن وبكسرهما الصوف المتن.

فإن أنتجت مهرأ كريماً فبالحري وإن يك إقراف فما أنجب الفحل^(١)

٤ — وقد اتسم هجاؤهن بالعفة في الجاهلية وفي الإسلام ، ففي العصر الإسلامي أخش النابغة الجعدي — وكان شاعراً قد عمر في الجاهلية طويلاً وأدرك الإسلام وعمر فيه أيضاً — في هجاء ليلي الأخيلية فردت عليه في غير إلفاش شديد^(٢) .

والذي لحظته أن هجاءهن في الإسلام كهجائهن في الجاهلية مقصور على الزراية بالجسد أكثر من الزراية بالأخلاق والطباع ، كقول زوجة قتادة بن معرب في هجائه : إن فيه قبيح ، وإن ريحه منتنة ، حتى لقد أتلقت هذه الرائحة أنفها وصماخى أذنيها :

حلفت — ولم أكذب وإلا فكل ما ملكت لبيت الله أهديه حافيه
لو أن المنايا أعرضت لاقتحمها مخافة فيه إن فيه لداهيه
فما جيفة الخنزير عند ابن معرب قتادة إلا ريح مسك وغاليه
فكيف اضطباري يا قتادة بعد ما شمت الذي من فيك أنأى صماخيه^(٣)

٥ — وهن لم يبرعن في الهجاء براعة الرجال ، لأنه لون من التهجم والتناول ، ومضغ الأعراض ، والسفه ، يجافى الأنوثة وينافى الحياء ، ولأن الرجال يبلون فيه أعظم البلاء ، فالقبيلة تعتمد شاعرها أو شعراءها لسانها البتار لعداتها ، المكافح عن مفاخرها ، المنافح عن حسبها وسؤدها ، يبلغونها ما تبلغها السيوف والرماح ، ولا طاقة للمرأة أن تنيل القبيلة مثل ذلك . ثم إن الرجال كانوا حماة للنساء ينشئونهن في الدعة والنعمة والحلية والرفه ، ويتخذونهن ثمراً حلوا لا شوكاً وقاتداً ، فمن الطبيعي أن يبعدوهن عن مضايق الهجاء ومحرجاته . على أن النساء كن يشعرن أنهن لسن قديرات على الهجاء ومقارعة الشعراء قدرة الرجال ، يدل على ذلك أنه لما هجا جرير بنى مجاشع وعيرهم ما حل بأعين بن ضبيعة والد زوجة الفرزدق اغتم نساؤهم ، — وكان الفرزدق قد حج وعاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً وأن يقيد نفسه ولا يحل قيده حتى يحفظ القرآن — فأتين الفرزدق فقلن له : قبح الله قيذك ، فقد هتك جرير عورات نساءك ، فلحيت شاعر قوم ، فأحفظنه ، ففض قيده ، وهجا جريراً^(٤) .

(١) الأغاني ١٣٤/٨ وسمط الآلي ١٧٩/١ وبلاغات النساء ٩٦ والعقد الفريد ١٦٩/٤ وأخبار النساء ٥٣ بغل : صوابه في رأى ابن سيده . نقل وهو الحسيس الذئ من الناس والدواب تريد الفرس الهجين . إقراف : هجئة من جهة الأب لا الأم (٢) الأغاني ١٦/٥ وسمط الآلي ٢٨٢/١ ولسان العرب مادة ذلغ (٣) شرح الحماسة للبريزي ٤٢/٤ أنأى : أفسد . (٤) النقائض ١٢٥ وطبقات الشعراء تحقيق شاكر ٣٢٧

أما في العصر العباسي فقد أخشن في هجائهن ، تأثراً بالترف وانهلال الأخلاق وضعف الشهامة العربية ، وكانت الإماء رائدات الفحش والحلاعة بالقول والعمل ، مثل عريب^(١) . وكذلك أخشن في الأندلس في أواخر الحكم العربي^(٢)

الفخر

كان فخر العرب بشجاعتهم وكرمهم وفضائلهم يدوى في بلادهم دويًا ، وكثيراً ما اقترن فخرهم بهجاء أعدائهم . وكان الشاعر حينما يفخر يعدد مناقب قومه ، لأن الفرد يعتز بالقبيلة لا بشخصه ، ومجد القبيلة مجده ، على أن الشعراء أحياناً كانوا يختصون أنفسهم ببعض الفخار .

١ — وقد افتخرت النساء أيضاً ، ولكن فخرهن لم يكن بأنفسهن وإنما كان إشادة بقبائلهن وأقاربهن .

فالخنساء تفخر بقومها في مجال الرثاء :

وأفنى رجالى فبادوا معا	فأصبح قلبي لهم مُستفزاً
لذكر الذين هم في الهيا	ج للمستضيف إذا خاف عزاً
كأن لم يكونوا حمى يتقى	إذ الناس من عز بزا
وكانوا سراة بنى مالك	وزين العشيرة مجداً وعزا
هم منعوا جارهم والنساء	ء يحفز أحشاءها الموت حفزا
غداة لقوم بملومة	طحون يغادرن في الأرض وكزا
بييض الصفاح وسم الرماح	فبالبيض ضربا وبالسمر وخزا
وخيل تكدس بالدارعين	وتحت العجاجة يجمزن جمزا
جززنا نواصى فرسانهم	وكانوا يظنون أن لن تجزاً
نعف ونعرف حق القرى	وتتخذ الحمد مجداً وكزا
ونلبس في الحرب نسج الحديد	ونلبس في الأمن خزا وقزا ^(٣)

(١) الأغاني ١٨٠/١٨ (٢) نفح الطيب ٥٦٣/٢ و ٥٦٤ و ٦٣٣ طبعة أوروبا ونزهة الجلساء ٣٨ و ٤٢ و ٤٣ مخطوط . ونزهة الأبصار والأسماع ١٢ (٣) ديوان الخنساء ١٤٣ . من عز يز : من غلب سلب . ملومة : كتيبة مجتمعة . طحون : تطحن كل شيء . تجمز : تعدو .

والخرنق تفخر بقومها أيضاً في مجال الرثاء :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر^(١)

وتفخر ببلائهم في التنكيل ببني أسد في مجال رثائها لزوجها بشر :

ألا لا تفخرن أسد علينا بيوم كان حيناً في الكتاب
فقد قطعت رؤوس بني قعين وقد نعت صدور من شراب
وأردينا ابن حسحاس فأضحى تجول بشلوه نجس الذئاب^(٢)

وتقول أيضاً في هجاء بني أسد بالجبن والهلع من لقاء قومها :

سمعت بنو أسد الصيياح فزادها عند اللقاء مع النفار نفارا
ورأت فوارس من صليبة وائل صبروا إذا نفع السنبلك ثارا
بيضا يحزرن العظام كأنما يوقدن في حلق المغافر نارا^(٣)

وتفخر بزوجها أيضاً^(٤) .

وكذلك فخرت عاتكة بنت عبد المطلب بقومها ، فنوهت بشجاعتهم وبلائهم :

سائل بنا في قومنا وليكف من شر سماعه
قيسا وما جمعوا لنا في جمع باق شناعه
فيه السنور والقتنا والكبش ملتئم قناعه
بعكاظ يعشى الناظرين إذا هم لمحو شماعه
فيه قتلنا مالكا قسراً وأسله راعه
ومجدلاً غادرته بالقاع تنهسه ضباعه^(٥)

(١) ديوان الخرنق ١٠ (٢) ديوان الخرنق ٧ مخطوط . كان حيناً في الكتاب : كان مقضياً .
ابن حسحاس : رجل من أسد . الشلو : العضو . بنو قعين : من بني أسد (٣) الديوان ٧ صليبة وائل :
من نسله . بيضا : سيوفا مجلوة . يحزرن : يقطعن . المغافر : ج مغفر ما يلبس على الرأس من زرد ليقبه
(٤) الديوان ١٩ (٥) شرح الحماسة للتبريزي ١٣٠/٢ السنور : الدرع . الرعاع : سفلة الناس
أو الجبناء . مجدلاً غادرته : غادرت الحيل مجدلاً . تنهسه : تنهشه

ولقد تفخر الشاعرة بأمها دفاعا عنها ، من ذلك أن أم زينب بنت فروة بن سنان كانت أمة فارسية ، فنوهت زينب بحسبها :

إن ابنة الدهقان كسرى تُنَوِّلَتْ بطعن الحكاة واختلاس المعابل
ولم تُخْتَطَفْ أُمِّي عَلَى غَيْرِ ثَلَّةٍ ولم تختطف إلا بطعن المقاتل
من اللابسات الربطَ زهراء لم تبت تحش مع الأُمِّي وَقَدْ المَراجِل
ولم يُرَ في أَفْنَاءِ مُرَّةٍ مِثْلُهَا ولا عند قيس من غنيمة قافل (١)

٢ — وفخرهن على قلمه وضعفه ليس فيه من الأنوثة شيء ، كالعفة والجمال والرقّة وحلاوة الحديث وإسعاد الزوج ورعاية الأولاد وتدبير البيت ، وإنما هو فخر بالرجال وأعمالهم . ولعل مرد ذلك إلى استحيائها من الفخار بهذه المميزات . وليس معنى مباهاتها بالرجال أنها كانت ذليلة القدر مسلوبة الشخصية ، وإنما معناه أنهم حماها وأسنادها ، فهي تشعر بالعز والمنعة وعلو القدر في كنفهم وظلمهم إذا كانوا أعزة ، كما يفخر أحدنا بوطنه أو معبده أو أبيه .

ولم تختلف الإسلاميات عن الجاهليات في شيء ، فمثلا تمزج ليلي الأخيلية بعض الفخر بهجائها للنابعة الجعدى ، فتباهى بعزة قومها :

لنا تامكٌ دون السماء وأصله مقيم طوال الدهر لم يتحلحلا
وما كان مجسداً في أناس علمته من الناس إلا مجدنا كان أولا (٢)

٣ — أما فخر الرجال فقد كان فيه ضرب من الفخر بالقبيلة كلها حسبها وعددها وراثتها وبطولاتها وظفرها ومنعتها ، وضرب من الفخر الشخصي الفردى .

يمثل النوع الأول قول عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجلْ علينا وأنظرنا نجبرك اليقينسا
بأنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينسا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينسا

(١) بلاغات النساء ١٨٢ . المعابل : نصال السهام والمراد السهام . ثلة : جماعة . تحش : توقد . الأُمِّي : الغبي الجلف الجاني والمراد العبد . وقد المَراجِل : ناراها . غنيمة قافل : راجع من الحرب بالغنائم
(٢) أشعار النساء للمرزباني ٤ : مخطوط وبلاغات النساء ١٧٠ تامك : سنام والمراد مجد عال .

متى ننقل إلى قوم رحانا • يكونوا في اللقاء لها طحيننا
وأنا المانعون لما يلينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا
وأنا الشاربون الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدراً وطيناً (١)

.....

وقول لبيد .

إننا إذا التقت المجامع لم يزل
ومقسّم يعطى العشيرة حقها
وقول أمية بن أبي الصلت :

بأننا النازلون بكل ثغر
وأنا المانعون إذا أردنا
وأنا الحاملون إذا أناخت
وأنا الرافعون على معدة
وأنا الضاربون إذا التقينا
وأنا المقبلون إذا دُعينا
خطوب في العشيرة تبتلينا
أكفأ في المكارم ما بقينا (٢)

ويتمثل الضرب الثاني في الزهو باللذات والكرم والبطولة في قول عنتره :

ولقد شربت من المدامة بعدما
فإذا شربت فإنني مستهلك
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى
ركد الهواجر بالمشوف المعلم
مالى وعرضى وافر لم يكلم
وكما علمت شمائلى وتكرمى

.....

لما رأيت القوم أقبل جمعهم
يدعون عنتر والرماح كأنها
مازلت أرميهم بشجرة وجهه
فازور من وقع القنا بلبانه
يتذاكرون كررت غير مذمم
أشطان بر في لبان الأدهم
ولبانه حتى تسريل بالدم
وشكا إلى بعبرة وتحمحم

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي (٢) جهرة أشعار العرب ١١٥ لزاز : قرن . جشامها : متحمل

ها . مغذمر : يأخذ من هذا ويعطى هذا ويدع ذاك . هضامها : مناحها (٣) الجهرة ١٨٩

لو كان يدوى ما المحاورة اشتكى . ولكن لو علم الكلام مُكَلِّمِي^(١)
وكقول طرفة :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنى
فإن تبغى فى حلقة القوم تلقى
وإن يلتقى الحى الجميع تلاقى
.....

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد^(٢)

المدح

١ — ليس لهن فى المدح نصيب ، لأن بواعثه كانت محبوسة على الرجال ، سواء فى ذلك المدح المنبعث عن إعجاب ، أو عن رغبة فى الحياء . ثم إن مدح المرأة للرجل مما يعاف ، ولكن جاء فى شعرهن قليل من المدح ، كمدح الخنساء لأبيها وأخيها حين استبقا على الخيل ، وهو أدخل فى الفخار بهما من المدح :

جارى أباه فأقبلا وهما
حتى إذا نزت القلوب رقد
وعلا هتاف الناس أيهما
برزت صحيفه وجه والده
أولى فأولى أن يساويه
وهما وقد برزا كأنهما
يتعاوران مُلاة الحضر
لزت هناك العذر بالعذر
قال المجيب هناك : لا أدرى
ومضى على غلوائه يجرى
لولا جلال السن والكبر
صقران قد خطا على وكر^(٣)

وهذا مأزق حرج أبدعت فيه الخنساء ، لأنها مدحت أباه وأخاه معا ، وبينت إكرام الابن لأبيه ، وإعرازه لقدره ، وجعلت تقديم الولد لأبيه فى السبق معرفة بحقه وتقديره لمساكنته وسنه .

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى وديوان عنتره . المشوف المعلم : السكاس أو الدينار الجلول المنقوش

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى وديوان طرفة . الضرب . الخفيف . خشاش : ماض .

متوقد : ذكى (٣) ديوان الخنساء ١٣٦ وأما المرتضى ٦٧/١ وزهر الآداب ٢٣٩/٣ . يتعاوران ملاة الحضر : يصير غبار الجرى كثوب يلبسه هذا مرة وذلك مرة . الحضر : العدو والسباق . نزت القلوب : نالت لمعرفة السابق . لزت العذر بالعذر : قرن عنان السابق بعنان المسبوق . أولى : كان الابن أهلا لأن يجارى أباه فيسبقه لولا أنه امتنع أنفة ولأبيه عليه فضل السن والقدر .

وقد قيل لأبي عبيدة : ليست هذه الأبيات في مجموع شعر الخنساء ، فقال : العامة أسقط من أن يجاد عليها بمثل ذلك ^(١) .

ورأيت هذه الصورة فيما بعد السكيت ، فحاکها في مدحه مخلد بن يزيد بن المهلب :

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه	أحدٌ ومثلك طالبا لم يَلْحَقْ
تتجاذبان ، له فضيلة سنه	وتلوت بعد مصليا لم تَسْبُقْ
إن تنزعا وله فضيلة سنه	فبمثل شأو أبيك لم يُتَعَلَّقْ
ولقد لحقت به على ما قد مضى	من بعد غايته فأحج وأخلق ^(٢)

ثم نسج على منوالها المؤمل بن أميل السكوني المحاربي في مدح المهدي :

لئن فت الملوك وقد توافوا	إليك من السهولة والوعور
لقد فات الملوك أبوك حتى	بقوا من بين كابٍ أو حسير
وجئت وراءه تمشي حثيثاً	وما بك حيث تجرى من فتور
وقال الناس ما من ذين إلا	بمنزلة الخلق من الجدير
فإن سبق الكبير فأهل سبق	له فضل الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغير مدى كبير	فقد خلق الصغير من الكبير ^(٣)

٢ - وفي الإسلام نابت بنت ليبيد عن أبيها في مدح أمير الكوفة الوليد بن عقبة وشكره ، ذلك بأن ليبيدا كان قد آلى في الجاهلية أن يطعم ما هبت الصبا ، ثم واصل ذلك في إسلامه ، فلما نزل الكوفة وأميرها الوليد بن عقبة إذ هبت الصبا والأمير يخطب الناس ، فقال : قد علمتم حال أخيك أبي عقيل ، وما جعل على نفسه أن يطعم ما هبت الصبا ، وقد هبت فأعينوه . ثم بعث إليه بمائة من الجزر واعتذر إليه بقوله :

أرى الجزار يشخذ شَفَرَتِيه	إذا هبت رياح أبي عقيل
أشم الألف أصيد عامري	طويل الباع كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعفرى بما نواه	على العلات والمال القليل
يُدْغِي الكوم ما هبت عليه	رياح صبا تجأوب بالأصيل

فلما وصلت الجزر والشعر إلى لييد قال : إني تركت الشعر منذ قرأت القرآن ، وإني ما أعيأ بجواب شاعر . ودعا ابنة له فقال : أجيبه عني ، فقالت :

إذا هبت رياح أبي عَقيـل دعونا عند هبّتها الوليدا
أشم الأنف أُصَيِّدَ عَشْمِيًّا أعان على مروءته لييدا
بأمثال الهضاب كأن ركباً عليها من بني حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطمعنا الوفودا
فعد إن الكريم له معاد وظنّي بابن أروى أن يعودا

فقال لييد : أجبت وأحسنت لولا أنك سألت في شعرك . قالت : إنه أمير وليس بسوقة ، ولا بأس بسؤاله ، ولو كان غيره ما سألتناه . قال لييد : أجل ^(١) .
بعد هذا يتبين أن مدح المرأة على ندرته موجز خاطف لا تفصيل فيه ، ولا توليد لمعانيه .

الحنين إلى الوطن

١ — حب الوطن طبيعة راسخة في كل نفس . ولقد يطوف الإنسان ما يطوف ، ويغترب ما يغترب ، ويشهد ما يشهد من ضروب الجمال في غير وطنه ، ولكن نفسه دائماً تنازعه إلى مسقط رأسه ، وعواطفه تهوى إلى وكره الذي منه خرج ، وفي ملاعبه لها ودرج . ويظهر أن للصحراء سحراً خاصاً — على جديها وشظفها — يجتذب أهلها إلى ألا يريموا عنها ، ولا يتحلّحلوا منها ، بل إن سحرها ليجتذب العارفين بها من غير سكانها ، وقد صور هذه المشاعر الرحالة أحمد حسنين في رحلته اللويفية . وللجاحظ رسالة حافلة بحب الأعراب لباديتهم والحضرين لأوطانهم نساء ورجالا يقول فيها : « وترى الأعراب تحن إلى البلد الجذب ، والمحلّ القفر ، والحجر الصلّد ، وتستوخم الريف ^(٢) » .

بل لقد بلغ من حب العرب لديارهم أنهم كانوا إذا رحلوا للغزو أو للنجعة حملوا معهم من تربة الدار رملاً وعَفْراً (تراباً) يستنشقونه عند نزلة أو زكام أو صداع . يقول شاعر من بني ضبة .

نسير على علم بكنهه مسيرنا بعفّة زاد في بطون المزاود

ولا بد في أسفارنا من قبيصة من التراب نسقاها لحب الموالد^(١)

كانت المرأة والرجل سواء في الحنين إلى الوطن ، يقول عمرو بن قبيصة لما خرج مع امرئ القيس إلى قيصر^(٢) ، وقد حنت ابنته إلى وطنها إذ شطت بها النوى فبكت ، وتذكرت آها :

قد سألتني بنت عمر عن ال أرض التي تُنكرُ أعلامها

لما رأت سائيدا استعبرت لله درَّ اليرم من لامها

تذكرت أرضاً بها أهلها أخوالها فيها وأعمامها^(٣)

٢ — وقد أسلفت في باب الزواج أن المرأة كثيرأما كانت تتوجس من الزيجة في غربه ، لأنها تؤثر أن تقضى حياتها بين قومها وفي وطنها .

ولكن ما كل ما يطلب المرء يناله ، فلا بد من أن تغرب أحيانا ، فهي إذا تشتاق إلى وطنها ، وتنفس عن نفسها بشعرها ، فمثلا تحن هند بنت عضم السدوسية إلى بلادها وهي عند ربيعة بن غزالة السكندی ، وتصور حنينها في أن الماء الذي تشرب منه لا يبل أوامها ، وتود لو جاءها أحد بشرية من ماء وطنها لتعطيه أربعا من وطن زوجها ، ثم تقول إنها تشتمل شوقا إلى ديار أهلها ومسقط رأسها ، ويزيد شوقها اشتعالا أنها بأئسة من أوبة قريبة :

ألا لا أرى ماء المصبِّح شافيا نفوسا إلى أمواه بقاء نزا

فمن جاء من ماء السبال بشربة فإن له من ماء لينة أربعا

وقد زادني وجدا ببقاء أنى رأيت مطاينا بلينة ظلعا^(٤)

وهي تعجب من يلومها في شوقها إلى وطنها ، بل إن الملامة لتزيدها ولوعا به ، وما ذنبها في أن تكلف بأرض عشيرتها وتقل غيرها ؟

وإنها لتتمنى أن تندر الريح على نقل نجواها ، وتلطف وتظرف في تمنيتها أن تبلغ الريح تحياتها ، وفي دعائها لها بالخير ، راجية ألا تمس بتحيتها الثرى ، وإنها لحفية بالريح الشمالية تسائلها عن قومها أيقربون ومتى يقربون ؟

قال وجيبة بنت أوس الضبية :

وعاذلة تغدو على تلومني على الشوق لم تمنح الصباة من قلبي

(١) رسالة الحنين إلى الأوطان ١٢ العفة : بقية اللابن في الضرع والمراد القليل من الزاد . قبيصة : قبضة وحفنة (٢) الأغاني ١٦/١٥٨ (٣) معجم البلدان ٥/٥ سائيدا : جبل بين ميفارقين وسعرت (٤) بلاغات النساء ١٠٦ المصبِّح ، بقاء ، السبال ، لينة : أسماء مواضع . طلعا : المراد مقيمة

فألى إن أحببت أرض عشيرتي وأبغضت طرفاء القصيبة من ذنب
فلو أن ريحا بلغت وحي مرسل حفي لنسجيت الجنوب على النقب
فقلت لها : أدى إليهم رسالتى ولا تخلطىها طال سعدك بالترب
فإنى إذا هبت شمالاً سألتها هل ازاداد صداح الثميرة من قرب؟^(١)
وكذلك حنت أم موسى بنت سدره السكلابية^(٢) وامرأة من غطفان^(٣).

ولقد يعقد شوقها إلى وطنها صلة وجدانية بينها وبين الجبل الغريب الذى يحن إلى مرابعه ،
كما حدث لامرأة من أبان زوجت فى كلب ، فنظرت إلى بكر من ديارها فرأته يحن
إلى وطنه فقالت :

ألا أيها البكر الأبانى إننى وإياك فى كلب لمغربان
تحن وأبكى ذا الهوى لصبابة وإنا على البلوى لمصطحبان
وإن زمانا أيها البكر ضمنى وإياك فى كلب لشر زمان^(٤)

وسأبين فى الغزل أن بعض الحنين إلى الوطن غزل مستور ، وحنين إلى حبيب نازح
لا طاقة للمرأة أن تبوح به .

٣ — وقد لازمها وفاؤها لوطنها وحبها لديارها إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فإن ميسون
بنت بحدل السكلابية لما زفت من بادية كلب إلى معاوية بن أبى سفيان لم تطق حياة الحضر ،
وتشوقت للبادية بقولها :

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف
وأصوات الرياح بكل فج أحب إلى من نقر الدفوف
وكلب ينبج الأبيات دونى أحب إلى من هرر أليف
ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف
وخرق من بنى عمى نحيف أحب إلى من علج عليف^(٥)

(١) شرح التبريزى للحماسة ١٨٧/٤ ومعجم البلدان ١١٥/٧ . طرفاء القصيبة : شجر بهذا الموضع .
حفي : مهم معتن ملح فى السؤال . النقب : الطريق فى الجبل . هبت شمالا : هبت الريح شمالا والظاهر أنها
كانت تهب من ناحية قومها مستقبلة ديار زوجها . صداح : المراد بهم أهل وناس لأن الصدى الصوت .
الثميرة : هضبة بين نجد والبصرة بعد الدهناء (٣) بلاغات النساء ١٩٦ ومعجم البلدان ٢٢٣/٣ و ١٦/٨
(٣) معجم البلدان ١٦٩/١ (٤) الحنين للأوطان للجاحظ ٢٢ (٥) حماسة الخالدين ٢٣٢
مخطوط . بكر : فتى من الإبل . صعب : لم يركب . الشفوف : جمع شف وهو الثوب الرقيق . خرق : سخرى
ظريف حسن الخليفة . علج : حمار أو حمار وحش . عليف : مملوم لا يعمل

وقد حدث عبد الله بن إسحق الجعفرى قال : أمرت بملء صهريج لى فى بستان عليه نخل مطّل ، وزهبت بأمر حسانة المرية وابنتها - زوجتى - فلما نظرت أم حسانة إلى الصهريج قعدت عليه وأرسلت رجليها فى الماء ، فقلت لها : ألا تطوفين معنا على هذا النخل لنجنى ما طاب من ثمره ؟ فقالت : ها هنا أعجب إلى .

فدرونا ساعة وتركناها ، ثم انصرفنا وهى تخضخض رجليها فى الماء وتحرك شفتيها ، فقلت : يا أم حسانة لا أحسبك إلا قد قلت شعراً ، قالت : أجل ثم أنشدتنى :

أقول لأدنى صاحبي أسره	وللعين دمع يحذر الكحل ساكبه
لعمري لنهى باللوى نازح القذى	نقى النواحي غير طرق مشاربه
أحب إلينا من صهاريج ملئت	للعب ولم تملح لدى ملاعبه
فيا حبذا نجد وطيب هوائه	إذا أهضبته بالعشي هواضبه
وريح صبا نجد إذا ما تفسمت	ضحاً وسرت جنح الظلام جنائبه
فأقسم لا أنساه مادمت حية	وما دام ليل من نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسق لوعة	بذكره حتى يترك الماء شاربه (١)

الغزل

كانت لهوات الشعراء تتجاوب بالغزل فى كل صقع من أصقاع الجزيرة ، ينفسون به عن حب مبرح ، وحرمان ممض ، وشوق لهيف ، أو يفتنون فى وصف مفاتن النساء الجسدية والنفسية ، ويصرحون بما نالوا من لذات ومتع .

ولقد كان الخلى "يحاكى الشجى" أحياناً فيتغزل ، وهؤلاء وأولئك خلفوا من الشعر الغزل ثروة عظيمة تنبئ عن تقدير العرب للمرأة ، وخضوعهم لسلطان الجمال والحب . ولم يكن من محض المصادفة أن بدئت المعلقات ومشهورات القصائد بالغزل وبكاء أطلال المحبوبة .

(١) محاضرات الأدباء ٣٦٥/٢ ورسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ ٢٠ نهى : غدير . الطرق : الماء الذى خاضته الإبل وبالت فيه وبعرت : أهضبته الهواضب : فاضت عليه السحب فى غزارة . جنائب : رياح الجنوب

وما من شك في أن المرأة كالرجل تحب ، وتتشوق ، وتذكر ، وتتمنى ، وإذا كانت شاعرة فإن المتوقع أن تتغنى حبها في شعر تزجيه العاطفة كما يتغنى الرجل . ولكن هذا الشعر الذي كنا نرتقبه كثيراً غزيراً لم نمسك منه إلا نادراً قليلاً ، كأنه خُلس الدهر أو فلتات اللسان .

كتمان المرأة

وليس تعليل ذلك بعسير ، لأن النساء مطبوعات على الاستحياء من الجهر بحبهن ، مجبولات على كتمان الهوى المعتلج بقلوبهن ، بينما يحب الرجل فلا يطيق أن يحتبس حبه ، فيعبر عن مشاعره بقصيد يقرضه ، أو لحن يفشده ، أو تمثال ينحته ، أو غناء يردده ، ويطير به خياله كل مطير ، فيملاً الدنيا غزلاً . ولقد يفتن فيتغزل غزلاً روحياً يصور محبوبته ملكاً ، وتارة يتغزل غزلاً حسيّاً يصور جمالها ويكشف عن بدعها .

أما المرأة فتحب ولكنها تسر عاطفتها ، وتجن مشاعرها ، وتحبس حبها في صدرها ، على أنها ليست أقل من الرجل حباً . لذلك تعتمد أحياناً إلى السحر والرقى لاجتذابه ، وتتجمل وتزين وتمنع لاختلابه .

وحب الرجال يمتاز بأنه سافر ناطق ، وحب المرأة يمتاز بأنه محجب صامت ، ثم إن المرأة مطلوبة مرغوبة ، فهي إذاً قديرة على كتمان عاطفتها ، لأن مقاليد الحب بيدها لا بيد الرجل .

وقليلاً ما يغلبها الحب فتبوح ، لأن الرجل أغراها بوعوده ، وسحرها بنشيدته ، وفك عقدة لسانها ببلاغته ، أو لأنها ضاقت بما تجد ، فنبتت بكلمة أو تخففت من ثقل الحب بأبيات من الشعر ، ولكن هذا نادر نزر .

« والمرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك ، وتبغض يوماً واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها . والرجل يبغض أربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك ، وإن أحب يوماً واحداً شهدت جوارحه (١) » .

وهذا طبيعي لأن إظهار المرأة بغضها لا عيب فيه ولا لوم .

لذلك كانت مية على حق في قولها — وقد سئلت بعد موت قابوس : ما كان يضرك لو أمتعت بوجهك قبل موته ؟ — : منعى من ذلك خوف العار وشماتة الجار ، ولقد كان بقلبي منه أكثر مما كان بقلبه ، غير أني وجدت ستره أبقى لما في الصدور من المودة ، وأحمد للعاقبة .

وكذلك كانت عفراء ، فقد هالها ما نزل بعروة ، فكادت تبوح بسرها ، فقليل لها : أما عندك له حيلة تخفف ما به ؟ فقالت : والله لأنا أسر بذلك وأشوق إليه منه ، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار . (١)

وإذا كانت مية وعفراء تُجنَّان جبهما مخافة العار واستطالة الألسنة ، فإن عفراء بنت أحر كانت تسكن جبهها عزّة وتجلاً وترفعاً عن أن تتهم بما لا يليق بالأنثى . ذلك أنه قيل لها ما كان يضرك لو روحت عن قلب الحارث بن الشريد وأجبتة بزورة ؟ فقالت : منعى من ذاك قولكن عفراء قد صبت إلى الحارث (٢) .

لذلك أقل الشعراء الجاهليون والإسلاميون من تصوير الحبيبات يبادلنهم حباً بحب في صراحة وجلالة ، وأعتقد أن الذوق العربي كان ينفر من التصريح بذلك ، لأن العرب حراس على إظهار المرأة بمظهر البخيلة الممنعة البعيدة المنال .

يدل على ذلك قول السليك بن السلك إن قلبه يعاف المرأة المتهاكة الجواد بوصلها ، ويعلق بالممنعة التي لا تحوم حولها ريبة :

من الحُفَرَات لم تفضح أخاها	ولم ترفع لوالدها شئاراً
يعاف وصال ذات البذل قلبي	وأتبع الممنعة النواراً (٣)
وقول سويد بن أبي كاهل الشكري :	
تُسَمِّعُ الحَدَاثَ قولاً حسناً	لو أرادوا غيره لم يُسَمِّعَ (٤)
وقول كعب بن رواع :	
وينخالها المرح السفيفه تحبه	ونوالها غير الحديث بعيد (٥)

(٢) أخبار النساء ٢٦

(١) أخبار النساء لابن القيم ٣٥

(٤) المفضليات ١٩٠/١

(٣) الأغاني ٣٦٤/٤ : النوار : النفور من الريبة

(٥) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٢٨

وقول قيس بن الحداية :

وقد جاورتنا في شهور كثيرة فما نولت والله راءٍ وسامع^(١)
وقد صور رجل من بني أسد نصوصاً محبوبته بأنها تبخل حتى بما لا يطلب ولا يحتفظ
به ، ولا يمس عفتها في شيء :

وإني لأرجو الوصل منك كما رجا صدى الجوفٍ مرتاداً كداه صلود
وكيف طلابي وصل من لو سألته قذى العين لم يطلب وذاك زهيد
ومن لو رأى نفسى تسيل لقال لي أراك صحيحاً والفؤاد جليد^(٢)
وهذا الضرب كثير في شعر الشعراء^(٣) .

وإذا كان هذا هو الذوق العربي العام فقد وجدوا في تصوير المرأة طالبة للرجل أو متهاكمة
عليه غضا من أنوثتها وحيائها ، واستطالة من الرجل ، وزهوا بنفسه ، لأنه إذا يتغزل في
شخصه لا في حبيبته .

ولم يخرج على هذا الذوق العربي إلا عمر بن ربيعة في الإسلام ، وقد أكثر من
هذا كقوله .

قالت لترب لها تحدثها لئنفسد الطواف في عمر
قومي تصدى له ليعرفني ثم اغمز به يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبي ثم اسبطرت تسعى على أثرى^(٤)
وكرر مثل ذلك^(٥) .

ولكن هذا كان مستهجنأمنه ، حتى لقد قال له كثير : لقد أسأت وقلت الهجر ، ولو أنك
وصفت بهذا هرة أهلك لكنك قد أسأت إليها ، وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء
والبخل والامتناع^(٦) .

(١) الأغاني ١٣/٦ (٢) شرح التبريزي للحماسة ١٩٠/٣ ومعجم البلدان ٣٩٦/٦ الجوف : المطمئن
من الأرض . كداه : ج كدية : الأرض الغليظة . مرتاداً : طالباً منصوب على الحال . صلود : قليلة الماء .
أى أرجو واصلك رجاء العطشان الطالب للماء من أرض لا تبض بالماء . ولو أني سألتك قذى من عينك
لبخلت به (٣) الأعمش (الديوان ١٠٤) والشنفرى (الأغاني ٩١/٢١ والمفضليات ١٠٦/١) وأوص
ابن حجر (الديوان ١٤) وحاتم (الأغاني ١٥٩/١) وثعلبة بن صعير (المفضليات ١٢٦/١) وكعب بن زهير
(حماسة البحتري ٨٣) وعلقمة (ديوان علقمة ٦)

(٤) الأغاني ١٧٠/١ و ١٠٤ وفي رواية ثم اسبطرت تشدد في أثرى .

(٥) الأغاني ٩٢/١ و ٩٤ و ١١١ و ١١٩ (٦) الأغاني ١١٩/١

وقال له ابن عتبة لما أنشده أبياتا منها .

قالت الصغرى وقد تيممتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟
أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، وكان ينبغي أن تقول قلت لها فقالت لى ،
فوضعت خدى فوطئت عليه (١) .

صور من غزلها

تغزلت المرأة على ندره وقاة ، وكان غزلها يبدو فى مظاهر :

١ — تبوح بالحب والشوق وإن لقيت نكالا .

من ذلك أن رجلا من بنى عقيل تزوج امرأة من قبيلته ، دخل يوما وهى تتمثل ببيت
غزل ، فقال لها : ما هذا الذى تتمثلين به ؟ لعلك عاشقة . قالت : لا . ولكن أبيات حضرتنى .
فقال : لئن سمعتك تعودين إلى مثل هذا لأوجعن ظهرك وبطنك . فأنشأت تقول :
فإن تضربوا ظهري وبطنى كأيهما فليس لقلب بين جنبي ضارب
يقولون عزى النفس عن توده وكيف عزاء النفس والشوق غالب
فطلقها (٢) .

وكانت امرأة من لحم اسمها سعدى تهوى ابن عم لها يقال له عيسى ، فلما خشى أهلها
الفضيحة قالوا لها : إن نطقت فيه بشعر قطعنا لسانك . فقالت :

خليلى إن أصدتما أو هبطتما بلادا هوى نفسى بها فاذا كرا نيا
ولا تدعا إن لامنى ثم لائم على سخط الواشين أن تعذران يا
فقد شف جسمى بعد طول تجلدى أحاديث من عيسى تشيب النواصيا
سأرعى لعيسى الود ما هبت الصبا وإن قطعوا فى ذاك عمدا لسانيا (٣)

وباحت امرأة من خثعم بحبها لكعب بن طارق الشجاع الباسل :

فإن تسألونى من أحب فإنى أحب وبيت الله كعب بن طارق
أحب الفتى الجعد السلولى ناضلا على الناس معتادا لضرب المفارق (٤)

(١) الأغاني ١/١١٩ (٢) أشعار النساء للرزباني ورقة ١٨ مخطوط . عزى : صبرى . تود :

الضمير عائد على النفس (٣) أخبار النساء لابن قيم ٣٤

(٤) الحيوان للجاحظ ٣/٥٤ هارون

٢ - تصور شوقها ولهفتها إلى الحبيب ، كقول فارعة بنت ثابت في عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومي ، أو قول خولة بنت ثابت في عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي :

يا خليلي نابني سهدى لم تنم عيني ولم تسكد
فشرابي ما أسيغ وما أشتكى ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على رجل آنس تلذذه كبدي
مثل ضوء البدر صورته ليس بالزئيلة النكد
من بني آل المغيرة لا حامل نكس ولا جحد
نظرت يوما فلا نظرت بعده عيني إلى أحد (١)

ولقد تبلى بالطلاق من زوجها الذي تحب ، فلا تفتأ تشوق إليه ، كزينب بنت فروة المرية ، كانت عند ابن عم لها اسمه المغيرة ، فخرى بينهما نزاع فطلقها ، فقالت :

يا أيها الراكب الغادي مطيته عرج أنبيك عن بعض الذي أجد
ما عاج الناس من وجد ومن كمد إلا ووجدى به فوق الذي وجدوا
حسبي رضاه وأنى في مسرته ووده آخر الأيام أجهتد (٢)

ومثلها أم الضحاك المحاربية كانت تحت رجل من الضباب ، وكانت تحبه حبا شديدا فطلقها فقالت :

هل القلب إن لاقى الضبابي خاليا لدى الركن أو عند الصفا متحرج ؟
وأعجلنا قرب المحل وبيننا حديث كتشيع المريضين مزعج
حديث لو ان اللحم يوصل بحره طريا أتى أصحابه وهو منضج (٣)
ولها فيه شعر آخر ، وسلوان (٤) .

وليس هذا بغريب من امرأة تحب زوجها حبا عنيفا ، فهي لا تستطيع الحياة في بعده ، أو هجره ، كما قالت أخرى :

(١) الأغاني ٣٣/٣ ويرى الزبير بن بكار أن الشعر لابن زهير الخثعمي . الزئيلة : الجبان الضعيف .
نكد : شؤم عسر . جحد : بخيل . (٢) أخيار النساء ٣٥ والأمالى ٨٧/٢
(٣) الأمالى ٨٦/٢ وزهر الآداب ٨٠/٤ (٤) الأمالى ٨٧/٢ وزهر الآداب ٨٠/٤

وما أحس الدنيا وفي الدار خالد وأقبحها لما تجهز غازياً (١)

٣ — وإذا ما نكث بعده أو اتهمته بالغدر مظلوما قرعته وودت له التعاسة ، فقد كان بين رجل من عقيل اسمه صخر وابنة عم له حب ولقاء وموائق ، ثم زوجه أبوه غيرها على كره منه ، فرض ، وكانت ليلي أشد به وجداً وحباً ، فأرسلت إليه جاريتها لتقول له :
تَعَسَا لِمَنْ بَغِيرَ ذَنْبٍ يَصْرِمُ قَدْ كُنْتَ يَا صَخْرُ ، زَمَانَا تَزْعُمُ
أَنْكَ مَشْغُوفٌ بِنَا مَتِيمٌ حَتَّى بَدَأَ مِنْكَ لَنَا الْمُجْمَعُ (٢)

٤ — ولقد تسترحبها ، فتتجه بغزلها إلى الحنين لوطنها ، كما سبق في حنين هند بنت عاصم السدوسية ، وحنين وجيهة بنت أوس الضبية ، وكما في قول امرأة من أبان كانت متروجة في كلب ، ورأت يوماً جملاً من ديارها ، وأحست أنه يحن إلى وطنه ، فجوابته حنيناً بحنين كما سبق .

وكذلك صبغت أسماء المرية صاحبة عامر بن الطفيل حنينها إلى حبيبها بصبغة الشوق إلى الوطن :

أَيَا جَبَلِيٍّ وَادِي عُرَيْعَرَةٍ الَّتِي	نَأَتْ عَنْ ثَوَى قَوْمِي وَحُمِّ قَدُومِهَا
أَلَا خَلِيًّا مَجْرَى الْجَنُوبِ لَعَلَّهُ	يَدَاوِي فَوَادِي مِنْ جَوَاهِ نَسِيمِهَا
وَكَيْفَ تَدَاوِي الرِّيحَ شَوْقًا مَمَاطِلًا	وَعَيْنًا طَوِيلًا بِالدَّمُوعِ سُجُومِهَا
وَقَوْلًا لِرَكْبَانِ تَمِيمِيَّةٍ غَدَتِ	إِلَى الْبَيْتِ تَرْجُو أَنْ تُحَطَّ جُرُومِهَا
بَأَنْ بَأَكْنَافِ الرُّغَامِ غَرِيبَةٍ	مَوْهَةً تُكَلِّي طَوِيلًا نَثِيمِهَا
مَقْطُوعَةٌ أَحْشَاؤُهَا مِنْ جَوَى الْهَوَى	وَتَبْرِيحُ شَوْقٍ عَاكِفٍ مَا يَرْمِيهَا (٣)

٥ — ثم كثر غزل النساء في الإسلام ، وفاض في العصر العباسي ، تأثراً بالحضارة والنعمة ، وضعف الأخلاق البدوية ، حتى لنبجد في غزل بعضهن تكسراً لا يليق (٤) ، ولكن غزلهن في القرن الأول للهجرة لا يختلف عن غزلهن في العصر الجاهلي من حيث مناحيه ومعانيه إلا قليلاً ، ومن أمثلته أن أبا بكر رضى الله عنه مرّ في خلافته بطريق من طرق المدينة ، فسمع جارية تطحن وتنشد :

(١) الحيوان للجاحظ ٥٤/٣ هارون

(٢) أخبار النساء ١٠٦ المجموع : الخنفي في الصدر (٣) الأملاني ١٩٧/٢ حم قدومها : قدر وقضى . نثيمها : صوتها وأنيها . ما يريمها : ما يرايلها (٤) في كتاب السيموطي نزهة الجلساء في أشعار النساء المخطوط شعربعض المحدثات . فيه مجون لم نشهد مثله في العصر الجاهلي ولا في القرن الأول

وعشقه من قبل قطع تماثي متايسا مثل القضيب الناعم
وكان نور البدر سنة وجهه ينمى ويصعد في ذؤابة هاشم
وأنا التي لعب الغرام بقلبها فبكت بحب محمد بن القاسم

فدق عليها الباب ، فخرجت إليه ، فقال : ويلك أحررة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة يا خليفة
رسول الله . فسار إلى المسجد وبعث إلى مولاه فاشتراها منه ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم
ابن جعفر بن أبي طالب ، وقال : هؤلاء فتن الرجال (١) .

وقد تغزلت أم خالد الخثعمية في جحوش العقيلي ، فدعت لدياره بالسحب الغزار الواكفة
ليشرب من مائها جحوش ، وينظر إلى برقها ومطرها بعينيه اللتين تشبهان عيني الصقر ، ثم
فدت بنفسها عيني جحوش ، وقيصه ، وأسنانها المجلوة ، وأقسمت أنها قد ولحت به كما ولحت
عفراء بعروة ، وقالت إنه مباح لجحوش أن يلج بيتها وأهلها نيام ، وهي لأجله تحب النجديين
وتكره الحجازيين :

فليت سماكيا يطير ربابه يقاد إلى أهل الغضا بزمام
ليشرب منه جحوش ويشيمه بعيني قطامي أغر شامي
بنفسي عينا جحوش وقيصه وأنيابه اللاتي جلا بيشام
فأقسم أني قد وجدت بجحوش كما وجدت عفراء بابن حزام
وما أنا إلا مثلها غير أني مؤجلة نفسي لوقت حمام
فإن كنت من أهل الحجاز فلا تلج وإن كنت نجدياً فلج بسلام
رأيت لهم سماء قوم كرهتهم وأهل القضا قوم على كرام (٢)

ففي هذا الغزل إغراق في الإعجاب بحمال الرجل الجسدي ، واستطابة لزيارته ليلا
والأهل هجود .

ومثله قول خيرة بنت أبي ضيغم البلوية وكانت من أظرف النساء .
فما نظفة من ماء بهس عذبة تمنع من أيدي الرواة أروحا
بأطيب من فيه لو انك ذقتها إذا ليلة سحت وغاب نجومها (٣)

(١) أخبار النساء ١١٥ سنة وجهه : دائرته أو صورته أو جبهة وجبيناه (٢) الأما إلى ١٠/٢
وبلاغات النساء ١٩٤ مع بعض تغيير (٣) بلاغات النساء ٩٧ . بهس : اسم ماء . أروحا : أشمها
أو أنالها وأصيبها

ثم إن في غزل بعضهم لونا من المبالغة كقول امرأة بدوية ، على شعرها مسحة الإسلام :

فلو أن ما ألقى وما بي من الهوى بأرعن ركناء صفاء وحديد
تقطر من وجد وذاب حديده وأمسى تراه العين وهو عميد
ثلاثون يوماً كل يوم وليلة أموت وأحيا إن ذا لشديد
مسافة أرض الشام ويحك قربى إلينا ابن جواب يزيد أريد
فليت ابن جواب من الناس حظنا وأن لنار في النار بعد خلود^(١)

والأمثلة على غزلهن شتى كغزل الخنساء بنت التَّيَّحان في ججوش الخفاجي^(٢) ، وغزل امرأة عامرية في حصن^(٣) ، وغزل أم فروة الغطفانية^(٤) وغزل امرأة من بني عامر في مالك^(٥) ، وحنين امرأة من بني عامر إلى كئيب قومها^(٦) .

وقد تكرت عشقة المحاربية — حين هربت — ما كان منها في صباها فقالت إن المحبين والمحبات لم يجربوا من الحب إلا بعض ما جربت :

جريتُ مع العشاق في حلبة الهوى ففقتهم سَبَقاً وجئت على رِسل
فما لبس العشاق من حلل الهوى ولا خلعوا إلا الثياب التي أبلى
ولا شربوا كأسا من الحب مرة ولا حلوة إلا شراهم فضلى^(٧)
وكذلك تغزلت عُلَية بنت المهدي^(٨) .

(١) مجالس ثعلب ٨٠/١ والمنظوم والمنثور لابن طيفور ورقة ٧٣ مخطوط

(٢) بلاغات النساء ١٩٤ ولعله ججوش بن عمرو بن سامة وقد وفد أبوه على النبي واستقطعه
(الأغاني ١٦٥/٢٠) (٣) أشعار النساء للمرزباني (٤) الحيوان للجاحظ ٥٤/٣ هارون وفي زهر
الآداب ١٦٧/١ أنه لعائكة المرية في ابن عم لها وفي الأمل ٨٧/٣ أنه لزيب بنت فروة المرية في ابن
عمها المغيرة (٥) معجم البلدان ١٩٢/٤ (٦) أشعار النساء للمرزباني (٧) شاعرات العرب ٩١
و١٠٢ (٨) فوات الوفيات ١٠٠/٢

خصائص شعرهن

١ — استبان مما سبق أنهن لم يبرعن إلا في الرثاء ، لأنه وثيق الصلة بنفوسهن وميلهن ، فهن رقيقات الشعور ، ضعيفات الاحتمال ، سريعات الانفعال ، فياضات العيون ، لا يطقن فقد الأحباب ، وهن أشد حزناً وأحْدُ لوعة من الرجال .

وقد قصرن في الأغراض التي عالجنها ، فلم تدان إحداهن شاعراً في الغزل أو الحماسة أو الفخر أو الهجاء ، فنحن نذكر الخنساء على أنها قد أجادت الرثاء ، وشأت فيه بعض الرجال وإن تخلفت عن الفحول في براعة التصوير وقوة الأداء ، ولكننا لا نستطيع أن نجد شاعرة قاربت شاعراً في فن آخر .

وكان المتوقع أن يبرعن في أغنيات للأطفال ، لكن حظهن هنا ضئيل أيضاً كما سبق في فصل الأم .

وليس لهن في الوصف نصيب ، مع أن الرجال الذين عاشوا معهن في البيئة نفسها قد جالوا في الوصف جولات ، فوصفوا الطبيعة الصامته ، والطبيعة الحية ، والمتحركة ، ولا سيما الخيل والإبل .

وليس مرجع هذا إلى نقص في الذكاء ، لأن بعض علماء الدراسات النفسية قد خلصوا من تجارب عدة إلى أن هناك قدراً مشتركاً بين الناس من حاسة الجمال ، وأن هذا القدر فطري غرزي ولد معنا وليس مكتسباً من تجارب أو دربة ، ولا يشترط فيه غير اتحاد في نسبة الذكاء العام بين الأفراد . أي أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الذكاء العام وما يندشأ عليه المرء من إحساس بالجمال . وتفوق إنسان على آخر في هذه الناحية يتكون فيما بعد بالتجارب الخاصة أو ما يمكن أن يسمى بالدربة والمراثة ^(١) .

ثم إنهن لا حظ لهن من المدح كما أسلفت .

٢ — وتمتاز قصائدهن بوحدة الموضوع ، وقد أسلفت نماذج من شعرهن في الرثاء وغيره يتبين فيها صواب هذا الحكم ، فهن قلما أوردن في رثائهن حكمة ، ولم يقدمن لقصائدهن بمقدمات كما يفعل الشعراء ، من غزل ، وبكاء أطلال ، ووصف للرحلة ، وخطاب للرفيقين الخ .

ولم يجمعن في شعرهن أفانين عدة من وصف ومدح وفخر كما كان يفعل كثير من الشعراء . ولعل سبب ذلك استغراقهن في الموضوع الواحد لا يشفعن إليه سواه ، أو أن التعدد في

القصيدة كان عملاً فنياً يعتمد إليه الشعراء ويتوخونه ، ولكن النساء لم يبلغن هذه المكانة الفنية .

٣ — وقصائدهن مقطعات ، فليست لإحداهن مَـطَوَّلَةٌ . وأطول قصائد الخنساء — وهي زعيمتهن في طول القصائد أيضاً — قصيدتها التي مطلعها :

ألا يا عين فانهمرى بغَزَرٍ وفيضى فيضـة من غير نَزَرٍ ^(١)
أبياتها عشرون بيتاً . وقصيدتها التي مطلعها :

ما هاج حزرك أم بالعين عَوَّار أم ذَرَفَتْ إذ خَلَّتْ من أهلها الدار ^(٢)
أبياتها خمسة وثلاثون . على أن بعض أبياتها غير مقطوع بنسبها إليها .
وقصيدتها التي مطلعها :

أعيـنى هـلا تبكيان على صخر بدمع حثيث لا بكى ولا نَزَرٍ ^(٣)
أبياتها تسعة عشر ، وبعضها غير مقطوع بروايته .
وقصيدتها التي مطلعها :

ألا ما لعينيك أم مالها لقد أخضل الدمع سِرْبَها ^(٤)
أبياتها سبعة وثلاثون وليست كلها مقطوعاً بروايتها .

على حين تكثرت المطولات في شعر الرجال ، فمثلاً قصيدة متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك عدتها واحد وخمسون بيتاً ^(٥) ، ومرثية أبي ذؤيب الهذلي لبنيه عددها سبعة وستون بيتاً ^(٦) ، ومرثية أبي زيد الطائي للجراح بن أخته أبياتها ثمانية وخمسون بيتاً ^(٧) .

وللرجال مطولات في غير الرثاء أيضاً ، فمعلقة امرئ القيس عدتها اثنان وثمانون بيتاً ، ومعلقة طرفة عددها مائة بيت وسبعة ، ومعلقة زهير أبياتها ثلاثة وستون ، ومعلقة ليبد ثمانية وثمانون ، ومعلقة عمرو بن كلثوم مائة وسبعة ، ومعلقة عنتره أربعة وثمانون ، ومثلها مطولة الحارث بن حلزة ، ومدحة الأعشى للأسود بن المنذر أو المنذر ابن الأسود عدتها خمسة وسبعون بيتاً ^(٨) ، ومدحته لقيس بن معد يكرب أبياتها ثلاثة وثمانون ^(٩) ، وهجاؤه لعلقمة ستون بيتاً ^(١٠) ، وهجاؤه لشيبان بن شهاب سبعون بيتاً ^(١١) .

(١) الديوان ٦٧ (٢) الديوان ٧٣ (٣) الديوان ٨٥ (٤) الديوان ٢٠١
(٥) المفصليات ٦٥/٢ وجهرة أشعار العرب ٢٩٢ والأمالى لليزيدى ١٨-٢٥ وحماسة الخالدين
٣٨٧ مخطوط (٦) جهرة أشعار العرب ٢٦٤ (٧) جهرة أشعار العرب ٢٨٦ والأمالى لليزيدى
٧ — ١٣ (٨) ديوان الأعشى ٣ (٩) ديوان الأعشى ١٣
(١٠) الديوان ١٠٤ (١١) الديوان ١١١

وقد نسبت إلى النساء مطولات ، لكنها تحمل دلائل وضعها ، مثل المطولة التي نسبت إلى الدعجا بنت المنتشر بن وهب في واحد وأربعين بيتاً . ومن أبياتها التي تحمل دليل الوضع .

فبت مكتئبا حَرَّانَ أُنْدَبِه حتى أتتني بها الأنباء والخبر
فكلمة مكتئب ، وحران دالتان على أن القائل رجل لا امرأة . على أن في أسلوبها فحولة الرجال ومعانيهم مثل :

لا تأمنُ البازل الكوماء ضربته بالمشرف إذا ما أخروط السَّفرُ
وقدَعَرُ البزلُ منه حين تبصره حتى تقطَّعَ في أعناقها الجرُّرُ
لا يتأرَى لما في القدر يرقبه ولا يعرض على شرِّ سوفه الصَّفرُ^(١)
فهذه القصيدة ليست للدعجا ، إنما هي لأعشى باهلة في رثاء أخيه لأمه المنتشر ابن وهب (٢) .

فما السر في قصر قصائدهن ؟

ربما كان مبعث هذا في الرثاء تعاطى الموضوع الواحد وأن دموعهن وصياحهن وأناتهن تنفس حزنهن تنفيساً أقوى وأبرز من الشعر ، فيجدن فيها بعض السلوى فيؤثرنها على على الشعر المطول .

وأما في شعرهن كله فلأنهن ملولات لا يصبرن على قرض الشعر مدة طويلة ، والقصيدة المطولة تحتاج إلى جهد وصبر وعزيمة كما سيحىء .

٤ — وفي شعرهن صور ، وتعبيرات نسوية ، كقول الخنساء في رثاء صخر :
وتعشى البصيرَ بطعن أليم وتعطى الجزيل وتحمى الذمارا
فيلقى صريعاً يمجُّ النجيع كمرجل طباحة حين فارا
وهاجرة صاخدة حرها جعلت رداءك فيها خمارا^(٣)

فالتشبيه يمرجل الطباحة حين يفور وتشبيه الرداء بخمار يليقان بالآتي .
وكقولها في تحريضها على الثأر لصخر :

(١) رياض الأدب في مرثي شواعر العرب ١١٨ . أخروط : بعد الطريق . الجرر : ج جرة وهي ما يسترجعه البعير من بطنه . النوقل : البحر والكثير العطاء . الزفر : الكثير الأهل والعدة . يتأرى : ينتظر . شر سوفه : طرف الضلع . الصفر : دويبة في البطن (٢) جمهرة أشعار العربي للقرشي ٢٨٠ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٢ والكامل للبرد ٣٩٠/٢ (٣) ديوان الخنساء ١٠١ و ١٠٨

فتغسلوا عنكم عاراً تجلسكم غسل العوارك حيضاً عند أطهار^(١)
وكقولها (أوجعني الدهر) :

تعرّفتي الدهر نهساً وحزاً وأوجعني الدهر قرعاً وغمزا^(٢)
وكقولها (لهفي) :

لهفي على صخر فإنني أرى له نوافل من معروفه قد تولت
لهفي على صخر لقد كان عصمة لمولاه إذ نعل بمولاه زلت^(٣)
وكقولها (ويلي) :

ويلي عليه ويلة أصبحت حصني منكسر^(٤)
وكقول عاصية في رثاء أخيها عمرو بن عاصية السلمي :

يا لهفي نفسي ضلة جزعا على ابن عاصية المقتول بالوادي^(٥)

٥. — وشعرهن ألين من شعر الرجال كثيراً ، سواء في الرثاء أو في الفخر أو في الهجاء
أو في الغزل ، لأن طباعهن رقيقة لا يلائمها اللفظ الحوشي المستكره ، وتعبيرهن صورة من
طبعهن ، ولأن الجزالة والفحولة والقوة في التعبير لا توأمن نفسيتهن .

غير أن في قليل من شعر الخنساء بعض الغريب المستكره الذي لا موسيقية فيه كقولها :

قد راعني الدهر فبؤسا له بفارس الفرسان والخنشليل^(٦)
وقولها :

يا عيين بكى فارسا حسن الطعان على الفرس
يذر الكمي مجدلاً ترب المناخر منقّس^(٧)
وقولها :

يغشون منك غطامطاً جاشت بوابله الرواعد^(٨)
وقولها :

في جوف رمسٍ مقيمٍ قد تضمنه في رسمه مقمطراتٌ وأحجار^(٩)

(١) الديوان ١١٧ العوارك : الحواض . عند أطهار : عند انقطاع الحيض

(٢) أمالي ابن الشجرى ٢١٥/١ والديوان ١٤٣ (٣) الديوان ٢١

(٤) الديوان ١٢٤ (٥) الأغاني ١١/١٥ ساسي (٦) الديوان ١٩٠ ولسان العرب ٣٣٦/١٣

الخنشليل : السريم الماضي والجيد الضرب بالسيف (٧) الديوان ١٥٤ وبعضهم لم يروها للخنساء .

منقّس : ملقى على الخضيف (٨) الديوان ٦١ الغطامط : البحر الكثير الماء . الرواعد : السحب ذوات

الرعد والمطر (٩) الديوان ٨٣ المقمطرات : الدواهي أو الصخور الصلاب الشداد

٦ — وإذ كانت المرأة بطبعها مولعة بالزينة وبالمظهر الخلاب « وتغرها الظواهر وإن ساء الخبر ، فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة الصوغ تقع في نفسها موقعا حسنا وإن كانت قليلة القيمة » ^(١) فإنها قد أكرت من الترصيع في الشعر كثرة تسترعى النظر .

(١) والترصيع ضرب من الإيقاع الصوتي والانسجام الموسيقي « ولسريان النغم في كل أجزائه أو أكثرها عد أفضل ضروب السجع وأعلاها مرتبة ^(٢) » ، لأن التتابع في الكلمات ورنين مقاطعها يؤلف صورة موسيقية تستجيب النفس لها ، وتنفج مع التنعيم الذي تحدثه ، ويطلع الأسلوب بطابع صوتي رنان ، فيسائر السمع هذا التآلف الموسيقي مدفوعا بالترقب وانتظار توقيع خاص ، وتصحبه في ذلك حال نفسية من الرضا والإعجاب والاطمئنان وغيرها « هذا إلى أن الأثر السمعي يصحبه أثر جسمي وعقلي ، يجعل السامع يشعر بأن وزن الكلمات وما في العبارات من تنعيم موسيقي يهز أعصابه ، ويسير به في صعود وهبوط ، أو استواء ، أو إسراع أو إبطاء » ^(٣) .

وهذا النوع من الحلي الموسيقية افتنان في طرق ترديد الأصوات في الكلام ليسترعى نغمة الآذان بألفاظه ، كما يسترعى القلوب بمعانيه ، فهو مهارة في نسج الكلمات ، وبراعة في ترتيبها وتنسيقها ، ومهما يتنوع وتتعدد طرائقه فإنها يجمعها أمر واحد هو العناية بحسن الجرس ، ووقع الألفاظ في الأسماع . ولا شك أنه يزيد الشعر موسيقي ، لأن الأصوات التي تتكرر في البيت مضافة إلى تكرار القافية ، وإلى الوزن تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم ، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن ، ويرى فيها المقدرة والمهارة . وربما لا يقدر عليه إلا الأديب الذي وهب حاسة مرهفة في تذوق الموسيقى اللفظية ^(٤) .

وقديماً تنبه له النقاد ، فسماه ثعلب في كتابه قواعد الشعر الأبيات الموضحة . وقال إنها ما استقلت أجزاؤها ، وتعاضدت فصولها ، وكثرت فقرها ، واعتدلت أجزاؤها ، فهي كالخيل الموضحة ، والفصوص المجزعة ، والبرود المحبرة ^(٥) .

وقد فضله قدامة وأطنب في وصفه ، وأتى بأمثلة له من شعر امرئ القيس وزهير وطرفة وغيرهم ^(٦) .

(١) في علم النفس . الإبراشي وحامد عبدالقادر ٣/٣٦٢ (٢) صور البديع . على الجندي ٢/٢٩

(٣) الأصول الفنية للأدب . عبد الحميد حسن ٣٩ (٤) موسيقى الشعر . إبراهيم أنيس ٣٩

(٥) قواعد الشعر لثعلب ٣٧ (٦) نقد الشعر لقدامة ٢٤ — ٣٠ والعمدة لابن رشيق ٢/٢٢

(ب) ولكن هذا الترصيع الذى أ كثر منه النساء شأنه شأن القافية التى يلزم فيها ما لا يلزم ، فجعله ينشأ من ندرته ، فإذا كثر ثقل ، لأن الإسراف فى التجانس قبيح فى الموسيقى والشعر جميعاً ، حتى إن الاختلاف فى بعض الأحيان يعد عنصراً من عناصر الانسجام .

وهذا الاختلاف لا ينفك يتزايد فى الموسيقى الحديثة ، وله قيمة فى الشعر ، وذلك ما فعله فكتور هوجو فى بعض أشعاره ، كما اتبعه لافونتين وموسيه .

الانسجام شئ نسبي ، وليس أعذب من عودة إلى التوافق التام بعد سلسلة من الموافقات ، ولا شئ أجمل وقعاً فى الأذن من أن تسمع فجأة فى قصيدة لموسيه بيتاً يلتزم ما لا يلزم فى وسط طائفة من الانسجام المعتاد (١) .

لذلك كان قدامة على حق فى قوله إن الترصيع يحسن إذا اتفق له فى البيت موضع يليق به ، وإنه معيب إذا تواتر واتصل فى الأبيات ، لأنه دال على التعمد والتكلف (٢) .
واتفق معه أبو هلال فى هذا رأى وقال : إن بعض القدماء قد ارتكبوا هذا فبانت على أبياتهم سمة التعسف ، واستجاد قول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليفة مهدي الطريقة نفاع وضرار

وقال : هذا بيت جيد .

ثم ذكر بيتها :

فعمال سامية وراد طامية للجد نامية تغنيه أسفار

وقال : هذا البيت ردى لتبرؤ بعض ألفاظه من بعض (٣)

ولقد بلغ ببعض الشعراء بغضهم للتكلف أن تجنبوا التصريح فى مطلع بعض القصائد كالأخطل ، وكان الفرزدق كثيراً ما يصرع ، وأكثر شعر ذى الرمة غير مصرع المطالع ، وهو مذهب كثير من الفحول (٤) . وكذلك فعل بن أحر وأمية بن حرثان الكنانى ، على أنهم كانوا يصرعون بعد البيت الأول ، وربما صرعوا أبياتاً فى القصيدة الواحدة إظهاراً لمقدرتهم ، وأكثر من كان يفعل ذلك امرؤ القيس (٥)

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة جويو ١٧١ (٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ٢٨

(٣) الصنائع لأبى هلال ٣٦٧ (٤) العمدة ١١٥/١ (٥) نقد الشعر لقدامة ٣٠ - ٣٤

٢ - ترصيع في شعر الرجال

وقد صرع الرجال كقول أبي المثلث في رثاء صخر الغي :

آبى الهضيمة آتٍ بالعظيمة متـ~~ت~~لاف الكريمة لا سَقَطَ ولا وَا
حَامِي الحَقِيقَةُ نَسَّالٌ الودِيقَةُ مَعْتَقٌ الوَسِيقَةُ جَلْدٌ غَيْرُ ثُنْيَانٍ
رَقَاءٌ مَرْقَبَةٌ مَنَاعٌ مَغْلَبَةٌ رَكَّابٌ سَلْهَبَةٌ قَطَّاعٌ أَقْرَانُ
هَبَّاطٌ أَوْدِيَةٌ شَهَادٌ أُنْدِيَةٌ حَمَّالٌ أَلْوِيَةٌ سِرْحَانُ فُتَيَانُ^(١)

وقول عامر بن الطفيل :

ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمَقْصَبِ^(٢)
ولعل أكثرهم حفاوة بالترصيع امرؤ القيس ، كقوله :
فتور القيام قطوع الكلام تَفْتَرُّ عن ذى غُرُوبٍ خَصِرُ^(٣)
وقوله :

أفاد فجاد وساد فزاد وقال فزاد وعاد فأفْضَلُ^(٤)
وقوله :

كَانَ الْمُدَامُ وَصُوبَ الْغَمَامِ وَرِيحُ الْحُزَامِ وَنَشْرُ الْقَطْرِ
يُعَلِّ بِه بَرْدُ أَنْيَابِهَا إِذَا طَرَبَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرَّ^(٥)
وقوله في وصف حصانه :

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا له حَجَبَاتٌ مشرفات على الْفَالِ^(٦)

(١) الأغاني ٢٠/٢١ والعمدة ٢/٢٢ وقد نسبت الأبيات إلى الخنساء في ديوانها ٢٣٩ ونسب البيت الثاني إليها في أساس البلاغة مادة عتق . آبى الهضيمة : لا يرضى الذل والظلم . نسال الوديقة : يقتحم الهواجر . معتاق الوسيقة : يعتق الطريدة وينجها ويسبق بها ، وفي روايه الوثيقة يكون المعنى أنه واف بعهد . غير ثنيان : سيد مقدم ، والثنيان هو الذى دون السيد مقاما . مرقبة : موضع مراعبة العدو . سلهبة : فرس طويلة (٢) ديوان عامر القصيدة ٣٢ والصناعتين ٣٦٧

(٣) ديوان امرئ القيس ٧٨ والعمدة ٢/٢٤ خصر : بارد

(٤) الديوان ١٧٢ (٥) الديوان ٧٩ . القطر : عود يتبخر . المستحرج : المغرد سحرا

(٦) الديوان ١٤٤ الشظى : عظم لاصق بالذراع . الشوى : الأطراف . الشنج : التقبض . النسا :

عرق في الفخذ . الحجبات : رءوس عظام الوركين . الفال : لحم الورك أو عرق عن يمين العقب ويساره

وقوله :

كأن المدام ، وصوب الغمام
يرعل به برد أنيابها
وريح الخزامى ، وذوب العسل
إذا النجم وسط السماء استقل (١)

وقول زهير بن أبي سلمى :

كبداء مقبله ، وزكاء مدبرة
قوداء ، فيها إذا استعرضتها خضع (٢)

ترصيع في شعر النساء

أما ترصيع النساء فهو كثير كقول الخنساء :

غداة لقوئهم بملومة
طحون يغادرن في الأرض وكزأ
بيض الصفاح ، وسمر الرماح
فبا لبيض ضربا وبالسمر وخزأ (٣)

وقولها في رثاء صخر :

سمح خلائقه ، جزل مواهبه
وافى الدمام إذا ما معشر غدروا (٤)

وقولها :

جم فواضله ، تندى أنامله
رذاد عادية ، فكأك عانية
جواب أودية ، حمال ألوية
كالبدر يجلو ولا يخفى على السارى
كضيغم باسل للقرن هصار
سمح اليدين جواد غير مقتار (٥)

وقولها .

سمح سجيته ، جزل عطيته
وللأمانة راع غير خوان (٦)

وقولها :

فالحمد خلته ، والجود علته
خطاب مفصلة ، فراج مظلمة
حمال ألوية ، شهاد أندية
والصدق حوزته إن قرنه هابا
إن هاب مفضعة أتى لها بابا
قطاع أودية ، للوتر طلابا

(١) الديوان ١٧١ يرعل : يسقى مرة بعد مرة (٢) نقد الشعر لقدماء ٢٥ (٣) الديوان ١٤٥

(٤) الديوان ١٢٥ (٥) الديوان ١٣٦ عانية : أسيرة . هصار : كاسر . مقتار : شديد البخل

(٦) الديوان ٢٤٧

سم العداة ، وفكاك العناة إذا لاقى الوغى لم يكن للقرن هيباً (١)
وقولها :

رفيع العباد ، طويل النجاد ساد عشيرته أمرداً (٢)
وقولها :

يعطى الجزيل، ولا يلحى الجليل، ولا يعيا السبيل إذا قيل من هادي؟ (٣)
وهذا كثير في شعرها (٤) .

ومن الترصيع قول جنوب الهذلية في رثاء أخيها عروة :

لقد علم الضيف والمرملون إذا اغبر أفق وهبت شمالا
بأنك ربيع ، وغيث مريع وأنت هناك تكون الثملا
.....

وحي أحت ، وحي منحت غداة اللقاء منايا عجالا (٥)
وحي وردت ، وثير سددت وعلج شددت عليه الجبالا
ومال حويت ، وخيل حميت وضيف قرئت يخاف الوكالا
وقول ليلي الأخيلية :

ألا رب مكروه أجبت ، ونائل فعلت، ومعروف لديك ومنكر (٦)
وقول عاصية بنت عمرو :

شهاد أندية ، رفّاع أبنية شداد ألوية ، فتّاح أسداد
نحار راغية ، قتال طاغية حلال رابية ، فكّك أقياد
قوّال محكمة ، نقاض مبرمة فراج مبهمة ، حبّاس أورد
حلّال ممرّعة ، حمال معضلة قراع مفضّعة ، طلاع أنجاد (٧)

وقول ليلي الأخيلية :

وقد كان مرهوب السنان وبه — ن اللسان ومجذام السرى غير فاتر (٨)

(١) الديوان ٤ وفي قواعد الشعر لشعاب ٣٧ أن البيت حمال ألوية لأخت مسعود بن شداد العدوية
(٢) الديوان ٤١ (٣) الديوان ٥٥ (٤) الديوان ٤١ و٥٤ و٦٤ و٨١
(٥) مرثي شواعر العرب ٨٣ الوكال : الضعف (٦) قواعد الشعر لشعاب ٣٧
(٧) الأغاني ١٥/١١ ساسي (٨) نقد الشعر لقدامة ٢٧ مجذام السرى : قطاع السير ليل

من هذا يتجلى ولوع المرأة بالترصيع ، وولوعها بالتسميط ، وهو سجع ثلاثة أجزاء من البيت أو سجع جميعه كما سبق .

٧ - في شعرهن إقواء أحيانا ، وإكفاء نادرا .

(١) والإقواء والإكفاء شيء واحد في رأى أبى عبيدة وأبى جعفر^(١) ويونس^(٢) . وهما مخلفان عند غيرهما . فالإكفاء في رأى المرزبانى أن يتقارب حرفا الروى ، كالتون والميم واللام لقرب مخارجهما . كقول الشاعر :

بَنَى إِنْ الْبَرِّ شَيْءٌ هَيْنَ الْمَنْطِقِ اللَّيْنِ وَالطَّعْمِ

والعرب قد تخلط بين الإكفاء والإقواء^(٣) . أما الإقواء فهو اختلاف المجرى ، والمجرى حركة حرف الروى الذى تبنى عليه القصيدة ، فتسكون قافية مرفوعة ، وأخرى مخفوضة أو منصوبة^(٤) .

وقد وقع الإقواء والإكفاء في شعر الرجال على قلة . فمن إكفاء الرجال البيت السابق ، وفى قصيدة لمتهم بن نويرة إكفاء^(٥) ، وكذلك فى قصيدة لعميرة بن طارق^(٦) .

ومن إقواء الرجال قول بشر بن أبى خازم :

أَلَمْ تَرِ أَنْ طَوَّلَ الدَّهْرُ يُسَلِّى وَيُنْزِى مِثْلَ مَا نُسِيَتْ جُدَامُ
وَكَانُوا قَوْمَنَا فَبَغَوْا عَلَيْنَا فَسَقْنَاكُمْ إِلَى الْبَلَدِ الشَّامِ^(٧)

وكذلك أقوى النابغة^(٨) ، وسلامة بن جندل^(٩) ، وعمرو بن أحمد الباهلي^(١٠) .

(ب) ولا شك أن الإكفاء والإقواء عيبان فى موسيقى الشعر ، لذلك لم يقو أحد من الطبقة الأولى وأشباهاها إلا النابغة ، ثم تنبه لإقوائه فأصلحه^(١١) ، ولو أن المرأة كانت أرهف فى الحس الموسيقى من الرجل ما وقع فى شعرها إكفاء ولا إقواء . لكنهما قد وقعا . فمن الإكفاء قول ابنة أبى مسافع فى رثائه :

وَأَنْتَ الطَّاعِنُ النُّجْلَا مَ مِنْهَا مُزِيدٌ آتٍ
وَبِالْكَفِّ حَسَامٌ مِمَّا رَمَ أَبْيَضُ خَذَامٌ^(١٢)

(١) النقائض ٢١ و٥٦ (٢) طبقات الشعراء ٥٦ و٥٨ طبعة شاكر

(٣) الموشح للمرزبانى ١٥ و٢٠ (٤) الموشح ١٨ وطبقات الشعراء ٥٨

(٥) النقائض ٢١ (٦) النقائض ٥٦ (٧) الموشح ٥٩ (٨) الأغاني ١٥٧/٩

(٩) ديوان سلامة المخطوط القصيدة الحائية (١٠) الموشح ٨٠

(١١) طبقات الشعراء ٥٥ (١٢) الموشح ٢١

ومن الإقواء قول الخنساء :

فدّى للفارس الجشمى نفسى أفديه بما لى من حميم
أفديه كما أقررت عيني وكانت لا تنام ولا تنيم^(١)

وقول خرنق :

هم جدعوا الأنوف وأوعبوها فما ينساغ لى من بعد ريق
وبيض قد قعدن وكلّ كل بأعينهن أصبح لا يليق^(٢)

وقول جليمة :

إذا الخيل سارت بعد صلح صدورها وخوف ابنا وائل من عشيرها

.....

فها كم حريق النار تبدى شرارها فيقدح في كل البلاد سعيرها^(٣)

وقول ابنة تميم بن الأخثم في رثاء أبيها الذى قتله عقبة بن هبيرة :

أعقبت لا ظفرت يداك ألم يكن درك بحقك دون قتل تميم

.....

فليحققك في العشيرة لامة ولتقتلن به وأنت ذميم^(٤)

وقد سبق في فنون شعرهن أمثلة شتى فيها إقواء

٨ — وتسم معانى شعرهن جملة بأن طابعها مذكر ، وقد بينت أن شعرهن لا يمثل

إلا لونا ناصلا من خصائص الأنوثة . وأنه يكاد يكون صورة تامة من شعر الرجال إذا

استثنينا السمات الأسلوبية والمعنوية السابقة ، فما مرد ذلك ؟

قد يقال إن ظروفهن الخاصة حجبتهن عن بعض مجالى القول التى برز فيها الرجال ،

وإن الشعر لا بد أن يصور تجربة ذاتية مرت بالشاعر ، فالذى يجيد الغزل لا بد أن يكون

محباً ، والذى يصف الحرب لا بد أن يكون قد عركها وذاق حلوها ومرها ، وواصف

الخمر لا بد أنه ذاقها وأحس نشوتها ، فكيف تتطلب من المرأة أن تجيد فى فنون من القول

لا تمس حياتها كما تمس حياة الرجال ؟ لكن ذلك مردود .

(١) ديوان الخنساء ٢٣٢ (٢) ديوان الخرنق ٦ مخطوط

(٣) رياض الأدب فى مرآئى شواعر العرب ١٥ (٤) المرجع السابق ١٠٧

(١) لأن المرأة العربية كما سبق قد أسهمت في الحياة الأسرية والاجتماعية ، وشاركت في الحرب ، فلماذا قصرت في الشعر ؟ ثم لماذا لم تنبغ في الأغراض المتصلة بحياتها النسوية ؟ ولماذا لم تتفوق في الرثاء غير الخنساء ؟

(ب) على أن دعوى التجربة الذاتية فيها تضيق وقسوة ومجافاة للواقع ، وإلا لوجب أن يعيش الروائي أو الشاعر أو الكاتب ألوانا من المعيشة ، وأن يجرب ضروبا من التجارب لا تتسع لها حياته . ولا يطبقها . والشاعر الموهوب يستطيع أن يتمثل الجو الذي يريده ، وأن يتخيله ويتأثر به ، ويعبر عن أحاسيسه كأنه أصيل في مشاعره .

ولا شك أن العاطفة قد تسكتسب ، فهناك ظروف تحتم علينا أن ننفعل ، فسرعان ما يفرض علينا شعونا بتلك الظروف أن ننفعل ، أو على الأقل أن نتوهم أننا منفعلون . وقد قال جوبلو : « إذا كنا مستيقظين فإننا لا نتحكم في التعبير عن عواطفنا فحسب ، بل نتحكم في عواطفنا أنفسها . وهناك نصيب كبير من التصنع والعرف في عواطف الحياة الاجتماعية ، فنحن نعتقد أننا نشعر بها بمجرد أن نعتقد ضرورة الشعور بها ، وليست العواطف الاجتماعية هي التي تنطبع وحدها بطابع الإلزام ، بل ذلك شأن جميع العواطف السامية ، سواء أكانت خلقية أم جمالية أم دينية أم اجتماعية ، (١) .

أريد أن أقرر أن الرجل الشاعر والمرأة الشاعرة قد يستمدان من عاطفة أصيلة ذاتية فينفسان عما بهما ، وهذا لا شك فيه . وقد يتأثران عن طريق المجاملة والمواساة والمشاركة للغير ، فينقلب تأثرهما إلى عاطفة أيضاً صالحة لأن تنففس . وإذا كان ذلك صحيحاً فإن الدعوى بأن المرأة لم تبرع في فنون الشعر لأنها لم تنخرط في الحياة العامة انخرط الرجل ، فليست مستقيمة من ينبوع العاطفة الذي يستقي منه الرجل ، دعوى لا تقوى على النقاش . وقد أسلفت أنها تجافي الواقع ، لأن الأدباء كثيراً ما يبرعون في تصوير أحداث ومشاهد لم يروها .

ثم إن العالمين النفسيين الكبيرين وليم جيمز وكارل لانج قد توافقا في ١٨٨٤ و ١٨٨٥ م على نظرية في العواطف ، دون أن يكون أحدهما على علم ببحث الآخر ، وتسمى نظريتهما نظرية جيمز لانج Games-Lange Theory .

وملخص هذه النظرية أن الانفعالات ناشئة عن تغيرات جثمانية متعددة النواحي ، فنحن لا نبكي لأننا محزونون ، بل نحزن لأننا نبكي ، ونحن لا نرتعد لأننا نخاف ، بل نخاف لأننا نرتعد ، ولهما أدلة على إثبات هذه النظرية ، ولغيرهما ردود عليهما ، ليس هذا مجال بحثها (٢) .

ولا شك أن في النظرية كثيراً من الصواب ، لأن كثيراً من الممثلين والممثلات يحتم عليهم عملهم أن يقوموا بتمثيل دور معين ، فيمتظاهرون بالضحك والفرح أو البكاء والحزن ، وهم كثيراً ما يشعرون بعد هذا التظاهر بالسرور أو الأسف حقيقة ، وما ذلك إلا لأن حركاتهم وسكناتهم أحدثت تغيراً جثمانياً نجم عنه الفرح أو الأسى .

ثم إن المتظاهر بالمرض قد يمرض ، والمتظاهر بالصحة والعافية قد يصح ويبرأ . وقد أخذ برأيها ريبو Ribot في كتابه علم نفس العاطفة ، فقال : « لنسا في كل دراسة نفسية للعواطف أن نختار بين أمرين مختلفين تمام الاختلاف ، وهذا الاختيار سيلزم باتباع طريقته الخاصة ، فالرأى الأول يقرر أن الحالات العاطفية ثانوية مشتقة من المعرفة وتابعة لها ، بل لا وجود للعواطف إلا بالمعرفة ، وذلك مذهب العقليين .

والرأى الثانى يقرر أن هذه الحالات العاطفية أولية أساسية مستقلة وغير متدخلة في الذكاء ، ومن الممكن تصورهما من غيره ، وهو مذهب العضويين » .

والنظرية الأولى (العقلية) هى نظرية هربات ومدرسته ، ومؤداها أن العاطفة لا توجد إلا مرتبطة بالتصورات العقلية ، فالعاطفة نتيجة لاجتماع الأفكار وإدراكها في النفس ^(١) . بعد ذلك نسأل لماذا لم تبرز المرأة في فنون الشعر التى شاركت الآخرين والآخريات في التأثير بدوافعها ، متظاهرة مجاملة في أول الأمر ، ثم منفعة أنفعالا أصيلاً بعده ؟

لقد رأت أحياناً وسمعت أحياناً أخرى عن ميادين القتال ، وتناسر الأبطال ، ولقد رأت مشاهد الطبيعة ، وسمعت من الشعراء إعجابهم بها ، وقريضهم فيها ، ولقد شاهدت بهجة قومها وقد ظفروا ، وشهدت حسرتهم وأساهم وقد انكسروا ، فأين شعرها في هذا وأشباهاه ؟

ليس السبب في (تذكير) شعرهن هو ضيق حياتهن ، وإنما السبب في فقدان شعرهن سمات الأنوثة ، وفي انطباعه بطابع الذكورة :

(١) أن الفن الرفيع الخالد ينبثق من عواطف فياضة طويلة الأجل ، وعواطف النساء جياشة لكنها منقطعة قصيرة الأنفاس ، وتمتاز انفعالات الرجل من انفعالات المرأة بأنها أعمق وأطول أثراً ، وأقل ظهوراً ^(٢) .

فمشاعر الرجل أشبه بالتيارات السفلية ، عميقة ورزينة لا تكاد تحس ، ووجدانات المرأة أشبه بالفقاعات والموجات الصغيرة ، فهى حادة فجائية في الظاهر ، ولكنها سريعة التغير ، دائنة

الغور إلا في الحزن (على الأقل بمعنى الميل إلى ذرف الدموع ، والخوف ، والغريزة الوالدية ، وغريزة الخضوع ، والاستعداد للتعزز ، فكلها تبدو في النساء أقوى منها في الرجال ^(١) .

(ب) ثم إن الإنتاج الأدبي يحتاج إلى استعداد طبيعي ، وإلى جهد وصبر وتنقيح وإرادة ، والمرأة أضعف من الرجل إرادة كما يقرر علم النفس ، والفنان يستوحى من عقله الباطن ويستسلم لمواكب من الأخيلة والصور ، ويتحرر من الحياة الشعورية الواعية ، ويدنو من لحظات غير واعية ، وحينئذ ترتفع الحجب التي كانت تفصل خارج نفسه عن داخلها ، فيعبر مستمداً من عقله الباطن ومن شعوره ، وإذا فالتعبير الفني إرادي وغير إرادي معاً . غير إرادي لأنه يستمد من الانفعال والعقل الباطن وينابيع الوحي ، وإرادي لأن المعبر يستمد من فكره وشعوره اللغة التي يجسم بها أحلامه ويصور بها إلهامه . يقول لامب Lamb إن الشاعر يحلم في يقظته ، وليس ملكاً لموضوعه ، وإنما هو الذي يمتلك موضوعه ويصرفه ويسيطر عليه ، فهو يخلق في السماء وهو مدرك لما يقول ^(٢) .

ويقول ريتشاردز Richards إن القدرة على التعبير عن التجربة الماضية هي أولى خصائص الشاعر ^(٣) .

فالإنتاج الفني يرجع إلى عوامل عقلية ، تتجلى في التحليل ، ويتضمن الانتباه الانتقائي أو التجويد (لأن النفس تعزل بعض التفاصيل وبعض الأشكال وبعض الوسائل ، وهي على وعى بين الغاية التي تقصد إليها) ويتضمن تداعي الأفكار والحكم والبرهنة . ويرجع إلى عوامل انفعالية ، لأن صور الإبداع لا بد فيها من عناصر وجدانية يستحيل الإبداع بغيرها ^(٤) ، فهي الحافز أو الدافع أو الميل أو العاطفة أو أى عنصر من عناصر الوجدان .

ولا شك أن العامل الإرادي في الإنتاج الأدبي يحتاج إلى جهد طويل ، والأخبار مستفيضة عن شعراء العرب الذين كانوا ينقحون شعرهم ويعاودونه بالصقل والتهديب ، فمثلاً كان أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى والخطيب وأمثالهم يجودون شعرهم ، ويقفون عند

(١) كيف يعمل العقل ١٤٦/٢

(٢) The Aesthetic Theories. by Dr Hamns. P. 142

(٣) Ebid P. 142

(٤) A. S. Eddington. Space, Time and Gravitation. P 200

كل بيت ، يعيدون فيه النظر ، لتخرج القصيدة كلها مستوية في الجودة ، حتى لقد قال الخطيب :
« خير الشعر الحولى المحكك »^(١) .

وقد وصف امرؤ القيس بن حجر ما يعانیه في اختيار أجود ما تفيض به شاعريته ، فقال إن الأبيات تنثال عليه ، ولكنه يرد بعضها ، ويتمكن من نفسه فيكبحها كما يكبح الفارس جواده ، وقد تخير من شعره ست قصائد أو عشرأ في رواية — أو تخير من قصيدة كان يعالج نظمها ستة أبيات — لأنه نحى رديئها ، واصطفى جيادها :

أذود القوافي عني ذيادة ذباد غلام جرى جوادا
فلما كثرن وعينني تخيرتُ منهن سنا جيادا
فأعزل مرجانها جانباً وآخذ من درها المستجادا^(٢)

وظل الشعراء بعد العصر الجاهلي يفخرون بتجويد شعرهم وتنقيحه ، ويعدون ذلك من ضروب التفوق والذوق والدراية برائع القول ، مثل سواد بن كراع العكلي^(٣) ، كما اشتهر أبو نواس والبحترى وغيرهما في العصر العباسي ، وشوقي في العصر الحاضر . بينا أكثر بعضهم من الارتجال كأبي العتاهية ، فجاء شعره كما يقول الأصمعي : « كساحة الملوك يقع فيها الجواهر والذهب ، والتراب والخزف والنوى » .

وسيطرت نزعة التنقيح والتجويد على كثير من أدباء الغرب ، فمثلاً ، كان لافونتين ينظم المثل ، ثم ينظر فيه عشر مرات ، وفي كل مرة يحرر ويغير ، ويحذف ويضيف . وكان شاتوبريان يبدأ الصفحة ثم يعيدها على نحو ما كان يفعل لافونتين ، ويقول بسكال : إنه حرر بعض فصول البروفسيات خمس عشرة مرة^(٤) .

وكثيراً ما صور الأدباء عيهم أحياناً ، يقول الفرزدق وقد تحداه رجل من الأنصار أن يقول قصيدة مثل قصيدة حسان ، لنا الجففات الغر يلعن في الضحى : قاتله الله ، مارميت بمثله ، لقد أتيت منزلي بالأمس فأقبلت أصعد وأصوب في كل فن من فنون الشعر ، فسكأنى مفحهم لم أقل شعراً قط ، حتى إذا نادى المنادى بالفجر رحلت ناقتي ، ثم أخذت بزمامها حتى

(١) البيان والتبيين ٩/٢ و ١٣ هـ .

(٢) ديوان امرؤ القيس ٦٣ ورواها الآمدى في المؤلف والمختلف لامرؤ القيس بن الحارث السكندى

ورواها المرزباني في معجم الشعراء لامرؤ القيس بن بكر بن امرؤ القيس بن الحارث ورواها بعضهم

لامرؤ القيس بن عابس السكندى وكلهم جاهليون (٣) البيان والتبيين ١١/٢ السندوني

(٤) دفاع عن البلاغة ٦٦ الزيات

أُتيت ذبابا (جبل بالمدينة فنادت بأعلى صوتي : أجيئوا أخاكم أبا لُبَيْنٍ ، فحاش صدرى كما يجيش الرجل ، فعقلت ناقتي ، وتوسدت ذراعها ، فما قتت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً^(١) . ويتحدث الشاعر الكاتب ديها مل فيقول : كم من مرة استمعت فيها إلى رجال أو نساء يتحدثون وسط الجموع في عربة قطار أو مطعم فتحدثني نفسى في كل مرة : ها قد وقعت على صفة نفسية ، أو تسقطت علاقة ، أو لمحت دافعاً خفياً ، ولكننى عاجز عن أن أصوغ ما كشفت ألفاظاً ، وربما أستطيع فيما بعد أن أصور ما أحسست به . أما الآن فلا ، وأنا أعلم أنى لم أصب التوفيق ، فسيأتى بعدى من يستفيد من تجاربنا ، وتسعفه عبقريته فيوفق إلى التعبير عما لمحننا^(٢) .

وإذاً فلا مندوحة في قرص الشعر عن طبيعة ، وعن موهبة ، وعن جهد إرادى يبذله الأديب . وإن هذا الجهد الإرادى ليتمثل في اختيار العبارات الملائمة والتنقيح ، وتصوير المعانى والمشاعر ، وهذا الجهد عظيم ، لأن إبراز العواطف والمشاعر في صورة لفظية ملائمة شاق يحتاج إلى مقدرة وصبر ومراعاة .

وقد تنبه بعض نقاد العرب لهذا ، فذكر بشر بن المعتمر الاستعداد والجهد^(٣) ، وذكرهما الجاحظ^(٤) ، وقرر الجرجاني أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل سبب من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان^(٥) .

• (ح) ثم إن النساء أعجز من الرجال عن الابتكار ، حتى فيما يختص بالإناث ، وتُظن لهن المقدرة فيه ، كالخياطة والطهو والغناء والرقص ، فالرجال هم الذين يبتكرون للسيدات نماذج المعارض والحلى ، وهم الذين يتفوقون في فنون الطهو ، وتلحين الأغاني ، وتدريب الراقصات ، واختراع الأدوات المنزلية الجديدة من آلات الخياطة والنسج . « وفي هذا شرح للظاهرة المشاهدة من أن النساء أكثر تقبلاً للحقائق ، والرجال أكثر ابتكاراً . فالنساء أقدر على ممارسة العمل الرتيب الذى يتطلب صبراً وتطبيقاً وذاكرة حاضرة ، أما الرجال فلمهم براعة يحق الفخر بها فيما يتطلب كشفاً وبحثاً^(٦) . »

وفى رأى علم النفس وعلم الأحياء أن الذكر ايجابي والآثى سلبية ، وقد تقرر هذا من ملاحظة الخلية المنوية للذكر وبويضة الآثى ، فالحيوان المنوى نشيط متحرك ، يتقدم ليلبحث

(١) النقائض ٥٤٧ (٢) النقر المنهجي عند العرب ٢٥

(٣) العمدة ١٤٢/١ والبيان والتبيين (٤) البيان والتبيين ١٧٨/١ (٥) الوساطة الجرجاني ٢١

(٦) كيف يعمل العقل ١٤٣/٢

عن البويضة ، والبويضة تترىث وتنظر وتستسلم . وقد وضح ذلك هافيلوك إليس Havelook Ellis ^(١) . وقد أشار الأستاذ إرنست كرتشمير Ernest Kretschmer أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بجامعة ماربورج في كتابه (نفسيات العباقر) إلى النساء اللاتي زاولن الفنون ، فذكر أن المرأة لم تُمنع تعلم الموسيقى والعزف على آلاتها ، لكن لم يخلد من النابغات في الموسيقى إلا اللاتي اتصلن بالرجال ، مثل كلارا زوجة شومان الموسيقى العالمى ، وفانى أخت مندلسن ، وكورونا شروتر صديقة جيتى ، وغيرهن ، وذكر الشاعرة الألمانية أنيت فون درست هلشوف Anette Von Droste Hulshoff فقال إنها كانت أقرب إلى الرجولة في مزاجها وكلامها ، وكانت تتزيا بزي الرجال ، وتتمنى في بعض شعرها لو كانت صياداً منطلقاً بالعراء ، أو جندياً مقاتلاً ، أو رجلاً على الأقل . ولم تنظم قط في عواطف الأمومة ، أو وصف الطفولة ، أو حنين المرأة إلى الحب واللفة البيئية ، وما شابه ذلك من معارض الشعر التي يجب أن يكلف بها النساء . وقال إن هذا النزوع إلى التشبه بالرجال مشهود مطرد في نساء التاريخ المشهورات ، مثل اليصابات ملكة إنجلترا ، وكاترين قيصرية روسيا ، وكريستينا ملكة السويد ، فهن ينبغن في القدرة على بعض أعمال الرجال بمقدار ما ينقص فيهن من صفات الأنوثة لا بمقدار ما يزيد على الحاجة ^(٢) .

وكذلك مدام كورى ، فإنها كانت زوجة لعالم كبير تأثرت به ، ومسز براوننج الشاعرة الإنجليزية كانت زوجة للشاعر روبرت براوننج ، وجورج إليوت ألفت أحسن رواياتها وهى فى عشرة صديقها لويس ، واللادى ديلك Dilke كتبت فى الدراسة العالية حين كانت زوجة للعالم الأديب مارك باتيسون ، وكتبت فى السياسة والإدارة حين صارت زوجة لرجل سياسى ^(٣) .

وهذا الحكم أقرب إلى الحق من حكم شوبنهاور القاسى ، ذلك بأنه يرى أننا نخطئ فى تسمية النساء الجنس اللطيف ، ويجب أن نسميهن الجنس غير المتذوق ، لأنهن لا يتأثرن بالموسيقى والشعر والفنون الجميلة ، وإن كن يدعين هذا أحياناً رغبة فى إرضاء الرجال .

(١) سيكولوجيا المرأة ٨٥ فريد ترجمة محمد صدق وهذه الشجرة ١٧٣ للعقاد والأزمات الزوجية

(٢) هذه الشجرة ٧٤.العقاد

وعلاجها ٣٠ محمد زكى شافعى

(٣) هذه الشجرة ١٧٣.العقاد

ولسن قدرات على النظر الموضوعى إلى أى شأن من الشئون . وأشهر مشهوراتهم لم يهتموا إنتاجاً أصيلاً فى الفنون الجميلة ، ولم يقدموا للعالم عملاً ذا قيمة خالدة . لذلك كان الآسيويون أحكم من الأوروبيين حين اعترفوا صراحة بنقص المرأة ، وفرقوا بينها وبين الرجل فى كثير من الحقوق والواجبات ^(١) .

وقفى على أثره الفيلسوف الاقتصادى برودون فى كتابه (ابتكار النظام) فرأى أن النوع الإنسانى ليس مديناً للمرأة بأية فكرة أخلاقية أو سياسية أو فلسفية ، أو بأى كشف صناعى ، فالرجل وحده هو الذى اخترع وكمل وعمل وأنتج وغذى المرأة . وإن الدور الذى مثله المرأة فى الآداب مثل الدور الذى مثله فى المصنع ، فإنها لا تقوم فى المصنع إلا بمالاحتاج إلى استعمال القريحة ^(٢) .

والفكرة المشتركة فى هذه الآراء أن المرأة عاجزة عن الابتكار ، وأن النساء المشهورات كن متصلات بعظماء من الرجال فحاكينهم ، واقتبس من شهرتهم ، وكن أميل إلى مظاهر الرجولة منهن إلى الانوثة .

وهذا حق ؛ لأننا لم نعرف شاعرة بهرت عصرها وأخملت شعراءه ، ولم نعرف خطيبة أو كاتبة شدهت دهرها وأخملت كتابه وخطبائه ، والحكم كذلك فى العلم والصناعة ، لأن الطبيعة ضربت حجابها بين النساء والتفوق على الرجال أو مساواتهم فى هذا المضمار قبل أن يضرب الرجال على النساء الحجاب . ويعزز علم النفس هذه الفكرة بتقريره أن الذكور يتفوقون على الإناث فى الأعمال التى تحتاج إلى تفكير كرد الأسباب إلى المسببات ، وفى القدر العقلية العامة ^(٣) .

على أننا نجد الخنساء — أشهر النساء العربيات — امرأة مسترجلة ، فهى تهناً لإبل أبيها ، وهذا من عمل الرجال . وأبوها يقول لدريد بن الصمة حين خطبها : « إن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها » ، ثم يستشيرها فتقول فى صراحة : « يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناحكة شيخ بنى جشم ؟ » ثم لما حجاها دريد ردت عليه بمثل هجائه . ولما قُتل أولادها فى حرب القادسية وعلت بمصرعهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته . وقد تنبه بشار إلى أنها أنثى كالرجل فقال : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه . فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، كانت بأربع خصى .

(٥) ويرجع السبب أيضا في محاكاة الرجال واصطباغ شعرهن بالذكورة الفكرية والتصويرية إلى أنهن رأين الرجال متفوقين عليهن ، وأعجبن بهذا التفوق ، فقلدن الرجال . ولا شك أن ما قرره تارد Tarde في التقليد من الناحية الاجتماعية من الممكن أن نلتفع به هنا في الناحية الأدبية . فهو يقرر أن التقليد (بمعنى نقل إنسان من إنسان بصفة عامة ، أو أديب من أديب ، أو أدب أمة عن أدب أمة بصفة خاصة) يتبع سبيلا واحداً هو أن التقليد يسرى من الداخل إلى الخارج ، أى أن الأمة التى تقلد الأخرى هى الأمة التى تنقل ذوقها وأفكارها وأدبها قبل أن تنقل عاداتها ورفاهيتها ، فهى تقلد تقليداً داخلياً ، قبل أن تقلد تقليداً خارجياً ، وهو قانون ينطبق على الأفراد أيضاً .

وتارد يذهب إلى أن التقليد أيضا ينحدر من الأعلى إلى الأدنى ، بمعنى أن الأمة إذا أجدبت في الآداب وكانت على صلة بأمة أخرى مثرية في آدابها ، أحست الأولى بفقرها وبثراء جارتها ، فدانت بتفوقها ، وإذا تقف من أدب الأمة الثرية موقف المتطلع أو الآخذ ، فينحدر التقليد من الأمة المقلدة إلى الأمة المقلدة ، أى من الأعلى إلى الأدنى . وهذا التقليد طبعى لأنه نوع من الجبر الاختيارى ، أى أنه جبر تحتمه المدنية نفسها ، وهى تفرض على الإنسان المتمدين أو المتطلع إلى الحياة أن يطيع القوانين العامة حينما يقف على الدرجة الأولى من سلم المدنية ، وهو إذا أطاعها فلأنه يجد من نفسه الحاجة إليها . وهذا ينطبق على الأمم ، وعلى العواصم وعلى الأفراد ، وينطبق على العلم وعلى الآداب (١) .

ومن السهل تطبيق هذين القانونين على حال المرأة والرجل ، فالرجل حامى المرأة ، وهو القوام بشئونها ، وهو سندها وأملها أبا أو زوجا أو ابنا أو أخا ، وهو أقوى منها جسداً ، وأحصف رأيا ، وأسمى مكانا ، ثم هو أبرع منها شعراً وأقوى لسانا ، وهذه كلها دوافع إلى إعجاب المرأة به ، ومحاكاة إياه ، وتأثرها خطاه .

ولست أبعد عن الصواب إذا حكمت حكماً عاماً : أن النساء في العصر الجاهلى كن ملهمات للشعراء أعظم منهن منتجات للشعر وناقداً .

نعم هن اللاتي ألهمن الشعراء الغزل ، فأثرى الأدب بهذا الفن الجميل ، وهن اللاتي بعثن في الرجال روح الحماسة والمنافسة ، فصوروا عواطفهم ، وجمّلوا جنات الأدب بغراس ناضر ، حلوا الجنى ، داني القطوف .

الحديد في البحث

وبعد :

فأى جديد في هذا البحث ؟ .

أما الجديد فبعضه حقائق جزئية متناثرة في غرضونه لاجابة إلى تكريرها ، وبعضه حقائق عامة جديرة بإفرادها وذكرها :

(١)

كان العرب في العصر الجاهلي متصلين بالأمم والديانات المعاصرة لهم بوسائل شتى ، وقد تأثروا بمن اتصلوا بهم ، وتجلى هذا التأثير في ضروب من العقائد والأخلاق والعادات والنظم ، وقد بينت معالم هذا التأثير والتشابه أو التخالف فيما يتصل بأحوال المرأة . لكن سلطان البداوة والبداءة كان غلبا ، يطبع الحياة العربية بطابعه ، ويصطبغ به العرب البداوة والحضر .

(٢)

لقد طالما ردد بعض الباحثين المعترزين بالشعر الجاهلي أنه ثبت أمين للحياة العربية ، لكنهم لم يحققوا هذه الدعوى بدراسات تتكئ على الشعر الجاهلي . وردد آخرون أن الشعر الجاهلي لم يصور الحياة العربية في شتى مظاهرها .

وقد استنطقت الشعر الجاهلي ، فوجدته قد سجل مظاهر الحياة العربية ، وصور مفاخرها ورذائلها ، لكن في إجمال يوائم طبيعة الشعر وطريقته الفنية الوجدانية ، وجنوحه إلى التركيز والإيجاز والاكتفاء باللمح والإشارة .

وهذا الشعر الذي استقيمت منه صحيح في الأكثر الأعم ، لأنه بعيد عن بواعث النحل ، فهو لا يمت إلى عصبية قبلية أو سياسية ، وليس مما يتكاثر به الرواة المتنافسون ، ويزيد فيه القصاع والإخباريون ، ثم إنه غير مقصود لذاته ، وإنما جاء عرضاً في خلال القصائد ، وهو إلى ذلك كله لا يجافى النظم التي تحتمها البداوة على قاطناتها .

(٣)

كانت الصور التي رسمت للمرأة العربية مضطربة متناقضة ، فرسمت لها صوراً جليلة ، إذ استمددت من الشعر الألوان والأصباغ التي رسمت بها صور المرأة ، وجلّلت مكانتها في الحياة الاجتماعية والسياسية : في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع ، سواء أكانت أما أم زوجة أم بنتاً أم أختاً أم قريبة ، أم عضواً في المجتمع ، وسواء أكانت في سلم أم في حرب .

(٤)

اتضح لي أن الشعراء كثيراً ما نسبوا إلى الأمهات أو نسبوا إليهن ، فاقنضى هذا النسب أن أعّلل له ، فعرضت لنظرية التوتمية ، ونظرية الشيوعية عند العرب ، وفندتهما ، وأثبتت بطلانهما بالنسبة إلى العرب . ثم رجعت النسب للآم إلى أسباب شتى ليس فيها أثر للتوتمية ولا للشيوعية .

(٥)

في دراستي للبنات أثبت أن كثيراً من العرب كانوا يحبون بناتهم ، ويحذبون عليهن ، ويتكبنون بأسمائهن ، ويهشون لمشورتهن ، ويرفعونهن مكاناً علياً . وبهذا صححت الرأي الشائع أن العرب جميعاً كانوا يبغضون البنات . ويثدونهن .

(٦)

صححت الرأي الذي كان شائعاً عن المرأة الجاهلية أنها كانت في الخضيض ، تسام الخسف ، وتعامل معاملة العبيد ، حتى جاء الإسلام فحررها من السكبول ، ورفعها من الضعة ، وأكسبها حقوقاً لم تكن لها .

فأبنت أن المرأة كانت في الحياة الاجتماعية عزيزة عالية القدر ، ذات شخصية ورأى وحرية .

واستنبطت هذا الحكم من دراستي لمكانة الأم والزوجة والبنات والاخت والقرينة والمرأة ، في القبيلة وفي المجتمع العربي .

وبينت أن المرأة كانت في الحياة السياسة عضواً عاملاً ، تشارك الرجال في شئون جليلة ، وترتفع أحياناً إلى منزلتهم ، وتسودهم آونة فتملك عليهم ، أو تتودهم في الحروب . حتى المرأة السبية كانت تعامل معاملة حسنة ، ميزت العرب من أمم كثيرة .

وإذا فلم تكن مكانة المرأة العربية أدنى من مكانة المرأة المعاصرة لها ، بل لقد جازت نساء عصرها ماعدا المرأة المصرية في بعض أحوالها .

وخلصت من الموازنة إلى أن الإسلام قد وطد مكائنها ، وأكسبها حقاً جديداً لم يكن لها ، ذلك بأنه فرض لها نصيباً معلوماً من التركة .

(٧)

كشفت عن حقيقة أخرى : أن المرأة لم تكن تملك المال وتتصرف فيه فحسب . بل كانت تنال من التركة نصيباً وإن لم يكن مقدراً مقررأ . فقد عثرت على نصوص استنبطت منها أن المرأة كانت ترث أحياناً ، واهتديت إلى نص فريد فذ ثبت أنها ورثت نصف الذكر في حال ربما لم تكن الوحيدة في المجتمع العربي .

(٨)

لم أجد تفرقة بين السبي والامة في المراجع اللغوية والتاريخية والدينية ، فلم أطمئن إلى ذلك ، لأن الروح العام للشعر الجاهلي يوحى بالتفرقة ، فاستطعت أن أفرق بينهما في الصفة ، والمنزلة ، والعمل ، والمعاملة ، ومنزلة أبناء كل منهما ، معتمداً على الشعر فيما ذهبت إليه .

(٩)

فندت — في دراستي للإماء القيان — الفكرة الشائعة أن العرب لم يعرفوا الغناء الفارسي والرومي إلا في الإسلام ، وأثبت أنهم كانوا على صلة بهذا الغناء في العصر الجاهلي ، وأيدت بنصوص شعرية كثيرة أنهم عرفوا الآلات الموسيقية الأجنبية قبل الفتوح الإسلامية .

(١٠)

في دراستي للمرأة الشاعرة اهتديت إلى كثير من الشواعر المنسيات ، ودرست شعرهن وشعر غيرهن ، واستطعت أن أميز الأصيل من الدخيل ، ووازنت بين شعر النساء وشعر الرجال ، واستنبطت ملامح شعر النساء في كل فن ، وخصائص شعرهن في كل فنونهن ، ورجعت هذه الخصائص إلى نفسية المرأة ومقتضيات حياتها .

ثم انتهيت إلى أن النساء الشواعر كن يحاكين الرجال الشعراء ، لكن أجنحتهن قعدت بهن عن التحليق في جوائهم ، وأنهن لم يستطعن أن يسمن شعرهن بسمات الأنوثة البارزة التي تفرده وتميزه من شعر الرجال في كل موضوع من موضوعات الشعر .

(١١)

واستوحيت من هذه الدراسات للمجتمع العربي أن العرب لم يكونوا — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — جموعاً من الهمج البدائيين ؛ لأن نظمهم في الزواج والطلاق

ومعاملة النساء، وتمليكهن المال، والإسماح بتصرفهن فيه، ومعاملة السبايا، والحجاب، كانت أرقى من نظم الأمم المعاصرة لهم أنا، وشبيهة بها أنا، ولأن الإسلام أقر كثير آمن هذه النظم.

« اقتراحات »

(١)

أقترح على الذين يريدون تتبع الشعر العربي إلى ينابيعه الأولى أن يغذوا السير إلى العصر الجاهلي فيتملوه ويتذوقوه، على أنه فيض من عواطف صادقة متدفقة، وعلى أنه العمدة الأولى، والأسس الأصلية للشعر في شتى عصوره.

فمن الإجحاف بالشعر الجاهلي أن يهمل، أو أن يدرس على أنه أثر قديم يتفكه به الدارس، ومتحف لمخلفات من الماضي السحيق يلم بها في نظرات عابر، ولمحات خواطف. ولست أنكر أن هذه الدراسة يعوزها الصبر والناة والرغبة، ولست أعزو الحق إذ أقرر أن العصر الحاضر منكوب بنزعتين تباعدان ما بينه وبين هذه الدراسة، أقصد الغرور والاستخفاف، وإنيهما لتبدوان فيما يحول ببعض النفوس، وما يجرى على بعض الألسنة والأقلام، من الاعتزاز بكل حديث، والزراية بكل قديم، وإن كان الحديث وليده وصداه.

(٢)

وإذ قد استبان لي خطر الشعر الجاهلي وتمثله لعصره، أردت أن يحفل به الدارسون جمعاً، وتحقيقاً، ودراسة.

١ — ففي المكتبات عشرات من الدواوين والمجموعات الشعرية مخطوطة، وعشرات مطبوعة طبعاً رديئاً عاجزاً، وهي كلها تتلف على من يحققها، ويخرجها إخراجاً علياً.

٢ — ومن المستطاع أن تؤسس على الشعر الجاهلي عدة دراسات، كدراسة الحياة السياسية، والحياة الخلقية، والحياة الدينية، وعلاقة الشعراء بالبيئات، وأثرها في إنتاجهم وخيالهم.

على أن فنون الشعر في حاجة إلى دراسة مفصلة عميقة، تكشف عن نشأة كل فن وخصائصه.

ثم إن سلطان الشعر الجاهلي على ما بعده مفتقر إلى دراسة مستوعبة، تبين أثره في العصور الأخرى من حيث منهج القصيدة، والمعاني، والخيال، والموسيقى.

٣ — وإنه لمن الخير أن تتكئ الدراسات التاريخية والاجتماعية على الشعر الجاهلي يرفدها ويمدها.

(٣)

لقد درست شعر المرأة في العصر الجاهلي ، وكشفت عن خصائصه . فأود أن يدرس آخرون شعر النساء في العصر الإسلامي ، وفي العباسي ، ويميزوا خصائصه ، لتعرف مقدار ما بين النسوة الشواعر من تشابه أو تخالف ، وهل هناك طابع عام يطبع شعرهن جميعاً ؟ وإنني لأترقب في الرغبة ، فأتوق إلى أن يدرس آخرون شعر النساء في الأمم الأخرى ؛ لتعرف خصائصه ، وإلى أي حد تتقارب أو تتباعد من خصائص شواعرنا ، وهل في شعر النساء جميعاً ملامح موحدة أو سمات متشابهة ؟

(٤)

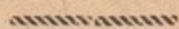
وليكن منهج الدارسين لأدبنا العربي كفيلاً بتجالية ما به من مميزات فنية ، وما فيه من قوة وحيوية ، متجربين من التعصب له أو التعصب ضده . فما من شك في أن لهذا الأدب خصوماً ، منهم القدماء ، ومنهم المحدثون ، ولكنه تعالى على هؤلاء وأولئك ، وتأبى عليهم ، وبقي كالصخرة الصلدة في طريق السيل ، كلما عجز بها انكسر ثم انحسر ، ومضى عنها سليمة الحواشي عظيمة الخطر .

(٥)

ولطالما لقيت عناء وبلبلة في دراسة التاريخ العربي في العصر الجاهلي ، لأنه لما يزل مهماً ، ويخولني هذا أن ألح على المؤرخين ليعنوا بالعصر الجاهلي ، فيكشفوا ما يكتنف تاريخ العرب من بلبلة وغموض ، ويوضحوا صلاتهم بالعالم القديم ، ومكانتهم من الحضارة الحالية ، فقد آن الأوان لأن ينكشف الإبهام ، وينجلي الظلام ، وينبج الحق ، ويوضع العرب في مكانهم الصحيح من ركب الحضارة .

المراجع

مرتبة ترتيبا هجائيا



- ١ - مخطوطات
- ٢ - كتب عربية
- ٣ - كتب مترجمة إلى العربية
- ٤ - كتب إفريقية



(١) المخطوطات

(١١)

- ١ - الأجر الجزل في الغزل . السيوطي . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .
- ٢ - الاستبصار في أنساب الأنصار . مخطوط بدار الكتب ٣٤٩ تاريخ . لم يعلم مؤلفه .
ويظهر أنه لشيخ الإسلام أبي محمد عبد الله المقدسي المتوفى ٦٢٠ هـ .
- ٣ - إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم . لأبي عبد الله عبد الله محمد بن الشيخ المراكشي . مخطوط بدار الكتب ٢١٢٧ تاريخ .
- ٤ - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين ، المعروف بحماسة الخالدين . مخطوط بدار الكتب ١٧٠٩ أدب .
- ٥ - أشعار النساء للهرزباني (الجزء الثالث) مخطوط بدار الكتب ٨ أدب ش ٤٢٨٩٨
- ٦ - أوائل الأوائل لأبي هلال العسكري . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٥ تاريخ .
- ٧ - إيضاح المدارك في الإفصاح عن العوائك . للسيد محمد مرتضى الزبيدي . مخطوط بدار الكتب ٢٠١٨ تاريخ .

(ج)

- ٨ - جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام . لأمين الدين أبي الغنائم مسلم بن محمود الشيزرى .
مخطوط بدار الكتب ٩٢٢٣ أدب .
- ٩ - جمهرة أشعار العرب (الجزء الثانى) لأبى زيد محمد القرشى . مخطوط بالمكتبة التيمورية
٢٢٦٨ تاريخ . و بدار الكتب ١٤١ مجاميع من ص ١٥٧ - ٢٦٠ باسم جمهرة
أبى زيد القرشى .

(ح)

- ١ - الحماسة البصرية . جمعها أبو الحسن البصرى . مخطوط بدار الكتب ٥٢٠ أدب .

(د)

- ١١ - الدرارى فى أبناء السراى . للسيوطى . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .
- ١٢ - ديوان الأفوه الأودى . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب .
- ١٣ - ديوان خرنق . مخطوط بدار الكتب ٣٤ أدب ش ٥٦٨ أدب .
- ١٤ - ديوان الحسناء . مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش بخط الشنقيطى سنة ١٢٨٨ هـ .
- ١٥ - ديوان سلامة بن جندل . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات
ف ٦٥٤ (٧١٩) .
- ١٦ - ديوان عروة بن حزام . رواية المرزبانى بسنده إلى ثعلب . مخطوط بدار الكتب ٧٠
ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ١٩٦ (١٦) .
- ١٧ - ديوان قيس بن الخطيم . مخطوط بمكتبة تيمور ٢٩٦ شعر .
- ١٨ - ديوان المتلس . مخطوط بدار الكتب ٥٩٨ أدب .

(ر)

- ١٩ - ربيع الأبرار . الزمخشري . بمكتبة تيمور ٥٩٢ أدب .

(ش)

- ٢٠ - شرح القصيدة الحميرية لفشوان بن سعيد الحميرى . مخطوط بدار الكتب ١٤١ مجاميع
مجاميع من ص ٢٧١ - ٢٨٩
- ٢١ - شرح المعلقات السبع . ابن الأنبارى . مخطوط بدار الكتب ١٩٩٠٧ ز

٢٢ — صور الكواكب . أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي . مخطوط بدار الكتب ٩٠٧ ميعات . وبه صور شتى للكواكب .

« ع »

٢٣ — العنوان في مكاييد النسوان . علي بن عمر المعروف بابن البتنوني الأبو صيرى . مخطوط بدار الكتب ٣٥٦٨ أدب .

« ف »

٢٤ — فضل العرب على العجم . ابن قتيبة الدينوري . مخطوط بدار الكتب ١٨٦٤ أدب .

« ك »

٢٥ — كتاب الملاهي وأسمائها . أبو طالب المفضل بن سلمة النحوي اللغوي . مخطوط بدار الكتب ٥٣٣ فنون جميلة .

٢٦ — كتاب الزينة . أبو حاتم الرازي . مخطوط بالخزانة المحمدية الهمدانية . يعده للإخراج الدكتور حسين الهمداني .

« م »

٢٧ — محاسن النساء . لأحمد بن هشام . مخطوط بمكتبة تيمور ٨٠٣ أدب .

٢٨ — مراث وأشعار . لأبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي . مصور بمعهد المخطوطات

ف ٨١٦ (١٩٣) .

٢٩ — مستقصى الأمثال . للزحشرى . مخطوط بدار الكتب أدب ١٠٢ م .

٣٠ — المطر والسحاب لأبي بكر محمد بن دريد الأزدي . مخطوط بدار الكتب لغة ٢٢٩

٣١ — من نسب إلى أمه من الشعراء . لمحمد بن حبيب . مخطوط بدار الكتب ٧٥ ش أدب

٣٢ — منتهى الطلب من أشعار العرب . جمعة محمد بن المبارك مخطوط بدار الكتب ١١٧٤ ز

٣٣ — المنظوم والمنثور . لابن طيفور . مخطوط بدار الكتب ٥٨١ .

« ن »

٣٤ — نثر الدر . صورة شمسية بدار الكتب رقم ٤٤٢٨ أدب لوح ٣٦٧ .

٣٥ — نزهة الجلساء في أشعار النساء . للسيوطي . مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر .

٣٦ — نشر المحاسن اليمانية في خصائص الين ونسب القحطانية . مخطوط بدار الكتب

٤٦٥٠ تاريخ . لم يعلم مؤلفه .

« و »

٣٧ — الوحشيات (الحماسة الصغرى) . لأبي تمام . مخطوط بدار الكتب ٢٢٩٧ أدب .

(٢) الكتب العربية المطبوعة

(١)

- ٣٨ — أبيات المعاني . أبو هلال العسكري .
٣٩ — اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب . الأستاذ محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .
٤٠ — أثر العرب في الحضارة الأوروبية . الأستاذ عباس العقاد مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٦ م .
٤١ — الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين . م . حاي بن شمعون . مطبعة كوهين ورزنتال بمصر ١٩١٢ م .
٤٢ — إحياء علوم الدين . الغزالي . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .
٤٣ — أخبار الحكماء . القفطي . مطبعة ليبزج ١٣٢٠ هـ .
٤٤ — الأخبار الطوال . أبو حنيفة الدينوري . بتحقيق فلاديمير جرجاس . مطبعة بريل ١٨٨٨ م .
٤٥ — أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام . الأستاذ حسن السندوني . الطبعة الأولى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .
٤٦ — أخبار مكة . الأزرق . رواية أبي محمد إسحاق الخزاعي . مطبعة المدرسة المحروسة بمدينة غنتغة ١٢٧٥ هـ . وطبعة المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ .
٤٧ — أخبار النساء . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية . الطبعة الأولى . مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣١٩ هـ .
٤٨ — الأزمات الزوجية وعلاجها . الدكتور محمد زكي شافعي .
٤٩ — أساس البلاغة . الزمخشري .
٥٠ — أساس العدالة في القانون الروماني : دكتور علي حافظ . مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة ١٩٥١ م .
٥١ — أساس الفلك والجغرافية . الأستاذ محمد نجر الدين والأستاذ عبد الفتاح الزياي . مطبعة التوكل ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م .
٥٢ — الاستيعاب في معرفة الأصحاب . ابن عبد البر . مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٨ هـ .
٥٣ — أسد الغابة في معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية بالقاهرة . ١٢٨ هـ .

- ٥٤ — الأسرة والمجتمع . الدكتور علي عبد الواحد وافي . مطبعة الباني الحلبي بالقاهرة . ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .
- ٥٥ — أسس علم النفس . الدكتور عبد العزيز القوصي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ م .
- ٥٦ — الأسس النفسية للإبداع الغني في الشعر خاصة . الأستاذ مصطفى سوييف . مطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٥١ م .
- ٥٧ — الإسلام والحضارة العربية . الأستاذ محمد كرد علي بك . مطبعة دار الكتب ١٩٣٤ .
- ٥٨ — الإصابة في تمييز الصحابة . أبو الفضل أحمد بن علي السكتاني العسقلاني المعروف بابن حجر . المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .
- ٥٩ — الأصمعيات من مجموع أشعار العرب . نشره وليم بن الورد البروسي . طبعة ليبسغ .
- ٦٠ — الأضنام ، هشام بن محمد الكلبي . تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا . المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م .
- ٦١ — الأصول الفنية للأدب . الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٤٩ .
- ٦٢ — أصول النقد الأدبي . الأستاذ أحمد الشايب . الطبعة الثانية . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٢ م .
- ٦٣ — الاعتصام . الشاطبي . مطبعة المنار بالقاهرة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م .
- ٦٤ — أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزمخشري . الطبعة الثانية ١٣٢٤ هـ .
- ٦٥ — الأعلام النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بلبدن ١٨٩١ م .
- ٦٦ — أعلام النساء . الأستاذ عمر رضا كحالة . المطبعة الهاشمية بدمشق .
- ٦٧ — الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني . ~~الأجزاء الخمسة الأولى~~ طبعة دار الكتب . والباقية طبعة ساسي .
- ٦٨ — ألف باء . البلوي . مطبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .
- ٦٩ — الأملالي . أبو علي القالي : مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م .
- ٧٠ — أملالي ابن الشجري . مطبعة الأمانة بمصر ١٩٣٠ م .
- ٧١ — أملالي السيد المرتضى . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .
- ٧٢ — إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والخفدة والمتاع . المقرئ محمد شاكِر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .

- ٧٣ — أمثال العرب . المفضل الضبي . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية . ١٣٠٠ هـ .
٧٤ — الأنساب . أبو سعيد عبد الكريم السمعاني . ليدن ١٩١٢ م .
٧٥ — أنساب العرب القدماء . الأستاذ جرجي زيدان . مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٦ م .
٧٦ — إنسان العمون في سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية . علي بن برهان الدين الحلبي . الطبعة الثانية . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .
٧٧ — أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م .

ب .

- ٧٨ — باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام . الأستاذ حمزة فتح الله بك . مطبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .
٧٩ — البدء والتاريخ . المطهر بن طاهر المقدسي . باريز ١٩٠٣ م .
٨٠ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطي . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .
٨١ — بلاغة أرسطوبين العرب واليونان . الدكتور إبراهيم سلامة .
٨٢ — بلاغات النساء . ابن طيفور . مطبعة مدرسة والده عباس الأول بالقاهرة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م .

- ٨٤ — البلدان . اليعقوبي . مطبعة بريل بايدين ١٨٩١ م .
٨٥ — بلوغ الأرب في أحوال العرب . السيد محمود شكرى الألوسى . المطبعة الرحمانية ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ .

- ٨٦ — بلوغ الأرب في مآثر العرب . محي الدين الشهير بالعطار . مطبعة الصفا ببلبنان ١٣١٩ هـ .

- ٨٧ — البيان والتبيين . الجاحظ (١) تحقيق الأستاذ حسن السندوبى ، الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٢ م (ب) وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ .

- ٨٨ — بين الحبشة والعرب . الأستاذ عبد المجيد عابدين . طبعة دار الفكر العربى بمصر .

ت .

- ٨٩ — تاريخ الأدب العربى في العصر الجاهلى . الأستاذ السباعى بيومى . مكتبة النهضة ١٩٤٨ م .

- ٨٩ — تاريخ الإسلام السياسى . الدكتور حسن إبراهيم بك . الطبعة الثانية . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .
- ٩٠ — تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين بك .
- ٩١ — تاريخ التربية . الأستاذ أحمد فهمى القطان بك . مطبعة مصر ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .
- ٩٢ — تاريخ تمدن الإسلامى . الأستاذ جرجى زيدان . مطبعة الهلال ١٩٠٢ - ١٩٠٦ .
- ٩٣ — تاريخ حضرموت السياسى . صلاح البكرى الياضى . المطبعة السلفية بمصر ١٣٥٤ هـ .
- ٩٤ — تاريخ الخنيس فى أحوال أنفس نفيس . الديار بكرى . المطبعة العامرة العثمانية ١٣٠٢ هـ .
- ٩٥ — تاريخ العرب (مطول) الدكاترة فيليب حتى وإدورد جرجى وجبرائيل جبور مطبعة دار الكشف بيروت ١٩٤٩ م .
- ٩٦ — تاريخ عمر بن الخطاب . ابن الجوزى . مطبعة صبيح بمصر .
- ٩٧ — التاريخ الكبير . أبو القاسم على بن عساكر . مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ .
- ٩٨ — تاريخ اللغات السامية . الدكتور إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .
- ٩٩ — تاريخ مكة . أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهى . من كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى . لينزج ١٨٥٩ م .
- ١٠٠ — تاريخ اليعقوبى . أحمد بن أبى يعقوب . نشره هوتسم M. TH. Hautsma .
- ١٠١ — تاريخ اليهود . أبو الفتح بن أبى الحسن السامرى . مطبعة جوتا بألمانيا ١٨٦٥ م .
- ١٠٢ — تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام . الدكتور إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م .
- ١٠٣ — تاريخ يوسفوس اليهودى . المطبعة العلمية بيروت .
- ١٠٤ — التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح . الزبيدى . مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر .
- ١٠٥ — تحفة الأبيہ فيمن نسب إلى غير أبيہ . الفيروز آبادى . من نوار المخطوطات . نشرها الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

- ١٠٦ — التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية في المدينة المنورة. عبد الحى الكنانى القاسى . المطبعة الأهلية بفاس ١٣٤٦ هـ .
- ١٠٧ — تراجم رجال القرنين السادس والسابع . أبو شامة . القاهرة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .
- ١٠٨ — تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق . داود الانطاكى . المطبعة البهية المصرية م .
- ١٠٩ — تطور النظرية التربوية . الأستاذ صالح عبد العزيز . المطبعة الأميرية .
- ١١٠ — تفسير الألوسى (روح المعانى) . السيد محمود شكرى الألوسى . دار الطباعة المنيرية بمصر .
- ١١١ — تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) .
- ١١٢ — تفسير الجلالين : مطبعة المعارف العلمية بمصر ١٣٤٤ هـ .
- ١١٣ — تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ .
- ١١٤ — تفسيرى الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) مطبعة بولاق ١٣٢٣ هـ .
- ١١٥ — تفسيرى الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) .
- ١١٦ — تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) مطبعة دار الكتب .
- ١١٧ — تفسير النيسابورى (تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان) على هامش الطبرى . بولاق ١٣٢٣ هـ .
- ١١٨ — التنبية والإشراف . المسعودى . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م :
- ١١٩ — تهذيب التهذيب . ابن حجر العسقلانى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بالهند ١٣٢٧ هـ .
- ١٢٠ — تهذيب الكامل للبرد . الأستاذ السباعى ييوى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م .
- ١٢١ — تيارات أدبية بين الشرق والغرب . الدكتور إبراهيم سلامة ١٩٥٢ م .
- ١٢٢ — تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول . ابن الديبع الشيبانى الزبيدى مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣١ هـ .
- « ث »
- ١٢٣ — ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب . الثعالبي . مطبعة الظاهر بمصر ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م .

« ج »

- ١٢٤ — الجامع الصحيح . الإمام مسلم بن الحجاج . دار الطباعة العامرة ١٣٢٩ هـ
١٢٥ — جهرة أشعار العرب . القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .
١٢٦ — جهرة الأمثال . أبو هلال العسكري . علي هامش مجمع الأمثال للبيداني . المطبعة
الخيرية بمصر ١٣١٠ هـ .
١٢٧ — جهرة أنساب العرب . ابن حزم الأندلسي . تحقيق ا . ليفي . بروفنسال .
مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٨ م .

« ح »

- ١٢٨ — حجة الله البالغة . أحمد شاه ولي الدين الدهلوي . المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ .
١٢٩ — حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة . جابى زاده علي فهمي . دار سعادت
روشن مطبعة سي ١٣٢٤ هـ .
١٣٠ — حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . السيوطي . مطبعة الموسوعات
بمصر ١٣٢١ هـ .
١٣١ — الحماسة . البحتري . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .
١٣٢ — الحنين إلى الأوطان . الجاحظ . مطبعة المنار بمصر ١٣٣٣ هـ .
١٣٣ — حياة الحيوان . الدميري . مطبعة بولاق .
١٣٤ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي . الدكتور أحمد محمد الحوفي . مطبعة نهضة مصر
١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م ،
١٣٥ — الحيوان . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة الباني الحلبي
بمصر . وطبعة ساسي .

« خ »

- ١٣٦ — الخراج . أبو يوسف . الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٢ هـ .
١٣٧ — الخراج . يحيى بن آدم القرشي . تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر . المطبعة
السلفية بمصر ١٣٤٧ هـ . وطبعة ليدن ١٨٩٥ م .
١٣٨ — خزائن الأدب . البغدادى . مطبعة دار العصور بمصر .
١٣٩ — خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى . السهمودي . مطبعة بولاق ١٣٨١ هـ .

« د »

- ١٤٠ — دائرة المعارف . الأستاذ محمد فريد وجدى .

- ١٤١ — دائرة المعارف . البستاني .
- ١٤٢ — داعي السماء الال بن رباح . الأستاذ عباس العقاد . طبعة سعد مصر بالقاهرة . ١٩٤٥ م .
- ١٤٣ — دلائل النبوة : أبو نعيم أحمد الأصبهاني . مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن ١٣٢٠ هـ .
- ١٤٤ — ديوان الاعشى الكبير ميمون بن قيس . تحقيق الدكتور محمد حسين . المطبعة النموذجية ١٩٥١ م .
- ١٤٥ — ديوان امرئ القيس . بشرح السندوني مطبعة الاستقامة بالقاهرة الطبعة الثانية .
- ١٤٦ — ديوان أمية بن أبي الصلت . تحقيق فون سرديك شلتهتر ١٩١١ م .
- ١٤٧ — ديوان أوس بن حجر . تحقيق رودلف جيمر Dr. Rudolf Ceyer ١٨٩٢ م .
- ١٤٨ — ديوان جرير . المطبعة السلفية بمصر ١٣١٣ هـ .
- ١٤٩ — ديوان حاتم طي . طبعة بيروت .
- ١٥٠ — ديوان الحادرة (قطب أو قطبة بن أوس بن محسن) أملاه أبو عبد الله الزبيدي . نشره انجلمان Dr. G. Engelmann
- ١٥١ — ديوان حسان بن ثابت . نشره محمد شكرى المكي مطبعة الإمام بمصر ١٣٢١ هـ .
- ١٥٢ — ديوان الخطيئة . بشرح السكرى . مطبعة التقدم بمصر .
- ١٥٣ — ديوان الخماسة لاني تمام (ا) بشرح التبريزي . مطبعة بولاق . (ب) بشرح المرزوقي تحقيق الأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد السلام هرون . مطبعة لجنة التأليف ١٢٧١ هـ .
- ١٥٤ — ديوان زهير بن أبي سلمى . بشرح أبي العباس الشيباني ثعلب . مطبعة دار الكتب ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م .
- ١٥٥ — ديوان سلامة بن جندل . رواية الأصمعي والشيباني والأحول . نشره الأب لويس شيخو اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٠ م .
- ١٥٦ — ديوان السموءل . رواية أبي عبد الله نفاطويه . نشره الأب لويس شيخو اليسوعي . بيروت ١٩٠٩ .
- ١٥٧ — ديوان طرفة (ا) بشرح الأعلام الشنتمري . مطبعة برطانية بمدينته شالون . ١٩٠٠ م (ب) تشرح الشنقيط ١٩٠٩ م .

- ١٥٨ — ديوان طفيل الغنوى . رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي . نشره كرنكو F. Krankow لندن ١٩٢٧ م .
- ١٥٩ — ديوان عامر بن الطفيل العامري . رواية ابن الأنباري عن ثعلب . بتحقيق ليال Sir Charles Lyall كمبردج ١٩١٩ م .
- ١٦٠ — ديوان عروة بن الورد . بشرح ابن السكيت . طبعة بيروت .
- ١٦١ — ديوان علقمة الفحل . طبعة بيروت .
- ١٦٢ — ديوان عمرو بن قنينة . نشره ليال Sir Charles Lyall كمبردج ١٩١٩ م .
- ١٦٣ — ديوان عنتر بن شداد . تحقيق عبد المنعم شلبي . مطبعة شركة فن الطباعة .
- ١٦٤ — ديوان الفرزدق . مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٤ هـ .
- ١٦٥ — ديوان قيس بن الخطيم نشره رودلف جير Dr. Rudolf Geyer فينا ١٩١٤ هـ .
- ١٦٦ — ديوان لبيد . نشره هوبر Dr. A. Huber ليدن ١٨٩١ م .
- ١٦٧ — ديوان المتنبى . شرح البرقوقى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ . ١٩٣٠ م .
- ١٦٨ — ديوان المسيب بن علس . ملحق بديوان الأعشى . تحقيق رودلف جير .
- ١٦٩ — ديوان معن بن أوس المزني . رواية أبي علي إسماعيل بن القاسم . نشره بول اسكوارز Paul Schwarz ليزج ١٩٠٣ م .
- ١٧٠ — ديوان النابغة الذبياني . بشرح البطلوسى . طبعة بيروت .
- ١٧١ — ديوان نابغة بنى شيبان . مطبعة دار الكتب بمصر ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .
- ١٧٢ — ديوان الهذليين . مطبعة دار الكتب ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .
- « ذ »
- ١٧٣ — ذيل الأمالى والنوادر . القالى . طبعة دار الكتب .
- « ر »
- ١٧٤ — رسالة الغفران . المعرى . تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن . مطبعة دار دار الكتب بمصر .
- ١٧٥ — رسالة القيان . الجاحظ من ثلاث رسائل للجاحظ . نشرها يوشع فنكل . المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٤ هـ .

- ١٧٦ — الرق في الإسلام . أحمد شفيق ياشا . مطبعة بولاق ١٨٩٢ م .
 ١٧٧ — الروض الأنف . شرح سيرة ابن هشام . السهيلي . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .
 ١٧٨ — رياض الأدب في مرآئ شواعر العرب . جمعه الأب لويس شيخو اليسوعي .
 طبعة بيروت ١٨٩٧ .

« ز »

- ١٧٩ — زاد المعاد في هدى خير العباد . ابن القيم الجوزية . مطبعة صبيح بمصر
 ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م .
 ١٨٠ — زهر الآداب للحصري . نشره الدكتور زكي مبارك . المطبعة الرحمانية بمصر .

« س »

- ١٨١ — سمط اللآلئ في شرح أمالي القالي . البكري . بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى .
 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٦ م .
 ١٨٢ — السنن الكبرى . البيهقي . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٥٥ هـ .
 ١٨٣ — سيرة النبي . ابن هشام . بتحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة
 حجازي بالقاهرة .

« ش »

- ١٨٤ — شرح التنوير على سقط الزند للمعري . مطبعة الإسلام بمصر ١٣٢٤ هـ .
 ١٨٥ — شرح القصائد العشر . التبريزي . مطبعة صبيح بمصر .
 ١٨٦ — شرح الموطأ للإمام مالك . الزرقاني . المطبعة الكستلية ١٢٨٠ هـ .
 ١٨٧ — شرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد . مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٢٩ هـ .
 ١٨٨ — شرح الهاشميات للكميت بن زيد الأسدي . مطبعة شركة التدين الصناعية بمصر .
 ١٨٩ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة (١) بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر . مطبعة الحلبي
 ١٣٦٤ هـ .

- (ب) بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا مطبعة المعاهد بمصر ١٣٥٠ هـ ١٩٣٢ م .
 ١٩٠ — شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعي . مطبعة الآباء اليسوعيين
 بيروت ١٨٩٠ م .

١٩٣ — شفاء النفس . الدكتور يوسف مراد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٣ م .

« ص »

١٩٤ — الصبح المنير في شرح ديوان أبي بصير ميمون بن قيس . بشرح أبي العباس

ثعلب . نشره الدكتور رودلف جيير Dr. Rudolf Geyer مطبعة أدلف هلز هوسن ١٩٢٧ م .

١٩٥ — صبح الأعشى . القلقشندي . مطبعة دار الكتب بمصر .

١٩٦ — صحيح البخارى بشرح الكرمانى . المطبعة المصرية ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

١٩٧ — صحيح سنن المصطفى . أبو داود السجستانى . المطبعة الكستلية ١٢٨٠ هـ .

١٩٨ — الصناعتين . أبو هلال العسكري . الطبعة الثانية . مطبعة صبيح بالقاهرة .

١٩٩ — صور البديع . فن الاستجماع . الأستاذ على الجندى .

« ط »

٢٠٠ — طبقات الأمام . صاعد الاندلسى . نشره الآب لويس شيخو اليسوعى . المطبعة

الكاثوليكية ببيروت ١٩١٢ م .

٢٠١ — طبقات الشافعية الكبرى . ابن تقي الدين السبكي . المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢٤ هـ .

٢٠٢ — طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحى . تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر .

مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .

٢٠٣ — الطبقات الكبير . ابن سعد . نشره إدوارد سخو . مطبعة بريل بليدن ١٣٢١ هـ .

٢٠٤ — طهارة العرب . أحمد بن الأمين الشنقيطى .

« ع »

٢٠٥ — غبقرية المسيح . الأستاذ عباس العقاد . مطبعة دار أخبار اليوم ١٩٥٣ م .

٢٠٦ — العرب قبل الإسلام . الأستاذ جورجى زيدان .

٢٠٧ — عصر ما قبل الإسلام . الأستاذ محمد مبروك نافع . مطبعة وادى النيل ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٢٠٨ — العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين . نشره ولیم بن الورد البروسى .

لندن ١٨٧٠ م .

٢٠٩ — العقائد . عمر عنایت . مطبعة دار العصور بمصر ١٩٢٨ م .

٢١٠ — علم النفس الفردى ، أصوله وتطبيقه . الدكتور إسحاق رمزى . مطبعة دار

المعارف بمصر .

- ٢١١ — عمدة القارى لشرح صحيح البخارى . العيني . المطبعة الاميرية .
 ٢١٢ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده . الطبعة الاولى . مطبعة أمين هندية بمصر .
 ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥ م .
 ٢١٣ — عنوان المرقصات والمطربات . نور الدين على المغربى . مطبعة جمعية المعارف ١٢٨٦ هـ .
 ٢١٤ — عيون الاخبار . ابن قتيبة . طبعة دار الكتب .
 ٢١٥ — عيون الانباء فى طبقات الاطباء . ابن أبى أصيبعة .
 ٢١٦ — عيون المسائل الشرعية فى الاحوال الشخصية . الأستاذ على حسب الله . الطبعة الثانية . مطبعة العلوم بمصر ١٣٧٠ هـ — ١٩٥٠ م .

غ

- ٢١٧ — الغزل فى العصر الجاهلى . الدكتور أحمد الحوفى . مطبعة لجنة البيان العربى
 ١٣٧٠ هـ — ١٩٥٠ م .
 ٢١٨ — الغناء للأطفال عند العرب . الدكتور أحمد عيسى بك . المطبعة الاميرية ببولاق .

« ف »

- ٢١٩ — الفائق فى غريب الحديث . الزمخشري . مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية
 بالهند ١٣٢٤ م .
 ٢٢٠ — الفاخر . أبو طالب المفضل بن سلمة الكوفى . نشره سالىس انبروس . مطبعة
 بريل بليدن ١٩١٥ م .
 ٢٢١ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى . العسقلانى . المطبعة الاميرية ١٣٠١ هـ .
 ٢٢٢ — فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى . الشرقاوى . مطبعة مصطفى البانى الحلبى بمصر .
 ٢٢٣ — الفتوة عند العرب . الأستاذ عمر الدسوقي . مطبعة لجنة البيان العربى بمصر ١٩٥١ م .
 ٢٢٤ — فتوح البلدان . البلاذرى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ — ١٩٠١ م .
 ٢٢٥ — فتوح الشام . أبو إسماعيل محمد الأزدى البصرى . مطبعة بيتست مشن كلكتة ١٨٥٤ م .
 ٢٢٦ — الفصل فى الملل والنحل لابن حزم . المطبعة الادبية بمصر ١٣١٧ هـ .
 ٢٢٧ — الفهرست . ابن النديم . ليزج ١٨٧١ م .
 ٢٢٨ — فوات الوفيات . ابن شاكر . المطبعة الاميرية ١٢٩٩ هـ .

٢٢٩ - في علم النفس الأستاذ محمد عطيه الإبراشي والأستاذ حامد عبد القادر
المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م.

(ق)

٢٣٠ - القاموس المحيط . الفيروز آبادي .
٢٣١ - القرآن الكريم . ألف الله
٢٣٢ - قصة الأدب الفارسي . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة لجنة البيان العربي
١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م :

٢٣٣ - قصص الأنبياء . الأستاذ عبد الوهاب النجار . الطبعة الثانية . مطبعة النصر
١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .

٢٣٤ - قواعد الشعر . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب رواية أبي عبيد الله محمد المرزباني .
نشره اسكيابالي G. Schiaparelli مطبعة بريل بليدن . ١٨٩٠ م .

(ك)

٢٣٥ - الكامل في التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

٢٣٦ - الكامل . المبرد . مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ .

٢٣٧ - كتاب الأمل . أبو عبد الله محمد اليزيدي . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد
الدكن ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

٢٣٨ - كتاب بكر وتغلب . مطبعة نخبة الأخبار بيومي ١٣٠٥ هـ .

٢٣٩ - كتاب حرب بني شيبان مع كسرى أنوشروان . مطبعة نخبة الأخبار بالهند ١٣٠٥ هـ .

٢٤٠ - كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني . ابن قتيبة . مطبعة المعارف العثمانية

بحيدر آباد ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م

٢٤١ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال . علاء الدين علي المتقي الهندي .
مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣١٣ هـ

(ل)

٢٤٢ - لزوم ما لا يلزم . المعري . الطبعة الأولى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣ هـ ١٩١٥ م .

٢٤٣ - لسان العرب . ابن منظور .

٢٤٤ - اللطائف والظرائف . الثعالبي . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٦ هـ .

(٢)

٢٤٥ — المؤلف والمختلف . الأمدى . نشره الدكتور فريتس كرنكو . مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

٢٤٦ — مبادئ علم النفس العام . الدكتور يوسف مراد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .

٢٤٧ — المبسوط . شمس الدين السرخسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .

٢٤٨ — مجالس ثعلب . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة دار المعارف بمصر .

٢٤٩ — مجمع الأمثال . الميدانى . المطبعة البهية المصرية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ .

٢٥٠ — مجموعة رسائل الجاحظ . طبعة ساسى .

٢٥١ — المحاسن والأضداد . الجاحظ . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣٠ هـ — ١٩١٢ م .

٢٥٢ — محاضرات الأدباء . الراغب الأصبهاني . مطبعة المويلحي .

٢٥٣ — المحبر . أبو جعفر محمد بن حبيب برواية أبي سعيد السكرى . نشرته الدكتور

إيلزه ليختن شتير الأ أمريكية . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦١ — ١٩٤٢ م .

٢٥٤ — المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ .

٢٥٥ — مختلف القبائل ومؤلفها . أبو جعفر محمد بن حبيب . نشره وستنفيلد . طبعة

غوتمنجن ١٨٥٠ م .

٢٥٦ — المخصص . ابن سيده .

٢٥٧ — المدونة الكبرى . الإمام مالك . الطبعة الأولى . المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٤ هـ .

٢٥٨ — المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها . الأستاذ عبد الله عفيفى بك . الطبعة

الثانية . مطبعة المعارف بمصر ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣

٢٥٩ — المرأة فى التاريخ والشرائع . الأستاذ محمد جميل بيهم . بيروت ١٣٣٩ — ١٩٢١ م .

٢٦٠ — المرأة فى مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكي . مطبعة دار الكتب ١٩٤٧ م .

٢٦١ — المرأة المسلمة . الأستاذ محمد فريد وحدى . مطبعة الترقى بمصر ١٣١٩ هـ — ١٩٠١ م .

٢٦٢ — المردفات من قریش . أبو الحسن المدائنى . نشره الأستاذ عبد السلام هارون

فى نواذر المخطوطات . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م .

٢٦٣ — مروج الذهب . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .

- ٢٦٤ — مسالك الممالك. أبو إسحاق إبراهيم الإصطخرى المعروف بالكرخى. ليدن ١٩٢٧ م.
- ٢٦٥ — المسالك والممالك. ابن حوقل. مطبعة بريل بليدن ١٨٧٢ م.
- ٢٦٦ — المستطرف من كل فن مستطرف. الألبشهى. المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٨ هـ.
- ٢٦٧ — مسند الإمام أحمد بن حنبل. المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ.
- ٢٦٨ — مصارع العشاق. أبو محمد جعفر السراج. مطبعة الجوائب بالآستانة ١٩٠٧ م.
- ٢٦٩ — مصر القديمة. الأستاذ سليم حسن بك. مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م.
- ٢٧٠ — مطالع البدور فى منازل السرور. علاء الدين البهائى الغزولى. مطبعة إدارة الوطن بمصر ١٢٩٩ هـ.
- ٢٧١ — المعارف. ابن قتيبة الدينورى. المطبعة العامرة الشرفية بمصر ١٣٠٠ هـ.
- ٢٧٢ — معجم الأدباء. ياقوت الحموى. مطبعة دار المأمون بمصر ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م.
- ٢٧٣ — معجم البلدان. ياقوت الحموى. مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م.
- ٢٧٤ — معجم الشعراء. المرزبانى. نشره الدكتور سالم الكرنكوى. مكتبة المقدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ.
- ٢٧٥ — معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. البكرى. تحقيق الأستاذ مصطفى السقا. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م.
- ٢٧٦ — المغازى. الواقدى. طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٥ م.
- ٢٧٧ — المفضليات للضبي. تحقيق الأستاذ أحمد شاكر والأستاذ عبد السلام هارون. الطبعة الأولى. مطبعة المعارف بمصر ١٣٦٢ هـ ١٩٤٣ م.
- ٢٧٨ — مقال (المذكر والمؤنث) الرسالة العدد ٢٨٥. الأستاذ عمر الدسوقي.
- ٢٧٩ — مقدمة ابن خلدون. المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م.
- ٢٨٠ — ملحق بديوان النابغة الذبياني. أخرجه M. Hartwy Derenbourg. باريس ١٨٩٩ م.
- ٢٨١ — الملل والنحل. الشهرستانى. على هامش الفصل لابن حزم. المطبعة الادبية بمصر ١٣١٧ م.
- ٢٨٢ — من حديث الشعر والنثر. الدكتور طه حسين مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م.
- ٢٨٣ — منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى. مطبعة بريل بليدن ١٩١٦ م.

- ٢٨٤ — موسيقى الشعر . الدكتور إبراهيم أنيس . دار الفكر العربي بمصر .
٢٨٥ — الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء . المرزباني . المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٣ هـ .
٢٨٦ — ميزان الاعتدال في نقد الرجال . الحافظ الذهبي . طبع الهند ١٣٠٩ هـ .

(ن)

- ٢٨٧ — نزهة الأبصار والاسماع في أخبار ذوات القناع . لم يذكر مؤلفه على الكتاب
ولا في فهرس دار الكتب ولا في فهرس المكتبة التيمورية . المطبعة العامرة
العثمانية بمصر ١٣٠٥ هـ .

- ٢٨٨ — نزهة الألباء في طبقات الأدباء . ابن الأنباري . المطبعة الأميرية ١٢٩٤ هـ .
٢٨٩ — نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق . يوسف رزق الله غنيمه . مطبعة الفرات ببغداد
١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م .

- ٢٩٠ — نسب عدنان وقحطان . المبرد . أخرجه الأستاذ عبد العزيز الميمنى . مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م .

- ٢٩١ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية . الأستاذ محمد
جمعة . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٩ م .

- ٢٩٢ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . المقرئ طبعة أوروبا .

- ٢٩٣ — نفسية المراهق . الأستاذ رياض عسكر :

- ٢٩٤ — نقد الشعر . قدامة بن جعفر . نشره الأستاذ محمد عيسى منون . المطبعة
الوطنية بمصر ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م .

- ٢٩٥ — نقد النثر . قدامه بن جعفر . تحقيق الدكتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد
العبادي . مطبعة مصر ١٩٣٩ م .

- ٢٩٦ — النقائص . نقائص جرير والفرزدق . مطبعة بريل بليدن ١٩٠٧ م .

- ٢٩٧ — نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب . القلقشندي . مطبعة الرياض ببغداد .

(هـ)

- ٢٩٨ — هذه الشجرة . الأستاذ عباس محمود العقاد .

- ٢٩٩ — الهنود الحمر . الدكتور على عبد الواحد وافي (سلسلة أقرأ ٨٨) .

٣٠٠ — الهوامل والشوامل. أبو حيان التوحيدى ومسكويه. نشره الأستاذ أحمد أمين بك
والأستاذ السيد صقر. مطبعة لجنة التأليف ١٩٥١ م.

(و)

٣٠١ — وفيات الأعيان. ابن خلكان. مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ.

(٣) كتب مترجمة إلى العربية

، ا ،

٣٠٢ — أحلام اليقظة. تأليف الدكتور جورج هنرى جرين. ترجمة الأستاذ إبراهيم
حافظ ومراجعة الأستاذ زكى المهندس بك. مطبعة لجنة البيان العربى بمصر ١٩٥٠ م.

٣٠٣ — الإسلام. خواطر وسوانح. تأليف الكونت هنرى دى كاسترى. ترجمة
أحمد فتحي زغلول باشا. مطبعة السعادة بمصر.

٣٠٤ — الإلياذة. هو ميروس. ترجمة الأستاذ سليمان البستاني. مطبعة الهلال بمصر.

٣٠٥ — الإمبراطورية البيزنطية. تأليف نورمان بينتر. ترجمة الدكتور حسين مؤنس
والأستاذ محمود زايد. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ م.

٣٠٦ — أمراء غسان. تأليف الدكتور ثيودور نولدكه. ترجمة الدكتور بندلى جوزى
والدكتور قسطنطين زريق. المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٣٣ م.

٣٠٧ — الأمومة عند العرب. تأليف ولكن G. A. Wilken ترجمة بندلى صليبا
الجوزى ١٩٠٢ م.

٣٠٨ — أهل الذمة فى الإسلام. تأليف ا. س. ترنون. ترجمة الأستاذ حسن حبشى.
مطبعة الاعتماد بمصر.

، ت ،

٣٠٩ — تاريخ الحضارة. تأليف شارل سنيوبوس. ترجمة الأستاذ محمد كرد على بك.
مطبعة الظاهر بالقاهرة.

٣١٠ — تاريخ الحضارة الإسلامية. تأليف ف. بار تولد الروسى. ترجمه من التركية
الأستاذ حمزة طاهر. مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م.

٣١١ — تاريخ الشعوب السامية (العرب والإمبراطورية العربية) تأليف بروكلمان.
ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير البعلبكي. دار العلم للبلايين

ببيروت ١٩٤٨ م.

٣١٢ — تاريخ العالم . نشره بالإنجليزية السير جون . ا . هامرتن . ترجمة إدارة الترجمة
بوزارة المعارف بمصر .

٣١٣ — تاريخ الفلسفة في الإسلام . تأليف دي بور De Boer ترجمة الأستاذ محمد
عبد الهادي أبو ريده . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م .

٣١٤ — تراث الإسلام . تأليف جماعة من المستشرقين . نشرته لجنة النشر للجامعيين .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م .

« ج »

٣١٥ — جمهورية أفلاطون . ترجمة الأستاذ حنا خباز . مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٢٩ م .

« ح »

٣١٦ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية . تأليف فون كريم .

ترجمة دكتور مصطفى بدر . دار الفكر العربي بمصر ١٩٤٧ م

٣١٧ — حضارة العرب تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة الأستاذ عادل زعير .

الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٣١٨ — الحضارة المصرية . تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة الأستاذ محمد صادق

رستم . المطبعة العصرية بمصر .

٣١٩ — حضارات الهند . تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعير .

مطبعة احياء الكتب العربية بمصر ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٣٢٠ — الحياة والحب . تأليف إميل لودفيج . ترجمة الأستاذ عادل زعير . مطبعة

المعارف بمصر .

٣٢١ — دائرة المعارف الإسلامية . ترجمها الأستاذة عبد الحميد يونس وإبراهيم

خورشيد وعباس محمود وأحمد الشنتناوى .

٣٢٢ — الدعوة إلى الإسلام . تأليف أرنولد Sir T. Arnold ترجمة الدكتور حسن

إبراهيم والأستاذ عبد الحميد عابدين والأستاذ إسماعيل النجراوى . مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٧ م .

٣٢٣ — ديانة قدماء المصريين . تأليف الأستاذ استيندرف الألماني . ترجمة سليم

حسن بك . مطبعة المعارف بمصر ١٩٢٣ م .

« د »

٣٢٤ — روح الاجتماع . تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا .

مطبعة الشعب بالقاهرة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م .

« س »

٣٢٥ — سيكولوجيا المرأة . تأليف فرويد ترجمة الدكتور محمد مختار صدقي . مطبعة دار النيل .

« ش »

٣٢٦ — الشاهنامة . الفردوسي . ترجمة الفتح بن علي البغدادي . تحقيق الدكتور

عبد الوهاب عزام . مطبعة دار الكتب بمصر .

٣٢٧ — شعار الخضر في الأحكام الشرعية الإسرائيلية للقرائين ترجمة وشرح الأستاذ

مراد فرج . مطبعة الرغائب بمصر ١٩١٧ م

« ع »

٣٢٨ — العقد الأنفس في ملخص التاريخ المقدس . وهو ترجمة لكتاب تاريخ الامة

الإسرائيلية من اللغة الفرنسية . ترجمة تادرس وهي . مطبعة جريدة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ .

٣٢٩ — العهد الجديد . مترجم من اللغة اليونانية . كبرديج ١٩٢٧ م .

« ق »

٣٣٠ — قصة الحضارة . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود . مطبعة

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ م .

٣٣١ — قصة الحضارة الفارسية . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور إبراهيم

الشواري . مكتبة الخانجي ١٩٤٧ م .

٣٣٢ — قواعد المنهج في علم الاجتماع . تأليف الدكتور إميل دوركايم . ترجمة الدكتور

محمود قاسم . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ م .

« ك »

٣٣٣ — كتاب الشعر . أرسططاليس . ترجمة الأستاذ إحسان عباس . دار الفكر العربي

٣٣٤ — كتاب العهد القديم

٣٣٥ — كيف يعمل العقل . تأليف سرل برت . ترجمة الأستاذ محمد خلف الله .

« ل »

٣٣٦ — اللغة تأليف ج فندريس . ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي والدكتور محمد

القصاص . مطبعة لجنة البيان العربي .

« م »

٣٣٧ — مبادئ علم الاجتماع الديني . تأليف روجيه باستيد . ترجمة الدكتور محمود

قاسم . مكتبة الأنجلو ١٩٥١ م .

٣٣٨ — المرأة والدولة في فجر الإسلام . تأليف نابية أبوت Nabia Abbot ترجمة الأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

٣٣٩ — مركز المرأة في الإسلام . تأليف السيد أمير علي الهندي . ترجمة الأستاذ علي فهمي محمد . مطبعة إلياس زخورا بالقاهرة .

٣٤٠ — مسائل فلسفة الفن المعاصرة . تأليف ج . م . جوبو : ترجمة الأستاذ سامي الدروبي . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٨ م .

٣٤١ — المعجم في اللغة الفارسية . نقله إلى العربية الدكتور محمد موسى هنداوى . مطبعة مصر .

٣٤٢ — مقدمة الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ .

٣٤٣ — مقدمة في علم النفس الاجتماعى . تأليف الدكتور شارل بلوندل . ترجمة الدكتور محمود قاسم والدكتور إبراهيم سلامة ، مكتبة الأنجلو بمصر ١٩٥١ م .

« د »

٣٤٤ — اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعير ، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ م .

(٤) المراجع الإفرنجية

إنجليزية

345. An Introduction to the Sociology of Islam. by Levy. 1933.
346. History of Arabian Music. by Farmer. London. 1929.
347. A History of the Jews. by Soloman Grayzel. Philadelphia. 1948.
348. A Literary History of the Arabs. by Reynold. A. Nicholson. London 1907.
349. A Literary History of Persia, by Browne. London, 1902.
350. Arabic Before Mohammed. by O'Leary. London 1927.
351. Chambars's Twentieth Century Dictionary.
352. Educational Psychology. by Skinner. New York. 1939.
353. Encyclopedia Americana. New York. Chicago.
354. Encyclopedia Britannica.
355. General Sociology. by Wright and Elmer Farrer and Renehart. 1936.
356. History of the Arabs. by Hitti. London 1940.
357. History of Egypt. Sharpe. vol. 2. London 1885.
358. Israel from its Beginning to the Middle of the Eighth Century, by Adolphe Lods. London 1932.
359. Introduction to Social Psychology. by Meekerzee and Elmer. London 1928.
360. Kinship and Marriage in Early Arabian. by Robertson Smith. London 1907.
361. Lust for Life. by Irving Stone. '946.
362. Man and Woman. by Havelook Ellis.
363. Muslim Law. An Historical Introduction to the Law of Inheritance. by Alexander David Russel and Abdullah Al Mamun Suhrawrdy. Loudon.
364. On the Origin of Civilisation and Primitive Condition of Man. by Lubbock.
355. Original Sources of the Quran. by theRev. W.S.T. Clair Tisdall. New York. 1865.
366. Studies in Ancient History. Primitive Marriage. by Mac Lenan. 1865.

367. Sources of Islam, by the Rev. W.S.T. Clair Tisdall, Edinburgh. 1901.
368. Space, Time and Gravitation, by A.S. Eddington. 1920.
369. The Aesthetics. by Knox. New York. 1936.
370. The Background of Islam By Philby
371. The Caliphate. its rise. Decline and Fall. by Sir William Muir. Edinburgh. 1924.
372. The Great Encyclopedia of Universal Knowledge. London.
373. The Women in ayyam El Arab. Ilse Lichtenstadter. London 1935.
374. The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam. by Margolioth.
375. The Psychology of Marriage, by Walter M. Gallichan, London 1927.
376. The Science of Living Things. Heredity : The Stream of Life. By Eldon Moore. London. 1935.

فرنسية

377. Essai sur l' Histoire des Arabes, par De Perceval. Paris 1848.
378. Histoire des Papes. Paris 1842.
379. La Grande Encyclopedie. Tome 17
380. La Question Feministe. par Rosler.
381. L'Arabie Occidentale avant l'Hegire. par H.Lammans. Beyrouth. 1928.
382. La Religion des Primitifs Par Monseigneur. Leory.

فارسی

۳۸۳ — سیاست نامه . تألیف نظام الملک . طهران ۱۳۲۰ هجری شمسی

فهرس الكتاب

١ - ز

المقدمة

١ - ٥١

تمهيد

صلات العرب بالأمم والحضارات ومكانة المرأة فيها

صلة العرب باليهود : مقدم اليهود إلى الحجاز (٤) اختلاطهم بالعرب (٥) اليهود باليمن وما جاورها (٩) أثر اليهود في العرب (١١) المرأة اليهودية (١٤) صلة العرب بالنصارى : النصرانية في الشمال والوسط (١٨) النصرانية في اليمن (٢١) أثرها في العرب (٢٢) المرأة النصرانية (٢٤)

صلة العرب بالفرس : العلاقة القديمة بين العرب والفرس (٢٦) إمارة الخيرة (٢٧) الفرس باليمن والبحرين (٢٧) صلوات أخرى (٢٨) أثر الفرس في العرب (٢٩) المرأة الفارسية (٣٧)

صلة العرب بالرومان واليونان : مملكة الأنباط . مملكة تدمر (٣٩) مملكة غسان (٤٠) خضوع قبائل عربية للرومان (٤٠) أثر الرومان في العرب (٤١) المرأة الرومانية واليونانية (٤٢) صلة العرب بمصر : قدم الاتصال . الهكسوس بمصر (٤٦) العرب بقفط والصعيد (٤٨) التجارة بين مصر والعرب (٤٩) المرأة المصرية (٤٩)

القسم الأول

المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية

الباب الأول

(المرأة في الحياة الأسرية)

الفصل الأول

٥٤ - ١١٦

(الأم)

الأسرة أساس القبيلة (٥٤) الأم معين الأسرة (٥٥) أثر الأم في القرابة (٥٦) الأم الحرة (٥٩) الأم المنجبة (٦٤) النسب إلى الأم : مظاهره . آراء في أصل النسب إلى الأم . مناقشتها . رأي في هذا النسب (٦٦ - ٨٦) مظاهر حب الأم لبنيتها : التربية الجسمية (٨٦)

التربية الخلقية (٨٩) تمنى أن يعيشوا (٩١) رفضها الزواج إبقاء عليهم (٩٢) حرصها على ما لهم (٩٣) حزنها على فقيدهم (٩٣) رثاؤها موتاهم (٩٣) رفضها دية القتل (٩٤) مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم : إغزاز الأم . حمايتها من المهانة (٩٥) الفخر بالأم . التفدية بها . تلبية مشورتها (٩٦) التعبير عن الإخوة الأشقاء بأبناء الأم (٩٧) إثارتها على الزوجة (٩٨) إغزاز الإخوة لأم (٩٩) إغزاز الخال (١٠٢) مظاهر إغزاز الخال (١٠٣ - ١١٢) عقود الأمهات (١١٢)

الفصل الثاني

٢٢١ - ١١٧

الزوجة

أثر المصاهرة (١١٧) الزوجة المثلى : صفاتها المسدوحة (١١٨ - ١٢٣) صفاتها المذمومة (١٢٣ - ١٢٦) الزوجات الغربيات (١٢٦) الحكمة في الاغتراب . عقيدة العرب . رأى القدماء . رأى العلم الحديث . منافع أخر في الاغتراب . (١٢٧ - ١٢٩) الزواج من شعوب أخرى (١٢٩) .

الزوج الكفء في نظر المرأة وآلها . مظاهر كفاءته (١٣٢ - ١٤٥) حرية المرأة العربية في اختيار زوجها . موازنة بينها وبين غيرها (١٤٥ - ١٤٩) الخطبة والإملاك (١٤٩) المهر (١٥١ - ١٥٦) وصايا للزوجة عند زفافها (١٥٦) .

مكانة الزوجة عند زوجها . مظاهر إغرازه لها (١٥٨ - ٧٠) مكانة الزوج عند زوجته . مظاهر إغرازها له (١٧٠ - ١٨٣) تمرد بعض الزوجات (١٨٣) تعدد الزوجات ووحدهن عند الأمم وعند العرب . عداا الضرائر . هل في التعدد منقصة للمرأة ، (١٨٧ - ١٩٦) أنكحة الجاهلية (١٩٦ - ٢٠٠) المحرمات في الجاهلية . المحرمات عند الأمم الأخرى (٢٠١ - ٢٠٦) الطلاق وأنواعه . الطلاق عند الأمم (٢٠٦ - ٢١٣) حق المرأة في الطلاق (٢١٣) حسرة بعد الطلاق (٢١٦ - ٢٢٠) العدة (٢٢٠) .

الفصل الثالث

٢٤٩ - ٢٢٢

البنت

حب بعض العرب للبنات . مظاهر حبهن في الجاهلية والإسلام (٢٢٢) مدح البنت تكريماً لأبيها (٢٢٦) اعتداد أبيها برأيها وبإجارتها (٢٢٧) كنيته بأسمها (٢٩) بغض بعضهم للبنات (٢٣٠) الوأد . أسبابه ، طريقته ، هل اقتصر على الإناث ؟ هل كان عاماً ؟ موقف الأم من الوأد . إحياء الموءودات . قتل الأولاد في بعض الأمم . الوأد ومكانة المرأة العربية (٢٣٢ - ٢٤٢) حب البنت لأبيها . مظاهر هذا الحب (٢٤٢ - ٢٤٩) .

الفصل الرابع

الأخت والقريبة

٢٥٨ — ٢٥٠

مظاهر حب الأخ لأخته وإعزازها (٢٥٠) مظاهر حب الأخت لأخيها (٢٥٢) إعزاز الرجال لقربياتهم (٢٥٥) إعزاز القريبة لأقاربها (٢٥٧).

الفصل الخامس

حقوق المرأة المالية

٢٦٨ — ٢٥٩

ملكية المرأة العربية (٢٥٩) موازنتها بغيرها من نساء الأمم . حريتها في التصرف المالي (٢٦١) المرأة والميراث . الدليل على أنها ترث . نصوص تؤيد ذلك . ذكور لا يرثون . امتياز المرأة العربية بالميراث (٢٦٣ — ٢٦٩) الإسلام وتوريث النساء (٢٦٩).

الباب الثاني

(المرأة في الحياة العامة)

الفصل الاول

(أخلاق المرأة)

٢٩٢ — ٢٧١

شجاعتها النفسية (٢٧١) استمساكها بعقيدها (٢٧٣) عزة نفسها (٢٧٨) عفتها (٢٨٠) قصة الفطيون (٢٨٣) حياؤها (٢٨٥) كرمها (٢٨٦) بخلها (٢٨٨) بين أخلاقها في الجاهلية وفي الإسلام (٢٨٩).

الفصل الثاني

(المرأة سافرا ومحتجة)

٣١٥ — ٢١٢

السفور : الأدلة على سفور بعضهن . حالات لا بد فيها من السفور (٢٩٢ — ٢٩٦) الحجاب : تحجب بعضهن . تفنيد دعوى فير weir أن الحجاب لم يعرف في الجاهلية . الأدلة على ممارسة بعضهن للحجاب . الحجاب في الأمم . حكم الإسلام في السفور والحجاب (٢٩٧ — ٣٠٢)

أنواع خمرها وملابسها وأسمائها وألوانها (٣٠٢ — ٣١٠) حليها (٣١٠ — ٣١٥)

الفصل الثالث

صناعات المرأة

٣٣٩ — ٣١٦

تربية الأولاد (٣١٦) التطيب (٣١٦) الغزل والنسج (٣١٧) التجميل (٣١٨) الإرضاع

(٣١٨) القبالة (٣١٩) نسج الحصر (٣١٩) تقويم الرماح (٣١٩) الرعى (٣٢٠) ممارسة بعض أعمال الرجل (٣٢٠) جنى السكأة (٣٢١) الرقى (٣٢٢) الكهانة والعرافة (٣٢٢) دلالة الكهانة على علو مكانة المرأة (٣٢٦) القراءة والكتابة : الأدلة على معرفة العرب للقراءة والكتابة (٣٢٨ — ٣٢٤) نساء يكتبن ويقرأن (٣٣٤) معرفتها النجوم (٣٣٦) خبرتها بالمرعى (٣٣٩).

الفصل الرابع

المرأة في الحرب

٣٤٠ — ٣٦٥

تمهيد (٣٤٠) المرأة المحاربة : قيادتها الجيش . محاربتها (٣٤٣ — ٣٥٠) المرأة والثأر (٣٥١ — ٣٥٥) المرأة جاسوسة في الحرب (٣٥٥) الطعائن في الحرب (٣٥٥ — ٣٥٦) أثر الطعائن (٣٥٧ — ٣٦٢) تنحية المرأة عن الحرب (٣٦٢) المرأة رسول سلام (٣٦٥)

الفصل الخامس

السبايا والإماء

٣٦٦ — ٤١٢

السبايا :

السبي نظام عام (٣٦٦) الفخر بالسبي والتعير به (٣٦٧) المدح به (٣٦٩) استخلاص السبايا (٣٧٠) إعتاق السبايا (٣٧٣) إطلاقهن بعوض (٣٧٥) بغض المرأة للسبي (٣٧٧) معاملة السبايا . استيلادهن عند العرب وغيرهم . إحسان معاملتهن . بيعهن وهبتهن وإرثهن عند العرب وغيرهم . القسوة عليهن أحياناً عند العرب وغيرهم (٣٨٢ — ٣٨٨)

الإماء :

التفرقة بين السبي والامة (٣٨٩) معاملة الإماء : استيلادهن . مكانة أبنائهن . شرف بعض أبنائهن . سبب احتقار العرب لهم . أبناء الإماء في الأمم الأخرى (٣٩١ — ٣٩٥) . استرقاق الإماء . أعمالهن . بغاؤهن . العهارة المقدسة في الأمم . (٣٩٦ — ٤٠٢) السباء بين الجاهلية والإسلام (٤٠٣ — ٤١٢)

الفصل السادس

المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة

٤١٣ — ٤٣٦

شعور المرأة بمساواتها للرجل (٤١٤) توليها الملك . بعض الملكات (٤١٥ — ٤٢٠)

شهيرات (٤٢٠) مجيرات (٤٢١) اشتراك المرأة في حلف (٤٢٣) إهانتها تشعل حرباً (٢٢٤) مكانتها العامة (٤٢٥) أثر هذه المكانة في المرأة الأوربية (٤٢٥ — ٤٣٢) موازنة المرأة العربية بغيرها : موازنتها بالعبرية ، والمسيحية ، والفارسية ، واليونانية والرومانية ، والمصرية (٤٣٢ — ٤٣٥) دلالة هذه المكانة على رقي العرب (٤٣٥)

القسم الثاني

المرأة في الحياة الفنية

الباب الأول

المرأة المغنية

٤٦٥ - ٤٣٨

الغناء في الجاهلية (٤٣٨) علاقة الشعر بالغناء (٤٣٨ — ٤٤٢) غناء الإمام . النساء أليق بالغناء . القيانات محترفات بالغناء (٤٤٢ — ٤٤٥) جنسية القيان (٤٤٥) غناؤهن بالشعر (٤٤٦ — ٤٤٩) أثر غنائهن في النفوس (٤٤٩) جماهن وعشقهن (٤٥٢) أثرهن في الشعر (٤٥٥) هبة القيان (٤٥٧) أثر الغناء الأجنبي في العربي (٥٨) الآلات الموسيقية (٤٦٣) .

الباب الثاني

المرأة راوية للشعر وناقدة

٤٧٦ - ٤٦٦

روايتها للشعر (٤٦٦) نقدها للشعر (٤٦٨) زوايتها ونقدها في الإسلام (٤٧٢)

الباب الثالث

المرأة الشاعرة

٥٤٤ - ٤٧٧

قلة المروى من شعر النساء . تعليل ذلك (٤٧٧ — ٤٨٠) مراجع تحفل بشعرهن (٤٨٠) شعر منحول للنساء (٤٨١) .

فنون شعرها

الرثاء:

ملاءمته للمرأة (٤٨٤) طابع مرثي: الإشادة بفضائل المرنى على طريقة الرجال (٤٨٤ — ٤٨٧) نقص فى رثائهن (٤٨٨) تصويرهن للذلة والضعف (٤٤٨) كثرة حديثهن عن اللوعة والبكاء (٤٨٩) تعبيرات نسوية فى مرثيهن (٤٩٣) تدره الحكمة فيه (٤٩٣) كلمة عن الخنساء (٤٩٥) .

التحميس على القتال وعلى الثأر:

كثرة الحروب . شعر النساء فى الحروب . تحريضهن على رفض الدية . أثر شعرهن فى النفوس . إشادتهن بالثأرين . اشتفاؤهن بالثأر . موازنة بينهن وبين الشعراء (٤٩٧ — ٥٠٠)

الهجاء:

قيمة الهجاء فى الجاهلية (٥٠١) مشاركة النساء فيه (٥٠٢) ألوان من هجائهن . بين هجائهن فى الجاهلية والإسلام (٥٠٦) سمات هجائهن . تخلفهن فيه عن الرجال (٥٠٧) الفخر:

بماذا افتخرن ؟ (٥٠٨) خلو نعرهن من صفات الأنوثة (٥١٠) موازنة بين نعرهن ونعر الرجال (٥١٠ — ٥١٢)

المدح:

لماذا قل نصيبهن منه ؟ (٥١٢ — ٥١٤)

الحنين الى الوطن:

حب العرب لوطنهم (٥١٤) حنين المرأة الغريبة الى وطنها ٥١٥ . حنينها الى الإسلام (٥١٦) . الغزل:

حفاوة الشعراء بالغزل (٥١٧) كتاب المرأة (٥١٨) صورته من غزلهن (٥٢١) البوح بالحب (٥٢١) الشوق الى الحبيب (٥٢٢) السخط على الغادر (٥٢٣) الحنين الى الوطن الذى فيه الحبيب (٥٢٣) غزلهن فى الإسلام (٥٢٣)

٥٤٤-٥٢٦

خصائص شعرهن

الفن الذى برعن فيه . الفنون التى تخلفن فيها (٥٢٦) وحدة الموضوع (٥٢٦) قصر قصائدهن (٥٢٧) السر فى هذا القصر (٥٢٨) فى شعرهن صور وتعبيرات نسوية (٥٢٨) ألين شعرهن (٥٢٩) كثرة الترصيع فيه . موازنة بينهن وبين الرجال (٥٣٠ — ٥٣٥)

الإقواء في شعرهن (٥٣٥) اصطباغ شعرهن بطابع الذكورة. تعليل ذلك
(٥٣٦ - ٥٤٤).

٥٤٨ - ٥٤٥	الجديد في البحث
٥٤٩ - ٥٤٨	اقتراحات
٥٧٣ - ٥٥٠	المراجع

كتب مطبوعة للمؤلف

- ١ - وحي النسيب في شعر شوقي
- ٢ - فن الخطابة
- ٣ - مع ابن خلدون
- ٤ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي
- ٥ - الغزل في الشعر الجاهلي
- ٦ - المرأة في الشعر الجاهلي
- ٧ - وظيفته شوقي (تحت الطبع)
- ٨ - سوسن (قصة مصرية) . (تحت الطبع)

DATE DUE



الحولى، احمد محمد
المرأة في الشعر الجاهلي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01024002

396

H 88.m.A

